



سازمان اسناد و کتابخانه ملی جمهوری اسلامی ایران

اداره اسناد و کتابخانه ملی جمهوری اسلامی ایران

مرکز تحقیقات و پژوهش

کتاب

صنایع دستی
ایران

فصلنامه علمی-پژوهشی

تأسیس: ۱۳۸۶ هجری قمری

۱۳۸۶ - ۱۳۸۷

دوره ۱۳۸۶

طبعة الثالثة

کتابخانه ملی ایران

(۱۳۸۶ - ۱۳۸۷)

کتاب
صبح الایمان
فی صیغۃ الانشا



کتابخانه و اسناد ملی جمهوری اسلامی ایران

الإدارة المركزية للمراكز العلمية

مركز تحقيق التراث

کتاب

صُحُحُ الْأَعْشَى

فِي ضَبْطِ بَعْثِ الْإِنْشَاءِ

لأبي العباس أحمد بن علي الفلقشندی

ت ٨٢١ هـ - ١٤١٨ م

الجزء الرابع عشر

الطبعة الثالثة

مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة

(١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م)

الهيئة العامة
لدار الكتب والوثائق القومية

رئيس مجلس الإدارة

أ.د. محمد صابر عرب

القلقشندي، أحمد بن علي بن أحمد الفزاري ١٣٥٥ - ١٤١٨ .
صيح الأعشى فى صناعة الإنشا/ تأليف أبو العباس
أحمد بن علي القلقشندي. ط ٣. - القاهرة: دار الكتب
والوثائق القومية، الإدارة المركزية للمراكز العلمية، مركز
تحقيق التراث، 2010-

مج ١٤ ؛ 29 سم.

يشتمل على إرجاعات ببليوجرافية.

تدمك 7 - 0727 - 18 - 977

١ - الإنشاء الأدبي (أدب عربي)

٢ - البلاغة العربية

أ - العنوان

٨١٠, ٨٠٢٣

إخراج وطباعة:

مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة.

لا يجوز استنساخ أى جزء من هذا الكتاب بأى
طريقة كانت إلا بعد الحصول على تصريح كتابي
من الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

www.darelkotob.gov.eg

رقم الإيداع بدار الكتب ٩٧٨١/٢٠١٠

I.S.B.N. 977 - 18 - 0727 - 7

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلی اللہ وسلم علی سیدنا محمد وآلہ وصحبہ

الباب الرابع

من المقالة التاسعة

(في الهدن الواقعة بين ملوك الإسلام وملوك الكفر، وفيه فصلان)

الفصل الأول

في أصول تتعين على الكاتب معرفتها، وفيه ثلاثة أطراف

الطرف الأول

(في بيان رتبها ومعناها، وذكر ما يرادفها من الألفاظ)

أما رُتَبُهَا فإنها متأنرة - عند قُوَّة السُلطان - عن عَقْدِ الحِزْبِيَّةِ : لأن في الحِزْبِيَّةِ ما يدلُّ على ضَعْفِ المعقود له، وفي الهدنة ما يدلُّ على قُوَّتِهِ .

وأما معناها فالمُهادنة في اللُّغة المُصالحة، يقال : هَادَنَهُ يُهَادِنُهُ مُهادِنَةً إذا صالحه والأسمُ الهُدنة . وهي إما من هَدَنَ بفتح الدال يَهْدُن بضمها هُدُونًا إذا سكن، ومنه قولهم : « هُدْنَةً عَلَى دَخْنٍ » . أى سُكُونٌ عَلَى غَلٍّ ، أو تكون قد سميت بذلك لما يوجد من تأخير الحرب بسببها .

(١) أى من باب قتل كما في المصباح وبه ضبط بالقلم في نسخة خطية من الصحاح ولكن ضبطه في الناموس واللسان وكذا المحكم بالقلم فيقيد أنه من باب ضرب، قلل فيه لفتين .

(٢) هذا هو أحد شق التفصيل . أى الهدنة إما من الهدون بمعنى السكون أو من الهدون بمعنى التريث والتأخير .

ويرادفها ألفاظ أخرى :

أحدها — المُوَادَعَة، ومعناها المصالحة أيضا، أَخَذًا من قولهم : عليك بالمودع يريدون بالسكينة والوقار، فتكون راجعة إلى معنى السكون . وإما أَخَذًا من توديع الثوب ونحوه : وهو جعله في صِوَان يَصُونُهُ، لأنه بها تحصل الصيانة عن القتال . وإما أَخَذًا من الدعة : وهى الخفض والهناء ، لأن بسببها تحصل الراحة من تعب الحرب وكلفه .

الثانى — المُسَالَمَة ومعناها ظاهرٌ : لأن وقوعها يَسْلِمُ كُلُّ من أهل الجانبين من الآخر .

الثالث — المُقَاضَاة، ومعناها [المُحَاكَمَةُ مُفَاعَلَةٌ من الْقَضَاءِ بمعنى الفصل والحكم] .

الرابع — المُوَاصَفَة، سُمِّيَتْ بذلك لأن الكاتب يَصِفُ ما وقع عليه الصلح من الجانبين . على أن الكُتَّابَ يُخْصِصُونَ لَفْظَ المِوَاصَفَةِ بما إذا كانت المهادنة من الجانبين، ولا شك أن ذلك جارٍ في لَفْظِ المُوَادَعَةِ والمُسَالَمَةِ والمُقَاضَاةِ أيضًا : لأن المفاعلة لا تكون إلا بين اثنين إلا في ألفاظ قليلة مَحْفُوظَةٌ، على ما هو مقرر في علم العربية .

أما لَفْظُ الهُدْنَةِ فإنه يَصْدُقُ أن يكونَ من جانب واحد، بأن يَعْقِدَ الأعلى الهدنة لمن هو دونه . على أنها عند التحقيق ترجع إلى معنى المفاعلة، إذ لا تصور إلا من اثنين .

وأما في الشرع فعبارة عن صلح يقع بين زعيمين في زمن معلوم بشروط مخصوصة، على ما سيأتى بيانه فيما بعد، إن شاء الله تعالى .

والأصل فيها أن تكون بين ملكين مسلم وكافر، أو بين اثنين، أو بين أحدهما ونائب الآخر . وعلى ذلك رتب الفقهاء رحمهم الله باب الهدنة في كتبهم . قال صاحب

”موادّ البيان“ . وقد يتعاقد عظماء أهل الإسلام على التّوابع والسّالم وأعتقاد المودّة والتّصافي، والتّوازر والتّعاون، والتّعاضد والتّناصر، ويشترط الأضعف منهم للأقوى تسليم بعض ما في يده والتّفادي عنه بمحافظته والأقياد إلى أتباعه، والطاعة والاحترام في المخاطبة، والمجاملة في المعاملة، أو الإمداد بجيش، أو امتثال الأوامر والنواهي وغيرها مما لا يُحصى .

قلت : وقد يكون المالكين متساويين في الرتبة أو متقاربين ، فيقع التّعاضد بينهما على المساواة والمصافاة، والموازرة والمعاونة، وكفّ الأذية والإضرار وما في معنى ذلك، دون أن يلتزم أحدهما للآخر شيئاً يقوم به أو إناوة بمجملها إليه ؛ ولكلّ مقام مآل، والكتائب الماسرة يوفّي كلّ مقام حقه، ويُعطى كلّ فصل من الفصول مستحقّه .

الطرف الثاني

(في أصل وضعها)

أما مهادنة أهل الكفر فالأصل فيها قوله تعالى : ﴿ فَيَسْجُوعُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةً أَشْهُرًا ﴾ الآية، وقوله : ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا ﴾ .

وما ثبت في صحيح البخاريّ من حديث عروة بن الزبير رضي الله عنه : « أَنْ قُرَيْشًا وَجَّهَتْ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ بِالْحُدَيْبِيَّةِ حِينَ « صَدَّه قُرَيْشٌ عَنِ الْبَيْتِ - سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو ، فَقَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : هَاتِ [أَكْتُبْ] بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ كِتَابًا ، فَدَعَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « الْكَاتِبَ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَكْتُبْ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ »

«الرحيم». فقال سُهَيْلٌ: أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو؟ ولكن أكتبُ»
 «بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ كما كُنْتَ تَكْتُبُ. فقال المسلمون: والله لا نكتبُ إِلَّا»
 «بِسْمِ اللَّهِ الرحمن الرحيم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أكتبُ:»
 «بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ - ثم قال: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله - فقال سُهَيْلٌ:»
 «وَاللَّهِ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ مَا صَدَدْنَاكَ عَنِ الْبَيْتِ وَلَا نَاتَلْنَاكَ؛»
 «ولكن أكتب محمد بن عبد الله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: وَاللَّهِ»
 «إِنِّي لِرَسُولِ اللَّهِ وَإِنْ كَذَّبْتُونِي، أكتبُ محمد بن عبد الله، ثم قال النبي»
 «صلى الله عليه وسلم: على أن تُخْلُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْبَيْتِ فَطُوفُ بِهِ - فقال»
 «سُهَيْلٌ: وَاللَّهِ لَا تَخْذُلُ الْعَرَبُ أَنَا قَدْ أَخَذْنَا ضُغْطَةً، ولكن ذلك من»
 «الْعَامِ الْمُقْبِلِ، فكتب - قال سُهَيْلٌ: وعلى أنه لا يأتيك منا رجلٌ»
 «وإن كان على دينك إِلَّا رَدَدْتَهُ إِلَيْنَا - قال المسلمون: سُبْحَانَ اللَّهِ!»
 «كيف يردُّ إلى المشركين وقد جاء مسلماً! فبينما هم كذلك، إذ جاء»
 «أَبُو جَنْدَلٍ يَرْسُفُ فِي قَبْرِهِ، وقد خَرَجَ مِنْ مَكَّةَ حَتَّى رَمَى بِنَفْسِهِ بَيْنَ»
 «أَظْهُرِ الْمُسْلِمِينَ - فقال سُهَيْلٌ: هذا يا محمد أَوَّلُ مَا أَقْضَيْكَ عَلَيْهِ أَنْ»
 «تَرُدَّهُ إِلَيَّ - فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إِنَّا لَمْ نَقْبِضِ الْكِتَابَ بَعْدُ -»
 «قال: فوالله [إِذَا] لَا أَصَاحُكَ عَلَى شَيْءٍ أَبَدًا - قال النبي صلى الله»
 «عليه وسلم: فَأَجِزْهُ لِي - قال: ما أَنَا بِمُجِيزِهِ لَكَ - قال بلن فافعل -!»

« قال : ما أنا بفاعِلٍ . قال مِكرَزُ بْنُ حَفْصٍ : بلى قد أجزأه لك . قال »
 « أبو جندبٍ : أى معشرَ المسلمين : أُرِدُّ إلى المشركين وقد جئتُ مُسْلِماً ؟ »
 « ألا ترونَ ما قد لَقِيتُ ؟ وكان قد عَذَّبَ عذاباً شديداً فى الله تعالى . »
 « قال عمرُ بن الخطَّابِ : فأُتِيتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فقلتُ :
 « ألسْتَ نَبِيَّ اللهِ حَقًّا ؟ قال بلى ! قلتُ : ألسْنَا على الحقِّ وعدُّونا على
 « الباطلِ ؟ قال بلى ! قلتُ : فلم تُعْطِ الدِّينِيَّةَ فى ديننا إذا ؟ قال : إناى
 « رسولُ الله ولستُ أعصيه وهوناً صِرَى » .

قلت : هذا ما أورده البخارى فى حديث طَوِيلٍ ^(١) . والذى أورده أصحابُ
 السِّيرِ أن الكاتِبَ كان على بن أبى طالب ، وأن نُسخةَ الكتابِ :
 « هذا ما قاضى عليه محمدُ بن عبدِ اللهِ سَهيلُ بن عمرو على وَضْعِ الحَرْبِ »
 « عن الناسِ عَشْرَ سنين ، وأنه من أَحَبِّ أن يدخلَ فى عَقْدِ محمدٍ
 « وعَهْدِهِ دخلَ فيه ، ومن أَحَبِّ أن يدخلَ فى عَقْدِ قُرَيْشٍ وعَهْدِهِمْ
 « دخلَ فيه » .

وأشهد فى الكتابِ على الصُّلَحِ رجالاً من المسلمين والمشركين .

(١) ذكر هذا الحديث بتمامه فى كتاب الصلح وهو فى ج ٤ من " ارشاد السارى " للتفطن لى رحمه كان

الطرف الثالث

(فيا يجب على الكاتب مراعاته في كتابة الهدن)

قال في "مواد البيان": وهذا الفن من الكتابات له من الدولة محل خطير، ومن المملكة موضع كبير، ويتعين على الكاتب أن يحلّ له فكره، ويعمل فيه نظره، ويتوقّر عليه توقراً يحكم مبادئه، ويهدّب معانيه .
والذى يلزم الكاتب في ذلك نوعان :

النوع الأول

(ما يختص بكتابة الهدنة بين أهل الإسلام وأهل الكفر)

وهي الشروط الشرعية المعتمدة في صحة العقد، بحيث لا يصح عقد الهدنة مع إهمال شيء منها . وهي أربعة شروط :

الأول — في العاقد . ويختلف الحال فيه باختلاف المعقود عليه: فإن كان المعقود عليه إقليماً: كالهند والروم ونحوهما، أو مهادة الكفار مطلقاً، فلا يصح العقد فيه إلا من الإمام الأعظم أو من نائبه العام المفوض إليه التحدث في جميع أمور المملكة . وإن كان على بعض القرى والأطراف، فلا حد الولاء المجاورين لهم عقد الصّاح معهم .
الثاني — أن يكون في ذلك مصلحة للمسلمين : بأن يكون في المسلمين ضعف أو في المال قلة، أو توقع إسلامهم بسبب اختلاطهم بالمسلمين، أو طمع في قبولهم الجزية من غير قتال وإنفاق مال . فإن لم تكن مصلحة فلا يهادنون بل يقاتلون حتى يسلموا أو يؤدوا الجزية إن كانوا من أهلها .

الثالث — أن لا يكون في العقد شرط يأباه الإسلام : كما لو شرط أن يترك بأيديهم مال مسلم، أو أن يرّد عليهم أسير مسلم أنفلت منهم، أو شرط لهم على المسلمين

مَالٌ مِنْ غَيْرِ خَوْفٍ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، أَوْ شُرْطَ رَدِّ مُسْلِمَةٍ إِلَيْهِمْ، فَلَا يَصِحُّ الْعَقْدُ مَعَ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، بِخِلَافِ مَا لَوْ شُرْطَ رَدُّ الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ أَوْ الْمَرْأَةِ الْكَافِرَةِ فَإِنَّهُ لَا يَمْنَعُ الصَّحَّةَ. قَالَ الْغَزَالِيُّ : وَقَدْ جَرَتْ الْعَادَةُ أَنْ يَقُولَ : ^(١) عَلَى أَنْ مَنْ جَاءَكُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ رَدَّدْتُمُوهُ، وَمَنْ جَاءَنَا مُسْلِمًا رَدَّدْنَاهُ . فَإِنْ كَانَ فِي الْمُسْلِمِينَ ضَعْفٌ وَخِيفَ عَلَيْهِمْ، جَازَ أَنْ تَرْتَأَمَ الْمَسَالِلَ لَهُمْ دَفْعًا لِلشَّرِّ، كَمَا يَحُوزُ فَكُّ الْأَسِيرِ الْمُسْلِمِ إِذَا عَجَزْنَا عَنْ أَنْتَرَاعِهِ .

الرابع — أَنْ لَا تَزِيدَ مَدَّةُ الْهُدْنَةِ عَنْ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ عِنْدَ قُوَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَأَمْنِهِمْ، وَلَا يَحُوزُ أَنْ تَبْلُغَ مَسْنَةً بِحَالٍ، وَفِيهَا دُونَ سَنَةٍ وَفَوْقَ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ قَوْلَانِ لِلشَّافِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَحْمَهُمَا أَنَّهُ لَا يَحُوزُ. أَمَّا إِذَا كَانَ فِي الْمُسْلِمِينَ ضَعْفٌ وَهَنًا، فَخَوْفٌ، فَإِنَّهُ يَحُوزُ الْمَهَادَنَةَ إِلَى عَشْرِ سِنِينَ ؛ فَقَدْ هَادَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَهْلَ مَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ كَمَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ . وَلَا تَحُوزُ الزِّيَادَةُ عَلَيْهَا عَلَى الصَّحِيحِ، وَفِي وَجْهِ تَحُوزُ الزِّيَادَةَ عَلَى ذَلِكَ لِلصَّلَاحَةِ . فَلَوْ أُطْلِقَ الْمُدَّةُ فَالصَّحِيحُ مِنْ مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ أَنَّهَا فَاسِدَةٌ، وَقِيلَ : إِنْ كَانَتْ فِي حَالِ ضَعْفِ الْمُسْلِمِينَ حُمِلَتْ عَلَى عَشْرِ سِنِينَ، وَإِنْ كَانَتْ فِي حَالِ الْقُدْرَةِ : فَقَدْ قِيلَ تَحْمِلُ عَلَى الْأَقْلِ : وَهُوَ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ، وَقِيلَ عَلَى الْأَكْثَرِ : وَهُوَ مَا يَقَارِبُ السَّنَةَ . وَلَوْ صَرَّحَ بِالزِّيَادَةِ عَلَى مَا يَحُوزُ عَقْدُ الْهُدْنَةِ عَلَيْهِ : فَإِنْ زَادَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فِي حَالِ الْقُوَّةِ أَوْ عَلَى عَشْرِ سِنِينَ فِي حَالِ الضَّعْفِ صَحَّ فِي الْمُدَّةِ الْمُعْتَبَرَةِ وَيَطُلُّ فِي الزَّائِدِ . فَإِنْ أَحْتِجَّ إِلَى الزِّيَادَةِ عَلَى الْعَشْرِ، عَقِدَ عَلَى عَشْرِ ثَمَّ عَشْرِ ثَمَّ عَشْرِ قَبْلَ تَقْضَى الْأَوَّلَى، قَالَهُ الْقَوَارِئُ وَغَيْرُهُ مِنْ أَصْحَابِنَا الشَّافِعِيَّةِ . وَذَهَبَ أَصْحَابُ مَالِكٍ رَحِمَهُمُ اللَّهُ إِلَى أَنْ مُلْتَمَتَهَا غَيْرُ مُحَدَدَةٍ، بَلْ يَكُونُ مَوْكُولًا إِلَى أَجْتِهَادِ الْإِمَامِ وَرَأْيِهِ .

(١) بَيَاضٌ فِي الْأَمَلِ بِقَدْرِ كَلِمَةِ وَلَعَلَّ « تَهَادَنَكُمْ عَلَى الْخِ » .

النوع الثاني

(ماشترك فيه الهدن الواقعة بين أهل الكفر والإسلام، وعقود الصلح
الجارية بين زعماء المسلمين، وهى ضربان)

الضرب الأول

(الشروط العادية التى جرت العادة أن يقع الاتفاق عليها بين
الملوك فى كتابة الهدن خلا ما تقدم)

وليس لها حدٌ يحصرها، ولا ضابطٌ يضبطها، بل بحسب ما تدعو الضرورة إليه
فى تلك الهدنة بحسب الحال الواقع .

فمن ذلك — أن يشترط عليه أن يكون لوليّه موالياً، ولعدوّه مُعادياً، ولمُسالميه
مُسالمياً، ولجُاريه مُجارباً، ولا يُواطىء عليه عدوّاً، ولا يوقع عليه صلحاً، ولا يُوافق
على ما يقدح فى أمره، ولا يقبل سؤال سائل، ولا يذلّ باذل، ولا رسالة مُراسل
مما يخالف الاتفاق الجارى، والأخذ على يد من سعى فى نقض الصلح ونكث
العهد إن كان من أهل طاعته، والمقاتلة إن كان من المخالفين له، وأنه إذا جنى
من أهل ملكتهم جاني كان عليه إحضاره أو الأخذ منه بالجناية .

ومن ذلك — أن يشترط عليه أن يكف عن بلاده وأعماله، ومُتطرف ثغوره،
وشاسع نواحيه — أيدى الداخلين فى جماعته، والمنضمين إلى حوزته، ولا يُجهز لها
جيشاً، ولا يحاول لها غزواً، ولا يبدأ أهلها بمنازعة، ولا يشرع لهم فى مُقارعة،
ولا يتناوبهم بمكيدة ظاهرة ولا باطنة، ولا يعاملهم بأذية جليّة ولا خفيّة،
ولا يطلق لأحد من ينوب عنه فى إمارة جيشه، ومن ينسب إلى جملته، ويتصرف

على إرادته - عنّا إلى شيء من ذلك بوجه من الوجوه، ولا سبب من الأسباب، وأن لا يتجاوز حدود مملكته إلى المملكة الأخرى بنفسه ولا بسنّ من عساكره .

ومن ذلك - أن يشترط عليه أن يفرج عن هوى حوزته من أحاطت به ربة الأتير، ويمكّنهم من المسير إلى بلادهم: بأنفسهم وخدمهم وعايهم وأتباعهم، وأصناف أموالهم، في أتم حراسة، وأكمل خفارة، دون كلفة ولا مشونة تلحقهم على إطلاقهم، ونحو ذلك .

ومن ذلك - أن يشترط عليه ما لا يحلّ إليه في كل سنة، أو أن يسلم إليه ما يختاره: من حصون وقلاع وأطراف وسواحل ما وقع الاستيلاء عليه من بلاد المسلمين، أو أحبّ أترآعه أو استضافته من بلاد من يئدنه من ملوك الكفر؛ وأن يبقى من بها من أهلها، ويقرّهم فيها بجرمهم وأولادهم ومواشيهم وأزوادهم وسلاحهم وآلاتهم، دون أن يلمس عن ذلك أو عن شيء منه مالا، أو يطلب عنه بدلا، وما يخرط في هذا السلك .

ومن ذلك - أن يشترط عليه عدم التعرض لتجار مملكته، والمسافرين من رعيته، برا وبحرا بنوع من أنواع الأذية والإضرار، في أنفسهم ولا في أموالهم، وللجوارين للبحر عدم ركوب المراكب الحربية التي لا يعتاد التجار ركوب مثلها .

ومن ذلك - أن يشترط عليه إمضاء ما وقعت عليه المعاهدة، وأن لا يرجع عن ذلك ولا عن شيء منه، ولا يؤثر شيئا عن الوقت الذي (١)

ومن ذلك - أن يشترط عليه أنه إذا بقي من مدة الهدنة مدة قريبة مما يحتاج إلى التقي فيه، أن يعلمه بما يريد من مهادنة أو غيرها .

ومن ذلك — أن يشترط عليه أنه إذا أُنقضى أمدُّ الهدنة على أحد من الطائفتين وهو في بلاد الآخرين، أن يكون له الأمان حتى يلحق مأمته .

ومن ذلك — أن يشترط ما لا يحمله إليه في الحال أو في كل سنة ، أو حصوناً ، أو بلاداً يُسلمها من بلاده ، أو مما يوجب عليه من بلاد مُهادنه ، إلى غير ذلك من الأمور التي يجري عليها الاتفاق مما لا تحصى كثرة .

الضرب الثاني

(مما يلزم الكاتب في كتابة الهدنة — تحرير أوضاعها ، وترتيب

قوانينها ، وإحكام معاقدها)

وذلك باعتماد أمور :

منها — أن يكتب الهدنة فيما يناسب الملك الذي تجرى الهدنة بينه وبين ملكه .
ولم أر من تعرض في الهدن لمقدار قطع الورق وإن كثرت كتابتها في الزمن المتقدم بين ملوك الديار المصرية وبين ملوك الفرنج ، كما سيأتي ذكره فيما بعد إن شاء الله تعالى .
والذي ينبغي أن يراعى في ذلك مقدار قطع الورق الذي يكتب فيه الملك الذي تقع الهدنة معه : من قطع العادة أو الثلث أو النصف .

ومنها — أن يأتي في ابتدائها براءة الاستهلال : إما بذكر تحسين موقع الصلح والندب إليه ويمن عاقبته ، أو بذكر السلطان الذي تصدر عنه الهدنة ، أو السلطانين المتهادين ، أو الأمر الذي ترتب عليه الصلح ، وما يجري هذا المجرى مما يقتضيه الحال ويستوجب المقام .

ومنها — أن يأتي بعد التصدير بمقدمة يذكر فيها السبب الذي أوجب الهدنة ودعا إلى قبول المودة .

فإن كانت الهدنة مع أهل الكفر، أحتج للإجابة إليها بالائتمار بأمر القرآن والالتقياد إليه، حيث أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالمطوعة على الصلح والإجابة إلى السلم بقوله: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾. وما وردت به السنة من مصالحة صلى الله عليه وسلم قريشاً عام الحديبية، وذكر ما سنع له من آيات الصلح وأحاديثه، وما جرى عليه الخلفاء الراشدون من بعده، وكفهم عن القتال وقوفاً عند ما حد لهم. وأنه لولا ذلك لشرعوا الأسنة إلى محالفيهم في الدين، وركضوا الحياة إلى جهاد من يلهم من الملحدين.

وإن كان الصلح بين مسلمين أحتج بتخوفه تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾. وبأحاديث التحذير من تقاتل المسلمين كقوله صلى الله عليه وسلم: «إِذَا آتَى الْمُسْلِمَانِ بَسِيفَتَيْمَا فَقَتَلَ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ» وما يجرى هذا التجري.

ومنها - أن يراعى المقام في تجليل المتهاذين أو أحدهما بحسب ما يقتضيه الحال؛ ووصف كل واحد منهما بما يليق به: من التعظيم، أو التوسيط، أو انحطاط الرتبة بحسب المقام، ويجرى على حسب ذلك في الشدة واللين.

فإن كانت الهدنة بين متكافئين سوى بينهما في التعظيم، وجرى بهما في الشدة واللين على حد واحد، إلا أن يكون أحدهما أسن من الآخر، فيراعى للأسن ما يجب له على الحديث من التأديب معه، ويراعى للحديث ما يجب له على الكبير من الحنو والشفقة.

وإن كانت الهدنة من قوى لضعيف، أخذ في الاستعداد، أتيا بما يدل على علو الكلمة، وأنساب القدرة، وحصول النصرة، وأستكمال العدد، وظهور الأيد،

وَوُفُورِ الْجُنْدِ ، وَقُصُورِ الْمُلُوكِ عَنِ الْمُطَاوَلَةِ ، وَتَجَزُّيهِمْ عَنِ الْحَاوَلَةِ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يَنْغُرُطُ فِي هَذَا السَّلَكِ ، لَا سِيَّامًا إِذَا كَانَ الْقَوِيُّ مُسْلِمًا وَالضَّعِيفُ كَافِرًا ، فَإِنَّهُ يَجِبُ الْإِزْدِيَادُ مِنْ ذَلِكَ ، وَذِكْرُ مَا لِلْإِسْلَامِ مِنَ الْعِزَّةِ ، وَمَا تَوَالَى لَهُ مِنَ النُّصْرَةِ ، وَذِكْرُ الْوَقَائِعِ الَّتِي كَانَتْ فِيهَا نُصْرَةُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْكُفَّارِ فِي الْمَوَاطِنِ الْمَشْهُورَةِ ، وَالْأَمَاكِنِ الْمَعْرُوفَةِ ، وَمَا فِي مَعْنَى ذَلِكَ .

وَأِنْ كَانَتِ الْهُدْنَةُ مِنْ ضَعِيفٍ لِقَوِيٍّ ، أَخَذَ فِي الْمَلَايَنَةِ بِحَسَبِ مَا يَقْتَضِيهِ الْحَالُ ، مَعَ إِظْهَارِ الْجَلَادَةِ ، وَتَمَاسِكِ الْقُوَّةِ ، خُصُوصًا إِذَا كَانَ الْقَوِيُّ الْمَقْهُودُ مَعَ الْهُدْنَةِ كَافِرًا . وَإِنْ شَرَطَ لَهُ مَالًا عِنْدَ ضَعْفِ الْمُسْلِمِينَ لِلضَّرُورَةِ أَتَى فِي كَلَامِهِ بِمَا يَقْتَضِي أَنَّ ذَلِكَ رَغْبَةٌ فِي الصُّلْحِ الْمَأمُورِ بِهِ ، لَا عَنْ خَوَرٍ طَبَاجٍ وَضَعْفِ قُوَّةٍ ، إِذَ اللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَمِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ .

ومنها - أَنْ يَحْفَظَ مَنْ سَقَطَ يَدْخُلُ عَلَى الشَّرِيعَةِ نَقِصَةً ، إِنْ كَانَتِ الْمَهَادَنَةُ مَعَ أَهْلِ الْكُفْرِ ، أَوْ يَجْرُ إِلَى سُلْطَانِهِ وَهَيْبَةٍ ، إِنْ كَانَتْ بَيْنَ مُسْلِمَيْنِ ، وَيَتَحَدَّرُ كُلُّ الْحَدَرِ مِنْ خَلِيلٍ يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ : مِنْ إِهْمَالِ شَيْءٍ مِنَ الشُّرُوطِ ، أَوْ ذِكْرِ شَرْطٍ فِيهِ خَلَلٌ عَلَى الْإِسْلَامِ أَوْ ضَرَرٌّ عَلَى السُّلْطَانِ ، أَوْ ذِكْرِ لَفِظٍ مُشْتَرَكٍ أَوْ مَعْنَى مُتَنَبِّسٍ يُوقِعُ شُبْهَةً تُوجِبُ السَّبِيلَ إِلَى التَّأْوِيلِ ، وَأَنْ يَأْخُذَ الْمَأْخُذَ الْوَاضِعَ الَّذِي لَا تَتَوَجَّهُ عَلَيْهِ مُعَارَضُهُ ، وَلَا تَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ مُنَاقَضُهُ ، وَلَا يَدْخُلُهُ تَأْوِيلٌ .

ومنها - أَنْ يُبَيِّنَ أَنَّ الْهُدْنَةَ وَقَعَتْ بَعْدَ اسْتِخَارَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَرْوِيَةِ النَّظَرِ فِي ذَلِكَ وَظُهُورِ الْخَيْرِ فِيهِ ، وَمُشَاوَرَةِ ذَوِي الرَّأْيِ وَأَهْلِ الْحِجَى ، وَمُوَاقِفَتِهِمْ عَلَى ذَلِكَ .

ومنها - أَنْ يُبَيِّنَ مَدَّةَ الْهُدْنَةِ . فَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ الصَّحِيحَ مِنْ مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ أَنَّهُ إِذَا لَمْ تُبَيَّنْ الْمَدَّةُ فِي مَهَادَنَةِ أَهْلِ الْكُفْرِ فَسَدَتْ الْهُدْنَةُ .

قال في "التعريف": "وقد جرت العادة أن يحسبوا مدة سنين شمسية فيحرر حسابها بالقمرية. ويذكر سنين وأشهرًا وأيامًا وساعات حتى يستوفي السنين الشمسية المهادن عليها. أما في عقد الصلح بين مسلمين فإنه لا يشترط ذلك، بل ربما قالوا: إن ذلك صار لازماً للأبد، حتى في الولد وولد الولد."

ومنها - أن يبين أن الهدنة وقعت بين المملكين أنفسهما، أو بين نائبيهما، أو بين أحدهما ونائب الآخر، ويستوفي ما يجب لكل قسم منها.

فإن كانت بين المملكين أنفسهما بغير واسطة بين ذلك، ذكر ما أخذ عليهما من العهود والمواثيق، والأيمان الصادرة من كل منهما، وذكر ما وقع من الإشهاد بذلك عليهما، وما جرى من ثبوت حكمه إن جرى فيه ثبوت ونحو ذلك.

وإن كانت بين المكتوب عنه ونائب الآخر، بين ذلك، وتعرض إلى المستند في ذلك: من حضور كتاب من الملك الغائب بتفويض الأمر في ذلك إلى نائبيه، وأنه وصل على يده أو يد غيره، والإشارة إلى أنه معنون بعنوانه، مختم بختمه المتعارف عنه أو وكالة عنه. ويتعرض إلى قيام البينة بها وثبوتها بحاجس الحكم ونحو ذلك من المستندات.

وإن كانت بين نائبين، بين ذلك وذكر مستند كل نائب منهما على ما تقدم ذكره. ويتعرض إلى أن النائب في ذلك قام فيه باختياره وطواعيته، لاعتباره ولا إجبار، ولا قسراً ولا غلبة، بل لما رأى لنفسه ولتسديده في ذلك من المصلحة والحظ. وأن كتاب الهدنة قرئ عليه وبين له فضلاً فضلاً، وترجم له بموافق به، إن كان لا يعرف العربية ونحو ذلك.

ومنها - أن يتعرض إلى ما يجرى من التحليف في آخرها: على الوفاء، وعدم النكث والإخلال بشيء من الشروط، أو الخروج عن شيء من الالتزامات،

أَوْ مُحَاوَلَةِ التَّوْبِيلِ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، أَوْ السَّعْيِ فِي تَقْضِيهِ أَوْ فِي شَيْءٍ مِنْهُ ،
وَمَا فِي مَعْنَى ذَلِكَ :

فَإِنْ كَانَتْ بَيْنَ مَلَائِكَةٍ ، تَعْرِضُ إِلَى تَحْلِيفِ كُلِّ مِنْهُمَا عَلَى التَّوْفِيقِ بِذَلِكَ .

وَإِنْ كَانَتْ بَيْنَ أَحَدِهِمَا وَنَائِبِ الْآخَرِ ، حُلْفَ الْمَلِكِ كَمَا تَقْدَمُ ، وَسَمَاتِي صُورَةَ
الْحَلْفِ الَّذِي يَقَعُ فِي الْهُدْنِ فِي الْكَلَامِ عَلَى الْإِيمَانِ ^(١) فِيمَا بَعْدُ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

وَمِنْهَا - أَنْ يُحَرَّرَ أَمْرَ التَّارِيخِ بِالْعَرَبِيِّ وَمَا يُؤَرِّخُ بِهِ فِي مَمْلَكَةِ الْمَلِكِ الْمُهَادِنِ : مِنْ
السُّرْيَانِيِّ وَالرُّومِيِّ وَغَيْرِهِمَا . قَالَ فِي "التَّعْرِيفِ" : وَلَهُمْ عَادَةٌ أَنْ يَحْسُبُوهَا مَدَّةَ
سِنِينَ شَمْسِيَّةٍ فَيُحَرَّرَ حَسَابُهَا بِالْقَمَرِيَّةِ ، وَيَذَكَّرُ سِنِينَ وَأَشْهُرًا وَأَيَّامًا وَسَاعَاتٍ حَتَّى
يَسْتَكْمِلَ السِّنِينَ الشَّمْسِيَّةَ الْمُهَادِنَ عَلَيْهَا . وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْكَلَامِ عَلَى التَّارِيخِ مِنْ
الْمَقَالَةِ الثَّلَاثَةِ كَيْفِيَّةَ مَعْرِفَةِ التَّوَارِيخِ وَاسْتِخْرَاجِهَا .

وَمِنْهَا - أَنْ يَقَعَ الْإِشْهَادُ عَلَى كُلِّ مِنَ الْمُتَعَاذِلِينَ بِذَلِكَ ، وَلَا بَأْسَ بِإثباتِ ذَلِكَ .
وَقَدْ بَرِحَتِ الْعَادَةُ أَنَّهُ يَشْهَدُ عَلَى كُلِّ مَلِكٍ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ دَوْلَتِهِ لِقَضَى عَلَى مَلِكِهِمْ
بِقَوْلِهِمْ وَإِنْ كَانَ مُخَالِفًا فِي الدِّينِ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ «أَشْهَدُ عَلَى مُصَالِحَتِهِ مَعَ قُرَيْشٍ رِجَالًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَرِجَالًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ» .
وَرَبَّمَا طَلَبَ النَّائِبُ عَنِ الْمَلِكِ الْغَائِبِ إِحْضَارَ نُسخَةِ مُهَادَنَةٍ مِنْ جِهَةِ مُسْتَبِيدِهِ
عَلَى مَا وَقَعَ بِهِ الْعَقْدُ ، مَشْهُولَةً بِخَطِّ الْكُتَّابِ ، مَشْهُودًا عَلَيْهِ فِيهَا بِأَهْلِ مَمْلَكَتِهِ ،
أَوْ مُجَهَّزًا إِلَيْهِ نُسْخَةً يَكْتُبُ عَلَيْهَا خَطَّهُ ، وَيَشْهَدُ عَلَيْهِ فِيهَا أَهْلُ مَمْلَكَتِهِ . وَالْغَائِبُ
الْأَكْثَفَاءُ بِالرُّسُلِ فِي ذَلِكَ .

(١) أَى الْإِيمَانِ الرَّاقِعَةِ فِي عَقُودِ الصَّلَاحِ ، وَإِلَّا فَالْإِيمَانُ بِأَنْوَاعِهَا تَقَدَّمَتْ فِي ج ١٣ .

الفصل الثاني

في صورة ما يُكْتَبُ في المهادنات والسجلات، ومذاهب
الكتاب في ذلك، وفيه طرفان

الطرف الأول

(فيما يَسْتَبْدُ ملوك الإسلام فيه بالكتابة عنهم - ويُحْلَدُ منه نُسخٌ بالأبواب
السلطانية ، وتُدْفَعُ منه نسخٌ إلى ملوك الكُفَر)
ثم ما يُكْتَبُ في ذلك على تَمَاطِين :

النمط الأول

(ما يُكْتَبُ في طَرِيقِ الهُدْنَةِ من أعلى الدَّرَجِ)

وقد جرت العادة أن يفتح بلفظ « هذا » أو لفظ « هذه » وما في معنى ذلك ،
مثل أن يكتب : « هذا عَقْدُ صُلْحٍ » أو « هذا كِتَابُ هُدْنَةٍ » أو « هذه مُوَادَعَةٌ »
أو « هذه مُوَاصَفَةٌ » وما أشبه ذلك . وربما حُذِفَ المبتدأ وهو « هذا » وأُكْتَفِيَ
بالحِجْرَةِ ، مثل أن يقال : « كِتَابُ هُدْنَةٍ » أو « كِتَابُ مُوَادَعَةٍ » أو « عَقْدُ مُصَالَحَةٍ »
وما أشبه ذلك .

وهذه نسخة بعقدِ صُلْحٍ أنشأها لِيُنَسَّجَ على مِنْوَالِهَا ، وهى :

هذا عَقْدُ صُلْحٍ أُنْظِمَتْ بِهِ عُقُودُ الْمَصَالِحِ ، وَأَنْتَقَسَتْ بِوَاسِطَتِهِ سُبُلُ الْمَنَاجِحِ ،
وَتَحَدَّثَ بِمُحْسِنِ مُقَدِّمَتِهِ الْغَادِي وَرَتَمَ بِمُحْسِنِ تَلَجِّجَتِهِ الرَّائِحِ . عَاقَدَ عَلَيْهِ السُّلْطَانُ فَلَانٌ
فَلَانًا الْقَائِمَ فِي عَقْدِ هَذَا الصُّلْحِ عَنْ مُرْسِلِهِ فَلَانٍ ، حَسَبَ مَا قُوضَ إِلَيْهِ الْأَمْرُ فِي ذَلِكَ
فِي كِتَابِهِ الْوَاصِلِ عَلَى يَدِهِ ، الْمُوَارَّخِ بِكَذَا وَكَذَا ، الْمُتَوَوَّنِ بِعُتْوَانِهِ ، الْمُخْتَوِمِ بِطَابَعِهِ

المُتَعَارِفَ عَنْهُ - عَلَى أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ كَذًّا وَكَذَا . وَيُشْرَحُ مُلَخَّصٌ مَا يَقَعُ مِنَ الشُّرُوطِ
الَّتِي يَقَعُ عَلَيْهَا الْإِتِّفَاقُ بَيْنَهُمَا فِي الصُّلْحِ إِلَى آخِرِهَا ، ثُمَّ يُقَالُ : عَلَى مَا شُرِّحَ فِيهِ .

الْمَطْرُ الشَّامِي

(مَا يُكْتَبُ فِي مَتْنِ الْهُدْنَةِ ، وَهُوَ عَلَى نَوْعَيْنِ)

النَّوْعُ الْأَوَّلُ

(مَا تَكُونُ الْهُدْنَةُ فِيهِ مِنْ جَانِبٍ وَاحِدٍ)

بأن يكون المملكان متكافئين ، [فَيَتَاقَدَانِ إِمَّا عَلَى حِصْنٍ ^(١)] وَإِمَّا عَلَى مَالٍ يُعْطِيهِ
الْمَلِكُ الْمَعْقُودُ لَهُ الْهُدْنَةُ لِمَاقِدِهَا ، كَمَا كَانَ يُكْتَبُ عَنْ صَاحِبِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ .
وَاللُّكَّابُ فِيهِ مَذْهَبَانِ :

الْمِذْهَبُ الْأَوَّلُ

(أَنْ تُفْتَتَحَ الْهُدْنَةُ بِلَفْظٍ : « هَذَا مَا هَادَنَ عَلَيْهِ »)

أَوْ « هَذِهِ هُدْنَةٌ أَوْ مُوَادَعَةٌ أَوْ مُوَاصَفَةٌ أَوْ سِلْمٌ أَوْ صُلْحٌ » أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ

عَلَى نَحْوِ مَا تَقْدَمُ فِي الْكَلَامِ عَلَى الطَّرَةِ)

وَعَلَى ذَلِكَ كُتِبَ كِتَابُ الْقَضِيَّةِ بَيْنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبَيْنَ قُرَيْشٍ عَامَ

الْحَدِيثِيَّةِ ، عَلَى مَا تَقْدَمُ ذَكَرَهُ فِي الْكَلَامِ عَلَى أَصْلِ مَشْرُوعِيَّتِهَا .

وهذه نسخة هُدْنَةٍ كُتِبَ بِهَا عَنْ سُلْطَانٍ قَوِيٍّ ، لِلْمَلِكِ الْمَضْعُوفِ ، بِاشْتِرَاطِ مَالٍ

يَقُومُ بِهِ الْمَضْعُوفُ لِلْقَوِيِّ فِي كُلِّ سَنَةٍ أَوْ حُصُونٍ يَسَلِّمُهَا لَهُ أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ ، وَهِيَ :

هَذَا مَا هَادَنَ عَلَيْهِ ، وَأَجَلَ إِلَيْهِ ، مَوْلَانَا السُّلْطَانُ فَلَانٌ - خَلَدَ اللَّهُ سُلْطَانَهُ

وَشَرَفَ بِهِ زَمَانَهُ - الْمَلِكُ فَلَانًا فَلَانِي . هَادَنَهُ حِينَ تَرَدَّدَتْ إِلَيْهِ رُسُلُهُ ، وَتَوَالَتْ عَلَيْهِ

كُتِبَ ، وَأَمَلَهُ ، لِيُحْيِيَهُ ؛ وَسَأَلَهُ ، لِيَكُفَّ عَنْهُ أَسَلَهُ ؛ حِينَ أَبَتْ صِقَاحُهُ أَنْ تَصْفَحَ ،
وَسَمَاءُ تَجَاجِهَ بِالْدماءِ إِلَّا أَنْ تَسْفَحَ ؛ فَرَأَى - سَدَّدَ اللَّهُ آرَاءَهُ - أَنْ الصُّلْحُ أَصْلَحَ ،
وَأَنْ مُعَامَلَةَ اللَّهِ أَرْبَحَ ؛ وَهَادَنَ هَذَا الْمَلِكُ (وَيُسَمِّيهِ) عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ ، وَوَلَدِهِ
وَنَسْلِهِ ؛ وَجَمِيعِ بِلَادِهِ ، وَكُلِّ طَائِفَةٍ وَتِلَادَةٍ ؛ وَمَالَهُ مِنْ مَلِكٍ وَمَالٍ ، وَجِهَاتٍ
وَأَعْمَالٍ ، وَعَسْكَرٍ وَجُنُودٍ ، وَجُمُوعٍ وَحُشُودٍ ؛ وَرَعَايَا فِي مَمْلَكَتِهِ مِنَ الْمُقِيمِ وَالطَّائِرِ ،
وَالسَّائِرِ بِهَا وَالسَّارِي - هُدْنَةً مُدَّتْهَا أَوَّلُ تَارِيخِ هَذِهِ السَّاعَةِ الرَّاهِنَةِ وَمَا يَتْلُوها ، مَدَّةً
كَذَا وَكَذَا مِنْ سِنِينَ وَأَشْهُرٍ وَسَاعَاتٍ ، يَحْمِلُ فِيهَا هَذَا الْمَلِكُ فَلَانٌ إِلَى بَيْتِ مَالِ
الْمُسْلِمِينَ ، وَإِلَى تَحْتِ يَدِ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ فَلَانٍ قَيْسِمٍ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ فِي هَذِهِ الْمَدَّةِ
كَذَا وَكَذَا - يَقُومُ بِهِ هَذَا الْمَلِكُ مِنْ مَالِهِ ، وَمِمَّا يَتَكَفَّلُ بِجَبَابَتِهِ مِنْ جَزِيَةِ أَهْلِ بِلَادِهِ
وَتَحْرَاجِ أَعْمَالِهِ ؛ عَلَى أَفْسَاطٍ كَذَا وَكَذَا - قِيَامًا لَا يُحْجُجُ مَعَهُ إِلَى تَكْثِيفِ مُطَالَبَةِ ،
وَلَا إِلَى تَنَاوُلِهِ بِيَدِ مُعَالِمِهِ .

عَلَى أَنْ يَكُفَّ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ عَنْهَ بَأْسَ بَأْسَاتِهِ ، وَخَيْلَهُ الْمُطَلَّةَ عَلَيْهِ فِي صَبَاحِهِ
وَسَائِنِهِ ؛ وَيَضُمُّ عَنْ بِلَادِهِ أَطْرَافَ جُنُودِهِ وَعَسَاكِرِهِ وَأَتْبَاعِهِمْ ، وَيُؤَمِّنُهُ مِنْ بَطَانِهِمْ
وَسِرَاعِهِمْ ، وَيَمْنَعُ عَنْ بِلَادِ هَذَا الْمَلِكِ الْمُتَابِعَةِ لِبِلَادِهِ ، وَالْمُزَاحِمَةِ لِدَوَاقِ أَمْدَادِهِ ،
وَيُرَدِّ عَنْهَا وَعَمَّنْ جَاوَرَهَا مِنْ بَقِيَّةِ مَا فِي مَمْلَكَتِهِ ، وَهِيَ كَذَا وَكَذَا أَيْدِي التَّهْبِ ،
وَيَكُفُّ الْغَارَاتِ وَيَمْنَعُ الْأَذَى ، وَيُرَدِّ مَنْ تَزَحَّ مِنْ رَعَايَا هَذَا الْمَلِكِ إِلَيْهِ ،
مَا لَمْ يَدْخُلْ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ وَيَشْهَدُ الشَّهَادَتَيْنِ ، وَيُقَرَّرُ بِالْكَلِمَتَيْنِ الْمُتَعَادَتَيْنِ ؛
وَيُؤَمِّنُ جَلَابَةَ هَذَا الْمَلِكِ وَتُجَارَةَ الْمُتَرَدِّدِينَ مِنْ بِلَادِهِ إِلَى بِلَادِ الْإِسْلَامِ فِي عَوَارِضِ
الْأَشْغَالِ ، وَلَا يَحْصَلُ عَلَيْهِمْ ضَرَرٌ فِي نَفْسٍ وَلَا مَالٍ ؛ وَإِنْ أَخَذَتِ الْمُتَجَرِّمَةُ مِنْهُمْ
مَالًا أَوْ قَتَلَتْ أَحَدًا ، أَمَرَ بِأَنْصَافِهِمْ مِنْ ذَلِكَ الْمُتَجَرِّمِ ، وَأَنْ يُؤَخَذَ بِحَقِّهِمْ مِنْ ذَلِكَ
الْمُجْرِمِ . وَعَلَيْهِ مِثْلُ ذَلِكَ فِيمَنْ يَدْخُلُ إِلَيْهِ مِنْ بِلَادِ الْإِسْلَامِ ، وَأَنْ لَا يَفْسَحَ لِنَفْسِهِ

ولا لأحد من جميع أهل بلاده في إيواء مُسْلِمٍ مُتَنَصِّرٍ، ولا يرخص لذي عَمَى منهم ولا مُتَبَصِّرٍ .

وأنه كلما وردت إليه كتب مولانا السلطان فلان أو كتب نوابه، أو أحد [من المتعلقين] ^(١) بأشبابه، يسارع إلى أمثاله والعمل به في وقته الحاضر ولا يؤخره ولا يؤجله، ولا يطرحه ولا يؤجله .

وعليه أن لا يكون عينا للكفار، على بلاد الإسلام، وإن دنت به أو بعدت الدار، ولا يواطئ على مولانا السلطان فلان أعداءه [وأولهم التتار] ^(٢) وأن يلتزم ما يلزمه من المسكنة بالمسكنه، ويفعل ما تسكت عنه به الأئمة وما أشبهها من الأئمة . وعليه أن ينهي ما يتجدد عنده من أخبار الأعداء ولو كانوا أهل ملته، ويُنَبِّه على سوء مقاصدهم، ويعرف ما يهيم سماعه من أحوال ما هم عليه .

هذه هذنة تم عليها الصلح إلى منتهى الأجل المعين فيه ما استمسك بشروطها، وقام بحقوقها، ووقف عند [حدّها الملتزم به] ^(٣)، وصرف إليها عتآن أجهتاده وبنى عليها قواعد وفائه، وصان من التكديف فيها سرائر صفائه، سال هر في هذه الهدنة المقررة، وأجابه مولانا السلطان إليها على شروطها المحذرة، وشهد به الحضور بالملكتين ونصمته هذه الهدنة المسطرة، وبالله التوفيق .

قلت: الظاهر أنه كان يكتب بهذه النسخة عن صاحب الديار المصرية والممالك الشامية، لمتلك سيس، فإن في خلال كلام المقر الشهابي بعد قوله: ولا يواطئ على مولانا السلطان فلان أعداءه: «وأولهم التتار»، وقد تقدم في الكلام على الممالك

(١) الزيادة من التعريف (ص ١٦٨) .

(٢) » » (ص ١٦٩) وما يأتي قريبا .

(٣) بيض له في الأصل والتصحيح من التعريف (ص ١٦٩) .

أن مملك سييس كان يما إلى التار ويميل إليهم، ويساعدكم في حرب المسلمين ويكثر في سوادهم .



وعلى مثل ذلك يكتب لكل ملك مضعوف في مهادنة الملك القوي له .

وهذه نسخة هدية من هذا النمط، كتب بها أبو إسحق الصابي، عن صمصام الدولة، بن عضيد الدولة، بن ركن الدولة، بن بويه الديلمي، بأمر أمير المؤمنين الطائع لله، الخليفة العباسي ببغداد يومئذ، لوردس المعروف بسفلاروس ملك الروم، حين حيل بينه وبين بلاده، وأتمس أن يفرج له طريقه إلى بلاده، على شروط أترمها، وحضون يسألها، على ما سيأتي ذكره، وهي :

هذا كتاب من صمصام الدولة، وشمس الملة، أبي كاليبجار، بن عضيد الدولة وتاج الملة أبي نجاج، بن ركن الدولة أبي علي، مولى أمير المؤمنين، كتبه لوردس ابن بينير المعروف بسفلاروس ملك الروم .

لأنك سألت بسفارة أخينا وعلتنا، وصاحب جيشنا (أبي حرب رار بن شهر اكونه) تأمل حالك في تطاول حبسك، واعتياقك عن مراجعة بلدك، وبذلت - متى أفرج عنك، وخلى طريقك، وأذن لك في الخروج إلى وطنك، والعود إلى مقر سلطانك - أن تكون أولينا ولنا، ولعدونا عدوا، ولسامنا سلما، ولحربنا حربا : من جميع الناس كلهم، على أخلاف أحوالهم وأديانهم، وأجناسهم وأجاليهم، ومقارهم وأوطانهم، فلا تضالج لنا ضدا مبينا، ولا تواطى علينا عدوا محالفا، وأن تكف عن تطرُق الثغور والأعمال التي في أيدينا وأيدي الداخلين في طاعتنا : فلا تجهز إليها جيشا، ولا تحاول لها غزوا، ولا تبدأ أهلها بمنازعه، ولا تشرع لهم في مقارعه، ولا تتاولهم بمكيده ظاهرة ولا باطنة، ولا تقابلهم بأذية جلية ولا خفية، ولا تطابق لأحد من

ينوبُ عنك في قيادة جيوشك ، ومن يُنسبُ إلى جُماعتك ، ويتصرفُ على إرادتك -
الآجَرَاءُ على شَيْءٍ من ذلك على الوجوه والأسباب كُلِّها ؛ وأن تُفَرِّجَ عن جميع
المسلمين وأهل ذِمَّتِهِمُ الحاصلين في محابس الروم ، ممن أحاطتْ بَعْنُهُ رِبْقَةُ الْأُسْرِ ،
وأشتملتْ عليه قَبْضَةُ الْحَصْرِ وَالْقَمَرِ ، في قديم الأيام وحديثها ، وبعيدِ الأوقات
وقريبها ؛ المقيمين على أديانهم ، والمختارين للعودِ إلى أوطانهم ؛ وتُنْهَضَهم بما
يُنْهَضُ به أمثالهم ، وتُكْتَمَهم من البروزِ والمسيرِ بنفوسهم وحرهم وأولادهم وعيالاتهم
وتابعيهم ، وأصنافِ أموالهم ؛ مَوْفُورِينَ مَضْمُونِينَ ، مُبَذَّرِينَ مُحْرَسِينَ ، غير
ممنوعين ، ولا معوقين ، ولا مطالبين بمثونة ولا كلفةٍ صغيرة ولا كبيرة .

وأن تُسَلِّمَ تَيْمَةً سَبْعِيَّةً مِنَ الْحُصُونِ ، وهي : حصن أرححاه المعروف بحصن
الهندرس ، وحصن السنانسة ، وحصن حويب ، وحصن اكل ، وحصن انديب ،
وحصن حالي ، وحصن تل حرم ، برساتيقها ومزارعها إلى من نُكَاتِكَ بِتَسْلِيمِهَا إِلَيْهِ ،
مع مَنْ بها من طبقات أهلها أجمعين ، المختارين لِسُكَاها والاستقرارِ فيها ، بحُرْمَتِهِمْ
وأولادِهِمْ وأنسابِهِمْ ومواشيهِمْ وأصنافِ أموالِهِمْ وغلاتِهِمْ وأزوادِهِمْ وسلاحِهِمْ وآلاتِهِمْ ،
ليكونَ جميعُها حاصِلًا في أيدينا وأيدي المسلمين ، على غابر الأيام والسنين ؛ من غير
أن تَلْتَمِسَ عنها أو عن شَيْءٍ منها مَالًا ، ولا بَدَلًا ، ولا عِوَضًا من الأعواض كُلِّها .

وعلى أنكَ تُنْضِي ما عَقَدْتَهُ عَلَى نَفْسِكَ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهَ بَابًا بَابًا ، وَتَقِي بِهِ أَوَّلًا ،
مُنْذُ وَقْتِ وُصُولِكَ إِلَى أَوَائِلِ أَعْمَالِكَ ، وَإِلَى غَايَةِ اسْتِيلَاكَ عَلَيْهَا ، وَتَقَاذِ أَمْرِكَ
فِيهَا ؛ وَلَا تَرْجِعْ عَنْ ذَلِكَ وَلَا عَنْ بَعْضِهِ ، وَلَا تُؤَخِّرْ شَيْئًا مِنْهُ عَنِ الْوَقْتِ الَّذِي تَقْدِرُ
فِيهِ عَلَيْهِ ، وَلَا تُرَخِّصَ لِنَفْسِكَ فِي تَجَاوُزِهِ وَلَا عُدُولِهِ عَنْهُ . وَمَتَى سَمِعْتَ طَائِفَةً مِنَ
الطَّوَائِفِ الَّتِي تُنْسَبُ إِلَى الرُّومِ وَالْأَرَمَنِ وَغَيْرِهِمْ فِي أَمْرِ يَخَالِفُ شُرَاطِئَ هَذَا الْكِتَابِ ،

كان عليك منهم من ذلك إن كانوا من أهل الطاعة والقبول منك ، أو مجاهدتهم
وإمانتهم إن كانوا من أهل العنود عنك ، والخلاف عليهم حتى تصرفهم عما يرومونه ،
وتحول بينهم وبين ما يحاولونه ، بمشيئة الله وإذنه ، وتوقيفه وعونه .

وأشترطت علينا بعد الذى شرطته لنا من ذلك التخلي عن طريقك وطريق من
تصمته بملكك ، وأشملت عليه رفقتك : من طبقات الأصحاب والأتباع ، فى جميع
أعمالنا حتى تنفذ عنها إلى ما وراها ، غير معوق ، ولا معتقل ، ولا مؤذى ،
ولا معارض ، ولا مطالب بمشورة ولا كلفة ، ولا تمنوع من أتياع زائد ولا آلة ،
ولا تؤثر عليك أحدا نأواك فى أعمالك ، ونازعك سلطان بلادك ، ودافعك عنه
وناصبك العداوة فيه : فمن ينسب إلى الروم والأرمن والخزمية وسائر الأمم المضادة
لك ، ولا نوقع معه صلحا عليك ، ولا موافقة على ما يعود بتلك أوقدج فى أمرك ،
ولا تقبل سؤال سائل ، ولا بلل باذل ، ولا رسالة مراسل فيما خالف شرائط هذا
الكتاب أو عاد بإعلاله ، أو إغلال وثيقة من وثائقه .

ومنى وقد إلينا رسول من جهة أحد من أضدادك ، راغبا إلينا فى شئ يتخالف
ما أعقد بيننا وبينك - أمتنعنا من إجابته إلى ملتصحه ، ورددناه خائبا خالبا من
طليته . وإذا سلمت الحصون المقدم ذكرها إلى من نكاتبك بالتسليم إليه ، كان لك
علينا أن نقر من فيها وفى رسائليها على نعمهم ومنازلهم وضيايعهم وأملأهم ،
وأن لا نزيهم عنها ولا عن شئ منها ، ولا تحول بينهم وبين ما تحويه أيديهم من جميع
أموالهم ، وأن نجرهم فى المعاملات والإجبايات على رؤسهم الجارية الماضية التى
عوملوا عليها ، على مر السنين ، وإلى الوقت الذى يقع فيه التسليم ، من غير فسخ
ولا تغيير ولا تقضى ولا تبديل .

فأنهينا إلى مولانا أمير المؤمنين الطائِع لله ماسألت وأتمست ، وصمّنت وشرطت وأشرتطت من ذلك كله ؛ وأستأذناه في قبوله منك ، وإيقاع المعاهدة عليه معك ؛ فأذن - أدام الله تمكينه - لنا فيه ، وأمرنا بأن نُحْكِمَهُ ونُضَيِّجَهُ لما فيه من انتظام الأمور ، وحياطة الثغور ، وصلاح المسلمين ، والتفيس عن المأسورين .

فأمضيته على شرائطه ، وراضينا جميعا به ، وعاهدناك عليه ، وحلفت لنا باليمين المؤكدة التي يحلف أهل شريعتك بها ، ويخرجون من الحنث فيها على الوفاء به ؛ وأشهدنا على نفوسنا ، وأشهدت على نفسك الله جل ثناؤه ، وملائكته المقربين ، وأنبياء المرسلين ، وأحبا وعدتنا أبا حُرَيْب راب بن شُهرّا كَوَيْه مولى أمير المؤمنين ، ومن حضر المجلس الذي جرى فيه ذلك ، باستقرار جميعه بيننا وبينك ، ولزومه لنا ولك .

ثم حضر بعد تمام هذه الموافقة واستمرارها ، وشؤبها واستقرارها ، قُسْطَنْطِينُ ابن بِنِير أخو وردس بن بِنِير ، وأرماتوس بن وردس بن بِنِير ، فوقعا على هذا الكتاب ، وأحاطا به علما ، واستوعباه معرفة ، وشهدا على وردس بن بِنِير ملك الروم بإقراره به ، وأتراه إياه . ثم تبرع كل واحد منهما بأن أوجب على نفسه التمسك به والمقام عليه متى قام وردس بن بِنِير فيما هو موسوم به من ملك الروم ، وجعل جميع الشرائط الثابتة في هذا الكتاب المفقود بعضها ببعض أمانة في ذمته ، وطوقا في عُنُقِهِ ، وههنا يُسأل عنه ، وحقا يُطالب في الدنيا والآخرة به ؛ وصار هذا العقد جامعا لهم ولنا ، ولأولادنا وأولادهم ، وعقبنا وعقبهم ؛ ما عشنا وما شؤا ، يلزمتنا وإياهم الوفاء بما فيه علينا وعليهم ، ولنا ولهم ، على مرور الليالي والأيام ، واختلاف الأدوار والأعوام .

أمضى وأنفذ صمصام الدولة وتَمَسُّس الملة أبو كَالِيَجَار ذلك كله على شرائطه وحدوده ، وألزمه وردس بن بِنِير المعروف بسفلاروس ملك الروم ، وأخوه

قُسْطَنْطِينُ ، وابنه أَرْمَانُوسُ بن وردس بن بينير ، وَصَحْنُوا الْوَفَاءَ بِهِ ، وَأَشْهَدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَى نَفْسِهِم بِالرِّضَا بِهِ ، طَائِعِينَ غَيْر مُكْرِهِينَ وَلَا مُجْبَرِينَ ، لَا عِلَّةَ بِهِمْ مِنْ مَرَضٍ وَلَا غَيْرِهِ ، بَعْدَ أَنْ قَرَأَهُ عَلَيْهِمْ ، وَفَسَّرَهُ لَهُمْ وَخَاطَبَهُمْ بِاللُّغَةِ الرُّومِيَّةِ مِنْ وَثْقٍ بِهِ ، وَفَهَّمُوا عَنْهُ ، وَفَقَهُوا مَعْنَى لَفِظِهِ ، وَأَحَاطُوا عِلْمًا وَمَعْرِفَةً بِهِ ، بَعْدَ أَنْ مَلَكَوْا نَفْسَهُمْ ، وَتَصَرَّفُوا عَلَى اخْتِيَارِهِمْ ، وَتَمَكَّنُوا مِنْ إِثَارِهِمْ ، وَرَأَوْا أَنَّ فِي ذَلِكَ حِطًّا لَهُمْ ، وَصَالِحًا لَشَانِهِمْ ، وَذَلِكَ فِي شَعْبَانِ سَنَةِ سِتٍّ وَسَبْعِينَ وَثَلَاثًا .

وَقَدْ كُتِبَ هَذَا الْكِتَابُ عَلَى ثَلَاثِ نُسَخٍ مُتَسَاوِيَاتٍ ، خُلِّدَتْ اثْنَتَانِ مِنْهَا بِدَوَاوِينَ مَدِينَةِ السَّلَامِ ، وَسَلِمَتْ الثَّالِثَةُ إِلَى وَرْدَسِ بْنِ بَيْنِيرِ مَلِكِ الرُّومِ وَأَخِيهِ وَأَبْنِهِ الْمَذْكُورَيْنِ مَعَهُ فِيهِ .



وهذه نُسخة هُذِنَتْ مِنْ مَلِكٍ مُضْعُوفٍ لِمَلِكٍ قَوِيٍّ ، كَتَبَ بِهَا الْفَقِيهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ ^(١) أَحَدُ كُتَّابِ الْأَنْدَلُسِ ، عَنْ بَعْضِ مُلُوكِ الْأَنْدَلُسِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، مِنْ أَتْبَاعِ « الْمَهْدِيِّ بْنِ تَوْحَمَرْتِ » الْقَائِمِ بِدَعْوَةِ الْمُوحِدِينَ ، مَعَ « دُونِ فِرَانْدِهِ » صَاحِبِ قَسْتَالَةَ مِنْ مُلُوكِ الْفَرَنْجِ بِعَقْدِ الصُّلْحِ عَلَى مُرْسِيَّةٍ مِنْ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ ، وَهِيَ :

هَذَا عَقْدُنَا بَعْدَ اسْتِخَارَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَاسْتِشْرَاحِهِ ، وَاسْتِعَانَتِهِ وَاسْتِنْجَادِهِ ، نِيَابَةً عَنِ الْإِمَارَةِ الْعَلِيَّةِ بِحُكْمِ اسْتِنَادِنَا إِلَى أَوَامِرِهَا الْعَالِيَةِ ، وَآرَائِهَا الْهَادِيَةِ . عَقْدُنَا - وَاللَّهُ الْمَوْقُوفُ - لِقَسْتَالَةَ مَعَ فَلَانِ النَّائِبِ فِي عَقْدِهِ مَعَنَا عَنْ مُرْسَلِهِ إِلَيْنَا ، الْمَلِكِ الْأَجَلِّ الْأَسْنَى الْمُبْجَلِ « دُونِ فِرَانْدِهِ » مَلِكِ قَسْتَالَةَ ، وَطَلِيطَلَةَ ، وَقَرْطُبَةَ ، وَلِيُونِ ، وَبَلَّاسِيَةَ - أَدَامَ اللَّهُ كَرَامَتَهُ وَمِيزَتَهُ بِتَقْوَاهُ - حِينَ وَصَلْنَا مِنْ قَبْلِهِ كِتَابٌ مَحْمُومٌ بِطَائِعِهِ الْمَعْلُومِ لَهُ الْمُتَعَارِفِ عَنْهُ ، تَقْوِيضًا مِنْهُ إِلَيْهِ ، فِي كُلِّ مَا يُعْقَدُ لَهُ وَعَلَيْهِ . وَعَاقِدُنَا عَلَى أَنْ يَكُونَ

السلم بيننا وبين مُرسِلِهِ المذكورِ لعامتينِ اثنتين ، أوَّلها شهرُ المحرمِ الذى هو أوَّلُ سَنَةِ تاريخِ هذا الكُتَابِ ، الموافقُ من الأَشْهُرِ العَجِيبَةِ شَهْرَ كَذَا ، على جَمِيعِ مَا نَحْتُمُ نَظَرَنَا الْآنَ من البلادِ الرَّاجِعَةِ إِلَى الدَّعْوَةِ المَهْدِيَّةِ - أَسْمَاها اللهُ تَعَالَى - حَوَاضِرِهَا وَتُفُوزِهَا ، مَوَاسِطِهَا وَأَطْرَافِهَا ، من جَزِيرَةِ شَقْرٍ إِلَى بَيْتَةِ وَالمَنْصُورَةِ وَمَا يَلِيهَا - حَرَسَ اللهُ جَمِيعَهَا - سَلَامًا مَحَافِظًا عَلَيْهَا مِنَ الْجَهْتَيْنِ ، مَحْفُوظًا عَهْدَهَا عِنْدَ أَهْلِ الْمَلِكَيْنِ ، لَا غَدْرَ فِيهَا ، وَلَا إِخْلَالَ فِي مَعْنَى مِنْ مَعَانِيهَا ، وَلَا تُشْنُ فِي مُدْنِهَا غَارَهُ ، وَلَا تُدْعَرُ سَيَّارَهُ ، وَمَهْمَا وَقَعَ إِغْوَارٌ ، أَوْ حَدَثَ أَقْدَارٌ ، عَلَى جِهَةِ المَجَاهِرَةِ ، إِذَا اتَّصَلَتْ وَالْمُسَاسَرَةِ ، فَإِنْ كَانَ مِنْ جِهَةِ النِّصَارَى ، فَعَلَى مَلِكِ قَشْتَالَةِ تَسْرِيجِ الْأُمَارَى ، وَرَدُّ الْغَنَائِمِ وَالنَّهْبِ ، وَالْإِنْصَافُ مِنَ الْغَنِيمَةِ إِنْ عُدِمَتِ الْعَيْنُ ، وَأَعُوزَ الطَّلَبُ . وَعَلَيْنَا مِثْلُ ذَلِكَ سَوَاءً ، لِيَقَابَلَ بِالْوَفَاءِ ؛ هَذَا بَعْدَ أَنْ يُتَّبَعَ الْأَمْرُ وَيُعْلَمَ مِنْ أَيْنَ كَانَ .

ومن هذه المهادنة أن لا يُسَبَّبَ إِلَى الْحُصُونِ بِالْغَدْرِ وَلَا بِالشَّرِّ ، وَلَا يُتَجَاوَزَ النِّصَارَى حُدُودَ بِلَادِهِمْ وَأَرْضَهُمْ بَنَى مِنْ الْبِنَاءِ ، وَلَا يَصِلَ مِنْ بَلَدٍ قَشْتَالَةَ مَبْدَأِ لُحَايِنَا ، وَلَا مَعُونَةَ لُفَايِنَا . وَكُلُّ مَا يَرْجِعُ إِلَى هَذِهِ الدَّعْوَةِ ، وَيَدْخُلُ فِي الطَّاعَةِ مِنَ الْبِلَادِ بَعْدَ هَذَا الْعَقْدِ فِدَاخِلٌ فِي السَّلَامِ ، بِنِزَادَةِ نِسْبَتِهِ مِنَ الْمَسَالِ الْوَسْطَى وَشَرْطُ فِي صِحَّةِ هَذَا الْحُكْمِ . وَإِذَا بَقِيَ مِنْ مُدَّةِ هَذِهِ الْمُسَالَمَةِ شَهْرَانِ اثْنَانِ ، فَعَلَى مَلِكِ قَشْتَالَةِ أَنْ يُعْلِمَنَا بِغَرَضِهِ فِي الْمِهَادَنَةِ أَوْ سَوَادًا ، إِعْلَامًا مِنْ مَذَابِ الْوَفَاءِ أَوْ نَادَا .

وقد أَلْتَمَسَ رَسُولُ الْمَذْكُورِ لَنَا هَذِهِ الشَّرُوطَ ، وَأَحْكَمَ مَعَنَا - نِيَابَتَهُ عَنْهُ فِيهَا - الْعُقُودَ وَالرُّبُوبَ ، عَلَى كُلِّ مَا ذَكَرْنَاهُ . وَأَلْتَمَسْنَا فِي هَذَا السَّلَامِ الْمَلِكِ قَشْتَالَةَ الْمَذْكُورَةِ - مَكْفَاةً عَنْ وَفَاءِ عَهْدِهِ ، وَصِحَّةِ عَقْدِهِ - مِائَةَ أَلْفِ دِينَارٍ وَاحِدَةٍ ، وَأَرْبَعِينَ أَلْفَ دِينَارٍ فِي كُلِّ عَامٍ مِنْ طَائِفِ هَذَا الصُّلْحِ الْمَقْسَمِ الْوَصْفِ ، مَقْسَمًا ذَلِكَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَتْجَمِ

في العام، ليتقاضاها ثِقَاتُهُ، وَيَوْقُ عَيْنَهَا عَلَى التَّامِ وَالْكَامِلِ، قَبَضَ مِنْهَا كَذَا لِيُوصِّلَهَا إِلَى مُرْسَلِهِ، وَالتَّزِمَ لَهُ تَحْلِيصُ بَاقِي كَذَا عِنْدَ آخِضَاءِ كَذَا عَلَى أَوْفَى وَجْهِهِ وَأَحْكَمِهِ؛ فَإِنْ وَفَّى لَهُ بِذَلِكَ بَعْدَ الْأَرْبَعِينَ يَوْمًا الْمُؤَقَّتَةَ، فَالسَّلَامُ بَاقِيَةٌ وَحُكْمُهَا ثَابِتٌ، وَإِلَّا فَالسَّلَامُ مَفْسُوخَةٌ وَلَا حُكْمَ لَهَا إِنْ عَجِزَ عَنِ الْوَفَاءِ لَهُ، بِمَحْصُولِ مَا بَقِيَ مِنَ الشَّرْطِ فِي اسْتِصْحَابِ الْحُكْمِ وَاتِّصَالِ الْعَمَلِ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

وَعَلَى مَا تَضَمَّنَتْ هَذَا الْكِتَابُ أَمَضَى فَلَانٌ - أَعَزَّهُ اللَّهُ - بِحُكْمِ الْيَابَةِ، عَنِ الْأَمْرِ الْعَالِيِّ - أَسْمَاءُ اللَّهِ - هَذَا الْعَقْدَ الصُّلْحِيِّ، وَأَشْهَدُ بِمَا فِيهِ عَلَى نَفْسِهِ وَحَضْرَةِ الْمُعْصِلِ طُورِ (?) الْمَذْكُورِ، فُتْرِجِمَ لَهُ الْكِتَابُ وَبَيَّنَّتْ لَهُ مَعَانِيَهُ، وَقُرَّرَ عَلَى مَضَامِينِهِ، فَالْتَزَمَ ذَلِكَ كُلَّهُ عَنِ مُرْسَلِهِ مَلِكٍ قَسْطَالَةٍ حَسَبَ مَا فَوَّضَ إِلَيْهِ فِيهِ؛ وَأَشْهَدُ بِذَلِكَ عَلَى نَفْسِهِ، فِي صِحَّتِهِ وَجَوَازِ أَمْرِهِ فِي كَذَا، وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ لِمَا يَرْضَاهُ، وَمُقَدِّمُ الْخَيْرِ وَالْخَيْرَةِ فِيمَا قَضَاهُ، بِمَنَّةٍ وَالسَّلَامُ.

المذهب الثاني

(أَنْ تُفْتَحَ الْمُهَادَنَةُ قَبْلَ لَفْظِ «هَذَا» بِنَعْدِيَةٍ)

وهذه نُسْخَةُ هُدْنِيَّةٍ بَيْنَ مَلِكَيْنِ مُتَكَافِئَيْنِ دُونَ تَقْرِيرِ شَيْءٍ مِنَ الْجَانِبَيْنِ، كَتَبَ بِهَا الْفَقِيهُ الْمَحْدُثُ أَبُو الرَّبِيعِ بْنُ سَالِمٍ مِنْ كُتَّابِ الْأَنْدَلُسِ، فِي عَقْدٍ صُلِحَ عَلَى بُلْنَيْسِيَّةٍ وَغَيْرِهَا مِنْ شَرْقِ الْأَنْدَلُسِ، وَهِيَ:

وَبَعْدُ، فَهَذَا كِتَابُ مُوَادَمَةٍ أَمَضَى عَقْدَهَا وَالتَّزِمَهُ، وَأَبْرَمَ عَهْدَهَا وَتَمَعَهُ؛ فَلَانٌ لِلْمَلِكِ أَرْغُونُ، وَقَوْمُطَ بَرْجُلُونَةَ، وَرِزْبَسَ مَقْتِ بَشْلَى، حَافِظَةَ (?) بِنَ بَطْرَةَ، بِنَ أَدْفُونَشَ، ابْنِ رَيْمُونَدَ، أَدَامَ اللَّهُ كَرَامَتَهُ بِتَقْوَاهُ لَهُ خَاتَمًا وَعِنَاوَانًا، الْمَعْهُودِ صِدْقِهِ فِي أَمثَالِهَا مِنَ الْمَرَاوِضَاتِ الصُّلْحِيَّةِ تَضَرُّعًا وَإِعْلَانًا؛ مُتَضَمِّنًا مِنَ الْإِحَالَةِ فِي عَقْدِ الْمُسَالَمَةِ

عليه، والتفويض في إبرام أسبأها والتزام فصولها وأبوابها إليه؛ ما أوجب صحيح النظر، وصريح الرأي المعتبر؛ مقاربة فيه، وموافقة منه على ما يحفظ حق المسلمين ويؤقيه، جُوحاً منه إلى ما جئح إليه من ذلك متقاضيه، وتحريراً للعمل على شاكلة الصواب والإيثار لما يقتضيه، بعد محاولات بلغ منها النظر غايته من الاجتهاد، وإراغات قرن بها من استخارة الله تعالى واستنجاده ما رضى فيه من فضله العميم معهود التسديد والإيجاد؛ فأجلى ذلك عن إضاء تهدي السلم للملك أرغون على بلنسية وكافة جهاتها أطرافاً ومواسط، وتوفراً وبساط؛ وكذلك شاطبة ودانيه، وما ينظم معهما من أحوازهما ويرجع إلى حكم بلنسية وحالها من الجهة النائية والدانية؛ لمدة عامين اثنين، شمسين متصليين، وأيام متصلة بهما كذلك. وهذا يحصر أمره، ويحقق عدده؛ أن تفتحه بيوم الأحد الرابع والعشرين لشهر نوبر، الموافق لما شير ذي القعدة المؤرخ به هذا الكتاب، الذى هو من عام أحد وعشرين وستمائة بتاريخ الهجرة - مسالمة تضع بها الحرب بين الجانبين أوزارها، وعهد للهذنة بين الطائفتين آثارها، وترفع اللبنة (٩) عن ذكر من الملتين أذيتها وأضرارها؛ البر والبحر في ذلك بيان، والمسارة فيها بالأذى والمجاهرة بمنودان، وحقيقة اللازم من ذلك غنى ببيانه ووضوحه عن الإيضاح والتبيان؛ لا ألباس ولا إشكال، ولا غائلة ولا احتيال؛ ليس إلا الأمن الكافى لكافة من تستمدل عليه كافة المواضع المذكورة من المسلمين، ومن تحويه بلاد ملك أرغون من الطوائف أجمعين. وكل ممتن إلى خدمة هذه المملكة الأرغونية بما كان من وجوه الانتماء، أو ناظر في جزء منها كائناً ما كان من الأجزاء؛ فهو في هذا الحكم داخل، وتحت هذا الربط الصليحي واصل؛ ولا حجة لمن كان له منهم حصن يفرد به عن هذه المملكة، على ما لهم في ذلك من العوائد المتعارفة. فإن تنقص بجزء منه وذهب إلى أن يكون في حصنه منفرداً فهو

وما آختر، إذا تنكب الإضرار؛ فإن رام التطرق بشيء إلى أحد الجانبين كان على المسلمين وعلى أهل أرغون الظاهر على استنزاله، والظاهر على قتاله، حتى يكفوا ضرره، ويعفوا أثره.

والحدود الفاصلة بين الجزأين هي أوساط المسافات، على ما عرّف من متقدم المسالمات؛ ويدكلّ فريق منهم مطلقاً فيما وراء حدّه بما شاء، من إنشاء برسم الإصلاح والانشاء؛ وكلّ من قصد المسلمين من رجال المملكة الأرغونية برياً من تبعه الفساد فقبول قصده مباح، وليس في استخدامه والإحسان إليه جناح؛ والطريق للتجار المعهود ووصولهم من بلاد أرغون إلى بلنسية في البر والبحر مباحة الأنتاب، مخوفة بالآمنة التامة في الجيئة والذهاب؛ وعلى تجار البحر منهم أن يتجنبوا ركوب الأجناف الحريسة التي يمكن بها الإضرار، ويستغنى عن^(١) التجار؛ والاسترهاب مرفوع عن هؤلاء الواصلين برسم التجارة على اختلافهم، وتباين أصنافهم؛ فيما لم يتجنه أيديهم، ولا كان منسوباً إلى تعديهم؛ وكلّ معتقل من الطائفتين بأذى شيء يطرق إلى حكم هذه السلم خلافاً، أو يلحق بعهدا خلافاً؛ فعلى أهل موضعه الإنصاف من جنّاه، وصرف ما سلبته يده، وإحضاره مع ذلك ليُعاقب بما أراه. وليس لأحد من الطائفتين أن يتسبّب باسترسال، إلى الإنصاف من جنسية حال؛ بل يقوم بدفع ذلك حيث يحب، ويطلبه في الموضع الذي ينبغي فيه الطلب؛ حتى يخاطب الناظر على المملكة التي تُسبّت إليها هذه الإذابة، وصدرت عن أهلها [تلك] الحناية؛ يطلب الإنصاف من عدوانها، وتعاد عليه الأعذار في شأنها؛ وعليه - ولا بدّ - التخليص منها عملاً بالوفاء الذي يوجب العمل به، وقياماً بحق العهد الذي أكد الاعتلاق بسببه؛ ومتى غادر مغادر من أحد الملتين حصناً من حصون

(١) يابض بالأصول ولعله « عن ركوبها ».

الأخرى فله الأمن على الكمال ، والرغى الحافظ للنفس والمال ؛ حتى يلحق بأمنه ، ويعود سائلاً إلى وطنه .

فعلى هذه الشروط المحققة ، والرئوس الموثقة ، انعقد هذا السلم ، وعلى من ذكر من المسلمين وأهل أرغون الحكم ؛ وهذا الكتاب ينطق فى ذلك بالحق اللازم للطائفتين ، ويعرب عن حقيقة ما انعقد بين من سُمي من أهل الملتين ؛ وألتم كله عن ملك أرغون النائب عنه بتفويضه إليه ، وأسيتابته إياه عليه ؛ الزعيم بطره ابن مدانف بكدرش (؟) على أتم وجوه الألتزام ، وأبرم ذلك ملك أرغون بأوتق علائق الإبرام ، وكل ذلك بعد أن بينت له الفصول المتقدمة غاية التبيين وأفهمها حق الإفهام ؛ وألزم نفسه مع ذلك وصول كتاب هذا الملك الذى تولى النيابة عنه فى هذا العقد ، مصرحاً بالترامه وإمضائه فيه عمله ، وفق ما تضمنه كتابه الذى أرسله ، وأشهد مع ذلك زعماء دولته وكبراء القائمين عليه ، تحقيقاً لمنه ، وتوثيقاً لمبناه ، إن شاء الله تعالى .

النوع الثانى

(من الهدن الواقعة بين ملك مسلم وملك كافر - أن تكون الهدنة

من الجانبين جميعاً)

وفىها للكتاب ثلاثة مذاهب :

المذهب الأول

(أن تفتتح الهدنة بلفظ : « هذه هدنة » ونحو ذلك)

قال فى " التعريف " : وسبيل الكتابة فيها أن يكتب بعد البسملة : هذه هدنة استقرت بين السلطان فلان والسلطان فلان ، هادن كل واحد منهما الآخر على الوفاء عليه ، وأجل له أجل ينتهى إليه ؛ لما اقتضته المصلحة الجامعة ، وحُسمت به مواد

الآمال الطامعة ؛ ناكثت بينهما أسبابها ، وفجعت بهما أبوابها ؛ وعانها عهدُ الله على الوفاء بشرطها ، والآنهاء إلى أمدها ، ومدَّ حبلِ المَوَادَّةِ إلى آخر مدِّدها ؛ ضرباً لها أجلاً أوله ساعة تاريخه وإلى نهاية المدة ، وهي مدة كذا وكذا ؛ على أن كل واحد منهما يُقصدُ بنه وبين صاحبه سيف الحرب ، ويكف ما بينهما من السهام الراشقة ، وتُمكِّلُ الرِّمَاحُ الخطارة ، وتُقرُّ على مرابطها الخيلُ المُنيرة ، وبلادُ السلطان فلان كذا وكذا ، وبلادُ السلطان فلان كذا وكذا ، وما في بلاد كل منهما من الثغور والأطراف والموانئ والرستاق والجهات والأعمال : برّاً وبحراً ، وسهلاً وجبلاً ، وتانياً ودانياً ، ومن فيها : من مَلِكِها المسمّى وبنيه ، وأهلِه وأمواله ، وجُنْدِه وعساكرِه ، وخاص من يتعلّق به وسائرِه ؛ وروايه على اختلاف أنواعهم ، وعلى أفرادهم واجتماعهم ؛ البادية والحاضر ، والمقيم والسائر ، والتجار والسفارة ، وجميع المترددين من [سائر] الناس أجمعين . على أن يكون على فلان كذا و[على فلان] كذا^(١) [ويعين ما يعين] : من مال ، أو بلاد ، أو مساعدة في حرب ، أو غير ذلك ، يقوم بذلك لصاحبه ، وينهض من حقّه المقرر بواجبه ؛ وعليهما الوفاء المؤكّد المواثيق ، والمحافظة على العهد والميثاق بسببه الوثيق - هذه صحيحة صريحة ، نطقاً بها ، وتصديقاً عليها ، وعلى ما تضمنته الموصفة [المستوعبة بينهما فيها ، وأشهد الله عليهما بضمونها ، وتوثيقاً على ديونها ، وشهد من حضر مقام كل منهما على هذه الهدنة وما تضمنته من الموصفة] ، وجرّت بينهما على حكم المناصفة ، رأياً فيها سُكُونُ الجَمَاح ، وَخُصَّ طَرَفُ الطَّحاح .

وعلى أن كل منهما رعاية ما جاوره من البلاد والرعيه ، وحملهم في قضاياهم على الوجوه الشرعيه ، ومن نزح من إحدى المملكتين إلى الأخرى أُعِيدَ ، وما أُخِذَ منها باليد الفاصية أَسْعِيدَ ؛ وبهذا تمّ الإشهاد ، وقُرئ على المسمع على رموس الأشهاد .

المذهب الثاني

(أن تُفْتَحَ المُهْدَنَةُ : بلفظ : « اسْتَقَرَّتِ المُهْدَنَةُ بَيْنَ فُلَانٍ وَفُلَانٍ »)

وَيَقْدَمُ فِيهِ ذِكْرُ الْمَلِكِ الْمُسْلِمِ)

وعلى ذلك كانت الهدن تُكتبُ بين ملوك الديار المصرية ، وبين ملوك الفرنج ،
المتغلبين على بعض البلاد الشامية .

وهذه نسخة هُدْنَةٍ على هذا النمط : دون تقرير من الجانبين ؛ كُتِبَتْ بَيْنَ الْمَلِكِ
الظاهر « بيبرس البندقدارى » صاحب الديار المصرية ، وبين الاسيثار^(١) بمحضين
الأكراد والمرقب ، في رابع شهر رمضان سنة خمس وستين وثمانمائة ، وهى :

اسْتَقَرَّتِ المُهْدَنَةُ المباركة الميمونة بين مولانا السلطان الملك الظاهر ركن الدين
أبى الفتح « بيبرس » الصالحى النجيبى ، وبين المقدم الكبير الهمام فلان مقدم بيت
الاسيثار الفلانى بكًا ، والبلاد الساحلية ، وبين فلان مقدم حصن الأكراد ، وبين
فلان مقدم حصن المرقب ، وجميع الإخوة الاسيثار ، لمدة عشر سنين متوالية
وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات : أولها يوم الاثنين رابع رمضان سنة
خمس وستين وثمانمائة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ،
الموافق لليوم الثلاثين من أيام سنة ألف وثمانمائة وتسعة وسبعين سنة^(٢)

للإسكندر بن فيلبس اليونانى - على أن جميع المملكة الحصبية والشيرزية والجموية
وبلاد الدعوة المباركة ، واقع عليها الاتفاق المبارك ، ومستقرة لها هذه الهدنة الميمونة
بجميع حدود هذه الممالك المعروفة ، وبلادها الموصوفة ، وقراها وضياعها ، وسهلها
وجبلها ، وعامرها وغازمها ، ومزروعها ومعطائها ، وطرقاتها ومياها ، وقلاعها

(١) الاسيثار بتقديم الموحدة على التاء هو رئيس الطائفة الدينية المعروفة فى الكتب العربية بالاسيثارية .

(٢) يباض بالأصول .

وحُصُونِهَا - عَلَى مَا يُفَصِّلُ فِي كُلِّ مَمْلَكَةٍ، وَيُشْرَحُ فِي هَذِهِ الْمُذْنَةِ الْمُبَارَكَةِ لِلذَّةِ الْمَعِينَةِ إِلَى آخِرِهَا .

وعلى أن المستقرَّ بِمَمْلَكَةٍ حَمَصَ المحروسة أن جميع المواضع والقرى والأراضي التي من نهر العاصي، وتغرب إلى الحد المعروف من الغرب لبلد المناصقات : تاماً وذاثراً، وبما فيها من الغلات صيفياً وشتوياً، والعداد وغيرها من الفوائد جميعها - تقرر أن يكون النصف من ذلك للسلطان الملك الظاهر ركني الدين أبي الفتح «بيبرس»، والنصف لبيت الاسيتار .

وعلى أن كلاً من الجهتين يتعهد ويحرص في عمارة بلد المناصقات المذكورة بمجهده وطاقته، ومن دخل إليها من الفلاحين بدواب، أو من التركمان، أو من العرب، أو من الأكراد، أو من غيرهم، أو القنّة - كان عليهم العداً بخاري العادة . ويكون النصف للسلطان، والنصف لبيت الاسيتار .

وعلى أن الملك الظاهر ينجي بلد المناصقات المقدم ذكرها من جميع عسكره وأتباعه، ومن هو في حكمه وطاعته، ومن جميع المسلمين الداخلين في طاعته كافة . وكذلك مقدم بيت الاسيتار وأصحابه يحمون بلاد مولانا السلطان الداخلة في هذه المذنة .

وعلى أن جميع من يتعدى نهر العاصي مُقرباً لرعي دوابه : سواء أقام أو لم يقيم، كان عليه العداً سوى قنّة البلد ودوابه، ومن يخرج من مدينة حمص ويعود إليها، ومن غرب منهم ومات كان عليه العداً .

وعلى أن يكون أمر فلاحى بلد المناصقات في الحبس والإطلاق والجباية راجعاً إلى نائب مولانا السلطان، باتفاق من نائب بيت الاسيتار، على أن يحكم فيه بشريعة الإسلام إن كان مسلماً، وإن كان نصرانياً يحكم فيه بمقتضى دولة حصن الأكراد .

وأن يكونَ الفلاحونَ الساكنونَ في بلادِ المناصِفاتِ جميعها مُطلقينَ من السَّخَرِ من
الجانينَ .

وعلى أن المَلِكَ الظَّاهِرَ لا يأخذُ في بَلَدِ المناصِفاتِ المذكورةِ : من تُركانٍ ولا عَرَبٍ
ولا أكرادٍ ولا غَيرِهِم عِدَادًا ولا حَقًّا من حقوقِ بَلَدِ المناصِفاتِ ، إلا ويكونُ النِّصْفُ
منه لِلْمَلِكِ الظَّاهِرِ ، والنِّصْفُ الآخَرُ لِبَيْتِ الأَسِيَتَارِ .

وعلى أن المَلِكَ الظَّاهِرَ لا يتقدَّمُ بمنعِ أَحَدٍ من الفَلاحينَ المعروفينَ بِسُكْنَى بلادِ
المناصِفاتِ من الرُّجوعِ إليها ، والسَّكَنِ فيها إذا اختارُوا العودَ . وكذلك بَيْتُ الأَسِيَتَارِ
لا يمنعونَ أَحَدًا من الفَلاحينَ المعروفينَ بِسُكْنَى بلادِ المناصِفاتِ من الرُّجوعِ إليها
والسَّكَنِ فيها إذا اختارُوا العودَ .

وعلى أن المَلِكَ الظَّاهِرَ لا يمنعُ أَحَدًا من العُربانِ والتُّركانِ وغيرِهِم : مَن يُودَى
العِدَادَ ، من الدُّخُولِ إلى بَلَدِ المناصِفاتِ ، إلَّا أن يكونَ مُحَارِبًا لِبَعْضِ الفَرَنجِ الداخلينَ
في هذه المَهدنةِ ، فله المَنعُ من ذلك . وأن تكونَ خُشَارَاتُ المَلِكِ الظَّاهِرِ وخُشَارَاتُ
عساکِرِهِ وغِلْمَانِهِمْ وأهلِ بَلَدِهِ تَرعى في بلادِ المناصِفاتِ آمِنَةً من الفَرَنجِ والنَّصارى
كأَفَّةٍ . وكذلك خُشَارَاتُ بَيْتِ الأَسِيَتَارِ وخُشَارَاتُ عَسْكَرِهِمْ وغِلْمَانِهِمْ وأهلِ بَلَدِهِمْ
ترعى آمِنَةً من المسلمينَ كأَفَّةٍ في بَلَدِ المناصِفاتِ . وعند خروجِ الخُشَارَاتِ من المَواعى
وتَسليمِها لأصحابِها ، لا يُؤخذُ فيها حَقٌّ ولا عِدَادٌ ولا تُمارضُ من الجهتينِ .

وعلى أن تكونَ مِصِيدَةُ السَّمِكِ الرُّومِيَّةِ مِمَّا تحصَلُ منها ، يكونُ النِّصْفُ منه
لِلْمَلِكِ الظَّاهِرِ والنِّصْفُ لِبَيْتِ الأَسِيَتَارِ . وكذلك المَصَايدُ التي في الشَّطِّ القَرْبِيِّ من
العاصِي يكونُ النِّصْفُ منه لِلْمَلِكِ الظَّاهِرِ والنِّصْفُ لِبَيْتِ الأَسِيَتَارِ . ويكونُ لِبَيْتِ
الأَسِيَتَارِ في كُلِّ سَنَةٍ خَمسونَ دِينَارًا صُورِيَّةً عن القَشِّ ، ويكونُ القَشُّ جَمِيعُهُ لِلْمَلِكِ
الظَّاهِرِ يتصرفُ تَوَابِهِ فيه على حَسَبِ اختيَارِهِمْ . ويكونُ اللَّيْتُوفُ مَنَاصِفَةً : النِّصْفُ

منه لَلَّذِلكَ الظاهر والنَّصفُ لَبَيْتِ الاسبتار . وتقرَّر أن الطاحونَ المستجِدَّ المعروف بإنشاء بَيْتِ الاسبتار، الذى كان حصل الحرب فيه، والبُستانَ الذى هناك المَعروفُ بإنشاء بَيْتِ الاسبتار أيضا يكون مناصفة . وأن يكونَ متولَّى أمرِهما نائبٌ من جِهَةِ نَوَابِ السلطان ونائبٌ من جِهَةِ بَيْتِ الاسبتار، يتوليان أمرَهما والتَّصرفَ فيهما وقَبْضَ مُتَحَصِّلِهما . وتقرَّر أنَّ مَهما يحدِّدُه بَيْتُ الاسبتار على الماء الذى تدور به الطاحونُ ويسقى البُستانَ من الطواحين والأبنية وغير ذلك، يكونُ مُناصَفَةً بينَ المَلِكِ الظاهر وبينَ بَيْتِ الاسبتار .

وأما المستقرُّ بِمَلَكَةِ شِيزَ المحروسة، فهى شِيزُ، وأبو قُبَيْس وأعمالها، وعَيْنابُ وأعمالها، ونِصفُ زاوية بفراس المَعروفة بِحماية بَيْتِ الاسبتار وأعمالها، وجميعُ أعمالِ المَلَكَةِ اليُكُورِيَّةِ والبلادِ المذكورة بِحدودِها المَعروفةِ بها، وقُراها المُستقرَّةُ بها، وسَهْلُها وجَبَلُها ووَاعِها وظامِرها .

وما أَسْتَقَرَّ بِمَلَكَةِ المَلِكِ المَنصور، ناصِرِ الدِّين «محمد» بنِ المَلِكِ المظفرِ أبى الفَتَحِ «محمود» بنِ المَلِكِ المَنصور «محمد» بنِ عمر بنِ شاهنشاه بنِ أيوب فهى : حماةُ المحروسةُ وقِلاعُها ومُدُنُها، والمَعَرَّةُ وقُراها وسَهْلُها وجَبَلُها وأنهارُها، ومَنافِعُها وثمارُها ووَاعِها وظامِرها، وبلادُ رُقِيَّةِ وبلادُ بارينَ بِحدودِها وتُحومِها وظامِرها ودَائرِها وجميعُ من فيها وما فيها - على أن المَلِكِ المَنصور لا يَرَحُصُ لِلتُّركانِ ولا لِلعَرَبِ أن يَنزلوا بِلَدَ رُقِيَّةِ وبارينَ سِوَى ثلاثينَ بَيْتًا يَحْمِلونَ القَلَّةَ لِقَلْعَةِ بارينَ، وإن أرادوا الزيادةَ يكونُ بِمراجعةِ الإخوةِ الاسبتارية والاتفاقِ معهم على ذلك .

وعلى أَنَّهُ إن تَعَدَّى أَحَدٌ من أصحابه بأذِيَّة، أو تَعَدَّى أَحَدٌ من الفَرَنجَةِ فى بِلادِهِ بأذِيَّة، كانتِ المُهْلَةُ فى ذلك تَحْصَةُ عَشْرِ يَوماً، فإنْ آنكَشَفَتِ الأَخِيذَةُ،

أعيدت . وإلا تُحْلَفُ الْجِهَةُ المدَّعَى عليها أنها ما عَلِمَتْ وما أَحَسَّتْ ، وكما لَهُمْ ،
كذلك عَلَيْهِمْ .

والمستقرُّ لملكة الصَّاحِبِينَ : تَجْمُ الدِّينِ وَجَمَالِ الدِّينِ ، والأَمِيرِ صَارِمِ الدِّينِ نَائِبِي
الدَّعْوَةِ المباركة ، وولَدِ الصَّاحِبِ رِضَى الدِّينِ ، وهى : مِصْبَافُ والرُّصَافَةُ وَجَمِيعُ
فَلَاحِ الدَّعْوَةِ وَحُصُونِهَا وَسَهْلِهَا وَغَيْرِهَا وَدَائِرِهَا ، وَمُدُنُهَا وَبِلَادِهَا ،
وَضِياعِهَا وَطُرُقَاتِهَا ، وَمَبَاهِجِهَا وَمَتَابِعِهَا ، وَجَمِيعُ بِلَادِ الإِسْمَاعِيلِيَّةِ بِجَمَلِ بَهْرٍ وَاللُّكَّامِ ،
وَكُلُّ مَا تَشْمَلُ عَلَيْهِ حُدُودُ بِلَادِ الدَّعْوَةِ وَتَحُوتُهَا - أَنْ يَكُونَ الْجَمِيعُ آمِنِينَ مِنْ عَلَى
الرَّصِيفِ الذِّى بَسَّيْزَرَ إِلَى نَهَايَةِ الْأَرَاضِ اتَى بِحُصُونِ الدَّعْوَةِ وَبِلَادِهَا . وَحِمَايَةِ
الْقَرْيَةِ المَعْرُوفَةِ بِعَرَطَارِ (?) يَكُونُ لَهُ أَسُوءُ الإِسْمَاعِيلِيَّةِ . وَإِنْ عَلِمَ الْأَصْحَابُ أَنَّ أَحَدًا
مِنَ الإِسْمَاعِيلِيَّةِ قَدْ عَبَّرَ إِلَى بَيْتِ الْإِسْتِبَارِ لِأَذْيَةِ ، أَعْلَمُوا بِبَيْتِ الْإِسْتِبَارِ قَبْلَ أَنْ تَجْرِيَ
أَذْيَةُ ، وَمَا لَمْ يَعْلَمُوا بِهِ عَلَيْهِمُ الْيَمِينُ أَنَّهُمْ مَا عَلِمُوا بِهِ ، وَإِنْ لَمْ يَحْلِفُوا يَرُدُّوا الْأَذْيَةَ
الَّتِي تَجْرِي .

وَتَقَرَّرُ أَنَّ يَكُونُ فَلَا حُوتَ بَيْتِ الْإِسْتِبَارِ رَائِحِينَ وَغَادِينَ وَمَنْصَرِفِينَ فِي بَيْعِهِمْ
وِشْرَائِهِمْ ، مَطْمَئِنِينَ لَا يَتَعَدَّى أَحَدٌ عَلَيْهِمْ . وَكَذَلِكَ جَمِيعُ فَلَاحِ بِلَادِ الإِسْمَاعِيلِيَّةِ
لَا يَتَعَدَّى أَحَدٌ عَلَيْهِمْ ، وَأَنْ يَكُونُوا آمِنِينَ مَطْمَئِنِينَ فِي جَمِيعِ بِلَادِ الْإِسْتِبَارِيَّةِ ، وَإِنْ
تَعَدَّى أَحَدٌ مِنَ الْجَهَتَيْنِ فِي سُوقٍ أَوْ طَرِيقٍ ، فِي لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ ، تَكُونُ الْمَهْلَةُ خَمْسَةَ عَشَرَ
يَوْمًا ؛ فَإِنْ رَدَّتِ الشُّكُوكُ كُلُّهَا فَسَا يَكُونُ إِلَّا الْخَبَرُ بَيْنَهُمْ ، وَمَنْ تَوَجَّهَتْ عَلَيْهِ الْيَمِينُ
حَلَفَ ، وَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ يَحْلَفْ وَإِلَّا يَرُدُّ الْأَذْيَةَ . وَتَكُونُ الضَّيْعَةُ الَّتِي رَهْنًا عَبْدُ الْمَسِيحِ
رَئِيسُ الْمَرْقَبِ الْإِسْتِبَارِ ، وَهِيَ الْمَشِيرَةُ تَكُونُ آمنةً إِنْ كَانَ الْحَالُ أَسْتَقَرَّ عَلَيْهِمْ إِلَى
آخِرِ وَقْتٍ عِنْدَ كِتَابَةِ هَذِهِ الْهُدْنَةِ الْمُبَارَكَةِ بَيْنَ الْأَصْحَابِ وَأَصْحَابِهِمْ . وَيَحْمِلُ الْأَمْرُ
فِي الْحَقِيقِ ،

ويطُل ما هو على بلاد الدَّعوة المباركة من جميع مائتِ الاستبَار على حماية مضايَف والرَّصافة، وهو في كلِّ سنة ألف ومائتا دينارٍ قومُصية، ونحسون مُدًا حنطة، ونحسون مُدًا شعيرا، ولا تبقى قِطعة على بلاد الدَّعوة جميعها، ولا يتعرَّض بيتُ الاستبَار ولا توأبهم ولا غلمانهم إلى طلب قديم من ذلك ولا جديد، ولا مُنكسر ولا ماض، ولا حاضِر ولا مُستقبل على اختلافه .

وتقرر أن تكون جميع المباحات من الجهتين مُطلقة مما يختص بالملكة الحنُصية، يستزقُ بها الصَّعاليك . وأن توأب الملك الظاهر يحوِّتهم من أذية المسلمين من بلاده المذكورة ، وأن توأب بيتِ الاستبَار يصونونهم ويحرسونهم ويحويهم من النَّصارى والفرنج من جميع هذه البلاد الداخلة في هذه الهدنة . ولا يتعرَّض أحد من المسلمين كافة من هذه البلاد الداخلة في [هذه] الهدنة [إلى بلاد الاستبارية] بأذية ولا إغارة، ولا يتعرَّض أحد من جميع القرَّيجة من هذه البلاد الداخلة في هذه الهدنة بخدودها الجارية في يد توأب الاستبَار وفي أيديهم، إلى بلاد الملك الظاهر بأذية ولا إغارة .

وعلى أنه متى دخل في بلاد المناصقات أحد ممن يجب عليه العِداد وأمتنع من ذلك ، وكان عِدادُ إحدى الجهتين حاضرا : إما عِدادُ ديوان الملك الظاهر، وإما عِدادُ بيتِ الاستبَار ، فلنائب العِداد الحاضر من إحدى الجهتين أن يأخذ من ذلك الشخص الممتنع عن العِداد أو الخارج من بلد المناصقات رهنا بمقدار ما يجب عليه من العِداد، بحضور رئيس من رؤساء بلد المناصقات ، ويترك الرهن عند الرئيس ودبة إلى أن يحضر النائب الآخر من الجهة الأخرى، ويوصل إلى كلِّ من الجهتين حقه من العِداد .

وإن خرج أحد ممن يجب عليه العِداد، ونجَّز النائب الحاضر عن أخذ رهته : فإن دخلَ بلدا من بلاد الملك الظاهر، كان على التوأب إيصال بيتِ الاستبَار إلى حَقِّهم

مما يجب على الخارج من العِدَاد . وكذلك إن دخل الخارج المذكور إلى بيت الاستبارة، كان عليهم أن يوصلوا إلى نواب الملك الظاهر حَقَّهُمْ مما يجب على الخارج من العِدَاد . وكذلك يعتمد ذلك في المملكة الحموية وبلاد الدعوة المحروسة .

وعلى أن التجار والسفّار والمترددين من جميع هذه الجهات المذكورة يكونون آتين من الجهتين : الجهة الإسلامية ، والجهة الفرنجية والنصرانية، في البلاد التي وقعت هذه الهدنة عليها - على النفوس والأموال والدواب وما يتعلق بهم، يجمعهم السلطان ونوابه ، ويتعاهدون البلاد الداخلة في هذه الهدنة المباركة الواقع عليها الصلح وفي بلد المناصفات - من جميع المسلمين . ويجمعهم بيت الاستبارة في بلادهم الواقع عليها الصلح وفي بلد المناصفات - من الفرنج والنصارى كافة .

وعلى أن يتردد التجار والمسافرون من جميع المترددين على أى طريق أخذوا من الطرق الداخلة في عقد هذه البلاد الداخلة في هذه الهدنة المباركة المختصة بالملك الظاهر، وبلاد معاھديه، وبلاد المناصفات، وخاص بيت الاستبارة والمناصفات؛ يكون الساركون والمترددون في الجهتين آتين مطمئنين على النفوس والأموال؛ تحمي كل جهة الجهة الأخرى .

وعلى أن ما يختص بكل جهة من هذه الجهات : الإسلامية ، والفرنجية الاستبارة . لا يكون عداداً على مالها في المناصفات : من الدواب والغنم والبقر والحمل وغيرها ، على العادة المقررة في ذلك .

وعلى أن إطلاق الرِّسَاء يكون باتفاق من الجهتين : الإسلامية ، والفرنجية الاستبارة . ومتى وقعت دعوى على الجهة الأخرى، وقف أمرها في الكشف عنها أربعين يوماً ، فإن ظهرت أعيدت على صاحبها ، وإن لم تظهر حلف ثلاثة

فَقَرَّ مَنْ يَخْتَارُهُمْ صَاحِبُ الدَّعْوَى عَلَى مَا يَعْلَمُونَهُ فِي تِلْكَ الدَّعْوَى، وَإِنْ ظَهَرَتْ بَعْدَ الْيَمِينِ أُعِيدَتْ إِلَى صَاحِبِهَا، وَإِنْ كَانَ قَدْ تَعَوَّضَ عَنْهَا أُعِيدَ الْعَوَضُ .

وَعَلَى أَنْ يَكْتَفُوا عَنْ الْأَخِيذَةِ بِجُوهْدِهِمْ وَمُطَاقَبَتِهِمْ . وَمَتَى تَحَقَّقَتْ أُعِيدَتْ إِلَى صَاحِبِهَا ، فَإِنْ حَلَفُوا بِبِرِّهِمْ مِنَ الدَّعْوَى ، وَإِنْ ظَهَرَتْ بَعْدَ الْيَمِينِ أُعِيدَتْ عَلَى صَاحِبِهَا ، وَإِنْ آمَنَعَ الْمُدَّعَى عَلَيْهِ مِنَ الْيَمِينِ حَلَفَ الْمُدَّعَى ، وَلَا يَسْتَحِقُّ عَوَضَ مَا عَدِمَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مِثْلَهُ . وَكَذَلِكَ يَجْرَى الْأَمْرُ فِي الْقَتْلِ : عَوَضُ الْفَارِسِ فَارِسٌ ، وَعَوَضُ الرَّاجِلِ رَاجِلٌ ، وَعَوَضُ الْبَرَكِلِ بَرَكِلٌ ، وَعَوَضُ التَّبَاحِرِ تَبَاحِرٌ ، وَعَوَضُ الْفَلَاحِ فَلَاحٌ . وَإِذَا أَقْبَضَتِ الْأَرْبَعُونَ يَوْمًا الْمَذْكُورَةَ لِكَشْفِ الدَّعْوَى وَلَمْ يَحْلِفِ الْمُدَّعَى عَلَيْهِ لِلدَّعَى وَجِبَ عَلَيْهِ الْعَوَضُ حَتَّى يَرُدَّ، وَإِنْ رَدَّ الْيَمِينِ عَلَى الْمُدَّعَى وَمَضَى عَلَى ذَلِكَ عَشْرَةَ أَيَّامٍ ، وَلَمْ يَحْلِفِ صَاحِبُ الدَّعْوَى بَطَلَتْ دَعْوَاهُ وَحُكِّمَ بِهَا، وَإِنْ حَلَفَ أَخَذَ الْعَوَضُ .

وَمَتَى هَرَبَ مِنْ أَحَدَى الْجِهَتَيْنِ إِلَى الْأُخْرَى أَحَدٌ ، وَمَعَهُ مَالٌ لغيره أُعِيدَ جَمِيعُ مَالِهِ ، وَكَانَ الْمَسَارِبُ مَحْذُورًا بَيْنَ الْمَقَامِ وَالْعُودِ . وَإِنْ هَرَبَ صِدْقٌ وَخَرَجَ عَنْ دِينِهِ، أُعِيدَ ثَمَنُهُ ، وَإِنْ كَانَ بَاقِيًا عَلَى دِينِهِ أُعِيدَ .

وَعَلَى أَنْ لَا يَدْخُلَ أَحَدٌ مِنَ الْقَاطِنِينَ فِي بِلَدِ الْمَنَاصِفَاتِ : مِنَ الْفَلَاحِينَ وَالْعَرَبِ وَالتَّرَكْمَانِ وَغَيْرِهِمْ ، إِلَى بِلَادِ الْفَرَنْجِ وَالتَّبَارِئِ كَافَّةً لِإِغَارَةِ وَلَا أَذِيَّةٍ يَعْلَمُ الْمَلِكُ الظَّاهِرُ وَبِلَادِ مُعَاوِدِهِ ، [وَلَا يَدْخُلُ أَحَدٌ] بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ لِإِغَارَةٍ وَلَا أَذِيَّةٍ يَعْلَمُ بَيْتَ الْإِسْتِبَارِ وَلَا رِضَاهُمْ وَلَا إِذْنَهُمْ .

وَعَلَى أَنْ الدَّعَاوَى الْمُتَقَدِّمَةُ عَلَى هَذَا الصُّلْحِ يَحْمِلُ أَمْرُهَا عَلَى شَرْطِ الْمُوَاصَفَةِ الَّتِي بَيْنَ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ وَبَيْنَ مُعَاوِدِهِ وَبَيْنَ بَيْتِ الْإِسْتِبَارِ .

(١) كَذَا فِي الْأَصْلِ ، وَلَعَلَّ الصَّوَابَ «وَيَسْتَحِقُّ» كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ .

وعلى أن هذه الهدنة تكون ثابتة مستقرة، لا تنقض بموت أحد من الجهتين، ولا وفاة ملك ولا مُقَدِّم، إلى آخر المدة المذكورة، وهي : عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات، أولها يوم تاريخه .

وعلى أن تُؤَبَّ الملك الظاهر ومعاهديه لا يتركون أحدا من التركان، ولا من العربان، ولا من الأكراد، يدخل بلاد المناصقات بغير اتفاق من بيت الاستتار أو رضاه، إلا أن يكفلوه على نفوسهم في هذه الطوائف المذكورة، ويعلموا حاله، لئلا يتبدوا منهم أذية أو ضرر أو فساد ببلد المناصقات وبلد النصارى . ولتؤاب مولانا السلطان أن تركهم على شرط أنهم يعلم بهم بيت الاستتار في قد زولهم المكان، إن كان المكان قريبا . وإن ظهر منهم فساد كان التؤاب يحاوبون بيت الاستتار . وعلى أن المهادنة بحدودها يكون الحكم فيها كما في المناصقات، والحدود في هذه البلاد جميعها تكون على ما تشهد به نسخ الهدن، وما استقر الحال عليه إلى آخر وقت .

وعلى أن تخلص أمور المملكة الحنضية على ما كان مستقرا في الأيام الأشرفية، على ما قرره الأمير علم الدين «سنجر» .

هذا ما وقع الاتفاق والتراضي عليه من الجهتين . وبذلك جرى القلم الشريف السلطانى الملكى الظاهرى : حجة بمقتضاه، وتأكيدا لما شريح أعلاه . كُتِبَ في تاريخ كذا وكذا .



وهذه نسخة هدية من هذا النمط، عُقدت بين السلطان الملك الظاهر «بيبرس» أيضا، وبين ملكة يبروت من البلاد الشامية، في شهر سنة سبع وستين وستائة حين كانت بيدها، وهي :

استقرت الهدنة المبركة بين السلطان الملك الظاهر ركن الدين «بيبرس» وبين الملكة الجليلة المصونة الفاحرة، فلانة أبنة فلان، مالكة بيروت وجميع جبالها وبلادها التحية مدة عشرين متواليه؛ أولها يوم الخميس سادس رمضان سنة سبع وستين وبسمائة الموافق لتاسع إيار سنة ألف وخمسمائة وثمانين يونانية - على بيروت وأعمالها المضافة إليها، الجارى عادتهم فى التصرف فيها فى أيام الملك الدال، أبى بكر بن أيوب، وأيام ولده الملك المعظم عيسى، وأيام الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز. والقاعدة المستقرة فى زمنهم إلى آخر الأيام الظاهرة، بمقتضى الهدنة الظاهرية. وذلك مدينة بيروت وأما كنهها المضافة إليها: من حد جليل إلى حد صيدا، وهى المواضع الآتى ذكرها: جونية بحدودها، والعذب بحدودها، والعصفورية بحدودها، والزاوق بحدودها، وسن القيل بحدودها، والرح والشوف بحدودها، وانطلياس بحدودها، والحديدة بحدودها، وحسوس بحدودها، والبشرية بحدودها، والدكوانة وبرج قراجار بحدودها، وقرينة بحدودها، والنصرانية بحدودها، وجلدا بحدودها، والناعمة بحدودها، ورأس الفيقه، والوطاء المعروف بمدينة بيروت، وجميع ما فى هذه الأماكن من الرعايا والتجار، ومن سائر أصناف الناس أجمعين، والصادرين منها والواردين إليها من جميع أجناس الناس، والمتزدين إلى بلاد السلطان فلان، وهى: الحميرة وأعمالها وقلاعها وبلادها وكل ما هو مختص بها، والمملكة الأنطاكية وقلاعها وبلادها، وجبله والأدقية وقلاعها وبلادها، ومحص الحروسة وقلاعها وبلادها وما هو مختص بها، ومملكة حصن عكا وما هو منسوب إليه، والمملكة الحموية وقلاعها وبلادها وما هو مختص بها، والمملكة الرجية وما هو مختص بها: من قلاعها وبلادها، والمملكة البعلبكية وما هو مختص بها: من قلاعها وبلادها، والمملكة الدمشقية وما هو مختص بها: من قلاعها وبلادها ورعاياها

وَمَمَالِكِهَا، وَالْمَمْلَكَةُ الشَّقِيفِيَّةُ وَمَا يَخْتَصُّ بِهَا مِنْ قِلَاعِهَا وَبِلَادِهَا وَرِطَايَاها، وَالْمَمْلَكَةُ
الْقُدْسِيَّةُ وَمَا يَخْتَصُّ بِهَا، وَالْمَمْلَكَةُ الْحَلِيبِيَّةُ وَمَا يَخْتَصُّ بِهَا، وَالْمَمْلَكَةُ الْكَرْكِيَّةُ وَالشَّوَبِكِيَّةُ
وَمَا يَخْتَصُّ بِهَا مِنَ الْقِلَاعِ وَالْبِلَادِ وَالرَّعَايَا، وَالْمَمْلَكَةُ النَّابُلُسِيَّةُ، وَالْمَمْلَكَةُ الصَّرْحَدِيَّةُ،
وَمَمْلَكَةُ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ جَمِيعُهَا : بَثْغُورِهَا، وَحُصُونِهَا، وَمَمَالِكِهَا، وَبِلَادِهَا،
وَسَوَاحِلِهَا، وَبَرِّهَا، وَبَحْرِهَا، وَرِطَايَاها، وَمَا يَخْتَصُّ بِهَا، وَالسَّاكِنِينَ فِي جَمِيعِ هَذِهِ
الْمَمَالِكِ : الْمَذْكُورَةِ وَمَا لَمْ يَذْكُرْ مِنْ مَمَالِكِ السُّلْطَانِ وَبِلَادِهِ، وَمَا سَيَفْتَحُهُ اللَّهُ تَعَالَى
عَلَى يَدِهِ وَيَدِ نَوَائِبِهِ وَغُلَامَانِهِ يَكُونُ دَاخِلًا فِي هَذِهِ الْهُدْنَةِ الْمُبَارَكَةِ، وَمُنْتَظَمًا فِي جُمْلَةِ
شُرُوطِهَا، وَيَكُونُ جَمِيعُ الْمُرْتَدِّينَ مِنْ هَذِهِ الْبِلَادِ وَإِلَيْهَا آمِنِينَ مُطْمَئِنِّينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ
وَأَمْوَالِهِمْ وَبَضَائِعِهِمْ، مِنَ الْمَمْلَكَةِ فَلَانَّةَ وَغُلَامَانِهَا، وَجَمِيعَ مَنْ هُوَ فِي حُكْمِهَا وَطَاعَتِهَا :
بَرًّا وَبَحْرًا، لَيْلًا وَنَهَارًا، وَمِنْ مَرَاكِبِهَا وَشَوَانِيهَا . وَكَذَلِكَ رِعِيَةُ الْمَمْلَكَةِ فَلَانَةُ وَغُلَامَانُهَا
يَكُونُونَ آمِنِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَبَضَائِعِهِمْ مِنَ السُّلْطَانِ وَمِنْ جَمِيعِ نَوَائِبِهِ وَغُلَامَانِهِ
وَمَنْ هُوَ تَحْتَ حُكْمِهِ وَطَاعَتِهِ : بَرًّا وَبَحْرًا، لَيْلًا وَنَهَارًا : فِي جَبَلَةٍ، وَالْأَذْقِيَّةِ،
وَجَمِيعِ بِلَادِ السُّلْطَانِ، وَمِنْ مَرَاكِبِهِ وَشَوَانِيهِ .

وَعَلَى أَنْ لَا يُحْدَدَ عَلَى أَحَدٍ مِنَ التُّجَّارِ الْمُرْتَدِّينَ رَسْمٌ لَمْ تَجْرِبْ بِهِ تَادَةٌ، بَلْ يُجْرَوْنَ
عَلَى الْعَوَائِدِ الْمُسْتَعْمَرَةِ، وَالْقَوَاعِدِ الْمُسْتَقَرَّةِ مِنَ الْجِهَتَيْنِ . وَإِنْ عُدِمَ لِأَحَدٍ مِنَ الْجَانِبَيْنِ
مَالٌ، أَوْ أَخِذَتْ أَخِيذَةٌ، وَصَحَّتْ فِي الْجِهَةِ الْأُخْرَى رُدَّتْ إِنْ كَانَتْ مَوْجُودَةً،
أَوْ قِيمَتُهَا إِنْ كَانَتْ مَفْقُودَةً . وَإِنْ خَفِيَ أَمْرُهَا كَانَتْ الْمُدَّةُ لِلْكَشْفِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا،
فَإِنْ وَجِدَتْ رُدَّتْ، وَإِنْ لَمْ تَوْجَدْ حَلَفَ وَإِلَى تِلْكَ الْوَلَايَةِ الْمَدْعَى عَلَيْهِ، وَحَلَفَ
ثَلَاثَةَ نَفَرٍ مِمَّنْ يَخْتَارُهُمُ الْمَدْعَى، وَبَرَّتْ جِهَتُهُ مِنْ تِلْكَ الدَّعْوَى . فَإِنْ أَبَى الْمَدْعَى
عَلَيْهِ عَنِ الْيَمِينِ حَلَفَ الْوَالِي الْمَدْعَى، وَأَخَذَ مَا يَدْعِيهِ . وَإِنْ قُتِلَ أَحَدٌ مِنَ الْجَانِبَيْنِ
خَطَأً كَانَ أَوْ عَمْدًا، كَانَ عَلَى الْقَاتِلِ فِي جِهَتِهِ الْعِوَضُ عَنْهُ نَظَائِرُهُ : فَارِسٌ بِفَارِسٍ،

وَبَرَّيْجِلْ بَرَّيْجِلْ ، وَرَاجِلْ بَرَّيْجِلْ ، وَفَلَّاحُ بَفَلَّاحٍ . وَإِنْ هَرَبَ أَحَدٌ مِنَ الْجَانِبِينَ إِلَى الْجَانِبِ الْآخَرِ بِمَالٍ لَغِيرِهِ ، رَدَّ مِنَ الْجَهْتَيْنِ هُوَ وَالْمَسْأَلُ ، وَلَا يُتَنَدَّرُ بِمُدِيرٍ .

وعلى أنه إن تاجر فرنجي صدر من بيروت إلى بلاد السلطان يكون داخلًا في هذه الهدنة ، وإن مَادَ إلى غيرها لا يكون داخلًا في هذه الهدنة .

وعلى أن المَلِكَةَ فَلَانَةَ لَا تُمَكِّنُ أَحَدًا مِنَ الْفَرَنْجِ عَلَى اخْتِلَافِهِمْ مِنْ قَصْدِ بِلَادِ السُّلْطَانِ مِنْ جِهَةِ يَبُوتَ وَبِلَادِهَا ؛ وَتَمْنَعُ مِنْ ذَلِكَ وَتَدْفَعُ كُلَّ مَطَرُوقٍ بِسُوءٍ ، وَتَكُونُ الْبِلَادُ مِنَ الْجَهْتَيْنِ مَحْفُوظَةً مِنَ الْمُتَجَرِّمِينَ الْمُفْسِدِينَ .

وبذلك أُنْعَقَتِ الْهُدْنَةُ لِلسُّلْطَانِ ، وَتَقَرَّرَ الْعَمَلُ بِهَذِهِ الْهُدْنَةِ وَالْإِتْرَامُ بِعُهودِهَا وَالْوَفَاءُ بِهَا إِلَى آخِرِ مَوْتِهَا مِنَ الْجَهْتَيْنِ : لَا يَنْقُضُهَا مَرُورُ زَمَانٍ ، وَلَا يُغَيِّرُ شَرُوطُهَا حِينَ وَلَا أَوَانَ ؛ وَلَا تُقَضُّ بِمَوْتِ أَحَدٍ مِنَ الْجَانِبِينَ . وَعِنْدَ انْقِضَاءِ الْهُدْنَةِ تَكُونُ التُّجَّارُ أَمْنَيْنِ مِنَ الْجَهْتَيْنِ مَدَّةَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، وَلَا يُنْعَضُ أَحَدٌ مِنْهُمْ مِنَ الْعَوْدِ إِلَى مَسْتَقَرِّهِ ، وَبِذَلِكَ تَمَّ بِهَذِهِ الْهُدْنَةِ الْمُبَارَكَةِ الْخَطُّ الشَّرِيفُ حُجَّةً فِيهَا ، وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ ، فِي تَارِيخٍ كَذَا وَكَذَا .



وهذه نُسخة هُدْنَةٍ عُقِدَتْ بَيْنَ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ «بَيْرَس» وَوَلَدِهِ الْمَلِكِ السَّعِيدِ ، وَبَيْنَ الْفَرَنْجِ الْإِسْبَتَارِيَّةِ ، عَلَى قَلَمَةِ لُدٍّ بِالشَّامِ ، فِي سَنَةِ تِسْعٍ وَسِتِينَ وَسَبْجَانَةَ ، وَهِيَ :

أَسْتَقَرَّتِ الْهُدْنَةُ الْمُبَارَكَةُ بَيْنَ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ رُكْنِ الدِّينِ «بَيْرَسِ الصَّالِحِيِّ» قَاسِمِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَوَلَدِهِ الْمَلِكِ السَّعِيدِ نَاصِرِ الدِّينِ «مُحَمَّدِ بَرَكَةِ خَاقَانَ» خَلِيلِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَبَيْنَ الْمُبَاشِيرِ الْمُقَدَّمِ الْجَلِيلِ أَمِيرِزِ أَوْلَدِ كَالِ مُقَدَّمِ جَمِيعِ بَيْتِ أَسْبَتَارِ سَرَجَوَانَ بِالْبِلَادِ السَّاحِلِيَّةِ ، وَبَيْنَ جَمِيعِ الْإِخْوَةِ الْإِسْبَتَارِيَّةِ ، لِمُدَّةِ عَشْرٍ مَسْنِينَ

كوايل متواليات متتابعات، وعشرة أشهر، أولها مُستهل رمضان سنة تسع وستين
وسمائية للهجرة النبوية المحمدية، الموافق للثامن عشر من نيسان سنة ألف وخمسمائة
وأثنتين وعشرين للإسكندر بن فيلبس اليوناني - على أن تكون قلعة لُد بكالها
وربضها وأعمالها، وما هو منسوب إليها ومحسوب منها، بحدودها المعروفة بها من
تقدم الزمان، وما استقر لها الآن، وما يتعلق بذلك : من المواضع، والمصايد،
والملاحات، والبساتين، والمعاصر، والطواحين، والخزائر : سبلها وجبلها،
وعاصرها، ودائرها، وما يحرق بها من أنهار، وينبع بها من عيون، وما هو مبني بها
من عمار، وما استجد بها من القراج وغير ذلك؛ وكل ما عمر في أراضي المناصفت
على دورها وأنهارها، وما بحدود ذلك من نهر بدرة إلى جهة الشمال، وما استقر
لبلدة من هذه الجهات إلى آخر الأيام الناصرية من الحدود المعروفة بها والمستقرة
لها، وحضن برغين وما ينسب إلى ذلك من البلاد والضيايح والقرى التي كانت
مناصفة - تكون جميع بلدة وهذه الجهات خاصا إلى آخر الزائد لملك الظاهر،
ولا يكون لبنت الاسبتار ولا للرقب فيها حق ولا طلب بوجه ولا سبب إلى حين
انقضاء مدة الهدنة وما بعدها إلى آخر الزائد، ولا لأحد من جميع الفرجة فيها تعلق
ولا طلب بوجه ولا سبب .

وكذلك مهما كان مناصفة، كتملة العليقة في بلادها لبنت الاسبتار، يكون
ذلك جميعه للديوان المعمور والخاص الشريف، ولا يكون للرقب فيها شيء
ولا لبنت الاسبتار .

وكذلك كل ما هو في بلاد الدعوة المباركة جميعها وقلاعها من القرى - لا تكون
فيها مناصفة لبنت الاسبتار ولا للرقب، ولا حق، ولا رسم، ولا شرط، ولا طلب

في جميع بلاد الدَّعوة : مِصْيَافِ المَحْرُوسَةِ ، والكَهْفِ ، والمنْبِقَةِ ، والقُدْمُوسِ ،
والخَوَاصِي ، والرِّصَافَةِ ، والعلِيقَةِ . وكلُّ ما هو في هذه القِلاع وفي بلادها من مُناصِفَةٍ ،
يكون ذلك خاصاً للملك الظاهر ، وليس لبيت الاستتار ولا الفرعجة فيه حَدِيثٌ
ولا طَلَبٌ .

وعلى أن تكون بلادُ المَرْقَبِ وحُدُودُها من نَهْرٍ لُدٍّ ومُقَبَّلًا ومُقَرَّبًا إلى حدود بلاد
مَرْقَبَةِ المَعْرُوفَةِ بها ، الدَّاخلِ جَمِيعُها في الفُتُوحِ الشريفِ ، وأَسْتَقْرَارُها بِحُكْمِ ذلك
في الخِصِّصِ المباركِ الشَّريفِ ، وَحَدِّ اليُوبِ المَحَاضِيَةِ لِسُورِ الرِّضِ ، تستقرُّ جَمِيعُها
مناصِفَةً بين السُّلطانِ وبين بَيْتِ الاسْتِتارِ نِصْفَيْنِ بالسَّوِيَّةِ ، وما في جميع هذه البلاد :
من بَسَاتينَ ، وطواحينَ ، وعِمائرَ ، ومَصابِدَ ، ومَلَاحاتَ ، ووُجُوهِ العَيْنِ ، والمُسْتَغَلَّاتِ
الصَّيْفِيَّةِ والشَّتَوِيَّةِ ، والقَطَانيِ ، والحَقُوقِ المستخرجة ، وما هو مَزْرُوعٌ من التَّدَنِ
لأهل الرِّضِ وبيادِرها : يكونُ ذلك مُناصِفَةً بين السُّلطانِ وبين بَيْتِ الاسْتِتارِ
سَرَجَوَانِ بالسَّوِيَّةِ نِصْفَيْنِ .

وما هو دَاخِلُ الرِّضِ ودَاخِلُ المَرْقَبِ ، فإنه مُطْلَقٌ من المَلِكِ الظَّاهِرِ لَلْقَدَمِ
الكَبِيرِ أَفَرِيزِ أُولَدِ كَالِ مَقْدَمِ بَيْتِ الاسْتِتارِ سَرَجَوَانِ وَخِيَالَتِهِ ، وَرِجَالِهِ وَحِمَائِهِ
وَرِجَالَتِهِ وَرَعِيَّتِهِ ، بِرَسْمِ إقامتهم وسُكُلهم من دَاخِلِ الأَسْوَارِ ، وعن سُورِ الرِّضِ
المَحَاضِيَةِ لِلسُّورِ تكونُ مُناصِفَةً جَمِيعُها ، بما فيه من حَقُوقِ طُرُقَاتِ وَأَحْكَارِ ،
وَمَرَاعِي المَوَاشِي على أَخْتِلَافِ أَصْوَافِها وَأَوْبَارِها ، وَجَمِيعِ السَّخَرِيَّاتِ ، وكلِّ أَرْضِ
مَزْرُوعَةٍ أَوْ غَيْرِ مَزْرُوعَةٍ مِمَّا أُخِذَ مِنْهُ مِنْ حَقٍّ أَوْ عِدَادٍ يكونُ مُناصِفَةً .

وكلُّ ما هو من المَوَاتِي والمَرَامِي البَحْرِيَّةِ المَعْرُوفَةِ جَمِيعُها بِحِصْنِ المَرْقَبِ : من
مِينَا بَلَدَةٍ إِلَى مِينَا القَنْطَرَةِ المُجَاوِرَةِ لِحُدُودِ مَرْقَبَةٍ - تكونُ هي وما يَحْصُلُ مِنْهَا مِنْ

الحقوق المستخرجة من الصادرين والواردين والتجار، وما ينعقد عليه ارتفاعها، وتشهد به الحسابات - جميعه مناصفة . وما يدخل في ذلك من أجناس البضائع على اختلافها يؤخذ الحق [منه] مناصفة على العادة الجارية من غير تغيير لقاعدة من حين أخذ بيت الاستبارة المرقب إلى تاريخ هذه الهدنة المباركة مناصفة على العادة الجارية، بل تجرى التجار في الحقوق على عادتهم في البضائع التي يحضرونها والمتجر كائنا من كان .

يعتمد ذلك في كل ما يصل للترددين والمقيمين بالقلة والرياض : من عامة وغير عامة، وخيالة وغير خيالة، على اختلاف أجناسهم، خلا ما يصل للإخوة ولعلمائهم المعروفين بالإخوة الاستبارية من الحبوب والمثونة والكسوة والخيل التي هي برسم رُكوبهم خاصة، لا يكون عليها حق، بشرط أنه لا يكون فيها للتجار شيء من ذلك، وما خلا ذلك جميعه يؤخذ الحق منه مناصفة على ما شرعناه .

وعلى أنه لا يحمى أحد من الإخوة الخيالة، والوزراء، والكتّاب، والنواب، والمستخدمين شيئاً على اسم بيت الاستبارة، ليستطلق الحق ويمنع من أسديدائه، ولو أنه أقرب إلى المقدم أو ولد المقدم . إذا ظهر منه خلاف ما وقع عليه الشرط، أخذ جميع ماله مستهلكاً للهيئتين : للديوان السلطاني المعمور، وليت الاستبارة، إن كان خارجاً من البحر أو نازلاً إلى البحر، صادراً ووارداً، وكذلك في البر صادراً ووارداً بعد المفاقعة على ذلك وصححه .

وعلى أن نواب المباشرين المقدم الكبير لبيت الاستبارة، وولاته وكتّابه ومستخدميه وخدامه، يكونون أميين مطمئنين على نفوسهم وأموالهم وجميع ما يتعلق بهم . وكذلك علمائنا وولاتنا ونوابنا ومستخدمونا وكتّابنا ورعايا بلادنا يكونون أميين

مُطْمَئِنِّينَ عَلَىٰ نَفْسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ، مُتَّقِينَ عَلَىٰ مَصَالِحِ الْبِلَادِ وَأَخِذَ الْحُقُوقِ ، وَمَسَائِرِ الْمَقَاسِمَاتِ وَالطَّرَقَاتِ وَالْبَسَاتِينَ وَالطَّوَاحِينَ ، وَالْحُقُوقِ الْمَقَرَّةَ عَلَى الْفَدَنِ عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِهَا . وكذلك الرِّأْسَةَ وَأَسْتَخْرَاجَ وَجْهِ الْعَيْنِ ، وَالْحُبُوبِ ، وَالتَّصَارِيفِ الْجَارِي بِهَا الْعَادَةُ الْمَقَرَّةَ عَلَى الْفَدَنِ ، مِنْ جَمِيعِ مَا يَتَعَلَّقُ بِهَا .

وعلى أن جميع الضمانات يكون ثوابُ السالطانِ وثوابُ بيتِ الاستبارة مُتَّفِقِينَ بِجُمْلَةٍ عَلَى ذَلِكَ ، لَا يَنْفَرِدُ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا بِاتِّفَاقٍ وَتَنْزِيلٍ فِي دَفَاتِرِ الدِّيوانِ الْمَعْمُورِ وَدِيوانِ بَيْتِ الْاِسْتِبَارَةِ ، وَلَا يُطْلَقُ وَلَا يُجْبَسُ إِلَّا بِاتِّفَاقٍ مِنَ الْجُهَتَيْنِ ، وَلَا يَنْفَرِدُ وَاحِدٌ دُونَ آخَرٍ .

وعلى أن أَى مُسْلِمٍ تَصَدَّرُ مِنْهُ أَذِيَّةٌ يُحْكَمُ فِيهِ بِمَا يَقْتَضِيهِ الشَّرْعُ الشَّرِيفُ فِي تَأْذِيهِ ، يَتِمُّ ذَلِكَ فِيهِ تَأْيِيدًا : مِنْ شَيْءٍ يَجِبُ عَلَيْهِ ، أَوْ قَطْعُ . أَوْ أَدَبٌ يُحْكَمُ الشَّرْعُ الشَّرِيفُ : مِنْ شَيْءٍ ، وَقَطْعُ ، وَكُلُّ أَعْيُنٍ ، بِحَيْثُ لَا يُمْكَلُ ذَلِكَ إِلَّا بِحَضُورِ نَائِبٍ مِنْ جِهَةِ بَيْتِ الْاِسْتِبَارَةِ ، حَاضِرٌ بِعَيْنِ ذَلِكَ بَعِيْنُهُ ، وَيَكُونُ قَدْ عَرَفَ الذَّنْبَ وَتَحَقَّقَهُ . وَإِنْ كَانَ ذَنْبُهُ يَسْتَوْجِبُ جُنَايَةً أَوْ غَرَامَةً دَرَاهِمٍ أَوْ ذَهَبٍ أَوْ مَوَاشٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِهِ ، يَكُونُ مَا يُسْتَأْذَى مُنَاصَفَةً لِلدِّيوانِ الْمَعْمُورِ وَلِبَيْتِ الْاِسْتِبَارَةِ وَصَاحِبِ الْمَرْقَبِ . فَإِنْ كَانَ فِيهَا قَاسٌ وَبِضَائِعُ عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِهِ ، وَصَاحِبُهُ مُسْلِمٌ ، يَأْخُذُ بِضَاعَتَهُ مِنْ غَيْرِ اعْتِرَاضٍ مِنَ الْجُهَتَيْنِ بَعْدَ آدَاءِ الْحَقِّ لِلدِّيوانِ الْمَعْمُورِ وَلِبَيْتِ الْاِسْتِبَارَةِ . وَإِنْ لَمْ يُعْرِفْ صَاحِبُ الْبِضَاعَةِ وَكَانَتْ مُسْلِمًا ، أُعِيدَتْ لِلزَّانَةِ السُّلْطَانِيَّةِ وَلَا يَكُونُ لِبَيْتِ الْاِسْتِبَارَةِ فِيهَا تَعَلُّقٌ . وَإِنْ كَانَ صَاحِبُ الْبِضَاعَةِ نَصْرَانِيًّا عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِ النَّصْرَانِيَّاتِ ، تُؤْخَذُ بِضَاعَتُهُ مِنْ غَيْرِ اعْتِرَاضٍ مِنْ جِهَتِنَا ، بَعْدَ آدَاءِ الْحَقِّ . وَإِنْ لَمْ يُعْرِفْ صَاحِبُ الْبِضَاعَةِ ، وَكَانَتْ لِنَصْرَانِيٍّ هـ

تَبَقَى تَحْتَ يَدَيْتِ الْإِسْبَتَارِ ، خِلا مِنْ كَانَ مِنْ بِلَادِ مَمْلَكَةِ السُّلْطَانِ عَلَى اخْتِلَافِ دِينِهِ : إِنْ كَانَ نَصْرَانِيًّا أَوْ ذِمِّيًّا ، عَلَى اخْتِلَافِ جَنْسِ دِينِهِ ، لَيْسَ لَبِيتِ الْإِسْبَتَارِ عَلَيْهِمْ أَعْتَرَاضٌ ، وَيَحْمِلُ ذَلِكَ جَمِيعُهُ عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِ الْبِضَائِعِ لِلدِّيَّوَانِ الْمَعْمُورِ .

وعلى أنه متى أَنْكَسَرَ مَرْكَبٌ ، وَظَهَرَ إِلَى بَرِّ الْمَوَانِي بِضَاعَةٌ ، وَقَصَدَ صَاحِبُهُ شَيْلَهُ إِلَى جِهَةِ بِنَارِهَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَلَا يُتَبَعُ ، فَيُؤْخَذُ الْحَقُّ مِنْهُ : إِنْ بَاعَ يُؤْخَذُ الْحَقُّ ، وَإِنْ حَمَلَ يُؤْخَذُ الْحَقُّ ، وَيَكُونُ الْحَقُّ لِلْجِهَتَيْنِ : وَهُوَ الْحَقُّ الْمَعْرُوفُ الْجَارِي بِهِ الْعَادَةُ .

وعلى أن التُّجَّارَ السَّفَّارَةَ وَالْمُتَرَدِّدِينَ بِالْبِضَائِعِ مِنْ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ وَالنَّصَارَى مَتَى مَا خَرَجُوا مِنَ الْمَوَانِي الْمَحْدُودَةِ أَعْلَاهُ يَتَوَجَّهُونَ بِخِفَارَةٍ الْجِهَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ حَقٍّ : لَا يَتَأَوَّلُ مِنْ الْخِفَارَةِ شَيْءٌ مَنَسُوبٌ إِلَى نَفْسِهِمْ إِلَى أَنْ يُحَرِّجَهُمْ وَيُخَضِّرَهُمْ إِلَى بَرِّ حُدُودِ الْمَرْقَبِ آمِنِينَ مُطْمَئِنِّينَ تَحْتَ حِفْظِ الْجِهَتَيْنِ . وَمَتَى وَصَلَ التُّجَّارُ مِنْ مَمْلَكَةِ السُّلْطَانِ إِلَى بِلَادِ الْمَرْقَبِ وَمَوَانِيهَا ، فَالْتَّرْتِيبُ عَلَى الْخِفَارَةِ مِنَ الْجِهَتَيْنِ ، مَعَ تَدْرُكِ الرُّؤَسَاءِ الْحِفْظِ لِلطَّرِيقَاتِ صَادِرًا وَوَارِدًا ، بِحَيْثُ إِنَّهُمْ يَحْضُرُونَ إِلَى بِلَادِ الْمَرْقَبِ ، وَإِلَى الْمَوَانِي بِالْمَرْقَبِ الْمَحْدُودَةِ أَعْلَاهُ ، طَبِيبِينَ آمِنِينَ عَلَى أَرْوَاحِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ بِالْخِفَارَةِ مِنَ الْجِهَتَيْنِ ، عَلَى مَا شَرَحْنَاهُ .

وعلى أن غِلْمَانَ الْمُبَاشِيرِ الْمَقْدَّمِ لَبِيتِ الْإِسْبَتَارِ وَالْإِخْوَةَ وَالْخِدَالَهَ وَالرَّعِيَّةَ الْمُقِيمِينَ بِقَلْعَةِ الْمَرْقَبِ وَالرَّيْضِ ، يَكُونُونَ آمِنِينَ مُطْمَئِنِّينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَمَنْ يَلُودُ بِهِمْ وَيَتَمَلَّقُ ، فِي حَالِ صُدُورِهِمْ وَوُرُودِهِمْ إِلَى بِلَادِنَا الْجَارِيَةِ فِي مَمْلَكَتِنَا فِي الْبَرِّ ، مَنَّا وَمَنْ نَوَاسِنَا بِالْمَمْلَكَةِ وَالْبِلَادِ الْجَارِيَةِ فِي حَكْمِنَا ، وَمَنْ وَلَدَنَا الْمَلِكَ السَّعِيدَ ، وَمَنْ أَمْرَأَتِنَا وَعَسَا كَرْنَا الْمَنْصُورَةَ . وَإِنْ قُتِلَ قَتِيلٌ أَوْ أُخِذَتْ أَخِيذَةٌ فِي حُدُودِ الْمَنَاصِفِ بِبِلَادِ

المَرْقَب ، فيَقْعُ الكَشْفُ عن ذلك عِشرين يوماً : فإن وُجِدَ فاعِلُ ذلك ، يُوَحَّدُ الفاعِلُ بِذَنبِهِ . وإن لم يَظْهَرْ فاعِلُ ذلك مَدَّةَ عِشرين يوماً فَيُحْسَبُ رُؤْسَاءُ مَكَانٍ قَطَعَ الطَّرِيقَ وأَخَذَ الأَخِيذَةَ ، وَقَتْلَ القَتِيلِ ، إن كان أَخَذَ وَقَتْلَ - مَكَانَ مَنْ قَتَلَ القَتِيلَ أو أَخَذَ الأَخِيذَةَ - أَقْرَبَ القُرْبَاءِ إلى الذي قَطَعَ عليه الطَّرِيقَ أو قَتَلَ قَتِيلًا . فإن خَفِيَ الفاعِلُ لذلك ، وَتَجَزَّعَ عن إحصاءه بعد عِشرين يوماً ، يُلْزِمُ أَهْلُ نَوَابِ الجِهَتَيْنِ مِنَ القُرْبَاءِ الأَقْرَبَ لذلك المكافَ بِأَلْفِ دِينَارٍ صُورِيَّةٍ : للدَّيَّوانِ السلطاني النَّصْفُ ، وَلِغَيْبِ الأَسْبَاطِ النَّصْفُ ، ولا تُنْكَاسُ الولاةُ في طَلَبِ ذلك ، وَيَكُونُ طَلَبُهُ يَدًا واحدةً ، ولا يَخْتَصُ الواحدُ دون الآخر . ولا يَحِبَّي أَحَدُ مِنْهُمُ لَأَخَذِ الفَّلَاحِ في هذا أو غيره في مَصْلَحَةِ عِمَارَةِ البلاد ، وَأَسْتِخْراجِ الحُقُوقِ ، وَمُقَاسَمَةِ الدِّالِ ، وَطَلَبِ المُفْسِدِينَ لَيْلاً وَنَهَارًا .

وعلى أن لا تَغْيِرَ المَهِدَّةُ المَبَارَكَةُ بِأَمْرِ من الأَمُور ، لَأَن جِهَتِنَا ولا من جِهَةٍ وَلَدِنَا المَلِكُ السَّعِيدُ ، إلى أَتْقِضَاءِ مَدَّتِهَا المَعِينَةُ أَغْلَاهُ وَفَرَّوْغَهَا . ولا تَتَغَيَّرُ بِتَغْيَرِ المُبَادِمِ المَبَاشِيرِ لَيْتَ الأَسْبَاطِ الحَاكِمِ على المَرْقَبِ وغيره . وإذا جَرَتْ قِضْيَةٌ في أَمْرٍ من الأُمُور يَعْرِفُهُم نَوَابُنَا ، وَيَحَقِّقُ الكَشْفُ إلى مَدَّةِ أَرْبَعِينَ يَوْماً ، فَنَ يَكُونُ لِلْبِدَايَةِ يَخْرُجُ مِنْهَا على من سب (٩) وَيَكُونُ قَدْ عَرَفَ دَيْنَهُ الذي بدأ من جِهَةٍ كُلِّ واحدٍ . وإذا تَغَيَّرَ النَوَابُ بِالْمَرْقَبِ وَحَصَرَ نَائِبٌ مُسْتَجِدٌّ يَعْتَمِدُ مَا تَضَمَّنَتْهُ هَذِهِ المَهِدَّةُ ، ولا يَخْرُجُ عن هذه المُواصِفَةِ . وإذا تَسَعَّبَ من المَسَامِينِ أَحَدٌ على أَخْتِلَافِ أَجْناسِهِ ، إن كان مَمْلُوكًا أو غَيْرَ مَمْلُوكٍ ، أو مَعْتُوقًا أو غَيْرَ مَعْتُوقٍ ، أو كَاتِبًا مَنْ كان من المَسَامِينِ على أَخْتِلَافِ مَنَازِلِهِمْ ، وإن كان غُلَامًا أو غَيْرَ غُلَامٍ - يَرُدُّ بِجَمِيعٍ ما يُوْجَدُ مَعَهُ ، إن كان قَلِيلًا أو كَثِيرًا يَرُدُّ . ولو أَنَّ المَتَسَعِّبَ دَخَلَ الكَنِيسَةَ وَجَلَسَ فِيهَا يُمَسِّكُ بِيَدِهِ وَيَخْرُجُ وَيَسْلُمُ لِنَوَابِنَا بِجَمِيعٍ ما مَعَهُ ، وإن كان خَبَلًا أو قَاشًا أو دَرَاهِمَ أو ذَهَبًا

وما يتعامل الناس به ، يَسْلَمُ بما معه إلى نوابنا على ما شَرَحناه . وكذلك إذا تَسَحَّبَ أحدٌ من جَهِتِهِم من الفَرْنَجِ أو النَّصارَى إلى أبوابنا الشريفة ، أو وَصَلَ إلى جِهةِ نوابنا يَمْسُكُ وَيَسْلَمُ بما يحضُرُ معه : من الخَيْلِ والأَفْشَةِ والعَدَّةِ وجميع ما يَصِلُ إن كان قَدِلاً أو كثيراً ، يُمسِكُهُ نوابنا وَيُسَلِّمُونَ ذلك بما معه لِنائبِ المَقْدَمِ الماسِتر المَقِمْ بالمَرْقَبِ ، وأخذوا الخطوط بذلك بِتَسْلِيمِهِ بما حضُرَ معه .

وعلى أنهم لا يكونُ لهم حديثٌ مع قَلْعَةِ العليقة ، ولا الرِّعَةِ الذين فيها ، ولا مع نوابِ ابنِ الرِّدِّيِّ المقيمين فيها : لا بِكُتَّابٍ ، ولا بِمَشَافِهِةٍ ، ولا بِرِسَالَةٍ ، ولا بِقَوْلٍ ، ولا يَطْلُعُ أحدٌ من جَهِتِهِم إليهم ؛ ولا يَمْكُنُ أحدٌ من الحضور إليهم ، [والوصول] إلى جَهِتِهِم من القَلْعَةِ المذكورة ؛ ولا تُسِيرُ إليهم مَثُونَةٌ ولا تجارة ولا جَلَبٌ على اختلاف أجناسه ، ولا تكونُ بينهم معاملة . وإن حضُرَ أحدٌ من جِهةِ قَلْعَةِ العليقة إليهم يُسَكُّونَ وَيُسَلِّمُونَ لنوابنا ويأخذوا بذلك خُطوطَهُمْ .

وعلى أنهم لا يَحْدِدُونَ عِمَارَةَ قَلْعَةٍ ، ولا في القَلْعَةِ عِمَارَةً ، ولا في البدنة ولا في أبراجها ؛ ولا [يعتمدون] إصلاحَ شَيْءٍ منها إلا إذا عاينه نوابنا أو أبصروا أنه يحتاج إلى الصُّرورة في ترميمٍ يَرْمُونَهُ بعد أن يُعايِنَهُ نوابنا من هذا التاريخ ؛ ولا يَحْدِدُونَ عِمَارَةً في رَبعِها ، ولا في سُورِها ، ولا في أبراجها ، ولا يَحْدِدُونَ حَفَرَ خَنْدِقٍ ، وعِمارة خَنْدِقٍ ، أو تُجَمِّدُ بِنَايَةَ خَنْدِقٍ أو قَطْعُ جَبَلٍ ، أو تُحَصِّنُ عِمارة ، أو تُحَصِّنُ بَقْطَعِ جَبَلٍ ، منسوباً لِتَحْصِينِ يَمْعٍ أو يَنْقَعٍ . ولم نأذنْ لهم بِسَوَى البِنَايَةِ [على] أثرِ الدُّورِ التي أحرقت عند دُخُولِ السَّاسِكِ صُحْبَةِ المَلِكِ السَّعِيدِ . وقد أذنّا لهم في عِمارة باطن الرِّبَضِ على أثرِ الأساس القديم .

وعلى أن صِهْيُونََ وأعمالها ، ورومه (٩) وأعمالها ، والقليعة وأعمالها ، وعِيدُوبَ وأعمالها ، الجارية تحت نَظَرِ الأميرِ سَيِّفِ الدِّينِ محمد بنِ عُثمانِ صاحبِ صِهْيُونََ -

يجرى حُكْم هذه البلاد المختصة به حُكْم بلادنا في المُهادنة، بحُكْم أَنَّ بلادَه المذكورة جارية في ممالك الشَّريفة .

وعلى أنه لا يُمكنُ بَيْتُ الأَسبَثار من دُخُول رَجُلٍ غَريبَةٍ في البرِّ ولا في البَحْرِ إلى بلادنا، بأَذِيَةٍ ولا ضَرَرٍ يعودُ على الدَّولة ، وعلى بلادنا وحُصُوننا ورِعِيَّتنا ، إلا أن يكونوا يداً غَالِيَةً ، مُحِبَّةً مَلِكٍ مُتَوَجِّحٍ .

وعلى أَنَّ البُرْجَ الداخِلَ في المُناصِفَةِ ، وهو بُرْجُ مُعاوِيَةَ الذي عند المُحاصِصَةِ الداخِلَةِ في مَنَاصِبِ المَرْقَبِ الآنَ ، يُحَرَّبُ ما يُحْصَنُنا منه ، وهو النِّصْفُ من البُرْجِ المذكورِ أعلاه . وأن الحُسْرَ المعروفَ بِحُسْرِ بِلْدَةِ لَمْ يَكُنْ لِيَتَّي الأَسبَثار فيه شيءٌ من البرِّين ، وأنه خالِصٌ للذِيوان المَعْمُورِ دُونَ بَيْتِ الأَسبَثار . وأن الدَّارَ المُستَجِدَّةَ عِمَارَتُها بِقَلْعَةٍ المَرْقَبِ بِرِسمِ المَاسِترِ المُقَدَّمِ الكَثيرِ ، الذي هو عازِز تَكِيلِ عِمارةِ سَقْفِ القَبْرِ بِالحِجارةِ والكَلِيسِ ، لا تَكُلُّ عِمَارَتُها ، وَيَقُيْ على حاله ، وهو في وَسَطِ القَلْعَةِ الظَّاهِرِ منه قَلِيلٌ إلى البرِّ الشَّرْقِيِّ وهو المَذْكُورُ أعلاه .

وعلى أَنَّ تَوَابَ الأَسبَثارِ بِالمَرْقَبِ لا يُخْفُونَ شَيْئاً من مُقاسِماتِ البلادِ ولا شَيْئاً من حُقوقِها الحارِي بها العادةُ أَنَّ يَتَّي الأَسبَثارِ يَسْتَخْرِجُونَهُ ولا يُخْفُونَ منه شَيْئاً ؛ وَكُلُّ ما كانَ يَسْتَأْذِي من البلادِ في أَيْدِي الأَسبَثارِ قَبْلَ هذه المُهْدَنَةِ يُطْلَمُونَ تَوَابَتاً عَلَيْهِ ولا يُخْفُونَ منه شَيْئاً قَلِيلاً ولا كَثِيراً من ذلك .

وعلى أَنَّ السُّلْطَانَ بِأَمْرِ تَوَابِهِ يَحْفَظُ مُناصِفاتِ بلادِ المَرْقَبِ الداخِلَةِ في هذه المُهْدَنَةِ ، من المُفْسِدِينَ والمُتَلَصِّصِينَ والحَرَامِيَّةِ مِن هُو في حُكْمِهِ وَطاعَتِهِ . وكذلك المَاسِترُ المُقَدَّمُ أَفْرِيزُ أَوْلَدِ كَالِ يَلْزِمُ ذلكَ من الجِهةِ الأُخْرَى . ومَتَى وَقَعَ - والعِيادُ بِاللَّهِ - فَسَخٌّ بِسَبَبٍ من الأَسبابِ ، كانَ التُّجَّارُ والسُّفَّارُ آمِنِينَ من الجِلهَتَيْنِ إلى

أن يعودوا بأموالهم ، ولا يُمنعون من السفر إلى أُمّا كِنهم من الجهتين ، وتكونُ النهايةُ لهم أربعين يوماً . وتكونُ هذه الهدنةُ متعقّدةً بشروطها المذكورة ، مُستقرّةٌ بقواعدها المسطورةُ للذّةِ المعيّنة ، وهى : عَشْرَ سنين وعشرةُ أشهرٍ كوايل ، أوّلُها مُستهلُّ رمضان سنة تسع وستين وستمائة إلى آخرِها ، متابعةً متواليّةً ، لا تفسخُ بموتِ أحدٍ من الجهتين ، ولا بعزلِ وإلٍ وقيامٍ غيره موضعه ، ولا زوالِ رجلٍ غربيّة ، ولا حُضورِ يدٍ غاليّة ؛ بل يلزمُ كلّاً من الجهتين حفظُها إلى آخرِها ، ومن تولى بعد الآخرِ حفظُها إلى آخرِها ، بالشروطِ المشروطةِ فيها أوّلاً وآخرًا . والخطُ أعلاه ، حَجّةٌ بمقتضاه ، إن شاء الله تعالى . فى تاريخ كذا وكذا .



وهذه نُسخةُ هُدْنَةٍ عُقِدَتْ بين السلطانِ المَلِكِ المنصورِ « قَلاوون » الصالحِ صاحبِ الدِّيارِ المِصرِيّةِ والبلادِ الشاميّةِ وولَدِهِ المَلِكِ الصالحِ « عَلِيّ » وَلِيَّ عَهْدِهِ ، وبينَ حُكّامِ القَرْنجِ بَعكًا وما معها من بلادِ سَوَاحِلِ الشّامِ ، فى شَهْرِ سنةِ اثنتين وثمانين وستمائة ، وهى يومئذٍ بأيديهم . وصُورَتُها :

أَسْتَقَرَّتِ الهدنةُ بينَ مولانا السلطانِ المَلِكِ المنصورِ سَيِّفِ الدِّينِ أبى الفَتّاحِ « قَلاوون » المَلِكِ الصّالِحِ وولَدِهِ السلطانِ المَلِكِ الصالحِ علاءِ الدِّينِ « عَلِيّ » - خَلَدَ اللهُ تَعَالَى سُلْطَنَتَهُمَا - وبينَ الحُكّامِ بِمَمْلَكَةِ عَكّا ، وصَيْدَا ، وَعَثَلِيثَ ، وبلادِها التى آتَفَقَدَتْ عليها هذه الهدنةُ ، وهم : الشَّيْخَانِ أودهيل المملِكةِ بَعكًا ، وحَضْرَةُ المَقْدَمِ الجليلِ افريز كاسام دسا حول (؟) مَقْدَمُ بَيْتِ الديويّةِ ؛ وحَضْرَةُ المَقْدَمِ الجليلِ افريز سكفل للورن (؟) مَقْدَمُ بَيْتِ الاسبارية ، والمرشان الأجلُّ افريز كورات نائِبُ مَقْدَمِ بَيْتِ الاسبتار الآمن - لَمَدَةِ عَشْرِ سنين كوايل ، وَعَشْرَةَ أَشْهُرَ ، وعشرةِ أَيّامَ ،

وعشر ساعات : أوّلها يومُ الخميس خامسُ ربيعِ الأوّل سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة للهجرة النبوية ، صلواتُ الله على صاحبها وسلّامه ، الموافقُ للثالث من حزيران سنة ألف وثمانمائة وأربع وتسعين لعلبة الإسكندريّين فيلبس اليونانيّ - على جميع بلاد السلطان ولده ، وهى التى فى مملكتها وتحت حكمها وطاعتها وما تحويه أيديهما يومئذ : من جميع الأقاليم والممالك ، والقلاع ، والحُصُون الإسلامية ، وتغر دِمياط ، وتغر الإسكندرية المحروستين ، وتسترّو ، وتسترية وما ينسب إليها من الموانئ والسواحل ، وتغر فوة ، وتغر رشيد ، والبلاد المجازية ، وتغر غزة المحروس ، وما معها من الموانئ والبلاد ، والمملكة الكركية ، والشويكة وأعمالها ، والصلت وأعمالها ، وبصري وأعمالها ، ومملكة بلاد الخليل صلواتُ الله عليه وسلّامه ، ومملكة القدس الشريف وأعمالها ، وبيت لحم وأعماله وبلاده ، وجميع ما هو داخلُ فيها ومحسوبٌ منها ، وبيت جبريل ، ومملكة نابلس وأعمالها ، ومملكة الأطرون وأعمالها ، وعسقلان وأعمالها وموانئها وسواحلها ، ومملكة باقا والرملة ومينائها ، وقيسارية ومينائها وسواحلها وأعمالها ، وأرسوف وأعمالها ، وقلة قاقون وأعمالها وبلادها ، وأعمال العوجاء وما معها من الملاحة ، والفتوح السعيد وأعمالها ومزارعها ، ويسان وأعمالها وبلادها ، والطور وأعماله ، والجعون وأعماله ، وجنين وأعمالها ، وعين جالوت وأعمالها ، والقيمون وأعماله وما يُنسبُ إليه ، وطبرية وبحيرتها وأعمالها وما معها ، والمملكة الصفدية وما يُنسبُ إليها ، وتينين وهونين وما معهما من البلاد والأعمال ، والشقيف المحروس المعروف بشقيف أرنون وما معه من البلاد والأعمال وما هو منسوبٌ إليه ، وبلاد القرن وما معه خارجاً عما عيّن في هذه الهدنة المباركة ، ونصف مدينة إسكندرونة ، ونصف ضيعة مارب بقدنيهما وكروميهما وبساتينيهما وحقوقهما ؛ وما عدا ذلك من حقوق إسكندرونة

المذكورة ، يكون جميعه بحدوده وبلاده للسلطان المليك المنصور ولولده النصف ،
والنصف الآخر لمملكة عكا . والقلاع العزى وأعماله ، وشعرا وأعمالها ، وشقيف
تبرون وأعماله ، والعاصم جميعها ولا ما غيرها (١) ، وبانياس وأعمالها ، وقلة الصبيبة
وأعمالها وما معها من البحيرات والأعمال ، وكوكب وأعمالها وما معها ، وقلة تجلون
وأعمالها ، ودمشق والمملكة الدمشقية - حرمها الله تعالى - وما لها من القلاع والبلاد
والممالك والأعمال ، وقلة بعلبك المحروسة وما معها وأعمالها ، ومملكة حصص وما لها
من الأعمال والحدود ، ومملكة حماة المحروسة ومدينتها وقلاعها وبلداتها وحدودها ،
وبلاطنس وأعمالها ، وصيون وأعمالها ، وبرزيه وأعمالها ، وقنوات حصن
الأكراد المحروس وأعماله ، وصافيتا وأعمالها ، وأعمالها ، والعريمة
وأعمالها ، وقديا وأعمالها ، وحلبا وأعمالها ، والقليعة وأعمالها ، وحصن عكار
وأعماله وبلاده ، وقلة شيرز وأعمالها ، وأقمية وأعمالها ، وجبله وأعمالها ،
وأبو قبيس وأعماله ، والمملكة الحلبية وما هو مضاف إليها من القلاع والمدن والبلاد
والحصون ، وأنطاكية وأعمالها وما دخل في الفتوح المبارك ، وبغراس وأعمالها ،
والدربسالك وأعمالها ، والراوندان وأعمالها ، وعيتاب وأعمالها ، وحارم وأعمالها ،
ويبرين وأعمالها ، وسح الحديد وأعماله ، وقلة نجم وأعمالها ، وشقيف دركوش
وأعماله ، والشفر وأعماله ، وبكاس وأعماله ، والسويداء وأعمالها ، والباب وبزاعا
وأعمالها ، وألبيرة وأعمالها ، والرجبة وأعمالها ، وسامية وأعمالها ، وشيمس
وأعمالها ، وتدمر وأعمالها وما هو منسوب إليها ، وجميع ما هو منسوب لمولانا
السلطان ولولده من البلاد التي عُبئت في هذه الهدنة المباركة ، والتي لم تُعين .

(١) أوردتها ياقوت في معجم البلدان هكذا : برزويه ، وذكر أن العامة تقول : برزیه كما هنا .

(٢) بياض بالأصل .

وعلى جميع العساكر ، وعلى جميع الرعايا من سائر الناس أجمعين : على اختلافهم ، وتغير أقطارهم وأجناسهم وأديانهم ، للقاطنين فيها ، والمترددِينَ في البر والبحر ، والسَّهْلِ والجَبَلِ ، في اللَّيْلِ والنَّهَارِ ، يكونون آمنين مطمئنين في حالتِ صُدُورِهِمْ ووُرُودِهِمْ - على أنفسهم ، وأموالهم ، وأولادهم ، وحريمهم ، وبضائعهم ، وغلمانهم ، وأتباعهم ، ومواسيهم ، ودوابهم ، وعلى جميع ما يتعلق بهم ، وكل ما تحوي أيديهم من سائر الأشياء على اختلافها ، من الحكماء بمملكة عكا : وهم كَقَبِيلِ الْمَلَكَهْ بها ، والمُقَدَّمُ أفريز كليام دسا حول (٩) مُقَدَّمُ بَيْتِ الدِّيوية ، والمُقَدَّمُ أفريز بيكوك للورن (٩) ، وأفريز اهداب نائب مُقَدَّمُ بَيْتِ الاسبتار الآمين ، ومن جميع الفَرَجِ والإخوة ، والفرسان الدَّاخلِينَ في طاعتهم وتحتويهِ مملكتهم السَّاحِلِيَّةُ ، ومن جميع الفَرَجِ على اختلافهم ، الذين يَسْتَوِطِنُونَ عَكَا والبلاد السَّاحِلِيَّةَ الدَّاخِلَةَ في هذه الهُدُنَةِ من كُلِّ وَاصِلٍ إليها في برٍّ أو بحرٍ على اختلاف أجناسهم وأقطارهم ، لا ينالُ بلادَ السُّلْطَانِ وَلَدِهِ ، ولا حُصُونَهُمَا ، ولا فَلَاحَهُمَا ، ولا بِلَادَهُمَا ، ولا ضِيَاعَهُمَا ، ولا عَسَاكِرَهُمَا ، ولا جُيُوشَهُمَا ، ولا عَرَبَهُمَا ، ولا تُرُكْمَانَهُمَا ، ولا أَكْرَادَهُمَا ، ولا رعايَاهُمَا ، على اختلاف الأجناس والأنفار ، ولا ما تحويه أيديهم من المَواشِي والأموالِ والغلالِ وسائر الأشياءِ منهم غَدَرٌ ولا سُوءٌ ، ولا يَحْشَوْنَ من جميعهم أَمْرًا مَكْرُوهًا ولا إغَارَةً ، ولا تَعَرُّضًا ولا أَذِيَةً .

وكذلك ما يَسْتَفْتِحُهُ وَيُضَيِّقُهُ السُّلْطَانُ وَلَدُهُ على يَدَيْهِمَا ، وعلى يَدَيِ تَوَابِعِهَا وَعَسَاكِرِهَا : من بلادٍ ، وحُصُونٍ ، وقِلاعٍ ، وَمَلِكٍ ، وأَعْمَالٍ ، وولاياتٍ ، برًّا وبحرًا ، سَهْلًا وَوَعْرًا .

وكذلك جميع بلادِ الفَرَجِ التي آسَتْقَرَّتِ الآنَ عليها هذه الهُدُنَةُ : وهى مدينةُ عَكَا وبساتينها ، وأراضيتها وطواحينها ، وما يختص بها من كُرُوهها ، وما لها من

حُقُوقِ حَوْلَهَا ، وما تَهْزُلُهَا مِنْ بِلَادٍ فِي هَذِهِ الْهُدْنَةِ وَهِيَ : الْبَصَّةُ وَمَزْرَعَتُهَا ،
 مَجْدَل ، حَمَصِينَ ، رَأْسَ عِبْدَه ، الْمَنَوَاتُ وَمَزْرَعَتُهَا ، الْكَابِرَةُ وَمَزْرَعَتُهَا ، نَصَفَ وَفِه
 جَعُونَ ، كَفَرُ بَرْدَى وَمَزْرَعَتُهَا ، كَوَكَبُ عَمَقَا وَمَزْرَعَتُهَا ، الْمُونِيَه ، كَفَرُ يَاسِيف
 وَمَزْرَعَتُهَا ، تُوسِيَان ، مَكْرُ حَرْسِينَ وَمَزْرَعَتُهَا ، الْحَدِيدَةُ ، الْغِيَاضَةُ ، الْعَطَوَانِيَه ، مَرْتَوْقَا
 الْحَارِثِيَه ، ثَمَرَا الطَّرَه ، الرَّب ، الْبَاوُحَه وَمَزْرَعَتُهَا ، الْعَرَج وَمَزْرَعَتُهَا ، الْمَزْرَعَةُ
 السَّعِيرِيَه الْبَيْضَاء ، دَعُوق وَالطَّاحُونَ ، كَرْدَاهِ وَالطَّاحُونَ ، حَدْرُول ، تَلِ النَّحْل ،
 الْغَار ، الرَّخ وَالْمَجْدَل ، تَلِ كَيْسَان ، الْبُرُوه ، الرَّامُونَ ، سَاسَا السِّيَاسِيَه ، الشَّبِيكَه ،
 الْمَشِيرِقَه ، الْعَطَرَانِيَه ، الْمَنِير ، أَكْلِيل ، هَرِيَا سَيْفِ الْعَرَبِيَه ، هَوْشَه ، الزَّرَاعَةُ
 الْجَدِيدَةُ الشَّالِيَه ، الرَّحَاحِيَه ، قَسَطَه ، كَفَرُ نَبْتَل ، الدُّوِيرَات ، مَاصُوب ، مَتَاس
 الْعَاسِيَه ، سِيْعَاه ، عَيْنِ الْمَلِك ، الْمَنْصُورَه ، الرِّضْفِيَه ، حَامَا ، سَرَطَا ، كَفَرَتَا ،
 أَرْضُ الزَّرَاعَةِ ، رُولَس ، صَفْدُ عَدَى ، سَفَرَعَم . هَذِهِ الْبِلَادُ الْمَذْكُورَةُ [تَكُونُ]
 خَاصًّا لِلْقَرْيَمَج . حِيْفَا وَالْكُرُومُ وَالْبَسَاتِينُ الَّتِي لَهَا جَمِيعُهَا ، وَالْقَصْرُ وَهُوَ الْحَوْشُ
 وَكَفَرُ ثَوْنَا ، وَهِيَ : الْكَنِيسَةُ ، وَالطَّيْرَةُ ، وَالسَّعْبَةُ ، وَالسَّعَادَةُ ، وَالْمَعْرُ ، وَالْبَاجُورُ ،
 وَسُومَرَا . تَكُونُ حِيْفَا وَهَذِهِ الْبِلَادُ الْمَذْكُورَةُ بِمَحْدُودِيهَا وَأَرَاضِيهَا خَاصَّةً لِلْقَرْيَمَج .
 وَكَذَلِكَ قَرْيَةُ مَارَسَا نَارَه بَهَا ، الْمَعْرُوفَةُ بِهَا وَكُرُومُهَا وَغُرُوسُهَا يَكُونُ خَاصًّا لِلْقَرْيَمَج .
 وَدِيرُ السِّيَاح ، وَدِيرُ مَارْلَبَاسَ بِأَرَاضِيهِمَا الْمَعْرُوفَةُ بِمَا وَكُرُومُهُمَا وَبَسَاتِينُهُمَا يَكُونُ
 خَاصًّا لِلْقَرْيَمَج .

وَعَلَى أَنْ يَكُونَ لِلسُّلْطَانِ الْمَلِكِ الْمَنْصُورِ وَلَوْلَدِهِ الصَّالِحِ : مِنْ بِلَادِ الْكِرْمَلِ ، وَهِيَ :
 الدَّالِيَه ، وَدُونَه ، وَضَرْبِيَه الرِّيح ، وَالكَرْكُ ، وَمَعْلِيَا ، وَالرَّامُونَ ، وَلُوسَه ، وَنَسُور ،

(١) لم نقف على أكثر هذه البلاد بعد البحث عنها في معجم ياقوت وتقوم البلدان . لذلك تبعنا الأصول في الإهمال والنقطة .

ونخبة يونس، ونخبة نخيس، ورشما، ودوانه، يكون خاصاً للفرنج في بلاد أخرى ذكرها . وما عدا ذلك من البلاد الجبلية جميعها للسلطان ولولده بكاملها .

وتكون جميع هذه البلاد المكاوية وما عين في هذه الهدنة المباركة من البلاد الساحلية آمنة من السلطان الملك المنصور ولده الملك الصالح ، وآمنة من عساكرهما وجنودهما ومن خديهما ، وتكون هذه البلاد المشروحة أعلاه ، الداخلة في هذه الهدنة المباركة : الخاص بها ، وما هو مناصفة - مطمئنة هي ورباطها ، وسائر أجناس الناس فيها ، والقاطنين بها ، والمترددین إليها على اختلاف أجناسهم وأديانهم ، والمترددین إليها من جميع بلاد الفرنجة والسفار ، والمترددین منها إليها في بر وبحر ، في ليل أو نهار ، سهل وجبل ، آمنين على النفوس والأموال والأولاد ، والمراكب والدواب ، وجميع ما يتعلق بهم ، وكل ما تحويه أيديهم من الأشياء على اختلافها ، من السلطان ولده ، وجميع من هومت طاعتها : لا ينالهم ولا ينال هذه البلاد المذكورة التي آمنت عليها الهدنة سوء ولا ضرر ولا إغارة ، ولا ينال إحدى الجهتين المذكورتين : الإسلامية والفرنجية من الأخرى ضرر ولا أذية ، ويكون ما تقرّر أنه يكون خاصاً للفرنج حسب ما عين أعلاه لهم ، وما تقرّر أن يكون للسلطان ولولده خاصاً لها ، والمناصفات تكون كما شريح . ولا يكون للفرنج من البلاد والمناصفات إلا ما شريح في هذه الهدنة وعين فيها من البلاد .

وعلى أن الفرنج لا يمدّدون في غير عكا وعثليت وصيدا : مما هو خارج عن أسوار هذه الجهات الثلاث المذكورات ، لا قلعة ، ولا برجا ، ولا حصنا ، ولا مستجدا .

وعلى أنه متى هرب أحد - كائنا من كان - من بلاد السلطان ولده إلى عكا والبلاد الساحلية المعينة في هذه الهدنة ، وقصد الدخول في دين النصرانية وتصر

بإرادته، يُرَدُّ جميع ما يروُحُ معه وَيَبْقَى عُربَانَا . وإن كان ما يقصدُ الدُّخُولَ في دين النصرانية ولا يَنْتَصِرُ، رُدَّ إلى أبايهما العالِيَةِ بجميع ما يروُحُ معه، بشفاعةِ نَفَةٍ بعد أن يُعْطَى الأمان . وكذلك إذا حَضَرَ أحدٌ من عَمَّا والبلادِ السَّاحِلِيَةِ الداخِلَةِ في هذه الهُدْنَةِ، وقصدَ الدُّخُولَ في دينِ الإسلامِ وأسلمَ بإرادته، يَرُدُّ جميعُ ما معه ويَبْقَى عُربَانَا . وإن كان ما يقصدُ الدُّخُولَ في دينِ الإسلامِ ولا يُسْلِمُ، يَرُدُّ إلى الحُكَّامِ بَعَكَا، والمُقَدِّمِينَ بجميع ما يروُحُ معه بشفاعةِ بعد أن يُعْطَى له الأمان .

وعلى أن المنوعاتِ المعروفَ مَنَعَهَا قَدِيمًا تَسْتَقِرُّ عَلَى قَاعِدَةِ الْمَنَعِ مِنَ الْجُهَنِينَ . ومتى وُجِدَ مع أحدٍ من ثُجَّارِ بلادِ السُّلْطَانِ وَلَدَهُ مِنَ الْمَسْلَمِينَ وغيرهم على اختلاف أديانهم وأجناسهم شَيْءٌ مِنَ الْمُنَوَعَاتِ بَعَكَا والبلادِ السَّاحِلِيَةِ الداخِلَةِ في هذه الهُدْنَةِ، مثلَ عَدَةِ السَّلَاحِ وغيره، يُعَادُ عَلَى صَاحِبِهِ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْهُ، ويُعَادُ إِلَيْهِ مَنَّمَهُ، وَيُرَدُّ وَلَا يُؤْخَذُ مَالُهُ اسْتِهْلَاكًا، وَلَا يُؤْذَى . ولِلسُّلْطَانِ وَلَوْلَدِهِ أَنْ يَفْتَصِلَا فِي مَنْ يَخْرُجُ مِنْ بِلَادِهِمَا مِنْ رَعِيَّتَيْهِمَا، عَلَى اخْتِلَافِ أديانهم وأجناسهم، بِشَيْءٍ مِنَ الْمُنَوَعَاتِ . وكذلك كَفِيلُ الْمَلِكَةِ بَعَكَا والمُقَدِّمُونَ لَهُمْ أَنْ يَفْتَصِلُوا فِي رَعِيَّتِهِمُ الَّذِينَ يَخْرُجُونَ بِالْمُنَوَعَاتِ مِنْ بِلَادِهِمُ الدَّاخِلَةِ فِي هَذِهِ الْهُدْنَةِ .

ومتى اخْتَدَتْ أَخِيذَةٌ مِنَ الْجَانِيَيْنِ، أَوْ قُتِلَ قَتِيلٌ مِنَ الْجَانِيَيْنِ، عَلَى أَى وَجْهِ كَانَ - وَالْعِيَادُ بِاللَّهِ - رُدَّتِ الْأَخِيذَةُ بَعَيْنِهَا إِنْ كَانَتْ مُوجُودَةً، أَوْ قِيمَتُهَا إِنْ كَانَتْ مَفْقُودَةً . وَالْقَتِيلُ يَكُونُ الْعَوْضُ عَنْهُ بِنَظِيرِهِ مِنْ جَنْسِهِ : فَارِسٌ بِفَارِسٍ، وَبَرِّيْكِلٌ بِبَرِّيْكِلٍ، وَتَاجِرٌ بِتَاجِرٍ، وَرَاجِلٌ بِرَاجِلٍ، وَقَلَّاحٌ بِقَلَّاحٍ . فَإِنْ خَفِيَ أَمْرُ الْقَتِيلِ وَالْأَخِيذَةِ، كَانَتِ الْمَهْلَةُ فِي الْكَشْفِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، فَإِنْ ظَهَرَتِ الْأَخِيذَةُ أَوْ تَعَيَّنَ أَمْرُ الْمَقْتُولِ، رُدَّتِ الْأَخِيذَةُ بَعَيْنِهَا وَيَكُونُ الْعَوْضُ عَنْ الْقَتِيلِ بِنَظِيرِهِ، وَإِنْ لَمْ تَظْهَرِ

كَانَتِ الْيَمِينُ عَلَى الْوَالِي الْمَكَانِ الْمَدْعَى عَلَيْهِ، وَثَلَاثَةٌ تَفْرِقُ عَنْهُ أَمَّا الْيَمِينُ عَلَيْهِمْ،
 مِنْ تِلْكَ الْوَلَايَةِ . وَإِنْ أَمْتَعَ الْوَالِي عَنْ الْيَمِينِ حُلْفَ مِنْ الْجَهَةِ الْمَدْعَى ثَلَاثَةٌ تَفْرِقُ
 تَخْتَارُهُمُ الْجَهَةُ الْأُخْرَى وَأَخَذَ قِيَمَتَهَا . وَإِنْ لَمْ يُنْصَفِ الْوَالِي وَلَا رَدَّ الْمَالُ، أَتَمَّ
 الْمَدْعَى أَمْرَهُ إِلَى الْحُكَّامِ مِنَ الْجَهَتَيْنِ ، وَتَكُونُ الْمَهْلَةُ بَعْدَ الْإِنْهَاءِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ،
 وَيُلْزَمُ الْوَلَاةُ مِنَ الْجَهَتَيْنِ بِالْوَفَاءِ بِهَذَا الشَّرْطِ .

وَمَعْنَى أَنْفَقُوا قَيْسًا أَوْ أَخِيذَةً ، أَوْ قَدَرُوا عَلَى أَخْذِ حَقٍّ وَلَمْ يَأْخُذْهُ كُلُّ وَاحِدٍ
 فِي وَلايَتِهِ، يَتَعَيَّنُ عَلَى الَّذِي يُولِيهِ مِنْ مُلُوكِ الْجَهَتَيْنِ إِقَامَةُ السِّيَاسَةِ فِيهِ : مَنْ أَخَذَ
 الرُّوْحَ وَالْمَالِ وَالشُّنْقَ، وَالْإِنْكَارَ التَّامَّ عَلَى مَنْ يَتَعَيَّنُ عَلَيْهِ الْإِنْكَارُ إِذَا فَعَلَ ذَلِكَ
 فِي وَلايَتِهِ وَأَرْضِهِ .

وَإِنْ هَرَبَ أَحَدٌ بِمَالٍ وَأَعْتَرَفَ بِبَعْضِهِ وَأَنْكَرَ بَعْضَ مَا يَدْعَى بِهِ عَلَيْهِ، لَزِمَهُ أَنْ
 يَحْلِفَ أَنَّهُ لَمْ يَأْخُذْ سِوَى مَا رَدَّه . فَإِنْ لَمْ يَقْنَعِ الْمَدْعَى بِبَيْنِ الْمَارِبِ، حَلَفَ الْوَالِي تِلْكَ
 الْوَلَايَةِ أَنَّهُ لَمْ يَطْلُعْ عَلَى أَنَّهُ وَصَلَ مَعَهُ غَيْرُ مَا رَدَّه . وَإِنْ أَنْكَرَ أَنَّهُ لَمْ يَصِلْ مَعَهُ شَيْءٌ
 أَصْلًا، اسْتَحْلَفَ الْمَارِبُ أَنَّهُ لَمْ يَصِلْ مَعَهُ لِلدَّعَى شَيْءٌ .

وَعَلَى أَنَّهُ إِذَا أَنْكَسَرَ مَرَكَبٌ مِنْ مَرَكَبِ ثُجَّارِ السُّلْطَانِ وَوَلَدِهِ الَّتِي أُنْعَقَتْ
 عَلَيْهَا الْهَدَنَةُ ، وَرِعِيَّتُهُمَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ : عَلَى اخْتِلَافِ أَجْناسِهِمْ وَأَدْيَانِهِمْ ،
 فِي مِينَاءٍ عَكَا وَسَوَاحِلِهَا، وَالْبِلَادِ السَّاحِلِيَّةِ الَّتِي أُنْعَقَتْ عَلَيْهَا الْهَدَنَةُ، كَانَ كُلُّ مَنْ
 فِيهَا آمِنًا عَلَى الْأَنْفُسِ وَالْأَمْوَالِ وَالْأَتْبَاعِ وَالْمَتَاعِ . فَإِنْ وَجَدَ أَصْحَابُ هَذِهِ الْمَرَكَبِ
 الَّتِي تَكْسِرُ تُسَلِّمُ مَرَكَبَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ [إِلَيْهِمْ] . وَإِنْ عُدُّوا بِمَوْتٍ أَوْ غَرَقٍ أَوْ غِيَبَةٍ،
 فَيُحْفَظُ بِمَوْجُودِهِمْ وَيُسَلِّمُ لِنَوَاطِيبِ السُّلْطَانِ وَوَلَدِهِ . وَكَذَلِكَ الْمَرَكَبُ الْمَتَوَجِّهُةُ
 مِنْ هَذِهِ الْبِلَادِ السَّاحِلِيَّةِ الْمُنْتَقِدَةِ عَلَيْهَا الْهَدَنَةُ لِلْفَرَجِ ، يَجْرَى لَهَا مِثْلُ ذَلِكَ فِي بِلَادِ

السُّلْطَانِ وَوَلَدِهِ، وَيَحْتَفِظُ بِمُجُودِعِهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبُهَا حَاضِرًا إِلَى أَنْ يُسَلَّمَ لَكَفِيلِ
الْمَمْلُوكَةِ بَعْكَ أَوِ الْمَقْدَمِ .

وَمَتَى تُؤَقِّ أَحَدٌ مِنَ التُّجَّارِ الصَّادِرِينَ وَالوَارِدِينَ: عَلَى اخْتِلَافِ أَجْناسِهِمْ وَأَدْيَانِهِمْ،
مِنْ بِلَادِ السُّلْطَانِ وَوَلَدِهِ، فِي عَكَا وَصَيْدَا وَعَثْلَيْتَ، وَالبِلَادِ السَّاحِلِيَةِ الدَّاخِلَةِ فِي هَذِهِ
الْمُهْدَنَةِ عَلَى اخْتِلَافِ أَجْناسِهِمْ وَأَدْيَانِهِمْ [فِيحْتَفِظُ عَلَى مَالِهِ حَتَّى يَسْلَمَ لِنَوَابِ السُّلْطَانِ
وَوَلَدِهِ] ، وَإِذَا تُؤَقِّ أَحَدٌ فِي الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَةِ الدَّاخِلَةِ فِي هَذِهِ الْمُهْدَنَةِ، يَحْتَفِظُ عَلَى
مَالِهِ إِلَى حِينِ يَسْلَمُ إِلَى كَفِيلِ الْمَمْلُوكَةِ بَعْكَ وَالْمَقْدَمِينَ .

وَعَلَى أَنَّ شَوَانِي السُّلْطَانِ وَوَلَدِهِ إِذَا عَمَرَتْ وَتَرَجَّتْ لَا تَعْرِضُ بِأَذْيَةٍ إِلَى الْبِلَادِ
السَّاحِلِيَةِ الَّتِي أُنْعَقِدَتْ عَلَيْهَا هَذِهِ الْمُهْدَنَةُ . وَمَتَى قَصِدَتْ الشَّوَانِي الْمَذْكُورَةُ جِهَةً
غَيْرَ هَذِهِ الْجِهَاتِ، وَكَانَ صَاحِبُ تِلْكَ الْجِهَةِ مُعَاهِدًا لِلْحُكَّامِ بِمَمْلَكَةٍ عَكَا، فَلَا تَدْخُلُ
إِلَى الْبِلَادِ الَّتِي أُنْعَقِدَتْ عَلَيْهَا هَذِهِ الْمُهْدَنَةُ وَلَا تَتَرَوَّدُ مِنْهَا . وَإِنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبُ
تِلْكَ الْجِهَةِ الَّتِي تَقْصِدُهَا الشَّوَانِي الْمَنْصُورَةُ مُعَاهِدًا لِلْحُكَّامِ بِمَمْلَكَةٍ عَكَا وَالبِلَادِ الَّتِي
أُنْعَقِدَتْ عَلَيْهَا الْمُهْدَنَةُ، فَلَهَا أَنْ تَدْخُلَ إِلَى بِلَادِهَا وَتَتَرَوَّدَ مِنْهَا . وَإِنْ أَنْكَسَرَتْ شَيْءٌ مِنْ
هَذِهِ الشَّوَانِي - وَالْعِبَادُ بِاللَّهِ - فِي مِينَا مِنْ مَوَانِي الْبِلَادِ الَّتِي أُنْعَقِدَتْ عَلَيْهَا الْمُهْدَنَةُ
وَسَوَاحِلِهَا : فَإِنْ كَانَتْ قَاصِدَةً مِنْ لَهْ مَعْ مَمْلَكَةٍ عَكَا وَمُقَدِّمِي بُيُوتِهَا عَهْدٌ، فَلْيَزِمُ
كَفِيلَ الْمَمْلُوكَةِ بَعْكَ وَمُقَدِّمِي الْبُيُوتِ بِحِفْظِهَا، وَتَمْكِينِ رَجَالِهَا مِنَ الزَّوَادَةِ وَإِصْلَاحِ
مَا أَنْكَسَرَ مِنْهَا، وَالْعَوْدِ إِلَى الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَةِ، وَ[لَا] يَبْطُلُ حَرَكَةُ مَا تَسْكُرُ مِنْهَا
- وَالْعِبَادُ بِاللَّهِ - أَوْ يَرْمِيهِ الْبَحْرُ . هَذَا إِذَا كَانَتْ قَاصِدَةً مِنْ لَهْ مَعْ مَمْلَكَةٍ عَكَا
وَمُقَدِّمِيهَا عَهْدٌ . فَإِنْ [قَصِدَتْ مِنْ] لَمْ يَكُنْ لَهَا مَعَهُمْ عَهْدٌ، فَلَهَا أَنْ تَتَرَوَّدَ وَتُعَمَّرَ
رَجَالُهَا مِنَ الْبِلَادِ الْمُتَعَقِّدَةِ عَلَيْهَا هَذِهِ الْمُهْدَنَةُ، وَتَتَوَجَّهَ إِلَى الْبِلَادِ الْمَرْسُومِ لَهَا بِقَصْدِهَا،
وَيَعْتَمِدُ هَذَا الْقَصْلُ مِنَ الْجَهْتَيْنِ .

وعلى أنه متى تحرك أحد من ملوك الفرنجة وغيرهم من جوا البحر لقصد الحضور لمضرة السلطان وولده في بلادها المتفق عليها هذه الهدنة ، فليزِمُ نائب المملكة والمقدمين بعكا ، أن يعرفوا السلطان وولده بحركتهم قبل وصولهم إلى البلاد الإسلامية الداخلة في هذه الهدنة بمدة شهرين . وإن وصلوا بعد انقضاء مدة شهرين ، فيكون كفيل المملكة بعكا ، والمقدمون برشين من عهدة اليمين في هذا الفصل . ومتى تحرك عدو من جهة البر من التار وغيرهم ، فأى من سبق الخبر إليه من الجهتين يعرف الجهة الأخرى بما سبق الخبر إليه من أمرهم .

وعلى أنه إن قصد البلاد الشامية - والعباد بالله - عدو من التار وغيرهم في البر ، وأغاريت العساكر الإسلامية من قدام العدو ، ووصل العدو إلى القرب من البلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة وقصدوها بمضرة ، فيكتب إلى [كفيل] المملكة بعكا ، والمقدمين بها أن يدرؤا عن بيوتهم وريعتهم وبلادهم بما تصل قدرتهم إليه . وإن حصل - والعباد بالله - جفل من البلاد الإسلامية إلى البلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة ، فليزِمُ كفيل المملكة بعكا ، والمقدمين بها حفظهم والدفع عنهم ومنع من يقصدهم بضرة ، ويكونون آمينين مطمئنين بما معهم .

وعلى أن النائب بمملكة عكا ، والمقدمين بها يؤصون في سائر البلاد الساحلية التي وقعت الهدنة عليها ، أنهم لا يمكنون حرامية البحر من الزوادة من عندهم ولا من حمل ماء . وإن طفرأوا بأحد منهم يمسكونه ، وإن كانوا يبيعون عندهم بضائع فيمسكها كفيل المملكة بعكا والمقدمون حتى يظهر صاحبها وتسلم إليه . وكذلك يعتمد السلطان وولده .

وعلى أن الرهائن بعكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة ، كل من عليه منهم مبلغ أو غلة ، فيحلف وإلى ذلك المكان الذي منه الرهينة ، ويحلف المباشر والكايب

فِي وَقْتِ اخْتِذِ هَذَا الشَّخْصَ رَهْبَةً أَنَّهُ عَلَيْهِ كَذَا وَكَذَا : مِنْ دَرَاهِمَ أَوْ غَلَّةٍ أَوْ بَقَرٍ أَوْ غَيْرِهِ . فَإِذَا حَلَفَ الْوَالِيُّ وَالْمُبَاشِرُ وَالْكَاتِبُ قَدَامَ نَائِبِ السُّلْطَانِ وَوَلَدِهِ عَلَى ذَلِكَ يَقُومُ أَهْلُ الرِّهْنَةِ عَنْهُ بِمَا لِلْفَرِجِ عَلَيْهِ وَيُطْلِقُونَهُ . وَأَمَّا الرِّهَائِنُ الَّذِينَ اخْتَدُوا مِنْسُوبِينَ إِلَى الْخُفْلِ وَالْإِحْتِشَاءِ أَنَّهُمْ لَا يَهْرُبُونَ إِلَى بِلَادِ الْإِسْلَامِ وَيَمْتَنِعُ الْوَلَاءُ وَالْمُبَاشِرُونَ مِنَ الْيَمِينِ عَلَيْهِمْ ، فَأُولَئِكَ يَطْلُقُونَ .

وَعَلَى أَنْ لَا يَجِدَّ عَلَى التَّجَارِ الْمَسَافِرِينَ : الصَّادِرِينَ وَالْوَارِدِينَ مِنَ الْجِهَتَيْنِ حَقٌّ لَمْ تَجْرِبْهُ عَادَةً ، وَيُخْرِجُوا عَلَى عَوَائِدِهِمُ الْمُسْتَمِرَّةَ إِلَى آخِرِ وَقْتٍ ، وَتُؤْخَذُ مِنْهُمْ الْحَقُوقُ عَلَى الْعَادَةِ الْمُسْتَمِرَّةِ ، وَلَا يَجِدُّ عَلَيْهِمْ رَسْمٌ وَلَا حَقٌّ لَمْ تَجْرِبْهُ عَادَةً . وَكُلُّ مَكَانٍ عُورِفَ بِاسْتِخْرَاجِ الْحَقِّ فِيهِ يَسْتَخْرَجُ بِذَلِكَ الْمَكَانِ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ مِنَ الْجِهَتَيْنِ ، فِي حَالَتِي سَفَرِهِمْ وَإِقَامَتِهِمْ ؛ وَيَكُونُ التَّجَارُ وَالسُّفَارُ وَالْمُتَرَدِّدُونَ آمِنِينَ مَطْمَئِنِّينَ مُخَفَّرِينَ مِنَ الْجِهَتَيْنِ فِي حَالَتِي سَفَرِهِمْ وَإِقَامَتِهِمْ ، وَصُدُورِهِمْ وَوُرُودِهِمْ بِمَا صَحَّحَتْهُمْ مِنَ الْأَصْنَافِ وَالْبِضَائِعِ الَّتِي هِيَ غَيْرُ مَمْنُوعَةٍ .

وَعَلَى أَنَّهُ يَنَادَى فِي الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَالْبِلَادِ الْفَرَنْجِيَّةِ الدَّاحِلَةَ فِي هَذِهِ الْهُدْنَةِ : أَنَّهُ مَنْ كَانَ مِنْ فَلَاحِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ يَعُودُ إِلَى بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ مُسْلِمًا كَانَ أَوْ نَصْرَانِيًا . وَكَذَلِكَ مَنْ كَانَ مِنْ فَلَاحِي بِلَادِ الْفَرَنْجِ مُسْلِمًا كَانَ أَوْ نَصْرَانِيًا ، مَعْرُوفًا قَرَارِيًا مِنَ الْجِهَتَيْنِ ، وَمَنْ لَمْ يَعُدْ بَعْدَ الْمُنَادَاةِ يُطْرَدُ مِنَ الْجِهَتَيْنِ . وَلَا يَمَكُنُ فَلَاحُو بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْمَقَامِ فِي بِلَادِ الْفَرَنْجِ الْمُنْعَقِدِ عَلَيْهَا هَذِهِ الْهُدْنَةُ ، وَلَا فَلَاحُو بِلَادِ الْفَرَنْجِ مِنَ الْمَقَامِ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ الَّتِي أُنْعَقِدَتْ عَلَيْهَا هَذِهِ الْهُدْنَةُ ؛ وَيَكُونُ عَوْدُ الْفَلَاحِ مِنَ الْجِهَةِ إِلَى الْجِهَةِ الْأُخْرَى بَأَمَانٍ .

وَعَلَى أَنْ تَكُونَ كَنِيسَةُ النَّاصِرَةِ وَأَرْبَعُ بِيُوتٍ مِنْ أَقْرَبِ الْبُيُوتِ إِلَيْهَا لِمَا لَزِمَ زِيَارَةَ الْحُجَّاجِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ دِينِ الصَّلَيبِ : كَثِيرِهِمْ وَصَغِيرِهِمْ عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِهِمْ وَأَنْفَرِهِمْ :

من عكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة ، ويصلى بالكنيسة الإقسائية^(١) والرهبان ، وتكون البيوت المذكورة لزوار كنيسة الناصرة خاصة ، ويكونون آمنين مطمئنين في توجيههم وحضورهم إلى حدود البلاد الداخلة في هذه الهدنة . وإذا بقيت الحجارة التي بالكنيسة المذكورة ترمى برا ، ولا يُحطَّ بحجر منها على حجر لأجل بئاسه ، ولا يتمرض إلى الأقساء^(٢) والرهبان ، وذلك على وجه الهبة لأجل زوّار دين الصليب بغير حق .

ويلزم السلطان وولده حفظ هذه البلاد المشروحة التي أُنقِدت عليها الهدنة من قسميها وعساكرهما وجنودهما ، ومن جميع المتجرمة والمتلصصين والمفسدين : ممن هو داخل تحت حكمهما وطاعتها . ويلزم كفيل الملكة بعكا والمقدمين بها حفظ هذه البلاد الإسلامية المشروحة التي أُنقِدت عليها الهدنة ، من قسميها وعساكرهم وجنودهم ، وجميع المتجرمة والمتلصصين والمفسدين : ممن هو داخل تحت حكمهم وطاعتهم بالملكة الساحلية الداخلة في هذه الهدنة . ويلزم كفيل الملكة بعكا ، ومقدمي البيوت بها الحكماء بعكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة - القيام بما تضمنته هذه الهدنة من الشروط جميعها ، شرطا شرطا ، وفصلا فصلا ، والعمل بأحكامها ، والوقوف مع شروطها إلى انقضاء مدتها . ويبنى كل منهم بما حلف به من الأيمان المؤكدة : من أنه يبنى بجميع ما في هذه الهدنة على ما حلقوا به .

تستمر هذه الهدنة المباركة بين السلطان وولده وأولادها وأولاد أولادهم ، وبين الحكماء بملكة عكا ، وصيدا ، وعثليت ، وهم الشيوخان أودرا^(٣) (٤) المقدمون المذكورون فلان وفلان إلى آخرها . لا تغيب موت ملك أحد الجهتين ، ولا بتغيير مقسم وتولية غيره ، بل تستمر على حالها إلى آخرها وأقضاها ، بشرطها المحدودة ،

(١) لعل الصواب القسوس ، أو القسيسون .

وقواعدها المقررة ، كاملة تامة . ومتى أنقضت هذه الهدنة المباركة ، أوقع
- والعباد بالله - فسخ ، كانت المهلة في ذلك أربعين يوماً من الجهتين . ويُنادى
برجوع كل أحد إلى وطنه بعد الإشتاد ، ليعود الناس إلى مواطنهم آمين مطمئنين ،
ولا يمنعون من السفر من الجهتين ، ولا تبطل بعزل أحد من الجهتين ، وتُسبَدُ
أحكامها متتابعة متوالية ، بالسنين والشهور والأيام إلى أنقضائها ؛ ويلزم المتولى
حفظها والعمل بشروطها وقصودها ، وفروعها وأصولها ؛ ويجرى الحال فيها على
أجل الحالات إلى آخرها . وعلى جميع ذلك وقع الرضا والصفح والاتفاق ، وحلف
عليها من الجهتين ، والله الموفق .



وهذه نسخة هدنة ، عُقدت بين الملك الأشرف ، صلاح الدين « خليل » ابن
الملك المنصور سيف الدين « قلاوون » صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية ؛
وبين دون حاكم الريد أرغون ، صاحب برشلونة من بلاد الأندلس ؛ على يد رُسله :
أخويه وصهره الآتي ذكرهم ؛ في صفر سنة ثنتين وتسعين وستمائة ، وهى :

استقرت المودة والمصادقة بين الملك الأشرف ، وبين حضرة الملك الجليل ،
المكرم ، الخطير ، الباسل ، الأسد ، الضرغام ، المفخم ، المبجل « دون » حاكم
الريد أرغون ، وأخويه دون ولديك ، ودون بيدرو ؛ وبين صهره اللذين طلب
الرسولان الواصلان إلى الأبواب الشريفة عن رُسلهما الملك دون حاكم أن يكونا
داخلين في الهدنة والمصادقة ، وأن يلتزم الملك دون حاكم عنهما بكل ما ألتزم به عن
نفسه ، ويتدرك أمرهما . وهما الملك الجليل ، المكرم ، الخطير ، الباسل ، الأسد ،
الضرغام ، دون شابعه ، ملك قشتالة ، وطليلة ، وليون ، وبلنسية ، وأشبيلية ،
وقرطبة ، ومرسية ، وجيان ، والغرب ، الكفيل بمملكة أرغون وبرتغال - والملك

الجليل دون أنفونش ملك برثقال، من تاريخ يوم الخميس تاسع عشر صفر سنة
 آتنتين وتسعين وسبعمائة، المواقف ثلاث بقين من جنير سنة ألف ومائتين وأتنتين
 وتسعين لمولانا السيد المسيح عليه السلام . وذلك بحضور رسول الملك دون حاكم،
 وهما : المختشم الكبير روصو ديمار موند الحاكم، عن الملك دون حاكم في بالنسية،
 ورقيقه المختشم العمد ديمون المان قراري برجلونة ، الواصلين بكتاب الملك دون
 حاكم، المختوم بختم الملك المذكور، المفتضى معناه أنه حملهما جميعاً أخواهم
 ومطلوبهم، وسأل أن يقوموا بما يقولانه عنه، فكان مضمون مشافهتهما وسؤالهما تقرير
 قواعد الصلح والمودة والصداقة . والشروط التي يشترطها الملك الأشرف على الملك
 دون حاكم، وأنه يلتزم بجميع هذه الشروط الآتي ذكرها، ويخاف الملك المذكور
 عليها هو وأخواه وصهره المذكورون . ووضع الرسولان المذكوران خطوطهما بجميع
 الفصول الآتي ذكرها، بأمره ومرسومه . وأن الملك دون حاكم وأخويه وصهره
 يلتزمون بها، وهي : استقرار المودة والمصداقة من التاريخ المتقدم ذكره ، على ممر
 السنين والأعوام، وتعاقب الأيام والآيام : براً وبحراً، سهلاً وعسراً، قريباً وبعداً .

وعلى أن تكون بلاد السلطان الملك الأشرف، وقلاع، وحصونه، وثغوره،
 وممالكه، وموانئ بلاده وسواحلها، وبرورها، وجميع أقاليمها ومُدُنُها، وكل ما هو
 داخل في مملكته، ومحسوب منها، ومنسوب إليها : من سائر الأقاليم الرومية،
 والعراقية، والمشرقية، والشامية، والحلبية، والفراية، واليمينية، والحجازية، والديار
 المصرية، والقرب .

وحد هذه البلاد والأقاليم وموانئها وسواحلها من البر الشامي من القسطنطينية
 والبلاد الرومية الساحلية، وهي : من طرابلس القرب، وسواحل برقة،
 والإسكندرية، ودمياط، والطينة، وقطيا، وغزة، وعسقلان، ويافا،

وَأَرْسُوفَ ، وَقِسَارِيَّةَ ، وَعَثَلِيَّةَ ، وَحِفَا ، وَعَكَا ، وَصُورَ ، وَصَيْدَا ، وَيُثُوتَ ،
وَجَبِيلَ ، وَالْبَيْرُونَ ، وَأَنْفَسَةَ طَرَابُلُسَ الشَّامِ ، وَأَنْطَرَسُوسَ ، وَمَرْقِيَةَ ، وَالْمَرْقَبَ ،
وَمَسَاحِلَ الْمَرْقَبِ : بَأْنِيَّاسَ وَغَيْرَهَا ، وَجَبَلَةَ ، وَاللَّاذِقِيَّةَ ، وَالسُّوَيْدِيَّةَ وَجَمِيعَ الْمَوَانِي
وَالْبُرُورِ إِلَى تَغْرِ دِمَاطَ وَبُحَيْرَةِ تَيْسَ .

وَحَدَّهَا مِنَ الْبَرِّ الْغَرْبِيِّ : مِنْ تُونُسَ وَإِقْلِيمِ إِفْرِيْقِيَّةَ وَبِلَادِهَا وَمَوَانِيهَا ، وَطَرَابُلُسَ
الْعَرَبِ وَتُغُورَهَا وَبِلَادِهَا وَمَوَانِيهَا ، وَبَرْقَةَ وَتُغُورَهَا وَبِلَادِهَا وَمَوَانِيهَا ، إِلَى تَغْرِ
الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَرَشِيدَ وَبُحَيْرَةِ تَيْسَ وَسَوَاحِلِهَا وَبِلَادِهَا وَمَوَانِيهَا .

وَمَا تَحْتَوِيهِ هَذِهِ الْبِلَادُ وَالْمَسَالِكُ الْمَذْكُورَةُ وَالَّتِي لَمْ تُذَكَّرْ ، وَالْمَدَائِنُ وَالتُّغُورُ
وَالسَّوَاحِلُ وَالْمَوَانِي وَالطَّرِيقَاتُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَالصُّدُورُ وَالْوُرُودُ ، وَالْمَقَامُ وَالسَّفَرُ ،
مِنْ عَسَاكِرَ وَجُنُودَ ، وَتُرُكَّانَ ، وَأَكْرَادَ ، وَعُرَبَّانَ ، وَرَعَايَا ، وَتُجَّارَ ، وَشَوَانِي ،
وَمَرَاكِبَ ، وَسُفُنَ ، وَأَمْوَالَ ، وَمَوَاشِيَ ، عَلَى اخْتِلَافِ الْأَذْيَانِ وَالْأَنْفَارِ وَالْأَجْنَاسِ ،
وَمَا تَحْتَوِيهِ الْيَدَى مِنْ سَائِرِ أَصْنَافِ الْأَمْوَالِ وَالْأَسْلِحَةِ وَالْأَمْتَعَةِ وَالْبِضَاعِ وَالْمَتَاجِرِ ،
قَلِيلًا كَانَ أَوْ كَثِيرًا ، قَرِيبًا كَانَ أَوْ بَعِيدًا ، بَرًّا كَانَ أَوْ بَحْرًا . آتِنَةُ عَلَى الْأَنْفُسِ ،
وَالْأَرْوَاحِ ، وَالْأَمْوَالِ ، وَالْحَرِيمِ ، وَالْأَوْلَادِ مِنَ الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمٍ وَمِنْ أَخَوَيْهِ وَصِهْرِيهِ
الْمَذْكُورِينَ ، وَمِنْ أَوْلَادِهِمْ ، وَفُرْسَانِهِمْ ، وَخِيَالَتِهِمْ ، وَمُعَاهِدِيهِمْ ، وَعَسَاكِرِهِمْ ،
وَرِجَالِهِمْ ، وَكُلِّ مَنْ يَتَعَلَّقُ بِهِمْ . وَكَذَلِكَ كُلُّ مَا سَيَقْتَعُهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى يَدِ الْمَلِكِ
الْأَشْرَفِ ، وَعَلَى يَدِ أَوْلَادِهِ وَعَسَاكِرِهِ وَجُيُوشِهِ ، مِنْ الْقِلَاعِ وَالْحُصُونِ ، وَالْبِلَادِ
وَالْأَقَالِمِ ، فَإِنَّهُ يَجْرِي عَلَيْهِ هَذَا الْحُكْمُ .

وَعَلَى أَنْ تَكُونَ بِلَادُ الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمٍ وَبِلَادُ أَخَوَيْهِ وَصِهْرِيهِ وَمَسَالِكُهُ الْمَذْكُورَةُ
فِي هَذِهِ الْمُدُنَةِ ، وَهِيَ : أَرْغُونُ وَأَعْمَالُهَا وَبِلَادُهَا : صَقْلِيَّةٌ وَبَجْرِيَّتُهَا وَبِلَادُهَا

وأعمالها، برُيُولِيَّةَ وأعمالها وبلادها، جَزِيرَةُ مَالَقَةَ، وَقَوْصَرَةَ وبلادها وأعمالها،
مَيُورَقَةَ وبَابَسَةَ وبلادها، وأرسويار (٩) وأعمالها، وما سَيَفَتَحُهُ الْمَلِكُ دُونُ حَاكِمِ
مِنَ بِلَادِ أَعْدَائِهِ الْفَرَنْجِ الْمَجَاوِرِينَ لَهُ بِتِلْكَ الْأَقَالِمِ - آمِنِينَ مِنَ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ
وَأَوْلَادِهِ، وَعَسَاكِرِهِ وَجُيُوشِهِ، وَشَوَانِيهِ وَعَمَائِرِهِ، هِيَ وَمَنْ فِيهَا مِنْ قُرْسَانٍ وَخِيَالَةٍ
وَرُطَايَا. وَأَهْلُ بِلَادِهِ آمِنِينَ مَطْمَئِنِينَ عَلَى الْأَنْفُسِ وَالْأَمْوَالِ، وَالْحَرِيمِ وَالْأَوْلَادِ،
فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَالصُّدُورِ وَالْوُرُودِ.

وَعَلَى أَنَّ الْمَلِكَ دُونُ حَاكِمٍ هُوَ وَأَخَوَاهُ وَصِهْرَاهُ أَصْدِقَاءُ مَنْ يُصَادِقُ الْمَلِكَ الْأَشْرَفَ
وَأَوْلَادَهُ، وَأَعْدَاءُ مَنْ يُعَادِيهِمْ مِنْ سَائِرِ الْمُلُوكِ الْفَرَنْجِيَّةِ وَغَيْرِ الْمُلُوكِ الْفَرَنْجِيَّةِ. وَإِنْ
قَصَدَ الْبَابُ بَرُومِيَّةَ، أَوْ مَلِكًا مِنْ مُلُوكِ الْفَرَنْجِ: مُتَوَجًّا كَانَ أَوْ غَيْرَ مُتَوَجِّجٍ، كَبِيرًا كَانَ
أَوْ صَغِيرًا، أَوْ مِنَ الْجَنُوبِيَّةِ، أَوْ مِنَ الْبَنَادِقَةِ، أَوْ مِنْ سَائِرِ الْأَجْنَاسِ عَلَى اخْتِلَافِ
الْفَرَنْجِ وَالرُّومِ، وَالْبُيُوتِ: بَيْتِ الْإِخْوَةِ الدِّيُوبَةِ، وَالْإِسْتَارِيَّةِ، وَالرُّومِ، وَسَائِرِ
أَجْنَاسِ النَّصَارَى - مَضَرَّةَ بِلَادِ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ، بِمُحَارَبَةٍ أَوْ أَذْيَةٍ، يَمْنَعُهُمُ الْمَلِكُ دُونُ
حَاكِمٍ هُوَ وَأَخَوَاهُ وَصِهْرَاهُ وَيَرُدُّوهُمْ، وَيَعْمُرُونَ شَوَانِيَهُمْ وَمَرَاكِبَهُمْ، وَيَقْصِدُونَ
بِلَادَهُمْ، وَيَسْتَغْلِبُونَهُمْ بِقُوَّاسِهِمْ عَنْ قَصْدِ بِلَادِ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ وَمَوَانِيهِ وَسَوَاحِلِهِ
وَنُفُورِهِ الْمَذْكُورَةِ، وَغَيْرِ الْمَذْكُورَةِ؛ وَيَقَاتِلُونَهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِشَوَانِيهِمْ وَعَمَائِرِهِمْ،
وَقُرْسَانِيهِمْ وَخِيَالَتِهِمْ وَرَجَالَتِهِمْ.

وَعَلَى أَنَّهُ مَتَى نَخْرُجُ أَحَدًا مِنْ مُعَاهِدِي الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ مِنَ الْفَرَنْجِ عَنْ شُرُوطِ
الْهُدْنَةِ الْمُسْتَقَرَّةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ، وَوَقَعَ مَا يُوجِبُ فسخَ الْهُدْنَةِ، لَا يُعِينُهُمُ الْمَلِكُ دُونُ
حَاكِمٍ وَلَا أَحَدٌ مِنْ أَخَوَيْهِ وَلَا صِهْرِيهِ، وَلَا خِيَالَتِهِمْ، وَلَا قُرْسَانِهِمْ، وَلَا أَهْلِي
بِلَادِهِمْ، بِتَحْيِيلٍ وَلَا خِيَالَةٍ، وَلَا سِلَاحٍ وَلَا رَجَالَةٍ، وَلَا مَالٍ وَلَا تَجْدَةٍ، وَلَا مِيرَةٍ،
وَلَا مَرَاكِبٍ وَلَا شَوَانٍ وَلَا غَيْرِ ذَلِكَ.

وعلى أنه متى طلب البابُ برومية، ومُلوکُ القرنج، والرُوم، والتَّسار، وغيرهم من الملك دون حاكم أو من أخويه أو من صهریه أو من بلادهم، إنجاذاً، أو معاونةً : بِجَالَةٍ ، أو رجالة ، أو مال ، أو مرابك ، أو شوان ، أو سلاج - لا يوافقهم على شيء من ذلك ، لا في سر ولا جهر ؛ ولا يُعين أحداً منهم ولا يوافقهُ على ذلك . ومتى أطلعوا على أن أحداً منهم يقصدُ بلادَ الملك الأشرف لمُحاربتِهِ أو لمُضرتِهِ بشيء ، يعرفُ الملكُ الأشرفُ بخبرهم ، وبالجهة التي اتفقوا على قصديها في أقرب وقت ، قبل حوطتهم من بلادهم ، ولا يُخفيه شيئاً من ذلك .

وعلى أنه متى أنكسر مركبٌ من المراكب الإسلامية في بلاد الملك دون حاكم ، أو بلاد أخويه أو بلاد صهریه ، [فعلهم] أن يُخفروهم ، ويحفظوا مراكبهم وأموالهم ، ويساعدوهم على عمارة مراكبهم ، ويجهزهم وأموالهم وبضائعهم إلى بلاد الملك الأشرف . وكذلك إذا انكسرت مركبٌ من بلاد دون حاكم ، وبلاد أخويه وصهریه ، ومُعاهديه في بلاد الملك الأشرف ، يكون لهم هذا الحكم المذكور أعلاه .

وعلى أنه متى مات أحدٌ من تُجّار المسلمين ومن نصارى بلاد الملك الأشرف ، أو ذمة أهل بلاده ، في بلاد الملك دون حاكم وبلاد أخويه وصهریه وأولاده ومُعاهديه ، لا يعارضوهم في أموالهم ولا في بضائعهم ، ويحمل ما لهم وموجودهم إلى بلاد الملك الأشرف : ليفعل فيه ما يختار . وكذلك من يموت في بلاد الملك الأشرف من أهل مملكة الملك دون حاكم وبلاد أخويه وصهریه ومُعاهديهم ، فلهم هذا الحكم المذكور أعلاه .

وعلى أنه متى عبر على بلاد الملك دون حاكم أو بلاد أخويه أو صهریه أو مُعاهديه رُسُلٌ من بلاد الملك الأشرف قاصدين جهةً من الجهات القريبة أو البعيدة ،

صَادِرِينَ أَوْ وَارِدِينَ ، أَوْ رِمَاهُمْ الرِّيحُ فِي بِلَادِهِمْ ، تَكُونُ الرُّسُلُ وَغِلْمَانُهُمْ وَأَتْبَاعُهُمْ ،
وَمَنْ يَصِلُ مَعَهُمْ مِنْ رُسُلِ الْمُلُوكِ أَوْ غَيْرِهِمْ - آمِنِينَ مَحْفُوظِينَ فِي الْأَنْفُسِ وَالْأَمْوَالِ ،
وَيُجْهِزُهُمْ إِلَى بِلَادِ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ .

وَعَلَى أَنَّ الْمَلِكَ دُونَ حَاكِمِ وَأَخَوَيْهِ وَصِهْرِيهِ . قَى جَرَى مِنْ أَحَدٍ مِنْ بِلَادِهِمْ قَضِيَّةٌ
تُوجِبُ فُسْخَ الْمُهَادَنَةِ ، كَانَ عَلَى كُلِّ مِنَ الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمِ وَأَخَوَيْهِ وَصِهْرِيهِ طَلَبُ
مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ وَفِعْلُ الْوَاجِبِ فِيهِ .

وَعَلَى أَنَّ الْمَلِكَ دُونَ حَاكِمِ وَأَخَوَيْهِ وَصِهْرِيهِ يَفْسُخُ كُلَّ مِنْهُمْ لِأَهْلِي بِلَادِهِ وَغَيْرِهِمْ
مِنَ الْفَرَنْجِ ، أَنَّهُمْ يَجْلُبُونَ إِلَى الثُّغُورِ الْإِسْلَامِيَّةِ : الْحَدِيدَ وَالْبَيَاضَ وَالْحَشَبَ وَغَيْرَ ذَلِكَ .

وَعَلَى أَنَّهُ قَى أُسِرَ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْبَرِّ أَوِ الْبَحْرِ ، مِنْ مَبْدَأِ تَارِيخِ هَذِهِ الْمُهَادَنَةِ
مِنْ سَائِرِ الْبِلَادِ : شَرِيقَهَا وَغَرْبَهَا ، أَقْصَاهَا وَأَدْنَاهَا ، وَوَصَلُوا بِهِ إِلَى بِلَادِ الْمَلِكِ دُونَ
حَاكِمِ وَبِلَادِ أَخَوَيْهِ وَصِهْرِيهِ لِيَبْعُوهُ بِهَا ، فَيَلْزِمُ الْمَلِكُ دُونَ حَاكِمِ وَأَخَوَيْهِ وَصِهْرِيهِ
فَكَ أَسِرِهِ وَحَمْلَهُ إِلَى بِلَادِ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ .

وَعَلَى أَنَّهُ قَى كَانَ بَيْنَ تِجَّارِ الْمُسْلِمِينَ ، وَبَيْنَ تِجَّارِ بِلَادِ الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمِ وَأَخَوَيْهِ
وَصِهْرِيهِ مُعَامَلَةٌ فِي بَضَائِعِهِمْ ، وَهُمْ فِي بِلَادِ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ ، كَانَ أَمْرُهُمْ مَجْمُولًا عَلَى
مُوجِبِ الشَّرْعِ الشَّرِيفِ .

وَعَلَى أَنَّهُ قَى رَكِبَ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي مَرَآكِبِ بِلَادِ الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمِ
وَأَخَوَيْهِ وَصِهْرِيهِ ، وَحَمَلَ بَضَاعَتَهُ مَعَهُمْ وَعُدِمَتِ الْبِضَاعَةُ ، كَانَ عَلَى الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمِ
وَأَخَوَيْهِ وَصِهْرِيهِ رُدُّهَا إِنْ كَانَتْ مَوْجُودَةً ، أَوْ قِيَمَتُهَا إِنْ كَانَتْ مَفْقُودَةً .

وَعَلَى أَنَّهُ قَى هَرَبَ أَحَدٌ مِنْ بِلَادِ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ الدَّاخِلَةِ فِي هَذِهِ الْمُهَادَنَةِ إِلَى
بِلَادِ الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمِ وَأَخَوَيْهِ وَصِهْرِيهِ ، أَوْ تَوَجَّهَ بِبِضَاعَةٍ لَغَيْرِهِ وَأَقَامَ بِتِلْكَ الْبِلَادِ ،

كان على المَلِكِ دون حاكم وعلى أَخَوَيْهِ وَصَرِيهِ رُدُّ الهَارِبِ أو المقيم ببضاعة غيره ،
والمَالِ معه إلى بلاد المَلِكِ الأشرف ما دام مُسَلِّماً . وإن تَنَصَّرَ ، رُدُّ المَالِ الذى
معه خاصّة . ولملكة المَلِكِ دون حاكم وأَخَوَيْهِ وَصَرِيهِ فيمن يَهْرُبُ من بلادهم
إلى بلاد المَلِكِ الأشرف هذا الحُكْمُ المذكورُ أعلاه .

وعلى أَنَّهُ إذا وصل من بلاد المَلِكِ دون حاكم وبلاد أَخَوَيْهِ وَصَرِيهِ ومُعَاهِدِيهِ
من الفَرَنْجِ من يقصدُ زيارة القُدُسِ الشَّريف ، وعلى يَدِهِ كِتَابُ المَلِكِ دون حاكم
وختَمُهُ إلى نَائِبِ المَلِكِ الأشرف بالقُدُسِ الشَّريف ، يُفَسِّحُ لَهُ في الزَّيَارَةِ مَسْجُوحًا
بالحَقِّ لِقَضَى زيارَتِهِ ويعودُ إلى بلاده آمِنًا مُطْمَئِنًّا في نَفْسِهِ وَمَالِهِ ، رجلاً كان
أو امرأة ؛ بحيثُ إن الملك دون حاكم لا يَكْتُبُ لأَحَدٍ من أعدائه ولا من أعداءِ
المَلِكِ الأشرف في أمرِ الزَّيَارَةِ شَيْءٌ .

وعلى أَنَّ المَلِكِ دون حاكم يحُرِّسُ جميع بلادِ المَلِكِ الأشرفِ هو وأَخَوَاهُ وَصِهْرَاهُ
من كلِّ مَضَرَّةٍ ، ويجهَدُ كُلُّ مَنْهُمْ في أَنَّ أَحَدًا من أعداءِ المَلِكِ الأشرفِ لا يَصِلُ
إلى بلادِ المَلِكِ الأشرفِ ، ولا يُنْجِدُهُمْ على مَضَرَّةِ بلادِ الملك الأشرفِ ولا رعاياه ،
وأنه يساعِدُ المَلِكِ الأشرفِ في البرِّ والبحْرِ بكلِّ ما يشتهي ويختاره .

وعلى أَنَّ الحقوقَ الواجبةَ على من يَصْدُرُ وَيَرِدُ وَيَتَرَدَّدُ من بلاد الملك دون حاكم
وأَخَوَيْهِ وَصِهْرِيهِ ، إلى تَقْرِيرِ الإسْكَندَريَّةِ ودِمَياط ، والثَّنَوِيَّةِ الإسلامية ، والممالِكِ
السُّلطانية ، بسائر أصناف البضائع والمَتَاحِرِ على أَختلافها ، تستمرُّ على حُكْمِ الضرائبِ
المستقرَّةِ في الدِّيوانِ المعمورِ إلى آخرِ وَقْتٍ ، ولا يُحَدَّثُ عليهم فيها حَدِيثٌ . وكذلك
يَجْرَى الحُكْمُ على من يتردَّدُ من البلاد السلطانية إلى بلاد المَلِكِ دون حاكم وأَخَوَيْهِ
وَصِهْرِيهِ .

تَسْتَمِرُّ هَذِهِ الْمَوَدَّةُ وَالْمُصَادَقَةُ عَلَى حُكْمِ هَذِهِ الشَّرُوطِ الْمَشْرُوحَةِ أَعْلَاهُ مِنْ
الْجِهَاتِ عَلَى الدَّوَامِ وَالِاسْتِقْرَارِ، وَتَجْرَى أَحْكَامُهَا وَقَوَاعِدُهَا عَلَى أَجْلِ الْإِسْتِقْرَارِ،
فَإِنَّ الْمَالِكَ بِهَا قَدْ صَارَتْ مَمْلَكَةً وَاحِدَةً وَشَيْئًا وَاحِدًا ؛ لَا تَقْتَضِ بِمَوْتِ أَحَدٍ مِنَ
الْجَانِبَيْنِ ، وَلَا بِعِزْلِ وَآلٍ وَتَوَلِيَّةٍ غَيْرِهِ ، بَلْ تُؤَيِّدُ أَحْكَامُهَا ، وَتُدَوِّمُ أَيَّامُهَا ، وَشُهُورُهَا
وَأَعْوَامُهَا . وَعَلَى ذَلِكَ آتَنَظَمْتُ وَأَسْتَقَرَّتْ فِي التَّارِيخِ الْمَذْكُورِ أَعْلَاهُ ، وَهَكَذَا
وَكَذَا ، وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ بِرَّكَمِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

قُلْتُ : وَهَذِهِ النُّسخُ الْخَمْسُ الْمُتَقَدِّمَةُ الذِّكْرُ تَقْلُتُهَا مِنْ تَذَكُّرَةِ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُكْرَمِ ،
أَحَدِ كُتَّابِ الْإِنشَاءِ بِالْبُيُوتَةِ الْمَنْصُورِيَةِ «فَلَاوُونَ» الْمُسَمَّاءِ : «تَذَكُّرَةُ الْبَلِيْبِ» وَزُيِّنَتْ
الْأَدْيِبِ « مِنْ نُسخَةٍ بِخَطِّهِ ، ذَكَرَ فِيهَا أَنَّ النُّسخَةَ الْأَوْلَى مِنْهَا كَتَبَهَا بِخَطِّهِ عَلَى مَدِينَةِ
صَفَد . وَلَيْسَ مِنْهَا مَا هُوَ حَسَنُ التَّرْتِيبِ ، رَائِقُ الْأَقْطَافِ ، سَهْلُ الْمَعَانِي ، بَلِغُ الْمَقَاصِدِ ،
غَيْرِ النُّسخَةِ الْآخِرَةِ الْمَعْقُودَةِ بَيْنَ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ وَبَيْنَ الْمَلِكِ دُونِ حَاكِمِ . أَمَّا سَائِرُ
النُّسخِ الْمُتَقَدِّمَةِ فَإِنَّهَا مُبْتَدَلَةُ الْأَقْطَافِ ، غَيْرُ رَائِقَةِ التَّرْتِيبِ ، لَا يَصْدُرُ مِثْلُهَا مِنْ كَاتِبٍ
عِنْدَهُ أَذْنَى مُمَارَسَةٍ لِصِنَاعَةِ الْكَلَامِ . وَالْحَجَبُ مِنْ صُدُورِ ذَلِكَ فِي زَمَنِ «الظَّاهِرِ
بِإِيْرَس» وَ«الْمَنْصُورِ فَلَاوُونَ» وَهُمَا مِنْ هُمَا مِنْ عُظَمَاءِ الْمُلُوكِ !! وَكِتَابَةُ الْإِنشَاءِ يَوْمَئِذٍ
بِإِيْدِ بْنِ عَبْدِ الظَّاهِرِ الَّذِينَ هُمْ يَلْتُمُ الْفَصَاحَةَ وَرُغُوسُ أَرْبَابِ الْبَلَاغَةِ !! وَلَعَلَّ
ذَلِكَ إِذَا وَقَعَ ، لِأَنَّ الْقَرَنَ كَانُوا مُجَاوِرِينَ لِلْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ بِلَادِ الشَّامِ ، فَيَقَعُ الْأَتْفَاقُ
وَالْتِرَاضَى بَيْنَ الْجِهَتَيْنِ عَلَى فَصْلِ فَصْلٍ ، فَيَكْتُبُهُ كَاتِبٌ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ مِنْ جِهَتِي
الْمُسْلِمِينَ وَالْقَرَنَ بِالْقَاطِ مُبْتَدَلَةٍ غَيْرِ رَائِقَةٍ ، حَلَبٌ لِلشَّرْعَةِ ، إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ بِهِمُ الْحَالُ
فِي الْأَتْفَاقِ وَالتِرَاضَى ، إِلَى أَنْتَرَفُصُولِ الْمُدَّةِ ، فَيَكْتُبُهَا كَاتِبُ الْمَلِكِ الْمُسْلِمِ عَلَى صُورَةٍ
مَا جَرَى فِي الْمُسَوَّدَةِ ، لِيُطَابِقَ مَا كَتَبَ بِهِ كَاتِبُ الْقَرَنِ . إِذْ لَوْ عَدَلَ فِيهَا كَاتِبٌ

السلطان إلى الترتيب ، وتحسين الألفاظ وبلاغة التركيب ، لأختل الحال فيها عما وافق عليه كاتبُ القرنج أولاً ، فيكرونه حينئذٍ ، ويرَوْنَ أنه غيرُ ما وقع عليه الاتفاق ، لقصورهم في اللغة العربية ، فيحتاجُ الكاتبُ إلى إبقاء الحال على ما توافق عليه الكاتبان في المَسودَّة . وبالمجمل فإنما ذكرتُ النسخَ المذكورة - على سَخافة لفظها ، وعدمِ انسجام ترتيبها - لاشتمالها على الفُصول التي جرى فيها الاتفاقُ فيما تقدم من الزمان ، ليستمدَّ منها الكاتبُ ما لعله لا يحضُرُ بياله من مقاصِدِ المهادنات ، أغنانا الله تعالى عن الحاجة إليها .

وأعلمُ أنه قد جرت العادة ، أنه إذا كُتبت الهدنة ، كُتبَ قربنها يمينٌ يحلفُ بها السلطانُ أو نائبه القائمُ بعقدِ الهدنة ، على التَّوْبَةِ بقُصُولها وشروطها ، ويمينٌ يحلفُ عليها القائمُ عن الملكِ الكافرِ بعقدِ الهدنة ، ممن يَأْذُنُ له في عقدِها عنه ، بكتابٍ يصدرُ عنه بذلك ، أو يُجهِزُ نسختها إلى الملكِ الكافرِ ليحلفَ عليها ، ويكتبَ خطه بذلك ، وتُعَادَ إلى الأبوابِ السلطانية .

المذهب الثالث

(أن تُفتَحَ المهادنةُ بِحُطْيَةٍ مبتدأةٍ بـ «الحمد لله»)

وعلى هذا بنى صاحبُ "موادِ البيان" أمره في كتابة الهدنة ، حيث قال : والرسم فيها أن تُفتَحَ بِحَمْدِ الله تعالى على الهدايةِ إلى دينِ الإسلام الذي أدلَّ كُلُّ دينٍ وأعرَّه ، وخدَّلَ كُلُّ شرعٍ ونَصَرَه ، وأخفى كُلَّ مذهبٍ وأظهره ، والتَّوَعَّلَ في توحيدِهِ ، وتَقْدِيسِهِ وتمجيدِهِ ، والثَّناء عليه بآلائِهِ ، والصلاة على خير أنبيائه ؛ محمد صلى الله عليه وسلم .

قلت : ولم يأت بصورة هُدْنَةٍ مُتَّظِمَةٍ على هذا الترتيب ، بل أشار إلى كَيْفِيَّةِ عملها . ثم قال : والْبَلِيغُ يَكْتَنِي بِقَرِيْبَتِهِ في ترتيب هذه المعاني إذا دُفِعَ إلى الإنشاء فيها ، إن شاء الله تعالى . ولم أَقِفْ لغيره على صورة هُدْنَةٍ مُفْتَتَحَةٍ بالتحميد ، ولا يَنْفَعُ أن الابتداء به في كُلِّ مُهِمٍّ من المُهِودِ وِجَلَالِ الولايات ونحو ذلك هو المعمول عليه في زَمَانِنَا .

الطرف الثاني

(فما يُسَارِكُ فيه مُلُوكُ الكُفْرِ مُلُوكَ الإسلام في كتابة تُسَخِّج من دواوينهم)

إعلم أن الغالب في الهدن الواقعة بين ملوك الديار المصرية وبين ملوك الكفر أن تُكْتَبَ نسخةٌ تخلدُ بديوان الإنشاء بالديار المصرية ، وتُسَخَّطُ تجهُز إلى الملك المهادين . وربما كتبت نسخة من ديوانه مُفْتَتَحَةً بِمِيزَانٍ .

وهذه نسخة هُدْنَةٍ وَرَدَتْ من جهة الأشكرى ، صاحب القُسْطَنْطِينِيَّةِ في شهر رمضان سنة ثمانين وستمائة ، مؤرَّخَةٌ بتاريخ موافق لأواخر الحَرَمِ من السنة المذكورة ، فُعْرِيت فكانت تُسَخَّطُ على ما ذكره ابن مُكْرَمٍ في "تَذَكُّرَتِهِ" :

إذ قد أراد السلطان العَظِيمُ ، النَّسِيبُ ، العَالِي ، العَزِيزُ ، الكَبِيرُ الحَنِيسُ ، المَلِكُ ، المنصورُ ، سَيِّفُ الدِّينِ « قلاوون » صاحبُ الديار المصرية وِدْمَشْقَ وحلب ، أن يكونَ بينه وبين مملكتي حَبَّةٍ - فمَلَكَتِي تُؤَثِّرُ ذلك ، وتختارُ أن يكونَ بينها وبين عِزِّ سُلْطَانِهِ حَبَّةً . ولهذا وجب أن يَتَوَسَّطَ هذا الأمرُ بينَ وَاقِعٍ : لتدومَ الحَبَّةُ التي بهذه الصورة فيما بين مملكتي وعِزِّ سُلْطَانِهِ ثَابِتَةً بلا تَشْوِيشٍ . فمَلَكَتِي هذا اليوم ، وهو يومُ الخميس الثامن من شهر إيار من التاريخ [الرومى] التابع لسنة ستة آلاف

وسبعائه وتسبع وثمانين لآدم - تخلف بأناجيل الله المقدسة، والصليب المكرم المحيي،
أن مملكتي تكون حافظة للسلطان العظيم، النسيب، العالي، العزيز، الكبير الجنس،
سيف الدين «قلاوون» صاحب الديار المصرية ودمشق وحلب، ولولده ولوارث
ملك عز سلطانه : محبة مستقيمة، وصداقة كاملة نقيّة، ولا يحرك ملكي أبداً على
عز سلطانه حرباً، ولا على بلاده ولا على قلاعها، ولا على عساكره، ولا يحرك
ملك أبداً على حربه، بحيث إن هذا السلطان العظيم، النسيب، العالي، العزيز،
الكبير الجنس، الملك المنصور سيف الدين «قلاوون» صاحب الديار المصرية
ودمشق وحلب، يحفظ مثل ذلك لمملكتي ولولدي مملكتي الحبيب الكينوس،
الانجالوس، الدوقس، البالاولوغس، الملك ايرلنك، ولا يحرك عز سلطانه على
مملكيتنا حرباً قط، ولا على بلادنا، ولا على قلاعنا، ولا على عساكرنا، ولا يحرك
أحدًا اتعاً أيضاً على حرب مملكتنا. وأن تكون الرسل المترددون عن عز سلطانه أيضاً
مطلقاً [آمين، لهم] أن يعبروا في بلاد مملكتي بلا مانع ولا عائق، ويتوجهوا إلى حيث
يسيرون من عز سلطانه، وكذلك يعودون إلى عز سلطانه. وأن لا يحصل للتجار
الواردين من بلاد عز سلطانه [ضرر] من بلاد مملكتي، لا يحذرون من أحد جوراً
ولا ظمناً، بل يكون لهم مباحاً أن يعملوا متاجرهم. ونظير هذا - التجار الواردون إلى بلاد
عز سلطانه من أهل بلاد ملكي، يقومون بالحق الواجب على بضائهم، وليقم كذلك
التجار الواردون من بلاد عز سلطانه إلى بلاد ملكي بالحق الواجب على بضائهم.
وإن حضر من بلاد سوداق تجار وأرادوا السفر إلى بلاد عز سلطانه، فلا ينال
هؤلاء تعويق في بلاد ملكي، بل في عبورهم وعودهم يكونون بلا مانع ولا عائق بعد
القيام بالحق الواجب. وهؤلاء التجار الذين من بلاد عز سلطانه والذين من أهل
سوداق إن حضر صحبتهم ممالك وتجار، فليعودوا بهم إلى بلاد عز سلطانه بلا عائق

ولا مانع، ما خلا إن كانوا نصارى، لأنَّ شرعنا وترتيب مَنَعِينَا لا يسمعُ لنا في أمر النصارى بهذا .

وأما إن كان في بلاد عِرَّ سلطانه ممالك نصارى : رُومٌ وغيرهم من أجناس النصارى، متمسكون بدين النصارى، ويحصلُ لقوم منهم العتقُ، فليكنْ للذين معهم عتائق مباح ومطلق من عِرَّ سلطانه، أن يَفْدُوا في البحرِ إلى بلاد مملكتي . وكذلك إن أراد أحدٌ من أهل بلاد عِرَّ سُلْطَانِهِ أن يبيعَ مملوكًا نصرانيًا هذه صورته لأحد من رُسل مملكتي، أو لتُجَار وأناس بلاد مملكتي، أن لا يَحْدَ في هذا تعويقا، بل يَشْتَرُوا المذكورَ وَيَفْدُوا به في البحرِ إلى بلاد مملكتي بلا عَائِقٍ . وأيضا إن أراد هذا السلطانُ العَظِيمُ النَّسِيبُ، أن يُرْسِلَ إلى بلاد مُلْكِي بَضَائِعَ مَتَجَرَا، وأرادتْ مملكتي أن تُرْسِلَ إلى بلاد عِرَّ سلطانه بَضَائِعَ مَتَجَرَا، فليكنْ هكذا : وهو إن أراد عِرَّ سلطانه أن تكونَ بَضَائِعُ مَتَاجِرِهِ في بلاد مُلْكِي مُتَجَاةً من القيام بكلِّ الحقوق، فليكنْ أيضا بَضَائِعُ مَتَاجِرِ مَمْلَكَتِي في بلاد عِرَّ سلطانه مُتَجَاةً مِثْلَ ذَلِكَ من كُلِّ الحقوق، وإن أراد أن تقومَ مَتَاجِرُ مُلْكِي في بلاده بِالْحَقُوقِ الْوَاجِبَةِ [يَقُومُ] بِمِثْلِ ذَلِكَ . وأيضا أن يُطْلِقَ عِرَّ سلطانه لِمُلْكِي أن يُرْسِلَ أَنَاسًا من بلاد مملكتي إلى بلاد عِرَّ سلطانه، فيشترونَ لِي خِيَلًا جَيَادًا وَيَحْمِلُونَهَا إلى بلاد مُلْكِي . وكذلك إن أراد عِرَّ سُلْطَانِهِ شَيْئًا من خيرات بلاد مُلْكِي، فمِلْكَتِي أيضا تُطْلِقُ لِعِرَّ سُلْطَانِهِ أن يُرْسِلَ أَنَاسَهُ لِيَشْتَرَوْهُ وَيَحْمِلُوهُ إلى عِرَّ سُلْطَانِهِ .

ولما كان في البحرِ كرساليه من بلاد غَرِيبَةٍ، وقد يَتَّفِقُ في بَعْضِ الْأَوْقَاتِ أن يَحْمِلُوا خَسَارَةً في بلاد مُلْكِي، وكذلك يَحْدُون هَؤُلَاءِ الْكَرْسَالِيَّةَ قَوْمًا من بلاد عِرَّ سلطانه فيعملونَ لَهُمْ خَسَارَةً، ثم إنَّ هَؤُلَاءِ الْكَرْسَالِيَّةَ يَفْعَلُونَ هذا في الْأَفَاقِ في نُحُومِ بلاد مُلْكِي . لأَجْلِ هذا صار : إِذَا حَضَرَ قَوْمٌ من بلاد مملكتي إلى بلاد عِرَّ

سُلْطَانِهِ بِمَتَجَرِّ يُسْكُونُ مِنْ أَهْلِ بِلَادِ عِزِّ سُلْطَانِهِ وَيَقْرَمُونَ . وَلِهَذَا فَلْيَصْرُ مَرْسُومٌ
 مِنْ عِزِّ سُلْطَانِهِ فِي كُلِّ بِلَادِهِ أَنْ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ بِلَادِ مَمْلَكَتِي لَا يَغْزِمَ بِهَذَا السَّبَبِ
 وَلَا يُنْسَكُ ، وَإِنْ عَرَضَ أَنْ يَقُولَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ بِلَادِ عِزِّ سُلْطَانِهِ : إِنَّهُ غَرَّمَ أَوْ ظَلِمَ
 مِنْ أَهْلِ بِلَادِ مُلْكِي فَلْيَعْرِفْ مُلْكِي بِذَلِكَ . وَإِذَا كَانَ الَّذِي وَضَعَ الْغَرَامَةَ مِنْ أَهْلِ
 بِلَادِ مُلْكِي ، فَمُلْكِي يَأْمُرُ ، وَتَعَادُ تِلْكَ الْخَسَارَةُ إِلَى بِلَادِ عِزِّ سُلْطَانِهِ . وَكَذَلِكَ إِنْ
 قَالَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ بِلَادِ مَمْلَكَتِي : إِنَّهُ ظَلِمَ أَوْ غَرَّمَ مِنْ أَحَدٍ مِنْ بِلَادِ عِزِّ سُلْطَانِهِ ،
 يَأْمُرُ عِزُّ سُلْطَانِهِ ، وَتَعَادُ الْغَرَامَةُ إِلَى بِلَادِ مُلْكِي . وَأَيْضًا إِذَا قَدْ أَزْمَعَتِ الْحَبَّةُ أَنْ
 تَصِيرَ بِهَذِهِ الصُّورَةِ ، وَتَكُونَ الصَّدَاقَةُ بَيْنَ مَمْلَكَتِي وَعِزِّ سُلْطَانِهِ خَالِصَةً ، حَتَّى إِنْ
 أُرْسِلَ يَقُولُ لِمُلْكِي عَلَى مَعُونَةٍ وَتَجْدَةٍ مُلْكِي فِي الْبَحْرِ لِمَضَرَّةِ الْعَدُوِّ الْمَشْتَرِكِ ، فَمَمْلَكَتِي
 تَفَوِّضُ هَذَا الْأَمْرَ إِلَى اخْتِيَارِ عِزِّ سُلْطَانِهِ ، أَنْ يَرْتَبَ فِي نَسْخَةِ الْإِيمَانِ مَعَ بَقِيَّةِ
 الْفُصُولِ الْمَعْنِيَّةِ فِيهِ ، وَتَأْتِي الصُّورَةُ كَيْفَ نَعِينَ وَتَجْدِ مَمْلَكَتِي فِي الْبَحْرِ . وَإِنْ كَانَ
 لَا يُرِيدُ تَجْدَةً وَمَعُونَةً مَمْلَكَتِي ، فَمَمْلَكَتِي تَسْمَحُ بِهَذَا الْفَضْلِ أَنْ لَا يَضَعَهُ عِزُّ سُلْطَانِهِ
 فِي نُسْخَةِ إِيْمَانِهِ ، وَهَذِهِ الْإِيمَانُ مَنَا بِحِفْظِ مُلْكِي لِعِزِّ سُلْطَانِهِ ثَابِتَةً غَيْرَ مَرَّعِرَةٍ إِنْ كَانَ
 هَذَا السُّلْطَانُ الْعَظِيمُ يَخْلُفُ لِي يَمِينًا بِمِثْلِهَا ، وَأَنَّهُ يَحْفَظُ الْحَبَّةَ لِمَمْلَكَتِنَا ، ثَابِتَةً غَيْرَ
 مَرَّعِرَةٍ ، وَالسَّلَامُ .



وهذه نسخة اتفاق ، كتبت من الأبواب السلطانية عن المَلِكِ المنصور «قلاوون»
 عن نظير الهدنة المتقدمة ، الواردة من قِبَلِ صَاحِبِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ ، مَفْتَحَةً بِإِيمَانِ
 مُوَافَقَةٍ لَهَا ، وَهِيَ :

أَقُولُ وَأَنَا فَلَانُ : إِنَّهُ لَمَّا رَغِبَ حَضْرَةُ الْمَلِكِ الْجَلِيلِ ، كَرِيمِخَانِيلِ ، الدُّوقْسُ ،
 الْأَنْجَالُوسُ ، الْكِينِيُوسُ ، الْبَالَاوُلُوغُسُ ، ضَابِطُ مَمْلَكَةِ الرُّومِ وَالْقُسْطَنْطِينِيَّةِ الْعُظْمَى ،

أكبر ملوك المسيحية ، أبقاه الله - أن يكون بين مملكته وبين عز سلطانى ، حبة
وصداقة ومودة لا تتغير بتغير الأيام ، ولا تزول بزوال السنين والأعوام ، وأؤكد ذلك
بيمين حلف عليها ، تاريخها يوم الخميس ثامن شهر إيار سنة ستة آلاف وسبعماية
وتسع وثمانين لآدم ، صلوات الله عليه ، بحضور رسول عز سلطانى ، الأمير ناصر الدين
أبن الجزرى ، والبطرك الجليل انبا سيوس بطرك الاسكندرية ، وحضر رسوله
فلان وفلان إلى عز سلطانى بنسخة اليمين ، ملتصقين أن يتوسط هذا الأمر أيضا
يمين واتفاق من عز سلطانى ، لتدوم المحبة فيما بين مملكته وعز سلطانى ، وتكون
ثابتة مستمرة على الدوام والاستمرار .

فعر سلطانى من هذا اليوم ، وهو يوم الاثنين مستهل رمضان المعظم ، سنة
ثمانين وسبعمائة للهجرة النبوية المحمدية ، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ،
يحلف بالله العظيم ، الرحمن الرحيم ، عالم الغيب والشهادة ، والمهر والعالية وما تحفى
الصدور ، والقرآن العظيم ، وبمن أنزله ، وبمن أنزل عليه ، وهو النبي الكريم ،
محمد صلى الله عليه وسلم - على استمرار الصداقة ، واستقرار المودة النقية ، للملك
الجليل كرميخائيل ، ضابط مملكة الروم والقسطنطينية العظمى ، ولولده مملكته
الحبيب الكينوس الانجالوس ، الدوقس ، البالاولوس ، الملك إيراندوبنفوس ،
ولوارثي مملكة ملكه . ولا يحرك عز سلطانى أبدا على مملكته حربا ، ولا على
بلاديه ، ولا على قلاعه ، ولا على عساكره : فى بر ولا بحر . ولا يحرك
عز سلطانى أحدا آخر على حربيه ، بحيث إن الملك الجليل كرميخائيل يحفظ مثل
ذلك لعز سلطانى ، ولملكى ، ولبلادى ، ولقلاعى ، ولعساكرى ، ولولدى السلطان
الملك الصالح علاء الدين «على» ولوارثي ملكى من أولادى ، ويستمر على هذه
الصداقة والمودة النقية ، ولا يحرك ملكه على عز سلطانى حربا قط ، ولا على

بلادي ، ولا على قلاعي ، ولا على عساكري ، ولا على مملكتي ، ولا يحرك أحدًا آخر على حرب مملكة عز سلطان في البر ولا في البحر ، ولا يساعد أحدًا من أضداد عز سلطان ، ولا أعدائي من سائر الأديان والأجناس ، ولا يوافق على ذلك ، ولا يفتح لهم في العبور إلى مملكة عز سلطان لمضرة شيء فيها بجهد وطاقته .

وأن الرسل المسيرين من مملكة عز سلطان إلى بر بركة وأولاده وبلادهم وتلك الجهات ، وبحر سوداق وبره ، يكونون آمنين مطمئنين مطلقاً : لهم أن يعبروا في بلاد مملكة الملك الجليل ، كريمخايل من أولها إلى آخرها ، بلا مانع ولا عائق : أرسلوا في بر أو بحر ، على ما تقتضيه مصلحة ذلك الوقت لمملكة عز سلطان ، آمنين مطمئنين ، غير ممنوعين بجميع من يصل معهم من رسل تلك الجهات وغيرها ، وكل من معهم من ممالك وجوار وغير ذلك . وأن لا يحصل للتجار الواردين من مملكة الملك الجليل كريمخايل إلى بلاد عز سلطان جور ولا ظلم ، ويترددون آمنين مطمئنين يعملون متاجرهم ، ولهم الرعاية في الصدور والورود ، والمقام والسفر : بحيث يكون لتجار مملكة عز سلطان في بلاد مملكة الملك الجليل كريمخايل مثل ذلك ، ويكونون ممرعين ، لا يجحدون من أحد في بلاد مملكة الملك الجليل كريمخايل جوراً ولا ظلماً . ومن عليه حق واجب في الجهتين على ما استقر عليه الحال ، يقوم به من غير حيف ولا ظلم .

وأن من حضر من التجار : من سوداق وغيرها بممالك وجوار مملكتهم مملكة الملك الجليل كريمخايل من الحضور بهم إلى مملكة عز سلطان ولا تمنعهم . وأن الكرسالية متى تعرضوا إلى أخذ أحد من التجار المسلمين في البحر ، ونُسبت الكرسالية إلى رعية مملكة الملك الجليل كريمخايل ، يسير عز سلطان إليه في طلبهم ،

ولا يتعرض أحدٌ من نواب مملكة عِزِّ سُلْطَانِي إلى هذا الجنس بسببهم ، إلا أن يتحقق أنهم آخذون ، أو تظهر عينُ المالِ معهم ، على ما تضمنته نُسخةُ يمينِ المَلِكِ الجليلِ كرميخائيل ، ولملكة المَلِكِ الجليلِ كرميخائيل من بلادِ عِزِّ سُلْطَانِي مثلُ ذلك .

وعلى أنَّ الرُّسُلَ المترددين من الجهتين : من مملكةِ عِزِّ سُلْطَانِي ، ومن مملكةِ المَلِكِ الجليلِ كرميخائيل ، يكونون آمينين مُطمئنين في سَفَرهم ومُقَامهم : برًّا وبحرًا ، وتكون رعيةُ بلادِ عِزِّ سُلْطَانِي ، ورعيةُ بلادِ المَلِكِ الجليلِ كرميخائيل ، في الجهتين من المسلمين وغيرهم آمينين مُطمئنين ، صَادِرِينَ وَارِدِينَ ، مُحْتَرَمِينَ مَرَعِينَ . وهذه اليمينُ لا تزالُ مَحْفُوظَةً مَلْحُوظَةً ، مُسْتَمِرَّةً مُسْتَقَرَّةً ، على الدوامِ والاستمرار .

قلتُ : وهذه النُّسخةُ والنُّسخةُ الْوَارِدَةُ من صاحبِ القُسْطَنْطِينِيَّةِ الْمُتَقَدِّمَةِ عَلَيْهَا ، وإنْ عَبَّرَ عَنْهَا فِي خِلَالِهَا بِلَفْظِ الْيَمِينِ ، فَإِنَّهَا بِعَقْدِ الصُّلْحِ أَشْبَهُ ، وَالْيَمِينُ جُزْءٌ مِنْ أَجْزَاءِ ذَلِكَ ، وَلِذَاكَ أوردتها في عُقُودِ الصُّلْحِ دُونَ الْإِيمَانِ .

الباب الخامس من المقالة التاسعة

(في عقود الصلح الواقعة بين ملّكين مُسلمين ، وفيه فصلان)

الفصل الأول

في أصول تُعتمدُ في ذلك

اعلم أنَّ الأصل في ذلك ما ذكره أصحابُ السَّير وأهلُ التاريخ ، أنه لما وقع الحربُ بين أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وبين معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ، في صيفين ، في سنة سبع وثلاثين من الهجرة - توافقاً على أن يُقيمَا حَكَمَيْنِ بينهما ، ويعمَلَا بما يَتَّفِقَانِ عليه . فأقام أمير المؤمنين عليّ أبا موسى الأشعريّ حَكماً عنه ، وأقام معاوية عمرو بن العاص حَكماً عنه . فاتفق الحَكمان على أن يُكتبَ بينهما كِتَابٌ بعقد الصلح ، واجتمعا عند عليّ رضي الله عنه ، وكتبَ كِتَابُ الْقِضَةِ بينهما بحضرته ، فكتبَ فيه بعد البسملة :

هذا ما تقاضى أمير المؤمنين عليّ ، فقال عمرو : هو أميركم ، أما أميرنا فلا . فقال [الأحنف : لا تمنح أسم أمير المؤمنين فإنّي أخاف إن محوتها أن لا ترجع إليك أبداً . لا تمحوها وإن قتل الناس بعضهم بعضاً ، فأبى ذلك عليّ ملياً من النهار . ثم إن الأشعث^(١) ابن قيس قال : أضح أسم أمير المؤمنين ، فأجاب عليّ وعماه . ثم قال عليّ : الله أكبر ! سنةً بسنة . والله إني لَكاتبُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم يوم الحُدَيْبِيَّةِ ، فكتبتُ : محمدُ رسولُ الله ، فقالوا : لستَ برسولِ الله ، ولكن أكتبِ أسمَكَ وأسمَ أبيك .

فَأَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحُجْوَةٍ ، فَقُلْتُ : لَا أَسْتَطِيعُ أَفْعَلُ ! فَقَالَ
إِذْنًا أَرْنِيهِ فَأَرَيْتُهُ فَحَاضَ بِيَدِهِ ، وَقَالَ : « إِنَّكَ سَتُدْعَى إِلَى مِثْلِهَا فَحُجِّبْ » .



وهذه نُسخةُ كِتَابِ الْقَضِيَّةِ بَيْنَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ وَبَيْنَ مُعَاوِيَةَ ، فِيمَا رَوَاهُ
أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْحُسَيْنُ بْنُ نَصْرِ بْنِ مُزَاهِمِ الْمُنْقَرِي ، فِي " كِتَابِ صِفَتَيْنِ وَالْحَكَمَيْنِ " ،
بِسَنَدِهِ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ الشَّعْبِيِّ ، وَهُوَ :

هَذَا مَا تَقَاضَى عَلَيْهِ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، وَمُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ وَشِيعَتُهُمَا ،
فِيمَا تَرَاضِيَا مِنَ الْحُكْمِ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . قَضِيَّةٌ عَلَى عَلِيٍّ
أَهْلُ الْعِرَاقِ وَمَنْ كَانَ مِنْ شِيعَتِهِ مِنْ شَاهِدٍ أَوْ غَائِبٍ ، وَقَضِيَّةٌ مُعَاوِيَةَ عَلَى أَهْلِ
الشَّامِ وَمَنْ كَانَ مِنْ شِيعَتِهِ مِنْ شَاهِدٍ أَوْ غَائِبٍ ، أَنَا رَضِينَا أَنْ نَنْزِلَ عِنْدَ حُكْمِ
كِتَابِ اللَّهِ بَيْنَنَا حُكْمًا فِيمَا اخْتَلَفْنَا فِيهِ مِنْ قَاتِلَتِهِ إِلَى خَاتَمَتِهِ ، نُحْيِي مَا أَحْيَا ، وَنُمِيتُ
مَا أَمَاتَ . عَلَى ذَلِكَ تَقَاضَيْنَا ، وَبِهِ تَرَاضَيْنَا . وَإِنْ عَلِيًّا وَشِيعَتَهُ رَضُوا أَنْ يَبْعَثُوا
عَبْدَ اللَّهِ بْنَ قَيْسٍ نَظِيرًا وَمُحَاجًّا ، وَرَضَى مُعَاوِيَةُ وَشِيعَتُهُ أَنْ يَبْعَثُوا عَمْرُو بْنَ الْعَاصِ
نَظِيرًا وَمُحَاجًّا ، عَلَى أَنَّهُمْ أَخَذُوا عَلَيْهِمَا عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ ، وَأَعْظَمَ مَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَى
أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ ، لِيَتَّعِدَا الْكِتَابَ إِمَامًا فِيمَا يُعْتَالُ لَهُ ، لَا يَعْذُوَانِهِ إِلَى غَيْرِهِ فِي الْحُكْمِ
بِمَا وَجَدَا فِيهِ مَسْطُورًا ، وَمَا لَمْ يَجِدَاهُ مُسَمًّى فِي الْكِتَابِ رَدَّاهُ إِلَى سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ
الْجَامِعَةِ ، لَا يَتَعَمَّدَانِ لَهَا خِلَافًا ، وَلَا يَتَّبِعَانِ فِي ذَلِكَ لَهَا هَوًى ، وَلَا يَدْخُلَانِ
فِي شُبْهَةٍ .

وَأَخَذَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ قَيْسٍ ، وَعَمْرُو بْنُ الْعَاصِ عَلَى عَلِيٍّ وَمُعَاوِيَةَ عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ
بِالرَّضَا بِمَا حَكَمَ بِهِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ، لَيْسَ لَهَا أَنْ يَنْقُضَا ذَلِكَ تَخَالُفًا إِلَى

غيره ، وأنهما أمانان في حُكومتَهما على دِمَائِهما وأموالِهما وأهلِهما ، ما لم يعدُّوا الحقَّ ، رَضِيَ بذلك راضٍ أو أنكر مُنْكَر . وأنَّ الأُمَّةَ أنصارُها على ما قَضَيَا به من العدل .

فإن تَوَقَّ أحدُ الحَكَمَينِ قبلَ آتِفاءِ الحُكُومَةِ ، فامِيرُ شِيعَتِهِ وأصحابُهُ يَخْتَارُونَ رَجُلًا ، لا يَأْلُوْنَ عن أَهْلِ المَدِينَةِ والإِمْساطِ ، على ما كانَ عليه صاحِبُهُ من العَهْدِ والميثاقِ والحُكْمِ بِكَلابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسولِهِ ، وله مثلُ شَرَطِ صاحِبِهِ .

وإن مات واحدٌ من الأَميرينِ قبلَ القَضاءِ ، فَلشِيعَتِهِ أَنْ يُؤَلُّوا مكانَهُ رَجُلًا يَرْضَوْنَ عَدْلَهُ .

وقد وَقَعَتِ القِضِيَّةُ بَيْننا والأَمْنِ والتَّفَاوُضِ ، ووُضِعَ السِّلَاحُ . وعلى الحَكَمَينِ عَهْدُ اللهِ وميثاقُهُ : لِيَحْكُمَا بِكَلابِ اللهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ، لا يَدْخُلانِ في شُبُهَةٍ ولا يَأْلُوَانِ أَجْهَادًا ، ولا يَتَعَمَّدانِ جَوْرًا ، ولا يَتَّبِعانِ هَوًى ، ولا يَعْتَدوانِ ما في كَلابِ اللهِ تَعَالَى وَسُنَّةِ رَسولِهِ . فإن لم يَفْعَلَا بِرَبِّتِ الأُمَّةِ مِنْ حُكْمِهما ، ولا عَهْدَهما ولا ذِمَّةَ .

وقد وَجِبَتِ القِضِيَّةُ على ما تَمَيَّنَا في هَذا الكَلابِ من مَوَاقِعِ الشَّرْطِ على الأَميرينِ والحَكَمَينِ والفَرِيقَينِ ، واللهُ أَقْرَبُ شَهِيدًا وأَدْنَى حَفِيفًا ، والناسُ آمِنُونَ على أَنْفُسِهِم وأَهْلِيهِم وأَمْوَالِهِم إلى آتِفاءِ مُدَّةِ الأَجَلِ ؛ والسِّلَاحُ مَوْضُوعٌ ، والسَّيْلُ مُحَلَّى ، والشَّاهِدُ والغائِبُ من الفَرِيقَينِ سَوَاءٌ في الأَمْرِ . ولِالحَكَمَينِ أَنْ يَتَرَلَّا مَتَرَلًا عَدْلًا بَيْنَ أَهْلِ العِراقِ وأَهْلِ الشَّامِ ، ولا يَخْضُرُها فِيهِ إِلا من أَحَبَّ عن مَلَأٍ مِنْهُما وَتَراضٍ . وأَجَلَ القاضِيَيْنِ المُسلمونَ إلى رَمَضانَ : فإن رَأى الحَكَمَانِ تَعَجُّيلَ الحُكُومَةِ فيما وَجَّها لَهُ ، عَجَّلَا . وإن أَرادَا تَأخِيرَهُ بَعْدَ رَمَضانَ إلى آتِفاءِ المَوْسِمِ ، فإن ذَلكَ إِلَيْهما . فإن هُمَا لم يَحْكُمَا بِكَلابِ اللهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ إلى آتِفاءِ المَوْسِمِ ، فالمُسلمونَ على

أمرهم الأول في الحرب، ولا شرط بين واحد من الفريقين . وعلى الأمة عهد الله وميثاقه على التماس علي ما في هذا الكتاب . وهم يد علي من أراد في هذا الكتاب الحبادا أو ظلمًا ، أو أراد له تقضًا .

شهد علي ما في هذا الكتاب من أصحاب علي : الأشعث بن قيس ، وعبد الله ابن عباس ، والأشعث بن الحرث ، وسعيد بن قيس الحمداي ، والحصين والطفيل ابنا الحرث بن المطلب ، وأبو أسيد بن ربيعة الأنصاري ، وخباب بن الارت ، وسهل بن حنيف الأنصاري ، وأبو اليمن بن عمرو الأنصاري ، ورفاعة بن رافع ابن مالك الأنصاري ، وعوف بن الحرث بن المطلب القرشي ، وبريدة الأسلمي ، وعقبة بن عامر الجهني ، ورافع بن خديج الأنصاري ، وعمرو بن الحقي الخزاعي ، والحسن والحسين ابنا علي ، وعبد الله بن جعفر الهاشمي ، واليعمر بن عجلان الأنصاري ، ومجرب بن عدي الكندي ، وورقاء بن سمي البجلي ، وعبد الله بن الطفيل الأنصاري ، ويزيد بن حجة الذكرى^(١) ، ومالك بن كعب الحمداي ، وربيعة بن شريحيل ، وأبو صفرة ، والحارث بن مالك ، ومجرب بن يزيد ، وعقبة بن حجة .

ومن أصحاب معاوية : حبيب بن مسلمة النهدي ، و[أبو] الأعور السلمي ، وبسر ابن أرطاة القرشي ، ومعاوية بن خديج الكندي ، والمخارق بن الحرث الحميري ، وزميل بن عمرو السكسكي ، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد المخزومي ، وحمزة بن مالك الحمداي ، وسبع بن زيد الحميري ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وعقمة بن مرثد^(٢)

(١) في الكامل لابن الأثير "ابن حجة القيسي" .

(٢) في خلاصة أسماء الرجال : النهري .

(٣) في الكامل : "سبع بن يزيد الأنصاري" .

الكلبي، وخالد بن الحُصَيْن السَّكْسَكِي، وعَلْقَمَةُ بْنُ يَزِيدَ الحَضْرَمِي، وَيَزِيدُ بْنُ الحَزْر
العَبْسِي، وَمَسْرُوقُ بْنُ حَمَلَةَ العُكَي، وَنُعْمَانُ بْنُ يَزِيدَ الحِمَيْرِي، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عامر
الْقُرَشِي، وَمَرْوَانُ بْنُ الحَكَم، والوليدُ بْنُ عُقْبَةَ الْقُرَشِي، وعُقْبَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ،
ومحمدُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ، ومحمدُ بْنُ عمرو بن العاص، ويَزِيدُ بْنُ عمرو الجُدَامِي، وعَمَّارُ
ابن الأَخْوَص الكلبي، وَمَسْعَدَةُ بْنُ عمر القِنِّي، وعاصمُ بْنُ المستنير الجُدَامِي،
وعَبْدُ الرحمن بْنُ ذِي كَلَّاج الحِمَيْرِي، والصباحُ بْنُ جلهمة الحِمَيْرِي، وَنُصَيْمَةُ بْنُ
حَوْشَب، وعَلْقَمَةُ بْنُ حَكِيم، وحَمْرَةُ بْنُ مالك .

وإنَّ يَبْنُنا على ما في هذه الصَّحِيفَةِ عَهْدُ اللَّهِ وَمِيثَاقُهُ . وَكُتِبَ عُمَيْرُ يَوْمِ الأَرْبَعاءِ
لثَلَاثِ عَشْرَةِ لَيْلَةٍ بَقِيَتْ مِنْ صَفَرِ سَنَةِ سَبْعٍ وَثَلَاثِينَ .

وأُخْرِجَ أَيْضاً بِسَنَدِهِ إِلَى أَبِي إِسْحَاقَ الشَّيْبَانِي أَنَّ عَقْدَ الصُّلْحِ كَانَ عِنْدَ سَعِيدِ
أَبْنِ أَبِي بُرْدَةَ فِي صَحِيفَةٍ صَفْرَاءَ عَلَيْهَا خَاتَمَانِ : خَاتَمٌ فِي أَسْفَلِهَا، وَخَاتَمٌ فِي أَعْلَاهَا .
فِي خَاتَمِ عَلِيٍّ «مُحَمَّدُ رَسُولُ اللَّهِ» وَفِي خَاتَمِ مُعَاوِيَةَ «مُحَمَّدُ رَسُولُ اللَّهِ» .

قُلْتُ : وَذَكَرَ رَوَايَاتٍ أُخْرَى فِيهَا زِيَادَةٌ وَقَصُّ أَضْرَبْنَا عَنْ ذِكْرِهَا خَوْفَ
الإِطَالَةِ، إِذْ فِيهَا ذِكْرُنَا مَقْنَعٌ . عَلَى أَنَّ الْمُؤَرِّخِينَ لَمْ يَذْكُرُوا مِنْ ذَلِكَ إِلَّا طَرَفًا يَسِيرًا .

الفصل الثاني

من الباب الخامس من المقالة التاسعة

(فيما جرت العادة بكتابه بين الخلفاء وملوك المسلمين على تعاقب الدول،

تما يكتب في الطرة والمتن)

أما الطرة : فليعلم أنَّ الذي ينبغي أن يكتب في الطرة هنا : « هذا عقد صلح »
ويكمل على ما تقدم في الهدنة . ولا يكتب فيه : « هذه هدنة » لما يسبق إلى
الأذهان من أن المراد من الهدنة ما يجري بين المسلمين والكفار .
وأما المتن فعلى نوعين :

النوع الأول

(ما يكون العقد فيه من الجانبين)

ولم أرفه للكتاب إلا الاستفتاح بلفظ : « هذا » . وعليه كتب كتاب القضية
بين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وبين معاوية بن أبي سفيان
رضي الله عنه ، على ما تقدم ذكره .

وعلى ذلك استكتب هرون الرشيد ولديه : محمد الأمين ، وعبد الله المأمون :
المهديين الذين عهد فيما بالخلافة بعده لابنه الأمين ، وولي خراسان ابنه المأمون ،
ثم عهد بالخلافة من بعد الأمين للمأمون ، وأشهد فيهما ، وبعث بهما إلى مكة فعلقا
في بطن الكعبة ، في جملة المعلقات التي كانت تعلق فيها ، على عادة العرب السابقة :
من تعليق القصائد ونحوها . وبذلك تسميت القصائد السبع المشهورة : بالمعلقات ،
لتعليقهم إياها في جوف الكعبة .

أما عهد الأيمن، فُسخته بعد البسملة - على ما ذكره الأزرقي في أخبار مكة -
ما صورته :

هذا كتاب لعبد الله هرون أمير المؤمنين، كتبه [له] محمد بن أمير المؤمنين في صحة
من بدنه وعقله، وجواز من أمره، طائعا غير مكره .

إن أمير المؤمنين هرون ولأني العهد من بعده، وجعل لي البيعة في رقاب
المسلمين جميعا، وولي أئني عبد الله بن أمير المؤمنين هرون العهد والخلافة وجميع
أموار المسلمين من بعدى، برضا مني وتسليم، طائعا غير مكره . ولأه نراسان
بشئورها، وكورها، وجنودها، ونحارجها، وطرازها، وبريدها، وببوت أموالها،
وصدقاتها، وعشيرها وعشورها، وجميع أعمالها، في حياته وبعد وفاته . فشرطت
لعبد الله ابن أمير المؤمنين على الوفاء بما جعله له أمير المؤمنين هرون : من البيعة
والعهد، وولاية الخلافة وأموار المسلمين بعدى، وتسليم ذلك له ، وما جعل له
من ولاية نراسان وأعمالها ، وما أقطعه أمير المؤمنين هرون من قطيعة ، وجعل له
من عقدة أو ضيعة من ضياعه وعقده، أو ابتاع له من الضياع والعقد . وما أعطاه
في حياته وصحته : من مال، أو حلي، أو جوهر، أو متاع، أو كسوة، أو رقيق،
أو منزل، أو دواب، أو قبالا، أو كثيرا، فهو لعبد الله ابن أمير المؤمنين موقرا عليه،
مسما له . وقد عرفت ذلك كله شيئا فشيئا باسمه وأصنافه ومواضعه، أنا وعبد الله
ابن هرون أمير المؤمنين . فإن اختلفنا في شيء منه فالقول فيه قول عبد الله بن هرون
أمير المؤمنين، لا أتبعه بشيء من ذلك ، ولا آخذ منه ، ولا أنتقصه، صغيرا
ولا كبيرا [من ماله] ولا من ولاية نراسان ولا غيرها مما ولأه أمير المؤمنين من
الأعمال، ولا أعزله عن شيء منها، ولا أخلعه، ولا أستبدل به غيره، ولا أقدم عليه

في العهدِ والخلافةِ أحدًا من الناسِ جميعًا، ولا أُدخِلُ عليه مَكْرُوهًا في نفسه ولا دمه، ولا شعْره ولا بَشْرَه، ولا خَاصَّ ولا عامَّ من أموره وولايته، ولا أمواله، ولا قَطَائِعَه، ولا عُقْدَه، ولا أُغْيِرُ عليه شيئًا لسبب من الأسباب، ولا أَخْذُه ولا أحدًا من عَمَالِه وكُتَّابِه وولَاةِ أمرِه - من صَحْبِه وأقام معه - بِمُحَاسَبَةٍ، ولا أَتَقَبَّعُ شيئًا جرى على يَدَيْهِ وأيديهم في ولايةِ نُرَاسَانٍ وأعمالها وغيرها مما ولّاه أميرُ المؤمنين في حَيَاتِه وصَحْبَتِه : من العِلَاقَةِ، والأموالِ، والطَّرَازِ، والبريدِ، والصدقاتِ، والعُشْرِ والعُشُورِ، وغير ذلك؛ ولا أمرُ بذلك أحدًا من الناس، ولا أَرْخَصُ فيه لغيري، ولا أَحَدْتُ نَفْسِي فيه بشيءٍ مُضْيِئٍ عليه، ولا أَتَمِّسُ قِطِيعَةً له، ولا أَتَقَصُّ شيئًا مما جعله له هَرُونَ أميرُ المؤمنين وأعطاه في حَيَاتِه وخِلافَتِه وسُلْطَانِه من جميع ما سَمَّيْتُ في كِتَابِي هذا . وأخْذُ له عَلَى وَعَلَى جميع الناسِ البَيْعَةَ، ولا أَرْخَصُ لأحدٍ - من جميع الناسِ كُلِّهم في جميع ما ولّاه - في خَلْعِه ولا مُخَالَفَتِه، ولا أَسْمَعُ من أحدٍ من البريةِ في ذلك قولًا، ولا أَرْضَى بذلك في سِرٍّ ولا عَلَانِيَةٍ، ولا أَغْمِضُ عليه، ولا أَتَغَافَلُ عنه، ولا أَقْبِلُ من بَرٍّ من العِبَادِ ولا فَاحِشٍ، ولا صَادِقٍ ولا كَاذِبٍ، ولا ناصحٍ ولا غاشٍّ، ولا قَرِيبٍ ولا بَعِيدٍ، ولا أحدٍ من وَلَدِ آدَمَ عليه السلام : من ذَكَرٍ ولا أُتَى - مَشُورَةً، ولا حِيلَةً، ولا مَكِيدَةً في شيءٍ من الأمور : سَرًّا وَعَلَانِيَةً، وَحَقًّا وَباطِلًا، وظَاهِرًا وَبَاطِنًا، ولا سَبَبٍ من الأسبابِ، أريدُ بذلك إفسادَ شيءٍ مما أعطيتُ عبدَ الله بنَ هَرُونَ أميرَ المؤمنين من نَفْسِي، وأَوْجِثُ له عَلَى، وشرطتُ وَسَمَّيْتُ في كِتَابِي هذا .

وإن أراد به أحدٌ من الناسِ أجمعين سوءًا أو مَكْرُوهًا، أو أراد خَلْعُه أو مُخَالَفَتَه، أو الوُصُولَ إلى نَفْسِه وَدَمِه، أو حَرَمِه، أو مَالِه، أو سُلْطَانِه أو وِلَايَتِه : جميعًا أو فَرَادَى، مُسَرِّين أو مُظْهِرِينَ له - لِأَنِّي أَنصُرُه وَأُخَوِّلُه، وَأُدْفَعُ عنه، كما أَدْفَعُ عن نَفْسِي، ومُهَجَّتِي، وَدَمِي، وشَعْرِي، وبَشِيرِي، وَحَرَمِي، وسُلْطَانِي، وَأَجْهَزُ الجُنُودَ

إليه ، وأعينه على كل من غشه وخالفه ، ولا أسلمه [ولا أخذه] ولا أئحى عنه ،
ويكون أمرى وأمره في ذلك واحدا [أبدا] ما كنت حيا .

وإن حدث بأمير المؤمنين هرون حدث الموت ، وأنا وعبد الله ابن أمير المؤمنين
بحضرة أمير المؤمنين ، أو أحدنا ، أو كذا غائبين عنه جميعا : مجتمعين كذا أو متفرقين ،
وليس عبد الله بن هرون أمير المؤمنين في ولايته بخراسان [فعلى لعبد الله ابن
أمير المؤمنين أن أمضيه إلى خراسان] وأن أسلم له ولايتها بأعمالها كلها وجنودها ، ولا
أعوقه عنها ، ولا أحبس قبلي ، ولا في شيء من البلدان دون خراسان ، وأعجل إشخاصه
إلى خراسان وإلياً عليها مفردا بها ، موقوفاً إليه جميع أعمالها كلها ، وأشخص معه
من ضم إليه أمير المؤمنين : من قواده ، وجنوده ، وأصحابه ، وكتابه ، وعماله ،
ومواليه ، وخدّمه ، ومن تبعه من صنوف الناس بأهلهم وأموالهم ؛ ولا أحبس عنه
أحدا ، ولا أشرك معه في شيء منها أحدا ، ولا أرسل أيمنا ولا كاتباً ولا بُندارا ،
ولا أضرب على يديه في قليل ولا كثير .

وأعطيت هرون أمير المؤمنين وعبد الله بن هرون على ما شرطت لهما على نفسي ،
من جميع ما سميت وكتبت في كتابي هذا - عهد الله وميثاقه ، وذمة أمير المؤمنين
وذمتي ، وذمة آبائي وذمة المؤمنين ، وأشد ما أخذ الله تعالى على النبيين والمرسلين
وخلفه أجمعين : من عهوده وموآثيقه ، والأيمان المؤكدة التي أمر الله عز وجل
بالوفاء بها ، ونهى عن نقضها وتبديلها .

فإن أنا نقضت شيئا مما شرطت لهرون أمير المؤمنين ولعبد الله بن هرون
أمير المؤمنين وسميت في كتابي هذا ، أو حدثت نفسي أن أقض شيئا مما أنا عليه ،

أَوْ غَيَّرْتُ أَوْ بَدَّلْتُ، أَوْ حُلْتُ أَوْ غَدَرْتُ، أَوْ قِيلْتُ [ذلك] مِنْ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ :
صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا، بَرًّا أَوْ فَاحِشًا، ذَكَرًا أَوْ أُنْثَى، وَجَمَاعَةً أَوْ فَرَادَى - فَبُرِثْتُ مِنَ اللَّهِ
عَزَّ وَجَلَّ، وَمِنْ وَلَايَتِهِ، وَمِنْ دِينِهِ، وَمِنْ عَهْدِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَقِيْتُ اللَّهَ
عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَفْرَأَ مُشِيرَكًا . وَكُلُّ أَمْرَاءٍ هِيَ الْيَوْمَ لِي أَوْ أَتَرُوجُّهَا إِلَى
ثَلَاثِينَ سَنَةً طَالِقٌ ثَلَاثًا، الْبَتَّةَ، طَلَّاقَ الْحَرْجِ، وَعَلَى الْمَشَى إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ
ثَلَاثِينَ سَجَّةً : نَذْرًا وَاجِبًا لِلَّهِ تَعَالَى فِي عُنُقِي، حَافِيًا رَاجِلًا، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنِّي إِلَّا الْوَفَاءَ
بِذَلِكَ . وَكُلُّ مَالٍ هُوَ لِي الْيَوْمَ، أَوْ أَمْلِكُكَ إِلَى ثَلَاثِينَ سَنَةً هَذِي بِالْبَيْتِ الْكَعْبَةِ
الْحَرَامِ . وَكُلُّ تَمْلُوكٍ هُوَ لِي الْيَوْمَ، أَوْ أَمْلِكُكَ إِلَى ثَلَاثِينَ سَنَةً أحراراً لَوَجْهَ اللَّهِ
عَزَّ وَجَلَّ .

وَكُلُّ مَا جَعَلْتُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَلِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ هُرُونِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَكِتَبْتُهُ وَشَرَطْتُهُ
لَهُمَا، وَحَلَفْتُ عَلَيْهِ، وَتَمَيَّيْتُ فِي كِتَابِي هَذَا لِأَزِمَ لِي الْوَفَاءُ بِهِ، لَا أَضْمُرُ غَيْرَهُ،
وَلَا أَتَوَى إِلَّا إِيَّاهُ . فَإِنْ أَضْمَرْتُ أَوْ تَوَيْتُ غَيْرَهُ فَهَذِهِ الْعُقُودُ وَالْمَوَاقِيقُ وَالْأَيْمَانُ
كُلُّهَا لِأَزِمَةٍ لِي، وَاجِبَةٌ عَلَيَّ . وَفُقُودُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَجُنُودُهُ وَأَهْلُ الْأَفَاقِ وَالْأَمْصَارِ
فِي حِلٍّ مِنْ خَلْيٍ وَإِنْخِرَاجِي مِنْ وَلَايَتِي عَلَيْهِمْ، حَتَّى أَكُونَ سُوقَةً مِنَ السُّوقِ،
وَكَرْجُلٍ مِنْ عَرَضِ الْمُسْلِمِينَ، لَاحِقٌ لِي عَلَيْهِمْ، وَلَا وَلَايَةَ، وَلَا تَبِعَةَ لِي قَبْلَهُمْ،
وَلَا تَبِعَةَ لِي فِي أَعْنَاقِهِمْ، وَهُمْ فِي حِلٍّ مِنَ الْأَيْمَانِ الَّتِي أَعْطَوْنِي، بَرَاءً مِنْ تَبِعَتِهَا
وَوِزْرِهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

شَهِدَ سُلَيْمَانُ بْنُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَنَصِّرِ، وَعِيسَى بْنُ جَعْفَرٍ، وَجَعْفَرُ بْنُ جَعْفَرٍ،
وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُهْدِيِّ، وَجَعْفَرُ بْنُ مُوسَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِسْحَاقُ بْنُ مُوسَى
أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِسْحَاقُ بْنُ عِيسَى بْنِ عَلِيٍّ، وَأَحْمَدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ بْنِ عَلِيٍّ، وَسُلَيْمَانُ بْنُ

جَعْفَرُ بْنُ سُلَيْمَانَ ، وَعِيسَى بْنُ صَالِحِ بْنِ عَلِيٍّ ، وَدَاوُدُ بْنُ عِيسَى بْنِ مُوسَى ، وَيَحْيَى
أَبْنُ عِيسَى بْنِ مُوسَى ، وَدَاوُدُ بْنُ سُلَيْمَانَ بْنِ جَعْفَرٍ ، وَخَزِيمَةُ بْنُ حَازِمٍ ، وَهَرَمَةُ بْنُ
أَعْيَنَ ، وَيَحْيَى بْنُ خَالِدٍ ، وَالْفَضْلُ بْنُ يَحْيَى ، وَجَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى ، وَالْفَضْلُ بْنُ الرَّبِيعِ
مَوْلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَالْقَاسِمُ بْنُ الرَّبِيعِ مَوْلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَدُمَانَةُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ
الْعَبْسِيِّ ، وَسُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْأَصَمِّ ، وَالرَّبِيعُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْحَارِثِيِّ ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ
أَبْنُ أَبِي الشَّامِرِ النَّسَائِيُّ ، وَمُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَاضِي مَكَّةَ ، وَعَبْدُ الْكَرِيمِ بْنُ شُعَيْبٍ
الْحَجَّجِيُّ ، وَإِبْرَاهِيمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْحَجَّجِيُّ ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ شُعَيْبٍ الْحَجَّجِيُّ ، وَمُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ
أَبْنُ عَثْمَانَ الْحَجَّجِيُّ ، وَإِبْرَاهِيمُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ نَيْدِيهِ الْحَجَّجِيُّ ، وَعَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ
الْحَجَّجِيُّ ، وَإِسْمَاعِيلُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ نَيْدِيهِ الْحَجَّجِيُّ ، وَأَبَانُ مَوْلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمُحَمَّدُ
أَبْنُ مَنْصُورٍ ، وَإِسْمَاعِيلُ بْنُ صَبِيحٍ ، وَالْحَارِثُ مَوْلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَخَالِدُ مَوْلَى
أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ .

وَكُتِبَ فِي ذِي الْحِجَّةِ سَنَةِ سِتٍّ وَثَمَانِينَ وَمِائَةٍ .



وَأَمَّا مَا كَتَبَهُ الْمُأْمُونُ ، فَتَصَّهْ بَعْدَ الْبَسْمَلَةِ :

هَذَا كِتَابٌ لِعَبْدِ اللَّهِ هُرُورَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، كَتَبَهُ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ هُرُورَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ،
فِي حُجَّةٍ مِنْ عَقْلِهِ ، وَجَوَازٍ مِنْ أَمْرِهِ ، وَصِدْقٍ نَيْسَةٍ فِيمَا كَتَبَ مِنْ كِتَابِهِ ، وَمَعْرِفَةٍ
مَا فِيهِ مِنَ الْفَضْلِ وَالصَّلَاحِ لَهُ وَلِأَهْلِ بَيْتِهِ وَجَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ .

إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هُرُورَ وَلَّانِي الْعَهْدَ وَالْخِلَافَةَ وَجَمِيعَ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ فِي سُلْطَانِهِ
بَعْدَ أَيْمَنِ مُحَمَّدِ بْنِ هُرُورَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَّانِي فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَهُ نَحْرَاسَانَ وَكُورَهَا ،
وَجَمِيعَ أَعْمَالِهَا : مِنَ الصَّدَقَاتِ وَالْعُشُورِ وَالْبَرِيدِ وَالطَّرَازِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَأَشْتَرِطُ لِي عَلَى

محمد بن أمير المؤمنين الوفاء بما عقد لي من الخلافة والولاية للعباد والبلاد بعده ،
وولايتي خراسان وجميع أعمالها ، ولا يعرض لي في شيء مما أقطعتي أمير المؤمنين ،
أو ابتاع لي من الضياع والقصد والدور والرباع ، أو ابتعت منه [لنفسى] من ذلك ،
وما أعطاني أمير المؤمنين هرون من الأموال والجواهر والكسا والمتاع والدواب
في سبب محاسنته [لأصحابي] ، ولا يتبع لي في ذلك ولا لأحد منهم أثراً ، ولا يدخل
علي ولا على أحد من كان معي ومعي ، ولا عمالي ولا كفاي ، ومن استمنت به من جميع
الناس - مكرهاً : في ديم ، ولا نفس ، ولا شعر ، ولا بشر ، ولا مال ، ولا صغير ،
ولا كبير .

فاجابه إلى ذلك وأقر به ، وكتب له به كتاباً كتبه على نفسه ورضي به أمير المؤمنين
[هرون وقيله وعرف صدق نيته . فشرطت لعبد الله هرون أمير المؤمنين]
وجعلت له على نفسي أن أسمع محمد بن أمير المؤمنين وأطيعه ولا أعصيه ، وأنصحه
ولا أغشه ، وأوفى بيمينته وولايته ، ولا أغدر ولا أنكث ، وأنفذ كتبه وأمره ،
وأحسن مؤازرته ومكافئته ، وأجاهد عدوه في ناحيتي بأحسن جهاد ما وقي لي بما
شرط لي ولعبد الله هرون أمير المؤمنين ، وسماه في الكتاب الذي كتبه لأمر المؤمنين
ورضى به أمير المؤمنين ، ولم ينقض شيئاً من ذلك ، ولم ينقض أمراً من الأمور التي
أشترطها لي عليه هرون أمير المؤمنين .

وإن أحتاج محمد بن هرون أمير المؤمنين إلى جُنْدٍ وكتب لي يأمرني
بإشخاصهم إليه ، أو إلى ناحية من النواحي ، أو إلى عدو من أعدائه خالفه أو أراد
نقص شيء من سلطانه وسلطاني الذي أسنده هرون أمير المؤمنين إلينا وولانا -
أن أنفذ أمره ولا أخالفه ، ولا أقصر في شيء كتب به إلى .

وإن أراد محمد بن أمير المؤمنين هرون أن يؤتى رجلاً من ولده العهد والخلافة من بعدى، فذلك له ما وفى لي بما جعل لي أمير المؤمنين هرون، واشترط لي عليه، وشروطه على نفسه في أمري، وعلى إنفاذ ذلك والوفاء له بذلك، ولا أنقص ذلك ولا أغیره، ولا أبدله، ولا أقدم [قبله] أحداً من ولدي، ولا قريباً ولا بعيداً من الناس أجمعين، إلا أن يؤتى هرون أمير المؤمنين أحداً من ولده العهد من بعدى، فيلزمي الوفاء بذلك.

وجعلت لأمر المؤمنين ومحمد بن أمير المؤمنين على الوفاء بما اشترطت وسميت في كتابي هذا، ما وفى لي محمد بن أمير المؤمنين هرون بجميع ما اشترط لي هرون أمير المؤمنين عليه في نفسي، وما أعطاني أمير المؤمنين هرون من جميع الأشياء المسماة في الكتاب الذي كتبه له. [وعلى] عهد الله تعالى وميثاقه، وذمة أمير المؤمنين، وذمتي، وذمة آبائي، وذمة المؤمنين، وأشد ما أخذ الله عز وجل على النبيين والمرسلين من خلقه أجمعين من عهوده ومواريقه، والأيمان المؤكدة التي أمر الله عز وجل بالوفاء بها.

فإن أنا نقضت شيئاً مما اشترطت وسميت في كتابي هذا له، أو غيرت، أو بدلت، أو نكثت، أو عدت - فبرئت من الله عز وجل ومن ولايته ومن دينه، ومن عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولقيت الله سبحانه وتعالى يوم القيامة كافراً مشركاً. وكل امرأة لي اليوم أو أتزوجها إلى ثلاثين سنة طالق ثلاثاً البتة [طلاق] الحرج. وكل مملوك لي اليوم أو أملكه إلى ثلاثين سنة أحراراً لوجه الله تعالى. وعلى المشي إلى بيت الله الحرام الذي بمكة ثلاثين حجة، نذراً وإجباً على وفي عني،

حَافِيًا وَاجِلًا ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مَنِّي إِلَّا الْوَقَاءَ بِهِ ، وَكُلُّ مَا لَوْ لَى الْيَوْمَ أَوْ أَمْلِكُهُ
إِلَى ثَلَاثِينَ سَنَةً هَدَى بَالِغُ الْكُفْبَةِ . وَكُلَّ مَا جَعَلْتُ لِعَبْدِ اللَّهِ هُرُونُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
أَوْ شَرِطْتُ فِي كِتَابِي هَذَا لَزِمْتُ لِي ، لَا أَصْنَعُ غَيْرَهُ وَلَا أَنْوِي سِوَاهُ .

شَهْدَ فَلَانٌ وَفَلَانٌ ، بِأَسْمَاءِ الشُّهُودِ الْمَقْدَمِ ذِكْرُهُمْ فِي كِتَابِ الْأَمِينِ الْمُبْتَدِئِ بِذِكْرِهِ .
قَالَ الْأَزْرَقِيُّ : وَلَمْ يَزَلْ هَذَانِ الشَّرْطَانِ مَعْلُقَيْنِ فِي جَوْفِ الْكُفْبَةِ حَتَّى مَاتَ
هُرُونُ الرَّشِيدُ ، وَبَعْدَ مَا مَاتَ بَسْتَيْنِ فِي خِلَافَةِ الْأَمِينِ . فَكَلَّمَ الْقَضْلُ بْنُ الرَّبِيعِ
مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْحَجَّجِيَّ فِي إِثْبَانِهِ بِهِمَا ، فَزَعَمَا مِنَ الْكُفْبَةِ وَذَهَبَ بِهِمَا إِلَى بَغْدَادَ ،
فَأَخَذَهُمَا الْقَضْلُ نَحْرَ قَهْمَا وَحَرَّقَهُمَا بِالنَّارِ .

قُلْتُ : وَعَلَى تَحْوِيْمِ ذَلِكَ كَتَبَ أَبُو إِسْحَاقَ الصَّائِي مُوَاصِفَةً بِالصُّلْحِ بَيْنَ
شَرَفِ الدَّوْلَةِ وَزَيْنِ الْمِلَّةِ إِلَى الْفَوَارِسِ ، وَصَحْنَامِ الدَّوْلَةِ وَشَمْسِ الْمِلَّةِ إِلَى كَالِيَجَارَ ،
أَبْنَى عَضُدِ الدَّوْلَةِ بْنِ رُكْنِ الدَّوْلَةِ بْنِ بُوَيْهٍ ، فِي النِّصْفِ مِنْ صَفَرِ سَنَةِ سِتٍّ وَسَبْعِينَ
وثلثمائة .

وَنَصَّهَا بَعْدَ الْبَسْمَلَةِ الشَّرِيفَةِ :

هَذَا مَا تَتَّقَى وَأَصْطَلَحَ وَتَعَاهَدَ وَتَعَاقَدَ عَلَيْهِ شَرَفُ الدَّوْلَةِ وَزَيْنُ الْمِلَّةِ أَبُو الْفَوَارِسِ ،
وَصَحْنَامُ الدَّوْلَةِ أَبُو كَالِيَجَارَ ابْنَا عَضُدِ الدَّوْلَةِ وَتَاجِ الْمِلَّةِ أَبِي شُجَاعِ بْنِ رُكْنِ الدَّوْلَةِ
أَبْنَى عَلِيٍّ ، مَوْلَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الطَّائِعِ لِلَّهِ - أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ ، وَأَدَامَ عِزَّهُ وَتَأَيَّدَهُ ،
وَنَصَّرَهُ وَعُلُوَّهُ وَإِذْنَهُ .

إِنِّفَقَا وَتَصَالَحَا ، وَتَعَاهَدَا وَتَعَاقَدَا ، عَلَى تَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى وَإِثَارِ طَاعَتِهِ ، وَالْإِعْتَصَامِ
بِحَبْلِهِ وَقُوَّتِهِ ، وَالْإِكْتِبَاءِ إِلَى حُسْنِ تَوْفِيقِهِ وَمَعُونَتِهِ ، وَالْإِقْرَارِ بِأَنْفَرَادِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ ،
لَا شَرِيكَ لَهُ وَلَا مِثْلَ ، وَلَا يَضَدَّ وَلَا يَنْدُبُ ، وَالصَّلَاةِ عَلَى مُحَمَّدٍ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى

آله وسلم تسليماً؛ والطاعة لأمر المؤمنين الطائعين لله، والالتزام بوثائق بيعته، وعلائق
دعوته، والتوازر على موالاة وليه، ومعاداة عدوه؛ وعلى أن يُمسكا [ذات] بينهما
بالسير الحميدة، والسُنن الرشيدة، التي سنها لها السلف الصالح من آباؤهما وأجدادهما
في التألف والتوازر، والتعاضد والتظافر، وتعظيم الأصغر للأكبر، وإشبال^(١) الأكبر
على الأصغر؛ والأشتراك في النعم، والتقاوض في الحفظ والقيم، والاتحاد بخلوص
الطويات، والخفايا؛ وسلامة الخواطر، وطهارة الضمائر؛ ورفع ما خالف ذلك من
أسباب المناقسة، وجرائر المضاجعة؛ وجوالب النبوه، ودواعي الفرقة؛ والإفراق
لأعداء الدولة، والإرصاد لهم؛ والاجتماع على دفع كل ناجم، وقمع كل مُقاوم؛
وإرغام أنف كل ضار متجبر، وإضراج غد كل متطاول مُستكبر؛ حتى يكون
الموالي لأحدهم منصوباً من جماعتهم، والمُعادي له مقصوداً من سائر جوانبهم؛
فلا يجد المتناز على أحدهم مفرغاً عند أحد من الباقيين ولا اعتصاماً به، ولا أُنجاءً
إليه؛ لكن يكون مريباً بجميع سببهم، ومضروباً بأسيايف نفعهم، ومأخوذاً بكُلِّية
بأسهم وقوتهم، ومقصوداً بغالب تجديدهم وشدة نهمهم؛ إذ كانت هذه الآداب القويمة،
والطرائق السليمة؛ جارية للدول بحرى الجَنِّ الدافعة عنها، والمعاقل المانعة لها؛
ومثلها تطمئن النعم وتسكن، كما أن بأضدادها تسمت وتفر.

ولما وفق الله تعالى شرف الدولة وزين الملة أبا الفوارس، وخصصهم الدولة
وشمس الملة أبا كاليبجار أعتقاد هذه الفضائل وإيثارها، والتظاهر بها واستبشارها؛
ودعاها مولاها الطائعين لله أمير المؤمنين إلى ما دعاها إليه من التعاطف والتآلف،
والتصافي والتخالص؛ وأمر خصصهم الدولة أبا كاليبجار بمراسلة شرف الدولة

(١) الاشبال العطف والمعونة .

أبى القوارس فى إحكام مَعَاوِدِ الأُخُوَّةِ ، وإبرام وَثَائِقِ الأُلُفَّةِ - أَمْتَلَّ ذاك وَأَصْنَى
إليه شَرَفُ الدَّوْلَةِ وَزَيْنُ المِلَّةِ أبو القوارس : أَصْنَى إليه شَرَفُ الدَّوْلَةِ إِصْغَاءَ المُسْتَوْثِقِ
المُسْتَصِيبِ ، وَتَقَبُّلُهُ تَقَبُّلَ العَالَمِ اللَّيِّبِ ؛ وَأَتَمَّذَ إلى باب أمير المؤمنين رَسُولَهُ أبا نصر
عرشيد بن ديار بن مافنة بالمعروف من كِفَايَتِهِ ، والمَشْهُورِ من أَصْطِنَاجِ المَلِكِ السَّعِيدِ
عَضِدِ الدَّوْلَةِ وَنَاجِ المِلَّةِ رضوانُ الله عليه له ، وإِنْدَاعِهِ إِياه وَدِيعةُ الإِحْسَانِ التى يَحِقُّ
عليه أَنْ يُساوَى فى حِفْظِهَا بين الحِجَّتَيْنِ ، وَيُوَازَى فى رِعايَتِهَا بين كِلَا الفَرِيقَيْنِ .

بَقَرَتْ بين حَمَصَامِ الدَّوْلَةِ وَتَمَسَّ المِلَّةُ أبى كَالِجَارَ وَبَيْنَهُ عُمَاطَاتُ أَسْتَقَرَّتْ
على أُمُورِ أَتَى المَفَاوِضَةُ عَلَيْهَا ، وَأُثْبِتَتْ مِنْهَا فى هَذِهِ المَوَاصِفَةِ مَا أَحْتِجُّ إلى إِثْبَاتِهِ
مِنْهَا [أَمْرٌ] عَامٌّ لِلْفَرِيقَيْنِ ، وَقِسْمَانِ يَخْتَصُّ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِوَاحِدٍ مِنْهُمَا .

ذَا مَا الأَمْرُ الذى يَجْعَلُهُمَا عُمُومَهُ ، وَيَكْتَسِبُهُمَا شُمُولُهُ ، فَهُوَ : أَنْ يَخَالَصَ شَرَفُ
الدَّوْلَةِ وَزَيْنُ المِلَّةِ أبو القوارس ، وَحَمَصَامُ الدَّوْلَةِ وَتَمَسُّ المِلَّةُ أبو كَالِجَارَ فى ذَاتِ
بَيْنِهِمَا ، وَيَتَصَافِيَا فى سَرَائِرِ قُلُوبِهِمَا ، وَيَرْفُضَا مَا كَانَ جَزَهُ عَلَيْهِمَا سَفْهَاءُ الأَثْبَاجِ :
مَنْ تَرَكَ التَّوَاصُلَ ، وَأَسْتَعَالَ التَّقَاطُعَ ؛ وَيَرْجِعَا عَنْ وَحْشَةِ الفُرْقَةِ ، إِلَى أُنْسِ الأُلُفَّةِ ؛
وَعَنْ مَنَقَصَةِ التَّنَافُرِ وَالتَّهَاجُرِ ، إِلَى مَنَقِبَةِ التَّبَارُّ والتَّلَاطُفِ ؛ فَيَكُونُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا
مُرِيدًا لِصَاحِبِهِ مِنَ الصَّلَاحِ مِثْلَ الذى يُرِيدُهُ لِنَفْسِهِ ، وَمُعْتَقِدًا فى الذَّبِّ عَنْ بِلَادِهِ
وَحُدُودِهِ مِثْلَ الذى يَتَقَدُّهُ فى الذَّبِّ عَمَّا يَخْتَصُّ بِهِ ؛ وَمُسَرًّا مِثْلَ مَا يُظْهِرُ : مِنْ
مُؤَالَاةٍ وَلَيْسَ ، وَمُعَادَاةٍ عَدُوٍّ ، وَالْمُرَامَاةِ لِمَنْ رَامَاهُ ، وَالْمُصَافَاةِ لِمَنْ صَافَاهُ ؛ فَانْ تَجَمَّ
على أَحَدِهِمَا نَاجِمٌ ، أَوْ رَاغِمُهُ مُرَاغِمٌ ، أَوْ هَمٌّ بِهِ حَاسِدٌ ، أَوْ دَلَفٌ إِلَيْهِ مُعَانِدٌ ؛ أَتَّفَقَا
جَمِيعًا على مُقَارَعَتِهِ : قَرِيبًا كَانَ أَوْ بَعِيدًا ، وَتَرَافَدَا على مُدَافَعَتِهِ : ذَانِيًا كَانَ أَوْ قَاصِيًا ؛
وَتَمَحَّ كُلُّ مِنْهُمَا لِصَاحِبِهِ عِنْدَ الحَاجَةِ إلى المُوَاسَاةِ فى ذَلِكَ فى سَائِرِ أَحْدَاثِ الزَّمَانِ

وَنُؤْيِهِ ، وَتَصَارِيفِهِ وَغَيْرِهِ ؛ بِمَا يَتَسَعُّ وَيَشْتَمَلُ عَلَيْهِ طَوْفُهُ مِنْ مَالٍ وَعُدَّةٍ ، وَرِجَالٍ وَتَجَدُّه ، وَأَجْنِهَادٍ وَقُدْرَةٍ ؛ لَا يَفْعُلُ أَخٌّ مِنْهُمَا عَنْ أَخِيهِ ، وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ ، وَلَا يَتْرُكُ نَصْرَتَهُ ، وَلَا يَنْصَرِفُ عَنْ مُؤَازَرَتِهِ وَمُظَاهَرَتِهِ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ الَّتِي تَسْتَحِيلُ بِهَا النَّيَاتُ : مِنْ إِرْغَابٍ مُرْغِبٍ ، وَحِيلَةٍ مُخْتَالٍ ، وَمُحَاوَلَةٍ مُحَاوِلٍ . وَلَا يَقْبَلُ أَحَدُهُمَا مُسْتَأْمِنًا إِلَيْهِ مِنْ جِهَةٍ صَاحِبِهِ : مِنْ جُنْدِيٍّ ، وَلَا عَامِلٍ ، وَلَا كَاتِبٍ ، وَلَا صَاحِبٍ ، وَلَا مُتَصَرِّفٍ فِي وَجْهِهِ مِنْ وَجْهِهِ التَّصَرُّفَاتِ كُلِّهَا ؛ وَلَا يُجِيرُ عَلَيْهِ هَارِبًا ، وَلَا يَقْصِمُ مِنْهُ مُوَارِبًا ؛ وَلَا يَتَطَرَّفُ لَهُ حَسَدًا ، وَلَا يَقْصِفُهُ حَقًّا ، وَلَا يَهْتِكُ لَهُ حَرِيمًا ، وَلَا يَتَنَاوَلُ مِنْهُ طَوْفًا ، وَلَا يُخْفِئُ لَهُ سَيْلًا ، وَلَا يَتَسَبَّبُ إِلَى ذَلِكَ بِسَبَبٍ بَاطِنٍ ، وَلَا بَاطِنًا ظَاهِرًا ؛ وَلَا يَدْعُ مُوَافَقَتَهُ ، وَمُعَاوَنَتَهُ وَمُقَافَرَتَهُ فِي كُلِّ قَوْلٍ وَفِعْلٍ ، وَسِرٍّ وَجَهْرٍ ، عَلَى سَائِرِ الْجِهَاتِ ، وَتَصَرُّفِ الْحَالَاتِ ، وَوُجُوهِ التَّأْوِيلَاتِ . يَلْتَرَمُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا ذَلِكَ لِصَاحِبِهِ أَلْتَرَامًا عَلَى التَّنَائِلِ وَالتَّعَادُلِ ، وَالتَّوَازِيِ وَالتَّقَابُلِ .

وَأَمَّا الْأَمْرُ الَّذِي يَخْتَصُّ شَرَفُ الدَّوْلَةِ وَزَيْنُ الْمِلَّةِ بِهِ ، وَيَلْتَرِمُهُ صَمْعَامُ الدَّوْلَةِ وَتُشْمِسُ الْمِلَّةُ لَهُ ، فَهُوَ أَنْ يُقَدِّمَهُ صَمْعَامُ الدَّوْلَةِ وَتُشْمِسُ الْمِلَّةُ عَلَى نَفْسِهِ ، وَيُعْطِيَهُ مَا أَعْطَاهُ اللَّهُ لَهُ مِنْ فَضْلِ سِنِّهِ ، وَيُطِيعَهُ فِي كُلِّ مَا أَفَادَ الدَّوْلَةَ الْجَامِعَةَ لَهَا صَلَاحًا ، وَهَاضَ مِنْ عَدُوِّهَا جَنَاحًا ، وَعَادَ عَلَى وَلِيِّهَا بَعْزًا ، وَعَلَى عَدُوِّهَا بُدْلًا ؛ وَأَنْ يُنْعِمَ صَمْعَامُ الدَّوْلَةِ الدَّعْوَةَ عَلَى مَنَازِرِ مَا فِي يَدِهِ مِنْ مَدِينَةِ السَّلَامِ وَسَائِرِ الْبُلْدَانِ وَالْأَمْصَارِ ، الَّتِي أَحَاطَتْ بِهَا حُقُوقُهُ ، وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمَا حُدُودُهُ ، لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ثُمَّ لَشَرَفِ الدَّوْلَةِ وَزَيْنِ الْمِلَّةِ أَبِي الْفَوَارِسِ ، ثُمَّ لِنَفْسِهِ . وَيُفْعِلُ الْأَمْرَ فِي نَفْسِ سِكَكِ دَوْرِ الضَّرْبِ الَّتِي يُطْبَعُ بِهَا الدِّينَارُ وَالْدَّرْهَمُ فِي جَمِيعِ هَذِهِ الْبِلَادِ عَلَى الْمِثَالِ . وَيُؤَفِّي صَمْعَامُ الدَّوْلَةِ وَتُشْمِسُ الْمِلَّةُ أَبُو كَالِيجَارَ شَرَفَ الدَّوْلَةِ وَزَيْنَ الْمِلَّةِ أَبَا الْفَوَارِسِ فِي الْمَكَاتِبَاتِ

والمخاطبات حقَّ التَّعْظِيمِ ، وَشِعَارَ التَّقْصِيمِ ، عَلَى التَّقْرِيرِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خُرَشِيدِ بْنِ دِيَارِ
ابن مَافَنَةَ فِي ذَلِكَ .

وَأَمَّا الْأَمْرُ الَّذِي يَخْتَصُّ صَمْعَامُ الدَّوْلَةِ وَتَمَسُّ الْمِلَّةُ أَبُو كَالِجَارَ بِهِ ، وَيَلْتَزِمُهُ
شَرْفُ الدَّوْلَةِ وَزَيْنُ الْمِلَّةِ أَبُو الْفَوَارِسِ لَهُ ، فَهُوَ تَرْكُ التَّعَرُّضِ لِسَائِرِ مَمَالِكِهِ ، وَمَا يَتَّصِلُ
بِهَا مِنْ حُدُودِهَا الْجَسَارِيَةِ مَعَهَا ، وَالْإِفْرَاجُ مِنْهَا عَمَّا يَوَدُّهُ وَيُسْرِعُ إِلَيْهِ أَصْحَابُ
شَرْفِ الدَّوْلَةِ وَزَيْنِ الْمِلَّةِ ، وَتَجَنُّبُ التَّحْقِيفِ لَهَا أَوْ لَشَيْءٍ مِنَ الْحَقُوقِ الْوَاجِبَةِ فِيهَا ،
وَمُرَاعَاةُهَا فِي الْأُمُورِ الَّتِي يَحْتَاجُ فِيهَا إِلَى نَظَرِهِ وَطَوْلِهِ ، وَإِجْمَالِهِ وَقُضْلِيهِ ، وَمَا يَجِبُ
عَلَى الْأَخِ الْأَكْبَرِ مُرَاعَاةُ أَخِيهِ وَتَالِيهِ فِيهِ ، مِمَّا تَبَيَّنَتْ فِي هَذِهِ الْمُواصَقَةِ بِمُجْمَلِهِ ،
وَأَشْمَلَتْ الْمَفَاوِضَةَ مَعَ خُورَشِيدِ بْنِ دِيَارِ بْنِ مَافَنَةَ عَلَى تَقْصِيلِهِ .

أَتَّفَقَ شَرْفُ الدَّوْلَةِ وَزَيْنُ الْمِلَّةِ أَبُو الْفَوَارِسِ ، وَصَمْعَامُ الدَّوْلَةِ وَتَمَسُّ الْمِلَّةُ
أَبُو كَالِجَارَ ، بِأَمْرِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الطَّالِعِ اللَّهِ ، وَعَلَى الْأَخْتِيَارِ مِنْهُمَا ، وَالْإِنْشِرَاحِ مِنْ
صُدُورِهِمَا ، مِنْ غَيْرِ إِكْرَاهٍ وَلَا إِجْبَارٍ ، وَلَا أَصْطِبَارٍ وَلَا أَصْطِرَارٍ - عَلَى الرِّضَا بِذَلِكَ
كُلَّهُ ، وَالْإِلْتِمَاعِ لَهُ ، وَبِصَيْرُ جَمِيعِهِ عَهْدًا مَرْجُوعًا إِلَيْهِ ، وَعَقْدًا مَعْمُولًا عَلَيْهِ ، وَحَلَفَ
كُلُّ مِنْهُمَا عَلَى مَا يَلْتَزِمُهُ مِنْ ذَلِكَ يَمِينًا عَقْدَهَا بِأَنْ يَحْلِفَ صَاحِبُهَا بِمُجْمَلِهَا ، عَلَى مَا يَلْتَزِمُهُ
مِنْهُ . فَقَالَ صَمْعَامُ الدَّوْلَةِ : وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ (وَيَسْتَمِ الْيَمِينُ) .

النوع الثانى

(مما يجرى عقد الصلح فيه بين ملكين مسلمين -

ما يكون العقد فيه من جانب واحد)

والكتاب فيه مذهبان :

المذهب الأول

(أن يفتح عقد الصلح بلفظ : « هذا » كما فى النوع السابق)

وهذه نسخة عقد صلح من ذلك ، كتب بها أبو إسحق الصبائي ، بين الوزير
أبى نصر سابور بن أردشير ، والثريقتين : أبى أحمد الحسين بن موسى ، وأبى الحسين
محمد ابنه الرضى ، بما اتفقد من الصلح والظهر بين الوزير المذكور ، وبين النقيب
أبى أحمد الحسين وولده محمد ، حين تزوج ابنه محمد المذكور بنت سابور المذكور ،
وجعله على نسختين ، لكل جانب نسخة ، بعد البسملة ماضوته :

هذا كتاب لسابور بن أردشير ، كتبه له الحسين بن موسى الموسوى ، وولده
محمد بن الحسين الموسوى .

إنا وإياك - عند ما وصله الله بيننا من الصبر والخلطة ، ونتجبه من الحال
والمودة - آثرنا أن نعتقد بيننا وبينك ميثاقاً مؤكداً ، وعهداً مجتداً ، تسكن النفوس
إليهما ، وتطمئن القلوب معهما ، وتزداد الألفة بهما على مر الأيام ، وتعاقب الأعوام ،
ويكون ذلك أصلاً مستقراً يرجع جميعاً إليه ، ونعوّل ونعتمد عليه ، وتوارثه أعقابنا ،
ولتبعنا فيه أخلاقنا .

فأعطيتك عهد الله وميثاقه ، وما أخذته على أنبيائه المرسلين ، وملائكته المقربين ،
صلى الله عليهم أجمعين ، عن صدور منشرحه ، وآمال فى الصلاح بنفسه - أنا

تُخْلِصُ لك جميعاً وكلّ واحدٍ منا إخلاصاً صحيحاً يُسَاكِلُ ظاهِرُهُ باطنَهُ ، ويوافقُ خَافِيَهُ عَالَتَهُ ؛ وَأَنَا نَوَالِي أَوْلِيَاءَكَ ، وَنُعَادِي أَعْدَاءَكَ ؛ وَنِفْضُ من وَصْلِكَ ، وَنَقْطَعُ من قِطْعِكَ ، وَنَكُونُ معَكَ في نَوَائِبِ الزَّمانِ وَشِدَائِدِهِ ، وَفي قَوَائِدِهِ وَعَوَائِدِهِ ؛ وَصِفَتاً لك صَمَاناً شَهِدَ اللهُ بِلُزُومِهِ لَنَا ، وَوُجُوبِهِ عَلَيْنَا . وَأَنَا نَصُونُ الكَرِيمَةَ عَلَيْنَا ، الأَثِيرَةَ عِنْدَنَا ، فَلَانَةَ بِنْتِ فَلَانٍ - أدام اللهُ عِزَّهَا - المُتَثَقِّلَةَ إِلَيْنَا ؛ كَمَا نَصَانُ العُيُونُ بِجُفُونِهَا ، وَالقُلُوبُ بِشِفَائِهَا ؛ وَنُجْرِيهَا نُجْرَى كَرَامِ حُرْمَتِنَا ، وَنَقَائِسُ بَنَاتِنَا ، وَمَنْ تَضُمُّهُ مَنَازِلُنَا وَأَوْطَانِنَا ؛ وَتَنَاهِي فِي إِجْلَالِهَا وَإِعْظَامِهَا ، وَالتَّوَسُّعَةِ عَلَيْهَا فِي مَرَاغِدِ عَيْشِهَا ، وَعَوَارِضِ أَوْطَارِهَا ، وَسائرِ مَوْنِهَا وَمَوْنِ أَسْبَابِهَا ، وَالنَّهْوِ وَالوَفَاءِ بِالْحَقِّ الَّذِي أَوْجِبَهُ اللهُ عَلَيْنَا لَهَا وَلِكِ فِيهَا ؛ فَلَا نُعِدُّهُ شَيْئاً أَلْفَتْهُ : مَنْ إِشْبَالَ عَلَيْهَا ، وَإِحْسَانِ إِلَيْهَا ، وَدَبَّ عَنْهَا ، وَمُعَامَاةَ دُونِهَا ، وَتَمَهِّدَ لِمَسَارِهَا ، وَتَوَخَّجَ لِمَحَابَّتِهَا ؛ وَنَكُونُ جَمِيعاً وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا مُقِيمِينَ لك وَلَهَا عَلَى جَمِيعِ مَا أَشْتَمَلَ عَلَيْهِ هَذَا الْكِتَابُ فِي حَيَاتِكَ - أَطَالَمَا اللهُ - وَبَعْدَ الْوَفَاةِ إِنْ تَقَدَّسَتْ ، وَحُوشِيَتْ مِنَ السُّوءِ فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا ، وَأَحْوَالِكَ أَجْمَعِهَا .

فَمَ إِنَا نَقُولُ - وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا ، طَائِعِينَ مُخْتَارِينَ ، غَيْرَ مُكْرِهِينَ وَلَا مُجْبَرِينَ ، بَعْدَ تِمَامِ هَذَا الْعَقْدِ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ ، وَلِزُومِهِ لَنَا وَلَكَ : - وَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الطَّالِبُ الْقَائِلُ ، الْمَذْكُورُ الْمُهِلِكُ ، الضَّارُّ النَّافِعُ ، الْمُطْلِعُ عَلَى السَّرَائِرِ ، الْمُحِيطُ بِمَا فِي الضَّائِرِ ، الَّذِي يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ . وَحَقُّ عَهْدِ النَّبِيِّ ، وَعَلَى الرِّضَى - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ وَشَرَفَ ذِكْرُهُمَا ، وَسَادَتِنَا الْأَئِمَّةِ الطَّيِّبِينَ ، الطَّاهِرِينَ ، رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِمُ أَجْمَعِينَ . وَحَقُّ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ، وَمَا أُنْزِلَ فِيهِ مِنْ تَحْلِيلٍ وَتَحْرِيمٍ ؛ وَوَعْدُ وَوَعِيدٍ ، وَتَرْغِيبٍ وَتَرْهيبٍ ؛ لَنَقِينَ لك يَا سَابِرُ بْنُ أَزْدِشِيرَ ، وَالكَرِيمَةِ الْأَثِيرَةِ ابْنَتِكَ فَلَانَةَ - أَحْسَنَ اللهُ رِعَايَتَهَا - بِجَمِيعِ مَا تَضَمَّنَتْ هَذَا الْكِتَابُ ، وَفَاءً صَحِيحاً ، وَلَتَلْتَرِينَ لك وَلَهَا شَرَائِعَهُ وَوَفَائِقَهُ ، فَلَا تَنْفُسُهَا ، وَلَا تَنْقُضُهَا ،

وهذه اليمين لازمة لنا ، وقد أطلق كل واحد منا بها لسانه ، وعقد عليها ضميره ،
والنية في جميعها نية فلان بن فلان ، لا يقبل الله من كل واحد منا إلا الوفاء بها ،
والثبات عليها ، والألتزام بشروطها ، والوقوف على حدودها ، وكفى بالله شهيدا ،
وجازا لعباده ومثيبا . وذلك في يوم كذا ، من شهر كذا ، من سنة كذا .

وهذه اليمين لازمة لنا ، وقد أطلق كل واحد منا بها لسانه ، وعقد عليها ضميره ،
والنية في جميعها نية فلان بن فلان ، لا يقبل الله من كل واحد منا إلا الوفاء بها ،
والثبات عليها ، والألتزام بشروطها ، والوقوف على حدودها ، وكفى بالله شهيدا ،
وجازا لعباده ومثيبا . وذلك في يوم كذا ، من شهر كذا ، من سنة كذا .

المذهب الثاني

(أن يُفْتَحَ عَقْدُ الصُّلْحِ بِخُطْبَةٍ مُفْتَتِحَةٍ بِ«الْحَمْدُ لِلَّهِ» وَرُبَّمَا كُرِّرَ فِيهَا
التَّحْمِيدُ إِعْلَامًا بِعَظِيمِ مَوْجِعِ النِّعْمَةِ)

وهذه نُسخةُ عَقْدِ صُلْحِ كُتِبَ بِهَا أَبُو الْحُسَيْنِ أَحْمَدُ بْنُ سَعْدٍ عَنْ بَعْضِ الْأَمْرَاءِ
(١) لَمَنْ كَانَ

وَنَصَّهَا عَلَى مَا ذَكَرَهُ فِي «كَلَامِ الْبَلَاغَةِ» فِي التَّرْسِلِ ، بَعْدَ الْبَسْمَلَةِ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ الْعِبَادَ بِقُدْرَتِهِ ، وَكَوَّنَ الْأُمُورَ بِحِكْمَتِهِ ، وَصَرَّفَهَا عَلَى إِرَادَتِهِ .
لَمْ يَلْطُفْ عَنْهُ خَفِيَ ، وَلَا أَمْتَنَ عَنْهُ قَوِيٌّ ؛ أَسْتَدْعِ الْخَلَائِقَ عَلَى اخْتِلَافِ فِطْرِيهَا ،
وَتَبَايُنِ صُورِهَا ، مِنْ غَيْرِ مِثَالٍ أَحْتَدَاهَا ، وَلَا رَسِيمٍ أَقْتَفَاهَا ؛ وَأَيَّدُمْ بِنِعْمَتِهِ ، فِيمَا رَكِبَهُ
فِيهِمْ مِنَ الْأَدَوَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى رُبُوبِيَّتِهِ ، النَّاطِقَةِ بِوَحْدَانِيَّتِهِ ؛ وَاكْتَفَوْا بِالْمَعْرِفَةِ بِهِ
- جَلَّ جَلَالُهُ - بِحَبْرِ الْعُقُولِ ، وَشَهَادَةِ الْأَفْهَامِ . ثُمَّ اسْتَظْهَرْ لَهُمْ فِي التَّبْيِيرِ ، وَظَبْهِمُ
فِي الْجَمْعِ ؛ بِرُسُلٍ أَرْسَلَهَا ، وَأَيَّاتٍ بَيَّنَّا ؛ وَمَعَالِمٍ أَوْصَحَهَا ، وَمَنَازِلَ لِمَسَالِكِ الْحَقِّ
رَفَعَهَا ؛ وَشَرَعَ لَهُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا وَارْتِضَاءً وَأَصْطِفَاهَا ، وَفَضْلًا وَاجْتِنَابًا ، وَشَرَفًا
وَأَعْلَاهَا ؛ وَجَعَلَهُ مُهِمًّا عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ، وَقَدَّرَ الْعِزَّ لِحُزْبِهِ وَأَهْلِهِ ؛ فَقَالَ جَلَّ جَلَالُهُ :
(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)
وَأَيَّدَهُ بِأَنْبِيَائِهِ الدَّاعِينَ إِلَيْهِ ، وَالنَّاهِيينَ لَطُرُقِهِ ، وَالْهَادِينَ لِقَرَائِضِهِ ، وَالْمُخْبِرِينَ عَنْ
شَرَائِعِهِ ؛ قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ ، وَأُمَّةً بَعْدَ أُمَّةٍ ، فِي قَفَرَةٍ بَعْدَ قَفَرَةٍ ، وَبَيْنَتِهِ بَعْدَ بَيْنَتِهِ ؛ حَتَّى
أَتَمَّى تَقْدِيرُهُ - جَلَّ جَلَالُهُ - أَنْ بَعَثَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ ، الْفَاضِلَ الزَّكِيَّ ؛ الَّذِي قَتَبَ بِهِ
عَلَى الرُّسُلِ ، وَلَسَّخَ بِشَرِيعَتِهِ شَرَائِعَ الْمَلَلِ ، وَبَيَّنَّه أَدْيَانَ الْأُمَمِ ؛ عَلَى حِينِ تَرَانِي

قَرَّةً ، وَرَأْيِي حَيْرَةً ، فَأَبَاحَ بِهِ نِيرَانَ الْفِتَنِ بَعْدَ اضْطِرَامِهَا ، وَأَضَاءَ بِهِ سُبُلَ الرُّشَادِ بَعْدَ إِظْلَامِهَا ؛ عَلَى عِلْمٍ مِنْهُ - تَعَالَى ذِكْرُهُ - بِمَا وَجَدَهُ عِنْدَهُ مِنَ التَّهْوِيزِ بِأَعْيَاءِ الرِّسَالَةِ ، وَالْقِيَامِ بِإِدَاءِ الْأَمَانَةِ ؛ فَأَزَاحَ بِذَلِكَ الْعِلَّةَ ، وَقَطَعَ الْمَعْدَرَةَ ؛ وَلَمْ يُبْقِ لِلشَّائِكِ مَوْضِعَ شُبْهَةٍ ، وَلَا لِلْمُعَانِدِ دَعْوَى مُمَوَّهَةٍ ؛ حَتَّى مَضَى حَمِيدًا تَشْهَدُ لَهُ آثَارُهُ ، وَتَقُومُ بِتَأْيِيدِ سُنَّتِهِ أَخْبَارُهُ ؛ قَدْ خَلَّفَ فِي أُمَّتِهِ ، مَا أَصَارَهُمْ بِهِ إِلَى عَطْفِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ ، وَالنَّجَاةِ مِنْ عِقَابِهِ وَخُطْبِهِ ؛ إِلَّا مِنْ شَقِيٍّ بَسُوهُ اخْتِيَارَهُ ، وَحَرَّمَ الرُّشَادَ بِخِذْلَانِهِ ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ الطَّيِّبِينَ أَفْضَلَ صَلَاةٍ وَأَتَمِّهَا ، وَأَوْفَاهَا وَأَعَمَّهَا .

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَصَّ سَيِّدَنَا الْأَمِيرَ بِالْوُفْقِ وَتَوَحَّدَهُ بِالْإِرْشَادِ وَالتَّسْيِيدِ ؛ فِي جَمِيعِ أَنْحَاثِهِ ، وَمَوَاقِعِ آرَائِهِ ؛ وَجَعَلَ هِمَّتَهُ (إِذْ كَانَتْ الْهِمَمُ مَنْصَرِفَةً إِلَى هَيْشِمِ الدُّنْيَا وَزَخَاوَرِهَا ، الَّتِي يَتَحَلَّى بِهَا الْأَبْنَاءُ وَتَدْعُوهَا إِلَى نَفْسِهَا) ، مَقْصُورَةً عَلَى مَا يَجْعُلُ لَهُ رِضَا رَبِّهِ ، وَسَلَامَةَ دِينِهِ ؛ وَأَسْتِقَامَةَ أُمُورِ مَمْلَكَتِهِ ، وَصَلَاحَ أَحْوَالِ رِعْيَتِهِ ؛ وَأَيَّدَهُ فِي هَذِهِ الْحَالَاتِ الْمَعَارِضَةِ ، وَالشُّبْهَةِ الْوَاقِعَةِ ؛ الَّتِي تَجَارُ فِي مِثْلِهَا الْأَرْءَاءُ ، وَتَبْضَطِرْبُ الْأَهْوَاءَ ؛ وَتَنْتَازِعُ خَوَاطِرَ النُّفُوسِ ، وَتَفْتَلِحُ وَسَاوِسُ الصُّدُورِ ؛ وَيَخْفَى مَوْضِعُ الصُّوَابِ ، وَيُسْكَكُ مِنْهَجُ الصَّلَاحِ - بِمَا اخْتَارَ لَهُ مِنَ السَّلَامِ وَالْمُؤَادَعَةِ ، وَالصُّلْحِ وَالْمُؤَافَقَةِ ؛ الَّذِي أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ عَلَى فَضْلِهِ ، وَالْخَيْرِ الَّذِي فِي ضَمْنِهِ ، بِقَوْلِهِ جَلَّ وَعَزَّ : ﴿ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ وَقَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْتَنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ حَتَّى أَصْبَحَ السَّيْفُ مَغْمُودًا ، وَرَوَاقُ الْأَمْنِ مَمْدُودًا ، وَالْأَهْوَاءُ مُتَفَقَّةً ، وَالْقُلُوبُ مُؤْتَلَفَةً ، وَالْكَلِمَةُ مُجْتَمَعَةً ؛ وَنِيرَانُ الْفِتَنِ وَالصَّلَاةُ خَامِدَةً ، وَظُنُونُ بُغَايَتِهَا وَالسَّاعِينَ لَهَا كَاذِبَةً ، وَطَبَقَاتُ الْإِوْلِيَاءِ وَالرَّعِيَّةِ - بِمَا أُعِيدَ إِلَيْهِمْ مِنْ

الْأَمْنَةِ تُعْقِبُ الْخِلَافَةَ ، وَالْإِنْسَانِيَّةَ مِنْ بَعْدِ الْوَحْشَةِ - مُسْتَبْشِرَةً ؛ وَإِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ -
 فِي إِطَالَةِ بَقَاءِ الْأَمِيرِ وَإِدَامَةِ دَوْلَتِهِ ، وَحِرَاسَةِ نِعْمَتِهِ وَتَثْبِيتِ وِطَانِهِ - رَاضِينَ ،
 وَفِي مُسَالَمَتِهِ مُخْلِصِينَ . وَلَوْ لَمْ يَكُنِ السَّلَامُ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَأْمُورًا بِهِ ، وَالصُّلْحُ مَحْبُورًا عَنْ
 الْخَيْرِ الَّذِي فِيهِ ؛ لَكَانَ فِيمَا يَنْتَظِمُ بِهِ : مِنْ حَقِّ الدِّمَاءِ ، وَسُكُونِ الدِّمَاءِ ؛ وَيَجْمَعُ
 مِنْ انْخِلَالِ الْمُحَمَّودَةِ ، وَالْفَضَائِلِ الْمَهْدُودَةِ ، الْمُقَدِّمَ ذِكْرُهَا - مَحْدًا عَلَيْهِ ، وَمَثَلًا
 لِلْعُقُولِ السَّلِيمَةِ وَالْآرَاءِ الصَّحِيحَةِ مَوْضِعَ الْخَيْرِ فِيهِ ، وَحُسْنَ الْعَائِدَةِ عَلَى الْخِصَاصِ
 وَالْعَامِّ بِهِ ؛ فِيمَا يَحْتَلِي الْعُبُونُ ، مِنْ مَشْتَبِهَاتِ الظُّنُونِ ، إِذَ الدِّينُ وَقَعَ ، وَالشُّكُّ جَانَحَ
 بَيْنَ الْحَقِّ وَالْمُحِيطِ ، وَالْجَائِزِ وَالْمُقْسَطِ . وَقَدْ قَالَ اللَّهُ جَلَّ شَأْنُهُ : ﴿ وَلَوْ لَا رِجَالٌ
 مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوُّوهُمْ فَتَصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ نَظَرًا
 لِلْمُسْلِمِينَ مِنْ مَعَرَّةٍ أَوْ مَضَرَّةٍ تَلْحَقُ بَعْضَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ؛ وَمُؤَيِّدًا تَطْهِيرَهُمْ مِنْ ظَنِّ
 الْعَدُوِّ ، مَعَ رَفْعِهِ عَنْهُمْ قَرَطَاتِ النَّسِيَانِ ، وَكَفَّ أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ عَنِ الْمَشْرِكِينَ ،
 كَمَا كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنِ الْمُسْلِمِينَ ؛ تَحَنُّنًا عَلَى بَرِيَّتِهِ ، وَإِبْقَاءً عَلَى أَهْلِ مَعِصِيَّتِهِ ؛ إِلَى أَنْ
 يَتِمَّ لَهُمُ الْبِقَاتُ الَّذِي أَذْنَاهُ ، وَالْأَمْرُ الَّذِي أَمْرَاهُ ، وَمَوْقِعُ الْحَمْدِ فِي عَاقِبَتِهِ ، وَالسَّلَامَةُ
 فِي خَاتِمَتِهِ . وَبَلَّغَهُمْ مِنْ غَايَةِ الْبَقَاءِ أَمَدَهَا ، وَمِنْ مَرَافِقِ الْعَيْشِ أَرْغَدَهَا ، مَقْصُورَةً
 أَيْدِي النَّوَائِبِ عَمَّا خَوَّلَهُ ، وَمَعْصُومَةً أَعْيُنُ الْحَوَادِثِ عَمَّا نَوَّلَهُ ؛ إِنَّهُ جَوَادٌ مَاجِدٌ .

قُلْتُ : وَعَلَى هَذَا الْمَذْهَبِ كُتِبَ عَقْدُ الصُّلْحِ بَيْنَ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ النَّصِيرِ
 أَبِي السَّعَادَاتِ «فَرَج» بْنِ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ «بَرْقُوق» ، وَبَيْنَ الْمَقَامِ الشَّرِيفِ
 التُّغْطَنِی تَيْمُورُ كُورْكَانِ صَاحِبِ مَا وَرَاءَ النَّهْرِ ، بَعْدَ طُرُوقِهِ الشَّامَ وَفَتْحِهِ دِمَشْقَ
 وَتَحْرِيقِهَا وَتَحْرِيرِهَا ، وَإِرْسَالِ كِتَابِهِ فِي مَعْنَى طَلَبِ الصُّلْحِ ، وَإِرْسَالِ الْأَمِيرِ أَطْلَشَ
 لَزِمَهُ ، الْمَأْسُورِ فِي النَّوْلَةِ الظَّاهِرِيَّةِ «بَرْقُوق» حَسْبَةَ الْخَوَاجَا نِظَامِ الدِّينِ مَسْعُودِ
 الْكُجْجَانِي . جُهِزَ ذَلِكَ إِلَيْهِ قَرْنِ كِتَابٍ مِنَ الْأَبْوَابِ السُّلْطَانِيَّةِ مُحِبَّةِ الْخَوَاجَا

مسعود المذكور، والأمير شهاب الدين بن أغلك، والأمير قانبيه، في جمادى الأولى سنة خمس وثمانمائة، بإشارة المقر الفتحى صاحب ديوان الإنشاء الشريف، من إنشاء الشيخ زين الدين طاهر، ابن الشيخ بدر الدين حبيب الحلبي، أحد كُتَّاب الدسيت الشريف بالأبواب السلطانية، وهو مكتوب في قطع... (١) ... بقلم... (١) ... وفي طرته ما صورته :

« مَرْقُومٌ شَرِيفٌ جَلِيلٌ عَظِيمٌ ، مَبْعُوثٌ مَكْرَمٌ جَمِيلٌ نَظِيمٌ ؛ مُشْتَمَلٌ عَلَى عَقْدِ صَالِحٍ آتَتْهُهُ الْمَقَامُ الشَّرِيفُ ، الْعَالِي ، الْقُطْبِيُّ ، نُصْرَةُ الدِّينِ ، تَيْمُورُ كُورْكَانَ ، زَيْدٌ عَظَمَتُهُ ، يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَقَامِ الشَّرِيفِ ، السُّلْطَانِ ، الْمَالِكِ ، الْمَلِكِ النَّصِيرِ أَيْ السَّعَادَاتِ « فرج » بِنِ السُّلْطَانِ الشَّهِيدِ ، الْمَلِكِ الظَّاهِرِ أَبِي سَعِيدِ « بَرْقُوقِ » خَادِمِ الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ ، خَلَّدَ اللَّهُ تَعَالَى مُلْكَهُ . آتَتْهُ بِمِائَةِ السَّفِيرِ عَنِ الْمَقَامِ الشَّرِيفِ الْقُطْبِيِّ ، الْمَشَارِ إِلَى تَوْكِيلِهِ فِي ذَلِكَ ، الْخَوَاجَا نِظَامِ الدِّينِ مَسْعُودِ الْكَجَجَانِي ، بِشَهَادَةٍ مِنْ حَضَرِ مُنْجَبَتِهِ مِنَ الْعُدُولِ بِالتَّوَكُّلِ الْمَذْكُورِ ، عَلَى حُكْمِ إِشَارَةِ مُرْسِلِهِ إِلَيْهِ وَمُضْمُونِ مَكَاتِبَتِهِ ، وَقَصْدِهِ تَجْهِيْزِ الْأَمِيرِ أَطْلَمَشَ لَزِمِهِ . وَحَلَفَ الْمَقَامُ الْقُطْبِيُّ عَلَى الْمُوَافَاةِ وَالْمُصَافَاةِ ، وَاتِّحَادِ الْمُلْكَتَيْنِ ، وَإِجْرَاءِ الْأُمُورِ عَلَى السَّدَادِ ، وَعَمَلِ مَصَالِحِ الْعِبَادِ وَالْبِلَادِ » .

والبياض ثلاثة أوصالٍ بوصل الطرة ، والبسملة في أوّل الوصل الرابع هَامِشٍ عَنْ يَمِينِهَا ، وَتَحْتَ الْبَسْمَلَةِ سَطْرٌ ، ثُمَّ يَنْتِ الْعَلَامَةُ ، وَالسَّطْرُ الثَّانِي بَعْدَ يَنْتِ الْعَلَامَةِ . وَالْعَلَامَةُ بِجَلِيلِ الثَّلَاثِ بِالذَّهَبِ مَا صُوِّرَتْهُ : « اللَّهُ أَمَلِي » .

وَتُسَمَّيَةُ الْمَكْتُوبِ بِعَدِ الْبِسْمَةِ مَا صُورَتْهُ :

الحمد لله الذى جعل الصِّلَحَ خَيْرَ ما أَعْقَدَتْ عَلَيْهِ الْمَصَالِحُ ، والإِصْلَاحَ بَيْنَ النَّاسِ
أَوَّلَى ما أَنْصَلَتْ بِهِ أَسْبَابُ الْمَنَاجِحِ ، وَأَحَقُّ ما نَطَقَتْ بِهِ أَلْسُنُ الْحَامِدِ وَأَثْنَتْ عَلَيْهِ
أَفْوَاهُ الْمَدَائِحِ .

تَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي جَمَعَتْ أَشْنَاتَ الْقُلُوبِ الطَّوَائِعِ ، وَأَضَافَتْ إِلَى ضِيَاءِ الشَّمْسِ
نُورَ الْقَمَرِ فَاهْتَدَى بِهَا كُلُّ غَايٍ وَرَائِحٍ ؛ وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ
شَهَادَةً تَبْلُغُ قَائِلَهَا أَهْنَى الْمَنَاجِحِ ، وَتَمُطِّرُ مَجَالِسَ الذِّكْرِ بِعُرْفِ رِوَايَتِهَا الرِّوَائِحِ ؛ وَنَشْهَدُ
أَنْ عَمَادَ عِبَادِهِ وَرَسُولَهُ أَفْضَلُ مِنْ آخَى بَيْنَ الْمُتَعَاكِفِينَ فَنُصَحَ اللَّهُ وَرَأَى الصِّلَحَ مِنْ
أَعْظَمِ النَّصَائِحِ ، وَأَكْلَ رَسُولٍ أَنْقَادَتْ لِأَخْلَاقِهِ الرِّضْيَةُ ، وَصِفَاتِهِ الْمَرْضِيَّةُ ، جَوَانِحِ
النَّفُوسِ الْجَوَانِحِ ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وَبَعْدُ ، فَإِنْ أَوَّلَى مَا أَجْتَمَعَتْ عَلَيْهِ آرَاءُ أَوْلَى الْأَلْبَابِ ، وَرَكَعَتْ إِلَيْهِ قُلُوبُ ذَوِي
الْمَعْرِفَةِ مِنْ أَهْلِ الْمَوَدَّةِ وَالْأَحْبَابِ - أَيْتِلَافُ الْقُلُوبِ بِعَدِ اخْتِلَافِهَا ، وَأَتَصَافَهَا
بِائْتِلَافِ بَأَحْسَنِ أَوْصَافِهَا ؛ وَالْعَمَلُ عَلَى الصِّلَحِ الَّذِي هُوَ أَصْلَحُ لِلنَّاسِ ، وَأَرْجَى
مَتَابِرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَذْفَعُ لِلْيَأْسِ وَالْبَاسِ ؛ إِذْ هُوَ مِفْتَاحُ أَبْوَابِ الْخَيْرَاتِ الشَّامِلَةِ ،
وَمِصْبَاحُ مَنَاجِحِ الْفِكْرِ الصَّحِيحَةِ الْكَامِلَةِ ، وَالِدَاعِي إِلَى كُلِّ فِعْلٍ جَمِيلٍ ، وَالسَّاعِي
بِكُلِّ قَوْلٍ هُوَ شِفَاءٌ صَدَى الْغَلِيلِ وَنَجَاةٌ مِنْ دَاءِ الْعَلِيلِ .

وَلَمَّا كَانَ الْمَقَامُ الشَّرِيفُ ، الْعَالَى ، الْكَبِيرُ ، الْعَالِمِيُّ ، الْعَامِلِيُّ ، الْمُؤَيَّدِيُّ ،
الْمُظَفَّرِيُّ ، الْمُجَنَّبِيُّ ، الْمَلَاذِيُّ ، الْوَالِدِيُّ ، الْقُطْبِيُّ ؛ نُصْرَةُ الدِّينِ ، مَلَجًا الْقَاصِدِينَ ،
مَلَاذُ الْعَايِدِينَ ، قُطْبُ الْإِسْلَامِ وَالْمَسَامِينِ ، تَيَمُّورُ كُورِ كَانٍ ، زِيدَتْ عَظَمَتُهُ -
هُوَ الْبَادِي بِأَحْيَاءِ هَذِهِ السَّنَةِ الْحَسَنَةِ ، وَالْحَادِي إِلَى الْعَمَلِ بِمُقْتَضَى مُقَاوَضَتِهِ الشَّرِيفَةِ

التي هي لذلك مُتَمَتِّنَةٌ ، الْوَارِدَةَ إِلَى حَضْرَةِ عَبْدِ اللَّهِ وَوَلِيِّهِ ، السُّلْطَانِ الْمَالِكِ ،
الْمَلِكِ النَّاصِرِ ، ذِي الدُّنْيَا وَالْدِّينِ ، أَبِي السَّعَادَاتِ « قَرَج » بْنِ السُّلْطَانِ الشَّهِيدِ
الْمَلِكِ الظَّاهِرِ ، أَبِي سَعِيدِ « بَرْقُوقِ » خَادِمِ الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ - خَلَّدَ اللَّهُ تَعَالَى
مُلْكَهُ - عَلَى يَدِ سَفِيرِ حَضْرَتِهِ ، الْمَجْلِسِ السَّامِيِّ ، الشَّيْخِي ، النَّظَامِيِّ ، مَسْعُودِ
الْكُجَجَانِيِّ ، الْمُؤَرِّخَةِ بِسْمَلِّ شَهْرِ رَبِيعِ الْأَوَّلِ سَنَةِ تَارِيخِهِ .

وَجُلٌ مَضْمُونُهَا ، وَسُرٌّ مَكْنُونُهَا - قَصْدُ إِبْقَاعِ الصُّلْحِ الشَّرِيفِ بَيْنَ الْمَشَارِ
إِلَيْهِمَا ، وَتَنْجِيهِ الْمَوَدَّةِ وَالْحُبَّةِ وَالْمُصَادَقَةِ بَيْنَهُمَا ، وَإِسْبَالِ رِثَاءِ عَمَّاسِنِهَا عَلَيْهِمَا ،
بِمَقْتَضَى تَقْوِيضِ الْمَقَامِ الشَّرِيفِ الْقُطْبِيِّ الْمَشَارِ إِلَيْهِ الْأَمْرِ فِي الصُّلْحِ الْمَذْكُورِ إِلَى
الشَّيْخِ نِظَامِ الدِّينِ مَسْعُودِ الْمَذْكُورِ ، وَتَوْكِيلِهِ إِيَّاهُ فِيهِ ، وَإِقَامَتِهِ مَقَامَ نَفْسِهِ الشَّرِيفَةِ ،
وَجَعَلِ قَوْلَهُ مِنْ قَوْلِهِ ، وَأَنَّهُ - عَظَّمَ اللَّهُ تَعَالَى شَأْنَهُ - أَشْهَدُ اللَّهَ الْعَظِيمَ عَلَيْهِ بِذَلِكَ ،
وَأَشْهَدُ عَلَيْهِ مِنْ يَضَعُ خَطْلَهُ مِنْ جَمَاعَتِهِ الْمُجَهِّزِينَ صُحْبَةَ الشَّيْخِ نِظَامِ الدِّينِ مَسْعُودِ
الْمَذْكُورِ ، وَهُمَا : الشَّيْخُ بَدْرُ الدِّينِ أَحْمَدُ بْنُ الشَّيْخِ الْإِمَامِ الْعَالِمِ شَمْسِ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ
الْجَزَرِيِّ الشَّافِعِيِّ ، وَالصِّدْرُ الْأَجَلُّ كَأُلِّ الدِّينِ كَأُلِّ أَغَا ، وَأَنَّ ذَلِكَ صَدَرَ عَنِ الْمَقَامِ
الشَّرِيفِ الْقُطْبِيِّ الْمَشَارِ إِلَيْهِ ، مُوَافَقَتِهِ عَلَى الصُّلْحِ الشَّرِيفِ ، وَإِجَابَةِ الْقَصْدِ فِيهِ
بِإِطْلَاقِ الْأَمِيرِ أَطْلَمَشٍ لَزِمَ الْمَقَامِ الْقُطْبِيِّ الْمَشَارِ إِلَيْهِ ، وَتَجَوُّزِهِ إِلَى حَضْرَتِهِ الْعَالِيَةِ ؛
وَأَنَّهُ عَاهَدَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بِمُحْضُورِ جَمِّ غَفِيرٍ مِنْ أَمْرَاءِ دَوْلَتِهِ وَأَكَابِرِهَا ، وَمَنْ حَضَرَ
مَجْلِسَهُ ، بِالْيَمِينِ الشَّرْعِيَّةِ الْجَامِعَةِ لِأَشْتَاتِ الْحَلِيفِ : بِاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْبَرِيَّةِ
وَبَارِئِ النَّسَمِ ، عَلَى ذَلِكَ جَمِيعِهِ ، وَعَلَى أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ إِلَى الْبِلَادِ الدَّاخِلَةِ فِي مَمْلَكَةِ
مَوْلَانَا السُّلْطَانِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ الْمَشَارِ إِلَيْهِ ، وَأَنَّهُ مَهْمَا عَاهَدَ وَصَالَحَ وَعَاقَدَ عَلَيْهِ الشَّيْخُ
نِظَامُ الدِّينِ مَسْعُودُ الْوَيْكَلِ الْمَذْكُورِ يَقْضَى بِهِ الْمَقَامُ الْقُطْبِيُّ الْمَشَارِ إِلَيْهِ ، وَيُمْضِيهِ
وَيَرْفُضِيهِ . وَأَنْفَصَلَ الْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ .

فبعد ما وقف مولانا السلطان الملك الناصر المشار إليه - خلد الله تعالى ملكه - على المكتبة الشريفة المشار إليها ، وتفهم مضمونها ، ورأى أن المصلحة في الصلح : تبركا بما ورد في كتاب الله عز وجل ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم - استخار الله عز وجل ، وأمر بتجهيز الأمير أطمش المذكور ، وتسليمه للشيخ نظام الدين مسعود المذكور ، وأذن لها في التوجه إلى حضرة المقام الشريف القبطي المشار إليه : بموافقة مولانا أمير المؤمنين المتوكل على الله - أدام الله تعالى أيامه - على ذلك ، وحضور الشيخ الإمام الفرد الأوحيد ، شيخ الإسلام ، سراج الدين ، عمر البلقيني - أعاد الله تعالى على المسلمين من بركاته - وقضاة القضاة الحكام - أعز الله تعالى أحكامهم - ومشايخ العلم الشريف والصالح ، وأركان الدولة الشريفة ، ومن يضع خطه في هذا الصلح الشريف بالشهادة بمضمونه .

وعقد الصلح الشريف بين مولانا السلطان الملك الناصر المشار إليه - خلد الله تعالى ملكه - وبين الشيخ نظام الدين مسعود الوكيل المذكور عن المقام الشريف القبطي المشار إليه - زيدت عظمته - على حكم مضمون مفاوضاته الشريفة المقدم ذكرها ، وما قامت به البيعة الشرعية ، بشهادة العدلين المذكورين الواصلين محبة الوكيل المذكور بالتوكيل المشروح فيه . فكان صلحا صحيحا شرعيا ، تاما كاملا معتبرا مرضيا ، على أحسن الأمور وأجملها ، وأفضل الأحوال وأشكلها .

وحلف مولانا السلطان الملك الناصر المشار إليه - خلد الله ملكه - وعاهد الله عز وجل نظير ما حلف وعاهد عليه المقام الشريف القبطي المشار إليه من القول والعمل ؛ واستقرت بمشيئة الله تعالى الأحوال ، وسرت القلوب وقرت النواظر ؛ لينا في ذلك من حفظ ديام اليهود الشريفه ، وإقامة منار الشرع الشريف وأمنه .

ظلالِ أعلامِهِ الْوَرَيْفَةِ ؛ وإِجْرَاءِ كَلِمَةِ الصَّنِيقِ ، عَلَى لِسَانِ أَهْلِ الْحَقِّ ، وَصَوْنِ
أَمَانَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَشِعَارِ دِينِهِ بَيْنَ الْخَلْقِ ؛ فَلَا يَتَغَيَّرُ عَقْدُ هَذَا الصُّلْحِ الشَّرِيفِ
عَلَى مَدَى اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ ، وَلَا يَنْقُضِي حُكْمُهُ وَلَا يَنْحُلُ إِبْرَامُهُ عَلَى تَوَالِي السَّنِينَ
وَالْأَعْوَامِ .

هذا : عَلَى أَنْ لَا يَدْخُلَ أَحَدٌ مِنْ عَسَاكِرْهَا وَجُنْدِهَا وَمَمَالِكِيكُهَا إِلَى حُدُودِ
مَمْلَكَةِ الْآخَرِ ، وَلَا يَتَعَرَّضَ إِلَى مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ مِنْ مَمَالِكٍ وَقِلَاعٍ ، وَحُصُونٍ
وَسُيُوحٍ وَمَوَانٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ سَائِرِ الْأَنْوَاعِ ؛ وَرَعَايَاهُمَا مِنْ جَمِيعِ الطُّوُوفِ
وَالْأَجْناسِ ، وَمَا هُوَ مَخْصُصٌ بِسِلَاحٍ كُلِّ مِنْهُمَا وَمَعْرُوفٌ بِهِ بَيْنَ النَّاسِ : حَاضِرُهَا
وَبَادِيهَا ، وَقَاصِيهَا وَدَانِيهَا ، وَعَامِرُهَا وَغَامِرُهَا ، وَبَاطِنُهَا وَظَاهِرُهَا ، وَلَا إِلَى مَنْ
فِيهَا مِنَ الرِّعْيَةِ وَالتَّجَارِ وَالْمَسَافِرِينَ ، وَسَائِرِ الْغَادِينَ وَالرَّائِحِينَ فِي السُّبُلِ وَالطَّرِيقِ :
مَتَفَرِّقِينَ وَمَجْتَمِعِينَ .

هذا عَلَى أَنْ يَكُونَ كُلُّ مِنَ الْمَقَامَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ الْمُشَارِ إِلَيْهِمَا مَعَ الْآخَرِ عَلَى أَكْمَلِ
مَا يَكُونُ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ : مِنْ حُسْنِ الْوَقَاءِ ، وَجَمِيلِ الْمَوَدَّةِ وَالصَّفَاءِ ؛ وَيَكُونَا
فِي الْإِتِّحَادِ كَالْوَالِدِ وَالْوَلَدِ ، وَعَلَى الْمُبَالَغَةِ فِي الْإِمْتِرَاجِ وَالْإِخْلَاطِ كَرُوحَيْنِ فِي جَسَدٍ ؛
مَعَ مَا يُضَافُ إِلَى ذَلِكَ مِنْ مُصَادَقَةِ الْأَصْدِقَاءِ ، وَمُعَادَاةِ الْأَعْدَاءِ ؛ وَمُسَالَمَةِ الْمُسَالِمِينَ ،
وُمُحَارَبَةِ الْمُحَارِبِينَ ؛ فِي السَّرِّ وَالْإِعْلَانِ ، وَالظُّهُورِ وَالْكِتْمَانِ ؛ وَبِاللهِ التَّوْفِيقِ ، وَهُوَ
الْعَالِمُ بِمَا تُبْدِي الْأَعْيُنُ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ، وَعَلَيْهِ التَّكْلَانُ فِي كُلِّ الْأُمُورِ ،
فِي النِّيَّةِ وَالْحُضُورِ ، وَالْوُرُودِ وَالصُّدُورِ .

الباب السادس

من المقالة التاسعة

(في الفسوخ الواردة على العقود السابقة ، وفيه فصلان)

الفصل الأول

الْفَسْخُ ، وهو ما وقع من أحد الجانبين دون الآخر .

قال في "التعريف" : وَقُلْ أَنْ يَكُونَ فِيهِ إِلَّا مَا يَبْعَثُ بِهِ عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ .
قال : وقد كتب عَمِّي الصَّاحِبُ شَرَفُ الدِّينِ [أبو محمد] عَبْدُ الرَّهَابِ رَحِمَهُ اللَّهُ ،
سنة دخول العساكر الإسلامية مَلْطِيَّةَ ، سنة أربع عشرة وسبعمائة فَسَخَا على التكفور
مَمْلُوكَ سِيسَ ، كان سببا لأن زاد قَطِيعَتَهُ . ولم يذكر صورة ما كتبه في ذلك .

وقد جرت العادة أنه إذا كان الْفَسْخُ من الجانب الواحد أن يذْكَرَ الْكَاتِبُ فِيهِ
مُوجِبَ الْفَسْخِ الصَّادِرِ عَنِ الْمَفْسُوخِ عَلَيْهِ : من ظُهور ما يوجب نَقْضَ الْعَهْدِ ،
وَنَكَثَ الْعَقْدَ ، وإقامة الْحُجَّةِ على الْمَفْسُوخِ عَلَيْهِ من كُلِّ وَجْهِ .

قال في "التعريف" : وَالَّذِي أَقُولُ فِيهِ : إنه إن كُتِبَ فِيهِ ، كُتِبَ بَعْدَ الْبِسْمَلَةِ :

هذا ما استخار الله تعالى فِيهِ فُلَانٌ ، استخارة تَبَيَّنَ لَهُ فِيهَا غَدْرُ الْغَادِرِ ، وأظهر له بها
سِرَّ الْبَاطِنِ ما حَقَّقَهُ الظَّاهِرُ ؛ فَسَخَّ فِيهَا عَلَى فُلَانٍ مَا كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ مِنَ الْمُهَادَنَةِ
الَّتِي كَانَ آخِرَ الْوَقْتِ الْفُلَانِي آخِرَ مُدَّتِهَا ، وطهر السيوف الذُّكُورَ فِيهَا مِنَ الدَّمَاءِ إِلَى
انْقِضَاءِ عَدَّتِهَا ؛ وذلك حين بدا منه من مُوجِبَاتِ النِّقْضِ ، وحلَّ الْمُعَاقَدَةِ الَّتِي كَانَتْ
يُسَدُّ بِعَظْمِهَا بَعْضَ (وهي كذا وكذا ، وتذكر وتعد) مما يوجبُ كُلَّ ذَلِكَ إِخْفَارَ

الدَّهْمَ ، وَتَقْضِ الْعُهُودَ الْمَرْغِيَّةَ الْحُرْمَةَ ؛ وَهَذَ قَوَاعِدَ الْهُدْنَةِ ، وَتَحْلِيَةَ مَا كَانَ قَدْ
أُتْسِكَ مِنَ الْأَعْنَةِ ؛ كُتِبَ إِذْئَارًا ، وَقَدْ حِدَارًا ؛ وَمَنْ يَشْهَدُ بِوُجُوبِ هَذَا الْفَسْخِ ،
وَدُخُولِ مِلَّةِ تِلْكَ الْهُدْنَةِ فِي حُكْمِ هَذَا النَّسْخِ ؛ مَا تَشْهَدُ بِهِ الْأَيَّامُ ، وَيُحْكَمُ بِهِ عَلَيْهِ
النَّصْرُ الْمَكْتُوبُ لِلْإِسْلَامِ ؛ وَكُتِبَ هَذَا الْفَسْخُ عَنْ فُلَانٍ لِفُلَانٍ وَقَدْ نَبَذَ إِلَيْهِ عَهْدَهُ ،
وَأَنْجَزَ وَعْدَهُ ؛ وَأَنْفَذَ إِلَيْهِ سَهْمَهُ بَعْدَ أَنْ صَبَرَ مَلِيًّا عَلَى مُسَالَمَتِهِ ، وَأَقَامَ مَدَّةَ يُدَارَى
مَرَضٍ وَفَاتِهِ وَلَا يَنْجُحُ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ مُدَاوَاتِهِ ؛ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ، وَيَحْذَرُ مَنْ
يَأْمَنُ مَكْرَهُ مَنْ يَحْذَرُهُ ؛ وَأَمْرُ فُلَانٍ أَنْ يَقْرَأَ هَذَا الْكِتَابَ عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ ،
لِيَنْتَقَلَ مَضْمُونُهُ إِلَى الْبِلَادِ ؛ أَنْفَقَ مِنْ أَمْرِ لَا يَتَادَى بِهِ الْإِعْلَانُ ، وَيَنْصَبُ بِهِ لِهَذَا
الْقَادِرِ لَوَاءٌ لَا يَقَالُ إِذَا يَقَالُ : هَذَا اللَّوَاءُ لَعُدْرَةِ فُلَانٍ بْنِ فُلَانٍ .

الفصل الثاني

المُفَاسَّخَةُ وَهِيَ مَا يَكُونُ مِنَ الْجَانَيْنِ جَمِيعًا

قَالَ فِي "التعريف" : وَصُورَةُ مَا يَكْتُبُ فِيهَا : هَذَا مَا آخَرَاهُ فُلَانٌ وَفُلَانٌ مِنْ
فَسْخٍ مَا كَانَ بَيْنَهُمَا مِنَ الْمُهَادَنَةِ الَّتِي هِيَ إِلَى آخِرِ مَدَّةٍ كَذَا . آخَرَاهُ فَسْخَ بِنَائِهَا ،
وَنَسَخَ أَثْبَائِهَا ؛ وَتَقْضَى مَا أُبْرِمَ مِنْ عَقُودِهَا ، وَأُكِّدَ مِنْ عُهُودِهَا ؛ جَرَتْ بَيْنَهُمَا عَلَى
رِضَا مِنْ كُلِّ مِنْهُمَا بِإِقْدَارِ نَارِ الْحَرْبِ ، الَّتِي كَانَتْ أُطْفِئَتْ ، وَإِنَارَةُ تِلْكَ التَّوَاتُرِ الَّتِي
كَانَتْ كُفِّيتْ بِنَذَاهِ عَلَى سَوَاءٍ بَيْنَهُمَا ، وَأَعْتَقَادٍ مِنْ كُلِّ مِنْهُمَا ؛ أَنَّ الْمَصْلَحَةَ فِي هَذَا
لِطَهَّتِهِ ، وَأَسْقَطَ مَا كَانَ يَجْلِهَ لِلْآخَرِ مِنْ رِبْقَتِهِ ؛ وَرَضِيَ فِيهِ بِقَضَاءِ السُّبُوفِ ،
وَأَمْضَاءِ أَمْرِ الْقَدَرِ وَالْقَضَاءِ فِي مُسَاقَاتِ الْخُتُوفِ ؛ وَقَدْ أَشْهَدَا عَلَيْهِمَا بِذَلِكَ اللَّهُ
وَخَلَقَهُ وَمَنْ حَضَرَ ، وَمَنْ سَمِعَ وَنَظَرَ ؛ وَكَانَ ذَلِكَ فِي تَارِيخٍ كَذَا وَكَذَا .

المقالة العاشرة

في فنون من الكتابة يتداولها الكُتّابُ وتَنَاقَسُ في عملها، ليس لها
تعلقٌ بكتابة الدواوين السلطانية ولا غيرها، وفيها بابان

الباب الأول

في الحِديّات ، وفيه خمسة فصول

الفصل الأول

في المقامات

وهي جمع مقامية بفتح الميم ، وهي في أصل اللغة اسمٌ للجلّيس والجماعة من الناس .
وسميت الأحدثوة من الكلام مقامية ، كأنها تُدكر في مجلس واحد يجتمع فيه الجماعة
من الناس لسماعها . أما المقامة بالضم ، فبمعنى الإقامة ، ومنه قوله تعالى حكاية
عن أهل الجنة : ﴿ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ .

وأعلم أن أول من فتح بابَ عمَلِ المقامات ، علامة الدهر ، وإمام الأدب ،
البدیعُ المَعْدَانِي : فعمل مقاماته المشهورة المنسوبة إليه ، وهي في غاية من البلاغة ،
وعُلُوّ الرتبة في الصنعة . ثم تلاه الإمام أبو محمد القاسمُ الحَرِيرِيُّ ، فعمل مقاماته
الخمسَينَ المشهورة ، بحضرة نهاية في الحسن ، وأتمت على الجزء الوافر من الخط ؛
وأقبل عليها النحّاصُ والنام ، حتّى أنست مقامات البدیع وصيرتها كالمرفوضة .
على أن الوزير ضياء الدين بن الأثير في " المثل السائر " لم يوفّه حقّه ، ولا عامّله
بالإنصاف ، ولا أبجل معه القول . فإنه قد ذكر أنه ليس له يدٌ في غير المقامات ،

حَتَّى أَذْكَرَ عَنِ الشَّيْخِ أَبِي مُحَمَّدٍ أَحْمَدَ بْنِ الْخَشَّابِ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : إِنَّ الْحَرِيرِيَّ رَجُلٌ مَقَامَاتٍ . أَيْ إِنَّهُ لَمْ يُحْسِنْ مِنَ الْكَلَامِ الْمَثُورِ سِوَاهَا ، فَإِنْ أَتَى بِغَيْرِهَا فَلَا يَقُولُ شَيْئًا . وَذَكَرَ أَنَّهُ لَمَّا حَضَرَ بَقْدَادَ ، وَوَقَفَ عَلَى مَقَامَاتِهِ ، قِيلَ : هَذَا يُسْتَصْلَحُ لِكِتَابَةِ الْإِنْشَاءِ فِي دِيْوَانِ الْخِلَافَةِ ، وَيُحْسِنُ أَثَرَهُ فِيهِ ، فَأُحْضِرْ وَلَظَّ كِتَابَةُ كِتَابٍ فَأُلْغِمَ ، وَلَمْ يَجِرْ لِسَانُهُ فِي طَوِيلِهِ وَلَا قَصِيرِهِ ، حَتَّى قَالَ فِيهِ بَعْضُهُمْ :

شَيْخٌ لَنَا مِنْ رَبِيعَةِ الْفَرَسِ * يَنْتِفُ عُنُونَهُ مِنَ الْهَوَسِ ،

أَنْطَقَهُ اللَّهُ بِالْمَشَانِ وَفِي * بَقْدَادَ أَصْحَى الْمَلْجُومَ بِالْحَرَسِ !

وَأَعْتَدَ عَنْهُ بِأَنَّ الْمَقَامَاتِ مَدَارُهَا جَمِيعُهَا عَلَى حِكَايَةِ تَخْرُجُ إِلَى مُخْلِصٍ ، بخلاف المكتوبات فانها بحرٌ لا ساحلَ له : من حيثُ إن المعاني تتجددُ فيها بتجددِ حوادث الأيام ، وهي مُتَجَدِّدَةٌ عَلَى عَدَدِ الْأَنْفَاسِ .

وهذه المقامةُ الَّتِي قَدِّمْتُ الْإِشَارَةَ إِلَيْهَا فِي خُطْبَةِ هَذَا الْكِتَابِ ، إِلَى أَتَى كَسْتُ أَنْشَأْتُهَا فِي حُدُودِ سَنَةِ إِحْدَى وَتِسْعِينَ وَسَبْعَاةً ، عِنْدَ اسْتِقْرَارِي فِي دِيْوَانِ الْإِنْشَاءِ بِالْأَبْوَابِ الشَّرِيفَةِ ، وَأَنْهَا أَشْتَمَلْتُ - مَعَ الْإِخْتِصَارِ - عَلَى جُمْلَةٍ جَمَّةٍ مِنْ صِنَاعَةِ الْإِنْشَاءِ ، وَوَسَّيْتُهَا بِـ "الْكَوَاكِبِ الدَّرِّيَّةِ" ، فِي الْمَنَاقِبِ الْبَدْرِيَّةِ "وَوَجَّهْتُ الْقَوْلَ فِيهَا لَتَقْرِيطِ الْمَقَرِّ الْبَدْرِيِّ" ، بِنِ الْمَقَرِّ الْعَلَّائِي ، بِنِ الْمَقَرِّ الْحَوِيِّ ، بِنِ فَضْلِ اللَّهِ ، صَاحِبِ دِيْوَانِ الْإِنْشَاءِ بِالْأَبْوَابِ السُّلْطَانِيَّةِ بِالْأَبْوَابِ الْمِصْرِيَّةِ يَوْمَئِذٍ . جَعَلْتُ مَبْنَاهَا عَلَى أَنَّهُ لَا بُدَّ لِلْإِنْسَانِ مِنْ حِرْفَةٍ يَتَعَلَّقُ بِهَا ، وَمَعِيشَةٍ يَتَمَسَّكُ بِسَبَبِهَا ، وَأَنَّ الْكِتَابَةَ هِيَ الْحِرْفَةُ الَّتِي لَا يَلِيقُ بِطَالِبِ الْعِلْمِ سِوَاهَا ، وَلَا يَجُوزُ لَهُ الْعُدُولُ عَنْهَا إِلَى مَا عَدَاهَا ، مَعَ الْجُنُوحِ فِيهَا إِلَى تَفْضِيلِ كِتَابَةِ الْإِنْشَاءِ وَتَرْجِيحِهَا ، وَتَقْدِيمِهَا عَلَى كِتَابَةِ الدِّيْوَانَةِ وَتَرْشِيحِهَا .

وقد اشتملت على بيان ما يحتاج إليه كاتب الإنشاء من المواد ، وما ينبغي أن يسلكه من الجواد ، مع التنبيه على جملة من المصطلح بينت مقاصده ، ومهدت قواعده ؛ على ما ستقف عليه في خلال مطالعها إن شاء الله تعالى ، وهي :

حكى الناظر ابن نظام ، قال : لم أزل من قبل أن يبلغ برید عمری مرکز التكليف ، ويتفرق جمع خاطري بالكلف بعد التأليف ؛ أنصب لافتناس العلم إشتراك التفصيل ، وأزله توحيد الاشتغال عن إشتراك التعليل ؛ مشمرا عن ساق الحسد ذيل الاجتهاد ، مشمرا على الوحدة وملزمة الأفراد ؛ أتهز فرصة الشباب قبل توليها ، وأغني حالة الصحة قبل تجايفها ؛ قد حالف جفني السهاد ، وخالف طيب الرقاد ؛ أمرن النفس على الاشتغال كي لا تمل فتتفرعن الطلب وتفتح ؛ ميسلا جانب قصيدها عن ركوب الأهواء والميل إليها ، صارفا وجه غايتها عن المطالب الدنيوية والركون إليها ؛ متخيرا ألقى الأماكن وأوفى الأوقات ، قاننا بأذى العيش راضيا بأيسر الأوقات ؛ أونس من شوارد العقول وحشيشا ، وأشرد عن روايض المنقول حوشيشا ؛ والنقطة ضالة الحكمة حيث وجدتها ، وأقيد بأدرة العلم حيث أصبتها ؛ مقدما من العلوم أشرفها ، ومؤثرا من الفنون أرفعها ؛ معتمدا من ذلك ما تألفه النفس ويقبله الطبع ، مقبلا منه على ما يستجلى حسنه النظر ويستجلى ذكره السمع ؛ متقيا من الكتب أتمتها تصنيفا ، وأتمها تحريرا وأحسنها تأليفا ؛ متخبا من أشياخ الإفادة أوسعهم علما وأكثرهم تحقيقا ، ومن أقران المداكرة أروضهم بحثا وألفهم تدقيقا ؛ عارفا لكل عالم حقه ، وموفيا لكل علم مستحقه ؛ قد استغنيت بكافي عن خلى ورقيتي ، وآثرت بيت خلوي على شقيقي وشقيقي ؛ أجوب فيافي الفنون لتظهر لي طلائع الفوائد فأشهد عيانا ، وأجول في ميدان الأفكار لتلوح لي كائن المعاني فلا أنثي عنها عيانا ، وأشن غارات المطالعة على كتاب الكتب فأرجع

بالغنيمة، وأهجم على حصون الدفائر ثم لا أولى عن هزيمة؛ بل كلما لاحت لى فئة من البحث تحيزت إليها، أو ظهرت لى كتيبة من المعاني حملت عليها؛ إلى أن أتبع لى من الفتح ما أفاضته النعمة، وحصلت من الغنيمة على ما أقتضته القسمة.

فبينما أنا أرتع فى رياض ما نفلت، وأجتنى ثمار ما حوت، إذ طلع على جدش التكليف فحصرنى، ونرج على كمين التكليف فأسرنى؛ فأمسيت فى أضيق خناق، وأشد وثاق؛ قد عاقبني قيد الأكتساب عن الاشتغال، وصددني كل الكد عن الاهتمام بالطلب والأحवाल؛ فعشيت من القبض ما غشيتى، وأخذنى من الوحشة ما أخذنى؛ وتعارض فى حكم العقل بين الكسب وطلب العلم، وتساويا فى الترجيح فلم تتجح واحدة منهما إلى السلم؛ فصرت مذهوشاً لأحسن صنعا، وبقيت متصيراً لا أدري أى الأمرين أقرب لى نفعاً؛ : إن طلبت العلم للكسب فقد أخشت رجوعاً، وإن تركت الكسب للعلم هلكت ضيعة ومث جوعاً.

فلما علمت أن كلا منهما لا يقوم إلا بصاحبه، ولا يتم الواجب فى أحدهما ما لم يتم فى الآخر بواجبه؛ ألتفت كسباً يكون للعلم موافقاً، وبجملته لا نفعاً؛ ليكون ذلك الكسب للعلم موضوعاً والعلم عليه تمحولاً، والجمع ولو بوجه أولى؛ بفعلت أسير الماعيش سير متقصد، وأسير فى فلول الصنائع سير متعهد؛ لكى أجد حرفة تطابق أرى، أو صنعة تجانس طلبى.

فبينما أنا أسير فى مهاديها، وأردد طرفى فى مشاهيها؛ إذ رُفع لى صوت قرع تنمى برنته، وأخذ قلبى بجنته؛ ففقوت أثره متبعا، وملت إليه مستمعا؛ فإذا رجل من أحسن الناس شكلاً، وأزجمهم عقلاً؛ وهو يرتع ويشد :

إن كنت تقصدنى بظلك عامداً، * فخرمت نفع صداقة الكذاب؛

السَّائِقِينَ إِلَى الصِّدِّيقِ تَرَى الْغِنَى * وَالنَّاعِشِينَ لَعَثَرَةَ الْإِمْتِحَابِ ،
وَالنَّاهِضِينَ بِكُلِّ عِبٍّ مُثْقِلٍ * وَالنَّاطِقِينَ بِفَضْلِ كُلِّ خِطَابِ ،
وَالْعَاطِفِينَ عَلَى الصِّدِّيقِ بِفَضْلِهِمْ * وَالطَّيِّبِينَ رَوَائِحِ الْأَنْوَابِ .
وَلَيْتَ بِمَحَدَّتِهِمُ النَّعَاءَ فَطَالَما * بِمَحَدِّ الْعَيْدِ تَفَضَّلَ الْأَرْبَابِ !

فلما سمعتُ منه ذلك ، وأعجبني من الوصفِ ما هنالك ؛ دَنَوْتُ مِنْهُ دُتُوَ الْوَاجِلِ ،
وَجَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ جُلُوسَ السَّائِلِ ؛ وَقُلْتُ : هَذِهِ وَأَمِيسُكَ صِفَاتُ الْمُلُوكِ بِلِ مَلُوكِ
الْصِّفَاتِ ، وَأَكْرَمُ الْفَضَائِلِ بِلِ أَفْضَلِ الْمَكْرَمَاتِ ؛ وَلَمْ أَكْ أَظُنْ أَنَّ لِلْكَاتِبَةِ هَذَا
الْخَطَرَ الْجَسِيمَ ، وَلِلْكَاتِبِ هَذَا الْخَطُّ الْعَظِيمُ ؛ فَأَعْرَضُ مُغْضِبًا ، ثُمَّ فَوْقَ بَصَرِهِ إِلَى
مُعْجَبًا ؛ وَقَالَ : هِيَئَاتِ فَاتَكَ الْحَزَمُ ، وَأَخْطَاكَ الْعَزَمُ ؛ لِمَا لَمِنْ أَعْظَمِ الصَّنَائِعِ قَدْرًا ،
وَأَرْفَعَهَا ذِكْرًا ؛ نَطَقَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بِفَضْلِهَا ، وَجَاءَتِ السُّنَّةُ الْفَرَاةُ بِتَقْدِيمِ أَهْلِهَا ؛
فَقَالَ تَعَالَى جَلَّ شَأُوهُ ، وَتَبَارَكَتِ أَسْمَاؤُهُ : ﴿ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ
الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، حَيْثُ وَصَفَ نَفْسَهُ بِالْكَرَمِ ؛ إِشَارَةً
إِلَى أَنَّ تَعْلِيمَهَا مِنْ جَزِيلِ نِعْمَةٍ ، وَإِذَا نَا بَانَ مَنَحَهَا مِنْ فَائِضِ دِيَمِهِ ؛ وَقَالَ جَلَّتْ
قُدْرَتُهُ : ﴿ نَبِّ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ فَأَقْسَمَ بِالْقَلَمِ
وَمَا سَطَّرَتْهُ الْأَقْلَامُ ، وَأَتَى بِذَلِكَ فِي أَكْثَرِ قَمِيمٍ فَكَانَ مِنْ أَعْظَمِ الْأَقْسَامِ . وَقَالَ
تَقَدَّسَتْ عَظَمَتُهُ : ﴿ وَإِنْ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ يَكْرُمُا كَاتِبِينَ ﴾ لِجَعْلِ الْكَاتِبَةِ مِنْ وَصْفِ
الْكَرَامِ ، كَمَا قَدْ جَاءَ فِعْلُهَا عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ؛ وَإِنَّمَا مَنَعَهَا النَّبِيُّ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُعْجِزَةً قَدَرَيْنِ تَعَالَى سَبَبُهَا ، حَيْثُ ذَكَرَ الْحَادِثَ بِقَوْلِهِ :
﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا . ﴾

هذا : وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم في كثرة الكتاب راعياً ، فقد روى أنه كان له عليه أفضل الصلاة والسلام ثياف وثلاثون كتاباً ؛ هم نخبة أصحابه ، وخلاصة آرائه ؛ من اتقنهم على أسرار الوحي والتزويل ، وخاطب بالسنن أقلامهم ملوك الأرض فأجابوا بالإذعان على البعد والمدى الطويل ؛ وكتب الملوك أيضاً إليه ابتداءً وجواباً ، وكتب أصحابه وكتبوه فأحسن آستماعاً وأنعم خطاباً ؛ وبذلك جرت سنة الخلفاء الراشدين من تلامهم ، وعلى نهجهم مشت ملوك الإسلام ومن ضاهاهم .

فالكاتب قانون السياسة ، ورتبتها غاية رتب الرئاسة ؛ عندها تقف الإنافة ، وإلها تنهى مناصب الدنيا بعد الخلافه ؛ والكتاب عيون الملوك المبصرة وأذانهم الواعية ، والسنن الناطقة وعقولهم الحاوية ؛ بل محض الحق الذي لا تدخله الشكوك ، وإن الملوك إلى الكتاب أحوج من الكتاب إلى الملوك ؛ وتأهيك بالكتابة شرفاً ، وأعل بذلك رتبة وكفاً ؛ أن صاحب السيف والعلم يزاحم الكاتب في قلبه ، ولا يزاحم الكاتب صاحب السيف والعلم في سيفه وعآه .

وعلى المحلة فهم الحاؤون لكل وصيف جميل ، وشأن نبيل ؛ الكرم شعارهم ، والجلم دثارهم ، والحدود جادتهم ، والخير عادتهم ؛ والأدب مكرهم ، والالطف مذهبهم ؛ والله القائل :

وَشَمُولُ كَأَمَّا اعْتَصَرُوهَا * مِنْ مَعَانِي شَمَائِلِ الْكِتَابِ !

فلما اتقضى قبله ، وبانت سبيله ؛ قلت : لقد ذكرت قوماً راقين وصفهم ، وشاقني لطفهم ؛ ودعاني طيب حديثهم ؛ وحسن أوصافهم ؛ وجميل نعوتهم ؛ إلى أن أحل بناديبهم ، وأنزل بواديهم ؛ فأجعل حرقهم كسبي ، وصنعهم دأبي ؛ ليجتمع بالعلم شمل ، ويتصل بالاستغفار حبلى ؛ فأكون قد ظفرت بمنيتي ، وفزت ببغيتي .

فأَيَّ قَيْسِلٍ مِنَ الْكُتَابِ أَرَدْتَ ؟ وَلِأَيِّ نَوْعٍ مِنَ الْكِتَابَةِ أَشَرْتَ ؟ أِكِتَابَةِ
الْأَمْوَالِ ؟ أَمْ كِتَابَةِ الْإِنْشَاءِ وَالْخُطَابَةِ ؟ ، أَمْ غَيْرَهُمَا مِنْ أَنْوَاعِ الْكِتَابَةِ ؟ ؛ فَظَنَرُ إِلَى
مُنَبِّهًا ، وَأَنْشَدَ مُتَرَجِّمًا :

قَوْمٌ إِذَا أَخَذُوا الْأَقْلَامَ مِنْ غَضَبٍ * ثُمَّ اسْتَمَدُوا بِهَا مَاءَ الْمَنِيَّاتِ ،
نَالُوا بِهَا مِنْ لَعَادِيهِمْ وَإِنْ بَعُدُوا * مَا لَمْ يَنَالُوا بِمَحْدِّ الْمَشْرِقِيَّاتِ !

فَقُلْتُ : كَأَنَّكَ تُرِيدُ كِتَابَةَ الْإِنْشَاءِ دُونَ سَائِرِ الْكِتَابَاتِ ، وَهِيَ الَّتِي تَقْصِدُهَا
بِالتَّصْرِيحِ وَتُسَيِّرُ إِلَيْهَا بِالْكِتَابَاتِ ؛ فَقَالَ : وَهَلْ فِي أَنْوَاعِ الْكِتَابَةِ جُمْلَةٌ نَوْعٌ يُسَاوِيهَا ،
أَوْ فِي سَائِرِ الصَّنَائِعِ عَلَى الْإِطْلَاقِ صَنَعَةٌ تُضَاهِيهَا ؟ ؛ إِنَّ لَهَا لِفَتْحَ الْمُعْلَى ، وَالْحَيْدَ
الْمُعْلَى ؛ وَالذَّرْوَةَ الْمُنِيغَةَ ، وَالرُّتْبَةَ الشَّرِيفَةَ ؛ كُتُبُهَا أَشُّ الْمُلُوكِ وَعِمَادُهُ ، وَأَرْكَانُ الْمُلُوكِ
وَأَطْلَافُهُ ؛ وَلِسَانُ الْمَلَكَةِ النَّاطِقِ ، وَسَهْمُهَا الْمُفَوِّقُ الرَّاشِقُ ؛ وَلَهُ حَبِيبُ بْنُ أَوْسٍ
الطَّائِي حَيْثُ يَقُولُ :

وَلَضْرِبَةٌ مِنْ كِتَابِ بَنَانِهِ * أَمْضَى وَأَقْطَعُ مِنْ رَقِيقِ حُسَامٍ !

قَوْمٌ إِذَا عَزَمُوا عَدَاوَةَ حَاسِدٍ * سَفَكُوا الدَّمَاءَ بِأَسِنَّةِ الْأَقْلَامِ !

فَلَمَّا بَلَغَ الْأَمْلَ ، وَبَغْنَى عَنِ الْبَيْضِ وَالْأَسَلِ ؛ بِهِ تُصَانُ الْمَعَاقِلُ ، وَتُفَرَّقُ
الْجَحَافِلُ :

فَلَكُمْ قِيلُ الْجَيْشِ وَهُوَ عَرَّ مَرَّمٌ * وَالْبَيْضُ مَا سَلَّتْ مِنَ الْأَنْغَادِ !

فَقُلْتُ : إِنْ كُتِّبَ الْأَمْوَالُ يَزْعُمُونَ أَنْ لَمْ فِي ذَلِكَ الْمَقَامِ الْأَعْلَى ، وَالطَّرِيقَةَ
الْمُنْتَى ؛ وَيَسْتَشْهِدُونَ لِقَضَائِهَا ، وَتَقْدَمُ أَهْلِهَا ؛ بِقَوْلِ الْإِمَامِ أَبِي مُحَمَّدٍ الْقَاسِمِ الْحَرِيرِيِّ
رَحِمَهُ اللَّهُ ، فِي مَقَامَاتِهِ :

«إِنَّ صِنَاعَةَ الْحِسَابِ مَبْنِيَّةٌ عَلَى التَّحْقِيقِ ، وَصِنَاعَةُ الْإِنْشَاءِ مَبْنِيَّةٌ عَلَى التَّلْفِيقِ ؛
وَقَلَمُ الْحَاسِبِ ضَاطِحٌ ، وَقَلَمُ الْمُنْشِئِ حَاطِحٌ ؛ وَبَيْنَ إِتَاوَةِ تَوْطِيفِ الْمُعَامَلَاتِ ، وَتِلَاوَةِ

طَوَامِيرُ السَّجَلَاتِ ؛ بَوْنٌ لَا يُدْرِكُهُ قِيَاسٌ ، وَلَا يَتَوَرَّهُ الْتِيَّاسُ ؛ إِذِ الْإِتَاوَةُ تَمَلُّ
 الْإِتْيَاسُ ، وَالتَّلَاوَةُ تُفَرِّغُ الرَّاسَ ؛ وَخَرَّاجُ الْأَوَارِجِ ، يُعْنِي النَّاسِطِرُ ، وَاسْتِخْرَاجُ
 الْمَدَارِجِ ، يُعْنِي الْخَاطِرُ ؛ وَالْحَسَبَةُ حَفَظَةُ الْأُمُوالِ ، وَحِمْلَةُ الْإِتْمَالِ ؛ وَالنَّقْلَةُ
 الْإِثْبَاتُ ، وَالسَّفَرَةُ الثَّقَاتُ ؛ وَأَعْلَامُ الْإِنْصَافِ وَالْإِنْصَافُ ، وَالشُّهُودُ الْمَقَانِعُ
 فِي الْاِخْتِلَافِ ؛ وَمَنْهُمْ الْمُسْتَوْفَى الَّذِي هُوَ يَدُ السُّلْطَانِ ، وَقُطْبُ الدِّيَّانِ ؛ وَقِسْطَاسُ
 الْأَعْمَالِ ، وَالْمُهَيِّمُنُ عَلَى الْعَمَالِ ؛ وَإِلَيْهِ الْمَكَابُ فِي السَّلَمِ وَالْمُخْرَجِ ، وَعَلَيْهِ الْمَدَارُ
 فِي الدُّخْلِ وَالْمُخْرَجِ ؛ وَبِهِ مَنَاطُ الضَّرِّ وَالنَّفْعِ ، وَفِي يَدِهِ رِبَاطُ الْإِعْطَاءِ وَالْمَنْعِ ؛ وَلَوْلَا
 قَلَمُ الْحِسَابِ ، لَأَوَدَتْ ثَمَرَةُ الْاِكْتِسَابِ ، وَلَأَتَّصَلَ التَّغَابُنُ إِلَى يَوْمِ الْحِسَابِ ؛ وَلَكِنَّ
 نِظَامَ الْمَعَامَلَاتِ مَحْلُولًا ، وَجُرْحُ الظَّلَامَاتِ مَطْلُولًا ، [وَجَيْدُ التَّنَاصُفِ مَغْلُولًا ^(١)] ،
 وَسَيْفُ التَّظَالُمِ تَمَسَّلُولًا ؛ عَلَى أَنَّ يَرَاعَ الْإِنْشَاءُ مُتَقَوَّلٌ ، وَيَرَاعَ الْحِسَابُ مُتَأَوَّلٌ ؛
 وَالْحَاسِبُ مُنَاقِشٌ ، وَالْمُنْثَنِيُّ أَبُو بَرَاقِشْ .

فوصف كتابة الأموال بأتم الصفات ، ونبه من شيم أهلها وشيبتهم على أكرم
 الشيم وأحسن الشيات .

فقال : هذه الحجة مُعَارَضَةٌ بِمَثَلِهَا ، بَلْ بَاطِلَةٌ مِنْ أَصْلِهَا ؛ وَأَيْنَ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ
 فِي صَدْرِ كَلَامِهِ ؟ :

«اعلموا أن صِنَاعَةَ الْإِنْشَاءِ أَرْفَعُ ، وَصِنَاعَةُ الْحِسَابِ أَنْفَعُ ؛ وَقَلَمُ الْمَكَاتِبَةِ خَاطِبُ ،
 وَقَلَمُ الْحَاسِبَةِ حَاطِبُ ؛ وَأَسَاطِيرُ الْبَلَاغَاتِ تُنْسخُ لَتُدْرَسَ ، وَدَسَائِيرُ الْحُسْبَانَاتِ تُنْسخُ
 وَتُدْرَسُ ؛ وَالْمُنْثَنِيُّ جُهَيْنَةُ الْأَخْبَارِ ، وَحَقِيقَةُ الْأَسْرَارِ ؛ وَنَجْمُ الْعُظَمَاءِ ، وَكَبِيرُ النَّدَمَاءِ ؛
 وَقَلَمُهُ لِسَانُ أَسْرَارِ الدَّوَلَةِ ، وَقَارِئُ الْجَوْلَةِ ؛ وَلَقَمَانُ الْحِكْمَةِ ، وَتَرْجَمَانُ الْهِمَّةِ ؛ وَهُوَ

البشير والنذير، والشفيح والسفير؛ به تُستخلص الصياحي، ومثلك النواصي؛ ويُقتاد العاصي، ويُستدق القاصي؛ وصاحبه يرى من التبعات، آمن كبد السعات؛ مقرط بين الجماعات، غير معرض لنظيم الجماعات» .

فهذه أرفع المراتب، وأشرف المناقب؛ التي لا يتورها شين، ولا يسوبها مين، وصندر الكلام يقتضي التزيج، ويؤذنت بالتريشيع، والرفع، أبلغ في الوصف من النفع؛ فقد يُنتفع بالزر اليسير، ولا يُرتفع إلا بالامر الكبير؛ على أنه لو اعتبر نفع كتابة الإنشاء لكان أبلغ، وإقامة الدليل عليه أسوخ؛ وأنى لكتاب الأموال، من التأثير في قل الجيوش من غير قتال، وفتح الحصون من غير زل؛ فهذه هي الخصبى التي لا تساوى، والمنقبة التي لا تُتأوى :

تلك المكارم لا قبان من لبن * شيا بماء فعاداً بعد أبوالآ !

فقلت : الآن قد انقطعت الحجة، وبانت المحجة، فما الذى يحتاج كاتب الإنشاء إلى ممارسته ؟ فقال : إذا قد تعلقت من الصنعة بأسبابها، وأتيت البيوت من أبوابها .

أعلم أن كاتب الإنشاء لا تظهر فصاحته، وتبين بلاغته، وتقوى براعته، ومجل براعته؛ إلا بعد تحصيل جملة من العلوم، ومعرفة الاصطلاح والإحاطة بالرُسوم؛ ثم أهم ما يبدأ بتحصيله، ويعتمد عليه في جملة الامر وتحصيله؛ حفظ كتاب الله العزيز الذى هو مبدئ الفصاحة، وعنصر البلاغة؛ وإدامة قراءته وتكرير معانيه، مع العلم بتفسيره وتدبر معانيه؛ حتى لا يزال دائراً على لسانه حاضراً في ذكره، ولا يترج معناه ممثلاً في قلبه مصوراً في فكره؛ ليكون مستحضراً له في الوقائع التي يحتاج إلى الاستنهاد به فيها، ويضطر إلى إقامة الأدلة القاطعة عليها؛ فله الحجة البالغة، ولاياته الأجوبة الدائمة؛ خصوصاً السير والأحكام، وما يتعلق بذلك من مهمات

الَّذِينَ وَقَوَاعِدُ الْإِسْلَامِ؛ وما اشتمل عليه كَلَامُ النُّبُوَّةِ من الألفاظ البديعة التي أبكت
 القُصَّصاءَ، والمعاني الدقيقة التي أعيت البلغاء؛ مع النظر في معانيها ومعرفة غريبها،
 والأطلاع على ما للعلماء في ذلك من الأقوال بعيدها وقريبها؛ لتكون أبداً مُجْتَمِعَةً
 ظاهراً، وأدلتها قويةً مُتَظَاهِرَةً؛ فإنَّ الدليل إذا استند إلى النص انقطع النزاعُ
 وسُلمَ المدعى ولزم، والفصاحة والبلاغة غائبتما - بعد كتاب الله تعالى - في كلام
 من أوتي جوامع الكلم؛ والعلم بالأحكام السلطانية وفروعها، وخصوصها وشيوعها؛
 والتوغل في أشعار العرب والمولدين، وأهل الصناعة من المحدثين؛ وما ورد عن كلِّ
 قريب منهم من الأمثال تراثاً ونظماً، وما جرى بينهم من المحاورات والمناقضات حرباً
 وسُلماً، والتحويل من ذلك على الأشعار البديعة التي اختارها العلماء بها، فتمسكوا
 بأوتادها وتعلقوا بسببها؛ والأمثال الغريبة التي انتقوها، ودوتوها ورووها؛ وأستباح
 الفسمين وأستكشاف غوامضها، وأستظهر النوعين واستيطار غوارضهما؛
 والأطلاع على خطب البلغاء، ورسائل القُصَّصاء؛ وما وقع لهم في مخاطباتهم،
 ومكاتباتهم؛ والعلم بأيام العرب وحروبهم، وما كان من الوقائع بين قبائلهم وشعوبهم؛
 والنظر في التواريخ وأخبار الدول الماضية، والقرون الخالية، وسير الملوك وأحوال
 الممالك، ومعرفة مكائدهم في الحرب المنقذة من المهاوى والمنجية من المهالك .

مع سعة الباع في اللغة التي هي رأس ماله، وأُسُّ مقالِه؛ وكثرة المعدل للإلتحاق،
 ومعيته بل مغيثه وقت الضرورة على الإطلاق؛ والنحو الذي هو منبعُ كلامه، ومسكُ
 ختامه، والتصرف الذي تُعرف به أصولُ أبنية الكلمة وأحوالها، وكيفية التصرف
 في أسماؤها وأفعالها، وعلوم المعاني والبيان والبدیع التي هي حلية لسانه، وآية بَيَانِه؛
 ومعرفة أبوابها وفصولها، وتحقيق فروعها وأصولها: من الفصاحة وطرائقها،
 والبلاغة ودقائقها؛ واختيار المعاني وترتيبها، ونظم الألفاظ وتركيبها؛ والفصل

وَالْوَصْلُ وَمَوَاقِعُهُمَا ، وَالتَّقْدِيمُ وَالتَّأْخِيرُ وَمَوَاضِعُهُمَا ؛ وَمَوَاطِنُ الْحَذَفِ وَالْإِحْصَارِ ، وَحُكْمُ الرُّوَابِطِ وَالْأَخْبَارِ ؛ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْحَقِيقَةِ وَالْمَجَازِ ، وَالْبَسْطِ وَالْإِيجَازِ ، وَالْحَلِّ وَالْعَقْدِ ، وَتَمْيِيزُ الْكَلَامِ جَيِّدَهُ مِنْ رَدِيئِهِ بِصِحَّةِ النَّقْدِ ؛ مَعَ مَعْرِفَةِ أَنْوَاعِ الْبَدِيعِ وَطَرَائِقِهَا ، وَالْأُطْلَاجِ عَلَى غَوَامِضِ أَسْرَارِهَا وَقَرَائِدِ دَقَائِقِهَا .

عَلَى أَنْ أَكْثَرُ شَيْءٍ يَجِبُ تَحْصِيلُهُ قَبْلَ كُلِّ حَاصِلٍ ، وَيَسْتَوِي فِي الْاِحْتِيَاجِ إِلَى مَعْرِفَتِهِ الْمَفْضُولُ مِنَ الْكُتَابِ وَالْفَاضِلُ ؛ الْعِلْمُ بِالْخَطِّ وَقَوَائِنِهِ : مِنَ الْمَجْأَةِ وَالْقِطْعِ وَالشَّكْلِ ، وَالْفَرْقِ بَيْنَ الضَّادِ وَالطَّاءِ الْمُتَخَالِفَيْنِ فِي الصُّورَةِ وَالشَّكْلِ ؛ مَعَ الْمَعْرِفَةِ بِآلَاتِ الْكِتَابَةِ وَصِفَاتِهَا ، وَتَبَايُنِ أَنْوَاعِهَا وَاخْتِلَافِ صِفَاتِهَا .

هَذِهِ أَصُولُهُ الَّتِي يُبْنَى عَلَيْهَا ، وَقَوَاعِدُهُ الَّتِي يُرْجَعُ إِلَيْهَا ؛ فَإِذَا أَحَاطَ بِهَذِهِ الْفُنُونِ عِلْمًا ، وَأَتَقَنَّا فَهْمًا ؛ غَرُرَتْ عِنْدَهُ الْمَوَادُّ ، وَأَتَضَعَّتْ لَهُ الْجَوَادُّ ؛ فَأَخَذَ فِي الْأَسْتِمْدَادِ ، وَسَهَّلَ عَلَيْهِ الْأَسْتِثْنَادَ ؛ فَقَالَ عَنْ عِلْمٍ وَتَصَرَّفَ عَنْ مَعْرِفَةٍ وَأَسْتَحْسَنَ بَيْرَهَانَ ، وَأَسْتَقْدَ بِحُجَّةٍ وَتَغَيَّرَ بِدَلِيلٍ وَصَاغَ بِتَرْتِيبٍ وَبَنَى عَلَى أَرْكَانٍ ؛ وَأَتَسَّعَ فِي الْعِبَارَةِ مَجَالُهُ ، وَفُتِحَ لَهُ مِنْ بَابِ الْأَوْصَافِ أَقْفَالُهُ ؛ وَتَلَقَّى كُلَّ وَاقِعَةٍ بِمَا يُمَاطِلُهَا ، وَقَابَلَ كُلَّ قَضِيَّةٍ بِمَا يُنَاسِلُهَا ؛ وَعَلِمَ الْمُحْيِدَ فَنَسَجَ عَلَى مَنَوَالِهِ ، وَظَهَرَ لَهُ الْقَاصِرُ فَأَعْرَضَ عَنْ أَقْوَالِهِ ؛ وَحَصَلَ لَهُ الْقُوَّةُ عَلَى فَهْمِ الْخَطَابِ ، وَأُنْشَأَ الْجَوَابَ بِحَسَبِ الْوَقَائِعِ وَالْأَعْرَاضِ ، عَلَى طَبَقِ الْمَقَاصِدِ وَالْأَعْرَاضِ ؛ وَمَتَى أَخْلَى بَنَى مِنْ ذَلِكَ فَاتَتْهُ الْقَضَائِلُ ، وَصَلَقَتْ بِهِ الرِّذَائِلُ ؛ وَقَلَّتْ بَضَاعَتُهُ ، وَتَقَصَّتْ صِنَاعَتُهُ ؛ وَسَاءَتْ آثَارُهُ ، وَقَبِحَتْ أَخْبَارُهُ ؛ وَخَلَطَ الْغُرُورَ بِالْعُرْرِ ، وَلَمْ يُمَيِّزْ بَيْنَ الصَّدْفِ وَالذَّرَرِ ؛ فَأَخْرَجَ الصَّنْعَةَ عَنْ أَمَّاكِئِهَا ، وَطَمَسَ مِنَ الْكِتَابَةِ وَجُوهَ مُحَاسِنِهَا ؛ بَجَرِ اللَّوْمِ إِلَى نَفْسِهِ ، وَأَمْعَى مَهْرَاقَةَ لَا بُنْيَاءَ جَنِيهِهِ .

وَوَرَاءَ ذَلِكَ عُلُومٌ هِيَ كَالنَّافِلَةِ لِلْكَتَابِ ، وَالزَّيَادَةُ لِلرَّغَابِ :

مِنْهَا مَا تَكْمُلُ بِهِ صِنَاعَتُهُ ، وَتَعْظُمُ بِهِ مَكَائِنُهُ : كَعِلْمِ الْكَلَامِ ، وَأَصُولِ الْفَقْهِ
وَسَائِرِ الْأَحْكَامِ ؛ وَالْمَنْطِقِ وَالْجَدَلِ ، وَأَحْوَالِ الْفِرَقِ وَالنَّحْلِ وَالْمَالِ ؛ وَعِلْمِ الْعُرُوضِ
وَالْمِيزَانِ الْمُحْكَمِ ، وَعِلْمِ الْقَوَائِي وَحَلِّ الْمُتَرَجِّمِ ؛ وَالْحِسَابِ الْمَفْتُوحِ وَمَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ مِنْ
الْمُعَامَلَةِ ، وَمَا تُسْتَخْرَجُ بِهِ الْمَجْهُولَاتُ : مِنْ حِسَابِ الْخَطَايِنِ وَالْذَّرْهِمِ وَالْدِّينَارِ وَالْجَعْفَرِ
وَالْمُقَابَلَةِ ؛ وَحِسَابِ الدُّورِ وَالْوَصَايَا ، وَالتَّخْتِ وَالْمَيْلِ وَمَا لَأَعْمَالِهِ عَلَى غَيْرِهَا مِنْ
الْمِيزَانِ ؛ وَالْعِلْمِ بِالْفَلَاحَةِ ، وَأَحْوَالِ الْمِسَاحَةِ ؛ وَعِلْمِ عُقُودِ الْأُثْنِيَةِ وَالْمَنَاظِرِ الْمَحْقَقَةِ ،
وَمَرَائِكِ الْأَنْثَمَالِ وَالْمَرَائِيَا الْمُخْرِقَةِ ؛ وَعِلْمِ جَرِّ الْأَنْثَمَالِ الْأَبْيَةِ ، وَالْعِلْمِ بِالْآلَاتِ الْحَرَبِيَّةِ ؛
وَعِلْمِ الْمَوَاقِفِ وَالْإِنْكَامَاتِ ، وَالتَّقَاوِيمِ وَالزَّيْجَاتِ ؛ وَعِلْمِ تَسْطِيجِ الْكُرَّةِ وَالتَّوَصُّلِ بِهَا
إِلَى اسْتِخْرَاجِ الْمَطَالِبِ الْفَلَكِيَّةِ ، وَكَيْفِيَةِ الْأَرْصَادِ وَأَحْكَامِ النُّجُومِ وَالْآلَاتِ الظَّلِيلَةِ ؛
وَعِلْمِ الطَّبِّ وَالْيَيْطَرَةِ ، وَأَحْوَالِ سَائِرِ الْحَيَوَانِ وَعِلْمِ الْبَيْزَرَةِ .

وَمِنْهَا مَا تَكْمُلُ بِهِ ذَاتُهُ ، وَتَتِمُّ بِهِ أَدَوَاتُهُ ؛ كَعِلْمِ التَّعْبِيرِ وَعِلْمِ الْأَخْلَاقِ وَعِلْمِ السِّيَاسَةِ ،
وَعِلْمِ تَدْيِيرِ الْمَثَلِ وَعِلْمِ الْفِرَاسَةِ . وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْعُلُومِ الَّتِي أَضْرَبْنَا عَنْ ذِكْرِهَا خَشْيَةَ
الْإِطَالَةِ ، وَأَعْرَضْنَا عَنْ إِبْرَادِهَا خَوْفَ الْمَلَالَةِ ؛ فَهَذِهِ عُلُومٌ فَضْلَةٌ يَهْتَمُّ بِعِلْمِهَا
أَمْرُهُ ، وَفَضِيلَةٌ يَرْتَفِعُ بِتَحْصِيلِهَا ذِكْرُهَا ؛ بَلْ لَا يَسْتَعْنِي عَنِ الْعِلْمِ بِرُؤُوسِ مَسَائِلِهَا ،
وَإِشَارَاتِ أَرْبَابِهَا الْآخِذَةِ مِنْ بِحَارِهَا بِأَطْرَافِ سَوَاحِلِهَا ؛ عَلَى أَنَّهُ قَدْ تَرَدَّدَ عَلَيْهِ
أَوْقَاتٌ لَا يَسَعُهُ جَهْلُ ذَلِكَ فِيهَا ، وَتَمَزُّ عَلَيْهِ أَزْمَانٌ يَوْدُ لَوْ تُسْتَرَى فَيَشْتَرِيهَا .

قُلْتُ : قَدْ بَانَ لِي عُلُومُهَا ، فَمَا رُسُومُهَا ؟ . قَالَ : إِنْ أَعْبَاهَا لِبَاهِظَةِ حَمَلَا ،
وَأَمَّا لَكَيْفَةُ إِلَّا ؛ وَلَكِنْ سَأَحْدُثُ لَكَ مِمَّا سَأَلْتَ ذِكْرًا ، وَأَنْبِئُكَ بِمَا لَمْ تُحِطْ
بِهِ خُبْرًا .

فمن ذلك : المعرفة بالولايات ولواحيها ، على اختلاف مقاصدها وتباين طرائقها ؛
من البيعات وأحكامها ، والعهود وأقسامها ؛ والتقاليد وصفاتها ، والتفاويض
ومضاهاها ؛ والمراسيم وأوضاعها ، والتواقيع وأنواعها ؛ والخطب ومناسباتها ،
والوصايا ومطابقتها ؛ ثم العلم بالمتناسير ومرائنها ، والمربعات الحشيشية ومعانيها ؛
ومعرفة رتب المكاتبات وطبقاتها ، ومن يستحق من الرتب أذناها أو يستوجب
الرفع إلى أعلى درجتها ؛ من المكاتبات الصادرة عن الأبواب الشريفة الخليفة ،
والمكاتبات الواردة عليها وعلى أرباب المتأصّب من سائر الآل والعشيرة النبوية ؛
وملوك المسلمين والقنات ، وملوك الكفر وأرباب الديانات ؛ وأهل المملكة من
النواب والكشاف والولاء ، والأمراء والوزراء والعربان والقضاء ، وسائر حملة
الأفلام ، وأهل الصلاح وبقية الأعلام ؛ ونساء الملوك والخوندات ، ومكاتبات
التجار وما عساه يطرأ من المكاتبات المستعجلات ؛ وكُتب البشرى بالجلوس على
التخت والفتح والظفر ، والبشرى بوفاء النيل والقُدوم من الغزو والسفر ؛ واسترحاف
العزائم ، والبطائق المحمّولة على أجنحة الحمام ؛ والمُلطفات التي يُضطر إليها ، ويُعوّل
في الأمور الباطنة عليها ؛ وأوراق الجواز في الطرقات ، والإطلاقات في التسفير
والمثالات المطلقات ؛ ومعرفة الأوصاف التي يكثر في المكاتبات تكرارها ، ويتسّق
في جيد المراسلات إيرادها وإصدارها ؛ كوصف الأنواء والكواكب ، والأفلاك
العالية المراتب ؛ والآلات الملوكية الحليّة المقدّار ، والسلاح وآلات الحصار ؛
والخيل المسوّمة ، والحواريح المؤلّمة ؛ وجليل الوحش وسباعه ، وطير الواجب
وأشباعه ؛ والأمكنة والرياض ، والمياه والفيض ؛ وغير ذلك مما يعزّ ويقلّ ، ويرتفع
ويعلو ؛ وإخوانيات المكاتبات وطبقاتها ، وتميز كلّ طبقة منها عن أخواتها ؛
وما تشتمل عليه من الابتداء والجواب ، والتشويق والعتاب ؛ والترقي والاعتذار ،

والشفاعة وطلب الصفح والصفو عند الأقدار؛ والتَّهَانِي والتَّعَاذِي، وما يكتب مع الهدية ويحاطب عنها من المجازي وغير المجازي .

وغير ذلك من مقاصد المكاتبات التي يتعدَّدُ حَصْرُها، ويمتنعُ على المُستَقْصِي ذكرُها، ومعرفة الطُّغْرَاءِ والطَّرَةِ والعُنُوتِ والتَّعْرِيفِ، والعلامة في الكُتُبِ على أُمَّاكِهَا الفارقة بين انحطاط القَدْرِ والتَّشْرِيفِ؛ وتَرْبِيبِ الكِتَابِ وَطَبْخِهِ وَخَتْمِهِ، وتعمية ما في الكُتُبِ بضرب من الحيلة وإخفاء ذلك وكنهه؛ ونُسخِ الأَيِّمَانِ التي يُستَحْلَفُ بها، وتُبَسِّكُ للوَقَاءِ بِسَبَبِهَا؛ كَيَمِينِ البَيْعَةِ العامَّةِ للوَاقِفِ والمُخَالِفِ، وما يختص من ذلك بالنُّوَابِ وأُرَبَابِ الوُظَائِفِ؛ وأَيِّمَانِ أَصْحَابِ الدِّعِ والأَهْوَاءِ، وأَهْلِ الْمَلَلِ والحُكْمَاءِ؛ وَكِتَابَةِ الْهُدُنِ والمُؤَاصِفَاتِ، والأَمَانَاتِ والدِّقْنِ والمُفَاسَّخَاتِ؛ ومعرفة الأسماء والكنى والألقاب، وبيان المستندات ومحلها المصطلح عليه بين الكُتَّابِ؛ وَكِتَابَةِ التَّارِيخِ وما أخذت به كلُّ طائفة وثابت إليه تَمَسُّكًا، وما يفتتح به في الكتابة تَيَمُّنًا ويمتنع به تَبَرُّكًا؛ ومعرفة قَطْعِ الْوَرَقِ : من كَامِلِ الْبَغْدَادِيِّ والشَّامِيِّ والتُّلُثَيْنِ والنَّصَفِ والتُّلُثِ والمنصوري والعَادَةِ، ومن يستحق من هذه المقادير أعلاها أو يُوقَفُ به مع أدنى رُتَبِهَا من غير زياده؛ والأَقْلَامِ المناسبة لهذه الأقدار، من الرِّقَاعِ والتَّوَاقِيعِ والتُّلُثِ ومُخْتَصَرِ الطُّومَارِ؛ والعِلْمِ بالأوضاع وكيفية الترتيب، ومقادير البياض ومُبَاعَدَةِ مَا بَيْنَ السُّطُورِ والتقريب؛ ومعرفة الرِّزَادِيقِ وَقُطَانِهَا، والنَّوَاحِي والْبُلْدَانِ وَسُكَّانِهَا؛ والأَئِمِّ وَمَسَالِكِهَا، وطُرُقِ الْأَقَالِيمِ وَمَسَالِكِهَا؛ وَمَرَاكِزِ الْبَرِيدِ وَمَسَافَاتِهَا، وأَبْرَاجِ الْحَمَامِ وَمَطَارَاتِهَا؛ وَهَيْئِ النَّجْمِ وَالسُّفُنِ الْمُعَدَّةِ لِنَقْلِهِ، والمُخْرِقَاتِ الْمُؤَدِّيَةِ إِلَى أَجْتِيَاحِ الْعَدُوِّ وَتَفْرِيقِ شَمْلِهِ؛ وَالْمَنَآوِرِ وَأَمَاكِنِهَا، وَالْقَصَادِ وَمَكَانِهَا .

هذه رؤسوها على سبيل الإجمال، والإشارة إلى مصطلحاتها بأخصر الأقوال .
 وأعلم أن حُسْنَ الخطِّ من الكتابة واسطة عقيدها، وقوة الملكة على السجع
 والأزواج ممالك حلها وعقيدها، على أن خير الخط ما قرى، وأحسن السجع ما سلم
 من التكلف ويرى، والكاتب في بحر الكتابة سنج طويل، وتفنن يسفر عن كل
 وجه جميل .

قلت: فهل لهذه الرتبة الرئيسة، والمتقية النفيسة، سبط يأملها، أو سلك يضمها؟
 فقال: سبحان الله: إن بيتها لأشهر من قفانك، وأظهر للبيان من شاحات جبال
 النبك؛ أيغنى من البدر ضوءه الباهر، ونوره الزاهر؟ إن ذلك لقاصر على
 «آل فضل الله» حقاً، ومُنحصر في المقرّ البدرى صدفاً؛ فهو قطبها الذي تدور
 نايه، وأبنت بجدتها التي ترجع في علومها ورؤسوها وسائر أمورها إليه؛ فلوراه
 «الفاضل عبد الرحيم» لم يرتفع فضلاً ولا رضى لفيه مقالا، أو عاينه «عبد الحميد
 الكاتب» ليقال: هكذا هكذا وإلا فلا؛ أو عاصره «قدامة» لجلس قدامة،
 أو أدركه «أبن قتيبة» لآخذ في «أدب الكاتب» شيخه وإمامه؛ أو بصر به
 «الصابي» لصبا إليه ومال، أو قارن زمانه «الحسن بن سهل» بل «الفضل» أخوه
 لأقام ببابه وما زال؛ أو جنح «أبن الصديم» إلى مناوئته لأدركه القدم، أو جرى
 «الصاحب بن عباد» في مضار فضله لجا وزلت به القدم؛ أو أطلع «أبن مقلة»
 على حُسْن خطه لقال: هذا هو الجوهر الثمين، أو نظر «أبن هلال» إلى بهجة
 روقه لقال: إن هذا هو الفضل الميّن؛ إن تكلمت فث سحرا، أو كتب خلت زهرا
 أو تحيّل دُرا:

يؤلف اللؤلؤ المنشور منقطه، * وينظم الدرّ بالأفلام في الكتب!

قد علّا نسباً ، وفاق حسباً ؛ وورث الفضل لا عن كلاله ، واستحقّ الرتبة بنفسه
وإن كانت له بالأصالة :

خَيْرٌ سَلًا بِالْمَكْرَمَاتِ وَبِالْعُلَى ، * وَحَيْلًا بِالْفَضْلِ وَالسُّؤْدِدِ الْمُحِضِ !
فلما سمعتُ ذلك زال عني الإلباس ، وقلتُ : ذلك من فضلِ الله علينا وعلى
النَّاسِ . ثم قلتُ : أقسمتُ عليك بالذي تُشِيرُ إليه ، إلا تدلّني عليه ؟ فقال : إنّه
صَنَى الْمَلِيلَ وَنَجَّيَهُ ، وَكَاتِبَ سِرِّهِ وَوَلِيَّهُ ، وَالْقَرِيبُ مِنْهُ إِذَا بَعُدُوا ، وَالْمُخْصِصُ بِالْمَقَامِ
إِذَا طُرِدُوا ، وَالْمَوْجَّهُ إِلَيْهِ الْخِطَابُ إِذَا حَضَرُوا ، وَالْمُسْتَأْثَرُ بِالْوُرُودِ إِذَا صَدَرُوا ،
وَالْمُنْتَكَمُ بِلِسَانِ الْمَلِكِ إِذَا سَكَتُوا ، وَالنَّاطِقُ بِفَضْلِ الْخِطَابِ إِذَا بُهِتُوا ، وَالصَّائِلُ
بِحَسَامِ لِسَانِهِ وَخَطَّ قَلْبِهِ ، وَالْحَامِي الْمَالِكِ بِجُيُوشِ سُطُورِهِ وَجُنْدِ كَيْدِهِ ، وَالْمُسْتَشْتِ
تَحْتَمِلُ الْعَدُوَّ بِذِيْعِ الْفَاظِلِ وَدَقِيقِ حِكْمِهِ ، وَالْحَائِزُ قَصَبَ السَّبْقِ بِكَرَمِ فَضْلِهِ وَفَضْلِ
كَرَمِهِ ، وَالْمُرَوِّى ظَمًا الْوَافِدِينَ إِلَيْهِ بِوَاكِفِ وَبَلِّهِ وَفَائِضِ دِيَمِيهِ ، وَالْمُجَلِّي غِيَابِهِ
الظُّلَمَ بِنَيْرِ بَدْرِهِ وَمُضَيَّءِ أَنْجُمِهِ :

فما زالَ بَدْرًا فِي سَمَاءِ سَيَادَةٍ * يُشَارُ إِلَيْهِ فِي الْوَرَى بِالْأَنَامِلِ :
بَسِيطَ مَسَاعِي الْمَجْدِ يَرْكَبُ نَجْدَةً * مِنْ الشَّرَفِ الْأَعْلَى وَبَذَلِ الْفَوَاضِلِ ؛
إِذَا سَالَ أَعْيَى السَّامِعِينَ جَوَابُهُ * وَإِنْ قَالَ لَمْ يَتْرُكْ مَقَالًا لِقَائِلِ !
قلتُ : حَسْبُكَ ! قد دلّني عليه عَرَفُهُ ، وَأَرْشَدَنِي إِلَيْهِ وَصْفُهُ ، وَبَانَ لِي مَحْنَدُهُ
الْقَائِمُ وَحَسَبُهُ الصِّمِيمُ ، وَعَرَفْتُ أَصْلَهُ الزَّاكِي وَفَرَعَهُ الْكَرِيمُ ، (ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ
مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) .

ثم عَرَجْتُ إِلَى حِمَاهُ ، وَمَلْتُ إِلَى حَيْهَ كَيْ أَرَاهُ ، فَإِذَا بِهِ قَدْ بَرَزَ تَلَالُأُ أَنْوَارِهِ ،
وَتَشْرِيقُ بِالْجَلَالَةِ أَقْفَارُهُ ؛ قَدْ عَاتَنَهُ الْهَيْبَةُ وَغَشِيَتْهُ السَّكِينَةُ وَحَقَّقَتْهُ الرِّيَاضَةُ وَجَلَّلَتْهُ
السَّعَادَةُ ، وَحَكَمَتْ بِعِزِّ مَنَالِ قَدَرِهِ الْأَفْدَارُ كَمَا آفَقَتْهُ الْإِرَادَةُ .

فلما رأيتُه استصغرتُ الرتبةَ مع شرفِها الباذخ في جانبِهِ ، وعلمتُ أن ما تقدّمَ من المدح لم يُوفِّ حقَّه ولم يَقمَ ببعضِ وِاجِبِهِ ؛ فنَلَبَّتْ هَيْبَتُهُ إقْدَامِي ، وحالتُ حُرْمَتُهُ بَيْنِي وَبَيْنَ مَرَامِي ؛ فقلتُ : إنا لله ! قد قَانَتْنِي مَارِي ، ورجعتُ من قَوْرِي إلى صَاحِبِي ؛ فأظهرتُ له الأسفَ ، وقصَصْتُ عليه القِصَّةَ قال : لا تَحْزَنُ ؛ إنها لَمَقْبَةُ عُمَيْرِيَّةَ ، وأثرُهُ عَدَوِيَّةُ ؛ فالقَارُوقُ جَدُّهُ ، وَبَنُو عَدِيٍّ قَيْسِلُهُ وَجُدُّهُ .

هذا وإنَّهُ لألطفُ وأرقُّ من النَّسيمِ السَّارِي ، والماءِ الجَارِي ؛ وأخْبَى من العَذْرَاءِ في خِدْرِهَا ، وأشفقُ من الوَالِدَةِ إِذَا صَمَّتْ وَلَدَهَا إلى صَدْرِهَا ؛ وأحلمُ من « معنِ بنِ زَائِدِهِ » ، وإن كان أنصَحَ من « قُتَيْبِ بنِ سَاعِدِهِ » :

يُنْفِضِي حَيَاءً وَيُنْفِضِي مِنْ مَهَابَتِهِ « فَمَلَا يُكَلِّمُ إِلَّا حِينَ يَنْتَسِمُ !

بالعزائمِ القَارُوقِيَّةِ فَتَحَتِ الْأَمْصَارُ ، وبالهَيْبَةِ العُمَيْرِيَّةِ أَقْرَبَ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ ؛ ويشهدُ لذلك قِصَّةُ « أَبِي عَبَّاسٍ » فِي الْعَوْلِ وَسُكُونِهِ فِي خِلَافَةِ عُمَرَ وَصَمْتِهِ ، وجوابُهُ بعد ذلك للقاتلِ له : هَلَّا قُلْتَ ذَلِكَ فِي زَمَنِ عُمَرَ ؟ بقوله : إِنَّهُ كَانَ مَهِيئًا فَهَيْبَتُهُ ؛ كيف ؟ وما سَلَكَ بَغْيًا إِلَّا وَسَلَكَ الشَّيْطَانُ بَغْيًا غَيْرَ بَغْيِهِ وَضَاقَتْ عَلَيْهِ الْفِجَاجُ ، ولم يُسَآئِلْ هَيْبَتَهُ بَهِيَّةَ غَيْرِهِ وَإِنْ عَظُمَتْ سَطَوَتُهُ حَتَّى قَالَ الشَّعْبِيُّ : إِنْ دَرَّةَ عُمَرَ لَأَقْيَبُ مِنْ سَيْفِ الْحِجَابِ ؛ وهو مع ذلك يَلُطِّفُ بِالْأَرَامِلِ وَالْمَسَاكِينِ ، وَيُعِينُ الْفُقَرَاءَ وَالْمُحْتَاجِينَ ؛ فقد أَتَضَعَّتْ لِكَ الْقَيْصِيَّةِ ، وَتَحَقَّقَتْ أَنَّهَا سِمَاتُ إِرْتِيَةِ .

فعند ذلك ذَهَبَ رَوَيْحِي ، وَقَوِيَ رُوَيْحِي ؛ وقلتُ : فهل له أَنْبَاعُ مِنَ الْكُتَّابِ فَاتَعَلَّقَ بِجِبَاهِهِمْ ، وَأَتَأَسَّى بِهِمْ فِي أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ ؟ ؛ لَكِي أَلْتَسِمَ بِسِمَةِ الْكُتَّابِ ، وَأُثْبِتَ فِي جُحْلَةِ غِلْمَانِ الْبَابِ ؛ قال : أَجَلُ ! رَأْسُ الدِّمَنِ الشَّرِيفِ صُنُوهُ الْكَرِيمِ ، وَقَيْسِمُهُ فِي حَسَنِ الصِّمِيمِ ؛ بِهِ شُدَّ عَضْدُهُ ، وَقَوِيَ كَتِيدُهُ ؛ فَاجْتَمَعَ الْقَضْلُ لَهُ

ولأخيه ، وورثا سرّ أبيهما « والولد سرّ أبيه » ؛ ثم كُتِبَ ديوانُ الإنشاء جُنْدَه
وأنشأه ، وأولياؤه وأشياؤه ؛ وكُتِبَ الدّست منهم أرفعُ في المقام ، وكُتِبَ الدّرج
أجدرُ بالكتابة وصنعة الكلام .

قلتُ : القسمُ الثاني أُلِيقَ بمقداري ، وأقربُ إلى أوطاري ؛ ثم ودّعتُ صاحبي
شاكراً له على صنيعه وحامداً له على أدبه ، وتركته ومضيتُ وكان ذلك آخر العهدِ
به ؛ ثم عدتُ إليه هو فرقتُ إليه قصتي ، وسألته الإسعافَ بإجابة دعوتي ؛
فقابلها بالقبول ، وأنعمَ بالسُّؤل ، وقرّرني في كتابة الدّرج الشّريف ، وأكثفني
بالعرف عن التعريف ؛ وطابق الخبر الخبر ، وأسفّنتُ بالبيان عن الأثر ؛ ثم مُتُّ
عجلاً ، وأنشدتُ مرّجلاً :

إذا ما بنو الفاروق في المحلِّد أعرفوا ، * ونالوا بفضلِ الله ما لا كِشَلِه ،
وجلّتْ دُجَى الظّلماءِ أنوارُ بدرهم ، * وعمّتْ بِقَاعِ الأرضِ أنواءُ قُضَلِه ،
تعلّتْ دُورَى العلياءِ فيهم وأنشدتْ : * أبى الفضلُ إلّا أن يَكُونَ لِمِثْلِه !

ثم تشرفتُ بتقبيل يده ، ومضيتُ إلى ما أنا بصددِه ؛ قد منّعتني هيتي من اللّياذِ
به والقُربِ إليه ، وصيرتُ عاطرَ مدحِي وخالِصَ أدعيتي وقفاً عليه ؛ وصيرتُ إلى
الديوان ، فوجدتُ قوما قد حَفَّهم الحُسنُ وزانهم الإحسان ؛ فقلتُ : الحمد لله !
هؤلاءِ فِتْيةُ ذاك الكهفِ بلا أمّراء ، وأشبَالُ ذاك الأسدِ من غيرِ أمّراء ؛ فجلستُ
جُلوسَ القريب ، وأطرتُ أطراقَ الكَيْبِ ؛ إذ كُنْتُ في هذه الصّنعَةِ عصامياً
لا عظامياً ، ومُتَمِّماً لا تَهَامِياً ؛ غيرَ أني تعلقْتُ منها بحبال القمر ، وأسوقُ قد نارها
من أصغرِ الشررِ ؛ فتلقوني بالرحب ، وأحلّوني من ديوانهم بالمكانِ الرَّحْبِ ؛ وقابلوني
بالجميل قبل المَعْرِفِ ، وعاملوني بالإحسان والنّصفه .

فلما رأيتُ ذلك منهم حَدِثُ مَسْرَى ، وشكُرتُ مَسْنَى ؛ ودَعَوْتُ لِصَاحِبِي أَوَّلًا
إِذْ حَبَّبَ صَنَعَتَهُمْ إِلَيَّ وَشَاقَنِي ، ودَلَّنِي عَلَيْهِمْ وَسَاقَنِي .

ولما تَحَقَّقْتُ أَنِّي قَدْ أَتَيْتُ فِي دِيَوَانِهِ ، وَكُنْتُ مِنْ جُمْلَةِ غُلَامَانِهِ ؛ رَجَعْتُ
الْقَهْقَرَى عَنْ طَلَبِ الْكَسْبِ ، وَأَسْتَوَيْتُ عِنْدِي الْمَحَلُّ وَالْخَصْبُ ؛ وَآكَنْفَيْتُ
بِنَظَرِي إِلَيْهِ عَنِ الطَّاهِمِ وَالذُّرَابِ ، وَتَيَقَّنْتُ أَنَّ نَظْرَةَ مَنْهُ إِلَى تَرْقِيئِي إِلَى السَّحَابِ ؛
وَتَلَوْتُ بِلسَانِ الصَّدِّيقِ عَلَى الْمَلَأِ وَهُمْ يَسْمَعُونَ : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ
فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ .

وفيا تَضَمُّنَتِهِ هَذِهِ الْمَقَامَةَ مِنْ فَضْلِ الْكِتَابَةِ وَشَرَفِ الْكُتَّابِ مَقْنَعٌ مِنْ غَيْرِهَا ،
وَمُقْنَعٌ عَنْ سِوَاهَا ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَالْمِنَّةُ .



وهذه نُسخة مَقَامَةٍ أَنشأَهَا أَبُو الْقَاسِمِ الْخَوَارِزْمِيُّ فِي لِفَائِهِ لِأَدِيبٍ يَعْرِفُ بِالْهَيْبَةِ ،
وَأَنْقَطَاعِهِ فِي الْبَحْثِ ، وَغَلِيَّةِ الْخَوَارِزْمِيِّ لَهُ . أوردَهَا أَبُو حَمْدُونٌ فِي "تَذَكُّرَتِهِ" وَهِيَ :
وَصِيَّةٌ لِكُلِّ لَيْبٍ ، مُتَبَقِّظٌ أَرِيبٌ ، عَالِمٌ أَدِيبٌ ؛ يَكْرَهُ مُوَاقِفَ السَّقَطَاتِ ، وَتَحْفَظُفُ
مِنْ مَصَادِفِ الْفَلَّطَاتِ ، وَتَتَلَطَّفُ مِنْ مُخْزِيَّاتِ الْقَرَطَاتِ ؛ أَنْ يَدْعَى دُونَ مَقَامِهِ ،
وَيَقْتَصِرَ مِنْ تَعَامِهِ ، وَيَنْفَضَّ مِنْ سِيَاهِهِ ؛ وَيُظْهِرَ بَعْضَ شِكِيمَتِهِ ، وَيُسَاوِمَ بِأُتْسِرَ
قِيمَتِهِ ، وَيَسْتَرْ كَثِيرًا مِنْ بَضَائِعِهِ ، وَيَكْتُمُ دَقِيقَ صِنَاعَتِهِ ، وَلَا يَبْلُغُ دَقِيقَ غَايَةِ
أَسْطِطَاعَتِهِ ؛ وَأَنْ يُعَاشِرَ النَّاسَ بِصَدِّقِ الْمُنَاسَحَةِ ، وَبِجَمِيلِ الْمُسَاسَعَةِ ؛ وَأَنْ لَا يَتَحَمَّلَ
الْإِعْجَابُ بِمَا يُحْسِنُهُ ، عَلَى الْأَزْدَرَاءِ بِنِ تَسْتَقْرِئُهُ ، وَالْأَفْتَرَاءِ عَلَى مَنْ يَسْتَرْضُهُ وَيُلْسِنُهُ ؛
لِيَكُونَ خُبْرُهُ أَكْثَرَ مِنْ خَبْرِهِ ، وَنَظَرُهُ أَرْوَعَ مِنْ مَنْظَرِهِ ؛ وَيَكُونَ أَقْرَبَ مِنَ الْإِعْتِدَارِ ،
وَأَبْعَدَ مِنَ التَّجَلُّلِ وَالْإِنْكَسَارِ .

فليس القَيُّ من قال: إني أنا القَيُّ، * وليكنه من قيل: أنت كذلكا.

وكم مُدَجِّجٌ مَلَكًا بنسبٍ شَهَادَةٍ * له نَجَلَةٌ إن قيل: أن لَسَبَ مَالِكَا!

ولقد نُصِرْتُ بالانِّضَاعِ، على ذى نَبَاهَةٍ وَارْتِفَاعٍ، وذلك أنى أَصَعَدْتُ فى بعض
الأعوام، مع جماعة من العَوَامِ، بين تَاجِرٍ وَزَائِرٍ، إلى العَزَلِ والحائِزِ، حتى أَتَيْتُنَا
إلى قَرْيَةٍ شَارِعِهِ، أَهْلِيَّةٍ زَارِعِهِ، وما مِنَّا إلَّا من أُمَّتِهِ السُّمَرِيَّةِ فَأَعْرَضَتْهُ،
وَأَسْقَمَتْهُ وَأَمْرَضَتْهُ، وَقَرَّتْهُ فَقَبَضَتْهُ، وَكَثُرَ مِنَ الْجَوَارِ، وَأَسْتَوْلَى عَلَيْنَا الدُّوَارُ،
فَخَرَجْنَا مِنْهَا تُرُوجَ الْمَسْجُونِ، وَقَدْ تَقَوَّسْنَا تَقَوُّسَ الْمُرْجُونِ، فَأَسْرَحْنَا بِالصُّعُودِ،
من طُولِ الْقُعُودِ:

كَأَنَّا الطَّيْرَ مِنَ الْإِفْقَاصِ * نَاجِيَةً من أَجْبَلِ الْقَنَاصِ،

طَيِّبَةَ الْأَنْفُسِ بِالْخَلَاصِ * مُنْفَضَاتِ الرِّيشِ وَالنَّوَاصِ!

فَمَا اسْتَمْتَمَتِ الرَّاحَةُ، وَلَا اسْتَقَرَّتْ بِنَا الرَّاحَةُ، حَتَّى وَقَفَ عَلَيْنَا وَاقِفٌ، وَهَتَفَ
بِنَا هَاتِفٌ، أَيُّكُمْ الْخَوَارِزْمِيُّ؟ فَقَالُوا لَهُ: ذَلِكَ الْفُلَامُ الْمُنْفِرُ، وَالشَّابُّ الْمُسْتَنْدِ،
فَأَقْبَلَ إِلَى، وَسَلَّمْ عَلَى، وَقَالَ: إِنْ النَّاطِرُ يَسْتَرِيرُكَ، فَلْيُعْجَلْ إِلَيْهِ مَصِيرُكَ، فَقَمْتُ
مَعَهُ، يَتَقَدَّمُنِي وَأَتَّبَعُهُ، حَتَّى آتَيْتُنِي إِلَى جِلَّةٍ مِنَ الرِّجَالِ، ذَوِي هَيْئَةٍ وَجَلَالٍ،
وَزِينَةٍ وَجَمَالٍ، مِنْ أَشْرَافِ الْأَمْصَارِ، وَأَعْيَانِ ذَوِي الْأَخْطَارِ، مِنْ أَهْلِ وَاسِطٍ
وَبَغْدَادٍ، وَالبَصْرَةِ وَالسَّوَادِ.

تَرَى كُلَّ مَرْهُوبٍ الْعَامَةِ لَا يَمُنُّ * عَلَى وَجْهِ بَدْرٍ تَحْتَهُ قَلْبٌ ضَيِّعٌ!

فَقَامَ إِلَى ذُو الْمَعْرِفَةِ لِإِكْرَامِهِ، وَسَاعَدَهُ الْبَاقُونَ عَلَى قِيَامِهِ، وَأَطَالَ فِي سُؤَالِهِ
وَسَلَامِهِ، وَجَدَّيُونِي إِلَى صَدْرِ الْمَجْلِسِ فَأَبَيْتُ، وَلَزِمْتُ ذُنَابَاهُ وَأَحْبَبْتُ، وَأَخَذُوا

يَسْتَحِرُّونِي عَنِ الْحَالِ، وَالْمَعِيشَةِ وَالْمَالِ؛ وَدَاعِيَةِ الْإِرْتِحَالِ؛ وَعَنِ النَّيَّةِ وَالْمَقْصَدِ،
وَالْأَهْلِ وَالْوَلَدِ، وَالْجِهَانِ وَالْبَلَدِ .

وَمَا مِنْهُمْ إِلَّا حَفِيَّ مُسَائِلٌ، * وَوَاصِفُ أَشْوَاقٍ وَمُثْنٍ بِصَالِحٍ،
وَمُسْتَشْفِعٌ فِي أَنْ أُقِمَّ لَيَالِيَا * أَرْوَحُ وَأَغْدُو عِنْدَهُ غَيْرَ بَارِحٍ !

ثم قال قائلهم : هل لقيت عَيْنَ الزَّمَانِ وَقَلْبَهُ، وَمَالِكَ الْفَضْلِ وَرَبَّهُ، وَقَلِيبَ الْأَدَبِ
وَعَرْبَهُ ؛ إِمَامَ الْعِرَاقِ، وَشَمْسَ الْآفَاقِ ؟ . فقلتُ : وَمَنْ صَاحِبُ هَذِهِ الصِّفَةِ الْمَهْوَلَةِ،
وَالْكَأَنِيَةِ الْمَجْهُولَةِ ؛ فَقَالُوا : أَوْ مَا سَمِعْتَ بِكَامِلِ هَيْتِ، ذِي الصَّوْتِ وَالصَّيْتِ ؟ :

ذَلِكَ الَّذِي لَوْعَاشَ [دَهْرًا] إِلَى * زَمَانِهِ ذَا وَأَبْنُ صُوحَانَ،
وَأَبْنُ دُرَيْدٍ وَأَبُو حَاتِمٍ * وَسَيَّوِيهِ وَأَبْنُ سَعْدَانَ،
وَعَامِرُ الشَّعْبِيِّ وَأَبْنُ الْعَلَا * وَأَبْنُ كُرَيْزٍ وَأَبْنُ صَفْوَانَ .
قَالُوا بِحَبَابٍ كُلُّهُمْ : إِنَّهُ * سَيِّدُنَا، أَوْ قَالَ : غِلْمَانِي .

فقلتُ لهم : قَدْ قَلَّدْتُمْ الْمِنَّةَ، وَهَيَّجْتُمْ الْحَنَّةَ ؛ إِلَى لِقَاءِ هَذَا الْعَالِمِ الْمَذْكُورِ، وَالسَّيِّدِ
الْمَشْهُورِ ؛ وَقَدْ كَانَتِ الرِّيَاحُ تَأْتِيُنِي بِنَفْحَاتِ هَذَا الطَّيِّبِ ، وَهَدْرِ هَذَا الْخَطِيبِ ؛
فَالآنَ لَا أَتَرَى بَعْدَ عَيْنٍ ، سَأَصْبَحُ لِأَجَلِهِ عَنْ سُرَى الْقَيْنِ ؛ أَغْنِيَانَا لِلْفَسَادِ ، وَالنِّعَمِ
الْبَارِدَةِ، وَوُجْدَانَا لِلضَّلَالَةِ الشَّارِدَةِ .

أَيْنَ أَمِضِي وَمَا الَّذِي أَنَا أَبْنِي * بَعْدَ إِدْرَاكِ الْمُنَى وَالطَّلَابِ ؟
فَإِنَّمَا وَجَدْتُ عِنْدَكُمْ الْعِلْمَ قَرِيبًا فَمَا أُرِيدُ التَّوَابَا .
إِذْهَبُوا أَتَمُّ فُزُورُوا عَلِيًّا : * لَا زُورَ الْهَيْبَتِ وَالْآدَابَا :
لَنْ أَبَالِي إِنْ قِيلَ الْخُورَارُ * مَتَى أَخْطَأَ فَعَلَهُ أَوْ أَصَابَا !

فَقَالَتِ الْجَمَاعَةُ : بَلْ أَصَبْتَ ، وَوَجَدْتَ مَا طَلَبْتَ ؛ وَقَدِيمًا كَمَا نَشُرُ أَعْلَاقَكَ ،
وَنَحْنُ أَتْفَاقُكَ ؛ وَنَسْأُولُ أَوْصَافَكَ ، وَنُحِبُّ مُضَافَكَ ؛ وَنُكْرِ لَدَيْهِ ذِكْرَكَ ، وَنُعْظِمُ
لَدَيْهِ قَدْرَكَ ؛ فَيَحْرُكُ مِنْكَ سَاكِنُهُ ، وَتَتَقَلُّ بِكَ أَمَّا كُنُهُ ؛ وَنَسْأَلُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَنْ
يَجْمَعَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ بِحَضْرَتِنَا ، وَتُلَامِحَ عَيْنُكَ عَيْنَهُ بِمَنْظَرِنَا ؛ وَيَلْتَفُّ غُبَارُكَ بِغُبَارِهِ ،
وَيَمْتَرِجُ تَيَّارُكَ بِتَيَّارِهِ ، وَيَخْتَلِطُ مِضْمَارُكَ بِمِضْمَارِهِ ؛ فَيُعْرِفُ مِنْكَ السَّابِقُ وَالسَّكِينُ ،
وَالسُّودَانِيُّ وَالْكَمِينُ ؛ وَيَتَيْنُّ مِنَ الذِّى يَحْوَى الْقَصَبَ ، فَانْكِمَا كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

هَـمَا رُحْمَانِ خَطِيَّانِ كَانَا * مِنَ السُّمْرِ الْمُتَقَفِّهِ الصَّعَادِ

تَهْلُ الْأَرْضُ أَنْ يَطَّأَ عَلَيْهَا * بِمِثْلِهِمَا نُسَالِمُ أَوْ نُعَايْ !

فَقَالَ [بَعْضُ الْجَمَاعَةِ] لَمَّا تَنَكَّبْتُمُ الْإِنْصَافَ ، وَأَخْطَأْتُمُ الْاعْتِرَافَ ؛ وَأَبْعَدْتُمُ
الْقِيَاسَ ، وَأَوْقَعْتُمُ الْاِثْبَاسَ ؛ أَيْنَ أَبْنُ ثَلَاثِينَ ، إِلَى أَيْنِ ثَمَانِينَ ؟ ؛ وَأَيْنَ اللَّبُونُ ،
مِنَ الْبَازِلِ الْأَمُونِ ؟ ؛ وَالرُّخَّ الرَّازِحُ ، مِنَ الْجَوَادِ الْقَارِحِ ؟ ؛ وَالْكُودُنُ الْمَبْرُوضُ ،
مِنَ الْمُجَرَّبِ الْمَبْرُوضِ .

وَأَيْنَ اللَّبُونُ إِذَا مَا زُرَّ فِي قَرْنٍ * لَمْ يَسْتَطِعْ صَوْلَةَ الْبُزْلِ الْقَنَاعِيْسِ !

كَمْ لَدَيْهِمْ بَطَائِحُ وَسَبَاحُ ، وَسَاكِنُ صَرَائِفَ وَأَسْوَاحُ ، بَيْنَ يَدَيْهِ سَوَادِيَةُ أَنْبَاطُ ،
وَعُلُوجُ أَشْرَاطُ ، وَرِعَافُ أَخْلَاطُ ، وَسِفْلُ سُقَاطُ ؛ فِي بِلْدَةٍ إِنْ رَأَيْتُ سُورَهَا ،
وَمَعَبَرْتُ جُسُورَهَا ، صَحَفْتُ : وَأَغْرَبْتَاهُ ، وَإِنْ رَأَيْتُ وَجْهَهَا غَرِيبًا نَادَيْتُ : وَابْتَاهُ ؛
لَا أَعْرِفُ غَيْرَ النَّبِطِيَّةِ كَلَامًا ، وَلَا أَلْقَى سِوَى الْوَدِيِّ إِمَامًا ؛ فِي مَعْتَمِرٍ مَا عَرَفُوا
الْتِّحَالَهُ ، وَلَا رَكِبُوا السُّرُوحَ وَالرَّحَالَ ، وَلَا فَارَقُوا الْحِدَارَ وَالطَّلَالَ .

أُولَئِكَ مَعَشَرُ كَبَنَاتِ نَعِيشٍ * خَوَالِفَ لَا تَغُورُ مَعَ النُّجُومِ !

[فأثني له] بمصاولة زَيْلِ جَوَال، رَحَالٍ حَلَالٍ؛ بَيْتٍ وَضِع، وبالكُوفَةِ أَرْضِع؛
وبَعْدَادٍ أَفْثَر، وبواسطٍ أَحْقَر؛ وبالحجاز وَهَامَةً فِطَامُهُ، وبمِصْرَ والمَغْرِبِ كَانَ أَخْتِلَامُهُ؛
وبَعِيدَ والشَّامِ بَقْلَ عَارِضُهُ، وباليَمَنِ وعمانٍ قَوِيَتْ نَوَاهِضُهُ؛ وبمِجْرَاسَانَ بَلَغَ أَشَدَّهُ،
وبمِجْرَارًا وبِمَرْقَنْدٍ تَنَاهَى جَدُّهُ؛ وبغَزَنَةَ والمِغْنِدِ شَابَ وَأَكْتَهَلَ، ومن سَيَحُونٍ وَجِيحُونٍ
عَلَّ وَنَهَلَ؛ وبمِيسَانَ والبَصْرَةِ عَوْدٌ وَقِرِح، وبالجبالِ جَلَّةٌ وَجَلِجَ؛ فهو يَمَسِدُ
«المَازِنِي» إِمَامُهُ، وَأَبْنُ «جَنِّي» ثُلَامُهُ؛ و«المُتَنَبِّي» من رُؤَايَاهُ، و«الْمَعْرِي» حَامِلُ
دَوَائِيهِ؛ و«الصَّابِي» بَارِي قَلْبِهِ، و«الصَّاحِب» رَافِعَ عِلْمِهِ؛ و«أَبْنُ مُقْلَةٍ» من نَاقِلِ
غَاشِيَتِهِ، و«بْنِي أَبِي حَفْصَةَ» بَعْضُ حَاشِيَتِهِ؛ وَقَدْ قَرَأَ الْكُتُبَ وَتَلَّاهَا، وَحَفِظَ الْعُلُومَ
وَرَوَاهَا، وَدَرَسَ الْأَدَابَ وَوَدَّاهَا؛ وَدَوَّنَ الدَّوَاوِينَ وَالْفَقَاهَا، وَأَنشَأَ الْحِكْمَ وَصَفَّاهَا؛
وَفَصَّلَ الْمُشْكَلَاتِ وَشَرَحَهَا، وَأَرْتَجَلَ الْخُطَبَ وَتَقَحَّهَا؛ فَهُوَ الْبَحْرُ الْمُرُودُ، وَالْإِمَامُ
الْمَقْصُودُ، وَالْعَلَمُ الْمَصْهُودُ، هَذَا بَوْنٌ وَمَرْتَقَى شَدِيدٌ .

أَتَلَقَوْنَ بِالْأَعْزَلِ الرَّاحِمَا، * وَالْأَكْشَفِ الْحَاسِرِ الدَّارِعَا،

وَبِالْكُودَنِ السَّابِقِ السَّابِحَا، * وَبِالْمِنْجَلِ الصَّارِمِ الْقَاطِعَا؟

فَمَا اسْتَمَ كَلَامُهُ حَتَّى أَقْبَلَ؛ فَإِذَا نَحْنُ بِهِ قَدْ طَلَعَ مُهْرُوْلَا، وَأَقْبَلَ مُسْتَعْبِلَا؛
فَرَأَيْتُ رَجُلًا أَجْلَحَ، أَهَمَّ أَفْلَحَ، أَفْطَحَ أَرْدَحَ؛ طَوِيلًا عَنَظَنَطَ، يَحْكِي ذَنْبًا أَمْعَطَ،
أَجْمَعَ أَحْبَطَ؛ تَلَقَّوهُ مَعْظَمِينَ، وَلَهُ مَقْخَمِينَ؛ فَقَصِدَ فِي الْمَجْلِسِ صَدْرَهُ، وَأَسْنَدَ
إِلَى الْحِدَّةِ ظَهْرَهُ؛ فَمَا اسْتَقْبَرَهُ الْمَكَانَ، حَتَّى قَبِلَ لَهُ: هَذَا فَلَانٌ؛ فَقَبِضَ مِنْ أَنْفِهِ،
وَنَظَرَ إِلَى بَشِيرٍ مِنْ طَرَفِهِ؛ وَقَالَ بَعْضُ فِيهِ، هَلُمُّوا مَا كُنْتُمْ فِيهِ؛ تَعَسًّا لِلشَّوَاهِ
وَجَالِيهَا، وَالْقَرَاءِ وَحَالِيهَا :

جَاءَ زَيْدٌ مُجَرَّرًا رَسَنَةً * فَحُلَّ لَا يَمْنَعُهُ سَنَهُ (؟)

أَحَبَّهُ قَوْمُهُ عَلَى شَوْءٍ * إِنْ الْقَرْنَيْنِ فِي عَيْنِ أُمِّهَا حَسَنَةً !

كان لنا شيخٌ بالأنبار، كثيرُ الأخبار؛ قد بلغ من العمر أملاه، ومن السنَّ أعلاه؛ قرأتُ عليه جميعَ الكتاب، وعلمَ الأنساب؛ و”مسائلُ ابنِ السراج“، و”ديوانُ ابنِ العجاج“، و”كتابُ الإصلاح“، و”مشروحُ الإيضاح“؛ و”شعرُ الطرماح“، و”العين“، للفرهودي، و”الجمهرة“، للآزدي؛ وأكثرُ من المصنفاتِ، المجهولاتِ والمعروفاتِ؛ ينفخُ في شفاشيقه، ويؤيدُ في بقايقه، ويتعاطمُ في مخارقه؛ وجعل القومُ يقسمونَ بيننا الألفاظَ، ويحسبونَ الألفاظَ؛ وما منهم إلّا من أغاظ لسكوته وكلامه، وتأثرى وإقدامه .

ثم هذى الشيخُ إذ وُصفَ له رجلٌ على الغيبِ ثم رآه، فاحتقره وأزدرأه؛ وأنشد مُثَمِّلًا :

لعمرك أيك تسمع بالمعيدي * بعيد الدار خيرُ أن ترأه

فقال : هذا المعيدى هو صمرة، بنُ صمرة، بن جابر، بن قطن، بن نَهشل، بن دارم، بن مالك، بن حنظلة، بن مالك، بن زيدمانة، بن تميم، بن مرة، بن أد، ابن طابخة، بن أليس، بن مضر، بن زرار، بن معد، بن عدنان . والمعيدى تصغيرُ معدي، وهو الذى قالت فيه نأديته :

أننى الكريم النهشلي المصطفى * أكرم من خامر أو تحندفا!

فقلت : ما بعد هذا المقال، وجهٌ للأحتمال؛ وما يجبُ لى بعد هذه المواقفة، غيرُ المكافئة؛ ولم يبق لى بعد المُغالبة، من مُراقبه :

ما عتلى وأنا جلدٌ نابِلٌ^(١) * والقوسُ فيه وترُ عَنابِلُ

* ترلُ عن صفحته المعابِلُ ! *

(١) كذا فى اللسان فى مادة - ظل - وفى مادة عنبل ”حَب خاتل“ .

ما علقى وأنا [رجل] جلد * والقوس فيه وتر عرود
* مثل ذراع البكر أو أشد *

فعطفت عليه عطف النازع المأسف ، وألقت إليه أنثفات الطائر الخاطف ؛
قلت له : يا أخاهيت ، قد قلت ما شئت ، فأجب الآن إذا دُعيت ؛ وألزم مكانك ،
وعص عنانك ، وقصر لسانك ؛ إن نادية صخرة خندقته ، لما وصفتها ؛ وما سمعت
في نسبك إياه لخيف ذكرا ، فأين عن ذلك عذرا ؛ فقال : إن خيف هي امرأة
ألياس بن مضر ، غلبت على بنينا ففسبوا إليها ، كطهية ومزينة ، وبه دوية وعرينه ،
والسلكة وجهينه ، وندبة وأذينه ؛ وكشيب بن البرصاء وابن الدعائم . قلت له :
سئلت ، فأجبت وأصبت ؛ فأخبرني عن خيف هل هو اسم موضوع ، أو لقب
موضوع ؟ ؛ فوقف عند ذلك حماره ، وتحدث ناره ؛ وردد جربانه ، وسكن هذيانه ،
وقرغليانه ، وظهر حرانه ؛ وذلل وأتقمع ، وأتطوى وأجتمع ؛ فاضطره الحياء ، وألجأه
الاستجداء ؛ إلى أن قال وهو يخفى لفظه ، ويطرق لفظه : أظنه لقبا . قلت : هو
كما ظننت فما معناه وما سببه ؟ وكيف كان موجه ؟ فلم يجد بدا من أن يقول :
لا أدري ، فقال وقد أدقته مر الإمامة ، وأحس من القوم بنظامير الشامة :

وودَّ يجمع الأنث لو أن محبة * تتادوا وقالوا في المناجح له : تم !

ثم أقبلوا إلى ، وعكفوا على ؛ بأوجه مهله ، والنية متوسله ؛ في شرح الحال ،
والقيام بجواب السؤال ؛ قلت : هذا يدع عجيب ، أنا أسأل وأنا أجب ؛ إن ألياس
ابن مضر تزوج ليلي بنت ثعلبة ، بن حلوان ، بن الحلاف ، بن قضاة ، بن معد ،
(في بعض النسب) ، فولد له منها : عمرو وطاهر وعمر . ففقدتهم ذات يوم ، فالحق

على ليلٍ باللوم، فقال: أخرجني في أثرهم، وأبني بجبرهم؛ ففعلت في طلبهم، وعادت بهم؛ فقالت: ما زلت أحنيف في اتباعهم، حتى ظفرت بإقائهم؛ فقال لها أليأس: أنت خنيف. والحنيفة في الاتباع، تقارب الخطي في إسراع؛ وقال عمرو: يا أجي أنا أدركت الصيد فلوئته، فقال له: أنت مدركة إذ حوئته. وقال عامر: أنا طبعته وشوئته. فقال له: أنت طائحه إذ شوئته. فقال عُمير: أنا أنقمت في الحباء، فقال له: أنت قعمة للاختباء؛ فلصقت بها وبهم هذه الألقاب، وجرت بها إليهم الأنساب.

فقال حينئذ: هذا علم أستفدته، وفضل استردته؛ وقد قال الحكيم: مذاكرة ذوى الألباب، نماء في الآداب. فقلت له مُتَمَثِّلًا:

أقول له والرخ ياطر متنه * تأمل خُفَانًا: إني أنا ذلِكَ!

ثم لم يحتمس إلا قليلًا، ولم يمسك طويلًا؛ حتى عاد إلى هديره، وأخذ في تهديره؛ طمعًا بأن يأخذ بالتأر، ويعود الفيض له في القمار؛ فعدل عن العلوم النسيية، وجال في ميدان العريية؛ ولم يحس أن باعه فيها أقصر، وطرفه دون حقائقها أحسر؛ فقال: حضرت يومًا حلبة من حلبات العلوم، وموسمًا من مواسم المنثور والمنظوم؛ وقد غص بكل خطيب مضجع، وحكم مفتح، وعالم مضدع؛ وملي من كل عتيق صهل، وفتيق صسول، ومنطيق جوال؛ فأخذوا في فنون المعارضات، وصنوف المناقضات؛ وسلكوا في معاني القريض، كل طويل عريض؛ حتى أخذ السائل منهم بالتحق، بيت [الفرزدق]^(١):

وعص زمان يا ابن مروان لم يدع * من المال إلا مسحتًا أو مجلف!

فَكَثُرَ فِيهِ الْجَدَالُ ، وَطَالَ الْمَقَالُ ، وَمَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ أَجَادَ الْقِيَاسَ ، وَأَصَابَ الْقِرَاطَ ، وَوَقَعَ عَلَى الطَّرِيقِ ، وَأَتَى بِالْحَقِيقِ ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ فِي تَحْمِيزِهِمْ سَاهُونَ ، وَفِي ضَلَالَتِهِمْ يَمْهُونَ ، فَادَّيْتُهُمْ : إِلَى فَسَارِعُوا ، وَمِنِّي فَاسْتَمَعُوا ، فَإِنِّي أَنَا ابْنُ يَجْدَتِهَا ، وَعَالِمُ مَا تَحْتُ جِلْدَتِهَا ، ثُمَّ إِنِّي أَبْدَيْتُ لَهَا سِرَّارَهَا ، وَأَبْقَيْتُ نَارَهَا ، وَحَلَّاتُ عَقْدَهَا ، وَمَحْضُتُ زَيْدَهَا ، وَأَعْرَضْتُ لِبَدَهَا ، وَبَحَسْتُ سَجَرَهَا ، وَأَبْتَنْتُمْ عُجْرَهَا وَيُجْرَهَا ، فَقَالُوا : اللَّهُ أَبُوكَ ! فَإِنَّكَ أَسْبَقْنَا إِلَى غَايَةِ ، وَأَكْشَفْنَا لَفْيَايَ ، وَأَجَلَّاتَا لُشْبَهَا ، وَأَضَوْنَا بِدَهَهَا ، وَمَا أَعْلَمُ الْيَوْمَ عَلَى ظَهَرِهَا مَنْ يَقُومُ بِعِلْمِ مَا فِيهِ ، وَيَطْلِعُ عَلَى خَافِيَةٍ .

فَادْرَكْنِي الْاِمْتِعَاضُ ، وَأَخَذَنِي الْاِثْتِفَاضُ ، فَانْشَدْتُهُ :

مَنْ ظَنَّ أَنَّ عُقُولَ النَّاسِ نَاقِصَةٌ * وَعَقْلُهُ زَائِدٌ أَزْرَى بِهِ الطَّمَعُ !

وَقُلْتُ لَهُ : أَدَّعَيْتَ ، فَوْقَ مَا وَعَيْتَ ، فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَوَّلِ هَذَا الْبَيْتِ ، يَا مُجَرِّي الْكُتَيْتِ ، وَكَيْفَ تُنْشِدُهُ : وَعَضُّ بِالْفَنَعِ أَوْ وَعَضُّ بِالْضَمِّ ؟ فَقَالَ : كِلَاهُمَا مَرْوِيٌّ ، فَقُلْتُ : تَبْتَدِئُ بِالْفِعْلِ ثُمَّ تَعُودُ إِلَى الْأَسْمِ يَازَا الْإِعْجَابُ ، تَهْيَأُ لِلسَّائِلِ فِي الْجَوَابِ ، وَأَخْبِرْنِي لِمَ قَعَنْتَ آخِرَ الْمَاضِي ؟ فَاسْرِعْ مِنْ غَيْرِ التَّفَاضِي ، وَقَالَ : لِأَنَّهُ مُبْنِيٌّ عَلَيْهِ ، لَا يُضَافُ سِوَاهُ إِلَيْهِ : فَقُلْتُ : هَذَا جَوَابُ تَعْلَمُهُ ، وَمَنْ صَبَّحَ الْمَكْتَبَ لَا تَعْلَمُهُ ، وَإِنَّمَا أَلَيْسَ مِنْكَ الْفَائِدَةُ فِيهَا ، وَأَطْلُبُ كَشْفَ خَافِيَا : فَقَالَ : مَا جَاءَ عَنْ أُمِّهِ النَّعَاهِ ، وَسَائِرِ الرُّوَاهِ ، فِي هَذَا غَيْرُ مَا سَمِعْتُهُ ، وَلَا زَادَ عَلَيَّ مَا أَوْصَحْتُهُ . فَقُلْتُ : دَعِ عَنْكَ هَذَا وَأَخْبِرْنِي عَنْ هَذَا الْبِنَاءِ ، أَلَيْلَةً أَمْ لَفْيَرَهَا ؟ فَأَجَبَ بِتَرَدُّدٍ وَيَتَرَجَّحُ ، وَيَتَنَابَّ نَارَةً وَيَتَنَحَّجُ . فَلَمَّا سَدَّ عَلَيْهِ مِنْ طَرِيقِهِ ، وَحَصَلَ فِي مَضِيقِهِ ، وَغَضَّ بِرِيقِهِ ، قَالَ : لَا أَعْلَمُ ! . فَقَالَتِ الْجَمَاعَةُ : أَعْذَرَ إِلَيْكَ مِنْ أَلْفِي سِلَاحَةٍ ، وَغَضَّ جَمَاحَهُ ، وَمَنْ أَذْبَرَ بَعْدَ إِقْبَالِهِ ، صَدَّلَ عَنْ قَتَالِهِ :

والحق أبلغ لا يُحْدِ سَبِيلُهُ * والحق يعرفه ذوو الألباب!

والآن فقد فازت قِداحُك ، وبانت غُرُك وأوضاَحُك ؛ وأجَدَت النَّضال ،
وأدرَكْتَ الخِصَال ؛ فأوضح لنا عما سَأَلْتَ ، وأرشدنا إلى ما دَلَلْتَ ؛ لئلا يقال : هذا
بَهْت ، ومُحَالٌ بَحْت ؛ فقلتُ حُبًّا وكرَامَةً ، إستمع أنت يا طغامه ؛ إنَّ الفِعلُ من
فاعِلِه ، كالولَد من نَاجِلِه ؛ لا يخلو الفِعلُ من عَلامَةِ الفاعِل ، في لَفِظِ كُلِّ قَائِل ؛
وهي الفَتحة من مَاضِيهِ ووَاقِيهِ ، والزَّوائِدُ في مُسْتَقْبَلِهِ ومُضَارِعِهِ . وبين ذلك :
أن الفَتحة لا تكون مع الناء والنون ... فتثبت الفَتحة ، ثم تقول : أُنْجَرْتُ
وأُنْجَرْنَا ، فُتْسِعُ ما ذكرنا ؛ وعلامتان لمعنى محال ، لا يوجههما الحال . فان كانت
النون التي مع الألف صَمِيمَ المَقْعُولِ عَادَتِ الفَتحةُ ، فتقول : أُنْجَرْنَا الأَمِيرُ ، فهذا
بَيْنٌ . فَصَفَّيْتُ الجماعةُ وَصَمَحَتْ ، وحسنت وبجحت ؛ وجعل الأديبُ يضطربُ
أَضْطَرَّابُ العُصْفُورِ ، ويتقلبُ تَقَابُ الصُّقُورِ ؛ مُتَبَقِّئًا أَنَّ أَسَدَهُ صارَ جُرْدًا ،
وبَازِيَهُ عادَ صُرْدًا ؛ ودوره اقلبتُ مَحْشَلًا (؟) ، وزَيْتُونَهُ تحوَّلَ عَرَبًا ، وقَنَاهُ تَغَيَّرَ
قَصَبًا ؛ وأن مُسْتَقِيمَهُ تَعَوَّجَ ، وجَسَدَهُ تَبَهَّرَجَ ، وصَحِيحَهُ تَدَحَّرَجَ ، وجَدِيدَهُ تَكَرَّجَ ؛
فقال مُنْشِدُهُمْ :

تَرَى الرَّجُلَ النَّحِيفَ قَرْدَرِيهِ * وَتَحْتَ ثِيَابِهِ أَسَدُ مَرِيرِيهِ
وَيُعْجِبُكَ الطَّرِيرُ فَنَبَاتِيهِ * فَيُخَافُ ظَنُوكَ الرَّجُلُ الطَّرِيرُ
فَمَا عِظَمُ الرِّجَالِ لَهُمُ بِفَخْرِ * وَلَكِنْ نَحَرُهُمْ حَكْرٌ وَخَيْرُ!

فأَحَذَهُ الأَبْلَاسُ ، وضَاقَتْ به الأَنْفَاسُ ، وَسَكَنَتْ مِنْهُ الحَوَاسُ ، وَرَفَضَهُ
النَّاسُ ؛ وجعل يَنْكُتُ الأَرْضَ ، ويُواصِلُ بِكَفِّهِ العَصَ ؛ ويتَشَاءَمُ يَوْمَهُ ،

ويعود على نفسه بلومه ؛ يَسْحُ جَيْنَه ، وَيُكْثِرُ أَيْنَه . فَعَمَتْ فَعَامَتْ مَعَ الْجَمَاعَةِ
وَتَرَكَتْهُ ، وَأَسْتَهَانَتْ بِهِ وَفَرَكَتْهُ ؛ فَلَمَّا بَقِيَ وَحْدَهُ ، تَعَنَّى لِحَدِّهِ ؛ وَأَسْبَلَ دَمْعَتَهُ ،
وَوَدَّ أَنْ الْأَرْضَ يَلْعَنَهُ :

وكان كمثل البومَيْنِ رُوم * تَلُودُ بِحَقْوِيهِ السَّرَاةُ الْأَكَابِرُ ،
فَأَصْبَحَ مِثْلَ الْأَجْرِبِ الْحَلْدِ مُفْرَدًا * طَرِيدًا فَمَا تَدْنُو إِلَيْهِ الْأَبَاعِرُ !

فَقَامَ فَتَبَعْنِي ، وَوَقَّفَ وَوَدَّعْنِي ، وَأَطَالَ الْأَعْتَذَارَ ، وَأَظْهَرَ التَّوْبَةَ وَالِاسْتِغْفَارَ ؛
وَقَالَ : مِثْلَكَ مِنْ سَرَّ الْحَالِ ، وَأَقَالَ الْعَثَّةَ وَالزَّلَالَ ؛ فَقَدْ آغْرَضْتُ مِنْ سِنِّكَ بِالْحَدَاثَةِ ،
وَمِنْ أَخْلَاقِكَ بِالْأَمَانَةِ . قُلْتُ : كُلُّ ذَلِكَ مَفْهُومٌ مَعْلُومٌ ، وَأَنْتَ فِيهِ مَعْدُورٌ
لَا مَلُومٌ ؛ وَمَا جَرَى بَيْنَنَا فَهُوَ مَنِيٌّ غَيْرُ مَذْكُورٍ ، وَمَطْوِيٌّ غَيْرُ مَنْشُورٍ ، وَخَفِيٌّ
غَيْرُ مَشْهُورٍ :

[جِدَالٌ] أَهْلُ الْعِلْمِ لَيْسَ بِقَادِحٍ * مَا يَنْ غَالِيهِمْ إِلَى الْمَغْلُوبِ !

ثُمَّ مَسَكَتْ فَمَا أَعَادَ ، وَتَزَلَّتْ وَعَادَ ؛ وَكَانَ ذَلِكَ أَوَّلَ صَهْدٍ بِهِ وَآخِرِهِ ، وَبَاطِنَ
لِقَاءٍ وَظَاهِرِهِ ، وَكُلَّ أَجْتِنَاجٍ وَمَسَاوَرَةٍ .

الفصل الثاني

من الباب الأول من المقالة العاشرة

(فِي الرِّسَالِ)

وَهِيَ جَمْعُ رِسَالَةٍ ، وَالْمُرَادُ فِيهَا أُمُورٌ يَرْثِيهَا الْكَاتِبُ : مِنْ حِكَايَةِ حَالٍ مِنْ عَدُوٍّ
أَوْ صَدِيقٍ ، أَوْ مَدْحٍ وَتَقْرِيبِ ، أَوْ مُفَاعَلَةٍ بَيْنَ شَيْئَيْنِ ، أَوْ خِلافٍ لِمَا يَحْجِزُ هَذَا
الْمَجْرَى . وَسُمِّيَتْ رِسَالًا مِنْ حَيْثُ إِنَّ الْأَدِيبَ الْمُتَنَشِّئَ لَهَا رَجَبًا كَتَبَ بِهَا إِلَى غَيْرِهِ

مُخْبَرًا فِيهَا بِصُورَةِ الْحَالِ، مُفْتَتِحَةً بِمَا تُفْتَحُ بِهِ الْمَكَاتِبُ، ثُمَّ تُوسَّعُ فِيهَا فَافْتَتَحَتْ بِالْخُطْبِ وَغَيْرِهَا .

ثم الرسائل على أصناف :

الصنف الأول

(منها الرسائل الملوكية ، وهى على ضربين)

الضرب الأول

(رسائل الغزو ، وهى أعظمها وأجلها)

وهذه نسخة رسالة أنشأها القاضي محيى الدين بن عبد الظاهر رحمه الله ، بفتح [الملك الظاهر] لقيسارية من بلاد الروم ، وأفتلأعها من أيدي التتار ، وأسبلائه على ملكها ، وجلوسه على تخمت بنى سلجوق ، ثم العود منها إلى مملكة الديار المصرية . كتب بها إلى صاحب بهاء الدين بن حنا ، وزير السلطان الملك الظاهر ، ومعرفة ما كان فى تلك الغزوة ، وما أشتملت عليه حال تلك السفرة ، وهى :

يُقْبَلُ الْأَرْضَ بِسَاحَاتِ الْأَبْوَابِ الشَّرِيفَةِ السَّيِّدِيَّةِ ، الصَّاحِبِيَّةِ الْبَهَائِيَّةِ ؛ لَا زَالَتْ رَكَابُ السَّيْرِ تَحْتَ إِلَى أَرْجَائِهَا السَّيْرِ ، وَصُرُوفُ الزَّمَنِ تُسَلِّمُ خُدَامَهَا وَتُجَلِّ الْغَيْرَ بِالْغَيْرِ ، وَلَا بَرَحَتْ مَوْطِنُ الْإِوْمَعِدِنِ الْجُودِ وَبَحْرُ الْكَرَمِ وَعُكَازُ الْخَيْرِ ؛ وَيُنْهَى بَعْدَ رَفْعِ أذْعِينِهِ إِلَى لَا تَزَالُ مِنَ الْإِجَابَةِ مَحْوُطُهُ ، وَلَا تَبْرَحُ يَدَاهُ بِهَا مَبْسُوطَةً ؛ أَنَّ الْعَيْبِدَ مِنْ شَأْنِهِمْ لِمَخَافِ مَوَالِيهِمْ بِمَا يُشَاهِدُونَهُ فِي سَفَرَاتِهِمْ مِنْ عَجَائِبِ ، وَإِطْلَاعُهُمْ عَلَى مَا يَرَوْنَهُ فِي غَزَوَاتِهِمْ مِنْ غَرَائِبِ ؛ لِيَقْضُوا بِذَلِكَ حُقُوقَ الْأَسْتِرْقَاقِ ، وَتَكُونَ نِعْمَ سَادَاتِهِمْ قَدْ أَحْسَنَتْ لِأَفْوَاهِهِمُ الْأَسْتِنْطَاقِ ؛ وَيَتَعَزَّضُوا لِمَا عَسَاهُ يَعْزُّ مِنْ مَرَامِحِهِمْ اتَّقِ مَا عِنْدَهُمْ غَيْرَهَا يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَهَا بَاقٍ .

ولما كان المملوك قد انتظم في سلك الخدم والعبيد ، وأصبح كم له قصيد في مدح هذا البيت الشريف كل بيت منها بقصيد بيت القصيد ؛ وأن في ما تراه الرسائل التي قد شاعت ، وضاعت نفحاتها في الوجود وتم رسالة غيرها في غيره ضاعت - رأى أن يخفف الخواطر الشريفة من هذه الغزوة بأصح يختار منها من يؤلف ، ويسند إليها من يؤرخ أو يصنف ؛ وإنما قصد أن يخفف بها أبواب مولانا مع بسط القول وأتساع كلماته ، لأن الله قد شرف المملوك بمبودية مولانا : والله أعلم حيث يعمل رسالته ؛ فإن كان المملوك قد طوّل في المطارحة ، فمولانا يتقول في المسامحة ؛ وإن قال أحد : هذا هذى ، فما زال شرح الوقائع مطولا كذا ؛ وتالله ما ورخ مثلها في التواريخ الأول ، ولعمري إن خيرا من سيرة ذلك البطال سيرة هذا البطال ؛ والأمر أعلى في قراءتها واستيعابها ، والتأمل في حجلها حتى تُفسر حسن نفاها وترفع مسدول قناعها ،
.....

قد أحاطت العلوم الشريفة بالعزائم الشريفة السلطانية ، وأنها استصحبت ذلك ، حتى تصفحت المهالك ؛ وسرنا لا يبتقر بنا في شيء منها قرار ، ولا يقنطح من غير مسالك الخيل نار ، ولا تتمر على مدينة إلا مرور الرياح على الخائل في الأصائل والإبتكار ، ولا نقيم إلا بمقدار ما يترد الزائر من الأهبه ، أو يزود الطائر من الثنيه ؛ نسبق وقد الرجح من حيث نتجى ، وتكاد مواطئ خيلنا بما تسحبه أذيال الصوافين تمتجى ؛ فعمل ههنا الخيل العتاق ، ويكبو البرق سلقنا إذا حاول بنا الحقا ، وكل يقول لسلطاننا نصره الله :

أين أزمعت أيها هذا الهام ؟ * نحن نبت الربا وأنت القام !

ومرّ لا ينفعل السيف أفعاله ، ولا يسير في مهمه إلا عمه ولا جبيل إلا طاله ؛
تساره السوارى والغواذى ، ولا ينفك الغيث من أنسكاب في كل نادر ووادي :
فبأشر وجهها طالمًا بأشر القنا ، * وبلى ثيابًا طالمًا بلها الدم !

وكان مولانا السلطان من حلب قد أمر جميع عساكره بأذراع لامات حريمهم ،
وحمل آلات طعنهم وضرهم :

بفازله حتى على الشمس حركه ، * وبأن له حتى على البدر ميسم .
يمد يديه في المفاضة ضيغم * وعينه من تحت التريكة أرقم !

ورحلوا من حلب في يوم الخميس ثاني ذى القعدة جرّاد على الأمر الممهود ،
قد خففوا كل شيء حتى البؤد والعمود ؛ فسرنا في جبال نشتى فيها سلوك الأرض ،
وأودية تهلك الأشواط فيها إذا ملئت الفروج من الركض ؛ تزور ديارًا ما يحب
مفناها ، ولا نعرف أقصاها من أذناها ، واستقبلنا الدرب فكان كما قال المتنبي :

رمى الدرب بالخيّل العتاق إلى العدا ^(١) * وما علموا أن السهام خيول ،
شوائل تسوال العقارب بالقنا * لها مراح من تحته وصهيل .
[وما هي إلا خطرة عرّضت له * بجزان لبثنا قنا ونصول
همام إذا ما هم أنقى هومهم * بأرعن وطء الموت فيه قويل
وخيل برّاها الركض في كل بلدة * إذا عرّست فيها فليس يقيل ^(٢)
فلما تجلّى من دلوك وصنجة * علّت كل طود راية ورعيل

(١) القى في ديوان المتنبي : بالجرّد الجاد .

(٢) الزيادة من ديوان المتنبي .

عَلَى طَرِيقٍ فِيهَا عَلَى الطَّرِيقِ رَفْعَةٌ * وَفِي ذِكْرِهَا عِنْدَ الْإِنْسِ حُمُولُ!

وَمَرَرْنَا عَلَى مَدِينَةِ دَاوُكَ وَهِيَ رُسُومُ سُكَّانِهَا ، ضَاحِكَةٌ عَنْ تَبَسُّمِ أَزْهَارِهَا
وَقَهْقَرَةٍ غُذْرَانِهَا ؛ ذَاتُ بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ ، وَأَرْكَانٍ مَوْطَدَةٍ ، وَنِيرَانٍ تَرَاوَبِيٍّ مُوقَدَةٍ ،
فِي عَمَدٍ مِنْ كَنَائِسِهَا مُمَدَّدَةٍ ، وَسِرْنَا مِنْهَا إِلَى مَرَجِ الدِّيَاجِ تَتَعَادَى ، وَذَلِكَ فِي لَيْلَةٍ
ذَاتِ أُنْدِيَةٍ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مِنْ جُمَادَى ؛ طُلُمَاتُهَا مُدْلِمَةٌ ، وَطُرُقَاتُهَا قَدْ أَصْبَحَ أَضْرَاهَا
عَلَيْنَا غَمًّا ، لَا يَنْبَغُ تَرْبُهَا تَحْتَ قَدَمِ الْمَازِ ، وَكَأَنَّمَا سَالِكُهَا يَمْنَى عَلَى شَفَا جُرْفٍ
هَارٍ ؛ فَبِنَا هُنَاكَ لَيْلَةً تَسْتَحْقِرُ بِالنَّسْبَةِ إِلَى شِدَّتِهَا لَيْلَةَ الْمَسُوعِ ؛ وَتَمْتَلِئُ الْعَيْنُ بِهَا
هَجْمَةً مُجُوعٍ ، وَأَخْذُنَا فِي اخْتِرَاقِ غَابَاتِ أَشْجَارٍ تُخْفِي الرِّيقَ عَنْ رَفِيقِهِ ، وَتَشْغَلُهُ عَنْ
أَقْفَاءِ طَرِيقِهِ ؛ يَتَبَرَّى مِنْهَا كُلُّ غُصْنٍ يُرْسِلُهُ الْمُتَقَدِّمُ إِلَى وَجْهِ رَفِيقِهِ ، كَمَا يُخْرِجُ السَّهْمَ
بِقُوَّةٍ مِنْ مَتَجَنِّيقِهِ ؛ حَوْثًا مَعَاثِرَ أَشْجَارٍ كَأَنَّهَا قُبُورٌ بَعَثَتْ ، أَوْ جِبَالٌ تَفْطَرَتْ ؛ بِنِهَا
مَخَائِصُ ، لَا بَلَّ مَخَائِصُ ، كَأَنَّهَا بِحَارٌ جُفَرَتْ ؛ مَا خَرَجْنَا مِنْهَا إِلَّا إِلَى جِبَالٍ قَدْ تَمَنَّقَتْ
بِالْحَدَاوِلِ وَتَمَتَّتْ بِالْثُلُوجِ ، وَخَمِئَتْ مَسَالِكُهَا فَلَا أَحَدٌ إِلَّا وَهْوَ قَائِلٌ : فَهَلْ إِلَى
خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ أَوْ إِلَى سَبِيلٍ مِنْ خُرُوجٍ ؛ تَضِيقُ مَتَاجِهُهَا بِمَنَى الْوَاحِدِ ، وَتَلْتَفُ
شَجَرَاتُهَا أَلْفَافَ الْأَكَامِ عَلَى السَّاعِدِ ؛ ذَاتُ أَوْعَارٍ زَلِقَةٍ ، وَصُدُورٍ شَرِقَةٍ ، وَأَوْدِيَةٍ
بِالْمَزْدَحِينَ مُحْتَبِقَةٍ ؛ بَيْنَمَا يَقُولُ مُتَحَبِّبُهَا : قَدْ نِلْتُ السَّمَاءَ بِسُلَيْمٍ مِنْ هَذِهِ الشَّوَاهِقِ ،
إِذَا هُوَ مُتَضَائِلٌ قَدْ هَبَطَ فِي مَازِقٍ مُتَضَاقٍ ؛ لَمْ تَزَلْ هَذِهِ الْجِبَالُ تَأْخُذُنَا وَتَرْمِينَا ،
وَتِلْكَ الْمَسَارِبُ تَضْمُنُنَا وَتِلْكَ الْمَشَارِبُ تُظْمِنُنَا :

سُودُ الشَّمْسِ مِثْلَ بَيْضِ أَوْجُهِنَا ، * وَ[لَا] سُودُ بَيْضِ الْعُدَى وَالْأَلَمِ ،
[وَكَانَ حَالُهُمَا فِي الْحُكْمِ وَاحِدَةً * لَوْ أَحْتَكَمْنَا مِنَ الدُّنْيَا إِلَى حَكَمِ]

وَتَرَكُ الْمَاءَ لَا يَنْفَكُ مِنْ سَفَرٍ ، * مَا سَارَ فِي الْقِيمِ مِنْهُ سَارَ فِي الْأَدَمِ !

حتى وصلنا الحَدَثَ الحُمْرَاءَ الْمُسَيَّاةَ الْآنَ بِكَيْنُوكَ ومعناها الْمُحَرَّقَةُ ، كَانَ الْمَلِكُ قُسْطَنْطِينُ وَالِدُ صَاحِبِ سَيْسَ قَدْ أَخَذَهَا مِنْ أَصْحَابِ الرُّومِ وَأَحْرَقَهَا ، وَتَمَلَّكَهَا وَعَمَرَهَا ، بِقَصْدِ الضَّرَرِ لِبِلَادِ الْإِسْلَامِ وَالْتِجَارِ . فَلَمَّا كَانَ فِي مَسْنَةِ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ وَسَبْعِمِائَةَ سِيرَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ إِلَيْهَا عَسْكَرَ حَلَبَ فَافْتَحَهَا بِالسَّيْفِ وَقَتَلَ مِنْ كَانَ بِهَا مِنَ الرِّجَالِ وَسَبَى الْحَرِيمَ وَالذَّرِيَّةَ ، وَخَرِبَتْ مِنْ ذَلِكَ الْحِينِ ، وَمَا بَقِيَ بِهَا مِنْ يَكَادُ يُبِينُ ، فَشَاهَدْنَا مَا بَنَى سَيْفُ الدَّوْلَةِ بَنُ حَمْدَانَ مِنْهَا وَالْقَنَا تَقَرَّعُ الْقَنَا وَمَوْجُ الْمَسَايَا حَوْلَهَا مُتَلَاطِمٌ ، وَقِيلَ حَقِيقَةً هُنَاكَ : عَلَى قَدْرِ أَهْلِ الْعَزَمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ ، وَهِيَ الَّتِي عَنَاهَا أَبُو الطَّيِّبِ بِقَوْلِهِ :

غَصَبَ الدَّهْرَ وَالْمُلُوكَ عَلَيْهَا * فَبَنَاهَا فِي وَجَنَةِ الدَّهْرِ خَلَا

فِيهِ تَمَشِي مَتْنَى الْعُرُوسِ أَخْيَالًا * وَتَتَنَّى عَلَى الزَّمَانِ دَلَالًا !

فَبَنَاهَا وَأَبْنَيْنَا وَخَيْلَنَا مَبْنُوَّةٌ فَوْقَ الْأَحْيَادِ كَمَا تُثَرَّتِ الدَّرَاهِمُ فَوْقَ الْعُرُوسِ ، وَجِيَادُنَا عَلَى الرُّكُوبِ فِي أَعْلَى الْعَيْنِ تَدُوسُ ، إِذَا زَلِقَتْ مَسَتْ كَالْأَرَاقِمِ عَلَى الْبُطُونِ ، وَإِنْ تَكَاسَلَتْ جَرَّ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ بِالصَّيْلِ : « وَالْحَدِيثُ شُجُونٌ » ، وَخُضْنَا فِي أَشْنَاءِ ذَلِكَ خَائِضٌ سَوَاغٍ ، كَأَنَّهُ لَا أَجَلَ عَوَمِ الْخَيْلِ بِهَا سُمِّيَ كُلُّ مَنْهَا لِأَجْلِ ذَلِكَ سَابِغٌ ، كُلَّمَا قُلْنَا : هَذَا بَحْرٌ قَدْ قَطَعْنَاهُ أَعْتَرَضَ لَنَا جَبَلٌ ، وَكُلَّمَا قُلْنَا : هَذَا جَبَلٌ طَلَعْنَاهُ بَانَ لَنَا وَادٍ يُسَمُّهُنَّ دُونَ الْهَوِيِّ فِيهِ تَفَادُ الْأَجَلِ ، لَمْ نَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى وَصَلْنَا كَوَكُصُوا (؟) وَهُوَ النَّهْرُ الْأَزْرَقُ ، وَهُوَ الَّذِي رَدَّ الْمَلِكُ الْكَامِلُ مِنْهُ سَنَةَ الدَّرَبِنْدَاتِ لِمَا قَصِدَ التَّوَجُّعَ إِلَى الرُّومِ . وَهَذَا النَّهْرُ بَيْنَ الْجِبَالِ مَهْوًى رِجَالِهَا ، وَمَتْنَوًى نَحَامِهَا ، وَمَلْوًى زِمَامِهَا ، وَمَاوًى قَنَامِهَا ، فَلِلْوَقْتِ عَبْرَانَا رَكُضًا ، وَأَعْجَلَتْ الْخَيْلُ فَمَا دَرَّتْ هَلْ خَاضَتْ بِلْجَةً أَمْ قَطَعَتْ

أَرْضًا ؛ وَبَاتَ النَّاسُ مِنْ بَرِّ هَذَا النَّهْرِ الْآخِرِ وَأَصْبَحُوا مُتَسَلِّلِينَ فِي تِلْكَ الشَّمِّ ، وَوَقَعَ
السَّيَاكُ يُسْمَعُ مِنْ تِلْكَ الْجِبَالِ الشُّمِّ ؛ حَتَّى وَصَلُوا إِلَى أَبْغَادَرِبَنْدَ فَأَثْبَتَ يَدُ فَرَسٍ
لِمَصَافَةِ صَفَاها ، وَلَا نَعْلُهُ لِمَكَلَفَةِ رَحَاها ، وَلَا رِجْلُهُ لِمَطَارَعَةِ قُوَاها ؛ وَتَمَزَّتْ
الْخَيْلُ عَلَى الْأَقْدِمَامِ وَالْأَزْدِيحَامِ فِي التَّطَرُّقِ ، وَتَعَوَّدَتْ مَا تَعَوَّدَتْهُ الْأَوْعَالُ مِنَ التَّسْرِبِ
وَالْتَسَائِقِ ؛ فَصَارَتْ تَحْطُّ أَنْحِطَاطَ الْهَيْدَبِ ، وَتَرْتَفِعُ أَرْتِفَاعَ الْكَوْكَبِ ؛ وَتَسِيرُ
سَرِيانَ الْخِيَالِ ، وَتُمْكِنُ حَوَافِرُهَا الْخِيَادَ قَتْرُولَ مِنْهَا الْجِبَالِ ؛ حَتَّى حَصَلَ الْخُرُوجُ مِنْ
مُنْتَهَى أَبْغَادَرِبَنْدَ وَهُوَ خِنَاقُ ذَلِكَ الْمَازِقِ الَّذِي كَمَّ أَمْسَكَ عَلَى طَارِقِ ، وَفَمَّ ذَلِكَ
الدَّرْبِ الَّذِي كَمَّ عَضَّتْ أَنْيَابُهُ عَلَى مُسَاوِقِ وَمُسَايِقِ ؛ وَذَلِكَ فِي يَوْمِ الْأَرْبَعَاءِ تَامِينَ
ذِي الْقَعْدَةِ ، وَبَاتَ السُّلْطَانُ وَالنَّاسُ فِي وَطْأَةِ هُنَاكَ ، وَسَمِعَتْ السُّجُوبُ بِمَا شَاءَتْ
مِنْ بَرْدٍ وَبَرْدٍ ، وَجَاءَتْ الرِّيَّاحُ بِمَا أَلَمَتْ الْجِلْدَ وَأَسْتَفْذَتِ الْجِلْدَ ؛ وَأَنْتَشَرَتْ الْعَسَاكِرُ
فِي وَطْأَةِ هُنَاكَ حَتَّى مَلَأَتِ الْمَقَاوِزَ ، وَمَلَكَتِ الطَّرِيقَ عَلَى الْمَسَارِّ وَأَخَذَتْهَا عَلَى الْجَانِبِ ؛
وَقَدَّمَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ الْأَمِيرَ شَمْسُ الدِّينِ سُنْقَرًا الْأَشْقَرُ فِي الْجَالِيشِ فِي جَمَاعَةِ مِنَ الْعَسَاكِرِ ،
فَوَقَعَ عَلَى ثَلَاثَةِ آلَافِ فَارِسٍ مِنَ التَّارِ مُقَدِّمُهُمْ كَرَامِ ، فَأَنْهَزُوا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ، وَأَخَذَ
مِنْهُمْ مَنْ قُدَّمَ لِلسَّيْفِ السُّلْطَانِيِّ فَأَكَلَ نَهْمَتَهُ وَأَسَارَ ، وَأَسْتَمَرَّتْ تِلْكَ سُنَّةٌ فِيمَنْ
يُؤْخَذُ مِنَ التَّارِ وَيُؤَسَّرُ ؛ وَذَلِكَ فِي يَوْمِ الْخَمِيسِ تَامِعِ ذِي الْقَعْدَةِ .

وَبَاتَ التَّارُ عَلَى أَجْمَلِ تَرْتِيبٍ لِأَنْفُسِهِمْ وَأَجْمَلِ مَنَظَرٍ ، وَبَاتَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَيْمٍ
تَقِيطٍ وَأَعْظَمِ حَذَرٍ ؛ وَلَمْ يَتَحَقَّقُوا قُدُومَ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ فِي جُيُوشِ الْإِسْلَامِ ، وَلَا أَنَّهُ
حَضَرَ بَنَفْسِهِ النَّفِيسَةَ لِيَقُومَ فِي نُصْرَةِ دِينِ اللَّهِ هَذَا الْمَقَامَ . فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ
عَاشِرُ ذِي الْقَعْدَةِ لَتَابَ الْخَبَرُ بِمَدِ الْخَبَرِ أَنَّ الْقَوْمَ قَدْ قَرَّبُوا ، وَأَنَّهُمْ تَأَبَّأُوا وَوَثَّبُوا :

وَقَدْ تَمَنَّوْا غَدَاةَ الدَّرْبِ فِي جَلَبِ * أَنْ يُبْصِرُوهُ فَلَمَّا أَبْصَرُوهُ عَمَّوْا !

وشرع مولانا السلطان فوصى جنوده بالتثبت عند المصدمة ، والاجتماع عند المصادمة ؛ ورتب جيش الإسلام الحلب ، على ما يجب ، وأرأهم من نور رأيه ما لا على بصير ولا بصيرة محتجب ، فطلعت العساكر مشرفة على صخرات هوني من بلد أبلستين ، وكان العدو ليلته تلك باثنا على نهر زمان ، وهو أصل نهر جهان ، وهو نهر جيحان المذكور في الحديث النبوي ، وإنما الأثرن لا تنطق بالهاء .

فلما أقبل الناس من علو الجبل شاهدوا المغل قد ترتبوا أحد عشر طلبا كل طلب يزيد على ألف فارس حقيقة ، وعزوا عسكر الروم عنهم خيفة منهم ، وجعلوا عسكر الكرج طلبا واحدا بمفرده . ولما شاهدوا سناجق مولانا السلطان المنصورة ومن حولها من الممالك الظاهرية ، وعليهم الخوذ الصفراء المقتدحة ، وكأنها في شعاع الشمس نيران مقتدحة ؛ رجوا إلى ما كانوا عدا من العزائم فقلوا ، وسقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا ؛ وأقبل بعضهم على بعض يتسألون ، وعلى الموت يترأسون ؛ فانصببت الخيل إليهم من أعلى الجبل أنصباب السيل ، وبطلت الخيلة منهم ونبي الخيل ؛ فشمروا عن السواعد ، ووقفوا وقفة رجل واحد ؛ وهؤلاء المغل كان طاغية التار آبقا - أهلكه الله - قد اختارهم من كل ألف مائة ، ومن كل مائة عشرة ، ومن كل عشرة واحدا لأجل هذا اليوم ، وعرفهم بسيا الشجاعة وعرضهم لهذا السوم ؛ وكان فيهم من المقدمين الجكار تدلون ، ومعنى هذا الاسم التفاد ، يعني أنه ما كان في عسكر قط إلا نفذه ، والمقدم الآخر هو (؟) وإليه أمر بلاد الروم وعساكر المغل بها ، وأرختوا أخو تدلون ، وبهادر بخشى . ومن مقدمي الألو فذكر ، وصبر آبقا ، وقرالقي وخوآصه :

بيض العوارض طعانون من لحقوا * من القوارس شلالون للنعم !
قد بلغوا بقناهم فوق طاقتيه * وليس يبلغ ما فيهم من الهمم .

فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِلَّا أَنْ أَنْفُسَهُمْ * مِنْ طَيِّبِينَ بِهِ فِي الْأَشْهُرِ الْحَرُمِ !
 فَعِنْدَ مَا شَاهَدُوا تَجِدَ الْمَلَائِكَةَ ، وَتَحَقُّقُوا أَنَّ نُفُوسَهُمْ هَالِكَةٌ ؛ أَخَذَتْ فِرْقَةً مِنْهُمْ
 إِلَى الْأَرْضِ فَقَاتَلَتْ ، وَعَاجَتِ الْمَنَآيَا عَلَى نُفُوسِهِمْ وَعَاجَلَتْ ؛ وَبَاعَتْ نُفُوسُ الْمَسَامِينِ
 لَهَا وَتَاجَرَتْ ، وَكَثُرَتْ وَمَا كَاسَرَتْ ؛ وَجَاءَ الْمَوْتُ لِلْعَدُوِّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، وَأَصْبَحَ
 مَا هُنَاكَ مِنْهُمْ وَقَدْ هَمَّ ؛ وَلِلْوَقْتِ خُذِلُوا وَجُدُّوا ، وَلِبَطُونِ السَّبَاجِ وَحَوَاصِلِ
 الطُّيُورِ حُصِّلُوا ؛ وَصَارُوا مَعَ عَدَمِ ذِكْرِ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ ، يَقَاتِلُونَ قِيَامًا وَقُعُودًا
 وَعَلَى جُنُودِهِمْ ؛ فَكَثُرَ مِنْ تَجَارِعِ الْعَمَقِ ظَهْرُهُ إِلَى ظَهْرِ صَاحِبِهِ وَحَامِي ، وَنَاضَلَ وَرَامِي ؛
 وَكَثُرَ فِيهِمْ مِنْ شَتْمٍ ، مَسَلَمَ قَوْمَهُ حَتَّى لَمْ يَبْقَ فِي كَاتِبَتِهِ سَهْمٌ ؛ وَذَى مِنْ طَارِحٍ بِهِ فَا
 طَرَحَهُ حَتَّى تَشَلَّمَ ، وَذَى سَيْفٍ حَادِثُهُ بِالصِّقَالِ فَا جَلَّ مُعَادَتُهُ حَتَّى تَكَلَّمَ ؛ وَأَبَانُوا
 عَنْ نُفُوسٍ فِي الْحَرْبِ أَيْسَهُ ، وَقُلُوبٍ كَافِرَةٍ وَتَحْوِيَةٍ عَرَبِيَّةٍ ؛ وَأَشْتَدَّتْ فِرْقَةُ مِنَ الْعَدُوِّ
 مِنْ جِهَةِ الْمَيْسَرَةِ مُعَرِّجِينَ عَلَى السَّنَاقِ الشَّرِيفَةِ مِنْ خَلْفِهَا ، مُنْقَلِبِينَ بِصُفُوفِهِمْ
 عَلَى صَفِّهَا :

فَلَزَّهُمُ الطَّرَادُ إِلَى قِتَالٍ * أَحَدٌ سِلَاحُهُمْ فِيهِ الْفِرَارُ !

فَتَابَ مَوْلَانَا إِلَيْهِمْ ، وَوَتَبَ عَلَيْهِمْ ، فَضَحَّى كُلُّ مِنْهُمْ بِكُلِّ أَشْمَطٍ ، وَأَفْرَأَى الْأَجْسَادَ
 فَافْرَطَ ؛ وَلِتَقَى مَوْلَانَا السُّلْطَانُ مِنْهُمْ مِنْ قَصْدِ التَّخَصُّصِ بِالْجِبَالِ فَأَخَذَهُمُ الْأَخَذَةَ
 الرَّأْيِيَّةَ ، وَقَتْلَهُمْ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ؟ :

وَمَا الْفِرَارُ إِلَى الْأَجْبَالِ مِنْ أَسَدٍ * تَمْشِي النَّعَامُ بِهِ فِي مَعْقِلِ الرَّمْلِ ؟

وَأَنْهَزِمَتْ جَمَاعَةٌ يَسِيرَةً طَمِعَ فِيهَا مِنَ الْعَوَامِ مَنْ كَانَ لَا يَدْفَعُ عَنْ نَفْسِهِ ، وَأَخَذَتْهُمْ
 الْمَهَاوِي فَمَا نَجَا مِنْهُمْ إِلَّا آيِسٌ مِنْ حَيَاةٍ غَدِهِ فِي أُمْسِهِ .

مَضَوْا مُتَسَابِقِينَ الْأَعْضَاءِ فِيهِ * لَا رُؤُسِهِمْ بِأَرْجُلِهِمْ حَتَارُ

إِذَا فَاتُوا الرَّمَاحَ تَأَوَّلْتُهُمْ * بِأَرْمَاجٍ مِنَ الْعَطَشِ الْفَقَارُ!

وقصبت ميمنة عسكرنا جماعة من المغل ذؤوباً شديداً، فقاتلهم المسلمون حتى
تجهر الحديد من الحديد ؛ وكان مولانا صاحب زين الدين - حرس الله جلالة -
لما دُعيت نزال أول مسابق ، وأسرع راسق ؛ وأقرب مطاعن ، وأعظم معاون ؛
فذكر من شاهده أنه أحسن في معركته ، وأجمل في كثرته ، وأجاد في طعنته ؛ وزار
زين الدين ، وسابق حتى لم يبق حيث ؛ ووقف دريئة للرماح من عن يمينه وشماله ،
وحضب بما تحذر من دم ملوه أكتاف ترجمه وعنان لحامه ، وكانت عليه من الله
باقية وأقية في تقدمه وإقدامه ؛ وشاهدناه وقد خرج من وسط المعركة وهو شاكي
السلاح ، وقد أخذ نصيبه ونصيب قرسه من سالم الحراح ؛ وأراد الله أن لا يخله من
إسالة دم عظم الله الأجر بسائله ، بفعله - والمِنَّة لله - من بعض أطراف أنامله .

ولقد ذكر الأمير عز الدين أيذمر الدوادار الظاهري ، قال : لقيتني وقد تكسر
رُحِي ، وعاد - لولا لطف الله - إلى الخسارة رنجي ؛ فأعطاني المولى صاحب
زين الدين رُحِيه فإذا فيه نُصُول ، وبسته من قراع الدارين فلؤل ؛ ورأيت دُبُوس
المولى صاحب زين الدين وقد تسلم ، وكان الخوف عليه في ذلك اليوم شديداً
ولكن الله مسلم ؛ ولقد بلغ مولانا السلطان خبره فسأله فما أجابه بنيران قال :
سيف مولانا السلطان هو الذي سفك ، وعزمه هو الذي قتل .

وَمَنْ يَكُ مَحْقُوطًا مِنْ اللَّهِ فَلْيَكُنْ * سَلَامَتُهُ مِمَّنْ يُحَادِرُ هَكَذَا ،

وَيَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّفُوفِ مُسَلِّمًا * وَلَا مَنْ يَبْدِيهِ وَلَا نَالَهُ أَدَى !!

وأما العدو فتعاسمت الأيدي ما يمتطونه من الصواهل والصوافن ، وما يصولون به
من سيوف وقبي وكناش ، وما يلبسونه من خوذ ودروع وجواشن ، وما يتولونهم

من جميع أصناف المَعَادِن ؛ فَنَمَّ مَاهُنَالِك ، وَتَسَلَّمَ من أَسْتَشْهَد من المُسْلِمِينَ رِضْوَانُ
وَتَسَلَّمَ من قُتِلَ من الكُفَّار مَالِك .

وكان الذين أَسْتَشْهَدُوا في هذه الوقعة من المُقَدِّمِينَ : شَرَفُ الدِّينِ قِيرَانُ العَلَايُ ،
وعِزُّ الدِّينِ أَخُو الأَمِيرِ جَمَالِ الدِّينِ المُحَمَّدِي . ومن الممالك السلطانية : شَرَفُ الدِّينِ
فَلْحَقُ (٩) الجاشنكير الظاهري ، وأَيْبُكَ الشَّقِيقِيُّ الذي كان وَزِيرَ الشَّقِيفِ . وكان
المجروحون عِدَّةً لطيفة لم يُعْلَمْ عَدَدُهَا لِقَاتِهَا ، بل لِحَفَّتِهَا ؛ وأورث الله المسلمين مَنَازِلَهُمْ
فَنَزَلُوهَا ، وَوِطَاقَاتِهِمْ وَخَرَكَوَاتِهِمْ فَتَمَّوْهُهَا ؛ وكان مولانا السلطانُ وكان أَعْدَاؤُهُ كَمَا قِيلَ :
فَسَاَهُمْ وَبُسْطُهُمْ حَرِيرٌ ، * وَصَبَّحَهُمْ وَبُسْطُهُمْ تُرَابٌ !!

وَأَصْبَحَ الأَعْدَاءُ لَا تُرَى إِلَّا أَشْلَاقُهُمْ ، وَلَا تُبْصَرُ إِلَّا أَعْيَاؤُهُمْ ؛ كَأَنَّمَا جَزُرُ
أَجْسَادِهِمْ جَزَارٌ يُخَلَّلُهَا مِنَ الدَّمَاءِ السَّيْلُ ، وَكَأَنَّمَا رُءُوسُهُمُ المَجْمُوعَةُ لَدَى الدَّهْلِيزِ
الْمَنْصُورِ أَكْرُ تَلْعُبُ بِهَا صَوَالِحَةٌ مِنَ الأَيْدِي والأَرْجُلِ مِنَ الخَيْلِ :

أَلَقْتُ إِلَيْنَا دِمَاءُ الْمَفْلِلِ طَاعَتَهَا * فَلَوْ دَعَوْنَا بِلَا حَرْبٍ أَجَابَ دَمٌ !

فَكَمْ شَاهَدَ مولانا السلطانُ مِنْهُمْ مَهَيْبَ الهَامَةِ ، حَسَنَ الوَسَامَةِ ، تُتَفَرَّسُ فِي جَهَامَةِ
وَجْهِهِ الفَخَامَةِ ، قَدْ فَضَّ الرُّمْحُ فَاهُ فَفَرَّعَ السِّنُّ عَلَى الحَقِيقَةِ نَدَامَهُ :

وُجُوهَا أَخَافَهَا مِنْكَ وَجْهٌ * تَرَكْتُ حُسْنَهَا لَهُ وَالْجَمَالَ !

أو كَمَا قِيلَ :

لَا رَحِمَ اللهُ أَرُوْسًا هَلُمُّ * أَطْرُنَ عَنْ هَامِيْنٍ أَحْقَافًا !^(١)

وأقبل بعضُ الأَحْيَاءِ مِنَ الأَسَارَى عَلَى الأَمْوَاتِ يَتَعَارَفُونَ ، ولَا تُخْبَارُ شَجَاعَتِهِمْ
يَتَوَاصَفُونَ ؛ فَكَمْ مِنْ قَاتِلٍ : هَذَا فُلَانٌ وَهَذَا فُلَانٌ ، وَهَذَا كَانَ وَهَذَا كَانَ ؛ وَهَذَا

كَانَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ يَهْزِمُ الْأُلُوفَ ، وَهَذَا يُقَرَّرُ فِي ذِيهِ أَنَّهُ لَا تَقِفُ بَيْنَ يَدَيْهِ
الْصُّفُوفُ ؛ وَكَثُرَتِ الْأَسَارِيُّ مِنَ الْمُغْلِ فَاخْتَارَ السُّلْطَانُ مِنْ كِبَرَائِهِمُ الْبَعْضَ ، وَعَمِلَ
فِيهِمْ بِقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّىٰ تُمِغِّنَ فِي الْأَرْضِ ﴾ .
فَجَعَلَهُمُ لِلسُّيُوفِ طُعْمَةً ، وَأَحْضَرَتِ الْأَسَارِيُّ مِنَ الرُّومِ فَرَقَّبَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ
فِيهِمُ الْإِلَّ وَالذَّمَّةَ :

وَمَا قَتَلَ الْأَحْرَارَ كَالْعَفْوِ عَنْهُمْ ، * وَمَنْ لَكَ بِالْحُرِّ الَّذِي يَحْفَظُ الْيَدَا !

وَكَانَ فِي جَمَلَةِ الْأَسَارِيِّ الرُّومِيِّينَ مُهَذَّبُ الدِّينِ بَكْلَارَنْكِي ، يَعْنِي أَمِيرَ الْأَمْرَاءِ
وَلَدُ الْبُرْوَانَاهُ ، وَنُورُ الدِّينِ جَاوَا أَكْبَرُ الْأَمْرَاءِ ، وَجَمَاعَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْ أَمْرَاءِ الرُّومِ
وَمُقَدِّمِي عَسَاكِرِهِ ، فَكَانَ الْبُرْوَانَاهُ أَحَقَّ بِقَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ :

تَجَبَّوْتَ بِإِحْدَى مُقْتَلَيْكَ جَرِيحَةً * وَخَلَفْتَ إِحْدَى مُهْجَتِكَ نَسِيلُ !

أَتَسْلِمُ لِلْخَطِيئَةِ أَنْتَكَ هَارِبًا * وَيَسْكُنُ فِي الدُّنْيَا إِلَيْكَ خَلِيلُ ؟

لَأَنَّهُ شَمَرُ الدَّلِيلِ ، وَأَمْتَعَلَى - هَرَبًا - أَشْهَبَ الصُّبْحِ وَأَحْمَرَ الشَّفَقِ وَأَصْفَرَ الْأَصِيلِ
وَأَذْهَمَ اللَّيْلِ ؛ وَثُمَّ يُخْبِرُ مَنْ خَلَفَهُ بِمَا تَمَّ ، وَهُمْ قَلْبُهُ رَفِيقُهُ حِينَ هَمَّ :

فَتَحَنُّ فِي جَدَلٍ ، وَالرُّومُ فِي وَجَلٍ ، * وَالْبَرْقُ فِي سُغْلٍ ، وَالْبَحْرُ فِي تَحْمَلٍ !

وَدَخَلَ الْبُرْوَانَاهُ مَدِينَةَ قَيْصَرِيَّةَ فِي تَارِيخِ يَوْمِ الْأَحَدِ ثَانِي عَشَرَ الشَّهْرِ الْمَذْكُورِ ،
فَأَفْتَهُمْ غِيَاثُ الدِّينِ سُلْطَانُهَا ، وَالصَّاحِبَ نَحْرُ الدِّينِ بْنِ مَلْمَأَ (؟) وَالْأَثَايِكَ مَجْدُ الدِّينِ ،
وَالْأَمِيرَ جَلَالَ الدِّينِ الْمُسْتَوْفَى ، وَالْأَمِيرَ بَذَرَ الدِّينِ مِيكَائِيلَ النَّاتِبَ ، وَالْأَمِيرَ فُلَانُ
الدِّينِ الطُّغْرَايَ ، وَهُوَ وَلَدُ عَزِّ الدِّينِ ابْنِي الْبُرْوَانَاهُ ، وَهُوَ الَّذِي يَكْتُبُ طُرُقَ الْمُنَاشِيرِ -
أَنَّ الْمُسْلِمِينَ كَسَرُوا بَعْضَ الْمُغْلِ وَبَقِيَتْهُمْ مُنْهَزِمُونَ ، وَيُخْشَى مِنْهُمْ دُخُولُ قَيْصَرِيَّةَ
وَأَتْلَافُ مَا يَكُونُ بِهَا فِي طَرَائِفِهِمْ حَقَّقًا عَلَى الْإِسْلَامِ . فَأَخَذَهُمْ جَرَأَنَدُ ، وَأَخَذَ

زَوْجَتَهُ تُكْرِجِي خَاتُونُ بَنَتْ غِيَاثِ الدِّينِ صَاحِبِ أَرْزَنِ الرُّومِ، فَاسْتَصَحَبَتْ مَعَهَا
أَرْبَعَةَ جَارِيَةٍ لَهَا، وَكَانَ لَهَا مَالًا كَانَ لِصَاحِبِ الرُّومِ مِنَ الْبَحَائِنِ وَالْخِلَاطِ وَالْأَلَاكِ،
وَتَوَجَّهُوا كُلُّهُمْ إِلَى جَرِهِ تَوَقَّاتٍ (٩) وَهِيَ مَكَانٌ حَصِينٌ مُسِيرَةٌ أَرْبَعَةَ أَيَّامٍ مِنْ
قَيْصَرِيَّةٍ . وَلَمَّا خَرَجُوا مِنْ قَيْصَرِيَّةٍ حَمَلَهُمْ عَلَى سُرْمَةِ الْحَرْبِ ، وَأَنْذَرَهُمْ هَذَا بَا قَدْ
أَقْرَبَ ، وَهَوَّلَ عَلَى بَقِيَّةِ أَمْرَاءِ الرُّومِ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ، وَأَخْفَى الْبُرْوَانَةُ أَمْرَهُ
وَأَمَرَ مَنْ مَعَهُ حَتَّى لَا تُخْبِرَ يُخْبِرُهُمْ .

وَكَانَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ قَدْ جَرَّدَ الْأَمِيرَ تَمَسَّ الدِّينِ سُنْفَرًا الْأَشْقَرِيَّ صَدَدَ مُسْتَظْهِرًا
بِهِ لِإِدْرَاكِ مَنْ قَاتَ مِنَ الْمُغْلِ ، قَرَّوْا فِي طَرِيقِهِمْ بِفِرْقَةٍ مَعَهَا بِيُوتُهُمْ فَأَخَذَ مِنْهَا جَانِبًا ،
وَدَخَلَ عَلَيْهِمُ اللَّيْلُ فَرَكَّ كُلُّ فِي سِرِّيهِ ذَاهِلًا ذَاهِبًا . وَرَحَلَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ فِي بُكْرَةِ
السَّبْتِ حَادِي عَشْرَ ذِي الْقَعْدَةِ مِنْ مَكَانِ الْمَعْرَكَةِ ، فَزَلَ قَرِيبَ الْقَرْيَةِ الْمَعْرُوفَةِ
بِرِيَّانَ ، وَهَذِهِ الْقَرْيَةُ قَرِيبُ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ حَقِيقَةً ، لَا مَا يُقَالُ : إِنَّهُ قَرِيبُ حُسْبَانٍ
مِنْ بِلَادِ الْبَلْقَاءِ ، وَقَرِيبًا مِنْهُ صَلْدٌ مِنَ الصَّفَا عَلَيْهِ كِتَابَةٌ بِالرُّومِيَّةِ أَوْ غَيْرِهَا مِنْ انْخَطَ
الْقَدِيمِ . وَأَمَّا الْقَرْيَةُ الْمَذْكُورَةُ الْمُسَمَّاةُ بِرِيَّانَ فَإِنَّ بِيُوتَهَا بُنِيَتْ حَوْلَ سِنِّ جَبَلٍ قَائِمٍ
كَالْمَرْمِ إِلَّا أَنَّهُ مَلُومٌ ، وَعُمِّرَتْ الْبُيُوتُ فِي سَفْحِهِ حَوْلَهُ بَيْتًا فَوْقَ بَيْتٍ فَبَدَتْ كَأَنَّهَا
مَجْمَعَةُ النُّجُومِ ، وَمِنْ بَيْتٍ مِنْهَا إِلَّا وَبِهِ مَقَاعِدُ ذَوَاتِ دِرَازِنَاتٍ مَتَّجُورَةٍ ،
وَرَوَاشِنَ قَدْ بَدَتْ فِي أَكْمَلِ صُورِهِ ؛ يَخْتُمُّهَا مِنْ أَعْلَاهَا أَحْسَنُ بُيَّانٍ ، وَيَتَلَوُّهَا مِنْ
رَاسِهَا مَزْرَلٌ مُسَمَّى الرَّائِسِ كَمَا يَعْلُو الصَّعْدَةُ السَّنَانُ ، وَتَعْلُوفُ هَذِهِ الْقَرْيَةِ جِبَالٌ كَأَنَّهَا
أَسْوَارٌ بِلِ سَوَارٍ ، وَكَأَنَّهَا فِي وَسْطِهَا إِنْاءٌ فِيهِ جَذْوَةٌ نَارٌ ؛ وَيَتَفَرَّغُ مِنْهَا أَنْهَارٌ ، هِيَ
فِي تِلْكَ الْأَوْدِيَةِ كَأَنَّهَا بَهْبُوطُهَا كَثِيبٌ قَدْ أَنْهَارَ ؛ ذَوَاتُ قَنَاطِرٍ لَا تَسْعُ غَيْرَ رَاكِبٍ ،
وَمَضَابِقٍ لَا يُلْفَى غَيْرُهَا لَنَاكِبٍ ؛ قَدَّرَ اللَّهُ أَنْ الْعَسَاكِرَ خَلَصَتْ مِنْهَا وَلَكِنْ بَعْدَ
مُقَاسَاةِ الْجُهْدِ ، وَخَرَجَتْ وَقَدْ رَقَّ لَهَا قَلْبٌ كُلُّ وَهْدٍ ؛ وَنَزَلْنَا قَرِيبًا مِنْهَا حَتَّى

تَخْلَصُ من تَخْلَصُ ، وَحَضَرَ من كَانَ في المَضَائِقِ قد تَرَبَّصَ ، وقال : كُلُّ الأَرْضِ
حَضْرَ حَضَرَ .

وَرَحَلْنَا من هُنَاكَ في يومِ الأَحَدِ ثَانِي عَشَرَ شَهْرَ ذِي القَعْدَةِ وَكَانَتِ السَّمَاءُ قد حَيَّتِ
الأَرْضَ بِتَيْجَانِ أَمْطَارِهَا ، وَأَغْرَقَتِ الهَوَامَّ في أَجْحَارِهَا ، وَانْفَتَحَ في أَوَاكِرِهَا ،
وَأَصْبَحَتِ الأَرْضُ لَانْتِمَاسِكُ حَتَّى وَلَا لِمُرُورِ الأَرَاقِمِ ، وَالجِبَالُ لَانْتِمَاسِكُ أَنْ تَكُونَ
لِلْعَصَمِ عَوَاصِمُ ، تَضَعُ بِهَا مِنَ الدَّوَابِّ كُلِّ [ذَاتِ] حَمَلٍ ، وَتَوَلِّقُ في صَقِيلِهَا أَرْجُلُ
النَّمْلِ ؛ وَنَزَلْنَا عَلَى هَذِهِ الحَالَةِ نَهَارَنَا كُلَّهُ إِلَى قَرِيبِ الغُرُوبِ ، وَقَطَعْنَاهُ بِتَسْلِمِنَا أَيْدِي
الدُّرُوبِ من أَيْدِي الدُّرُوبِ ؛ وَنَزَلْنَا عِشَاءً في مُنْتَقِعِ أَرْضٍ تَطُوفُ بِهَا جِبَالٌ شَاهِقَةٌ ،
وَمِيَاءٌ دَافِقَةٌ ؛ تُعْرَفُ قَاعَةٌ تِلْكَ الأَرْضِ بِوِطَاءِ قَبْشَلَا وَسَارِ (؟) من أَعْمَالِ أَصَارُوسِ
الْعَتِيقِ . وَيَقْرُبُ من تِلْكَ الإِلَهَةِ مَعْدِنُ الفِضَّةِ .

وَبَيْنَمَا نَحْنُ قد بَرَعْنَا في أَهْبَةِ المَيْتِ ، وَلَمْ يَقْضِ الشَّمْلُ الشَّيْثَ ؛ وَإِذَا بِالصَّادِحِ
قد صَدَحَ ، وَالنَّذِيرِ قد سَنَحَ ؛ رَافِعًا عَقِيْقَتَهُ بِأَنْ فَوْجًا من التَّارِ في بَحْوَةٍ هُنَاكَ
قد أَسْتَرُوا ، وَفِي نَجْوَةٍ لَغْوَةٍ قد أُنْتَظَرُوا ؛ فَرَكِبَ مولَانَا السُّلْطَانُ وَرَكِبَ النَّاسُ
فِي السَّلَاحِ ، وَعَزَمُوا عَلَى المَطَارِ فَعَاقَهُمْ تَتَابِعُ الغَيْثِ وَكَيْفَ يَطِيرُ مَبْلُولُ الجَنَاحِ ؟
ثُمَّ لَطَفَ اللهُ وَعَادَ مولَانَا السُّلْطَانُ وَهُوَ يَقُولُ للنَّاسِ : ، لَا بَاسَ ؛ فَيَنْمُو نَوْمَةَ السَّلِيمِ ،
وَصَدَرَتْ أَفْكَارُنَا شَاغِرَةً في كُلِّ وَادِيهِمْ ؛ وَأَصْبَحْنَا فَسَلَكْنَا جِبَالًا لَا يَحِيطُ بِهَا
الْوَصْفُ ، وَتَبَسَّطَ عِذْرَاءُ الطَّرْفِ فِيهَا حِينَ يَكُونُ فِيهَا الطَّرْفُ ؛ تَحْطُّ مِنْهَا إِلَى جَدَائِلِ ،
يَضْمَعُ عَنْ الهَوَى إِلَيْهَا قَوَى الأَجَائِلِ ؛ بَيْنَا نَقُولُ : قد أَحْسَنَ اللهُ لَهَا نَفَادًا وَمِنْهَا
نَفَادًا ، وَإِذَا بَعْدَ الأَوْدِيَةِ أَوْدِيَةٌ وَبَعْدَ الجِبَالِ جِبَالٌ نَشْكُرُ عِنْدَ ذَلِكَ هَذِهِ وَذَلِكَ عِنْدَ
هَذَا ؛ وَمَرَرْنَا عَلَى قَرْيَةٍ أُوتَرَكَ ، وَتَحْتَهَا قَنَاطِرٌ وَخَانٌ من حَجَرٍ مَنَعُوتٍ ، ثُمَّ خَانَ آتَرُ

للسَّيْلِ عَلَى رَأْسِ رَابِئَةٍ هُنَاكَ تَعْرِفُ بِأَشِيدِي ، قَرِيبًا مِنْ حِصْنِ سَمْنَدُو ، الَّتِي
عَرَّضَ بِهَا أَبُو الْعَلَيْبِ فِي قَوْلِهِ :

فَإِنْ يُقَدِّمُ فَقَدْ زُرْنَا سَمْنَدُو * وَإِنْ يُجْهِمُ فَوَعْدُهُ الْخَلِيجُ !

وَكَانَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ قَدْ سَيرَ إِلَيْهَا خَوَاصَّهُ بِكَأَبٍ إِلَى نَائِبِهَا فَعَيْلَهُ وَقَبْلَهُ ، وَأَذْعَنَ
لِتَسْلِيمِ حَصْنِهَا الْمَنِيْعِ وَالْأَزْوَلِ لِأَمْرِ السُّلْطَانِ عَنْهَا إِنْ أَسْتَزَلَّه ؛ فَشَكَرَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ
لَهُ تِلْكَ الْإِجَابَةَ ، وَوَفَّاهُ مِنَ الشُّكْرِ حَسَابَهُ . وَكَذَلِكَ إِلَى قَلْعَةِ دُونْدَا وَإِلَى دَوَالِوَا ،
فَكُلُّهُمْ أَجَابُوا وَأَطَاعُوا وَلِكَلِمَةِ الْإِذْعَانِ قَالُوا ؛ وَتَزَلْنَا فِي وَطَاءَةٍ قَرِيبَ قَرْيَةٍ تَعْرِفُ
بِجَمْرَهَا ، وَكَانَ النَّاسُ قَدْ فَرَعَتْ عُلوْفَاتُ خَيْلِهِمْ أَوْكَادَتْ ، وَالخَيْلُ قَدْ بَاتَتْ لِيَالِي
بِلَا عَلِيٍّ فَمَا أَسْتَفَادَتْ ، وَبَارَكْتَهَا خِيُولُ الْكُسُوبِ (؟) فِي عَلَيْهَا ، وَمَا سَاعَدَتْهَا
فِي طُرُقِهَا وَلَا فِي طَرِيقِهَا ؛ فَضَعُفَتْ عَنْ حَمْلِ نُفُوسِهَا فَمَا ظَنُّكَ بِرَاكِبِهَا ، وَكَادَ
الْقَارِطُ - لَوْلَا لُطْفُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ - أَنْ يَفْرِطَ فِيهَا ؛ فَصَادَقْنَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ بَعْضُ
أَثْبَانٍ أَمْسَكَتْ أَرْمَاقَهَا ، وَأَحْسَنْتْ إِرْفَادَهَا وَإِرْقَاقَهَا .

وَأَصْبَحْنَا فِي يَوْمِ الثَّلَاثَاءِ رَابِعَ عَشْرِ ذِي الْقَعْدَةِ رَاغِبِينَ فِي جِبَالِ كَأَنَّمَا تِلْكَ الْأَوَّلُ ،
وَهَاطِبِينَ فِي أَوْدِيَةِ يَمْنَى سَالِكِيهَا مِنْ شِدَّةِ مَضَائِقِهَا أَنْ لَوْ عَادَ إِلَى تَرَقَّى أَعْلَى
جَبَلٍ ؛ وَمَا زِلْنَا كَذَلِكَ حَتَّى أَشْرَفْنَا عَلَى خَانِ هُنَاكَ يَعْرِفُ بِقَرْطَايِ يَدُلُّ عَلَى شَرْفِ
هِمَّةِ بَانِيهِ ، وَطَلَبِ قَوَائِبِ اللَّهِ فِيهِ ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ مِنْ أَكْبَرِ الْأَبْنَاءِ سَعَةً وَأَرْفَعَا ،
وَأَحْسَنَهَا شَكْلًا وَأَوْضَاعًا ؛ كُلُّهُ مَبْنِيٌّ بِالْحَجَرِ الْمَنْحُوتِ الْمَصْقُولِ الْأَحْمَرِ الَّذِي كَانَتْ
رِخَامٌ ، وَمِنْ ظَاهِرِ أَسْوَارِهِ وَأَرْكَانِهِ نُقُوشٌ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَرْسُمَ مِثْلَهَا بِالْأَقْلَامِ ؛ وَلَهُ
خَارِجٌ بَابُهُ مِثْلُ الرِّبْضِ بِيَاثِينَ بِأَسْوَارِ حَصِينَةٍ ، مُبْلَطُ الْأَرْضِ ، فِيهِ حَوَائِثُ .
وَأَبْوَابُ الْإِنْسَانِ حَدِيدٌ مِنْ أَحْسَنِ مَا يُمْكِنُ اسْتِعْمَالُهُ . وَدَاخِلُهُ أَوَاوِيْنٌ صَفِيْفَةٌ ، وَأَمْكِنَةٌ

شَتَوِيَّة ، وإصْطَبَلَاتٌ عَلَى هذه الصورة لَا يُحْسِنُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُعَبِّرَ عَنْهَا بِكَيْفٍ ،
وما منها إِلَّا مَا يَجِدُهُ الْإِنْسَانُ رِحْلَةً لِلشَّتَاءِ وَالصَّيْفِ ؛ وفيه الْحَمَامُ وَالْبَيَارِسْتَانُ
وَالْأَدْوِيَّةُ وَالْفَرُشُ وَالْأَوَانِي وَالضِّيَافَةُ لِكُلِّ طَارِقٍ عَلَى قَدَرِهِ ، حِجْلٌ لِمَوْلَانَا السُّلْطَانِ
مِنْ ضِيَافَتِهِ لَمَّا مَرَّ عَلَيْهِ ، وَكَثُرَ النَّاسُ فَ وَصَلَ أَحَدُ إِبْهَامِيهَا إِلَيْهِ ؛ وَعَلَيْهِ أَوْقَافٌ
عَظِيمَةٌ ، وَضِيَاعٌ كَثِيرَةٌ حَوْلَهُ وَفِي غَيْرِهِ مِنَ الْبِلَادِ ، وَلَهُ دَوَاوِينُ وَكُتُبٌ وَبُيُوتٌ
يَتَوَلَّوْنَ اسْتِخْرَاجَ أَمْوَالِهِ وَالْإِنْفَاقَ فِيهِ ، وَلَمْ يَتَعَرَّضْ النَّارُ إِلَى إِبْطَالِ شَيْءٍ مِنْ
رُسُومِهِ ، وَأَبْقَاهُ عَلَى عَوَائِدِ تَكْرِيمِهِ ، وَأَهْلُ الرُّومِ بِالْفَنُونِ فِي تَجْمِيلِ بَانِيهِ - رَحِمَهُ اللَّهُ -
وَتَعْظِيمِهِ ؛ وَتَزَلْنَا تِلْكَ اللَّسْلَةَ قَرِيبَ قَرْيَةٍ تَقْرُبُ مِنْ قِصَصِيَّةٍ مِنْ حُقُوقِ وَادِي
صَلْعُومَةِ شَرْقِي الْجَبَلِ الْمَعْرُوفِ بِعَسِيبٍ ، وَفِيهِ قَبْرُ أَمْرِي الْقَيْسِ الشَّاعِرِ

أَجَارَتْنَا إِنْ الْخُطُوبَ تَسُوبُ ، * وَإِنِّي مُقَسِّمٌ مَا أَقَامَ عَسِيبُ ،

أَجَارَتْنَا إِنَّا غَرِيبَانِ هَاهُنَا * وَكُلُّ غَرِيبٍ لِلْغَرِيبِ نَسِيبُ !!

وهذا الْجَبَلُ يعلوه جَبَلُ أَرْجَاسٍ ، وهو الذي يَضْرِبُ الرُّومُ الْأَمْثَالَ بِتَسَامِيهِ ،
وَتَنْتَضَعُ الْجِبَالُ فِي جَمِيعِ الدُّنْيَا لِتَعَالِيهِ ؛ لَا تُسْحَبُ ذُبُولُ السَّحَابِ إِلَّا دُونَ
سَفْحِهِ ، وَلَا يُعْرَفُ مِنْ ثُلُوجِهِ شِتَاءٌ وَصَيْفًا وَمِنْ مِثَالِ الْأَيْخَرَةِ الْمُتَصَعِّدَةِ مِنْهُ عِشَاؤُهُ
مِنْ صُبْحِهِ .

ولما كَانَ يَوْمُ الْأَرْبَعَاءِ مُتَصَفِّ ذِي الْقَعْدَةِ ، وهو يَوْمُ شَرَفِ الزُّهْرَةِ رَكِبَتْ
الْعَسَاكِرُ الْمَنْصُورَةُ مُتَرَتِّبَةً ، وَمَسَلَتْ الْقَضَاءُ مُتَسَرِّبَةً ؛ وَرَكِبَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ
فِي زُمَرِهِ ، وَذَوَى أَمْرِهِ وَإِمْرَتِهِ ؛ يَخْتَالُ جَوَادُهُ فِي أَفْسَحِ مِيْدَانٍ ، وَيَصِيحُ بِهِ فَرَحًا
وَمَرَحًا كَأَنَّهُ نَشْوَانُ دَرَى أَنَّهُ سُلْطَانُ :

تَقْلُ مَلُوكُ الْأَرْضِ خَاشِعَةً لَهُ * تُفَارِقُهُ هَلْكَاءُ وَتَلْقَاهُ سُجْدًا !

ونخرج أهل قيصريّة وأكارها، وعلماؤها وزهادها وتجارها، ورعاياها ونسائها
وصغارها؛ فأكرم مولانا السلطان ممسّاهم، وشكر ممسّاهم؛ وتلقّى قضائهم وعلّسهم
رُكباناً، وحادثهم إنساناً فأنساناً؛ وحصلت لجماعة من الفقراء والناس حالاتٌ وجِد
مُطريّة، وصدّحاتٌ ذِكريّ مُعجبة. وكان دهلِزُ السلطان غياثِ الدّين صاحبِ الرّوم
وخيّامه وشعارُ سلطنة الرّوم قد بنى جميع ذلك في وطاة قريب الجوسق والبستان
المعروف بكبحسرو، وترجّل الناس على اختلاف طبقاتهم في الرّكاب الشّريف من
ملكٍ وأمةٍ ومأمورٍ وأمير، وارتفعت الأصوات بالتّهليل والتّكبير:

رجا الرّوم من ترّجى النّواغل كلّها * لَدَيْهِ ولا تُرْجى لَدَيْهِ الطّوائِل!

ونزل مولانا السلطان في تلك المصّارب المعدّة لكرّم الوفاة، وضربت توبّة
سلجوق على باب دهلِيزه على العادة؛ وأذن مولانا السلطان للناس في التّقرّب إلى
شريف قسطنطين، وسبّلمهم بنظّره وأحتياطه؛ وحضر أصحابُ الملاهي، فما ظفروا
بغير النّواهي؛ وقيل لهم: أرجعوا وراءكم فاقبّسوا، وأذهبوا إلى وادٍ غير هذا
الوادي فاقبّسوا؛ فهذه الهناة لا تنفق هنا، وما هذا موضعُ الغناء بلّ هذا موضعُ
الغنى؛ وشرع مولانا السلطان في إنفاقِ اللّهي، وعيّن لكلّ جهةٍ شخصاً وقال: أنت
لهما، وحكم وحكم، وعلم وعلم؛ واعتمد على الأمير سيف الدّين جاليش في النّياحة،
وأعطى كلّاً بيمينه كتابه؛ وأقام الحجّة على من أترّج بالاستعطاف، وتأمّن من خاف؛
فما خرج كثيرهم عن الخائلة، ولا زعيمهم عن المطاولة؛ فلما علم مولانا السلطان
أنهم لا يقبّحون، ولغير التّناز لا يصلحون؛ وأنهم إن أصبّحوا على الطاعة لا يمسّون
وإن أمسّوا لا يصيحون؛ عاد عن تلك الوعود، واختار أن مابدأ إليه يعود، وأن
يبعث نفسه إلى ما بعثه الله إليه من المقام المحمود؛ فركب يوم الجمعة سابع عشر

ذی القعدة مستقبلاً من الله كل الخير، ونصب جتر بني سلجوق على رأسه فشاهد
الناس منه صاحب القبة والسبع وصاحب القبة والطير؛ ودخل قيصرية في بكرة
هذا اليوم وكانت دار السلطنة قد فرشت لئزوله، وتحت بني سلجوق وقد هي
لحلولة؛ وهي دار تزهو، ومنازل من يتعبد أو منازة من يلهو؛ أنية المبتنى، تحف
بها بساتين عذبة الجنى؛ جذرائها بأحسن أصناف القاشاني مصفحة، وبأجمل
نقوشه مصرحة؛ جلس مولانا السلطان في مرتبة الملك في أسعد وقت، ونال
التخت بحلولة أسعد البخت :

وما كان هذا التخت من حين نصيه * لغير المليك الظاهر النذب يصلح.
ملكك على أسم الله ما فتحت له * صوارمه البيض المواضي وتفتح.
أنته وفود الروم والكل قائل : * رأيناك تغفو عن كثير وتصفح.
فأوسمهم حلقاً وجاد لهم ندى * وأمسوا على من وأمن وأصبحوا.
ولو أنهم لم يمتحوا لمكيب * عن الحق والنهج القيم لأفلحوا،
ولكنهم أعطوا يداً فوقها يد * تصافح كفاً زلها النار هده !!

وأقبل الناس على مولانا السلطان يهنؤونه، وعلى كفه الشريف يقبلونه؛ وبعد
ذلك حضرت القضاة والفقهاء والعلماء والصوفية ودو المراتب من أصحاب العاتم
على عادة بني سلجوق في كل جمعة، وقف أمير المحفل وهو كبير المقادير عندهم، له
وسامة ونظامه، وله أكبركم وأوسع عمامه؛ وأخذ في ترتيب المحفل على قدر الأقدار،
وانتصب قائماً بين يدي مولانا السلطان مُتَظَرّاً ما إليه به يسار؛ وشرع القراء يقرعون
جميعاً وفردائى بأحسن تلحين، وأجمل تحسين؛ فانت أصواتهم بكل عجب، وعدلوا
عن الترتيل إلى الترتيب . ولما فرغوا شرع أمير المحفل صارخاً، وبكورية نالفا؛

فأنشد وأورد بالفارسية ما يُعجب مدلوله ، ويهول مقوله ، وأطال وما أطاب ،
وَأَسْتَصوب من يعرف مقالَه قوله ، والله أعلم بالصواب .

ولما أفضى ذلك مدِّ سباطُ ليس يُناسِبُ هِمَمَ الملوك ، فاكل الناس منه
للشرف لا للشرف ، ثم عاد كل منهم إلى مقامه فوقف ؛ وقام مولانا السلطان إلى
مكان الاستراحة فأقام ساعة أو ساعتين ، ثم خرج إلى مُحِيمِهِ قَرِيرَ العَيْن ، وكان بدارِ
الملك حرم السلجوقية قد أصبحوا لا ترى إلا مَسْكَنَتَهُمْ وَمَسَاكِنَهُمْ ، قد نَبَتْ بهم
مَوَاطِنُهُمْ وَمَوَاطِنُهُمْ ؛ على أبوابهم أشمالُ سُتُورٍ من حرير ، ومَشَايخُ خُذَامٍ يَسْتَحِقُّ كُلُّ
منهم - لِكِبَرِ سِنَتِهِ - أن يُدْعَى بالكبير ؛ عليهم ذِلَّةُ الأُنْكِسَارِ ، وأما رُؤُوسُ الأَفْتِقَارِ ؛
بِقَبْرِهِمْ مولانا السلطان وآتسَهُمْ ، وأحسن إليهم ؛ وتوجّه من توجّه إلى صلاة الجمعة
في قِصْرِيةٍ وبها سَبْعُ مَجْمَعٍ تُقام ، وبها خُطباءٌ إن هُم إلا كالأنعام ؛ فصلينا في جامع
السلطان وهو جامعٌ عَليٌّ يدلُّ على احتفال ملوكها ببيوت عباداتهم ، ورأينا فيه من
دلائل الخير ما يقضى بحسن إراداتهم ؛ فحضر أهل المدينة وأكابرُها ، وجلسوا حلَقًا
لا صُفُوفًا ، وأجروا من البَحْثِ بالعِجْمَةِ صُنُوفًا ؛ واجتمعت جماعةٌ من حَفَظَةِ
الِكِتَابِ العزیز فتحارجوا القراءة آية آية ، وهي قراءةٌ بعيدةٌ عن الدراية ؛ بل إنها
تُبْرِزُهَا أصواتٌ مُتَرَنِّمَةٌ ، وألحانٌ لتفريق الكلمات مُقَسِّمَةٌ ؛ ينطقون بالحروف
كيف أَعَفَّتْ ، ولا يتوقفون على مَخَارِجِ الحروف أنها بها نطقت أو لا نطقت .

فلما آن وقت الأذان قام صبيٌ عليه قَبَاءٌ من وَسَطِ جماعةٍ عليهم أقبيةٌ قعودٌ على
دُكَّةِ المؤذنين ، فابتدأ بالتكبير أولاً وثانياً بمفرده من غير إعانة ولا إبانة . ولما تشهد
سأعده جميعهم بأصواتٍ مُحِجِّمةٍ مُعَلِّمةٍ ، ونفثاتٍ مُتَنَوِّعةٍ ؛ يُمَسِّكُونَ له النغم بأحسن
تلحين ؛ ويترنمون بالأصواتِ إلى آخر التلحين ؛ وفرغ الأذان وكلهم قعودٌ ما منهم

أحد غير الصبي وثقف ، وما منّا أحد لكلمة من الأذان عَرَفَ ، ولما فرغ الأذان طلع شيخ كبير السن يعرف بأمر محفل المنبر، فصعد إلى ذروة المنبر، وشرع في دُعاء لا نعرفه ، وأدعاء لا نألفه ؛ كأنه مُحاصم ، أو وکیل شرع أحضره مُشادة خصمه مُحَاكَم بين يدي حاكم ؛ وطلع الخطيب بعد ذلك فخطب ودعا مولانا السلطان بغير مُشاركه ، ودعا الناس بما تلقته من الأقوال الملائكة ؛ وأتقضت الجمعة على هذه الصورة ، المسطورة ؛ وضربت السكة باسم مولانا السلطان ، وأحضرت الدراهم إليه في هذا اليوم ، فشاهدنا فرأى أوجهها باسمه باليمين ، وأقرت الألسنة بهذه النعمة وقوت العيون ؛ وشاهدت بقياسية مدارس وخوانق وربطاً تدل على اهتمام بانها ، ورغبتهم في العلوم الشرعية والدينية ، مشيدة بأحسن الحجار الحمر المصقولة المنقوشة ، وأراضيها بأجمل تلك مفروشة ؛ وأواوينها وصففها مؤزره بالقاشاني الأجل صورة ، وجميعها مفروشة بالبسط الكرجية والعالية ، وفيها المياه الجارية ، ولها الشبايك على البساتين الحسنة ، وسوق قيصريّة طائف بها من حولها ، وليس داخل المدينة دكان ولا سوق .

والوزير في بلاد الروم جميعها يعرف بالصاحب «نظر الدين خواجا علي» ولا يُحسن الكتابة ولا الخط ، وخلعته من ممالكه خاصة ما لنا مملوك ، ودخله في كل يوم - غير دخل أولاده وغير الإقطاعات التي له ولأولاده وخواصه - سبعة آلاف درهم سلطانية . ولقد شاهدت في مدرسته من خيامه وتكراراته شيئاً لا يكون لأحد الملوك ، وله روم معروف ، وهو بالخير موصوف :

والمسمون بالوزير كثير * والوزير الذي لنا المأمول !

وعلي هذا وذلك علي * وعلي هذا له التفضيل !

الذى زُلْتُ عنه شَرْقًا وَغَرْبًا * وَنَدَاهُ مُقَابِلِي لَا يَزُولُ!

وَمَعِيَ أَيْتَمًا سَاكِنْتُ كَأَنِّي * كُلَّ وَجْهِهِ لَهْ بَوَجْهِهِ كَفِيلُ!

وَأَمَّا مُعِينُ الدِّينِ سُلَيْمَانُ الْبُرَوَانَاةِ وَزَوْجَتُهُ كُرْجِي خَاتُونُ ، فَظَهَرَ لَهَا مِنَ الْوُجُودِ
الْبَادِي لِلْعَيْنِ كُلِّ نَفِيسٍ ، وَبِحَمْدِ اللَّهِ آسَتُوهُ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ وَمَمَالِكُهُ مِنْ مَوْجُودِهِ
وَدَارِ زَوْجَتِهِ الْمَذْكُورَةِ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَصَرَّحَ بِإِلْقَاسٍ .

وَلَمَّا أَقَامَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ بِقِصْرِ يَهْدِيهِ الْمَدَّةَ ، فَكَّرَ فِي أَمْرِ عَسَاكِرِهِ وَمَصَالِحِهِ
بِمَا لَا يَعْرِفُهُ سِوَاهُ ، وَنَظَرَ فِي حَالِهِمْ بِمَا أَرَاهُ اللَّهُ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْأَقْوَاتَ قَلَّتْ ،
وَالسُّيُوفَ مِنَ الْمَصَارِعَةِ مَلَّتْ ، وَالسَّوَادَ مِنَ الْمَصَادِمَةِ كَلَّتْ ، وَأَنَّهُ مَا بَقِيَ فِي الرُّومِ
مِنَ الْكُفَّارِ مِنْ يُعْزَى ، وَلَا بِجَزَاءِ السُّوءِ يُعْزَى ، وَلَا بَقِيَ فِي الْبِلَادِ غَيْرُ رَعَايَا كَالسَّوَامِ
الْهَامِلَةِ ، وَلَا دِيَّةٍ - لِلْكَفَرِ - نَهْمٌ - عَلَى عَاقِلٍ وَهَاقِلَةٍ ، وَأَنَّهُ إِنْ أَقَامَ فَاَلْبَلَدُ لَا تَعْمَلُهُ ،
وَمَوَادُّ بِلَادِهِ لَا تَصِلُهُ ، وَأَعْشَابُ الرُّومِ بِالْذُّوسِ قَدْ أَضْمَحَتْ ، وَعُلُوفَاتُهَا قَدْ قَلَّتْ ،
وَزُرُوعُهَا لَا تَرْتَجِي لِكِفَايَةِ ، وَلَا تَرْضَى خِيُولُ الْعَسَاكِرِ الْمَنْصُورَةِ بِمَا تَرْضَى بِهِ خِيُولُ
الرُّومِ مِنَ الرِّعْيِ وَالرَّعَايَةِ ، وَأَنَّ الْحُسَامَ الصَّقِيلَ الَّذِي قُتِلَ التَّنَارُ بِهِ فِي يَدِ الْقَهَائِلِ ،
وَأَنَّهُمْ إِنْ كَانَ أَنْجَبَهُمْ عَامُهُمْ فَيَعُودُونَ إِلَى الرُّومِ فِي قَابِلٍ .

وَرَحَلَ فِي يَوْمِ الْاِثْنَيْنِ عِشْرِينَ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ بَعْدَ أَنْ أُعْطِيَ أَمْرَاءَهُ وَخَوَاصَّهُ
كُلُّ مَا أُحْضِرَ إِلَيْهِ مِنَ الْأَعْنَةِ وَالْأَزْمَةِ ، وَكُلُّ مَا يُطْلَقُ عَلَى تَوَلِيهِ أُنْمُ النِّعْمَةِ ، فَتَزَلَّ
بِمَثَلَةٍ مَعْرُوفٍ بَعَثُوا فِي هَذِهِ الْمَثَرَةِ وَرَدَّ إِلَى السُّلْطَانِ رَسُولٌ مِنْ جِهَةِ غِيَاثِ الدِّينِ
سُلْطَانِ الرُّومِ ، وَمِنْ جِهَةِ الْبُرَوَانَاةِ وَالْكَبَرَاءِ الَّذِينَ مَعَهُ ، يَسْمُو ظَهِيرُ الدِّينِ التُّرْبَمَانُ ،
وَفِي الْحَقِيقَةِ هُوَ مِنْ عِنْدِ الْبُرَوَانَاةِ ، يَسْتَوْقِفُ مَوْلَانَا السُّلْطَانَ عَنِ الْحَرَكَةِ وَمَا عَابُوا
إِلَى أَيْنَ ، بَلْ كَانَ الْأَمْرُ شَائِعًا بَيْنَ النَّاسِ أَنَّ الْحَرَكَةَ إِلَى جِهَةِ سِيوَاسٍ . فَعَدَّدَ مَوْلَانَا
السُّلْطَانُ عَلَيْهِ حُسْنَ وَقَائِهِ بَعْدَهُ ، وَأَنَّهُ أَجَابَ دُعَاءَهُمْ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ مِنْ أَفْصَى

ملكه مع بُعْدِهِ ؛ وأنهم ما وَقَفُوا عند الشُّرُوط المُقَرَّرة ، ولا وَقَفُوا بِمَضْمُونِ الرِّسَالِ
 الْمُسَيَّرَةِ ، وأنهم لما جاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ طَلَبُوا نَظْرَةً إِلَى مَيْسَرِهِ ؛ وَأَنْ أُعْطِيَهُمْ
 لِلْكَفْرِ مُسَلِّمَةً ، وَأَنْهُمْ مِنْذُ اسْتِيلَاءِ النَّارِ هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ؛ وَعَلِمَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ
 أَنَّ يَلَادَ الرُّومِ مَا بَعْدَ عَسْكَرَيْسْتَخْلِصِهِ لِنَفْسِهِ ، وَلَا مِنْ يُقَابِلُ الْمُغْلَ فِي غَدِهِ خَوْفًا
 مِمَّا شَاهَدَهُ كُلُّ مَنْهُمْ فِي أَمْسِهِ ؛ وَأَنْهُمْ أَهْلُ الْإِنْدَازِ ، لَا أَهْلُ قَنَازِ ؛ وَأَهْلُ طَرْبِ ،
 لَا أَهْلُ حَرْبِ [وَعَلَبِ] ؛ وَأَهْلُ طَيْبَةِ عَيْشِ ، لَا قَوَادُ جَيْشِ ؛ فَردَّ السُّلْطَانُ إِلَى سُلَيْمَانَ
 الْبَرْوَانَةِ مَدَّ يَدَهُ ، وَقَالَ : قُلْ لَهُ : إِنِّي قَدْ عَرَفْتُ الرُّومَ وَطُرُقَاتِهِ ، وَأَخَذْتُ أَمَّهُ
 أُسْبِيَّةً وَأَبْنَ بَيْتِهِ وَوَلَدَهُ ؛ وَبَكْفِينَا مَا جَرَى مِنَ النَّصْرِ الْوَجِيزِ ، (وَلَيْتَصَرَّنَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ
 إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) وَمَا كُلُّ مَنْ قَضَى قَرِيبَةَ الْحَجِّ تَجِبُ عَلَيْهِ الْمُحَاوَرَةُ ، وَلَا بَعْدَ
 هَذِهِ الْمُنَاصَرَةِ مُنَاصَرَهُ ، وَلَا بَعْدَ هَذِهِ الْمُحَاوَرَةِ مُحَاوَرَهُ ، وَنَحْنُ فَقَدْ ابْتَيْنَا فِيمَا آتَانَا اللَّهُ :
 مِنْ حَقِّينَ دِمَاءِ أَهْلِ الرُّومِ وَعَدِمَ نَهْبِ أَمْوَالِهِمِ الدَّارَ الْآخِرَةَ ؛ وَتَزَوَّجْنَا عَنْ أَمْوَالِ كُنْتُمْ
 لِلنَّارِ لَسْتَجِبُونَهَا ، وَمَقَارِمَ كَثِيرَةٍ هِيَ لَهُمْ مِنَ الْجَنَّاتِ مَغَانِمٌ يَأْخُذُونَهَا حِينَ يَأْخُذُونَهَا ؛
 وَمَا كَانَتْ جُلُوسُنَا فِي تَحْتِ سُلْطَنَتِكُمْ لَزِيَادَةِ بَقْعَتِ آلِ سَلْجُوقِ ، إِلَّا لِنَعْلَمَ كُمْ أَنَّهُ
 لَا عَائِقَ لَنَا عَنْ أَمْرِ مِنَ الْأُمُورِ يُعَوِّقُ ؛ وَأَنْ أَحَدًا لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَأْمَنَ لَنَا سَطْوَهُ ،
 وَلِيَتَحَقَّقَ كُلُّ أَنْ كُلَّ مَسَافَةٍ جُمُعَةٍ لَنَا خَطْوَهُ ؛ وَسُرُوجُنَا - بِحَمْدِ اللَّهِ - أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ
 النَّخْتِ جَلَالًا ، وَأَرْفَعُ مَنَازِلًا ؛ وَكَمْ فِي مَمَالِكِنَا كَرَامِي مُلْكٍ نَحْنُ آيَةُ ذَلِكَ الْكَرَمِيِّ ،
 وَكَمْ لَنَا قَمْعٌ كُلُّهُ - وَالْحَمْدُ لِلَّهِ - فِي الْإِنَافَةِ الْفَتْحِ الْقُدْسِيِّ .

مَنْ كَانَ فَوْقَ عَمَلِ الشَّمْسِ مَوْضِعُهُ * فَلَيْسَ يَرْفَعُهُ شَيْءٌ وَلَا يَضَعُهُ !

وَأَسْتَصْحَبَ السُّلْطَانُ مَعَهُ تَحْتَ الرِّضَا وَالْعَفْوِ مِنْ أَكْبَارِ الرُّومِيِّينَ - الْأَمِيرِ
 سَيْفِ الدِّينِ جَالِيشِ النَّائِبِ بِالرُّومِ ، وَهُوَ رَجُلٌ شَيْخٌ نَبِيَّهُ لَهُ اسْتِغْفَالٌ بَعْلَمُ ، وَكَانَ لَهُ

في الروم صورة، وهو أمير دَارٍ يعني أمير المظالم . واستصحب ظهير الدين موح (؟) مُشَرَّفَ الممالك، ومُرتبته دُونُ الوزارةِ وفيه فضلٌ، ونسخ كثيراً من العلوم بخطه، مثل الصّحاح في مُجلدٍ واحدٍ، وغير ذلك . واستصحب الأمير نظام الدين أوحد ابن شرف الدين بن الخطير، وإخوته وجماعته وجماعة والده، وأولاد عمّه ضياء الدين بن الخطير المُستشهد رحمه الله .

واستصحب من الأمراء : الأمير مظفر الدين محاف (؟) والأمير سيف الدين بكيجا الجاشنكير، والأمير نور الدين المنجيني، وأصحاب ملطية أولاد رشيد الدين أمير عارض، وهم : كمال الدين وإخوته، وأمير علي صاحب كركر .

واستصحب قاضي القضاة بملطية، وهو القاضي حسام الدين ابن قاضي السكر، ووالده الذي كان يرسل عن السلطان علاء الدين إلى الملوك، وهو رجل عالم فاضل . وأكثر هؤلاء حضروا بيوتهم ونسائهم وغلماهم وحفدتهم .

والذين حضروا تحت الفَصْب - ولد البرواناه المذكور، ولد خواجا بونس، وهو ابن بنت البرواناه، ووالدة البرواناه . والأمير نور الدين جاجا، وهو أكبر أمراء الروم أصحاب النعمة والنعيم، والأمير قطب الدين أحمد أخو الأتابك، والأمير سيف الدين سُقْرُ حاه الرواسي، والأمير سراج الدين إسماعيل بن جاجا، والأمير نُصْرَةُ الدين صاحب سيواس، والأمير كمال الدين عارض الجيش، والأمير حسام الدين ركوك قريب البرواناه، والأمير سيف الدين الجاويش، والأمير سراج الدين أخو حسام الدين، والأمير شهاب الدين غازي بن علي شير التركاني .

ومن المفل : مقدمي الألوفا والمآت - زيرك وسرطان، وحنوكه، ومركده

وتماديه (؟) .

ثم رحل السلطان في اليوم الثاني ونزل بمنزلة قريب خان السلطان علاء الدين كيقباز، ويعرف بكرواني صراي . وهذا الخان بنو عظيم من نسبة خان قرطاي ، وله أوقاف عظيمة . ومن جملة ما وجد قريبا منه أذواد كثيرة من الأغنام عبت فيها العساكر المنصورة ، سألت عنها فقيل : إنها وقفت على هذا الخان يذبح نتاجها للواردين على هذا الخان ، وهذه الأغنام له من جملة الوقوف ، قدر الله استيفادها جملة لما كثرت على هذا الخان من الجيوش المنصورة الضيوف .

ورحلنا في اليوم الثالث وهو يوم الأربعاء ثاني عشرين من الشهر، ونزلنا في وطاة عادة التار يزلون بها تسمى روران كودلوا ، وكودلوا اسم جبال تلك الوطاة .

ورحلنا في يوم الخميس ثالث عشرين من ذي القعدة ، فعرضنا بها - في وطاة خلف حصن تمتدو من طريق غير الطريق التي كنا نوجهنا منها - نهر يعرف بنهر قزل صو ، قريب كودلوا الصغير . ومعنى قزل صو النهر الأحمر ، وهذا النهر صعب الخاض ، واسع الاعتراض ، عالي المهبط ، زلق المسقط ، مرتفع المرتقى ، بعيد المستقى ، لا يجد السالك من أحوال حافته إلا صعيدا زلقا ، فوقف مولانا السلطان بنفسه ، وجرّد سيفه بيده ، وبأشّر العمل بنفسه هو وجميع خواصه ، حتى أتيا المكان جميعه ، ووقف راجلا يعبر الناس أولا فاولا : من كبير وصغير وعلام ، وهو في أثناء ذلك يكرّ على من يزدحم ، ويكرّر التأديب لمن يطلب بأذية رفيقه ويقتهج ، وما زال من رابعة هذا النهار إلى الساعة الثامنة حتى عبرت الناس سالمين . ولما خفت البرور ، ولم يبق إلا المرور ، ركب فرسه وعبر الماء والأنسنة له داعيه ، وعليه من الله واقية بأقيه ، فنزل في واد هناك به مرعى ولا كالسعدان ، ومرأى ولا كشعب بوان .

ثم رحل في يوم الجمعة فقتل عند صحرات قراجار حصار، وهي قرية كانت عامرة فيما مضى، قرية من هدر رجال (٩) قبالة بازار بلو، وهذا بازار هو الذي كانت الخلائق تجتمع إليه من أقطار الأرض، ويباع فيه كل شيء يجلب من الأقاليم، ويقرب من كودلوا الكبير.

وسرنا في يوم السبت سوفا طول النهار، حتى نزلنا في وطانة الأبلستين، وفي هذا النهار عبر مولانا السلطان - نصره الله - على مكان المعركة لمشاهدة أمم التار، وكيف تعاقبت عليهم من العقبان كواسرهما، وكف بأسهم من الشور مناسرها، وكيف أصبحوا لا يندبهم إلا البوم، وتحققوا أن آلتى أهلكتهم زرق الأيسنة لا زرق الروم، فرأهم لمن بقي عبره، وعرضوا على ربهم صفا وجاءوه كما خلقوا أول مره، وأبصر الرياح لأشلائهم متخطفه، والهوام في أجسادهم متصرفه، وشاهدتهم وقد هذأهم كل شيء حتى الوحوش والرياح: فهذه من صديدهم متكررة وهذه عليهم متقصفة.

قد سودت تجر الجبال شعورهم * فكان فيه مسقة الغرباين!

ولما عاينهم مولانا السلطان وعانينهم الناس، أكثروا شكر الله على هذه النعم التي أمست لكافة الكفر كافة وشالة ودارزه، وأثنوا على منته التي سئت^(١) إليهم خيار السآكر المنصورة حتى أصبحت تلك الأرض بهم بارزه، وحضرت من أهل الأبلستين هنالك جماعة من أهل الثقي والدين، واستخبرهم مولانا السلطان عن عدة قتلى المغل فقالوا: (فأسأل العادين)؛ فاستفهم من كبيرهم عن عدة المغل كم من قتيل، فقال: (قل الله أعلم بعيتهم ما يعامهم إلا قليل) وقال بعضهم من عددهم ومن عنده علم من الكتاب: أنا عددت ستة آلاف وسبعائة وسبعين تقرا وضاع

(١) مأخوذ من قولهم سن الإبل سافها سوقا سريها.

الحِسَاب ؛ هذا : غير من آوَى إِلَى جَبَلٍ يَغِيصُهُ مِنْ مَاءِ السُّيُوفِ فَمَا عَصَمَهُ ،
وغيرُ من أَعْتَقَدَ أَنَّ فَرَسَهُ تُسَلِّمُهُ فَأَسْلَمَهُ ؛ فتركهم مولانا السلطان ومضى والفلواتُ
مَزْرَعَةٌ لِحُسُومِهِمْ ، والدُّود - لَأَنَّهَا مُؤْمِنَةٌ وَهُمْ كُفَّارٌ - قَدْ أَثَرَتْ كَالنَّوَاسِرِ فِي كُحُومِهِمْ ؛
فرسم مولانا السلطانُ بِتَقَدُّمِ الْأَثْقَالِ وَالْحُرَّاسِ وَالذَّهْلِيزِ الْمَنْصُورِ صُحْبَةَ الْأَمِيرِ
بَدْرِ الدِّينِ الْخَزَنَدَارِ ، والدُّخُولِ فِي أَلْفِهِ دَرَبِنْدَ ، وَأَقَامَ مولانا السلطانُ فِي سَاقَةِ الْعَسْكَرِ
الْمَنْصُورِ بَقِيَّةَ يَوْمِ السَّبْتِ وَيَوْمَ الْأَحَدِ :

فَهُوَ يَوْمَ الطَّارِدِ أَوَّلُ سَابِقٍ * وَهُوَ يَوْمَ الْقُفُولِ آخِرُ سَائِقٍ !

وَأَنْتَظِرُ فِي هَذَيْنِ الْيَوْمَيْنِ صَيْدًا مِنَ الْعُدَوِيَّيْنِ ، وَمَا مِنْ دِمَاءٍ إِلَى السَّيْفِ يَجِيئُ ؛
فَلَمَّا لَمْ يَجِدْ أَحَدًا رَحَلَ فِي يَوْمِ الْاِثْنَيْنِ فَتَرَلَّ قَرِيبًا مِنَ الْخَانِ الَّذِي فِي الدَّرَبِنْدِ ، وَرَكِبَ
يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ مِنْ طَرِيقٍ غَيْرِ الَّذِي حَضَرَ مِنْهَا ، فَسَلَكَ طَرِيقًا مِنَ الْأَوْعَارِ يَبْسَا ، وَسَلَكَ
مِنْ قُلُلِ الْجِبَالِ فِي هِضَابٍ كَأَنَّ كُلًّا مِنْهَا أَلْفٌ حَمَلَتْ مِنَ الْأَنْجُمِ قَبْسًا ؛ فَقَابَسَى الْعَالَمَ
فِي هَذَا الْيَوْمِ مِنَ الشَّدَّةِ مَا لَا يَدْخُلُ فِي قِيَاسٍ ، وَكَادُوا يَهْلِكُونَ لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ
تَذَارَكَ النَّاسَ ؛ فَتَسَابَقُوا وَلَكِنْ عَلَى مِثْلِ حَدِّ السَّيْفِ ، وَتَسَلَّلُوا وَلَكِنْ سَلُّ حَوَافِرِ
الْخَيْلِ كَيْفَ ؟ ، وَهَبَطُوا مِنْ جِبَالٍ يَسْتَصْعِبُهَا كُلُّ شَيْءٍ حَتَّى طَارِقُ الطُّيْفِ ؛
يَسْتَصْعَبُ اتَّجَرُ الْمُتَحَقِّقِ مِنْ شَاهِقِ وَقُوعِهِ فِي عِقَابِهَا ، وَيَسْتَهْوِلُ النَّجْمُ النَّاقِبُ تَرَفُّعِ
شِعَائِهَا ؛ بِالْقُرْبِ مِنْهَا جَبَلٌ شَاهِقٌ يُعْرِفُ بِسَقَرٍ وَمَا سَقَرٌ ، لَا يُبْقِي عَلَى شَيْءٍ
مِنَ الدُّوَابِّ وَلَا يَذَرُ لَهُ عَقَبَةً لَوَاحَةً لِلْبَشَرِ ؛ أَعَانَ اللَّهُ عَلَى الْهَبُوطِ مِنْهَا ، وَفَازَ بِمَشِئَتِهِ
اللَّهُ وَبِإِسْعَادِهِ مولانا السلطانُ مِنْ زُجْرٍ عَنْهَا ؛ وَعَدَيْنَا كَوَكُصُوا وَهُوَ النَّهْرُ الْأَزْرَقُ ،
وَبَاتَ مولانا السلطانُ هَاكَ ، وَكَانَ قَضِيمُ الْبَغَالِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ وَرَقَّ الْبَلُوطُ ، إِلَّا مِنْ
أُمَسَّتْ عَنَايَةَ اللَّهِ أَنْ تُيَسَّرَ فِي شِعِيرٍ بِخَمْسَةِ عَشَرَ دَرَاهِمًا كُلُّ مَدٍّ يُحُوطُ .

ورحل مولانا السلطان في يوم الأربعاء تاسع عشرين من ذى القعدة فزل قريب
كسول (؟) المقدم ذكرها، وعدل إلى طريق مَرَعَش فزال بجد الله الداعي، وقالوا
للشَّعِير: ما فينا لك مُحَاطِبٌ ولا مِنَّا فيك بِمَالِهِ مُحَاطِرٌ، وللخَيْوَلِ قد حصلَ لَكَ
في مِصْرَ الرَّبِيعِ الأوَّلِ في شَعْبَانَ وفي الشَّامِ في ذِي الحِجَّةِ الرَّبِيعِ الآخِرِ، فَأُرْتَعَتْ
لا يَرُوعُهَا أَصْحَابُ المَوَازِينِ في تلكِ المساجِدِ، وَأَسْتَمَرَّتْ في مُرُوجِ يَتَاسَفُ عَلَيْهَا
أَبْنُ المساجِدِ (؟)؛ وَقَسَمَ مولانا السلطان تِلْكَ الْأَعْشَابُ كَمَا تَقَسَّمَتْ في آفَاقِ السَّمَاءِ
النُّجُومِ، وَأَوْقَفَ كُلَّ أَحَدٍ في مَقَامٍ حَتَّى قَالَ: (وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ)؛ فَكَمْ
هَنَّاكَ مِنْ مُرُوجِ أَعْشَبَتْ فَأَنْجَبَتْ، وَأَنْجَابَتِ السَّمَاءُ عَنْهَا فَأَنْجَبَتْ، وَأَرْبَتْ
عَلَى زُهِيرِ النُّجُومِ فَاهْتَرَّتْ وَرَبَّتْ:

يَصُدُّ الشَّمْسُ اتِّىَ وَاجَهَتُنَا * فَيَحْجُبُهَا وَيَأْذُنُ لِلنَّسِيمِ!

يَخْغَلُهَا هَنَّاكَ أُرْعُ الحِيَاضِ، وَيَلْهُو بِهَا كُلُّ شَيْءٍ فَكَمْ قَصَفَ الْعَاصِي بِهَا
فِي تِلْكَ الرِّيَاضِ.

هَذَا كُلُّهُ: وَخَيْرٌ مِنْ أَرْزَنْجَانٍ، حَارَةٌ بِرَجْوَانٍ؛ وَخَيْرٌ مِنْ أَرْضِي تَوْرِيزٍ، قِطْعَةٌ
مِنْ أَيْلِيزٍ؛ وَكَوْمٌ مِنْ كِيَانٍ سَفْطِ مِيدُومٍ، خَيْرٌ مِنْ قَصْرِ فِي قِصْرِيَّةِ الرُّومِ؛ وَنَظَرَةٌ
إِلَى الْمَقْيَاسِ، خَيْرٌ مِنْ سِيَوَاسٍ؛ وَمَنَاظِرُ الْأَلُوقِ، خَيْرٌ مِنْ كَيْقْبَازِ آلِ سَلْجُوقِ؛ وَتُرْبَةٌ
مِنْ تُرْبِ الْقَرَّاقَةِ، خَيْرٌ مِنْ مُرُوجِ الْعَرَّافَةِ؛ وَشَبْرٌ مِنْ شَبْرٍ، خَيْرٌ مِنْ سَطَا وَمِرَا (؟)
وَجُلُوسٌ فِي بَابِ دَارِكَ خَيْرٌ * مِنْ جُلُوسٍ فِي [بَابِ] إِيوَانِ كَسْرِي،

وَأَنْتِ بِحَاسِحِ لُنُورِ وَجْهِكَ خَيْرٌ * لِي مَنْ أَتَى أَشَاهِدُ بَدْرًا!

يَاوَلِيَا يُولِي الْأَيْدِي سِرًّا * وَوَزِيرًا قَلِيسَ يَكْسِبُ وَزْرًا:

مَا رَأَيْنَا وَاللَّهِ فِيمَنْ رَأَيْنَا * لَكَ مِثْلًا مِنَ الْبَرِّيَّةِ طَوْرًا.

كَمْ خَبَرْنَا الرَّجَالَ فِي كُلِّ أَرْضٍ * فَإِذَا أَنْتَ أَعْظَمُ الْخَلْقِ قَدْرًا!
كَمْ فَلَانٍ قَالُوا وَقَالُوا فُلَانًا * فَإِذَا النَّاسُ دُونَ عَلَيْكَ حَسْرَى!
لَكَ مَدْحٌ قَدْ طَبَّقَ الْأَرْضَ سُبْحًا * نَ إِلَهٍ بِهِ إِلَى النَّاسِ أَمْرَى!
مَا رَأَيْنَا مِصْرًا كِمْصَرًا وَلَا مِنْ مِثْلِكَ فِينَا، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ شُكْرًا!

الضرب الثاني

(من الرسائل الملوكية رسائل الصيد)

وهذه نسخة رسالة في صيد السلطان الشهيد الملك الناصر بن السلطان الشهيد
الملك المنصور «قلاوون» من إنشاء القاضي تاج الدين البازاري، وهي :
الحمد لله الذي نعم النفوس الشريفة بإدراكه الظفر، وأنعم على هذه الأمة بمحمد
الذي أثار كوكب نصره وسفره، وشرع لها على لسان نبيها صلى الله عليه وسلم الغنيمة
في السفر، وأسعف هذه الدولة الشريفة بدوام سلطانها الذي حُفَّتْ أيامه بالعز
والتأييد والظفر .

نحمده على أن أقر العيون بفضله بما أقر، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك
له شهادة ألانت قلب من نفر، وكُرمت أسبابها فلا يمتسك بها إلا أعز فريقي ونفر،
ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي أعز من آمن وأذل من كفر، صلى الله عليه
وعلى آله وأصحابه الذين تجاوز الله عن ذنوبهم وغفر، وسلم تسليما .

وبعد، فإن في ابتغاء النصر مآذا تدركها كل ذات شرفت، وتملكها السجيا
التي تعارفت بالفخار وأتلفت، وتألها النفوس التي مالت إلى العز وإلى تلقائه

صُرِفَتْ ؛ وَمَشَّوْهَا مِنْ حَالَتَيْنِ : إِمَّا فِي مَوْقِفٍ عِزٍّ عِنْدَ مَا تَلْمَعُ بُرُوقُ الصَّفَاحِ ،
وَتَشْدِبُ مِنْ هَوْلِ الْحَرْبِ رُءُوسَ الرِّمَاحِ ، وَتَسْرِجُ جَوَارِحُ النَّبَالِ لِيَحِلَّ فِي الْجَوَارِحِ
وَتَصِيدُ فِي الْأَرْوَاحِ ؛ وَإِمَّا فِي مَوْطِنٍ سَلِمَ عِنْدَ مَا تَنْبَسِطُ النُّفُوسُ إِلَى أَمْنَاءِ صَهَوَاتِ
الْجِيَادِ فِي الْأَمْنِ وَالْأَدَمَةِ ، وَتَنْشِرُجُ الشُّدُورُ إِلَى مَعَاوَةِ الصُّبُودِ وَالْمَسَرَّاتِ مُجْتَمِعَةٍ ؛
وَتُطْلَقُ الْبُرَاةُ قَتَصِيدٍ ، وَتَتَصَرَّفُ بِأَمْرِ الْمُلُوكِ الصَّيْدِ ؛ وَتُرْسَلُ الْحَوَامِي الْمُتَمَسِّكَةِ ،
وَتُلْقَى عَلَى مَا سَنَحَ مِنَ الْوَحْشِ فَلَا تُرَى إِلَّا مُدْرِكُهُ ؛ وَتَفَاضُ حِينَئِذٍ النِّعَمُ السُّلْطَانِيَّةُ
وَتُجْزَلُ مَوَاهِبُهَا ، وَتُلَوِّحُ الْعَصَابَةُ الشَّرِيفَةُ وَتَنْبَعَثُ مَوَاقِبُهَا .

وَكَانَ اللَّهُ تَعَالَى قَدْ جَمَعَ لِلْوَقَائِفِ الشَّرِيفَةِ ، الْمُعْظَمَةِ ، السُّلْطَانِيَّةِ ، الْمَلَكِيَّةِ ،
النَّاصِرِيَّةِ ، خَلَدَ اللَّهُ سُلْطَانَهَا - سَعَادَةِ الْحَالَتَيْنِ حَرْبًا وَسِلَاحًا ، وَآتَاهُ فِيهِمَا النَّصْرَ الْأَرْفَعَ
وَالْعِزَّ الْأَشْمَى ؛ وَوَسَّمَ بِصَدَقَاتِهِ وَعِزِّ مَاتِهِ الْأَثَرَيْنِ وَشَمَّا ، وَنَعَرَهُ نَعْنًا وَعَظَّمَهُ
سُبْحَةً وَشَرَفَهُ ائْشَمًا ؛ فَأَيَّامُ حُرُوبِهِ كُلُّهَا رِفْعَةٌ وَأَنْتِصَارٌ ، وَأَسْتِيلَاءٌ وَأَسْتَظْهَارٌ ، وَقُوَّةٌ
تَحْيَا بِهَا الْمُؤْمِنُونَ وَتَقْتُلِي الْكُفَّارَ ؛ وَأَيَّامُ سَلَامِهِ كُلُّهَا عَدْلٌ وَهَيْبَةٌ ، وَصَدَقَاتٌ مُنْجِيَةٌ
مُنْجِبَةٌ ، وَرَفْعٌ طَلَامَاتٍ مُتَشَعِّبَةٍ ؛ وَقَعَّ نَفُوسَ مُتَوَبِّهٍ ؛ وَحَسَمَ حُطُوبَ مُسْتَدَّةٍ ،
وَحَفِظَ الْحَوَازِيَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ مِنْ كُلِّ بَاسٍ وَوَقَايَتَهَا مِنْ كُلِّ شِدَّةٍ ؛ وَفِي خِلَالِ كُلِّ عَامٍ
تُصَرَّفُ عِزَائِمُهُ الشَّرِيفَةُ إِلَى ابْتِغَاءِ صَيْدِ الْوَحْشِ وَالطَّيْرِ : لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ تَمَيُّزِ
النُّفُوسِ عَلَى اكْتِسَابِ التَّائِيدِ ، وَحُصُولِ الْمَسَرَّةِ بِكُلِّ ظَفِيرٍ جَدِيدٍ ؛ فَيَرْسُمُ - خَلَدَ
اللَّهُ سُلْطَانَهُ - فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَرْسُمُ بِهِ مِنْ مَشَقِّ كُلِّ عَامٍ بِإِحْرَاجِ الدَّهْلِيَّاتِ الْمُنْصَوِّرِ
فَيُنْصَبُ فِي بَرِّ الْجَنَّةِ بِسَفْحِ الْحَرَمِ ، فِي سَاعَةِ مُبَارَكَةٍ آخِذَةٍ فِي إِقْبَالِ الْجُودِ وَالْكَرَمِ ؛
فَتَمْدُّ بِالتَّائِيدِ أَطْنَابَهُ ، وَتَرْفَعُ عَلَى عُمْدِ النَّصْرِ قِيَابَهُ ، وَيُحَاطُ بِمَحْرَاسَةِ الْمَلَائِكَةِ الْكَرَامِ
رِحَابَهُ ، وَتَضْرِبُ خِيَامُ الْأَمْرَاءِ حَوْلَهُ وَطَافًا ، وَتُخَفُّ بِهِ [مِثْلُ] النُّجُومِ بِالْبَدْرِ إِشْرَاقًا ؛
وَيَسْتَقِلُّ الرِّكَابُ الشَّرِيفُ - شَرَفَهُ اللَّهُ - بَعْدَ ذَلِكَ بِقَصْدِ عُبُورِ النَّيْلِ الْمُبَارَكِ فَيُظْهِرُ

من القلعة المحروسة والسلامة تحجبه من المخافة، والحراسة تصحبه فيما قرب ونأى
من المسافة، ولسان السعد قد خاطبه بالحيّة وشافه، وماليك الأمراء قد حفوا به
أطلاباً، وسني مؤكبه قد بعث أمامه من الإضاءة نجاباً؛ ولم يزل حتى ياتي النيل
المبارك ويستوي على الكرسي في القلک المشحون، محوطاً بالنصر الميمون والجيش
المأمون، وقد استنشر باعتلائه البحر والنون؛ وأضحى لظهر القلک من الفخار
[بحضرته] المكرّم، مالمهوات أجياده العتاق المسومة؛ فلهذا نشر أعلام بشرائها،
وقال: ﴿أَرْكَبُوا فِيهَا بِاسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾؛ فسارت به في اليم، ونصر الله
قد تم، وصعد من فلكه، على ما ينس نفوس المؤمنين في كمال سلطانهِ وعِزّة مُلكهِ؛
وأستقر على جوايد شرفت صهوته، وقُربت بالأناة والسكون خطوته؛ عربى النجار،
يختال في سيره كأنما أنتهى من القمار:

ويختال بك الطرف * كأن الطرف تشوان.

ترى الطرف درى أوليس يدرى أنك سلطان!

وسار في زروج محضره، وغور نبات مفتره؛ وقد طلعت للظفر شموه وبدوره،
وأعنت للصيد بزائه وصقوره؛ من كل متوقد الخط من الشهامه، محمول على
الراحات من قرط الكرامه؛ يتوسم فيه النجاح، قبل خفي الجناح، ويخرج من
جو السماء ولا حرج ولا جناح؛ وبأزها الأشهب، يبي بالظفر ويذهب بصدر
مفضض وناظر مذهب؛ له منسرفى، طالما أغنى، كأنما هو شب السنان وقد
جباه الحكمة طعنا:

وصارم في يدك منصلي * إن كان للسيف في الوعى روح،

متقد الخط من شهامته * فالجئ من ناظره مجروح!

قد رآه الشَّجَّ جَنَاحَهُ ، وَقَرَنَ اللَّهُ بِالْأَيْمَنِ غُدُوهُ وَرَوَّاحَهُ ، وَنَصَرَهُ فِي حَرْبِهِ حَيْثُ
جَعَلَ مِنْسَرَهُ رُفْعَهُ وَحِجْلَهُ صِفَاحَهُ ؛ فِي قَوَادِمِهِ السَّعْدُ قَادِمٌ ، وَفِي خَوَافِهِ النُّصْرُ
ظَاهِرٌ الْمَعَالِمِ ؛ كَأَنَّمَا أَلْهِمَ قَوْلَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « بُورِكَ لَأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا » ،
فِي سِرِّهِ وَالطَّيْرِ جَائِمَةً فِي وَكُورِهَا ؛ وَيَخْرُجُ فِي إِغْبَاشِ السَّحَرِ وَعَلَيْهِ سَوَادٌ ، فَيَهَابُهُ
الصَّادِحُ فِي الْخَوْ وَالْبَاغِمُ فِي الْوَادِ ؛ وَيَأْمُرُ - خَلَّدَ اللَّهُ سُلْطَانَهُ - أَمْرَاءَهُ فَيَضْرِبُونَ
عَلَى الطَّيْرِ حَلْقَةً وَهِيَ لَاهِيَةٌ فِي الْإِنْقَاطِ حَبَّهَا ، فَافِلَةٌ عَمَّا يُرَادُهَا ، فَيَذْعَرُونَهَا بِحَقِّقِ
الطَّبُولِ وَضَرْبِهَا ؛ وَمَوْلَانَا السُّلْطَانُ - خَلَّدَ اللَّهُ مَلِكَهُ - لِنَافِرِهَا مُتَرَقِّبٌ ، وَلَطَائِرِهَا
بِالْحَارِجِ مُعَقِّبٌ ، فَمَا يَذْنُو الْكُرْكِيُّ مَقْرُورًا ، حَتَّى يَثُوبَ مَقْهُورًا ؛ سَاقِطًا مِنْ
سَمَائِهِ إِلَى أَرْضِهِ ، وَمَنْ سَعَتْهُ إِلَى قَبْضِهِ ، فَسُبْحَانَ مَنْ خَلَقَ كُلَّ جَنْسٍ وَقَهَرَ بَعْضَهُ
بِبَعْضِهِ ؛ هَذَا : وَالْجَارِحُ قَدْ أَنْشَبَ فِيهِ تَحَالِيَهُ ، وَسَدَّ عَلَيْهِ سُبُلَهُ فِي جَوِّ السَّمَاءِ
وَمَذَاهِبِهِ ؛ وَلَمْ يَزَلْ - خَلَّدَ اللَّهُ تَعَالَى سُلْطَانَهُ - عَامَّةً يَوْمُهُ مُتَوَعِّلًا فِي التَّمَتُّعِ بِلَذَاتِ
صُبُودِهِ ، وَأَوَاقَاتِ سُعُودِهِ ؛ وَحُصُولِ أَرْبِهِ وَمَقْصُودِهِ ، وَجُنُودِ الْمَلَائِكَةِ حَافُونَ بِهِ
وَيَحْمِدُونَهُ ؛ حَتَّى يَنْسَخَ النَّهَارُ اللَّيْلَ بِظُلُمَائِهِ ، وَيَنْمَعَ الطَّائِرُ بِأَضْوَائِهِ ؛ فَيَعُودُ عِنْدَ
ذَلِكَ الرِّكَابُ الشَّرِيفُ إِلَى الْخَيْمِ الْمَنْصُورِ وَالْجَوَارِحِ كَاسِبِهِ ، وَالْأَقْدَادُ وَاهِبِهِ ؛
وَالْجَوَارِحُ مَسْرُورَةٌ ، وَالطُّيُورُ مَأْسُورَةٌ ؛ وَالنَّفُوسُ مُتَمَتِّعَةٌ ، وَالْمَوَاهِبُ مُنَوَّعَةٌ ، وَالْأَرْجَاءُ
مُضَوَّعَةٌ ، وَاللَّهُ تَعَالَى مَعَ سُلْطَانِهِ بِكَلَّاءَتِهِ : « وَمَنْ كَانَ مَعَ اللَّهِ كَانَ اللَّهُ مَعَهُ » ؛ فَيَرْفَعُ
أَمَامَهُ قَانُوسَانِ تَوَّعَّانَ ، كَأَنَّهُمَا كَوْكَبَانِ بَيْنَهُمَا أَقْتِرَانُ ، أَوْ قَرَقَدَانِ رَفَعْتُهُمَا يَدَانِ ؛ فَيَذْنُو
إِلَى مُخَيِّمِهِ الْمَنْصُورِ فِي سُرَادِقِ الْعِزِّ الْحَفِيلِ ، وَعِصَابَةِ النَّصْرِ الْإِمْلِيلِ ، وَتَرَجُلُ الْإِنْصَارُ
قَبْلَ قُسْطَاطِهِ الْمَعْظَمِ عَلَى قَدْرِ مِيلٍ ؛ وَيُسْعَى بِالشَّمُوجِ تَلْقِيَهُ ، وَيُسَوَّى تَحْتِ الْمُلْكِ
لِتَرْقِيهِ ؛ فَعِنْدَ ذَلِكَ يَطُوفُ بِالْهَالِيزِ الْمَنْصُورِ أَمْرَاءُ الْحَرَسِ بِالشَّمُوجِ الْمَرْفُوعَةِ ،
وَالْمَزَاهِرِ الْمَسْمُوعَةِ ؛ فَإِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ مُسْتَبِيلًا ، وَجَاءَ الصُّبْحُ شَيْئًا قَلِيلًا ؛ عَرِضَتْ

عليه النعم فاعطاها ، والمهيمات الإسلامية فقضاها ، وقدمت له الجهاد المسومة فامتطاها ؛ ويسرُح إلى الصند والجوارح التي صادت بالأميس قد استأسدت ، وبسعادته إلى ظفرها قد أرشدت ؛ فإذا سار ركابه الشريف فزقت على أثره عساكر الإسلام ، وقوضت تلك الخيام كأنها الأيام .

ولم يبرح ذلك ذأبه في كل يوم من أيام حركته حتى يأخذ حظه من صيد الطائر ، فعند ذلك ينثني عنان السير ؛ إلى أقاص الوحش فيعد لإنساكها كل هبكل فيد الأوباد ، قد عقد الخير بناصيته فأصبح حسن المعاقيد .

فمن أنهب : كريم المغار ، ذى إهاب من النهار ، وأديم كأنه صحيفة الأبرار ، أبيض مثل الهدى ، له في الصبح إثارة النصر وإغارة على العدا ؛ علا قدراً وغلا قيمه ، وله إلى آل أعوج نسبة مستقيمة ؛ إذا استن في مضمار يسبق البروق الخاطفه ، ويخلف الرّيح حمرى وهى واقفه ؛ يحده الفارس بحرا ، وله عند مجرى العوالى مع السوايق تجرى .

ومن أحر : كأنما صبغ بدم الأعداء أديمه ، وكأنما هو شقيق الشقيق وقسيمه ؛ كرم غمره ومجوله ، وحسنت أعرافه وذؤوله ، مكرم فخر كأمود صخر حطته من على سؤله ؛ حتى لونه تمجّر الرّحيق ، وله كل يوم ظفر جديد مع أنه عتيق .

ومن أدهم : مذرك كالليل ، منصّب كالسّيل ؛ كريم الناصيه ، جواب قاصيه ؛ كأن غمرته صبح تنفس في الدبحي الحالك ، وكأنه من الليل باق بين عينيه كوكب يضيء المسالك ، وكأن مجوله بروق تفرقت في جوانب النسيق فحسن منظرًا لذلك ؛ سنابكه يورى قدحها ، وغمرته ينير صبحها ؛ وجوارحه مسود جحجها ، وصروته كمن فيها العز فلا يزال ظاهرًا بجحجها .

وَمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْجِيَادِ الْمُخْتَبَرَةِ ، وَالصَّافِيَاتِ الْمُعْتَبَرَةِ :

إِذَا مَا صَرَفْتَ اللَّفْظَ تَحْوِشِيَاتِهَا * وَأَلَوْنَهَا فَالْحُسْنُ عَنْكَ مُغِيبٌ^(١) !

وَأَمَّا هِيَ بِصَبْرِهَا عَلَى الظَّأِ ، وَشِدَّةِ عَدُوِّهَا فِي النُّورِ وَالظَّالِمَا ؛ وَسَبْقِهَا إِلَى ظَايَاتِ رَهَانِهَا ، وَتَبَاتِهَا تَحْتَ رَايَاتِ قُرْسَانِهَا .

وَتَلِيهَا الْفُهُودُ الْحَسَنُ مَنْظَرُهَا ، الْجَمِيلُ ظَفَرُهَا ، الْكَاسِبُ نَابُهَا وَظَفَرُهَا ؛ تَفَرَّقُ اللَّيْلُ فِي أَهْلِهَا الْمُجْتَمِعَةِ ، وَأَذْرَكَتِ الْعَوَاصِمَ فِي هِضَابِهَا الْمُرتَفَعَةِ ؛ وَجُوهُهَا كُوجُوهِ الْأَيُّوثِ الْخَادِرَةِ ، وَوَثْبَاتُهَا عَلَى الْعَرِيدَةِ وَتَبَاتُ الْفَيْتَةِ الْمُؤْمِنَةِ عَلَى الْفَيْتَةِ الْكَافِرَةِ ؛ مُقْلَصَةُ الْخَوَاصِرِ ، عَزَمَاتُهَا عَلَى الْوَحْشِ حَوَاصِرُ ؛ مَا أُطْلِقَتْ عَلَى صَيْدٍ إِلَّا قَنَصْتَهُ سَرِيعًا ، وَلَا بَصُرَتْ بَعَانَةً مِنْ حُمُرٍ إِلَّا أَخَذَتْهَا بِجَمِيعَا .

ثُمَّ الْحَوَامِي الْمُعَلَّمَةِ ، وَالضُّوَارِي الَّتِي أَصْحَتْ بِالنَّجْعِ مُتَوَسِّمَةً ؛ مَا مِنْهَا إِلَّا طَاوِي الْخَاصِرَةِ ، وَثِبَاتُهُ طَائِلَةٌ غَيْرَ قَاصِرَةٍ ؛ بَنُيُوبٌ كَالْأَسِنَّةِ ، وَمَسَاعِدِينَ مُقْتُولِينَ تَسْبِقُ بِهِمَا قَوَاتِ الْأَعْيَنَةِ ؛ لَوْ رَأَاهُ عَدِيٌّ بْنُ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَضَمَّهُ إِلَى مَا لَدَيْهِ ، وَأَكَلَ مِمَّا أَمْسَكَ عَلَيْهِ .

وَتَضْرِبُ الْعَسَاكِرُ حَلَقَةً مَا يَلْتَقِي طَرَفَاهَا إِلَّا إِلَى اللَّيْلِ فِي أَنْسَاعِهَا ، تَحْوِي سَائِرَ الْأَوَابِدِ عَلَى آخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا .

فَمِنْ تَعَالِيمِ : خُضِبَ ظَلِيمُهَا لِمَا أَكَلَ رَيْسُهَا ، وَأَحْمَرَّتْ أَطْرَافُ رَيْسِهِ فَكَانَتْهَا سِهَامٌ أَصَابَتْ بِجَمِيعَا ؛ طَالَتْ أَعْنَاقُهَا النَّاحِلَةَ فَكَانَتْهَا خَطِيئَةٌ ، وَاشْتَدَّتْ قَوَائِمُهَا الْحَامِلَةَ فَكَانَتْهَا مِطْيَةٌ ؛ شَارَكَتِ الطَّيْرُ فِي وُجُودِ الْجَنَاحِ ، وَفَارَقَتْهَا فِي كَثَافَةِ الْأَشْبَاحِ ؛ وَأُشْبِهَتْ

(١) الَّتِي فِي دِيْوَانِ الْمُتَنَبِّئِ :

إِذَا لَمْ تُشَاهَدْ غَيْرَ حَسَنِ شَيَاتِهَا * وَأَعْضَاثُهَا فَالْحُسْنُ عَنْكَ مُغِيبٌ .

الْوَحْشُ فِي مَسْكَنِ الْفَقَارِ، وَشِدَّةِ النَّهَارِ؛ قَدْ اجْتَمَعَ فِي ظَاهِرِهَا اللَّوْنَانِ مِنَ الْوَحْشِ
وَالطَّيْرِ وَأَتَتْلَفُ فِي بَاطِنِهَا الضَّدَّانِ مِنْ مَاءٍ وَنَارٍ .

وَمِنْ طِبَاءٍ : مُسَوِّدَةِ الْأَحْدَاقِ ، حَكَّيَتِ الْحَبَائِبَ فِي تَحْلِيلِ الْمُقِلِّ وَحُسْنِ سَوَالِفِ
الْأَعْنَاقِ ؛ أَبْيَضَّتْ بِطُوبَاهَا ، وَأَحْمَرَّتْ مُتُونَهَا ؛ وَرَاقَتْ أَوْرَاقُهَا ، وَحَدَّكَتْ أَمَاقُهَا ؛
نَافِرَةٌ فِي صَهْرَائِهَا ، طَيِّبٌ مَرَعَاهَا فَالْمِسْكُ مِنْ دَمَائِهَا .

وَمِنْ بَقَرٍ وَحَشِيَّةٍ : عُفْرِ الْإِهَابِ ، مَسَاكِنَةِ الْهَضَابِ ؛ لَهَا فِي حِقَافِ الرَّهْلِ
مَرَائِضُ ، حَدَرًا مِنْ قَانِيضٍ قَانِيضٍ ؛ كَمْ فِي مِنْ لَوَى يَتَهَادَى ، كَأَنَّ إِبْرَةَ
رَوْقِهِ قَلَمٌ أَصَابَ مِنَ الدَّوَاةِ مِدَادًا .

وَمِنْ مُجْرَاهَا بَا أَمْرٌ مَسْئُوبُهُ إِلَى أَحَدٍ (؟) وَلَمْ تُرْكَبْ مُتُونُهَا ، وَقَدْ حَكَى الْجَزَعُ
الَّذِي لَمْ يَنْقَبْ فِي دُبْحَى اللَّيْلِ عُيُونُهَا .

وَعِنْدَ مَا تَلْتَقِي حَاقِقَةُ الْعَسَاكِرِ بِلَحَقِهَا - خَلَّدَ اللَّهُ سُلْطَانَهُ - وَمَعَهُ الْجَوَارِحُ الصَّائِدَةُ ،
وَالْحَوَامِي الصَّائِلَةُ ؛ وَالْأَنْسَهُمُ النَّافِذَةُ ، وَالْفُهُودُ الْآخِذَةُ ؛ فَتَمُوجُ الْوَحْشُ دُعْرًا ،
وَتَرَى مَسَالِكَهَا قَدْ سُدَّتْ عَلَيْهَا سَهْلًا وَوَعْرًا ؛ وَضُرِبَ دُونَ نَجَاتِهَا بِسُورٍ مِنَ الْحِيَادِ
وَالْقُرْصَانِ ، وَحِيلَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ خَلَاصِهَا بَيْنَالِ وَخُرْصَانٍ ؛ فَيَنْتَذِرُ تَفَرُّ النَّعَامِ عَنْ رِمَالِهَا ،
وَالطَّبَاءُ عَنْ ظِلَالِهَا ؛ وَالْبَقَرُ عَنْ جَاذِرِهَا ، وَالْحُمْرُ عَنْ بُولِهَا ؛ وَبَقَبُصٌ - خَلَّدَ اللَّهُ
سُلْطَانَهُ - مِنْ جَنْسِ الْوَحْشِ كُلِّ نَوْعٍ ، وَلَوْ لَمْ يُمَسِّكْهَا بِجَارِحٍ لَأَمْسَكَهَا كَمَا تُمَسِّكُ
عُدَاةُ الْإِسْلَامِ بِالرُّوْعِ ؛ وَتُجْزَلُ مِنْهَا الْمَكَاسِبُ ، وَتُمَلَأُ مِنْهَا الْحَقَائِبُ ؛ فَإِذَا أَخَذَ حَظَّهُ
مِنَ الْقَبِيضِ وَلَذَّةِ اكْتِسَابِهِ ، رَسَمَ لِأَمْرَاتِهِ بِالْقَبِيدِ عِنْدَ صُورِ رِكَابِهِ ؛ فَيَصِيدُونَ
وَيَقْتَنَصُونَ ، زَادَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ - فَإِنَّهُمْ فِي طَاعَتِهِ مُخْلِصُونَ ؛ فَيَكْثَرُ عِنْدَ ذَلِكَ كُلِّ

قنص ذبيح، ويأتي كل بما اقتنصه ليظهر التريج، فاذا استكمل أوقات الصيد من الطير والوحش تحي ركباه الشريف إلى جهة القلعة المحروسة والقفار قد شرفت بمرور مواكبه، والوحش والطير قد اقتخرت بكونها أصبحت من مكاسبه .

هذا كله وإن كانت النفس تراه لهوا، وتبلغ به كل ما تهوى، ففي طيه من تمرين الجنود على الحرب ما تستد به العزما وتقوى، فيؤم الركاب الشريف عائدا إلى سريرمك بالقلعة المحروسة، والسلامة قد قضت ما يجب عليها من حراسته، والأقدار قد وقت ما ينبغي من كلائته، فلم يك إلا وهو صاعد إلى القلعة المحروسة وألينة السعادة مخاطبه، وسريره قد آهت فرحا بمقدمه جوائنه، والصيد المبارك قد سعدت مباديه ومحدث عواقبه، فيلقى أهبة السفر، يأخذ فيما بهن من المصالح الإسلامية وظهر، وتشد ألينة السلامة ما أملى عليها العز والتأييد والظفر :

ملك البسيطة أب من سقره * والنصر والتأييد في أثره،
فكانه في عز موكبه * بدر تألق في سنا خفره.
ما في البرية مثله ملك * أوتي الذي أوتيته من ظفره!
يسرى إلى أعدائه رهب * مما يث الناس من خبره.
فالله رب الناس فاطرنا * يؤتبه ما يري على وطره!!

الصف الثاني

(من الرسائل ما يرد منها مؤرد المدح والتقريض)

إما أن يجعل المدح مؤرد الرسالة ويصدر بمدح ذلك الشخص المراد، وإما أن يصدر بآجربة يحكيها المثنى ويخلص منها إلى مدح من يقصد مدحه وتقريضه

وما يَجْرَى بِجَرَى ذَلِكَ . وَلِلْكَأَبِ وَأَهْلِ الصَّنَاعَةِ فِي ذَلِكَ أَفَانِينَ مُخْتَلِفَةُ الْمَقَاصِدِ ،
وَطُرُقُ مَتَابِنَةِ الْمَوَارِدِ .

وهذه نُسخةُ رسالةِ أنسائها أبو عمرو عثمانُ بنُ بَحرٍ الجاحِظُ سَمَّاها "رسالةُ الشُّكرِ"
قَصَدَ بها تَقْرِيصَ وَزِيرِ الْمُتَوَكَّلِ وَشُكْرَ نِعْمَةِ لَدَيْهِ ، مُصَدِّراً لها بِذِكْرِ حَقِيقَةِ الشُّكْرِ
وَبَيَانِ مَقَاصِدِهِ ، وَهِيَ :

جُعِلْتُ فِدَاكَ ، أَيُّدِكَ اللَّهُ وَأَكْرَمَكَ وَأَعَزَّكَ ، وَأَتَمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعِنْدَكَ . لَيْسَ
يَكُونُ الشُّكْرُ - أَبْقَاكَ اللَّهُ - تَأَمَّناً ، وَمِنْ حَدِّ النُّقْصَانِ خَارِجاً ، حَتَّى يَسْتَصْحِبَ أَرْبَعَ
خِلَالَ ، وَيَشْتَمِلَ عَلَى أَرْبَعِ خِصَالٍ :

أَوَّلُهَا : الْعِلْمُ بِمَوْقِعِ النِّعْمَةِ مِنَ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِ ، وَبَقَدْرِ انْتِفَاعِهِ بِمَا يَصِلُ إِلَيْهِ مِنْ
ذَلِكَ : مِنْ سَدِّ خَلَّةٍ ، أَوْ مَبْلَغِ لَذَّةٍ وَعُلُوِّ فِي دَرَجَةِ ، مَعَ الْمَعْرِفَةِ بِمُقْدَارِ أَحْتِمَالِ الْمُنْعَمِ
لِلشَّقَةِ ، وَالَّذِي حَاوَلَ مِنَ الْمُعَانَاةِ وَالْكُفَّةِ فِي بَذْلِ جَاهٍ مَصُونٍ ، أَوْ مُفَارَقَةِ عُلُقٍ
يَمِينٍ . وَكَيْفَ لَا يَكُونُ كَذَلِكَ ؟ وَقَدْ خَوَّلَ مِنْ نِعْمِهِ بَعْضٌ مَا كَانَ حَبِيساً عَلَى
خَوَادِثِ عِدَّةٍ ، فَزَادَ فِي نِعَمٍ غَيْرِهِ بِمَا انْتَقَصَ مِنْ نِعَمٍ نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ . فَكُلَّمَا تَذَكَّرَ الشَّاكِرُ
مَا أَحْتَمَلَ مِنْ مَثُونَةِ الْبَذْلِ ، سَهَّلَ عَلَيْهِ أَحْتِمَالُ مَا نَهَضَ بِهِ مِنْ ثَقَلِ الشُّكْرِ .

وَالْخِصْلَةُ الثَّانِيَّةُ : الْحُرِّيَّةُ الْبَاعِثَةُ عَلَى حُبِّ الْمَكَافَاةِ وَاسْتِحْسَانِ الْجَزَاةِ . وَالشُّكْرُ
مِنْ أَكْبَرِ أَبْوَابِ الْأَمَانَةِ ، وَأَبْغَدِهِ مِنْ أَسْبَابِ الْخِيَانَةِ . وَلَنْ يَبْلُغَ أَحَدٌ فِي ذَلِكَ غَايَةَ
الْمَجْدِ إِلَّا بِمَعُونَةِ الطَّمَعِ ، وَإِلَّا الْخَرْبُ يَحِيَالُ بَيْنَهُمَا ، وَالظُّفْرُ مَقْسُومٌ عَلَيْهِمَا . كَذَلِكَ
حُكْمُ الْأَشْيَاءِ إِذَا تَسَاوَتْ فِي الْقُوَّةِ ، وَتَقَارَبَتْ فِي بُلُوغِ الْمُدَّةِ . وَقَدْ زَعَمَ نَاسٌ أَنَّ الشَّاكِرَ
وَالْمُنْعَمَ لَا يَسْتَوِيَانِ ، كَمَا أَنَّ الْبَادِيَّ بِالظُّلْمِ وَالْمُسْتَصِرَّ لَا يَعْتَدِلَانِ ؛ لِأَنَّ الْبَادِيَّ أَخَذَ
مَا لَيْسَ لَهُ ، وَالْمُسْتَصِرَّ لَمْ يَتَجَاوَزْ حَقَّهُ الَّذِي هُوَ لَهُ ؛ وَلِأَنَّ الْبَادِيَّ لَمْ يَكُنْ مُهَيِّجاً عَلَى

الظلم بعلّة جناها المتّصّر، والمتّصّر مهيجٌ على المكافاة بعلّة جناها البادئ، والمتنور للطباع المغضب، والمستخفّ المهيج أعذر من الساكن الوازع المطمئن .
فلذلك قالوا : إن البادئ أظلم، والمتّصّر أعذر . وزعموا أن المنعم هو الذى أودع صدر الشاكر المحبة بانعامه عليه، وهيجّه بذلك على مكافأته لإحسانه إليه، فقد صار المنعم شريك الشاكر في إحسانه، وتفرّد بفضل إنعامه دون مشاركة غيره، والمنعم هو الذى دفع للشاكر أداة الشكر، وأعاره آلة الوفاء، فهو من ههنا أحقّ بالتقديم، وأولى بالترتيب .

هذا، وقد قال بعض الحكماء والأدباء والعلماء : من تسمّى كرم المنعم التغافل عن حُجَّتِهِ، والإفراار بالفضيلة لشاكر نعمته ؛ لأن الحاجة مغالبه، ولا يتم مودة إلا مع المسامحة . ولذلك قال الربيعي لناس من العرب يتخصّمون : هل لكم فى الحقّ أو خير منه ؟ قالوا : قد عرفنا الحقّ، فما الذى هو خير منه ؟ قال : التغافل فإنّ الحقّ مرّ . ألا ترى إلى بنت هريم بن سنان لما قالت لابنة زهير بن أبى سلمى فى بعض المناحات، أو فى بعض المزاورات : إنّه ليمجّئنى ما أرى من حُسن شاربتكم، وتقاء فتحتكم . قالت ابنة زهير : أما والله لئن قلت ما قلت، فما ذلك إلا من فضول ما وهبتم، ومن بقايا ما أنعمتم . قالت بنت هريم : لابل لكم الفضل، وعلينا الشكر؛ أعطيناكم ما بقى، وأعطيتُمونا ما بقى . وقيل لعبد الله بن جعفر حين أبزل نصيب الشاعر فى الهبة، وكثرله فى العطية : أتنبّل هذا العبد الأسود كلّ هذا النيل، وتجبّوه بمنّيل هذا الحياء ؟ فقال عبد الله بن جعفر : أما والله لئن كان أسود الجلد إنه لأبيض الشعر، أعطياه دراهم تفتى، وثياباً تبلى، ورواحل تُضضى ؛ وأعطانا شئاً يبقى، وحديثاً يثنى، ومكارم لا تتلى . فلهذه الخصال تكلمت خصال المجد فيهم، فظهر عنوان كرم الخير عليهم، فصاروا فى زمانهم منارا، ولن يسدّهم

أعلاما . وليس تيمّ معاني كرم المنعم ، ومعاني وفاء الشاكر ، حتى تتوافق أقوالهما ، وتتفق أهواؤهما على تدافع الحجّة ، والإقرار بالمعجزة ، فيزداد بذلك المنعم فضلا ، والشاكر نبلا .

هذا جملة القول في حصّتين من الأربع التي قدمنا ذكرها ، وشهرا أمرها .

والخصلة الثالثة : الديانة بالشكر ، والإخلاص للنعيم في تصفية الودّ ، فان الدين قائد المروءة ، كما أن المروءة خطام الحمية . وهذه الخصال وإن تسببت في بعض الوجوه ، واقتربت في بعض الأماكن ، فإنها ترجع إلى نصايح يجمعها ، وإلى إناء يحفظها ، منه تجبّت ، وعنه أنبثت ، وإليه رجعت . ولا يحتاج هذه الخصال على مخالفة الهوى ، ومجانبة الهوى ، وعلى اتّهام دواعي الشهوة ، والأمتناع من كلب الطبيعة . وثقّ الأولون بنها في جملة الأسم ، وقارنوا بينها في جمهرة الحكم . ولذلك قال عمر بن الخطّاب رضى الله عنه : اعتزّ عزمه بحميته ، وحزمه بمحتاج يتيه .

ومدارج جميع الأخوال المحمودة على الصبر ، ولن يتكلّف مرآة الصبر من يجهل عاقبة الصبر . وقالوا : لما صار ثقل الشكر لا يحتمل إلا بالصبر ، صار الشكر من نتائج الصبر . وكما أنه لا بدّ للحلم - مع كرم الحلم - من الصبر ، فكذلك لا بدّ للشكر - مع كرم الشكر - من الصبر . فالصبر يجرى مع جميع الأفعال المحمودة ، كما يجرى الهوى مع جميع الأفعال المذمومة . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : « خلق الله عزّ وجلّ النار وحفّها بالشهوات ، وخلق الجنة وحفّها بالمكاره » .

والخصلة الرابعة : وصف ذلك الإحسان باللسان البين ، وتخيّره بالبيان التير ، وباللفظ العذب الشهي ، والمعنى الشريف البهي . فان الكلام إذا كان حسنا ، جعلته الحكماء أدبا ، ووجدت الرواة إلى نشره سببا ، حتى يصير حديثا مأثورا ، ومجدا

مَذْكُورًا، وِدَاخِلًا فِي أَسْمَارِ الْمُلُوكِ، وَسُوقًا مِنْ أَسْوَاقِ الْمُتَادِّينَ، وَوَصْلَةً فِي الْمَجَالِسِ، وَزِيَادَةً فِي الْعَقْلِ، وَتَحْذًا لِّلْأَسَانِ، وَتَرْهِيْفًا لِّلْقَلْبِ، وَتَطْلِيْفًا لِّلْفِكْرِ، وَعِمَارَةً لِّلصُّدْرِ، وَسُلْمًا إِلَى الْعُظْمَاءِ، وَسَبَبًا إِلَى الْحِلَّةِ الْكُبْرَاءِ . وَإِذَا لَمْ يَكُنِ الْإِفْطَرُ رَائِعًا، وَالْمَعْنَى بَارِعًا، وَبِالنَّوَادِرِ مُوَسِّعًا، وَبِالْمُلُحِّ مَجْلُوزًا، لَمْ تَصْنَعْ لَهُ الْإِسْتِمَاعَ، وَلَمْ تَنْشِرْ لَهُ الصُّدُورَ، وَلَمْ تَحْفَظْهُ النَّفُوسَ، وَلَمْ تَنْطِقْ بِهِ الْأَفْوَاهَ، وَلَمْ يُحَدِّدْ فِي الْكُتُبِ، وَلَمْ يَقَيِّدْ بِالذُّرْسِ، وَلَمْ يَحْدِلْ بِهِ قَائِلٌ، وَلَمْ يَلْتَدِّ بِهِ سَامِعٌ . وَمَتَى لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ كَانَ كَلَامًا كَكَلَامِ الْأَفْوِ، وَمَعَانِي السَّمَوِيَّةِ، وَكَأَلْجَرِ الذِّى لَا يُفْهَمُ، وَالْمُسْتَفْلِقِ الذِّى لَا يُعْلَمُ .

وليس - أبقاك الله - نَتَى أَحْوَجَ إِلَى الْحِذْقِ، وَلَا أَفْقَرَ إِلَى الرِّقِّ، مِنْ الشُّكْرِ النَّافِعِ، وَالْمَدِيحِ النَّائِجِ، الذِّى يَبْقَى بَقَاءَ الْوَسْمِ، وَيُلُوحُ كَمَا يُلُوحُ النَّجْمُ . كَمَا أَنَّهُ لَا نَتَى أَحْوَجَ إِلَى وَسْجِ الطَّاقَةِ، وَإِلَى الْفَضْلِ فِي الْقُوَّةِ، وَإِلَى الْإِسْطِلَةِ فِي الْعِلْمِ، وَإِلَى تَمَامِ الْعَزْمِ - مِنَ الصَّبْرِ . وَعَلَى أَنْ الشُّكْرَ فِي طَبَقَاتٍ مُتَفَاوِتَةٍ، وَمَنَازِلَ مُتَبَايِنَةٍ، وَإِنْ جَمَعَهَا أَسْمٌ، فَلَيْسَ يَجْمَعُهَا حُكْمٌ، فَرُبَّمَا كَانَ كَلَامًا يَجْمِشُ بِهِ الصُّدُورَ، وَيَمْتَجِعُ الْأَفْوَاهَ، وَيُجَدِّفُ بِهِ الْأَلْسِنَةَ، وَيُسْتَعْمَلُ فِيهِ الرَّأْيُ الْمُقْتَضِبُ، وَالخَطِاطُ الْمُخْتَارُ، وَالْكَلَامُ الْمُرْتَجَلُ، فَيُرْمَى بِهِ عَلَى عَوَاهِنِهِ، وَيُنْفَى مَصَادِرُهُ عَلَى غَيْرِ مَوَارِدِهِ، لَا يَتَعَدَّرُ فِيهِ الشَّاكِرُونَ لِانْتِفَاعِ الْمُتَعَمِّينَ، كَمَا تَعَدَّرَ الْمُتَعَمُّونَ لِانْتِفَاعِ الشَّاكِرِينَ . وَلَيْسَتْ غَايَةُ الْقَائِلِ إِلَّا أَنْ يُعَدَّ بَلِيغًا مُفَوِّهاً، أَوْ يُسْتَرِيدَ بِهِ إِلَى نِعَمِهِ السَّالِفَةِ نِعْمًا آتِيَةً، أَوْ لَيْسَ إِلَّا لِيُفْتَكِرَ كَرِيمًا، أَوْ يُجْتَدِعَ غَنِيًّا لَا يَتَفَقَّدُ سَاعَاتِ الْقَوْلِ، وَلَا يَتَعَرَّفُ أَقْدَارَ الْمُسْتَمِعِينَ؟ وَلَيْسَ غَايَتُهُ إِلَّا الْكَسْبُ وَالْعَرَضُ وَالْإِنْتِفَاعُ وَالْتَرْتُّعُ، وَعَلَى هَذَا يَدُورُ شُكْرُ الْمُسْتَكَائِينَ، وَإِحْمَادُ الْمُتَكَسِّبِينَ .

وهذا الباب وإن جمَعْتَهُ الْعَوَامُ شُكْرًا، فَهُوَ بِقَرِّ الشُّكْرِ أَشْبَهَ، وَبِذَلِكَ أَوَّلَى، وَرُبَّمَا كَانَ شُكْرُهُ عَنْ تَأَنُّقٍ وَتَدَكُّيرٍ، وَعَنْ تَحْخِيرٍ وَتَخْيِيرٍ، وَعَنْ تَفَقُّدٍ لِلْحَالَاتِ،

وَتَحْصِيلُ الْأُمُورِ فِي الْمَقَامَاتِ الَّتِي تُحِيطُ بِمُهَجَّتِهِ ، وَبَحْضَةُ عَدُوِّ لَا يَزَالُ مُتَرَصِّدًا
لِنِعْمَتِهِ ، فَرُبَّمَا آتَمَسَ الزِّيَادَةَ فِي غَيْظِهِ ، وَرُبَّمَا آتَمَسَ شِفَاءَ دَائِهِ وَإِصْلَاحَ
قَلْبِهِ ، وَتَقَضَّى الْمُبْرَمَ مِنْ مَعَاقِدِ حَقْدِهِ ، عَلَى قَدَرِ الرَّدِّ ، وَعَلَى قَدَرِ تَصَرُّفِ الْحَالَاتِ
فِي الْمَصْلُحَةِ ، لِأَنَّ الشَّاكِرَ كَالرَّائِدِ لِأَهْلِهِ ، وَكَزَعِيمِ رَهْطِهِ ، وَالْمُشَارُّ إِلَيْهِ عِنْدَ مَشُورَتِهِ ،
فَرُبَّمَا اخْتَارَ أَنْ يَكُونَ شُكْرُهُ شَعْرًا : لِأَنَّ ذَلِكَ أَشْهَرُ ، وَرُبَّمَا اخْتَارَ أَنْ يَكُونَ كَلَامًا
مَنْثُورًا : لِأَنَّ ذَلِكَ أَتْبَلُ ، وَرُبَّمَا أَظْهَرَ الْبُسْرَ وَأَتَّحَلَ الثَّرْوَةَ ، وَجَعَلَ مِنَ الدَّلِيلِ
عَلَى ذَلِكَ كَثْرَةَ التَّفَقُّهِ ، وَحُسْنَ الشَّارَةِ ، وَيَرَى أَنَّ ذَلِكَ أَصْدَقُ الْمَدْحِينَ ، وَأَتْبَلُ
الشُّكْرِينَ ، وَيَجْعَلُ قَائِدَهُ إِلَى هَذَا الْمَذْهَبِ ، وَمَسَاقَهُ إِلَى هَذَا التَّذْيِيرِ قَوْلُ نَصِيبٍ :

فَعَايُجُوا فَأَتَيْنَا بِالَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ * وَلَوْ سَكَنُوا أَثْنَتَ عَلَيْكَ الْحَقَائِبُ !

وَمَا يَدْخُلُ فِي هَذَا الْبَابِ وَلَيْسَ بِهِ - قَوْلُ الْعَرِيِّ :

يَا بَنَ الْعَلَاءِ وَيَا بَنَ الْقِرْمِ مِرْدَاسٍ : * إِنِّي لِأَطْرِكَ فِي أَهْلِي وَجُلَاسِي .

حَتَّى إِذَا قِيلَ : مَا عَطَاكَ مِنْ صَفْدٍ ؟ * طَأْطَأْتُ مِنْ سُوءِ حَالٍ عِنْدَهَا رَاسِي !

أُنْتَبِي عَلَيْكَ . وَلِي حَالٌ تُكْذِبُنِي * بِمَا أَقُولُ فَاسْتَحْيِي مِنَ النَّاسِ !

وَيَبِينُ هَذِينَ الشُّكْرِينَ طَبَقَاتٍ مَعْرُوفَةٍ ، وَمَنَازِلَ مَعْلُومَةٍ . وَمَوْضِعُ الشُّكْرِ
قَلْبُ السَّامِعِ فِي الْقَبُولِ وَالْإِسْتِنَامَةِ ، عَلَى قَدَرِ حُسْنِ النِّيَّةِ ، وَالَّذِي يَعْرِفُ بِهِ الشَّاكِرُ
مِنْ صِدْقِ اللَّهْجَةِ ، وَمِنْ قَلَّةِ السَّرَفِ ، وَأَعْتِدَالِ الْمَذَاهِبِ ، وَالْإِقْتِصَادِ فِي الْقَوْلِ .
وَهَذَا بَابٌ سِوَى الْبَابِ الْآخَرِ مِنْ حُسْنِ الْوَصْفِ ، وَجُودَةِ الرُّصْفِ . وَلِذَاكَ لَمَّا
أَحْسَنَ بَعْضُ الْوَاعِظِينَ فِي الْمَوْعِظَةِ ، وَأَبْلَغَ فِي الْأَعْتِبَارِ وَفِي تَرْفِيقِ الْقُلُوبِ ، وَلَمَّا لَمْ يَرِ
أَحَدًا يَخْتَشِعُ ، وَلَا عَيْنًا تَدْمَعُ ، قَالَ : يَا هَؤُلَاءِ إِمَّا أَنْ يَكُونَ بِي شَرٌّ ، أَوْ يَكُونَ بِكُمْ شَرٌّ .

وَقِيلَ لِمَلَسَاءِ الْفَضْلِ الرَّقَاشِيِّ ، وَعَبْدِ الصَّمَدِ بْنِ الْفَضْلِ الرَّقَاشِيِّ : مَا بَالُ
دُمُوعِكُمْ عِنْدَ الْفَضْلِ أَغْزَرَ ، وَعِنْدَ عَبْدِ الصَّمَدِ أَنْزَرَ ، وَلِلَّامِ عَبْدِ الصَّمَدِ أَغْزَرَ ،

وَكَلَامُ الْفَضْلِ أَتَزَرُّ ؟ قالوا : لَأَنْ قَلْبَ الْفَضْلِ أَرْقَ ، فَصَارَتْ قُلُوبُنَا أَرْقَ ،
وَالْقُلُوبُ تُجَارَى .

وقالوا : طُوبَى لِمَمْدُوحٍ إِذَا كَانَ لِلدَّجِ مُسْتَحَقًّا ، وَلِلدَّاعِي إِذَا كَانَ لِلْأَسْتِجَابَةِ
أَهْلًا ، وَلِلْمُنْعِمِ إِذَا حَفِيَ بِالشُّكْرِ ، وَلِلشَّاكِرِ إِذَا حَفِيَ بِالْقَبُولِ .

لَمَّا لَسْتُ أَهْتَشِمُ مِنْ مَدْحِكَ ، لَأَنِّي لَسْتُ أَتَزَيَّدُ فِي وَصْفِكَ ، وَلَسْتُ أَمْدُحُكَ
مِنْ جِهَةِ مَعْرُوفِكَ عِنْدِي ، وَلَا أَصِفُكَ بِتَقْدِيمِ إِحْسَانِكَ إِلَيَّ ، حَتَّى أَقْدِمَ الشُّكْرَ الَّذِي
هُوَ أَوْلَى بِالتَّقْدِيمِ ، وَأَفْضَلُ الصَّنَفِ الَّذِي هُوَ أَحَقُّ بِالتَّفْضِيلِ . وَفِي الْخَبَرِ
الْمُسْتَفِيزِ ، وَالْحَدِيثِ الْمَأْثُورِ : « مَا قُلَّ وَكَثُرَ خَيْرٌ مَّا كَثُرَ وَالْهَيْ . وَقَلِيلٌ بَاقِي
خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ فَإِنْ » .

تَذَكَّرَ النَّاسُ عِنْدَ بَعْضِ الْحُكَمَاءِ طَبَقَاتِ السَّابِقِينَ فِي الْفَضْلِ ، وَتَزَيَّلَ حَالَاتُهُمْ
فِي الْبَرِّ ، وَمِنْ كَانَتْ الْخَصْلَةُ الْمَحْمُودَةُ فِيهِ أَكْثَرَ ، وَالْخَصْلَةُ الثَّانِيَةُ فِيهِ أَوْفَرَ ، فَقَالَ
ذَلِكَ الْحَكِيمُ : لَيْسَ بِعَجَبٍ أَنْ يَسْبِقَ رَجُلٌ إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَكُلُّ شَيْءٍ ، فَقَدْ سَبَقَ
إِلَى تَقْدِيمِهِ نَاسٌ وَأَبْطَأَ آخَرُونَ ؛ وَلَيْسَ بِعَجَبٍ أَنْ يَقُودَ الرَّجُلُ أَتْرَابَهُ فِي الزُّهْدِ ،
وَأَكْفَاءَهُ فِي الْفِقْهِ ، وَأَمْثَالَهُ فِي الذَّبِّ : وَهَذَا يُوجَدُ فِي كُلِّ زَمَانٍ ، وَيُصَابُ فِي كُلِّ
الْبُلْدَانِ . وَلَكِنَّ الْعَجَبَ الْعَجِيبَ ، وَالْبَادِرَ الْغَرِيبَ ، الَّذِي تَهَيَّأَ فِي عُمَرَيْنِ الْخَطَّابِ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَسْقَى لَهُ . وَذَلِكَ أَنَّهُ غَبَرَ عَشْرَ حِجَجٍ : يَفْتَحُ الْفُتُوحَ ، وَيُدَوِّخُ الْبِلَادَ ،
وَيُمَصِّرُ الْأَمْصَارَ ، وَيُدَوِّنُ الدَّوَاوِينَ ، وَيَقْرِضُ الْفُرُوضَ ، وَيُرَبِّبُ الْخَاصَّةَ ، وَيُدَبِّرُ
الْعَامَّةَ ، وَيُنْجِي النَّفْسَ ، وَتَرْتَمِي إِلَيْهِ الْأَرْضُ بِأَفْلَاحِ كَيْدِهَا ، وَأَنْوَاعِ زُحْرُفِهَا ، وَأَصْنَافِ
كُنُوزِهَا ، وَمَكُونِ جَوْهَرِهَا ، وَيَقْتُلُ مَلُوكَهَا ، وَيَلِي مَمَالِكَهَا ، وَيَحِلُّ وَيَعْقِدُ ،
وَيُؤَيِّ وَيُزِيلُ ، وَيَضَعُ وَيَرْفَعُ ، وَبَلَّغَتْ خَيْلُهُ أَفْرِيقَةَ ، وَدَخَلَتْ خُرَاسَانَ : كُلُّ ذَلِكَ
بِالتَّذْيِيرِ الصَّحِيحِ وَالضَّبْطِ ، وَالِإِتْقَانِ وَالْقُوَّةِ ، وَالِإِشْرَافِ ، وَالْبَصَرِ النَّافِذِ ، وَالْعَزَمِ

الْمُتَمَكِّن . ثم قال : لا يَجْمَعُ مَصْلَحَةُ الْأُمَّةِ ، وَلَا يَحْوِشُهُمْ عَلَى حَظِّهِمْ مِنَ الْأَلْفَةِ
وَأَجْتِمَاعِ الْكَلِمَةِ ، وَإِقَامَتِهِمْ عَلَى الْحَبَّةِ ، مَعَ ضَبْطِ الْأَطْرَافِ ، وَأَمْنِ الْبَيْضَةِ - إِلَّا لِيْنُ
فِي غَيْرِ ضَعْفٍ ، وَشِدَّةٍ فِي غَيْرِ عُنفٍ . ثم غر بعد ذلك سِنِيَهُ كُلِّهَا عَلَى وَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ ،
وَطَرِيقَةٍ مُطَرَّدَةٍ ؛ لَا يَتَحَوَّرُ عَنْهَا ، وَلَا يُغَيَّرُهَا ، وَلَا يَسَامُهَا ، وَلَا يَزُولُ عَنْهَا :
مِنْ خُسُوفَةِ الْمَأْكَلِ وَالْمَلْبَسِ ، وَغِلْظِ الْمَرْكَبِ ، وَطَلْفِ النَّفْسِ عَنْ صَغِيرِهَا وَكَبِيرِهَا ،
وَدَقِيقِهَا وَجَلِيلِهَا ، وَكُلِّ مَا يَنَاحِرُ النَّاسَ عَلَيْهِ ، لَمْ يَتَغَيَّرْ فِي لِقَاءِ وَلَا فِي حِجَابِ ،
وَلَا فِي مُعَامَلَةٍ وَلَا فِي مُجَالَسَةٍ ، وَلَا فِي جَمْعٍ وَلَا فِي مَنَعٍ ، وَلَا قَبْضٍ وَلَا بَسْطٍ :
وَالدُّنْيَا تَتَصَبَّبُ عَلَيْهِ صَبًّا ، وَتَدْفُقُ عَلَيْهِ تَدْفُقًا ؛ وَالْحَصْلَةُ مِنْ خِصَالِهِ ، وَالْحَلَّةُ مِنْ
خِلَالِهِ ؛ تَدْعُو إِلَى الرِّغْبَةِ ، وَتَقْنَحُ بَابَ الْأَلْفَةِ ، وَتَقْصُصُ الْمُبْرَمَ ، وَتُقِيدُ الْمُرُوءَةَ
وَتُنْفِصِ الْمُنَّةَ ، وَتَحُلُّ الْعَقْدَةَ ، وَتُورِثُ الْإِعْتِرَارَ بِطَوْلِ السَّلَامَةِ ، وَالْإِتِّكَالَ عَلَى دَوَامِ
الظَّفَرِ ، وَمُؤَانَةِ الْأَيَّامِ ، وَمُتَابَعَةَ الزَّمَانِ . وَكَانَ ثَبَاتُهُ عَشْرَ حِجَجٍ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ
أَعْجُوبَةً ، وَمِنَ الْبَدَائِعِ الْغَرِيبَةِ . وَبَاقُلٍ مِنْ هَذَا يَظْهَرُ الْعَجَبُ ، وَيُسْتَعْمَلُ الْكِبَرُ ،
وَيَظْهَرُ الْجَهْلُ ، وَيَقُلُّ التَّوَاضُّعُ .

وَنَحْنُ وَإِنْ كُنَّا لَا نَسْتَجِيزُ أَنْ نُلْحِقَ أَحَدًا بِطَبَاجِ عُمَرُ وَمَنْهَبِهِ ، وَفَضْلِ قُوَّتِهِ ،
وَتَمَامِ عَزَمِهِ ، فَإِنَّا لَا نَجِدُ بَدَأَ مِنْ مَعْرِفَةِ فَضْلِ كُلِّ مَنْ أَسْقَمَتْ طَرِيقَتُهُ ، وَدَامَتْ
حَلِيقَتُهُ ، فَلَمْ يَتَغَيَّرْ عِنْدَ تَتَابُعِ النَّعَمِ ، وَتَطَاهُرِ الصُّنْعِ ، وَإِنْ كَانَتْ النَّعَمُ مُخْتَلِفَةً
الْأَجْنَاسِ ، وَمُتَفَاوِتَةً فِي الطَّبَقَاتِ . وَكَيْفَ يَلْحَقُ بِهِ أَحَدٌ ؟ قَوْلُهُ : ” لَوْ أَنَّ
الصَّبْرَ وَالشُّكْرَ بَعِيرَانِ مَا بَالَيْتُ أَيُّهُمَا رَكِبْتُ ” وَلِكِنَّا عَلَى حَالٍ لَا نَدْعُ تَعْظِيمَ كُلِّ مَنْ
بَانَ مِنْ نَظَائِرِهِ فِي الْمَرْتَبَةِ ، وَأَشْبَاهِهِ فِي الْمَتَرَلَةِ ، إِذْ كَانَ أَدْوَمُهُمْ طَرِيقَهُ ، وَأَشَدَّهُمْ
مَرِيرَهُ ، وَأَمْضَاهُمْ عَلَى الْجَاهِدَةِ الْوُسْطَى ، وَأَقْدَرُهُمْ عَلَى الْحَبَّةِ الْعُظْمَى .

ولا بد من أن يعطى كل رئيس قسطه، وكل زمان حظه؛ ولا يجزئني قول
القائل : لم يدع الأول للاتحر شيئا، بل تعمري لقد ترك له العريض الطويل،
والثمين الخيطير، واللقم النج، والمنهج الرب . ولو أن الناس مذجرت هذه الكلمة
على أفواه العوام، وأعجب بها الأغمار من الرجال - قلدوا هذا الحكم، وأسئلوا
لهذا المذهب، وأهلوا الروية، ويسوا من الفائدة؛ لقد كان أرفع من الدنيا نفع
كثير، وعلم عزيز .

وأى زمان بعد زمان النبي صلى الله عليه وآله أحق بالفضل، وأولى بالتقديم،
من زمان ظهرت فيه الدعوة الهاشمية، والدولة العباسية، ثم زمان المتوكل على الله،
والناصر لدين الله، والإمام الذي جل فكره، وكثر شغله بتصفية الدين وتبنيه،
وتلخيصه وتنقيحه، وإعزازه وتأييده، وأجتماع كلمته، ورجوع الفتنه . وقد
سمعت من يقول - ويستشهد العيان القاهر، والخبر المتظاهر - : مارأت في زماننا
من كفاة السلطان وولايته، وأعوانه وحجته، من كان يؤمل لهلك، ويتقدم
في التأهب له، إلا وقد كان معه من البذخ والنفع، ومن الصاف والمعجب، ومن
الخيلاء، ومن إفراط التغير للأولياء، والتهم على الخلفاء، ومن سوء اللقاء،
ملا خفاء به على كاتب ولا على عامل، ولا على خطيب ولا على أديب؛ ولا على
خاصي ولا على عامي .

بجمعت - واتخذ الله على النعمة فيك - بين التواضع والتعجب، وبين الإنصاف
وقلة التريد؛ فلا يستطيع عدو ملين، ولا كاشع مسير، ولا جاهل غبي، ولا عالم
مبرز، يزعم أنه رأى في سمائك وأعطافك - عند نتائج النعم، وتظاهري المنز - تفيرا
في لقاء ولا في بشير عند المسألة، ولا في إنصاف عند المعاملة، وأحتمل عند
المطالبة . الأمر واحد، والخلق دائم، والبشر ظاهري، والمجج ناقيه، والأعمال

رَاجِيهِ ، والنَّفوس راضِيهِ ، وَالْعُيُون ناطِقَةً بِالْحَبِّهِ ، وَالصُّدُورُ مأهولةٌ بِالْمَوَدِّهِ ؛
وَالدَّاعِي كَثِيرٌ ، وَالشَّاكِي قَلِيلٌ ؛ وَأَنْتَ بِحَمْدِ اللَّهِ تَزِدُّهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ بِالتَّوَاضُّعِ نُبْلًا ،
وَبِالْإِنْصَافِ قُضْلًا ؛ وَبِحَسَنِ اللَّقَاءِ مَحَبَّةً ، وَبِقِلَّةِ الْعُجْبِ هَيْبَةً .

وَقَالَ سَهْلُ بْنُ هُرُونٍ فِي دَعَائِهِ لِبَعْضِ مَنْ كَانَ يَعْتَنِي بِشَأْنِهِ : اللَّهُمَّ زِدْهُ مِنْ
الْخَيْرَاتِ ، وَأَبْسُطْ لَهُ فِي الْبَرَكَاتِ ؛ حَتَّى يَكُونَ كُلُّ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِهِ مُوفِيًا عَلَى أَمْسِيهِ ،
مُقْصِرًا عَنْ قُضِيْلَةِ غَدِهِ . وَقَالَ فِي هَذَا الْمَعْنَى أَعْشَى هَمْدَانٌ ، وَهُوَ مِنَ الْمُخَضَّرَمِينَ :

رَأَيْتُكَ أَمْسَ خَيْرَ بَنِي مَعَدٍّ * وَأَنْتَ الْيَوْمَ خَيْرٌ مِنْكَ أَمْسٍ ،

وَبَعْدَ غَدٍ تَزِيدُ الْخَيْرَ ضِعْفًا * كَذَلِكَ تَزِيدُ سَادَةَ عِبْدِ شَمْسٍ !

قَدْ وَاللَّهِ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَأَسْبَغَ ، فَاشْكُرْ اللَّهَ وَأَخْلِصْ ؛ مَحْتَدُّكَ شَرِيفٌ ، وَأَرْوَمُوكَ
كَرِيمَةٌ ، وَالْعِرْقُ مُنْجِبٌ ، وَالْعَدَدُ دَثْرٌ ، وَالْأَمْرُ بِجَمِيلٍ ، وَالْوُجُوهُ حِسَانٌ ، وَالْعُقُولُ
رِزَانٌ ؛ وَالْعَفَافُ ظَاهِرٌ ، وَالذِّكْرُ طَيِّبٌ ، وَالنَّعْمَةُ قَدِيمَةٌ ، وَالصَّبِيْعَةُ جَسِيمَةٌ ؛
وَمَا مَثَلُكُمْ إِلَّا مَا قَالَ الشَّاعِرُ :

إِنَّ الْمَهَالِيَةَ الْكَرَامَ تَحْمَلُوا * دَفْعَ الْمَكَارِهِ عَنْ ذَوِي الْمَكْرُوهِ ،

زَانُوا قَدِيمَهُمْ بِحُسْنِ حَدِيثِهِمْ * وَكَرِيمَ أَخْلَاقٍ بِحُسْنِ وَجْهِهِ !

النَّعْمَةُ مَحْفُوظَةٌ بِالشُّكْرِ ، وَالْأَخْلَاقُ مُقَوِّمَةٌ بِالْأَدَبِ ، وَالْكَفَاءَةُ مَحْفُوفَةٌ بِالْحَذَقِ ،
وَالْحِلْدَقُ مَرْدُودٌ إِلَى التَّوَكُّلِ ، وَالصَّنْعُ مِنْ وَرَاءِ الْجَمِيعِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

هَذَا إِلَى مَا أَلْبَسَكَ اللَّهُ مِنَ الْقَبُولِ ، وَعَشَّاءَكَ مِنَ الْحَبَّةِ ، وَطَوَّقَكَ مِنَ الصَّبْرِ .
فَبَقِيَ الْآنَ أَنْ تَنْتَهِيَ مَا أَنْتَ فِيهِ شَهْوَةٌ فِي وَزْنِ هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ ، وَفِي مِقْدَارِ هَذِهِ الْمَتَرَةِ ؛
فَإِنَّ الرِّغْبَةَ وَإِنْ قَوِيَتْ ، وَالرَّهْبَةَ وَإِنْ أَشْتَدَّتْ ؛ فَإِنَّمَا لَا يَثْبُرَانِ مِنَ النَّشَاطِ ،

وَيُتَّجَانُ مِنَ الْقُوَّةِ عَلَى الْمُبَاشَرَةِ وَالْكَدِّ ، مَا تُفْرِهُ الشَّهْوَةُ وَإِنْ ضَعُفَتْ ، وَالْحَرَكَةُ مِنْ ذَاتِ النَّفْسِ وَإِنْ قَلَّتْ ، لِأَنَّ النَّفْسَ لَا تَسْمَحُ بِمَكُونِهَا كُلَّهُ ، وَتُجُودُ بِغَيْرِهَا قُوَّاهَا أَجْمَعُ ، إِلَّا بِالشَّهْوَةِ دُونَ كُلِّ عِلَّةٍ مُحَرَّكَةٍ ، وَكُلُّ سَبَبٍ مُهَيِّجٍ .

قال يحيى بن خالد الجعفر بن يحيى حين تَعَلَّدَ الْوِزَارَةَ ، وَتَكَافَأَ التَّهَوُّصَ بِأَعْبَاءِ الْخِلَافَةِ : أَيْ بَنِي ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ الْعَجَزَ : لِعَظِيمِ مَا تَقَلَّدْتَ ، وَجَسِيمِ مَا تَحْمِلْتُ .
إِنِّي لَتَسْتُ أَمْرٌ أَنْ تَنْفَسَخَ تَحْتَ ثِقَلِهَا تَنْفَسَخَ الْجَمَلُ تَحْتَ الْحِمْلِ الثَّقِيلِ .
قال جعفر : لِكُنِّي أَرْجُو الْقُوَّةَ ، وَأَطْمَعُ أَنْ أَسْتَقِيلَ هَذَا الثَّقِيلَ وَأَنَا مُبْتَهِلٌ غَيْرُ مَبْهُورٍ ، وَأَجِئُ قَبْلَ السَّوَابِقِ وَأَنَا ثَانِي . يقول : وَأَنَا ثَانِي عِنَايَ ، لِأَنِّي لَمْ أَجْهَدْ فَرَسِي رَكْضًا . قال يحيى : إِنْ لِكُلِّ رَجَاءٍ سَبَبًا ، فَمَا سَبَبُ رَجَائِكَ ؟ قَالَ : شَهْوَتِي لِمَا أَنَا فِيهِ ، وَالْمُشْتَهَى لِلْعَمَلِ لَا يَجِدُ مِنَ أَلَمِ الْكَدِّ مَا يَجِدُهُ السَّيْفُ الْأَسِيفُ .
قال يحيى : إِنْ تَهَضَّتْ بِثِقَلِهَا فِيْهَذَا ، وَإِلَّا فَلَآ . وَأَنَا أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَصْرِفَ شَهْوَتَكَ إِلَى حُبِّ ذَلِكَ ، وَهَوَاكَ إِلَى الْإِحْفَاطِ بِنِعْمَتِكَ : بِشُكْرِ الْمُصْلِحِينَ ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ .

وَحَقٌّ لِمَنْ كَانَ مِنْ غَرَسِ الْمُتَوَكِّلِ عَلَى اللَّهِ وَأَبْتَدَأَتْهُ ، وَمِنْ صَنَائِعِهِ وَأَخْيَارِهِ ؛ أَنْ يُخْرِجَ عَلَى آدِهِ وَقَلِيمِهِ ، وَعَلَى تَتَفِيهِهِ وَتَقْوِيمِهِ ؛ وَأَنْ يُحَقِّقَ اللَّهُ فِيهِ الْأَمَلَ ، وَيُخْرِجَ فِيهِ الطَّلَعَ ، وَأَنْ يَمُدَّ لَهُ فِي السَّلَامَةِ ، وَيُخْرِزِلَ لَهُ مِنَ النِّعْمَةِ ؛ وَيُطَيِّبَ ذِكْرَهُ ، وَيُبَلِّغَ كُفَّهَ ؛ وَيُسَرِّ صَدِيقَهُ ، وَيَنْكِتَ عَدُوَّهُ .



وهذه نسخة رسالة تسمى الإغريضية ، أرسلها أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المَعْرَى التُّونِسِيُّ إِلَى أَبِي الْقَاسِمِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ الْمَغْرِبِيِّ ، وَمَعْنَى :

[بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَبِهِ الْإِغَانَةُ] ^(١).

السلام عليك أَيُّهَا الْحِكْمَةُ الْمَغْرِبِيَّةُ ، وَالْأَلْفَاظُ الْعَرَبِيَّةُ ؛ أَيْ هَوَاءِ رَقَاكِ ، وَأَيُّ غَيْثِ سَقَاكِ ؛ بَرَقَهُ كَالْإِحْرِيضِ ، وَوَدَّقَهُ مِثْلَ الْإِغْرِيبِضِ ؛ حَلَّتِ الرَّبُوبَةُ ، وَجَلَّاتِ عَنْ أَهْبُوبِهِ ؛ أَقُولُ لِكَ مَا قَالَ أَخُو مُنِيرٍ ، لَفَتَاةِ بَنِي عُثَيْرِ :

زَكَا لَكَ صَالِحٌ وَخَلَائِكُ دَمٌ * وَصَبَّحَكَ الْيَأْمَنُ وَالسُّعُودُ !

لَأَنَا أَسَفٌ عَلَى قُرَيْكِ مِنَ الْغُرَابِ الْجَحَازِيِّ ، عَلَى حُسْنِ الزَّيِّ ؛ لِمَا أَفْقَرُ ، وَرَكِبَ السَّفَرُ ؛ فَقَدِمَ جِبَالِ الرُّومِ فِي تَوٍّ ، أَنْزَلَ الْبُرْسَ ^(٢) مِنَ الْحَوِّ ؛ فَأَلْتَقَتْ إِلَى عِطْفِهِ وَقَدْ شَمِطَ فَأَيْسَى ، وَتَرَكَ النَّعِيبَ أَوْسَى ؛ وَهَبَطَ إِلَى الْأَرْضِ فَدَشَى فِي قَيْدٍ ، وَتَمَثَّلَ بَيْتَ دُرَيْدٍ :

صَبَا مَا صَبَا حَتَّى عَلَا الشَّيْبُ رَأْسَهُ ، * فَلَمَّا عَلَاهُ قَالَ لِلْبَاطِلِ : أَبْعِدِ !

وَأَرَادَ الْإِيَابَ ، فِي ذَلِكَ الْحُلُبَابِ ؛ فَكَيْدَ حَتَّى مَاتَ ؛ وَرُبُّ وَلِيٍّ أَغْرَقَ فِي الْإِكْرَامِ ، فَوْقَ فِي الْإِبْرَامِ ؛ إِبْرَامَ السَّامِ ، لَا إِبْرَامَ السَّلَمِ ؛ فَحَرَسَ اللَّهُ سَيِّدَنَا حَتَّى تُدْغِمَ الطَّاءُ فِي الْمَاءِ ، فَتِلْكَ حِرَاسَةٌ بِغَيْرِ أَتَهَاءِ ؛ وَذَلِكَ أَنْ هَدَيْنَ ضِدَّانَ ، وَعَلَى التَّضَادِّ مُتَبَاعِدَانِ ، رَخَوٌ وَشَدِيدٌ ، وَهَادٍ وَدُوٌّ تَصْعِيدٌ ؛ وَهُمَا فِي الْجَهْرِ وَالْهَمْسِ ، بِمَنْزِلَةِ غَدٍ وَأَمْسٍ ؛ وَجَعَلَ اللَّهُ رُتْبَتَهُ الَّتِي كَالْفَاعِلِ وَالْمُبْتَدَأِ ، نَظِيرَ الْفِعْلِ فِي أَنَّهَا لَا تَخْفِضُ أَبَدًا ؛ فَقَدْ جَعَلَنِي : إِنْ حَضَرْتُ عَرَفَ شَانِي ، وَإِنْ غَبْتُ لَمْ يَجْهَلْ مَكَانِي ؛ يَمَّا فِي النَّدَاءِ ، وَالْمَحْذُوفِ مِنَ الْإِبْتِدَاءِ ؛ إِذَا قُلْتُ : زَيْدٌ أَقْسَلُ ، وَالْإِثْلُ الْإِثْلُ ، بَعْدَ مَا كُنْتُ كَهَاءِ الْوَقْفِ إِنْ أَلْقَيْتُ فِجَاجِي ، وَإِنْ ذِكْرْتُ فَعِيرَ لَأَرْبَ .

(١) الزيادة من شرح الرسالة الإغريقية الموجودة بدار الكتب السلطانية تحت نمرة ١٢٧ أدب .

(٢) البرس القطن ، والمراد الطلج الشيعة به .

إِنِّي وَإِنْ غَدَوْتُ [فِي زَمَانٍ] كَثِيرِ الدَّدِ ، كَهَاءِ الْعَسَدِ ؛ لَزِمَتِ الْمَذَكَّرُ ، فَاتَتْ
بِالْمُنْكَرِ ، مَعَ إِنْ لَفٍ يَرَانِي فِي الْأَصْلِ ، كَالِإِفِ الْوَصْلِ ؛ يَذْكَرُنِي بِغَيْرِ التَّنَاءِ ، وَيَطْرَحُنِي
عِنْدَ الْإِسْتِغْنَاءِ ؛ وَحَالٍ كَالْهَمْزَةِ تُبَدِّلُ الْعَيْنَ ، وَتُجْعَلُ يَيْنَ يَيْنَ ؛ وَتَكُونُ تَارَةً حَرْفَ لَيْنَ ،
وَتَارَةً مِثْلَ الصَّامِتِ الرَّصِينِ ؛ فَهِيَ لَا تَثْبُتُ عَلَى طَرِيقِهِ ، وَلَا تُتْرَكُ لَهَا صَوْرَةٌ
فِي الْحَقِيقَةِ ؛ وَنَوَائِبُ أَخْلَقَتِ الْكَبِيرَ بِالصَّغِيرِ ، كَأَنهَا تَرْخِيمُ التَّصْغِيرِ ؛ رَدَّتِ الْمُسْتَحْلِسَ
إِلَى حُلَيْسَ ، وَقَابَوْسًا إِلَى قُبَيْسَ ؛ لَأَمُدَّكَ صَوْتِي بِتِلْكَ الْآلَاءِ ، مَدَّ الْكُوفِيِّ صَوْتَهُ
فِي هُؤُلَاءِ ؛ وَأَخَفَّفَ عَنْ حَضْرَةِ سَيِّدِنَا [الْوَزِيرِ] الرَّئِيسِ الْحَبْرَ ، تَخْفِيفَ الْمَدْنِيِّ مَا قَدَّرَ
عَلَيْهِ مِنَ النَّبَرِ ؛ إِنْ كَاتَبْتُ فَلَسْتُ مُتَمِّسَ جَوَابٍ ، وَإِنْ أَسْهَيْتُ فِي الشُّكْرِ فَلَسْتُ طَالِبَ
تَوَابٍ ؛ حَسْبِيَ مَا لَدَيْ مِنْ أَيْدِيهِ ، وَمَا عَمَّرَ مِنْ فَضْلِ السَّيِّدِ الْأَكْبَرِ أَيْدِيهِ ؛ أَدَامَ اللَّهُ
لَهَا الْقَدْرَ مَا دَامَ الضَّرْبُ الْأَوَّلُ مِنَ الطَّوِيلِ صَحِيحًا ، وَالْمُنْدَرِجُ خَفِيفًا سَرِيحًا ؛
وَقَبَضَ اللَّهُ يَمِينِ عَدُوَّهُمَا عَنْ كُلِّ مَعْنٍ ، قَبَضَ الْعَرُوضِ مِنْ أَوَّلِ وَزْنٍ ؛ وَجَمَعَ لَهُ
الْمَهَانَةَ إِلَى التَّقْيِيدِ ، كَمَا جُمِعَا فِي ثَانِي الْمَدِيدِ ؛ وَقُلِمَ قَلَمُ الْقَسِيطِ ، وَخُيِّلَ كَسْبَاعِي
الْبَسِيطِ ، وَعَصَبَ [اللَّهُ] الشَّرْبَهَامَةَ شَانِئَهُمَا وَهُوَ مَحْزُوقٌ ، عَصَبَ الْوَافِرِ الثَّلَاثِ وَهُوَ
مَحْزُوقٌ ؛ بَلْ أَصْحَرَنِي الْأَرْضُ إِخْمَارَ ثَالِثِ الْكَامِلِ ، وَعَدَاهُ أَمَلُ الْآمِلِ ؛ وَسَلِمَ سَيِّدَانَا
أَعَزَّ اللَّهُ نَصْرَهُمَا وَمِنْ أَحْبَاهُ وَقَرَبَاهُ سَلَامَةً مُتَوَسِّطِ الْمُجْتَمِعَاتِ ، فَإِنَّهُ آمِنٌ مِنْ
الْمُرُوعَاتِ ؛ فَقَدْ أَقْنَنْتُ فِي نَعِيمِهِمَا الرَّائِعَةِ ، كَاثَتَانِ الدَّائِرَةِ الرَّائِعَةِ ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ أُمُّ سِتَّةٍ
مَوْجُودِينَ ، وَثَلَاثَةِ مَقْضُودِينَ .

وَأَنَا أَعِدُّ نَفْسِي مُرَاسَلَةَ حَضْرَةِ سَيِّدِنَا الْجَلِيلَةِ عِدَّةً ثُرَيَّا اللَّيْلِ ، وَثُرَيَّا سَهِيلَ ؛
هَذِهِ الْقَمَرُ ، وَتِلْكَ عُمَرُ ؛ وَأَعْظَمُهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ ، إِعْظَامًا فِي مِقَّةٍ وَبَعْضُ الْإِعْظَامِ

فِي مَقْتٍ ؛ فَقَدْ نَصَبَ لِلآدَابِ قُبَّةَ صَارَ الشَّامُ فِيهَا كَشَامَةَ الْمَغِيبِ ، وَالْعِرَاقُ كَعِرَاقِ
الشَّعِيبِ ؛ أَحْسَبَ ظِلَالُهَا مِنَ الْبَرْدَيْنِ ، وَأَغْنَتِ الْعَالَمَ عَيْنَ الْهِنْدَيْنِ ؛ هِنْدِ الطَّيِّبِ ،
وَهِنْدِ النَّسِيبِ ؛ رَبَّةَ الْخِمَارِ ، وَأَرْبَابَ قِسَارِ ؛ أَخْدَانِ التَّجَرِّ ، وَخَدِيدَةَ الْمَجَرِّ .
أَحَامِلَةَ طَوَاقٍ مِنَ اللَّيْلِ ، وَبُرْدَ مِنَ الْمُرْتَبِعِ مَكْمُوفِ الذَّلِيلِ ؛ أَوْفَتِ الْأَشْيَاءُ ، فَقَالَتْ
لِلْكَثِيبِ مَا شَاءَ ؛ تُسَمِّعُهُ غَيْرَ مَفْهُومٍ ، لَا بِالرَّمْلِ وَلَا بِالْمَرْمُومِ ؛ كَانَ سَجِيحَهَا قَرِيبُضَ ،
وَمُرَاسِلُهَا الْغَرِيبُضَ ؛ فَقَدْ مَادَ لَشَجْوِهَا الْعُودَ ، وَفَقِدُهَا لَا يَبُودُ ؛ تَنْدُبُ هَدِيدًا فَاتَ ،
وَأُتِيحَ لَهُ بَعْضُ الْأَفَاتِ - بِأَشْوَقَ إِلَى هَدِيدِهَا مِنْ عَبْدِهِ إِلَى مُنَاسِمَةِ أَنْبَانِهِ ، وَلَا أَوْجَدَ
عَلَى إِنْفِهَا مِنْهُ عَلَى زِيَارَةِ فَنَائِهِ ؛ وَلَيْسَتْ الْأَشْوَاقُ ، لَذَوَاتِ الْأَطْوَاقِ ؛ وَلَا عِنْدَ
السَّاجِمَةِ ، عِبْرَةٌ مُتَرَاكِجِهِ ؛ إِنَّمَا رَأَتْ الشَّرْطَيْنِ ، قَبْلَ الْبُطَيْنِ ؛ وَالرِّشَاءِ ، بِمَدِّ
الْعِشَاءِ ؛ فَخَفَّتْ صَوْتُ الْمَاءِ فِي الْخَرِيرِ ، وَأَتَتْ بَرَاءَ دَائِمَةِ التَّكْرِيرِ ؛ فَقَالَ جَاهِلٌ
فَقَدْتُ حِمِيًّا ، وَتَكَلَّمْتُ وَلَدًا كَرِيمًا : وَهِيَاتَ يَا بَاكِسَةً أَصْبَحْتَ ، فَصَسَدَحْتَ ؛
وَأَمْسَيْتَ ، فَتَنَاسَيْتَ ؛ لَا هَمَّامَ لَا هَمَّامَ ، مَا رَأَيْتُ أَعْجَبَ مِنْ هَازِفِ الْحَمَامِ ؛ سَلِمَ
فَنَاحَ ، وَصَمَّتَ وَهُوَ مَكْسُورُ الْفَنَاحِ ؛ إِنَّمَا الشَّوْقُ لِمَنْ يَدْرِكُ فِي كُلِّ حِينٍ ، وَلَا يُدْهِلُهُ
مُضِيُّ السَّنِينَ .

وَسَيِّدُنَا الْوَزِيرَ أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ الْفَائِلُ النَّظْمُ فِي إِدْكَاءِ مِثْلِ الزَّهَرِ ، وَفِي النِّقَافِ مِثْلُ
الْجَوْهَرِ ؛ تَحْسَبُ بِإِدْرَتِهِ النَّجَاحَ ، أَرْتَفِعَ عَنِ الْخِجَاجِ ؛ وَغَايَرَتَهُ الْجُحْلُ ، فِي الرَّجُلِ ؛ يَجْمَعُ
بَيْنَ اللَّفْظِ الْقَلِيلِ ، وَالْمَعْنَى الْجَلِيلِ ؛ يَجْمَعُ الْأَقْوَمَانِ فِي لُغَايِهِ بَيْنَ الْقِلَّةِ ، وَفَقْدِ الْبِلَّةِ ؛
خَشَنُ ، فَخَسَنُ ؛ وَلَانُ ، فَمَا هَانَ ؛ لَيْنُ الشَّكِيرِ ، يَدُلُّ عَلَى عُنُقِ الْخَضِيرِ ، وَحَرَشُ
الدَّيْنَارِ ، آيَةُ كَرَمِ النَّجَارِ ؛ فَصُنُوفُ الْأَشْعَارِ بِمَدِّهِ كَأَلِفِ السَّلَامِ ، يُلَفِّظُ بِهَا فِي الْكَلَامِ ،
وَلَا تَتَبُّتُ لَهَا هَيْئَةٌ بَعْدَ اللَّامِ ؛ حَلَّصَ مِنْ سَبْكِ النِّقْدِ خُلُوصَ الذَّهَبِ ، مِنَ اللَّهَبِ ؛
وَالْجَحِينُ ، مِنْ يَدِ الْقَيْنِ ؛ كَأَنَّهُ لَأَلْ ، فِي أَعْنَاقِ حَوَالِ ؛ وَسِوَاهُ لَطَ ، فِي عُنُقِ نَطَ ؛

مَا خَافَتْهُ قُوَّةُ الْخَاطِرِ الْإِيمِينِ ، وَلَا عَيْبَ بَسَادٍ وَلَا تَضْمِينَ ؛ وَأَيْنَ النَّفْثَةُ ، مِنْ
الْعَقْرِ ، وَالْعَرْقَدِ ، مِنَ الْفَرْقَدِ ؟ ؛ فَالْسَّامِيُّ فِي أَثَرِهِ فَارِسٌ عَصَا بَصِيرٍ ، لَا فَارِسُ
عَصَا قَصِيرٍ .

وَأَنَا نَابِتٌ عَلَى هَذِهِ الطُّوَيْفَةِ ثَبَاتَ حَرَكَةِ الْبِنَاءِ ، مُقِيمٌ تِلْكَ الشَّهَادَةَ بِخَيْرِ اسْتِثْنَاءٍ ؛
عَفَى عَنِ الْإِيمَانِ فَلَا عَدَمَ ، مُقْسِمٌ عَلَى مَا قَلْتُ فَلَا حِثَّ وَلَا نَدَمَ ، وَإِنَّمَا نَحْبُ الدَّرَّةَ ،
لِلْحُسْنَاءِ الْحَزَّةِ ؛ وَيُجَادُ بِالْيَمِينِ ، فِي الْعِلْقِ الثَّمَنِ ؛ مَا أَنْفَسَهُ خَاطِرًا أَمْتَرَى الْفِضَّةَ ،
مِنَ الْفِضَّةِ ؛ وَالْوَصَاءَ ، مِنْ مِثْلِ الْحَصَاءِ ؛ وَرُبَّمَا تَزَعَتِ الْأَشْبَاهُ ، وَلَمْ يُنْسَبْ الْمَرْءُ
أَبَاهُ ، وَلَا غَرَوَ لَذَلِكَ : الْخُضْرَةُ أُمُّ اللَّهْيَبِ ، وَالْحُمْرَةُ بِنْتُ الْغُرَيْبِ .

وَكَذَلِكَ سَبِيدُنَا وَلَدٌ مِنْ سَحَرِ الْمُتَقَدِّمِينَ ، حِكْمَةً لِلْخُفَاءِ الْمُنْدَدِّينَ ؛ كَمْ لَهُ مِنْ قَافِيَةٍ
تَبَيَّ السُّودَ ، وَتَبَيَّ الْحَسُودَ ؛ كَلِمَتِي ، مِنْ شُرْبِ الْعَاقِمَةِ الْكَبِيَّتِ ؛ تُسَوِّرُهُ قَرِيبَ ،
وَحِسَابُهُ تَرِيبَ ؛ أَيْنَ مُشَبَّهِ النَّاقَةِ بِالْقَدَنِ ، وَالصَّعْصَعِ بِرِدَاءِ الرَّدَنِ ؛ وَجَبَّ
الرَّحِيلُ . عَنْ الرَّيْحِ الْخَيْلَ ؛ تَشَاءُ بَعْدَهُمْ وَاصِفَ ، غَوْدِرَ رَأْيِهِ كَلِمَاتِصِفَ ؛ إِذَا سَمِعَ
الْخَافِضُ صِفَتَهُ لِلسَّهْبِ الْقَسِيعِ ، وَالرَّهْبِ الطَّلِيحِ ، وَدَّ أَنْ حَشِيَّتَهُ بَيْنَ الْأَخْنَاءِ ،
وَحُلُوقِهِ عَصِيمِ الْهِنَاءِ ؛ وَحَلَمَ بِالْقُودِ ، فِي الرُّقُودِ ؛ وَصَاغَ بُرَى ذَوَاتِ الْأُرْسَانِ ، مِنْ
بُرَى الْبَيْضِ الْحِسَانِ ؛ تَشَنَّفَا لِدَّرِ النُّحُورِ ، وَعُيُونِ الْحُورِ ؛ وَشَغَفَا بِدَرْجِي ، وَعَيْنِ
مِثْلِ الرُّكْبَى ؛ وَاعْرَاضًا عَنْ بُدُورِ ، سَكَنَى فِي الْخُلُودِ ؛ إِلَى مَحُولِ ، كَاهِلَةِ الْمُحُولِ ؛
فَهُنَّ أَشْبَاهُ الْقَيْسَى ، وَنَعَامَ الدِّيَ ؛ وَإِنْ أَخَذَ فِي نَعْتِ [الْخَيْلِ]^(١) فَيَاخِيَةِ مِنْ سَبِيهِ^(٢)
الْأَوَايِدِ بِالتَّقْيِيدِ ، وَشَبَّ الْحَا فَرَبَقْعِبِ الْوَلِيدِ ؛ نَمَتَا غَبَطَ بِهِ الْهَجِينَ الْمُنْسُوبَ ، وَالْيَا زِيَّ

(١) الزيادة من شرح الرسالة .

(٢) أى أذهب حواشيها . وفى الأصل شبه بالثنين .

الْبَغْسُوبُ ؛ إِذْ رُزِقَ مِنَ الْخَيْرِ ، مَا لَيْسَ لَكَثِيرٍ مِنْ سِبَاعِ الطَّيْرِ ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ عَلَى الصَّغَرِ ، سَمِيَ بَعْضُ الْغُرِّ ؛ وَقَدْ مَضَى حَرْسٌ ، وَخَفَّتْ جَرَسٌ ، وَلِقَالِيعٌ ، أَبْغَضُ طَالِعٍ ؛ وَالْأَزْرَقُ ، يُحِبُّكَ عَنْهُ الْفَرْقُ .

فَالْآنَ سَلِمَتِ الْجَبْهَةُ مِنَ الْمَعْصِ ، وَشَمِلَ بَعْضُهَا بَرَكَاتُ بَعْضٍ ؛ فَأَيُّقِنِ النَّطِيجَ ، أَنَّ رَبَّهُ لَا يَطِيعُ ؛ وَالْمُهَقُّوعُ ، تَجَاءَ رَأْيِهِ مِنَ الْوُقُوعِ ؛ فَلَنْ يُحَرَّبَ ، فَأَيُّدِ الْمُقَرَّبِ ؛ وَلَنْ يُجِلَّ ، سَائِسُ الْأَرْجَلِ ؛ وَالْعَابُ ، وَإِنْ لَحِقَ الْكِعَابُ ؛ فَإِنَّهُ نَاكِبٌ ، عَنْ نَاقِلَاتِ الْمَرَاكِبِ . وَقَالَتْ خَيْفَانَةُ أَمْرِي الْقَيْسُ : الدَّبَاءُ ، لِرَأْيِ الْمَبَاءِ ، وَالْأُنْفِيَّةُ ، لِلْقَدْرِ الْكَفِيَّةِ ؛ فَتَمَاعِلُ جَاعِلٍ غُدْرَهَا كَقُرُونِ الْعُرُوسِ ، وَجَبْهَتُهَا كَمُخْدَفِ الثُّرُوسِ ؛ وَأَيُّ لِّلْكِنْدِيِّ ، قَوَافٍ كَهَجْمَةِ السَّعْدِيِّ :

إِذَا أَصْطَلَكْتَ بِضَيْقِ حَجَرَتَاهَا * تَلَاقَى الْعَسْجَدِيَّةُ وَاللَّطِيمُ !

فَالْقَسِيدُ ، فِي تَضَاعُيفِ النَّسِيبِ ، وَالشَّبَابُ فِي ذَلِكَ التَّشْيِيبِ ؛ لَيْسَ رَوِيَهُ بِمَقْلُوبٍ ، وَلَكِنَّهُ مِنْ إِزْوَاءِ الْقُلُوبِ ؛ قَدْ جَمَعَ اللَّيْلَ مَاءَ الصَّبَا ، وَصَلَّلَ ظَمَاءَ الظُّبَا ؛ فَالْمَصْرَاعُ كَوَيْلَةِ الْغَرِيْبَةِ ، حَكَتِ الزَّيْنَةَ وَالرِّيْبَةَ ؛ وَأَرَبَتِ الْحَسَنَاءُ سَنَاهَا ، وَالسُّمَّجَةَ مَا عَنَاهَا ؛ فَأَمَّا الرَّاحُ فَلَوْ ذَكَرَهَا لَشَفَّتْ مِنَ الْحَرَمِ ، وَأَتَتْكَ مِنَ الْكَرَمِ إِلَى الْكَرَمِ ؛ وَلَمْ تَرْضَ دِنَانُ الْعَقَارِ ، بِلَاسِ الْقَارِ ؛ وَتَشَجَّ الْعَنَاكِبُ ، عَلَى الْمَنَاكِبِ ؛ وَلَكِنْ تُكْمِي مِنْ وَثَنِ ثِيَابَا ، وَيُفْعَلُ طِلَاؤُهَا زِيَابَا ؛ وَلَقَدْ سَمِعْتُهُ ذَكَرَ خِيَمَةً يَقْطُرُ الْمِسْكَ جَارَهَا مِنَ الشَّيَامِ ، وَيَوَدُّ سَعْدُ الْأَخْيَةِ أَنَّهُ سَعْدُ الْخِيَامِ .

وَوَقَفْتُ عَلَى «مُخْتَصَرِ إِبْرَاهِيمَ الْمَنْطِقِ» الَّذِي كَادَ بِسِمَاءِ الْأَبْوَابِ ، يُغْنِي عَنْ سَائِرِ الْكِتَابِ ؛ فَعَجِبْتُ كُلَّ الْعَجَبِ مِنْ تَقْيِيدِ الْأَجْمَالِ ، بِطَلَاءِ الْأَجْمَالِ ؛ وَقَلْبِ الْبَحْرِ ،

إلى قَلْبِ النَّحْرِ، وإِجْرَاءِ الْفُرَاتِ، في مِثْلِ الْأَنْحَرَاتِ، شَرْقًا لَهُ تَصْنِيفًا شَفَى الرَّبِّ،
وَكُنَى مِنْ آبِنِ قُرْبٍ، وَدَلَّ عَلَى جَوَامِيعِ اللُّغَةِ بِالْإِيْمَاءِ، كَمَا دَلَّ الْمُضْمَرُّ عَلَى مَا طَالَ
مِنْ الْأَسْمَاءِ .

أَقُولُ فِي الْإِخْبَارِ : أَمَرْتُ أَبَا عَبْدِ الْجَبَّارِ ، فَإِذَا أَصْمَرْتُهُ ، عُرِفَ مَقَى قُلْتُ :
أَمَرْتُهُ ، وَأَبْلَى مِنَ الْمَرَضِ وَالْمَرِيضِ ، بِمَا أَسْقَطَ مِنْ شُهُودِ الْقَرِيضِ ، كَأَنَّهُمْ
فِي تِلْكَ الْحَالِ ، شَبَّهُوا بِالْحِمَالِ ، عِنْدَ قَاضٍ ، عَرَفَ أَمَانَتَهُم بِالْإِنْقَاضِ ، عَلَى حَقِّ
عَلِيهِ بِالْيَمَانِ ، فَاسْتَعْنَى فِيهِ عَنْ كُلِّ بَيَانٍ .

وَقَدْ تَأَمَّلْتُ شَوَاهِدَ "إِصْلَاحِ الْمُنْطِقِ" فَوَجَدْتُهَا عَشْرَةَ أَنْوَاعٍ فِي عِدَّةِ إِخْوَةِ
الصَّدِّيقِ ، لَمَّا تَطَاهَرُوا عَلَى غَيْرِ حَقِيقٍ ، وَتَزَيَّدُوا عَلَى الْعَشْرَةِ بِوَاحِدٍ ، كَلَّجَ يُوسُفُ
لَمْ يَكُنْ بِالشَّاهِدِ . وَالشَّعْرُ الْأَوَّلُ وَإِنْ كَانَ سَبَبَ الْأَثَرِ ، وَصَحِيفَةُ الْمَاءِ ، فَإِنَّهُ كَذُوبُ
الْقَالَهْ ، نُمُومُ الْإِطَالَةِ ، وَإِنَّ قَفَا نَبِكَ [عَلَى حُسْنِهَا] ، وَقَدِمَ سِنِّي ، لِتُقَرَّبَ بِمَا يُبْطِلُ
شَهَادَةَ الْعَدْلِ الرَّضَا ، فَكَيْفَ بِالْبَيْتِ الْأَثْنِ ، قَاتَلَهَا اللَّهُ عَجُوزًا لَوْ كَانَتْ بَشَرِيَّةً ،
كَانَتْ مِنْ أَغْوَى الْبَرِيَّةِ . وَقَدْ تَمَادَى بِأَبِي يُوسُفَ رَحِمَهُ اللَّهُ الْاجْتِهَادُ ، فِي إِقَامَةِ
الْأَشْهَادِ ، حَتَّى أَتَشَدَّ رَجَزَ الضَّبِّ ، وَإِنْ مَعَدًا مِنْ ذَلِكَ لِحْدُ مُفْضَبٍ ، أَعْلَى فَصَاحَتِهِ
يُسْتَعَانُ بِالْقَرَضِ ، وَيُسْتَشْهَدُ بِأَخْنَاسِ الْأَرْضِ ؟ ، مَا رُؤِبَةُ عِنْدَهُ فِي نَفِيرٍ ، فَمَا قَوْلُكَ
فِي ضَبِّ دَائِي الْأُطَافِيرِ ؟ ، وَمَنْ نَظَرَ فِي كِتَابِ يَعْقُوبَ وَجَدَهُ كَالْمُهْمَلِ ، إِلَّا بَابَ قَعْلٍ
وَقَعْلٍ ، فَإِنَّهُ مُؤَلَّفٌ عَلَى عَشْرِينَ حَرْفًا : سِتَّةَ مُدْلَقَةٍ ، وَثَلَاثَةَ مُطَبَّقَةٍ ، وَأَرْبَعَةَ مِنْ
الْحُرُوفِ الْبَشِيدَةِ ، وَوَاحِدٌ مِنَ الْمَزِيدَةِ ، وَنَفِثَتَيْنِ : الثَّاءَ وَالذَّالَ ، وَآخَرُمَتَالِ ،
وَالْأَخْنَيْنِ الْعَيْنِ وَالْحَاءِ ، وَالشَّيْنِ مُضَافَةً إِلَى حَبَرِ الرَّاءِ . فَوَجَّهَ اللَّهُ أَبَا يُوسُفَ لَوْ عَاشَ
لَفَاطَ كَدَمًا ، أَوْ أَحْفَاطَ حَسَدًا ، سَبَقَ ابْنُ السَّكَيْتِ ثُمَّ صَارَ السَّكَيْتُ ، وَسَمِيَ ثُمَّ حَارَ
وَيَدًا لِلْبَيْتِ ، كَانَ الْكَأَبُ تِيرًا فِي تُرَابٍ مَعْدِنٍ ، بَيْنَ الْحُثِّ وَبَيْنَ الْمُتَدَنِّ ، فَاسْتَخْرَجَهُ

سَيِّدَنَا وَأَسْتَوْشَاهُ، وَصَقَلَهُ فَكَّرَهُ وَوَشَّاهُ، فَغَبَطَهُ النَّيِّرَاتُ عَلَى التَّرْقِيشِ، وَالْأَلِ النَّفِيشِ؛
فهو محبوبٌ ليس يهين، على أنه ذو وجهين؛ ما تمَّ قَطُّ ولا هم، ولا نطق ولا أرم؛
فقد ناب في كلام العرب الصِّميم، مناب مرأة المنجم في علم التنجيم؛ شغصها ضئيلٌ
ملموم، وفيها القمران والنجوم.

وأقول بعد في إعادة اللفظ : إنَّ حُكْمَ التَّأْلِيفِ فِي دِكْرِ الْكَلِمَةِ مَرَّتَيْنِ، كَالْجَمْعِ
فِي التَّكْلَاحِ بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ؛ الْأَوَّلَى حِلُّ رَامٍ، وَالثَّانِيَةُ بَسْلُ حَرَامٍ، كَيْفَ يَكُونُ
فِي الْهُودُجِ لَيْسَانَ، وَفِي السَّبَّةِ^(١) حِمِيَّانٍ؛ يَا أُمَّ الْقَتِيَّاتِ حَسْبُكَ مِنَ الْهُنُودِ، وَيَا أَبَا
الْفَتَيَّانِ شَرُّكَ مِنَ السُّعُودِ، عَلَيْكَ أَنْتَ بَرْزَبٌ وَدَعْدٌ، وَبَسْمٌ أَيُّهَا الرَّجُلُ بِسْوَى سَعْدٍ؛
مَا قَلَّ أَهْلُهُ، وَالْأَسْمَاءُ كَثِيرَةٌ.

مَثَلٌ يَعْقُوبَ مَثَلٌ خَوْذُ كَثِيرَةِ الْحُلِيِّ ضَاعَفَتْهُ عَلَى التَّرَاقِ، وَعَطَلَتْ الْخَصَرَ وَالسَّاقَ؛
كَانَ يَوْمُ قُدُومِ تِلْكَ النُّسْخَةِ يَوْمَ ضَرْبِ حَشَرِ الْوَحْشِ مَعَ الْإِنْسِ، وَأَضَافَ
الْحِنْسَ إِلَى غَيْرِ الْحِنْسِ؛ وَلَمْ يَحْكَمْ عَلَى الظَّهَاءِ، بِالسَّبَاءِ؛ وَلَا زَمَى الْأَجَالَ، بِالْأَوْجَالِ؛
وَلَكِنْ الْأَضْدَادَ تَجَمَّعَ، فَتَسْتَمِعَ؛ وَتَنْصَرِفَ بِلَذَاتٍ، مِنْ غَيْرِ أَدَاةٍ؛ وَإِنْ عَبْدَهُ
مُوسَى لَقِيَتْ نِقَابًا، فَقَالَ : هَلُمَّ نِكَابًا؛ يَكُونُ لَكَ شَرَفًا، وَبُؤَالَتِكَ فِي حَضْرَةِ سَيِّدِنَا
- أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ - مُعْتَرِفًا؛ فَتَلَوْتُ عَلَيْهِ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ : ﴿إِنَّ لَكَ أَنْ لَا تَجُوعَ فِيهَا
وَلَا تَعْرَى وَأَنْتَ لَا تَقْلَمُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾. وَأَحْسَبُهُ رَأَى نُورَ السُّودِّ فَقَالَ لِمُخَلِّفِهِ،
مَا قَالَهُ مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ لِأَهْلِيهِ ؛ : ﴿إِنِّي آتَيْتُ نَارًا لَعَلَّ آيَتِكُمْ مِنْهَا بَقْبَسٌ
أَوْ أَجِدَ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾. فَلَيْتَ شِعْرِي : مَا يَطْلُبُ ؟ أَقْبَسُ ذَهَبٌ ؟ أَمْ قَبَسُ
هَبْ ؟ بَلْ يَتَشَرَّفُ بِالْإِخْلَاقِ الْبَاهِرَةِ، وَيَتَبَرَّكُ بِالْإِحْسَابِ الطَّاهِرَةِ .

(١) السَّبةُ الزَّمن من الذَّهر ، ولعله يريد بها الأسبوع كما جاء في شرح رسائل المعزى الموجودة

بدار الكتب السلطانية .

بَاتَتْ حَوَاطِبُ لَيْلِي يَقْتَسِنُهَا * جَزَلُ الْحَدَا غَيْرُ خَوَارٍ وَلَا دَعِرٍ !

وقد آب من سفرته الأولى ومعه جدوة من ناز قديمة : إن لمست فنار إبراهيم ،
أو أونسست فنار الكليم ، واجتني بهارا حبت به المرازبة كسرى ، وحمل في فكالك
الأسرى ، وأدرك نوحا مع القوم ، وبقي غصبا إلى اليوم ؛ وما ألتجع موسى إلا الروض
العييم ، ولا أتبع إلا أصدق مقيم ؛ وورد عبده الزهيري من حضرته المطهرة وكأنه
زهرة بقيق ، أو وردة ربيع ؛ كثيرة الورق ، طيبة العرق ، وليس هو في نعمته كالريم ،
في ظلال العزيم ؛ والجلب ؛ في السحاب المنجاب ؛ لأن الظلام يسفر ، والنهار
يسفر ، ولكنه مثل النون في الجوه ، والأعقر تحت جريه .

وقد كنت عرفت سيدنا في ما سلف أن الأدب كعهود في غب عهود ، أروت
النجاد لما طنك بالوهود ؟ ؛ وأنى نزلت من ذلك الغيت ببلد طسم ، كأثر الوسم ؛
منعه القراع ، من الإمزاع ؛ يابوس ، بني سدوس ؛ العدو حازب ، والكلأ
عازب ؛ ياخضب بنى عبد المدان ، ضان في الحربث وإيل في السعدان ؛ فلما رأيت
ذلك أتعبت الأطل ، فلم أجد إلا الحنظل ؛ فليس في اللبد ، إلا الهيد ؛ جنته من
تجربة أجتلت من فوق الأرض ما لها من قراز . لبن الإيل عن المترار متر ، وعن
الأراك طيب حر .

هذا مثلي في الأدب . فأما في النسب ؛ فلم تزل لي بحمد الله تعالى وبفاء سيدنا
بلفتان : بلغة صبر ، وبلغة وفر ؛ أنا منهما بين الليلة المرعية ، واللحجج الربيعية ؛ هذه
عام ، وتلك مال وطعام ؛ والقليل ؛ سلم إلى الحليل ؛ كالمصلى يرغب الضوء ، بإسباغ
الوضوء ، والتكفير ، بإدامة التعفير ؛ وقاصد بيت الله يسئل الحوب ، بطول الشحوب .

وأنا في مكتبة حضرة سيدنا الجليلة، والميل عن حضرة سيدنا الأجل والده
 - أعز الله نصره - كسبا بن يعرب، لما أبتهل في التقرب؛ إلى خالقي النور، ومصرف
 الأمور، نظر فلم ير أشرق من الشمس يدا، فسجد لها تعبداً . وغير ملوم سيدنا
 لو أعرض عن شقائق النعمان الربيعية، ومدائح الربوعية؛ ملأ من أهل هذه البلد
 المضاف إلى هذا الاسم، فقير معتذر، من أبص لأجلهم نبي المنذر؛ وهم إلى
 حضرة السنية رجالات : سائل، وقائل؛ فاماً السائل فالح، وأما القائل فغير
 مستملح؛ وقد سرت نفسي عنها ستر الخميص، بالقميص؛ وأني الهتر؛ بسجوف
 الستر؛ فظهر لي فضله الذي مثله مثل الصبح إذا لمع تصرف الحيوان في شؤونه
 وخرج من بينه الربوع، وبرز الملك من أجل الربوع، وقد يولع الهجرس؛ بأن
 يجرس؛ في البلد الجرد، فدام الأسد الورد . ولاني خبرت أن تلك الرسالة الأولى
 عرضت بالمعرض الكريم : فوجب ذلك رحيل أختها، متعرضة لنيل بختها؛
 وكيف لا تنفع، وفي اليم تقع؛ وهي بمقصد سيدنا فاجر، ولو نهيبت الأولى
 لآتته الآخرة :

كملت الرسالة .



قلت : وهذه رسالة أنشأتها في تقرير المقر الكريم الفتحى، أبى المعالي فتح الله،
 صاحب دواوين الانشاء الشريف بالديار المصرية والممالك الإسلامية، أدام الله
 تعالى معاليه، في شهور سنة أربع عشرة وثمانمائة، وهى :

الحمد لله الذى جعل الفتح محط رحال الفرائح الجائدة، ومستقر نواها، ومحيط
 دائرة الأفكار الواردة، ومركز شعاع كواها، ومادة عناصر الأفهام الجائلة، وعناد
 شكيمة قواها .

تَحْمَدُهُ عَلَى أَنْ خَصَّ الْمَلَكَهَ الْمِصْرِيَّةَ مِنْ إِيْدَاعِ سِرِّهَا الْمَصُونِ بِأَوْسَعِ صَدْرِ رَحِبٍ ، وَأَنْهَضَ بِتَدْيِيرِ مَصَالِحِهَا مَنْ إِذَا سَبَرَتْ كَتَائِبُ كُتُبِهِ إِلَى عَدُوٍّ أَنْشَدَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرْقِ : قِفَا تَبِكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبَ ، وَأَقَامَ لِنُصْرَتِهَا بِأَسْلِ الْأَقْلَامِ وَصِفَاحِ الْمَهَارِقِ مَنْ إِذَا طَرَفَهَا عَلَى الْبُعْدِ طَارِقٌ تَلَا لِسَانُ يَرَاعَتِهِ : (نَصْرٌ مِنْ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ) .

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً تَسِيرُ بِهَا بُرْدُ الْهِدَايَةِ إِلَى آفَاقِ الْأَخْلَاقِ فَتُشِيدُ لِقَالِجِ الْإِيمَانِ بِأَقْطَارِ الْقُلُوبِ أَرْكَانًا ، وَتُرَقِّمُ أَسْرَارُ شِعَائِرِهَا بِنَقِصِ الْقَبُولِ فِي مُخْهَفِ الْإِقْبَالِ فُتَبَدَّلُ دَاعِيهَا بِإِذَاعَةِ خَبَرِهَا مِنَ الْإِسْرَارِ إِعْلَانًا ، وَتَدِينُ بِطَاعَتِهَا مُلُوكُ الْمَسَالِكِ النَّائِيَةِ خُضُوعًا فَتَتَخَذُ كُتُبَ رَسَائِلِهَا عَلَى الْمَقَارِقِ بَعْدَ اللَّحْمِ تَجَاعًا ، وَأَشْهَدُ أَنْ هَذَا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَفْضَلُ نَبِيٍّ سَنَّ الْمَعْرُوفَ وَنَدَبَ إِلَيْهِ ، وَأَكْرَمُ رَسُولٍ جَعَلَ خَيْرَ بَطَاقَتِي الْمَلِكَ الَّتِي تَأْمُرُهُ بِالْخَيْرِ وَتَحْتِمْ عَلَيْهِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَوَحَّيَهُ الَّذِينَ سَلَكَوا فِي السَّيْرِ سَبِيلَهُ وَاتَّبَعُوا فِي السَّيْرِ سُنَّةَهُ وَأَقْنَعُوا فِيهِ سُنَّتَهُ ، وَاتَّبَعُوا فِي الْمَعْرُوفِ آثَارَهُ فَلَا عَلَيْهِمْ تَالِي الْإِخْلَاصِ : (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) . صَلَاةُ لِنَقَائِلِ عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ أَخْبَارُهَا ، وَيَتَصَدَّى لِرَوَايَتِهَا مِنَ الْأُمَّةِ عَلَى تَمَادِي الدَّهْرِ أَخْبَارُهَا ، وَسَلَمُ تَسْلِيمِهَا كَثِيرًا .

وبعدُ ، فإِنْ رِيَاةَ أَهْلِ الدَّوَلِ تَنَفَّوَتْ بِاعْتِبَارِ قُرْبِ الرَّئِيسِ مِنْ مِلْكِهِ فِي مُخَاطَبَتِهِ وَمُنَاجَاتِهِ ، وَأَعْتِمَادِ تَعَبُّرِهِ فِي أُمُورِ دَوْلَتِهِ وَتَنْفِيزِ مُهِمَّاتِهِ ، وَالْإِسْتِنَادِ عَلَى رَأْيِهِ فِي جَلِيلِ خُطُوبِهِ وَعَظِيمِ مُلْهَمَاتِهِ :

فَعَالٌ تَمَادَتْ فِي الْعُلُوكَاتِمَا * تُحَاوِلُ نَارًا عِنْدَ بَعْضِ الْكَوَاكِبِ !

وَلَا خَفَاءَ أَنْ صَاحِبَ دِيْوَانِ الْإِنْشَاءِ مِنْ هَذِهِ الرَّتَبَةِ بِالْمَحَلِّ الْأَرْفَعِ ، وَالْمَنْزِلَةِ الَّتِي لَا تُدْفَعُ وَلَا تُدْفَعُ ، وَالْمَقَامِ الَّذِي تَقَرَّدُ بِصَدَائِرَتِهِ فَكَانَ كَالْمَصْدَرِ لَا يَنْتَبِئُ وَلَا يَجْمَعُ ،

إذ هو كليم الملك ونجيه ، ومُقَرَّبُ حَضْرَتِهِ وَحَظِيهِ ؛ بل عَمِيدُ الْمُلْكَةِ وَعِمَادُهَا ،
وَرُكْنُهَا الْأَعْظَمُ وَسِنَادُهَا ، حَامِي حَوَمَتِهَا وَسِدَادُهَا ؛ وَعِقْدُهَا الْمَتَّسِقُ وَنِظَامُهَا ، وَرَأْسُ
ذِرْوَتِهَا الْعُلْيَا وَسَتَامُهَا ، وَجُهَيْنَةُ خَبَرِهَا ، وَحَقِيبَةُ وَرْدِهَا وَصَدْرِهَا ؛ وَمُبْلَغُ أَنْبَاءِهَا
وَسَفِيرُهَا ، وَزَنْدُ رَأْيِهَا الْمُوَرَّى وَمُشِيرُهَا .

فَهِبْهَا بِالْمَكْرُمَاتِ وَالْعُلى ! وَجِهْهَا بِالْفَضْلِ وَالسُّؤْدِدِ الْمُحْضِ !

هذا . وهو الواسطةُ بين الْمَلِكِ وَرَعِيَّتِهِ ، وَالْمَتَكَفِّلُ لِقَصِيصِهِمْ بِدَرْكِ قَصْدِهِ وَبُلُوغِ
بَغْيَتِهِ ، وَالْمُسْعِدُ لِلظَّالِمِ مِنْ عِزَائِهِمْ تَوْقِيعَاتِهِ بِمَا يَقْضِي بِنُصْرَتِهِ ؛ وَجِنْدٌ فَلَا يَصْلُحُ
لَهَا إِلَّا مَنْ كَانَ مَعَ كَرَمِ الْحَلِيمِ بَارِزًا لِحَالِمِ الْأَصْطِنَاعِ الْمَعْرُوفِ ، وَمَعَ سُمُو الرُّبَّةِ سَامِي
الْهِمَّةِ لِإِعَانَةِ الْمُنْهَوِّ ؛ وَمَعَ عِزِّ الْجَنَابِ لَدَى مَلِكِهِ لِيَنَّ الْجَانِبَ لِذِي الْمَسْأَلَةِ ، وَمَعَ
قُرْبِهِ بِحُضْرَةِ سُلْطَانِهِ قَرِيبًا مِنَ الرَّعِيَةِ حَتَّى مِنَ الْمُسْكِينِ وَالْأَرْمَلَةِ .

وغيرُ خَافٍ أَنْ كُلَّ وَصِفٍ مِنْ هَذِهِ الْأَوْصَافِ مَعَ مُقَابِلِهِ كَالضَّئِدَيْنِ اللَّذَيْنِ
لَا يَجْتَمِعَانِ بِجَالٍ ، وَالْقَيْضَيْنِ اللَّذَيْنِ قَضَى الْعَقْلُ بَأَنَّ الْجَمْعَ بَيْنَهُمَا مُحَالٌ ؛ وَأَنَّى يَجْتَمِعُ
الْعَالِي وَالْهَاسِطُ ، وَالْمُرْتَفِعُ وَالسَّاقِطُ ؟ أَمْ كَيْفَ تُتَّصِلُ الْأَرْضُ بِالسَّمَاءِ ، أَوْ يَقَعُ
أَمْتَرَا جُ عُنْصِرِ النَّارِ بَعُنْصِرِ الْمَاءِ ؟ وَمِنْ ثَمَّ عَزَّ هَذَا الْمَطْلَبُ لِهَذِهِ الْوَظِيفَةِ حَتَّى إِنَّهُ
لَأَعَزُّ مِنَ الْجَوْهَرِ الْفَرْدِ ، وَقَلَّ وَجُودُهُ حَتَّى لَمْ يُوجَدْ إِلَّا فِي الْوَاحِدِ الْقَدِّ فَلَا تَرَاهُ
إِنْ تَرَاهُ إِلَّا فِي حِيزِ النَّادِرِ ، وَلَا تَنْظُرُ بِهِ إِلَّا ظَفَرَكَ بَيْضِ الْأَثْوَقِ إِنْ كَانَ يظْفَرُ بِهِ
ظَافِرٌ ؛ إِلَّا أَنَّهُ رُبَّمَا سَمِعَ الدَّهْرُ فَأَنَّى بِالْقَدِّ مِنْ هَذَا النَّوعِ فِي الزَّمَنِ الْمَتَبَاعِدِ ، أَوْ أَسْعَدَ
الدَّهْرُ فَأَسْعَفَ بِالْوَاحِدِ بَعْدَ أَلْفٍ وَاحِدٍ .

ثم قد مضتُ بَرْهةً مِنَ الْأَيَّامِ وَجِدْتُ دِيوَانَ الْإِنْشَاءِ مِنْ نَظَرٍ مِنْهُ هُوَ مُتَّصِفٌ بِبَعْضِ
هَذِهِ الْأَوْصَافِ عَاطِلٌ ، وَالْدَّهْرُ يَعُدُّ مِنْ يَقُومُ فِيهِ بَتَفَرِيحٍ كُرْبَةُ الْمَلْهُوفِينَ وَلَكِنَّهُ
يُمَاطِلُ :

رُفَّهَ مَا يُرَفُّهَ فِي التَّفَاضِي * وَلَيْسَ لَدَيْهِ غَيْرُ الْمَطْلِ نَقْدُ!

إِلَى أَنْ طَلَعَ نَيْرُ الزَّمَانِ وَتَوَضَّعَ شُرُوقُهُ، وَظَهَرَتْ تَبَاشِيرُ صَبَاحِهِ وَأَقْلَ بَطْلُوعِ السَّعْدِ عَيْوُفُهُ؛ فَأَقْبَلَتِ الدَّوْلَةُ الظَّاهِرِيَّةُ بِسَعَادَتِهَا، وَتَلَقَّتْهَا الْأَيَّامُ النَّاصِرِيَّةُ جَارِيَةً مِنْهَا عَلَى وَفْقِ عَادَتِهَا؛ وَوُفِّرَ لِلدَّوْلَتَيْنِ مِنْ آخِثَابِ الْأَصْفِيَاءِ قِسْمَتُهَا، وَتَحَضَّتْ لَهَا الرَّأْيَ الصَّائِبَ حَتَّى ظَهَرَتْ فِي الْوُجُودِ زُبْدَتُهَا؛ فَكَانَتْ خُلَاصَةً أَصْطِفَاقِيَّتَيْنِ، وَزُبْدَةً أَتَقَانِيَّتَيْنِ؛ الْمَقَرُّ الْأَشْرَفُ، الْعَالِي، الْمَوْلَوِيُّ، الْقَاضِي، الْكَبِيرِيُّ، السَّفِيرِيُّ، الْمُشِيرِيُّ، الْفَتْحِيُّ، نِظَامُ الْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَزِمَامُ سِيَاسَتِهَا، وَمُنْقَذُ أُمُورِهَا، وَجَامِعُ رَأْسِيَّتِهَا؛ أَبُو الْمَعَالِي فَتْحُ اللَّهِ صَاحِبُ دَوَاوِينِ الْإِنْشَاءِ الشَّرِيفِ بِالْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ، زَادَ اللَّهُ تَعَالَى فِي أَرْقَانِهِ عَلَى تَعَاقِبِ الدُّوَلِ، وَأَجْرَاهُ مِنْ خَيْيِّ اللَّطْفِ عَلَى أَجْمَلِ الْعَوَائِدِ وَقَدْ فَعَلَ؛ فَأُلْقِيَ إِلَيْهِ مِنْ أَسْرَارِ الْمَمْلَكَةِ مَقَالِيدُهَا، وَاتَّفَقَتْ بِحُسْنِ سِفَارَتِهِ بِاتِّفَاقِ الرُّوَاةِ أَسَانِيدُهَا؛ فَتَقَدَّتْ بِتَنْفِيذِهِ أُمُورُهَا، وَكَلَّتْ بِصَحِيحِ رَأْيِهِ كُسُورُهَا؛ بَحَرَتْ الْأُمُورُ بِحُسْنِ تَنْظِيرِهِ عَلَى السَّدَادِ، وَمَشَتْ الْأَحْوَالُ بِلُطْفِ سِفَارَتِهِ عَلَى أَيْمَنِ الْمُرَادِ؛ وَاعْتَرَفَتْ لَهُ الْكَافَّةُ بِالسِّيَادَةِ فَاطَاعَتْ، وَعَرَفَتْ لَهُ الرِّعْيَةَ تَقَدَّمَتْ فِي الرَّأْسَةِ فَرَعَتْ حُرْمَتَهُ وَرَاعَتْ.

وَإِنَّ أُمُورَ الْمُلْكِ أَخْضَى مَدَارُهَا * عَلَيْهِ كَادَارَتْ عَلَى قُطْبِهَا الرَّحَى!

فَدِ اسْتَعْبَدَ الْخَطُّ فَاضْبَحَ لَهُ كَالْحَدِيدِ، وَأَتَى مِنَ الْمَعْرُوفِ بِكُلِّ غَيْرِيبٍ فَانَسَى مِنْ أَثَرِ عَنَةِ ذَلِكَ فِي الزَّمَنِ الْقَدِيمِ؛ فَلَوْ رَأَاهُ «خَالِدُ بْنُ بَرْمَكٍ» لَانْتَجَمَ عَنْ مِلَاقَاتِهِ عِظَمًا، أَوْ نَاقَاهُ «يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ» لَمَاتَ مِنْ مُنَاوَلَاتِهِ عَدَمًا، أَوْ سَابَقَهُ «الْفَضْلُ وَجَعْفَرُ» أَنْبَاهُ لَسَبَقَهُمَا كَرَمًا:

مَنَاقِبُ لَوْ أَتَى نَكَلَفَتْ نَسْخَهَا، * لَا فُلَسْتُ فِي أَقْلَامِهَا وَمِدَادِهَا!

أَوْ سَمِعَ بِهِ "الْحَسَنُ بْنُ سَهْلٍ" لَقَطَعَ إِلَيْهِ الْحَزَنَ وَالسَّهْلَ ، أَوْ بَصُرَ بِهِ "الْفَضْلُ" أَخُوهُ ، لَمَّا رَأَى أَنَّهُ لِلْفَضْلِ أَهْلٌ ، أَوْ عَانَيْتَهُ "أَبُو عَلِيٍّ بْنُ مُقْلَةٍ" لَعَلَّمَ أَنَّهُ فَاقَهُ حَقًّا وَخَطًّا ، أَوْ نَظَرَ "أَبْنُ هِلَالٍ" إِلَى أَهْلِهِ نَوَانِيَهُ لِتَحَقُّقِ أَنَّهُ سَبَقَهُ إِلَى تَحْرِيرِ هِنْدَسَةِ الْحُرُوفِ وَمَا أَخْطَأَ :

إِذَا أَخَذَ الْقِرطَاسَ خَلَّتْ يَمِينُهُ * تَفْتَحُ نُورًا أَوْ تُنْظِمُ جَوْهَرًا !
فَإِنْ تَكَلَّمَ أَنَّى مِنْ بَيَانِهِ بِالسَّحْرِ الْحَلَالِ ، أَوْ حَاوَرَ أَنَّى مِنَ الْبَلَاغَةِ بِمَا يُقْصَرُ عَنْ رَتَبَتِهِ "سَهْبَانَ" فِي الْمَقَالِ ، أَوْ تَرَسَّلَ أَغْنَى "عَبْدُ الْحَمِيدِ" فِي رَسَائِلِهِ ، أَوْ كَتَبَ رَتَعَتْ مِنْ رَوْضِ خَطِّهِ فِي زَهْرِ نَعْمَائِهِ :

يُؤَلِّفُ اللَّوْلُوَ الْمَشْتُورَ مَنَظْمَةً * وَيَنْظِمُ الدَّرَّ بِالْأَقْلَامِ فِي الْكُتُبِ !
فَرَأَاهُ السَّيْفُ لَا مَا صَنَعَ الْهِنْدُ ، وَعَقَلَهُ الصَّارِمُ لَا مَا اسْتُودِعَ الْغِنْدُ :
فَفِي رَأْيِهِ يُجْبَحُ الْأُمُورُ وَلَمْ يَزَلْ * كَيْفِيًّا بِإِرْشَادِ الْحَيَارَى مُوَفَّقًا !
أَقْلَامُهُ تَزْرِي بِالصَّوَارِمِ وَتَهْزَأُ بِالْأَسْلِ ، وَتَجْرِي بِصِلَةِ الْأَرْزَاقِ فَتَرِيدُ عَلَى الْأَمَانِي وَتَرْبُو عَلَى الْأَمَلِ :

بِتْ جَارَهُ فَالْعَيْشُ تَحْتَ ظِلَالِهِ * وَأَسْتَسْقِيهِ فَالْبَحْرُ مِنْ أَنْوَانِهِ !
فَتَكَارَمَتْهُ تُغْنِي مِنَ الْإِمْلَاقِ ، وَبَوَاكَرُهُ بِالْإِسْعَادِ تَبَادُرُ الْغُدُوَّ وَالْإِشْرَاقِ ، وَعَطَايَاهُ تَسِيرُ سِيرَ السَّحَابِ فَتَمُطِرُ الْغَيْثَ عَلَى الْآفَاقِ :

كَرِيمُ مَسَاعِيِ الْمَجْدِ يَرْكَبُ نَجْدَةً * مِنْ الشَّرَفِ الْأَعْلَى وَبَنَى الْقَوَاضِلِ !
قَدْ خَدَمَتْهُ الْحُطُوطُ وَأَسْعَدَتْهُ الْجُلُودُ ، وَقُسِمَتِ الْمَنَازِلُ السَّنِيَّةُ فَكَانَ لَهُ مِنْهَا سَعْدُ السُّعُودِ :

لَوْ عَدَدَ النَّاسُ مَا فِيهِ لَمَا بَرَحَتْ * تَلْقَى الْخَنَاصِرَ حَتَّى يَنْقُذَ الْعَدَدُ!

فَلَوْ غَرَسَ الشُّوْكَ أَمْرَ الْعِبَاءِ أَنْى أَرَادَهَا ، أَوْ حَاوَلَ الْعَقَاءَ فِي الْجَوِّ لَصَادَهَا ؛
أَوْ زَرَعَ فِي السَّبَاخِ لَكَانَ ذَلِكَ الْعَامُ الْعَامَ وَالسَّنَةُ الْخَصْبَةَ ، وَلَضُوعِفَتْ مُضَاعَفَةً
حَسَنَاتِهِ فَأَنْبَتَتْ كُلُّ حَبَّةٍ سَبْعَ سَنَائِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ :

وَإِذَا السَّعَادَةُ لَا حَقْلَكَ عُيُونُهَا ، * تَمَّ فَالْحَاوِثُ كُلُّهُنَّ أَمَانٌ ،

وَأَصْطَدَّ بِهَا الْعَقَاءُ فَهِيَ حَبَائِلُ * وَأَقْنَدَ بِهَا الْجَوَزَاءُ فَهِيَ عِنَانُ!

قَدْ لَيْسَ شَرْقًا لَا تَطْمَعُ الْأَيَّامُ فِي خَلْعِهِ ، وَتَقْمَصُ مِنَ الْفَضْلِ جِلْبَابًا لَا تَنْطَلِعُ
الْأَيَّامُ إِلَى تَرْبَعِهِ ، وَاتَّهَى إِلَيْهِ الْمَجْدُ فَوْقَ ، وَعَرَفَ الْكَرْمُ مَكَانَهُ فَانْحَازَ إِلَيْهِ وَعَطَفَ .

فَقَصُرَتْ عَنْهُ خُطَا مِنْ يُجَارِيهِ ، وَضَاقَ عَنْهُ بَاعٌ مِنْ يُبَارِيهِ :

نَالَتْ يَدَاهُ أَقْاصِي الْكَرَمِ الَّذِي * مَدَّ الْحُسُودَ إِلَيْهِ بَاعًا ضَيْقًا!

فَنَاقِبُهُ تَسِيْقُ أَقْلَامَ الْكَاتِبِ ، وَتَسْتَفْرِقُ طَاقَةَ الْحَاسِبِ ؛ لَيْسَ لَأَرْتَفَاعِهَا غَايَةٌ ،
وَلَا لَتَدَاوُلِهَا نِهَايَةٌ ؛ فَلَا تُوفِي جَامِعَةً بَشَرُطَهَا ، وَلَا تَقُومُ جَرِيدَةً بَسِطُهَا :

وَقَدْ وَجَدْتَ مَكَانَ الْقَوْلِ ذَا سَعَةٍ * فَإِنْ وَجَدْتَ لِسَانًا قَاتِلًا فَقُلْ !

قَدْ هَتَفَ بِمَدْحِهِ خُطْبَاءُ الْأَقْلَامِ عَلَى مَتَابِرِ الطُّرُوسِ ، وَنَطَقَتْ بِقَضِيلِهِ أَفْوَاهُ الْمَخَابِرِ
فَنُكِّسَتْ لِرَفْعَةِ قَدْرِهِ شَوَاحِجُ الرُّؤُوسِ ، وَطَلَعَتْ فِي أَفْقِ الْمَهَارِقِ سُعُودٌ لِأَيَّاتِهِ السَّعِيدَةِ
فَأَفْلَتَ لَوْجُودِهِ النُّحُوسُ ؛ وَرُمِثَتْ مَحَاسِنُهُ بِنَقِصِ اللَّيْلِ عَلَى صَفْحَاتِ النَّهَارِ فَارْتَسَمَتْ ،
وُجِلَتْ أَخْبَارُ مَعْرُوفِهِ فَتَرَاخَتْ الْأَفَاقُ عَلَى أَنْتِشَاقِ أَرْجَ رِيحِهِ الْعَبْقَةِ وَأَسْتَهْمَتْ :

لَقَدْ كَرَّمَتْ فِي الْمَكْرُمَاتِ صِفَاتُهُ * فَمَا دَخَلَتْ لَاءَ عَلَيْهَا وَلَا إِلَّا!

أَتَقَفَّتِ الْأَلْسِنَةُ عَلَى تَقْرِيبِهِ فُدِحَ بِكُلِّ لِسَانٍ، وَتَوَافَقَتِ الْقُلُوبُ عَلَى حُبِّهِ فَكَانَ لَهُ بِكُلِّ قَلْبٍ مَكَانٌ، وَاسْتَقَرَّتْ تَمَادِيحُهُ الْأَزِمَّةُ وَالْأَمَكِنَةُ فَاسْتَوَلَى شُكْرُهُ عَلَى الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ :

وَلَمْ يَحُلْ مِنْ إِحْسَانِهِ لَفْظٌ مُجِيرٌ * وَلَمْ يَحُلْ مِنْ تَقْرِيبِهِ بَطْنٌ دَقِيرٌ !

عَلَى أَنِّي اسْتَقْبَلُ عَثْرَتِي مِنَ التَّقْصِيرِ فِي إِطْرَائِهِ، وَالتَّعَرُّضِ مِنْ مَدْحِهِ لِمَا لَا أَنْهَضُ بِأَعْيَانِهِ ؛ فَلَوْ أَنَّ «الْمُحَاطَّ» نَصِيرِي، وَ«أَبْنُ الْمُقَفَّعِ» ظَهِيرِي، وَ«قُسَّ بْنُ سَاعِدَةَ» سَعِيدُنِي، وَ«سَهْبَانَ وَائِلَ» يُجِيدُنِي، وَ«عَمْرُو بْنُ الْأَثَمِ» يُرْشِدُنِي ؛ لَكَانَ اعْتِرَافِي بِالْعَجْزِ فِي مَدْحِهِ أَبْلَغَ مِمَّا آتَيْهِ، وَإِقْرَارِي بِالتَّقْصِيرِ فِي شُكْرِهِ أَوْلَى مِمَّا أَصِفُهُ مِنْ تَوَالِي طَوْلِهِ وَأَيَادِيهِ :

وَلَوْ أَنَّ لِي فِي كُلِّ مَنِيَّةٍ شَعْرَةٌ * لِسَانًا يُطِيلُ الشُّكْرَ لِقَصْرًا !



وهذه نسخة رسالة للشيخ الإمام العالم مُعِين الدِّين تاج العلماء، خَطِيبِ الخطباء، زَيْنِ الْأَمَةِ، قُدْوَةِ الشَّرِيعَةِ، الصِّدِّيقِ أَبِي الْفَضْلِ يَحْيَى بْنِ جَعْفَرِ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْحَصَكِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، سَمَّاها : «عِتَابُ الْكُتَّابِ، وَعِقَابُ الْأَلْقَابِ، الْمُشْتَمَلَةُ عَلَى أَصُولِ الْغَرِيبِ وَالْإِغْرَابِ» وَهِيَ :

عَزِيزِي مِنْ وَرَاءِ النَّصْبَةِ وَكُتَابِهَا، وَكِبَرَاءِ الدُّسُوتِ وَأَرْبَابِهَا، وَأَوَائِحِ الدُّوَلِ وَأَطْنَابِهَا، وَنَوَابِ الدَّوَاوِينِ وَأَنْبِيَاءِهَا ؛ وَجِبَاةِ بُيُوتِ الْأُمُوالِ، وَالسُّعَاةِ فِي زَمِّ نَشْرِ الْأَحْوالِ ؛ وَسَاسَةِ الْمَمَالِكِ، وَصُحُفِ أَسْرَارِ الْمَمَالِكِ ؛ الشَّاحِخِينَ بِأَنْوَالِ النَّبِيِّ وَالْكَبَرِيَاءِ، وَالسَّاحِخِينَ دُيُولَ الْعُجْبِ وَالْخَلِيَاءِ، الرَّافِلِينَ فِي حُلِيِّ الْبَهَاءِ، وَالْقَافِلِينَ عَنْ فُرُوضِ الْعَلَاءِ ؛ الَّذِينَ تَبَوَّءُوا السُّودَّ مِنْ غَيْرِ سَدَادٍ، وَتَسَمَّوْا الرَّتَبَ بِلا إِعْدَادٍ ؛

(١) الْأَنْبِيَاءُ جَمْعُ نَابٍ وَهُوَ سَبْدُ الْقَوْمِ وَكَبِيرُهُمْ .

فكانهم الحاصب ، وعدواقه المناصب ؛ شغلهم الأثر والفجور ، وكل على
بسلطته يجور ؛ مهمهم جميع الأخراج ، وتبع الراح بالساء القراح ؛ وأنتطأ المرء ،
والعتاق الجرد ؛ أملهم توحيد الآفنيه ، وتشييد الأبنيه ؛ والزيادة في الرقيق والكراع ،
والخول والاتباع ؛ وليس يقال ، كثرة خيل وبغال ؛ بما باعوه من الورع والديانة ،
وأضاعوه من العفة والصيانة :

قد ملكوا الدنيا على غرة * ونافسوا فيها السلطينا !
توزعوا الدولة والملك والشحرة والإسلام والدنيا ،
شادوا بأعمالهم دورهم * وأخربوا فيها الدواوين ،
عفوا وما عفوا بأفلامهم * مساكنا تحوى مساكينا ،
غررتهم الدنيا بأن أظهرت * عن غلظة تضيئها لينا ،
والدهر كم جزع في مرة * مرأ وحيتا ساقه حينا .
يا أنفسا ذلت بآثانهم * ويك أتايتن الأتايتنا .
لا ترغبي في رسلهم إنما * تمرين في القعب الأمرينا !
وكان يهدى القصد لو أنهم * يدرؤن شيئا أو يدرؤنا .
موقى هو قلبك تقرظهم * إن كنت لا تأين ، تأينا ،
لا يبتنى القضل بأطراء من * يكون فيه المجهو مغبونا ،
لورمت شيئا دون أقدارهم * لهجوهم لم تبيد الدنيا !!!

قد أخذوا إلى الوضاعة ، عن تحصيل البضاعة ، وكفاهم من البراعة ، برى البراعة ،
وعنوا بأسوداد الليقة ، عن مؤيد الخليفة ؛ وأحالوا على الزم ، عند قصور المهم ،
ومن أعظم الآفات ، تحرمهم بالعظم الرقات .

وَكَاثَمَ لَصِيمِ هَاشِمٍ * أَوْ مِنْ هَاشِمِ الْعَبَاشِمِ ،
غَشِمُوا فَمَا يَغْشَاهُمْ * بِالطَّوْعِ إِلَّا كُلُّ غَاشِمٍ :

لَا يُعِينُ أَحَدُهُمْ عَلَى مُرَوْهَ ، وَلَا يُنْعِشُ ذَا أَخُوهِ ، وَلَا يَرَعَىٰ وَارِثَ أَبَوِهِ ، وَلَوْ
أَعْتَرَىٰ إِلَىٰ بُنُوهِ ؛ فَهُوَ غَيْرُ آسٍ بِجُودِهِ ، وَلَا مُوَاسٍ بِوَجُودِهِ ؛ يَرُوقُكَ كَيْسُهُ وَالْغَلَامُ ،
وَتَرُوعُكَ دُويُّهُ وَالْأَقْلَامُ ؛ فَإِذَا اسْتَنْطَقَ قَلَمُهُ الصَّامِتَ ، أَجْدَلَ عَدُوَّهُ الشَّامِتَ ؛
فَزَادَ أَذْرَاجَهُ نَاقِصًا ، وَعَادَ عَلَىٰ أَذْرَاجِهِ نَاكِصًا .

فَهُوَ الَّذِي أَمَلَىٰ لَهُمْ حِلْمُهُ * مَعَ الْخَنَاءِ وَالنَّكَدِ الْبَاهِضِ :
لَوْ أَنَّي وَلَيْتُ تَأْدِيبُهُمْ * شَقِيتُ صَدْرَ النَّقِيعِ النَّاهِضِ !
مَنْ نَاطِرٍ يُضْحِي بِلا نَاطِرٍ ، * وَعَارِضٍ يُمَسِّي بِلا عَارِضٍ ،
وَمُتَشْرِفٍ لِلدِّينِ مَا قَصَّدَهُ * فِي الْوَطْبِ إِلَّا زُبْدَةُ الْمَاخِضِ ،
وَحَازِنٍ إِن لَّفَ مَرَضَاتِهِ * مِنْ حُلُومِهِ عَفَّ عَنِ الْحَامِضِ ،
وَمَنْ خَبِثَ جَاءَنَا ذِكْرُهُ * فِي الذِّكْرِ بَيْنَ الْبِكْرِ وَالْفَارِضِ ،
وَكَاتِبٍ لَوْ أَنْصَفُوا مُهْرَهُ * لَكَانَ أَوْلَىٰ مِنْهُ بِالرَّائِضِ !!!

إِنْ وَقَعَ ، رَأَيْتَ اللَّفْظَ الْمُرْقِعَ ؛ وَإِنْ أَطَالَ وَأَسْهَبَ ، أَذَالَ عِرْضَهُ وَأَنْهَبَ ؛
وَكَانَ أَحَقَّ بِتَقْلِيدِ الْفُهُودِ ، عِنْدَ تَقْلِيدِ الْعُهُودِ ؛ وَأَوَّلَىٰ بِسَطْرِ الْمَنَاشِيرِ ، عَنِ سَطْرِ
الْمَنَاشِيرِ ؛ وَأَجْدَرُ بِقَبْضِ الرُّوحِ ، إِذَا تَبَسَّطَ لِلشُّرُوحِ ، وَأَخَذَ فِي ذِكْرِ الْوَقَائِعِ وَالْفُتُوحِ ؛
كَفَّهُ بِالْحِلْمِ ، أَوَّلَىٰ مِنْهَا بِالْقَلَمِ ؛ وَأَخْلَقُ بِالْمُسْحَاةِ ، مِنَ السَّحَاةِ ؛ وَآلِيقُ بِالْفُؤُوسِ ،
مِنَ الطُّرُوسِ ؛ يَبْرِي وَيَقْطُ ، وَلَا يَذْرَىٰ مَا يَحْطُ ؛ إِذْ لَيْسَ فِي السَّقَطِ ، غَيْرُ السَّقَطِ ؛
إِنْ فَاتَحَتْهُ ، أَوْ طَارَحَتْهُ ؛ ظَفِرَتْ بِقُصَّةِ الْمَتَاحِ ، وَخَشَرَ الْمَفَاتِحَ ، إِنْ خَطَّ : فَنُونُهُ
كَلَامِهِ ، وَخَلَطَ فُنُونَهُ فِي كَلَامِهِ .

إِنْ وَقَعُوا وَقَعُوا فِي ذَمِّ كُلِّ فَمٍ ، * أَوْ اقْلُدُوا أَنْفَلْتَهُمْ أَنْسَهُمُ الْكَلَمُ ،
 أَوْ قَلَدُوا قُلْدُوا خَزَايَا يَجْلَلُهُمْ ، * أَوْ أَقْطَعُوا قُطَعُوا شَمًا بِجَهْلِهِمْ .
 أَرَأَيْمُ الْمَسَالِ وَالْأَعْمَالِ إِنْ رَقَعُوا * جَاؤُوا مِنَ الرِّقْمِ وَالْأَلْفَاظِ بِالرِّقْمِ ،
 فَاللهُ يَأْخُذُ مِنْهُمْ لِلدَّوَاءِ وَلَا تُقَاسُ بِالْحَقِّ وَالْقِرطَاسِ وَالْقَلَمُ !!

فالجديد بهم سَمَلٌ ، والسَّوَامُ بينهم هَمَلٌ ، ولا عِلْمُ عندهم ولا عَمَلٌ ؛ لَهْفِي عَلَى
 الْفَضْلِ الْمُدَّالِ ، بِرِفْعَةِ الْأَنْدَالِ ؛ وَضِياعِ الْحُقُوقِ ، وَأَنْصِياعِ الْبَيْضَةِ عَنِ الْعُقُوقِ .

ثم ما على سَيِّدِنَا الْوَزِيرِ ، مع أَصْطَحَابِ الْيَمِّ وَالزَّيْرِ ، وَتَفَاقِ سُوقِهِ ، وَأَنْفَاسِهِ
 فِي فُسُوقِهِ ، وَأَتَّصَالَ صَبُوحِهِ بِغُبُوقِهِ ؛ وَتَحَلَّيْهِ فِي الْهَوَى ، لِلْعَيْبِ وَاللَّهْوَى ؛ مِنْ ظَهْرِ عَيْ
 يُرْتَبِ ، وَذِي يَسَارِ يَنْكَبُ ؛ وَسَاجِ يَنْبِي ، وَرَاجِ يَرْثِي ؛ وَرُسُومِ حَيْفِ تُجَسَّدُ ،
 وَسَوَائِ تَسَدُّ ؛ مَا يَضُرُّهُ مِنْ شَكْوَى الْحَارِجِ الْبُعَاثِ ، وَصَرْيَخِ لَا يُغَاثِ ؛ وَوَالِ
 يَغْسِفُ بِأَهْلِ مَصْرِهِ ، وَإِنْ شَرِكُهُ فِي إِصْرِهِ ؛ وَقَاضٍ لَا يُنْصِفُ الرِّعْيَةَ ، وَلَا يَتَّبِعُ
 الْقَضَايَا الشَّرْعِيَّةَ ؛ وَفَقِيهٍ يَسِفُ إِلَى تَخْصِيلِ عَرِضِ زَائِلِ ، وَتَعْجِيلِ غَرَضِ مِنْ
 سَائِلِ ؛ مَا لَهُ وَلِحَفِظِ الْمَالِ ، وَمُحَاسَبَةِ الْعَمَالِ ؟ :

أَمْ مَا عَلَى الْعَامِلِ نَمِيسِ الدَّجَاجِ * إِنْ نَقَصَ الْكَرَمُ وَزَادَ الْخُرَاجُ ؟
 عَلَيْهِ أَنْ يَحْصُلَ فِي كُفٍّ * شَيْءٌ وَإِنْ أَخْلَى بِجَمِيعِ الْخُرَاجِ .
 وَهُوَ خُرَاجٌ عِنْدَ مَا يَنْتَهِي * يُبْطِ بِمَبْضَعِ مَا فِي الْخُرَاجِ !!!

شُغْلُهُمْ بِالشَّهْدِ الْمَشُورِ ، لَا بِمَشْهَدِ يَوْمِ النُّشُورِ ، وَقَصْدُهُمُ الْجَمْعُ وَالْاِكْتِسَابُ ،
 وَمَتَى الْجَمْعُ وَالْحِسَابُ ؛ إِنَّمَا هُوَ مَالٌ يُحْتَقَبُ ، لَا مَالٌ يُرْتَقَبُ ؛ وَفَسَادٌ فِي الْأَرْضِ ،
 لَا إِعْدَادُ لِيَوْمِ الْعَرَضِ :

وَإِنِّي لَأَرَى لِلرَّائِبِ نَحْوِي * عَلَيْهَا قُرُودٌ فَوْقَهُنَّ رُودٌ،
 سِرَاعٌ إِلَى السَّوَاتِ فِيمَا يَسِينُهُمْ * وَلِكُنْهُمْ عَمَّا يَزِينُ رُكُودُ،
 يَقَاطُ إِذَا مَا تَوَبَّ الْأَوُّمُ دَاعِيَا * وَعِنْدَ نِدَاءِ الْمَكُومَاتِ رُقُودُ،
 وَمَا غَرَّنِي إِلَّا جَلَاوِزُ حَوْلَهُمْ * وَإِلَّا قِيَامٌ بَيْنَهُمْ وَقُعُودُ،
 لَقَدْ حُسِدُوا ظُلْمًا عَلَى مَا أَنَاهُمْ * وَهَلْ لَأَنْحَى نَقِصٍ يَسُودُ حُسُودُ؟
 وَلِلَّسَيْدِ الْمُحْسُودِ كَفٌّ عَنِ الْعُلَى * تَدُودٌ وَأُخْرَى بِالنَّوَالِ تَجُودُ،
 لَمَّا اللَّهُ دُنِيَانَا الَّتِي ضَلَّ سَعْيُهَا * وَفِيهَا عَلَيْنَا بِالضَّلَالِ شُعُودُ،
 إِذَا صُغِرَتْ كَالْمِ الْحُسَيْنِ مَحَلَّةٌ * عَلَتْ وَعَلَا فِيهَا يَزِيدُ يَزِيدُ.

إِنَّمَا الصَّدْرُ مِنْ صَدْرِهِ كَالْهَ، وَحَسُنَتْ أَعْمَالُهُ، وَجَرَّدَ الْعَزَمَاتِ، فَشَرَّدَ
 الْأَزَمَاتِ، وَقَفَى بِذَبِّهِ الْكُرْبَاتِ، وَأَصْطَفَى لِرَبِّهِ الْقُرْبَاتِ، فَسَهَلَ الْغَنَى، وَأَقْعَمَ الْإِنَا،
 وَوَضَعَ مَوَاضِعَ النَّقَبِ الْهِنَا، فَهُوَ يَهْشُ لِلنَّوَالِ، وَيَنْشُ عِنْدَ السُّؤَالِ، لَا يَنْشُوبُ
 وَرَدَهُ الْقَدَا، وَلَا يَبْطُلُ مِنْهُ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى، يَبْشُرُ بَشْرِهِ بِمَحَاسِنِ الْأَخْلَاقِ، وَيَنْشُرُ نَشْرَهُ
 الطَّيِّبَ فِي الْأَفَاقِ، وَيَحْسِمُ بِدَوَانِهِ دَاءَ الْإِمْلَاقِ، وَيُحِيزُ بِقَصْبَتِهِ قَصَبَ السَّبَاقِ :

يُجَرِّدُهَا مِنْ مِثْلِ وَقْضَةِ نَابِلٍ * أَجْنَتْهَا مِنْ نَافِذَاتِ الْمَعَائِلِ،
 وَفِي خَطِّهِ الْمُنْسُوبِ تُرْزَى شَبَابُهَا * بِلَهْدَمٍ مَنَسُوبٍ إِلَى الْخَطِّ ذَابِلِ،
 وَإِنْ بَذَرْتَ عَنْ حَبَّةِ الْقَلْبِ أَنْبَتَ * مِنَ الْبَرِّ قَبْلَ الْبَرِّ سَبْعَ سَنَابِلِ !!

دُؤُوبُهُ لِإِقَالَةِ الْعَائِرِ، وَعِمَارَةِ الدَّائِرِ، وَإِشَاعَةِ الْمَآثِرِ، هَمُّهُ فِي مُعْضِلَةِ الرُّاضِ،
 وَمَعْدِلَةِ تَفَاضِ، وَخَلَلِ يُسَدِّ، وَجَلَلِ يُصَدِّ، وَعَانَ بَطْهَرِهِ يُعَانِ، وَعَاتِ بَقْهَرِهِ يُهَانَ،
 بَابُهُ مَفْتُوحٌ، وَخَيْرُهُ مَمْنُوحٌ، وَمَا أَقَلَّ اللَّائِمِ، لَمَنْ أَكْثَرَ الْوَلَائِمِ، وَأَغْفَلَ الْجَادِبِ،

لن صَنَعَ المَادِبِ ؛ وَأَخْلَصَ الإِخَاءَ ، لِمَنْ أَسْتَخْلَصَ السَّعَاءَ ؛ فَبَدَّلَ الرُّغْوَةَ وَالصَّرِيحَ ،
وَالسَّامَ الإِطْرِيحَ ؛ لَا كَنْ يَشُحُّ بِالْفُتَارِ ، لَفَرَطِ الإِقْتَارِ ؛ وَيَضُنُّ بِالْوَضَرِ ، عَلَى
الْمُحْتَضَرِ ؛ وَيَخْلُ بِالْعَرَاقِ ، عَمَّنْ رُوحُهُ فِي التَّرَاقِ ، وَيُسِرُّ الْغَمِيرَةَ ، لِمَنْ يَتَنَفَّى الْمِيرَةَ ؛
وَيُطِغُنُ الدَّاءَ ؛ لِمَنْ يَنْتَظِرُ الْغَدَاءَ ؛ وَيُسْعِرُ الْأَحْشَاءَ ، لِمَنْ تَرَقَّبَ الْعَشَاءَ :

مسلط سِيرَتِهِ نَقْمَةً * وَجَائِزَ قِسْمَتِهِ ضِيَرَةً ؛

لَيْسَ بِذِي لُبٍّ يَمَلُّ النَّأْيَ * وَلَا لُبَّابٌ يَمَلُّ الشَّيْرَ !

يَحْقُدُ عَلَى الإِخْوَانِ ، عِنْدَ ظُهُورِ الْخَوَانِ ؛ قَتْرَاهُ يُحْدَقُ ، إِلَى مَنْ يُسَدَّقُ ؛ وَيَتَقِمُّ
مَنْ يَلْتَقِمُ ، وَيُنْذِلُ الْأَيْكِلَ ، وَيُجِلُّ بِهِ التَّنْكِيلَ ؛ وَيُنْقِضُ الشَّرْبَ ، وَإِنْ كَانَ الْخُلْدَنُ
الْقَرِيبَ ؛ فَالْحَائِنُ مِنْ يَرْدِ ، فَيَزْدَرِدُ ؛ وَالْحَائِنُ مِنْ يَنْتَسِطُ ، فَيَسْتَرْطُ ؛ يَسْتَأْنُ مِنْ
الْأَجْرَاسِ ، صَوْتِ الْأَضْرَاسِ ؛ وَحَشَرَجَةِ الْبَلَاحِمِ ، بِدَحْرَجَةِ الْمَطَامِ ؛ وَهَرَهْرَةِ
الشَّدُوقِ ، وَبَحْرَجَةِ الْخُلُوقِ ؛ وَقَدْ صَدَّتْ حَوَاجِزُ بُلُوَاهُ ، أَقْوَاهَا تَصَدَّتْ لِحُلُوَاهُ ؛
وَحَكَّتْ بِلَاهِيهِ ، بِحَكَّةِ بِلَاهِيهِ ؛ وَصَدَّتْ بِكِيَوَانِهِ ، لَهْمَى وَصَدَّتْ بِالْوَانِهِ ؛ رَغِيْقُهُ أَعْرَزُ^(١)
مِنَ الْغَرِيفِ ، وَأَغْرَبُ مِنَ النَّوَى الطَّرِيفِ ؛ صَرِيفُ بَابِهِ ، دُونَ صَرِيفِ نَابِهِ ؛
وَيُحَكِّمُ صَكَّ بَابِهِ ، عَنْ كَبَابِهِ ؛ وَيُعِدُّ سَدِيفَ جِقَانِهِ ، مِنْ سَدِيفِ أَجْفَانِهِ ؛ يُمَانِعُ
بِلَدِيدِهِ ، عَنْ مَفْقُودِ قَدِيدِهِ ؛ وَيُصَافِحُ بِصَفْحَةٍ وَرِيدِهِ ، عَنْ صَفْحَةِ تَرِيدِهِ ؛ حَمْلُهُ مِنْ
نُجُومِ الْحَمَلِ ، وَتَمَكُّهُ فَوْقَ السَّكَاكِ الْأَعْزَلِ ؛ وَحُوْنُهُ بَيْنَ الْحَوَاتِ وَالْأَسَدِ ، وَجَدِيهِ
عِنْدَ جَدِّي الْفَرْقَدِ ؛ دُونَ نُجْمَتِهِ أَرْتِفَاعِ الْعَجَاجِ ، وَتَحْتَ دَجَاجَتِهِ ذَنْبُ الدَّجَاجِ :

يَدْرَجُ فِي الْقَدْرِ دُرَّاجُهُ * لِيَلْقَطَ الْحَبَّ وَطَبِجُهُ

فَقِي السَّمَوَاتِ سُمَانَاتُهُ * وَعِنْدَ دِيكَ الْعَرْشِ فَرْجُهُ

(١) مِنْ عَرَزَهُ يَعْزُهُ انْتَزَعَهُ انْتِزَاعًا عَنِفًا وَالتَّرِيفُ الدَّلْوُ .

يَحْرُسُ مَا يَدَّتْهُ الدَّلْوُ وَالْعَقْرَبُ، وَهُمَا مِمَّا أَدْنَى وَأَقْرَبُ؛ يُعْجِبُهُ التَّشْمِيرُ وَالْإِخْجَانُ،
وَيَلْذُّ لَهُ التَّوْفِيرُ وَالْإِخْتِرَانُ؛ وَقَصْرُ مُقَاجَاةِ أَحْوَالٍ، تُصَرِّحُ عَنْ أَهْوَالٍ؛ وَكَأَنَّكَ
بِالْأَيَّامِ بَعْدَ الْإِتْسَامِ، شَاهِرَةٌ لِلْحَسَامِ؛ قَدْ كَثُرَتْ عَنْ أَنْيَابِهَا الْعُصْلُ، فِي بُكْرِهَا
وَالْأَصْلُ؛ وَأَجَلَتْ عَنْ سَلِيلٍ مَسْحُوبٍ، لَتَنْكُرَ مَصْحُوبٍ؛ وَآخِرَ يَرْدُدُ فِي الْبُوسِ،
وَيُخَلِّدُ فِي الْجُبُوسِ؛ قَدْ حَصَلَ عَلَى سَلَةِ الْحَاوِي، مِنْ سَلَةِ الْحَاوِي؛ وَمِنْ طَعْمِ
الْعَسَلِ، عَلَى طَعْنِ الْأَسَلِ؛ وَمِنْ الْعَذْبِ الْبَارِدِ، عَلَى حَزِّ الْمَبَارِدِ :

تَقْبِضُ مِنْ خَطْوِيهِ الْكُبُولُ * فَهُوَ عَلَى قَيْدِهِ يَبُولُ
خَلَا مِنَ الْخَيْرِ فَهُوَ طَبْلُ * وَهَكَذَا تَضْرِبُ الطُّبُولُ،
يَشْكُو إِلَى اللَّهِ مُسْتَفْتِيًا * وَمَا لَهُ عِنْدَهُ قَبُولُ،
ذَلِكَ بِمَا كَانَ مُسْتَطِيلًا * تُرْدِي دَوَاهِيهِ وَالْمُبُولُ!

فَهِمُ بَيْنَ حَصَى تَعَصَّرَ، وَقَفَا بِقَصْرِ؛ وَكِتَابٍ مَثْقُوبَةٍ؛ وَأَنْوَاعِ عُقُوبَةٍ؛ أَوْ يُقَالُ
فَلَانٌ أَنْارَتْهُ شُعُوبٌ، وَوَارَتْهُ الْجُبُوبُ، وَأَكْتَفَى بِسُلْفَةِ الْمَمَاتِ، مِنَ الْمُقَدِّمَاتِ؛
وَمَا ظَنَّاكَ بِالسَّلْوِ الطَّرِيحِ، فِي ضَنْكِ الصَّرِيحِ؛ تَحْتَهُ الْبَرْزُخُ الْمَوْصُودُ، وَفَوْقَهُ الْجَبَلُ
الْمَنْصُودُ؛ أَنْظِرْ كَيْفَ تُجْرِبُهُ الْمَقْصُودُ، وَجَانِبَتْ جَنَابَهُ الْوُقُودُ؛ وَأَخْلَقَتْ رَبَاعَهُ،
وَتَفَرَّقَتْ أَتْبَاعُهُ؛ ثُمَّ تَسْوِيهِ الْحُوبُ، أَبْشَعُ مِنْ تَسْوِيهِ الشُّحُوبِ (؟)؛ وَوَيْلٌ لِلْقَوْمِ
الْبُورِ، مِنْ بَعْتَرَةِ الْقُبُورِ :

وَيَا خَسَارَ الْأَنْفُسِ الْغَاوِيَةِ * مِنْ بَعْدِ تِلْكَ الْحَفْرِ الْهَآوِيَةِ،
وَكُلُّ مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأَمَّهُ فِي بَيْتِهِ هَاوِيَةٍ،
وَلَيْسَ يَذَرِي وَيَحُهُ مَا هِيَ * نَارٌ عَلَى سُكَّانِهَا حَامِيَةٍ!

أعاذنا الله من خِلَالٍ يَقْضِي جَهْلُهَا بِالشَّنَارِ ، وَأَفْعَالٍ تُقْضِي بِأَهْلِهَا إِلَى النَّارِ ؛ بِكَرَمِهِ
وَإِحْسَانِهِ ، وَطَوْلِهِ وَأَمْنَتَانِهِ .

الصنف الثالث

(من الرسائل المفاتحة ، وهي على أنواع)

منها : المفاتحة بين العلوم .

وهذه نسخة رسالة في المُفَاتَحة بين العلوم ، أنشأتها في شُهور سنة ثمان وتسعين
وسبعمائة ، لقاضي القضاة شيخ الإسلام ، علامة الزمان ، جلال الدين ، عبد الرحمن
ابن شيخ الإسلام ، بقية المجتهدين ، أبي حفص عمر البلقيني الكفائي ، الشافعي ،
أُمِّعَ اللهُ تعالى المسلمين ببقائه ، ذكرتُ فيها نيفًا وسبعين علمًا ، أبتدأتها بعلم اللغة ،
وختَمْتُهَا بِقَنِّ التَّارِيخِ ؛ ذَاكَرًا نَفَرَ كُلُّ عِلْمٍ عَلَى الَّذِي قَبْلَهُ ، مُحْتَجًّا عَلَيْهِ بِفَضَائِلِ مَوْجُودَةٍ
فِيهِ دُونَ الْآخَرِ ، وَجَعَلْتُ مَصَبَّ الْقَوْلِ فِيهَا إِلَى أَشْغَالِهِ عَلَى جَمِيعِهَا ، وَإِحَاطَتِهِ بِكُلِّهَا ،
مَعَ الْإِشَارَةِ إِلَى فَضْلِ وَالِدِهِ ، شَيْخِ الْإِسْلَام ، وَمُسَاهَمَتِهِ لَهُ فِي الْفَضْلِ ، عَلَى مَا سَتَقِفُ
عَلَيْهِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى ؛ وَهِيَ :

الحمد لله الذي جعلَ لِلْعِلْمِ جَلَالًا تَوَدُّ جَلَائِلُ الْفَضَائِلِ أَنْ تَكُونَ لَهُ أَتْبَاعًا ، وَأُطْلُقُ
الْإِسْنَةَ الْأَقْلَامَ مِنْ جَمِيلِ ثَنَائِهِ بِمَا أَنْطَقَ بِهِ الْإِسْنَةُ الْعَالَمَ لِيَكُونَ الْحُكْمُ بِمَا ثَبَتَ مِنْ
مَأْنُورِ فَضْلِهِ إِجْمَاعًا ، وَأَجْرِي مِنْ قَامُوسِ فِكْرِهِ جَدَاوِلُ أَنْهَارِ الْعُلُومِ الزَّكِيَّةِ فَنَعِشْ
قُلُوبًا وَنَزَّ أَبْصَارًا وَشَنَّفَ أَسْمَاعًا .

أحمدُه عَلَى أَنْ أَفَاضَ نَتَائِجَ الْأَفْكَارِ عَلَى الْأَذْهَانِ السَّالِمَةِ لِذِي النَّظَرِ الصَّحِيحِ ،
وَبِتَّ جِيَادَ الْإِسْنَةِ فِي مَيْدَانِ الْإِدْخَالِ لِحَازِ قَصَبِ السَّبْقِ مِنْهَا كُلِّ لِسَانٍ ذَلِيقٍ فَيَصْبِحُ .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الذى قهرت بينات دلائله المُلحِدَ
المُعَادِ، وبهرت قواطع براهينه الألدَّ الخَصِيمَ والجَلِيلَ المُكَلِّدَ؛ وأشهد أن محمداً عبده
ورسوله الذى أظهر من واضح الحجج الحليّة ما سقط بحجّته دعوى المعارض، وأتى
من فصل الخطاب بما ألهم به الخصوم فلم يستطع أشكهم فى البلاغة شيكمة أن
يأتى له بمناقض؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين فازوا من جليل المناقب بكل
وصف جميل، وأشتهرت فى الوجود مفاخرهم فلم يُحتج فى إثباتها إلى إقامة دليل؛
صلاة يُتَسَبَّحُ فى دعوى الشرف بمئين حبلها، وتنفق أدلة العقل والنقل على القطع
بعلو شأنها وتوقير فضلها .

وبعد ، فلما كانت العلوم مشتركة فى أصل التفضيل ، متفقة الفَضْل فى الجملة
وإن تفاوتت فى التفصيل ؛ مسلماً أصل الشرف فيها من غير منازع ، مجمّعا على أنه
لا شيء من العلم من حيث هو علم بضار ولا شيء من الجهل من حيث هو جهل
بنافع ؛ مع اختلافها فى التفاصيل باختلاف موضوعاتها ، وتفاوتها فى الشرف بحسب
الحاجة إليها أو وثاقه مُجْجها أو نفاسة غاياتها ؛ عطس كل منها بأنف شاخ غير مُسَلِّم
للآخر ولا مُسالم ، ومدّ إلى العلباء يد المطاولة فتناول الثريا قاعداً غير قائم ؛ وأدعى
كل منها أن بحره الطامى ، وفضله النامى ؛ وجوّاده الطامح ، وسماكه الرَّامح ؛ زاعماً
أن حُسامه القاطع وعُضبه القاضب ، وقِدحه المُلْعَلُ وسهمه الصّائب ، ونجمه السارى
وشهباه السّاقب ؛ وأن نشر النناء على مجاميره موقوف ، وخَطيب المحامد بمنايره
معروف ؛ وفلك الفضل على قُطبه دائر ، وكلّ شرف عليه مُحْبَسٌ وكلّ فخر عليه قاصر ؛
فما س يعطفه ومال ، وبسط فى الكلام لسانه فقال وطال .

هذا : وإنها اجتمعت يوماً اجتماع معنى لا صورته ، وقامت لها سوق بالبحث
معروفة وعلى الحدال مقصوره ؛ وتفاوتت بلسان الحال وتخاطبت ، وتجاوزت

في دَعْوَى الشَّرَفِ وَتَجَاوَبَتْ ، وَأَلَمْتُ بِالْمُتَأَفَّرَةِ فَتَنَافَرْتُ ، وَتَسَابَقْتُ فِي مِيدَانِ
الْإِنْتِخَارِ فَتَنَافَرْتُ ؛ وَأَخَذْتُ كُلَّ مِمَّا فِي نُصْرَةِ مَنْعِهِ ، وَتَحْقِيقِ مَطْلَبِهِ ؛ بِأَنْوَاعِ الْمَجْجِ
وَالْإِسْتِدْلَالِ ، وَإِقَامَةِ الْبَرَاهِينِ وَالْأَمَارَاتِ ، وَمَا يَتَوَجَّهُ عَلَى ذَلِكَ مِنَ الْأَسْئَلَةِ
وَالْإِعْتِرَاضَاتِ . فَكَانَ أَوَّلُ بَادِيٍّ بِدَأْمِهَا بِالْكَلَامِ ، وَقَعَ بَابُ الْحُدَالِ وَالْخِصَامِ : -

عِلْمُ اللَّغَةِ قَالَ :

قَدْ عَلِمْتُمْ مَعَشَرَ الْعُلُومِ أَنَّ أَعْمَكُمْ نَفْعًا ، وَأَوْسَعَكُمْ جَمَالًا وَأَكْثَرَكُمْ جَمًّا ؛ عَلَى قُطْبِ
فَلَئِكَ تَدُورُ الدَّوَائِرُ ، وَيُوَاسِطُنِي تَذَكُّرُ الْمَقَاصِدِ وَيَسْتَعْلِمُ مَا فِي الضَّاهِرِ ؛ وَبِدَلَالَتِي تُعَلِّمُ
الْمَعَانِيَ الْمَفْرَدَاتِ ، وَيَتَّيْزُ مَا يَدُلُّ عَلَى الدَّوَاتِ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى الْأَدَوَاتِ ؛ وَتَتَيَّنُ دِلَالَاتُ
الْعَامِّ وَالْخَاصِّ ، وَيَتَعَرَّفُ مَا يُرْشِدُ إِلَى الْأَنْوَاعِ وَالْأَجْنَاسِ وَمَا يَخْتَصُّ بِالْإِنْخِصَاصِ ؛
عَلَى أَنَّ كُلَّكُمْ كَلَّ عَلَى ، وَتَحْتَاجُ فِي تَرْجُمَةٍ مَقْصُودِهِ إِلَى ؛ فَلَفْظِي " الْمُحْكَمُ " وَأَقْوَالِي
" الصَّحَاحُ " ، وَكَلَامِي " الْجَمَامِعُ " وَسَيْفُ لِسَانِي " الْمُجَرَّدُ " نَاهِيكَ مِنْ سِلَاحٍ ؛ وَفَضْلِي
" الْمُجَمَّلُ " لَا يَحْتَاجُ إِلَى بَيَانٍ . إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى بِتَعْلِيمِي لِأَدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَآثَرِهِ فِي
مَعْرِفَةِ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَكَانَ خِصْمِي ^(١) لَهُ عَلَى الْمَلَائِكَةِ الْكَرَامِ .

فَلَمَّا أَنْقَضَى قِيلُهُ ، وَبَانَ لِلِسْتَيْبِرِ سَيْلُهُ ؛ تَابَ إِلَيْهِ عِلْمُ التَّصْرِيفِ مُبْتَدِرًا ،
وَلِنَفْسِهِ وَلِسَانُ الْعُلُومِ مُتَّصِرًا ؛ فَقَالَ : رُوَيْدَكَ أَيُّهَا الْمُسَاجِلُ ، وَعَلَى رِسْلِكَ إِذَا
الْمُنَاضِلُ ؛ فَقَدْ ذُلَّ مَنْ لَيْسَ لَهُ نَاصِرٌ ، وَحُطِّ قَدْرُ مَنْ تَرَفَّعَ عَلَى أَبْنَاءِ جِنْسِهِ وَلَوْ عَقِدَتْ
عَلَيْهِ انْخِصَاصٌ ؛ وَمَا يُجِدِّي الْبَازِي بَغِيرِ جَنَاحٍ ، أَوْ يُفْنِي السَّاعِيَ إِلَى الْحَرْبِ بَغِيرِ
سِلَاحٍ ؛ وَأَيُّ يَطْلُنُ رُوحُ بَغِيرِ سِنَانٍ ، أَوْ يَقَطُّ سَيْفٌ لَمْ يُؤَيِّدْ بِقَاتِمٍ وَلَمْ تَحْيُضْ عَلَيْهِ
بَنَانٌ ؛ لِمَنْكَ وَإِنْ حَوِيَتْ قَضَا ، وَأَعْرَقَتْ أَصْلَابُ ؛ وَكَنتَ لِلْكَلَامِ نِظَامًا ، وَإِلَى

(١) الذي في كتب اللغة « خِصْمِي » وَجِدُّ .

بَيَانُ المقاصدِ إِمَامًا ؛ فَانْتَ غَيْرُ مُسْتَقِلٍّ بِنَفْسِكَ ، وَلَا قَائِمٌ بِرَأْسِكَ ؛ بَلْ أَنَا الْمُتَكَفِّلُ
بِتَأْسِيسِ مَبَانِيكَ ، وَالْمَلْتَرِمُ بِتَحْرِيرِ أَلْفَاظِكَ وَتَقْرِيرِ مَعَانِيكَ ؛ بِي تُعْرَفُ أَصُولُ أُنْبِيَةِ
الكَلِمَةِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهَا ، وَكَيْفِيَةُ التَّصَرُّفِ فِي أَسْمَائِهَا وَأَفْعَالِهَا ؛ وَمَا يَتَّصِلُ بِذَلِكَ
مِنْ أَحْوَالِ الْحُرُوفِ الْبَسِيطَةِ وَتَرْتِيبِهَا ، وَآخْتِلَافِ مَخَارِجِهَا وَبَيَانِ تَرَكِيبِهَا ؛ وَالْأَصْلِيُّ
مِنْهَا وَالْمَزِيدُ ، وَالْمُهْمُوسُ وَالرَّخْوُ وَالشَّدِيدُ ؛ وَ ^(١) تَقْدِيرُهُ ، وَالصَّحِيحُ وَالْمُعْتَلِّ
وَتَحْرِيرُهُ ؛ وَكَيْفِيَةُ التَّثْنِيَةِ وَالْجَمْعِ ، وَالْفَصْلِ وَالْوَصْلِ وَالْإِبْتِدَاءِ وَالْقَطْعِ ؛ وَأَنْوَاعُ الْأُنْبِيَةِ
وَتَغْيِيرُهَا عِنْدَ اللَّوَاحِقِ ، وَكَيْفِيَةُ تَصْرِيفِ الْفِعْلِ عِنْدَ تَجَرُّدِهِ عَنِ الْعَوَاقِقِ ؛ وَأَمْثَلَةُ
الْأَلْفَاظِ الْمَفْرَدَةِ فِي الزَّنَةِ وَالْهَيْئَةِ وَمَا يَخْتَصُّ مِنْ ذَلِكَ بِالْأَسْمَاءِ وَالْأَفْعَالِ ، وَتَمْيِيزُ الْجَامِدِ
مِنْهَا وَالْمُسْتَقِّ وَأَصْنَافُ الْأَشْتِقَاقِ : وَكَيْفٌ هُوَ عَلَى التَّفْصِيلِ وَالْإِجْمَالِ .

عَلَى أَنَّكَ لَوْ خُلِّيتَ وَبَجُرْدَ التَّعْرِيفِ ، وَبَيَانِ الْمَقَاصِدِ بِالْأَصْطِلَاحِ أَوْ التَّوْقِيفِ ؛
لَكَانَ عِلْمُ الْخَطِّ يَقُومُ مَقَامَكَ فِي الدَّلَالَةِ الْحَالِيَةِ لَدَى الْمُتَلَقِّ ، وَبِتَرْجُّحٍ عَلَيْكَ بَعْدَ
الْمَسَافَةِ مَعَ طَوْلِ الْبَقَاءِ ، مَعَ مَا فِيهِ مِنْ زِيَادَةِ تَرْتِيبِ الْأَحْوَالِ ، وَضَبْطِ الْأَمْوَالِ ؛
وَحِفْظِ الْعُلُومِ فِي الْأَدْوَارِ ، وَاسْتِمْرَارِهَا عَلَى الْأَكْوَارِ ؛ وَانْتِقَالِ الْأَخْبَارِ مِنْ زَمَانٍ إِلَى
زَمَانٍ ، وَتَحْمِلِهَا سِرًّا مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ ؛ بَلْ رُبَّمَا أَكْثَفَى عَنْكَ بِالْإِشَارَةِ وَالتَّلْوِيحِ ،
وَقَامَتِ الْكَلَامَةُ مِنْهَا مَقَامَ التَّصْرِيحِ .

فَعِنْدَهَا غَضَبُ عِلْمِ النَّحْوِ وَكَفْهَرُ وَزَجَرُ وَاشْتِمَحَرُّ ؛ وَقَالَ : يَا لَهِ ! ” أَسْتَنْتِ
الْفَصَالَ حَتَّى الْقَرَعَا “ ، وَ” أَسْتَنْتِ الْبَغَاتُ “ فَكَانَ أَشَدَّ ثُلْمَةً وَأَعْظَمَ صَدْعًا ؛ لَقَدْ
أَدْعَيْتَ مَا لَيْسَ لَكَ فَفَاتَكَ الْحُبُورُ ، وَ” مَنْ تَشَبَّعَ بِمَا لَمْ يَنْلِ فَهُوَ كَلَالِيْسُ ثَوْبِي زُودَ “ ؛
وَهَلْ أَنْتِ الْآبِضَةُ مَنِيَّ ؟ ، تُسَدُّ إِلَى وَتَقِلُّ عَنِّي ؛ لَمْ يَزَلْ عَامِلُكَ بَابًا مِنْ أَبْوَابِي ،

وَجُمِّلَتْ دَاخِلَةً فِي حِسَابِي ؛ حَتَّى مِيزَكَ "الْمَازِي" فَأَفْرَدَكَ بِالتَّصْنِيفِ ، وَتَلَاهُ
 "أَبْنُ جُنَيْ" فَنَبِهَهُ فِي التَّالِيفِ ؛ وَأَقْتَصَرَ "أَبْنُ مَالِكٍ" مِنْكَ فِي تَعْرِيفِهِ عَلَى الضَّرُورَةِ
 الْوَاجِبِ ، وَأَحْسَنَ بِكَ "أَبْنُ الْحَاجِبِ" فِي شَافِيَتِهِ فَرَفَعَ عَنْكَ الْحَاجِبَ ؛ وَأَنْتَ
 مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ مَطْوِيُّ ضَمِينِ كُتُبِي ، نِسْبَتُكَ مُتَّصِلَةٌ بِنِسْبَتِي وَحَسْبُكَ لِاحِقٌ بِحَسْبِي ؛
 أَنَا مُلِحُ الْكَلَامِ ، وَمِسْكُ الْخِتَامِ ؛ لَا يَسْتَعْنِي عَنِّي مِتْكَلَمْ ، وَلَا يَلِيْقُ جَهْلِي بِعَالِمِ
 وَلَا مُتَعَلِّمِ ، بِي نَتَبِّينُ أَحْوَالَ الْأَلْفَاظِ الْمُرَكَّبَةِ فِي دَلَالَتِهَا عَلَى الْمَقَاصِدِ ، وَيَرْتَفِعُ اللَّبْسُ
 عَنْ سَامِعِهَا فَيَرْجِعُ مِنْ فَهْمِهَا بِالصَّلَةِ وَالْمَسَانِدِ ؛ فَلَوْ أَنَّي الْمِتْكَلَمْ فِي لَفْظِهِ بِأَجَلٍ مَعْنَى
 وَلَكِنْ لَذَهَبَتْ حَلَاوَتُهُ ، وَزَالَتْ طَلَاوَتُهُ ، وَعِيبٌ عَلَى قَائِلِهِ وَتَغْيِيرُ دِلَالَتِهِ . وَقَدْ كَانَتْ
 الْخُلُقَاءُ تَحْتُ عَلَى النَّحْوِ وَتُرْشِدُ إِلَيْهِ ، وَتَحْذَرُ الْفَنَّ وَتُعَاقِبُ عَلَيْهِ :

وَإِذَا طَلَبْتَ مِنَ الْعُلُومِ أَجَلَهَا * فَاجْلُهَا عِنْدِي مُقِيمُ الْأَلْسِنِ !

فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ بَرَزَتْ عُلُومُ الْمَعَانِي وَالْبَيَانَ وَالْبَدِيعِ جُمْلَةً ، وَحَلَّتْ عَلَيْهِ
 بِصُنْقِ الْعَزَمِ فِي اللَّقَاءِ حَمَلَهُ ، وَقَالَتْ : جَعَجَعَةُ رَحًا مِنْ غَيْرِ طِعْنٍ ، وَتَصْوَيتُ
 رَعْدٍ مِنْ غَيْرِ مُزْنٍ ؛ لَقَدْ أَتَيْتَ بَغِيرِ مُعْرَبٍ ، وَأَعْرَبْتَ عَنْ لَيْنٍ لَيْسَ بِمُطْرَبٍ ؛
 الْحَقُّ أَتْلَجُ ، وَالْبَاطِلُ أَلْجَجُ ؛ إِنْ الْفَوْزَ لَقَدْ حِينَا ، وَالْوَرَى لَقَدْ حِينَا ؛ نَحْنُ لُبُّ
 الْعَرَبِيَّةِ وَخُلَاصَتِهَا ، وَالْمُعْتَرِفُ لَنَا بِالْفَضْلِ عَامَّتُهَا وَخَاصَّتُهَا ، وَهَلْ أَنْتَ إِلَّا شَيْءٌ
 جَرَى عَلَيْكَ الْأَصْطِلَاحُ ، وَسَاعَتُكَ الْأَسْتِعْمَالُ فَأَمِنْتَ الْأَطْرَاحَ ؛ فَلَوْ أَصْطَلَحَ عَلَى
 نَقْصِ الْفَاعِلِ وَرَفَعِ الْمَفْعُولِ لَمْ يَخْلُ بِالتَّفَاهُمِ فِي الْمَقَاصِدِ ، وَهَذَا كَلَامُ الْعَامَّةِ لِذَلِكَ أَقْوَمُ
 دَلِيلٌ وَأَعْظَمُ شَاهِدٌ .

فَقَالَ عِلْمُ الشَّعْرِ : أَرَأَيْتُمْ قَدْ نَسِيتُمْ فَضْلِي الَّذِي بِهِ فَضَّلْتُمْ ، وَصَرَّمْتُمْ حَبْلِي الَّذِي
 مِنْ أَجْلِهِ وَصَلْتُمْ ؛ أَنَا حُجَّةُ الْأَدَبِ ، وَدِيْوَانُ الْعَرَبِ ؛ عَلَى تَرْدُونٍ ، وَعَنَى تَصْدُرُونِ ؛

وإلى تَنَسِّبُون، وبى تَشْتَهَرُونَ، مع ما أَشْتَمَلْتُ عليه من المَدْح الذى كم رَفَعَ وَضَعًا،
وَجَلَبَ نَفْعًا، وَوَصَلَ قَطْعًا، وَجَبَرَ صَدْعًا، وَالْهَجَوُ الَّذِى كَمْ حَطَّ قَدْرًا، وَأَتَمَدَّ ذِكْرًا،
وَجَمَلَ بَيْنَ الرَّفِيعِ وَالْوَضِيعِ فِي حَظِيطَةِ الْقَدْرِ نَسْبًا وَصِهْرًا، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ
الشَّعْرِيَّةِ الَّتِى شَاعَ ذِكْرُهَا، وَأَصْنَوَاعِ الْعِطْرِيَّةِ الَّتِى فَاحَ نَشْرُهَا، بَلْ لَا يَكَادُ عِلْمٌ مِنْ
الْعُلُومِ الْأَدَبِيَّةِ يَسْتَفْنِي عَنْ شَوَاهِدِي، وَلَا يَخْرُجُ فِي أَصُولِهِ عَنْ قَوَائِنِي وَقَوَاعِدِي،
حَتَّى عِلْمُ النَّثْرِ الَّذِى هُوَ شَقِيقِي فِي النَّسَبِ، وَعَدِيلِي فِي لِسَانِ الْعَرَبِ، لَمْ يَزَلْ أَهْلُهُ
يَتَطَفَّلُونَ عَلَى فِى بَيْتٍ يَحْلُونَهُ، وَيَقْفُونَ مِنْ بَدِيعِ عَاسِنِي عِنْدَ حَدٍّ لَا يَتَعَدُّونَهُ .

فَقَالَ عِلْمُ الْقَافِيَةِ : إِنَّكَ وَإِنْ تَأَلَّقَ بَرَقُ مَبَاسِمِكَ، وَطَابَتْ أَيَّامُ مَوَاسِمِكَ، فَانْتَ
مَوْقُوفٌ عَلَى مَقَاصِدِي، وَمُغْتَرِفٌ مِنْ رَوَى مَوَارِدِي، أَنَا عُدَّةُ الشَّاعِرِ، وَعُمْدَةُ النَّاثِرِ،
لَا يَسْتَفْنِي عَنْ شِعْرٍ وَلَا خَطَابَةٍ، وَلَا يَسْتَنْكِفُ عَنِ الْوُقُوفِ عَلَى أَبْوَابِي ذُو تَرْسِلٍ
وَلَا كِتَابَةٍ، طَالَمَا عَثَرَ الْفُحُولُ فِي مِيدَانِي، وَتَشَعَّبَتْ عَلَيْهِمْ طُرُقِي فَضَلُّوا السَّبِيلَ
وَأَخْتَلَفَتْ عَلَيْهِمِ الْمَبَازِي، فَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ التَّكَوُّسِ وَالتَّرَاكِبِ فِي التَّعَارُفِ، وَلَمْ يُمَيِّزُوا
بَيْنَ التَّدَارُكِ وَالتَّوَاتُرِ وَالتَّرَادُفِ .

فَقَالَ عِلْمُ الْعُرُوضِ : لَقَدْ أَشْمَعْتَ الْقَوْلَ فِي الدَّعْوَى مِنْ غَيْرِ تَوْجِيهِ فَدَخَلَ
عَلَيْكَ الدَّخِيلُ، وَأَوْقَعْتَ الْوَصْلَ دُونَ تَأْسِيسٍ فِي هُوَةِ النَّقِصِ : فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ
مِنْ سَبِيلٍ؟ أَنَا مِغْيَارُ الْقَرِيضِ وَمِيزَانُهُ، وَعَلَى ثُبْنِي قَوَاعِدُهُ وَأَرْكَانُهُ، لَمْ يَزَلْ الشَّعْرُ
فِي عُلُورُنِيَّةٍ مُعْتَرِفًا وَلَحَقَى مُتَحَقِّقًا، وَمِنْ بُحُورِي مُغْتَرِفًا، وَبِأَسْبَابِي مُتَعَلِّقًا،
فَأَبْيَانُهُ بِمِزَانِي مُحَرَّرُهُ، وَأَجْزَاؤُهُ بِقِسْطَائِي تَفَاعِيلِي مُقَدَّرُهُ، وَبِفَوَاصِلِي مُتَمِّصَلُهُ،
وَبِأَوْتَادِي مُرْتَبِطُهُ غَيْرُ مُتَفَصِّلِهِ .

فَقَالَ عِلْمُ الْمَوْسِيقَى : لَقَدْ أَسْرَفْتَ فِي الْاِخْتِخَارِ فَضَلَّاتِ الطَّرِيقِ وَبَنْتَ عَنْهَا،
وَوَرَّطْتَ نَفْسَكَ فِيمَا لَا فَايْدَةَ فِيهِ فَلَزِمْتَ دَائِرَةَ لَا تَنْفَكُ عَنْهَا، وَأَتَيْتَ مِنْ طَوِيلِ

الكلام بما لا طائل تحته فنقل قولاً، وجئت من بسيط القول بما لو اقتصرت منه على المتقارب لكان بك أولى؛ فانت بين ذى طبع وزان لا يحتاج إلى معيارك في نظم قريضه، وأخرت طبعه عن الوزن فلم ينتفع من علمك بضره ولا عروضه؛ فإذا لا فائدة فيك ولا حاجة إليك، ولا عبرة بك ولا مؤول عليك؛ وكفى بك هضمًا، وقبيصة وذيماً؛ واستدلاً على دحس محبتك، وضعف أدلتك؛ قول ابن السكيت:

مُسْتَفْعِلُنْ فاعِلُنْ قَوْل * مَسَائِلُ كُلُّهَا فُضُولُ،

قد كان شعر الورى صحيحاً • من قبل أن يُخلق الخليل!

على أنه إن ثبت لك فائدة، وعاد منك على الشعر أو الشعراء ما يدعي؛ فأما تفاعيلك مقدمة لألحاني، وأوزانك وسيلة إلى أوزاني؛ نعم أنا غداة الأرواح، وقاعدة عمود الأفراح؛ والمتكفل بسط النفوس وقبضها، والقائم من تعديلها وتقويتها بنقلها وفرضها؛ أحرك النفس عن مبدئها فيحدث لها السرور وتظهر عنها الشجاعة والكرم، وأبعثها إلى مبدئها فيحدث لها الفكر في العواقب وتزايد المهوم والندم؛ فتارة أستمحل في الأفراح وزوال الكرب، وتارة في علاج المرضى وأخرى في ميادين الحروب؛ وآونة في محل الأحران واجتماع المآتم، ومررة يستعملني قوم في بيوت البادات فابعثهم على طلب الطاعات واجتناب المحارم؛ وأتى من غريب الألحان، بما يشبع به الباطح ويروى به الظمان، ويأنس به المستوحش وينشط به الكحلان؛ وتدنو لسماعه السباع، ويثو له بعد السدة الشجاع.

مع ما يفرغ عنى من علم الآلات الروحانية التي تُنعش الأرواح، وتقبلب الأفراح؛ وتثني الأخراس، وتؤثر في البخل السباح، وتعمل في الأبواب ما لا تفعل في اللبائ يعض الصفايح.

فقال عِلْمُ الطَّب : لَقَدْ أَصَمَّتِ الزَّمَانَ فِي اللُّهُو، وَمِلَتْ مَعَ الْأَرْبَاجَةِ فَاسَ بِكَ
 الْعُجْبَ وَزَادَ بِكَ الرَّهْوَ؛ وَدَاخَلَكَ الطَّيْشُ فَقَنِعَتْ بِالْإِطْرَابِ؛ وَعُنِيتَ بِمَعْرِفَةِ الْخَنِّ
 فَقَاتَكَ الْإِعْرَابُ؛ تَذَكَّرَ الْعَشَّاقُ أَحْوَالَ النَّوَى فَيُسَلِّمُهَا الْهَوَى إِلَى الْهَوَانَ، وَتَنَقَّلُ
 فِي نَوَاحِي الْإِيقَاعِ تَنَقَّلُ الْمَاءِمْ فُتْمَسِي فِي حِمَازٍ وَتُصْبِحُ فِي أَصْبَهَانَ؛ وَأَنْتَ وَإِنْ
 أَدْعَيْتَ أَنَّكَ الْعِلْمُ الرُّوحَانِي، وَالْمُسْتَوَلِي تَحْرِيكَ الطَّبَائِعِ الْأَرْبَعِ عَلَى النَّوعِ الْإِنْسَانِي
 وَغَيْرِ الْإِنْسَانِي؛ فَأَنْتَ غَيْرُ مُسْتَعْنِي عَنِّي، وَلَا فَئُكَ فِي الْحَقِيقَةِ مُنْفَكٌّ عَنِّي، بَلْ
 قَوَاعِدُكَ مُرَبَّيَّةٌ عَلَى قَوَاعِدِي، وَفَوَائِدُكَ مُسْتَفَادَةٌ مِنْ قَوَائِدِي، وَأَهْلُ صِنَاعَتِكَ
 يَتَطَفَّلُونَ فِي مَعْرِفَةِ الْمَلَائِمِ وَالْمَنَافِي عَلَى سَاقِطِ لُبَابِ مَوَائِدِي؛ وَأَنْتَ تَبْسِطُ بِكَ الرُّوحَ
 مَعَ وُجُودِ السَّكَمِ، أَوْ يَسْتَرِيحُ إِلَيْكَ الْقَلْبُ مَعَ شِدَّةِ مُقَاسَاةِ الْأَلَمِ؟؛ بَلْ أَنَا قِيَامُ
 الْأَبْدَانِ، وَغَايَةِ مَلَائِكِ الْإِنْسَانِ؛ بِي تُحْفَظُ صِحَّةُ الْأَجْسَامِ، وَلْتُمْكِنُ النَّفْسُ مِنْ
 اكْتِمَالِ قُوَّتِهَا النَّظَرِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ بِوَاسِطَةِ زَوَالِ الْأَسْقَامِ وَأَتَفَاءِ الْأَلَامِ؛ مَعَ مَا يَتَضَعُ
 بِالْظَرْفِ فِي التَّشْرِيحِ الَّذِي هُوَ أَحَدُ أَنْوَاعِي مِنْ سِرِّ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا
 تُفْهِمُونَ ﴾ . وَمَا يَظْهَرُ مِنْ حَالِ الصَّحَّةِ وَالْمَرَضِ وَسِرِّ الْمَوْتِ مِنْ أَنَّهُ تَعَالَى بِدَأَ الْخَلْقِ
 أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ يَحْشُرُونَ .

مَعَ مَا يَلْتَحِقُ بِي مِنْ عِلْمِ خَوَاصِّ الْعَقَاقِيرِ الْغَرِيبَةِ ، وَالْأَحْجَارِ الَّتِي تُؤَثِّرُ بِتَمَيِّزِهَا
 الصَّنَاعِي التَّأْمِيرَ السَّجِيهَ ، وَتَأْتِي مِنْ نَوَادِرِ الْأَفْعَالِ بِالْأَعْمَالِ الْغَرِيبَةِ ؛ عَلَى أَنَّي لَسْتُ
 بَخَصْصٍ فِي الْحَقِيقَةِ بَدَنِ الْإِنْسَانِ ، وَلَا قَاصِرٍ عَلَى نَوْجٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْحَيَوَانِ ، وَإِنَّمَا
 أَفَرِدْتُ بَنُوعَ الْبَشَرِ أَهْتَامًا بِشَانِهِ ، وَتَنِيهًا عَلَى جَلَالَةِ قَدْرِهِ وَعُلُومِ مَكَانِهِ .

ثُمَّ الْحَقِيقُ بِالْإِنْسَانِ فِي الْأَعْتَاءِ بِهِ الْخُيُولُ فَاشْتَقَّ لَهَا مَنِّي عِلْمُ الْبَيْطَرَةِ ، وَتَلَاهَا
 فِي الْأَعْتَاءِ جَوَارِحُ الطُّيُورِ لِأَهْتَامِ الْمُلُوكِ بِشَانِهَا فَاسْتَبْطَلَهَا مِنْ أَجْزَائِي عِلْمُ الْبَيْزَرَةِ ؛
 وَأَهْمِلُ مَا يَسُوَّى ذَلِكَ مِنْ جِنْسِ الْحَيَوَانِ ، فَلَمْ يُعْتَنَ بِأَمْرِهِ وَلَمْ يُجَاهِدْ لَهُ بَشَانٌ .

فقال علم القافة : لقد ارتقيت مرتقى صعبا ، ووليت مؤلجا صلبا ، وأثيت من مشكلات القضايا بما ضاقت مطالبه ، وعرضت نفسك لمغالبة الموت والموت لا شيء يغالبه ، واقتصرت في تشريحك الأعضاء على ذكر منافعها وصفاتها ، وأضربت عما تدل عليه بصورها وكيفياتها ؛ أين أنت من الحاق الأبن بالأب بالصفات المتماثلة ، والحكم بنبوت النسب بدلائل الأعضاء كما يُحكم بالجنة العادلة ؛ فهذه هي الفضيلة التي لا تساوى ، والمنفعة التي لا تعادل ولا تتاوى ؛ وكفأك لذلك شاهدا ، وعلى ثبوته في الشريعة المطهرة مُساعدا ؛ وأنه لا يتصور ذلك مُعارضه ولا نقض ، استنشار النبي صلى الله عليه وسلم بقول مديح المدلحي : « إن هذِهِ الأقدام بعضها من بعض » .

فقال علم قص الأثر : نعم إن شأنك لغريب ، وإن أجتهادك لمُصيب ؛ غير أني أنا أغرب منك شأنا ، وأدق في الإدراك معنى ؛ إذ أنت إنما تلحق الحق بالمشاهدة بمنزلة ، وتقيس قرعا على أصل ثم تلحق الفرع بأصله ؛ وأنا فأذكر المؤثر من الأثر ، وأستدل على الغائب بما يظهر من اللوانح في الرمل والمدر ؛ وربما ميزت أثر البعير الشارد من المراتع ، وفرقت بالنظر فيه بين الصحيح والظالغ ؛ فادركت من الأمر الخفي ما تذكره أنت من الظاهر ، وقضيت على الغائب بما تقضى به على الحاضر .

فقال علم غُضُون الكف والجهة : ما الذي آثيت به من الغريب ، أو أظهرته بعينك من العجيب ؛ ؟ فلو أُظِلَّت بارِضُ صُلبية لَوَقَّتْ آمالك ، أو حَتَّ الرِّيحُ مَعَالِم الأثر لَبَطَلَتْ أَعْمَالُكَ ، أو وَجَّحَ مَنْ تَقَفَى أثره الماءَ لَقَاتَ حَدْسُكَ الصائب ، أو جَعَلَ الماشي مُقَدِّمَ نَعْلِهِ مُؤَخَّرَهُ لَعَلَّتْ : إنَّ النَّاهِبَ قَادِمٌ والقَادِمُ ذَاهِبٌ ؛ لكن أنا كاشِفُ الأسرار الخفية ، والمستدلُّ على لوازم الإنسان بما رُكِبَ فيه من الدلائل الخفية ؛

أُستخرج من أسرار الحبسية وغُضُون الكُفِّ أمورًا قد أرشدت الحكمة الإلهية إليها ، وجُعِلَت تلك العلامة في الانسان دِلالةً عليها .

فقال علم الكُفِّ : لانه ليس في الاستدلال على الشيء بلازمه أمرٌ مُستغرب ، ولا ما يقال فيه : هذا من ذلك أعجب ؛ وإنما الشأن أن يقع الاستدلال على الشيء بما هو أجنبي منه ، وخارج عنه ، كما أستدل أنا بالخطوط الموجودة في كُتِفِ الذبجة على الحوادث الغريبة ، والأسرار العجيبة ؛ مما أجرى الله به العادة في ذلك ، وجعله علامة دالة على ما هنالك .

فقال علم خط الرمل : لقد علمت أنك لست بتحقيق لما أنت له مُتوهم ، ولا واثق بالإصابة فيما أنت عنه تُترجم ؛ وغايتك الوقوف مع التجارب ، والرجوع فيما تُحاوله إلى التقارب ، مع ما أنت عليه من الرُفُض والإهمال ، وما رُميت به من القطيعة وقلة الاستعمال ؛ أما أنا فقارس هذا الميدان ، ومالك زمام هذا الشأن ؛ فكَم من صمير أبرزته ، وأمرٍ خفي أظهرته ، ومكان عينته فوافي ، وأمد قدرته فطابق ؛ على أنه ليس لك أصل ترجع إليه ، ولا دليل تعتمد عليه ؛ فإنا أثبت منك قواعد ، وأوضع عند الاعتبار في الدلالة على المقاصد ؛ فان صدوت طورك ، أو جُزّت في الاحتجاج خصمك ؛ فذاك ، أنه كان نبي يخط فن وافق خطه فذاك .

فقال علم تعبير الرؤيا : إنك وإن أظهرت السرائر ، وأبرزت الضمائر ؛ فإن أمرَك موقوفٌ في حدسك على الدلالة الحالية ، ومقصورك في تخمينك على الأمور الاحتمالية ؛ أين أنت متى حين أصبر عما شاهدته النفس في النوم من عالم الغيب ؟ وكيف أكتشف عنه المحجب بالتأويل فيقع كفتل الصنح من غير شك ولا ريب ؛ فأخبر بحدوث تنع في العالم قبل وجودها ، وآتى من حقائق النذارة والبشارة بما يُنبه على التحذير من نحوها والترقب لموافاة سعودها .

فقال علم أحكام النجوم : حقيق ما أوتيت ، وصحيح ما عهدت وعليه
عوتيت ؛ إلا أنك قاصر على وقائع مخصوصة تُرشد إليها ، وأمور محدودة تُنبه عليها ؛
على أنه ربما تشابت الرؤيا عن فكرة وقعت في البقطة فانتصت بالتمام ، أو حدثت
عن سوء مزاج أو رذالة مطعم ونحو ذلك فكانت أضغاث أحلام ؛ أما أنا فلأني أدل
بما أجزاه الله تعالى من العادة ، على الحوادث العامة مصاحبا لمقتضيات الإرادة ؛
ليظهر ما في الحكمة الإلهية من قضايا التدبير ، ويتبين ما أشغلت عليه الأفلاك
العلوية من تقدير الترتيب وترتيب التقدير ؛ مع ما يترتب على ذلك من الأعمال
الغيبية ، والأحوال الغريبة ؛ التي تبهر العقول ، ويمتنع إليها من غير طريق
الوصول ؛

من علم السحر على الإطلاق ، وعلم الطلسمات الغريبة وعلم الأوفاق ،
وكذلك علم النيرنجيات وعلم السيميا الآخذ بالأحداق .

فقال علم الهيئة : مالك ولأباطيل سمعها ، وأكاذيب تزخرفها وتزبرقها ؛
وأما نيل يعتمد المعتمد فتعيب ، وأقاويل تارة تُحيط وتارة تصب ؛ ولقد وردت
الشريعة المطهرة بالنهي عن اعتبارك ، وجاءت السنة الفراء بنحو أخبارك وإغفاء
آثارك ؛ ونابك بفساد هذا الاعتقاد ورد هذا المنع ، ما ثبت في الصحيح من
أنه من قال : ميطرنا بنوء كذا فهو كافر بالله مؤمن بالكوكب ؛ على أنك في الحقيقة
نوع من أنواع ، ممدود من جندي ومحسوب من أتباعي ؛ نعم أنا القائم من دليل
الاعتبار في القدرة بتسام الفرض ، والقائد بزمام العقل إلى التفكر في خلق السموات
والأرض ؛ عني يتفرع علم الزيجات والتقويم الذي به يعرف موضع كل واحد
من الكواكب السائرة ومدة إقامتها ، وزمن تثيرتها وتثريبها ومقدار رجوعها

وَأَسْتَقَامَتَهَا ؛ وَحَالُ ظَهْوِهَا وَأَخْتِفَاتُهَا فِي كُلِّ زَمَانٍ ، وَمَا يَتَّصِلُ بِذَلِكَ مِنَ الْأَنْصَالِ وَالْأَنْفِصَالِ وَالْخُسُوفِ وَالْكَسُوفِ وَأَخْتِصَاصِ ذَلِكَ بِمَكَانٍ دُونَ مَكَانٍ .

فَقَالَ عِلْمُ كَيْفِيَّةِ الْأَرْصَادِ : مَا عِلْمُ الزَّيْجَاتِ وَالْتِقَاوِيمِ الَّذِي تُقَدِّمُهُ فِي الذِّكْرِ عَلَى ، وَتُؤَخِّرُهُ مِنَ الْفَضْلِ بِمَا لَدَيْ ، إِذْ بِي تُتَعَرَّفُ كَيْفِيَّةُ تَحْصِيلِ مَقَادِيرِ الْحَرَكَاتِ الْفَلَكِيَّةِ ، وَالتَّوَصُّلِ إِلَيْهَا بِالْآلَاتِ الرَّصَدِيَّةِ ؛ الَّتِي عَلَيْهَا يَتَرْتَّبُ عِلْمُ الزَّيْجَاتِ ، وَيُعْرَفُ فِي التَّقْوِيمِ الْأَنْتِصَالَاتِ وَالْأَنْفِصَالَاتِ وَالْإِمْتَرَاجَاتِ .

مَعَ مَا يَلْتَحِقُ بِي مِنْ عِلْمِ الْكَوْكِزَةِ الَّذِي مِنْهُ تُعْرَفُ كَيْفِيَّةُ اخْتِذَاذِ الْآلَاتِ الشَّعَاعِيَّةِ ، وَيَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى اسْتِخْرَاجِ الْمَطَالِبِ الْفَلَكِيَّةِ .

فَقَالَ عِلْمُ الْمَوَاقِيتِ : كَيْفَ وَأَنَا سَيِّدُ عُلُومِ الْهَيْئَةِ وَزَعِيمُهَا ، وَسَرِيقُهَا فِي الشَّرِيعَةِ وَكَرِيمُهَا ؛ بِي تُعْرَفُ أَوْقَاتُ الْعِبَادَاتِ ، وَتُسْتَخْرَجُ جِهَةُ الْقِبْلَةِ بِلِ سَائِرِ الْجِهَاتِ ؛ وَتُعْلَمُ أَحْوَالُ الْبُلْدَانِ وَمَحَلَّتُهَا مِنَ الْمَأْمُورِ فِي الطُّولِ وَالْعَرْضِ ، وَمَقَادِيرُ أَبْجَادِهَا وَأَنْحِرَافُ بَقِيضِهَا عَنْ بَعْضٍ ؛ مَعَ مَا يَخْطُرُ فِي هَذَا السَّلَكِ مِنْ مَعْرِفَةِ السُّمُوتِ وَارْتِفَاعِ الْكَوَاكِبِ ، وَمَطَالَعِهَا مِنْ أَجْزَاءِ الْبُرُوجِ وَالطَّالِعِ مِنْهَا وَالْفَارِبِ ؛ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الشَّعَاعَاتِ الْمُخْزُوطَةِ ، وَالظُّلَالِ الْقَائِمَةِ وَالْمَبْسُوطَةِ ؛ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَلْتَحِقُ بِي ، وَيُنَسَّبُ إِلَيَّ وَيَتَعَلَّقُ بِسَبَبِي :

مِنْ عِلْمِ الْآلَاتِ الظِّلِّيَّةِ الَّتِي تُعْرَفُ بِهَا سَاعَاتُ النَّهَارِ ، وَيُظْهِرُ مِنْهَا الْمَاضِي وَالْبَاقِي بِأَقْرَبِ مُلْتَمِسِينَ وَأَطْفِ أَعْتِبَارٍ ، مِنْ نَحْوِ الرُّخَامَاتِ الْقَائِمَاتِ ، وَالْمَبْسُوطَاتِ مِنْهَا وَالْمَائِلَاتِ .

فَقَالَ عِلْمُ الْهَنْدَسَةِ : إِنْ فَضْلَكَ لِمَشْهُورٍ ، وَمَقَامَكَ فِي الشَّرَفِ غَيْرِ مَنْكُورٍ ؛ إِلَّا أَنْ آلاَمِكَ بِي مُقَدَّرَةٌ ، وَأَشْكَالُكَ بِأَوْضَاعٍ مُحَرَّرَةٌ ؛ فَأَنَا إِمَامُكَ الَّذِي بِهِ تَقْتَدَى ، وَتَجُكُ

الذى به تَهْدَى ؛ بل جميع علوم الهيئة فى الحقيقة مَوْقُوفَةٌ عَلَى ، وَرَاجِعَةٌ فى قواعدها إلى ؛ لولاي لم يُعْرِفِ السَّطْحَ والكُرَّهَ ، ولم يُبَيِّنْ بين الخُطُوطِ والقِيسِ والدَّوَائِرِ المَقْدَرَةِ ؛ مع ما يَنْشَأُ عَنِ ، ويستعمل من صَحَائِي وَفُقَاتِي مِنِّي ؛ من أحوال المقادير ولَوَاحِقِهَا ، ومعرفة ظواهرها الواضحة ودقائقها ؛ وأوضاع بعضها عند بعض ونسبها ، وخواص أشكالها والطَّرِيقَ إلى عمل ما سَبِيلُهُ أن يعمل لها ، واستخراج ما يحتاج إلى استخراجه بالبراهين اليَقِينِيَّةِ القاطعة ، وإظهارها إلى الحِسِّ بالأشكال البَيِّنَةِ والحدود الجامعة المانعة .

فقال علم عقود الأبنية : تَمَّ ، إلا أني أنا أَجَلُ مَقَاصِدِكَ ، وأعذب مَوَارِدِكَ ؛ وَنُورُ عِيُونِكَ ، وَعَرُوسُ فُنُونِكَ ؛ مِنِّي يُسْتَفَادُ بِنَاءُ الحُصُونِ والأَسْوَارِ ، ويُتَعَرَّفُ شَقُّ الأَقْنِيَةِ وَخَفَرُ الأَنْهَارِ ؛ وِعِمَارَةُ المَدُنِ وَعَقْدُ القَوَاصِرِ ، وَسَدُّ البُثُوقِ وَبِنَاءُ القَنَاطِرِ ؛ وَتَضْيِيقُ المَسَاكِينِ وَوَضْعُ المَنَازِلِ ، وَنَصْبُ الأشجارِ وَتَرْتِيبُ الرِّيَاضِ ذَوَاتِ الخِجَالِ .
فقال علم جَرِّ الأَثْقَالِ : صَدَقْتَ وَلَكِنِّي أَنَا أَسَاسُ مَبَانِيكَ وَقَاعِدَةُ سِنَادِكَ ، وَحَامِلُ أَثْقَالِكَ وَعَمُودُ اعْتِمَادِكَ ؛ بِي تُعْرَفُ كَيْفِيَّةُ ثَقُلِ الثَّقَلِ العَظِيمِ بِالقُوَّةِ اليَّسِيرَةِ ، حَتَّى تُثَقِّلَ مِائَةً أَلْفَ رِطْلٍ بِقُوَّةِ تَحْمِيْلَةٍ وَذَلِكَ مِنْ الأسرارِ النَّفِيْسَةِ والأَعْمَالِ الخَطِيرَةِ .

فقال علم مَرَاكِزِ الأَثْقَالِ : إلا أَنَّكَ مَحْتَاجٌ إِلَى فى أَعْمَالِكَ ، وَتَوَقَّفُ عَلَى فى جميع أحوالك ؛ من حيثُ استخراجه مَرَاكِزِ الأَجْسَامِ المَحْمُولَةِ ، وَبَيَانُ مُعَادِلَةِ الجِسمِ العَظِيمِ بِمَا هُوَ دُونَهُ لَتَوْسِيطِ المسافةِ بِالأَلَاتِ المَعْمُولَةِ .

فقال علم المِسَاحَةِ : أَرَأَيْكَ قَدْ غَفَلْتَ عَنْ مَعْرِفَةِ المَقَادِيرِ والمسافاتِ التى هِيَ مُقَدِّمَةٌ عَلَيْكَ فى وَضْعِ المَبَانِي ، وَمُتَفَرِّدَةٌ عَنْكَ بِكثيرٍ مِنَ المعاني ؛ مِنْ أَعْمَالِ الخَرَاجِ والزَرَاعَاتِ ،

وتقدير الرساتيق والبياعات ، وكَيْفِيَّةِ ذَرْعِ المِثْلَاتِ ، والمُرَبَّعات ، والمُدَوَّرات ،
والمُسْتَطَلات ؛ وغير ذلك من دَقَائِقِ الأعمال ، وإدراكِ كَبَيَاتِ المقادير على التفصيل
والإجمال .

فقال علم الفِلاحة : فإذا قد آعترفت أَنَّكَ من جُمْلَةِ لَوَاحِقِ ، مُنْدَرِجٍ في حُقُوقِ
وَدَاخِلٍ تحت مَرَاثِقِ ؛ فانا في الحقيقة المقصودُ منك في الوُضْعِ بالقياس ، والمُنْتَحِدِ
بِكَ دُونَ غَيْرِي من غيرِ ألباسٍ ؛ مع ماأنا عليه من مَعْرِفَةِ كَيْفِيَّةِ تَدْيِيرِ النَّبَاتِ من بَدْءِ
كَوْنِهِ إلى تمامِ تَدْيِيرِهِ ، وَتَسْمِيَةِ الحُبُوبِ والنَّشَارِ بإصلاح الأرض وما تَحَلَّلَتْهَا
من المُعَفَّنَاتِ كالسَّهَادِ وغيره وما أُبْدِيَهُ من اللُّطَائِفِ في إِعْجَادِ بعضِ الفَوَائِدِ في غيرِ
فَصْلِهِ ، وَتَرْكِيبِ بَعْضِ الأشجارِ على بَعْضٍ وَاسْتِخْرَاجِ بَعْضِهَا من غيرِ أَصْلِهِ .

فقال علم إنباطِ المِياهِ : إِنْ لَأَنَّى أَنَا بِدَايَةِ عَمَلِكَ ، وَغَايَةِ مُنْتَهَى أَمَلِكَ ؛ لَا يَتِمُّ لَكَ
أَمْرٌ بِدُونِي ، وَلَا تَنْتَبِهُ لَكَ خَضْرَاءُ مَا لَمْ تُسْقَ من بَيَّارِي وَعُيُونِي ؛ فانا الكَفِيلُ
بأحياءِ الأرضِ المَيْتَةِ وإفلاحيها ، والقَائِمُ بِتَلْطِيفِ مَرَاجِحِهَا وإصلاحِهَا .

فقال علم المَنَاظِرِ : مَا الَّذِي تُجِدِي أَنْتِ وَطَرَفِي عَنْكَ مُرْتَدً ، وَتَطْرِي إِلَيْكَ غَيْرِ
مُتَمَتِّدٍ ؛ وَأَنَّى تَسْتَطِيعُ مِيَاهُكَ التَّرْقِيَّ من الأغوارِ إلى النُّجُودِ ، وَتَتَنَقَّلُ عُيُونُكَ وَأَنْبَارُكَ
بَيْنَ المَبْهُوطِ وَالصُّعُودِ ؛ إِذَا لَمْ أَكُنْ لَكَ مُلَاحِظًا ، وَعَلَى الإِعْتِنَاءِ بِأَمْرِكَ مُحَافِظًا ؛
مَعَ مَا أَشْتَمِلُ عَلَيْهِ غَيْرَ ذَلِكَ من تَحْقِيقِ المُبْصِرَاتِ في القُرْبِ والبُعدِ على أَخْتِلَافِ معانيها ،
وَمَا يَقْلُطُ فِيهِ البَصَرُ كَالْإِشْجَارِ القَائِمَةِ عَلَى سُطُوطِ المِيَاهِ حَيْثُ تُرَى وَأَسَافِلُهَا أَعَالِيهَا .

فقال علم المَرَايَا المَحْرِقَةِ ^(١) : إِنَّكَ وَإِنْ دَقَّقْتَ النَّظَرَ ، وَحَقَّقْتَ كُلَّ مَا وَقَعَ عَلَيْهِ
حَاسَةُ البَصَرِ ؛ فانا مَقْصِدُكَ الأعْظَمُ ، وَمِهْمُكَ المُقَدَّمُ طَالَمَا أَحْرَقْتُ الفِلاَحَ

(١) ذكر في لسان العرب أَنَّ المرأةَ جمعها مراء كمرأع وأن العوام يقولون في جمعها : مراءيا .

بُغْمَايَ، وَحَصَّنْتُ الْجَبُوشَ بِدِفَاعِي، وَقَتُّ بِمَا لَمْ يَقُمْ بِهِ الْجَيْشُ الْعَوْرَمَ وَالْعَسْكَرَ
الْجَوَارَ، وَأَغْنَيْتُ مَعَ أَنْفِرَادِي عَنْ كَثْرَةِ الْأَعْوَانِ وَمُعَاذَةِ الْأَنْصَارِ .

فَقَالَ عِلْمُ الْآلَاتِ الْحَرْبِيَّةِ : وَإِنْ حَذَّكَ لَكَيْلٌ، وَإِنْ جَدَّكَ لَقِيلٌ، وَإِنْ
الْمُسْتَنْصِرُ بِكَ لِلذَّلِيلِ، وَمَاذَا عَسَى تَصِلُ فِي الْإِحْرَاقِ إِلَيْهِ، أَوْ تُسَلِّطُ فِي الْحُرُوبِ عَلَيْهِ ؟
أَنَا بَاغُ الْحَرْبِ الْمَلْبِيدِ، وَالْمُحَصَّنُ مِنْ كُلِّ بَاسٍ شَدِيدٍ، وَالتَّالِيُ بِلِسَانِ الصَّدُوقِ عَلَى
الْأَعْدَاءِ : ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ . فَلَا تَنْفُسُ الْمَقْصُودَ وَعَيْنُ
الْمُرَادِ، وَعُمُودَ الْحَقِّ وَقَاعِدَةَ الْجِهَادِ .

فَقَالَ عِلْمُ الْكِيمِيَا : مَا أَنْتَ وَالْقِتَالُ، وَمُوَاقِعَةُ الْحُرُوبِ وَقَوَارِعُ التَّزَالُ؛ وَهَلْ
أَنْتَ إِلَّا آلَةٌ مِنَ الْآلَاتِ، لَا تُسْتَقِيلُ بِنَفْسِكَ فِي حَالَةٍ مِنَ الْحَالَاتِ، وَأَنْتَ يُفْنَى
السَّلَاحُ عَنْ أَجْلَانٍ مَعَ خَوَرِ الطَّبَاعِ، أَوْ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْبَطْلُ الصَّنِيدُ وَالْمُجَرَّبُ الشُّجَاعُ؛
فَالْمَبْرَةُ بِالْمُقَاتِلِ، لَا بِالذَّوَابِلِ، وَالْعُمْدَةُ عَلَى الرِّجَالِ، لَا بِتَوَارِقِ السُّيُوفِ عِنْدَ التَّزَالِ؛
وَبِكُلِّ حَالٍ فَالْعُمْدَةُ فِي الْحُرُوبِ وَجَمْعُ الْمَسَاكِرِ عَلَى التَّقْدِيرِ دُونَ مَاعِدَاهَا،
وَالْإِسْتِنَادُ إِلَى الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ بِخِلَافِ مَاسَوَاهِمَا، وَإِلَى هَذَا الْحَدِيثِ يُسَاقُ وَعَلَى
فِيهِ يُعْتَمَدُ، وَعَنِّي يُؤْخَذُ وَإِلَى فِي مِثْلِهِ يُسْتَنْدُ، أَجَاوِلُ بِجُنْحِي التَّدِيرَ، مَا مَلَبَّخْتُهُ
الطَّبِيعَةُ عَلَى تَمَرِّ الدُّهُورِ، فَآتِي بِمِثْلِهِ فِي الزَّمَنِ الْقَرِيبِ، وَأُجَانِسُ بَيْنَ الْمَعَادِنِ فِي تُمَازَجَتِهَا
فَيُظْهِرُ عَنْهَا كُلُّ مَعْنَى غَرِيبٍ، وَأُبْرِزُ مِنْ خِصَائِصِ الْإِكْسِيرِ مَا يَقْلِبُ الْمَرِيعَ قَرَأً
مِنْ غَيْرِ نَهِسٍ، وَيُجِيلُ الزُّهْرَةَ تَمَسًّا وَنَاهِيكَ بِإِحَالَةِ الزُّهْرَةِ إِلَى الشَّمْسِ، فَصَاحِبِي
أَبْدًا عَزِيزُ الْمَنَالِ، شَرِيفُ النَّفْسِ عَنِ الطَّلَبِ غَفِيفُ اللِّسَانِ عَنِ السُّؤَالِ .

فَقَالَ عِلْمُ الْحِسَابِ الْمُقْتَوَحِ : إِنَّكَ وَإِنْ دَقَعْتَ عَنَّا، وَجَلَبْتَ غَنَى، فَامَوَالِكَ
الْجَمَّةِ، وَحَوَاصِلُكَ الضَّخْمَةِ، مَحْتَاجَةٌ إِلَى حُسَابِي، غَيْرَ غَنِيَّةٍ عَنِ كُجَابِي، أَنَا جَامِعُ

الأموال وضابط أصولها ، والمتكفل بحفظ جملتها وتفصيلها ؛ مع احتياج كثير من العلوم إلى في الضرب والقسمة والإسقاط .

قد أخذت من علم الارتماطيقى الذى هو أصل علوم الحساب بجوانبه ، وتعلقت منه بأسهل طرقه وأقرب مذاهبه ؛ ونأهيك بشرف قدرى ، ورفعته ذكرى ؛ قول أبى محمد الحريرى فى بعض مقاماته ، منها على شرف قلبى وسنى حالاته : « ولولا قلم الحساب لأودت ثمرة الأكتساب ، ولأنصل الثغابن إلى يوم الحساب » .

فقال علم حساب التخت والميل : مه ! فما أنت إلا علم العامة فى الأسواق ، تدور بين الكافة على العموم وتتداول بينهم على الإطلاق ؛ نكاد أن تكون بديها حتى للأطفال ، وضروريا للنساء والعبيد فى جميع الأحوال ؛ يتسع عليك مجال الضرب تقصر عنه همتك المقصره ، وتتسع عليك مدارك القسمة فتأق بها على التقريب غير محوره ؛ أين أنت من سعة باعى ، وأمتداد ذراعى ، وتحرير أوضاعى ؟ ؛ لا يعتمد أهل الهيئة فى مساحه الأفلاك والكواكب غير حقائق أمورى ، ولا يعولون فيها - على سعة فضائها - إلا على صحاحى وكسورى .

فقال علم حساب الخطائين : مالى ولعلم لا يوصل إلى المقصود إلا بعد عمل طويل ؟ ، ويحتاج صاحبه مع زيادة العناء إلى استصحاب تحت وميل ، وقد قيل : كل علم لا يدخل مع صاحبه الختام بخداه قاصر ونفعه قليل ، على أن غيرك يساركك فيما أنت فيه ، ويوصل إلى مقصودك بطريق لا يدخله الفلظ ولا يعتريه ؛ وإنما الشأن فى استكشاف غامض أو إظهار غريب ، ولا أعجب من أن نصيب إخراج المجبول من الأعداد بخطائين يقال : أتى بخطائين وهو مضىب .

فقال علم الحِبر والمُقابلة : حَسْبُكَ إِنَّمَا أَنْتَ فِي اسْتِخْرَاجِ الْمَجْهُولاتِ كَنُقْطَةِ
 مِنْ قَطْرٍ ، أَوْ نُبْصَةٍ مِنْ بَحْرٍ ؛ تَقْتَصِرُ مِنْهَا بِطُرُقِكَ الْقَاصِرَةِ وَأَعْمَالُكَ النَّائِبَةِ ،
 عَلَيَّ مَا أَمْكَنَ صِرْوَرَتِهِ مِنَ الْعَدَدِ فِي أَرْبَعَةِ أَعْدَادٍ مُتَنَاسِبَةٍ ؛ نَعَمْ أَنَا أَبُو عُذْرَتِي ،
 وَأَبْنُ بَجْدَتِي ، وَأَخُو تَجَدُّدِي ؛ اسْتَخْرِجْ جَمِيعَ الْمَجْهُولاتِ ، مِنْ مَسَائِلِ الْمَعَامَلَاتِ ،
 وَالْوَصَايَا وَالتَّرِكَاتِ ؛ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يَجْرِي هَذَا الْجَرَى ، وَيَتَخَوُّ هَذَا النُّخُو وَيَسْرَى
 هَذَا الْمَسْرَى ؛ مِمَّا يَدْخُلُ تَحْتَ الْأُمُوالِ وَالْجُدُورِ ، وَالْأَعْدَادِ الْمُطْلَقَةِ مِنَ الصَّحَاحِ
 وَالْكُسُورِ .

فقال علم حِسَابِ الدِّرْهِمِ وَالدِّينَارِ : مَالِكَ وَلِدَاعَةِ التَّعْمِيمِ فِي اسْتِخْرَاجِ
 الْمَجْهُولاتِ وَكَشْفِ الْغَوَامِضِ ؟ وَإِنَّمَا أَنْتَ قَاصِرٌ عَلَى اسْتِعْلَامِ الْمَجْهُولاتِ الْعَدَدِيَّةِ
 الْمَعْلُومَةِ الْغَوَامِضِ ؛ دُونَ مَا تَزِيدُ عِدَّتُهُ عَلَى الْمَعَادِلَاتِ الْجَبْرِيَّةِ ، فَقَدْ فَأْتَيْتَ حَيْثُ يَزِيدُ
 الدَّعَاوَى الْحَصْرِيَّةِ ؛ لَكِنِّي أَنَا كَاشِفُ هَذِهِ الْحَقَائِقِ ، وَمُبَيِّنُ سُبُلِهَا بِالطَّلَفِ الطَّارِقِ ؛
 فَمَنْ إِلَيْهَا يُتَوَصَّلُ ، وَعَلَى قَوَاعِدِي لَأَسْتَخْرِجَ مَقَاصِدَهَا مُجْمَلٌ وَيُفَصَّلُ .

فقال علم حِسَابِ الدُّوَرِ وَالْوَصَايَا : إِنَّ اسْتِخْرَاجَ الْمَجْهُولاتِ وَإِنْ عَظُمَ نَفْعُهَا ،
 وَحَسُنَ وَضْعُهَا ؛ فَإِنَّا أَعْظَمُ مِنْهُ فَائِدَةً ، وَأَجَلُّ مِنْهُ عَائِدَةً ؛ أُبَيِّنُ مِقْدَارَ مَا يَتَعَلَّقُ بِالدُّوَرِ
 مِنَ الْوَصَايَا ، حَتَّى يَتَضَمَّنَ لِمَنْ يَتَأَمَّلُ ، وَأَقْطَعُ الدُّوَرَ فَتَعُودَ الْمَسْأَلَةُ مِنْ أَظْهَرِ الْقَضَايَا ،
 وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَدَارَ أَوْ تَسْلَسَلَ .

فقال عِلْمُ الْفِقْهِ : وَهَلْ أَنْتَ إِلَّا بُذَّةٌ مِنَ الْوَصَايَا الَّتِي هِيَ بَارِقَةٌ مِنْ بَوَارِقِ ،
 تَتَعَلَّقُ بِأَطْنَابِي وَتَدْخُلُ تَحْتَ سُرَادِي ؛ فِي تَمْيِيزِ مَعَالِمِ الْأَحْكَامِ ، وَتَبْيِينِ الْوَأَجِبِ
 وَالْمَنْدُوبِ وَالْمُبَاحِ وَالْمَكْرُوهِ وَالْحَرَامِ ؛ وَيُتَعَرَّفُ مَا يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ
 الْعِبَادَاتِ ، وَسَائِرِ أَنْوَاعِ التَّكَالِيفِ الشَّرْعِيَّةِ الْعَمَلِيَّةِ مِمَّا تَدْعُو إِلَيْهِ الضَّرُورَاتُ

وتَجَرى به العادات ؛ فَأَنَا إِمَامُ الْعُلُومِ الَّذِي بِهِ يُقْتَدَى ، وَعَمِيدُهَا الَّذِي عَلَيْهِ يُعْتَمَدُ
وَتَجَمُّعُهَا الَّذِي بِهِ يُهْتَدَى ؛ فَلَوْلَا إِرْشَادِي لَضَلَّ سَعَى الْمُكَلَّفِينَ ، وَلَآمَسُوا فِي دِيْنَاءِ
مُدْهِمَةٍ فَأَصْبَحُوا عَنْ رَكَائِبِ الْخَيْرِ مُخْلِفِينَ .

وَنَاهِيكَ أَنْ مِنْ جُمْلَةِ أَفْرَادِي ، وَآحَادِ أَعْدَادِي : -

عَلِمَ الْفَرَائِضَ الَّذِي حَصَّ الشَّارِعُ عَلَى تَعْلِيمِهِ وَتَعْلِيمِهِ ، وَأَخْبَرَ أَنَّ نِصْفَ الْعِلْمِ
مُنْبَهًا عَلَى تَعْظِيمِ شَأْنِهِ وَتَفْخِيحِهِ ؛ وَبَالَغَ فِي إثْبَاتِ قَوَاعِدِهِ وَإِحْكَامِ أَسْئَلِهِ ، فَقَالَ :
« إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَكِلْ قِسْمَةَ مَوَارِيثِكُمْ إِلَى مَلِكٍ مُقَرَّبٍ وَلَا نَبِيٍّ مُرْسَلٍ بَلْ تَوَلَّاهَا
فَقَسَمَهَا بِنَفْسِهِ » .

فَقَالَ عِلْمُ أَصُولِ الْفِقْهِ : إِنَّ مَقَالَكَ لَمَالٌ ، وَإِنْ جِئْتَهُ لِحَالٌ ؛ غَيْرَ أَنِّي أَنَا
الْمُتَكَفِّلُ بِتَقْرِيرِ أَصُولِكَ ، وَتَوْجِيهِ الْمَسَائِلِ الْوَاقِعَةِ فِي خِلَالِ أَبْوَابِكَ وَفُصُولِكَ ؛
بِى تُعَرَفُ مَطَالِبُ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ الْعَمَلِيَّةِ وَطُرُقُ اسْتِنْبَاطِهَا ، وَمَوَادُّ تَجَمُّعِهَا
وَأَسْتِخْرَاجِهَا بِدَقِيقِ النَّظَرِ وَتَحْقِيقِ مَنَاطِهَا ؛ فَبِأُصُولِي فُرُوعُكَ مَقَرَّرَةٌ ، وَبِحَاسِنِ
أَسْتِدْلَالِي حُجُجُكَ مُتَقَعَةٌ مُحَرَّرَةٌ ؛ قَدْ مَهَّدْتُ طُرُقَكَ حَتَّى زَالَ عَنْهَا الْإِلْبَاسُ ، وَبَنَيْتُ
عَلَى أَعْظَمِ الْأُصُولِ فُرُوعَكَ فَاسْتَدْتَهَا لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ وَالْقِيَاسِ .

فَقَالَ عِلْمُ الْجَدَلِ : قَدْ عَلِمْتَ أَنَّ الدَّلِيلَ لَا يَقُومُ بِرَأْسِهِ ، وَلَا يَسْتَقِيلُ بِنَفْسِهِ ؛
بَلْ لَا بُدَّ فِي تَقْرِيرِهِ مِنَ النَّظَرِ فِي مَعْرِفَةِ كَيْفِيَّةِ الْأَسْتِدْلَالِ ، وَالطَّرِيقِ الْمَوْصِلِ إِلَى
الْمَطْلُوبِ عَلَى التَّفْصِيلِ وَالْإِجْمَالِ ؛ وَأَنَا الْمُتَكَفِّلُ بِذَلِكَ ، وَالْمَوْصِلُ بِكَشْفِ حَقَائِقِ
الْبَحْثِ إِلَى هَذِهِ الْمَسَارِكِ ؛ بِى تُعَرَفُ كَيْفِيَّةُ تَقْرِيرِ الْمَحْجَجِ الشَّرْعِيِّ ، وَقَوَاعِدُ
الْأَدِلَّةِ وَتَرْتِيبُ التَّكْتِ الْإِحْلَافِيِّهِ ؛ فَمَوْضُوعُكَ عَلَى تَحْمُولِ ، وَنَفَرْتُكَ إِلَى نَظَرِي بِكُلِّ
حَالٍ مَوْكُولٌ .

فقال علم المنطق : خَفَضَ عَلَيْكَ ! فَهَلْ أَنْتَ إِلَّا نَوْعٌ مِنْ قِيَاسَاتِي الْمُنْطَلِقَةِ
أُفِرِدْتَ بِالتَّصْنِيفِ ، وَخُصِّصْتَ بِالْمُبَاحِثِ الدِّيلِيَةِ نَخَالَطْتَ أَصُولَ الْفِقْهِ فِي التَّالِيفِ ؟
فَأَنْتَ إِذَا فَرَدْتَ مِنْ أَفْرَادِي ، وَوَاحِدٌ مِنْ أَعْدَادِي ؛ مَعَ مَا أَشْتَمَلُ عَلَيْهِ سِوَاكَ مِنْ
الْقِيَاسَاتِ الْبُرْهَانِيَّةِ الْقَاطِعَةِ فِي الْمُنَاطَرَاتِ ، وَالْقِيَاسَاتِ الْخَطَايَةِ وَالْبَلَاغَاتِ السَّافِيَةِ
فِي مَخَاطِبَاتِ الْجُمْهُورِ عَلَى سَبِيلِ الْمُخَاصِمَاتِ وَالْمَسَاوِرَاتِ ؛ وَكَذَلِكَ حَالُ الْقِيَاسَاتِ
الشَّعْرِيَّةِ ، وَكَيْفَ يُسْتَعْمَلُ التَّشْبِيهِ الْمَفِيدُ لِلتَّخْيِيلِ الْمَوْجِبُ لِلانْفِعَالَاتِ النَّفْسَانِيَّةِ ؛
كَالْإِغْرَاءِ وَالتَّحْذِيرِ ، وَالتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهيبِ وَالتَّعْظِيمِ وَالتَّخْفِيفِ ؛ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ مَعْرِفَةِ
الْأَلْفَاظِ وَالْمَعَانِي الْمَفْرَدَةِ مِنْ حَيْثُ هِيَ عَامَّةٌ كُلُّهَا ، وَتَرْكِيبِ الْمَعَانِي الْمَفْرَدَةِ بِالنِّسْبَةِ
إِلَى الْإِيجَابِيَّةِ وَالسَّلْبِيَّةِ ؛ تَعْيِمْ مَرَاغَاتِي الْفِكْرَ عَنِ الْخَطَايَا فَلَا يَزَلْ ، وَتَهْدِيهِ سِوَا السَّبِيلِ
فَلَا يَحِيدُ عَنِ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَلَا يَضِلُّ ، وَأَسِيرِي فِي جَمِيعِ الْمَقُولَاتِ فَاتَّصِرْفُ فِيمَا
يَلِيقُ مِنْهَا وَيَجِلُّ .

فقال علم دَارِيَةِ الْحَدِيثِ : قَدْ عَلِمْتَ بِمَا ثَبَّتَ بِهِ الْأَدِلَّةُ بِالْإِتِّوَاجِ وَالتَّصْرِيحِ ،
أَنَّهُ لَا جَهْلَ لِلْعَقْلِ فِي تَحْسِينِ وَلَا تَقْصِيرِ ؛ وَحِينَئِذٍ فَلَا بُدَّ مِنْ نَصِّ شَرْعِيٍّ تَعْتَمِدُ عَلَيْهِ ،
وَتُسْتَنْدُ فِي مُقَدِّمَاتِكَ إِلَيْهِ ؛ وَلَا أَقْوَى مُجْهً ، وَأَوْضَحَ حُجْجَةً ؛ مِنْ كَلَامِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، الَّذِي لَا يَنْطَلِقُ عَنِ الْهَوَى إِذَا تَكَلَّمَ ؛ فَإِذَا اسْتَنْدْتَ إِلَى نَصُوصِهِ ،
وَأَعْتَمَدْتَ عَلَيْهِ فِي عُمُومِهِ وَخُصُوصِهِ ؛ فَقَدْ حَسَنَ مِنْكَ الْمُقَدِّمُ وَالتَّالِي ، وَكَانَتْ
مُقَدِّمَاتُكَ فِي الْبَحْثِ أَمْضَى مِنَ الْمُرْهَفَاتِ وَتَتَأَيَّدُكَ أَنْفَعُ مِنَ الْعَوَالِي ؛ وَقَدْ تَحَقَّقَتْ
أَنِّي إِمَامُ هَذَا الْمَقَامِ ، وَمَالِكُ قِيَادِ هَذَا الزَّمَانِ .

فقال علم رِوَايَةِ الْحَدِيثِ : لَقَدْ ذَكَرْتَ مِنَ الصَّحِيحِ الْمُتَّقِي عَلَيْهِ بِمَا لَا طَعْنَ
فِيهِ لِمُرِيبٍ ، وَتَمَلَّقْتَ مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ بِأَوْثَقِ سَبَبٍ فَأَتَيْتَ بِكُلِّ لَفْظٍ حَسَنٍ وَمَعْنَى

غَرِيب ؛ إلا أن الدَّرايَه ، مَوْقُوفَةٌ عَلَى الرَّوَايَه ؛ وَكَيْفَ يَقَعُ نَظَرُ النَّاظِرِ فِي حَدِيثٍ قَبْلَ وَصُولِهِ إِلَيْهِ ، أَوْ يَتَأَنَّى الْعِلْمُ بَمَعْنَاهُ قَبْلَ الْوُقُوفِ عَلَيْهِ ؟ ؛ وَهَلْ يَثْبُتُ فَرَجٌ عَلَى غَيْرِ أَصْلٍ فِي مَقْتَضَى الْقِيَاسِ ، أَوْ يُرْفَى مِنْ غَيْرِ سُلْمٍ أَوْ يُثْبِتُ عَلَى غَيْرِ أَسَاسٍ ؟ ؛ فَفَعَلَى الْحَدِيثِ تَقْدِيمُ الْعِلْمِ بِالرَّوَايَةِ بَشَرطِهَا ، وَمَعْرِفَةُ أَقْوَالِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالسَّمَاعِ الْمُتَّصِلِ وَتَحْرِيرِهَا وَضَبْطُهَا .

فَقَالَ عِلْمُ التَّفْسِيرِ : قَدْ تَبَيَّنَ لَدَى الْعُلَمَاءِ بِالشَّرِيعَةِ أَنَّ حُكْمَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَاحِدٌ ، وَإِنْ اخْتَلَفَتْ فِي الْأَسْمَاءِ فَلَمْ تَخْتَلِفْ فِي الْمَقَاصِدِ ؛ إِلَّا أَنَّهُمَا وَإِنْ اتَّفَقَا فِي الدَّلَالَةِ وَالْإِرْشَادِ ، فَقَدْ اخْتَصَّ الْكِتَابُ فِي النَّقْلِ بِالتَّوَاتُرِ وَجَاءَ أَكْثَرُ السُّنَّةِ بِالْإِحَادِ .

فَقَالَ عِلْمُ الْقِرَآءَاتِ : إِلَّا أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلْمَقَرَّرِ أَنْ يُقَدِّمَ عَلَى التَّفْسِيرِ مَا لَمْ يَكُنْ بِقِرَاءَةِ السَّبْعِ وَالشَّاذِّ عَالِمًا ، وَبُلْغَاتِهَا عَارِفًا وَلِلنَّظَرِ فِي مَعَانِيهَا مُلَازِمًا ؛ مَعَ مَا يَلْتَحِقُ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمِ قَوَائِنِ الْقِرَآءَةِ الْمُتَعَلِّقِ مِنَ الْمَصَاحِفِ بِمَحْطَّهَا ، وَالْأَشْكَالِ وَالْعَلَامَاتِ الْمُتَكَفِّلَةِ بِتَحْرِيرِهَا وَضَبْطِهَا .

فَقَالَ عِلْمُ النَّوَامِيسِ : (وَهُوَ الْعِلْمُ بِمَتَعَلِّقَاتِ النُّبُوَّةِ) : إِنَّكَ لَفَرَعٌ مِنْ فُرُوعِ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ، وَمَا نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ ؛ وَإِلَى النَّظَرِ فِي أَحْوَالِ النُّبُوَّةِ وَحَقِيقَتِهَا ، وَمَسِيسِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا فِي بَيَانِ الشَّرِيعَةِ وَطَرِيقَتِهَا ؛ وَالْفَرْقِ بَيْنَ النُّبُوَّةِ الْحَقِّهِ ، وَالذَّوَاوِي الْبَاطِلَةِ غَيْرِ الْحَقِّهِ ؛ وَمَعْرِفَةِ الْمُعْجَزَاتِ الْمُخْتَصَّةِ بِالْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، وَالكَرَامَاتِ الصَّادِرَةِ عَنِ الصَّادِقِينَ الْأَبْرَارِ وَالْأَوْلِيَاءِ الْكَرَامِ ؛ فَإِنَّا الْمُقَدِّمُ عَلَى سَائِرِ الْمَعْلُومِ الشَّرْعِيِّ ، وَإِمَامُ الْأَصْلِيَّةِ مِنْهَا وَالْقَرَعِيَّةِ .

فَقَالَ عِلْمُ الْإِلَهِيِّ : لَقَدْ تَحَقَّقَتْ أَنَّ الْأَلْزَمَ الْمُحْتَمَّ ، وَالْوَاجِبَ تَقْدِيمُهُ عَلَى كُلِّ مُقَدَّمٍ ؛ الْعِلْمُ بِمَعْرِفَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَالطَّرِيقُ الْمَوْصِلُ إِلَيْهَا ، وَإِبْثَابُ صِفَاتِهِ الْمُقَدَّسَةِ

وما يجب لها ويستحيل عليها؛ وأنه الواجب الوجود لذاته، وبعث الرسل لإقامة الحجّة على خلقه بحكم آياته؛ وأنا الزعيم بإقامة الأدلة على ذلك من المعقول والمنقول، والمتكفل بتصحيح مقدماته البرهانية بتحرير المقدم والتألي والموضوع والمحدول .

فقال علم أصول الدين : فليبيّن قد فُزْتُ من جمعكما بالشرقيّن ، وجمع لي منكيا الفضل بطريقه فصرتُ بكما معلّم الطرفين ؛ وميّزتُ بين صحيح الاعتقاد وفاسده فكان لي منهما أحسن الاختيارين ، وبيّنتُ طريق الحق لسالكها فكنتُ سبباً للفوز والنجاة في الدارين ؛ فانا المقصود للإنسان بالذات في كمال ذاته ، وكل علم يستمدّ مني في مبادئه ويفتقر إلى في مقدّماته .

فقال علم التصوّف : لو كشف الغطاء ما أزددتُ يقيناً ، إذ كان كلّ أمرئ بما عمل مجازي وبما كتب رهيناً ؛ إنّه يجب على كلّ من كان بمعتقد الحقّ جازماً ، أن يكون عن دار النور متجافياً ولأعمال البرّ ملازماً ؛ فأنما الدنيا مزرعة للآخرة ، إن حصلت النجاة فذلك التجارة الرابحة وإن كانت الأخرى فذلك إذا كره خاسره ؛ فمن أزم طريقتي في الإعراض عن الدنيا والزهد فيها سلم ، ومن أقرّ بزُخرفها الفاني فقد خاب في القيامة وندم .

فلما كثرت الدعاوى والمعارضات ، وتناوبت الحجج والمناقضات ؛ نهض علم السياسة قائماً ، وقصد حتم مادة الحدال وطلمأ ؛ وقال : أنا جُذِلْتُها المحكك وعُدِّيْتُها المرجب ، وسأئسها الكافي وحاكبها المهذب ؛ لقد ذكر كل منكم من فضله ما يشوق السامع ، وأظهر من جليل قدره ما تقطع دونه المطامع ، وأتى من واضح كلامه بما لا يحتاج في إثباته إلى دليل ظني ولا برهان قاطع ، غير أنه لا يليق بالمنصف أن يخطئ قدره المحدود ولا يتعدى جُزءه المقسوم ، ولكل أحد حد يقف عنده

وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ؛ فَلَوْ سَلَكَ كُلُّ مَنكُم سَبِيلَ الْمَعْدَلَةِ ، وَأَنْصَفَ مِنْ نَفْسِهِ فَوَقَفَ عِنْدَ مَا حُدَّ لَهُ ؛ لَكَانَ بِهِ أَلْيَقٌ ، وَلِمَقَامِ الْعِلْمِ أَرْفَقُ .

فَقَالَ عِلْمٌ تَدِيرُ الْمَنْزِلَ : لَقَدْ تَحَرَّيْتُ الصَّوَابَ ، وَنَطَقْتُ بِالْحِكْمَةِ وَفَضَّلِ الْخِطَابَ ؛ لِكَيْتَهُ لَا يُدَّ لَكُمْ مِنْ حَبْرٍ عَالِمٌ ، وَإِمَامٍ حَاكِمٍ ؛ يَكُونُ لَشَمْلِكُمْ جَامِعًا ، وَلِمَوَاقِعِ الشُّكِّ فِي حَمْلِ التَّفَاضُلِ بَيْنَكُمْ رَافِعًا ؛ مُحِيطٌ مِنْ كُلِّ عِلْمٍ بِمَقْصُودِهِ وَمُرَادِهِ ، عَارِفٌ بِمَا تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مَبَادِيهِ مِنْ حَدِّهِ وَمَوْضُوعِهِ وَفَائِدَتِهِ وَأَسْتِمْدَادِهِ ؛ لِيَأْنِغَ بِهِ مِنَ الْفَضْلِ مُنْتَهَاهُ ، وَيَقِفَ بِهِ مِنَ الشَّرَفِ عِنْدَ حَدِّ لَا يَتَعَدَاهُ ؛ فَلَا يَدَّعِي مُدَّعٍ بَعِيرٍ مُسْتَحَقٍّ ، وَلَا يَطَالِبُ طَالِبٌ مَا لَيْسَ لَهُ بِحَقٍّ ؛ إِلَّا أَنَّ الْحَيْطَ بِكُلِّكُمْ عُلَمَاءَ ، وَالْقَائِمَ بِجَمِيعِكُمْ قَهْمًا ؛ أَعَزُّ مِنَ الْجَوْهَرِ الْفَرْدِ وَالْكِبَرِيَّاتِ الْأَحْمَرِ ، وَأَقْلُّ وَجُودًا مِنْ بَيْضِ الْأَثَوَقِ بَلْ يَبْضُ الْأَثَوَقُ فِي الْوُجُودَانِ أَكْثَرَ .

فَقَالَ عِلْمُ الْفِرَاسَةِ : عَلَى الْخَيْرِ سَقَطَتْ ، وَبَابُنِ يَجِدَتِهَا حَطَطَتْ ؛ أَنَا بِذَلِكَ زَعِيمٌ ، وَبِمُظْهِتِهِ عَلِيمٌ ؛ فَلِلْعِلْمِ عَرَفٌ نِيمٌ عَلَى صَاحِبِهِ ، وَتَلُوحُ عَلَيْهِ بَوَارِقُهُ وَإِنْ أَكْنَتْهُ بَيْنَ جَوَانِيهِ ؛ فَحَامِلُ الْمِسْكِ لَا تَخْفَى رِيحُهُ عَلَى غَيْرِ ذِي زُكَّامٍ ، وَالنَّهَارُ لَا يَخْفَى ضَوْؤُهُ عَلَى ذِي بَصِيرٍ وَإِنْ تَسَرَّتْ شَمْسُهُ بِأَذْيَالِ النَّهَامِ ؛ وَلَقَدْ تَصَفَّحْتُ وَجُوهَ الْعُلَمَاءِ الْكَمَلَةِ ، الَّذِينَ طَوَّابَهُمْ عَلَى أَجْمَلِ الْعُلُومِ مُنْطَوِيَةٌ وَعَلَى تَفَاصِيلِهَا مُشْتَمَلَةٌ ؛ وَسَبَرْتُ وَقَسَمْتُ ، وَفَرَسْتُ وَتَوَسَّمْتُ ؛ فَلَمْ أَجِدْ مِنْ يَلِيقُ لِهَذَا الْمَقَامِ ، وَيَصْلُحُ لِقَطْعِ الْحِدَالِ وَالْحِصَامِ ؛ وَيَعْرِفُ بُلْسَةَ كُلِّ عِلْمٍ فَيُجِيبُ بِلِسَانِهِ ، وَيَحْكُمُ فَلَا يَنْقُضُ حُكْمَهُ غَيْرُهُ لِأَنْحِطَاطِهِ عَنْ بُلُوغِ مَكَانِهِ ؛ إِلَّا الْبَحْرُ الزَّائِحُ ، وَ^(١) الَّذِي لَا يَعْلَمُ لِفَضْلِهِ أَوَّلٌ وَلَا يُدْرِكُ لِمَدَاهُ آخِرٌ ؛ حَبْرُ الْأَمْنَةِ ، وَعَلَامَةُ الْإِيْمَةِ ؛ وَنَاصِرُ السَّنَةِ وَحَامِيهَا ، وَقَائِمُ الْبِدْعَةِ وَقَامِيهَا ؛ تَجَلَّى

(١) بياض بالأصل ولعله : الفاضل أو نحوه .

(٢) أصله وقامتها بالهمز تخففه من قاء كمنه قمنه .

شيخ الإسلام ، وخلاصة غرر الأيام ، جلال الدين ، بقية المجتهدين ، أبو الفضل عبد الرحمن البلقيني الشافعي ، الناظر في الحكم العزيز بالديار المصرية ، وسائر المسالك الإسلامية وما أضيف إلى ذلك من الوظائف الدينية ؛ لزالته فواضل الفضائل معروفة : فهو العالم الذي إذا قال لا يعارض ، والحاكم الذي إذا حكم لا يناقض ؛ والإمام الذي لا يتحall اجتياده خلل ، والمناظر الذي ما حاول قطع خضم إلا كان لسانه أمضى من السيف إذا يقال : « سبق السيف العدل » :

إذا قال بد القائلين ولم يدع * لمحتس في القول جدا ولا هزلا !

إن تكلم في الفقه فكأنما يلسان « الشافعي » تكلم ، و « الربيع » عنه يروى و « المزني » منه يتعلم ؛ وأخاض في أصول الفقه . قال « الغزالي » : هذا هو الإمام باتفاق ، وقطع السيف « الأيمى » بأنه المقدم في هذا الفن على الإطلاق ؛ وأجرى في التفسير . قال « الواحدي » : هذا هو العالم الأوحد ، وأعطاه « ابن عطيّة » صفة يده بأن مثله في التفسير لا يوجد ؛ وأعترف له « صاحب الكشاف » بالكشف عن الغوامض ، وقال الإمام « نحر الدين » : « هذه مفاتيح الغيب وأسرار التنزيل » فارتفع الخلاف وأندفع المعارض ؛ وأخذ في القراءات والرسم أزرى بأبي « عمرو الداني » ، وعدا شأو « الشاطبي » في « الرائية » وتقدمه في « حريز الأمانى » ؛ أو تحدث في الحديث شهيد له « السفينان » بعلو الرتبة في الرواية ، وأعترف له « ابن معين » بالتبيز والتقدم في الدراية ؛ وهن « الخطيب البغدادي » يذكره على المتأخر ، وقال « ابن الصلاح » : لثل هذه الفوائد تتعين الرحلة وفي تحصيلها تنفذ المهاجر ؛ أو أبدى في أصول الدين نظرا تعلق منه « أبو الحسن الأشعري » بأوفى زمام ، وسد باب الكلام على المعتزلة حتى يقول « عمرو بن عبيد » و « واصل بن

عطاء : لَيْتَنَّا لَمْ تَفْتَحْ بَابًا فِي الْكَلَامِ ؛ أَوْ دَقَّقَ النَّظَرَ فِي الْمَنْطِقِ بِهَر « الْأَبْهَرِي »
 فِي مَنَاطِرِهِ ، وَكُتِبَ « الْكَاتِي » عَلَى نَفْسِهِ وَبَيْقَةً بِالْعَجَزِ عَنْ مُقَاوَمَتِهِ ؛ أَوْ أَلَمَ بِالْجَلَدِ
 رَمَى « الْأَرْمُؤِي » نَفْسَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَجَعَلَ « الْعَمِيدِي » عُمْدَتَهُ فِي آدَابِ الْبَحْثِ
 عَلَيْهِ ؛ أَوْ بَسَطَ فِي اللُّغَةِ لِسَانَهُ أَعْتَرَفَ لَهُ أَبُو « سَيْدَهُ » بِالسِّيَادَةِ ، وَأَقْرَبَ بِالْعَجَزِ لَدَيْهِ
 « الْجَوْهَرِي » وَجَلَسَ « أَبُو فَارِس » بَيْنَ يَدَيْهِ مَجْلِسَ الْأَسْتِفَادَةِ ؛ أَوْ نَحَا إِلَى النَّحْوِ
 وَالتَّصْرِيفِ أَرْبَى فِيهِ عَلَى « سَبْيُونِي » ، وَصَرَفَ « الْكِسَائِي » لَهُ عَزَمَهُ فَسَارَ مِنْ
 الْبُعْدِ إِلَيْهِ ؛ أَوْ وَضَعَ أُنْمُودَجًا فِي عُلُومِ الْبَلَاغَةِ وَقَفَ عِنْدَهُ « الْجُرْجَانِي » ، وَلَمْ يَتَعَدَّ
 حَدَّهُ « أَبُو أَبِي الْإِصْبَعِ » وَلَمْ يَجَاوِزْ وَضْعَهُ « الرَّمَّانِي » ؛ أَوْ رَوَى أَشْعَارَ الْعَرَبِ أَرَزَى
 « الْأَصْمَعِي » فِي حِفْظِهِ ، وَفَاقَ « أَبَا عُبَيْدَةَ » فِي كَثْرَةِ رِوَايَتِهِ وَغَزِيرِ لَفْظِهِ ؛ أَوْ تَمَرَّضَ
 لِلْعُرُوشِ وَالْقَوَائِفِ اسْتَحَقَّهُمَا عَلَى « الْخَلِيل » ، وَقَالَ « الْأَخْفَش » عَنْهُ : أَخَذْتُ
 الْمُسْدَارَكَ وَأَعْتَرَفَ « الْجَوْهَرِي » بِأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ فِي هَذَا الْقَنْ مِثِيلٌ ؛ أَوْ أَصْلَ
 فِي الطَّلَبِ أَصْلًا قَالَ « أَبُو سَيْنَا » : هَذَا هُوَ الْقَانُونُ الْمُعْتَبَرُ فِي الْأُصُولِ ، وَأَقْسَمَ
 « الرَّازِي » بِبُحْيِ الْمَوْتَى إِنْ « يَقْرَاط » لَوْ سَمِعَهُ لِمَا صَنَّفَ « الْفُصُول » ؛ أَوْ جَنَحَ
 إِلَى غَيْرِهِ مِنَ الْعُلُومِ الطَّبِيعِيَّةِ فَكَأَنَّمَا طَبِعَ عَلَيْهِ ، أَوْ جَذَبَ لَهُ ذَلِكَ الْعِلْمُ بِزِمَامٍ
 فَأَتَقَادَ إِلَيْهِ ؛ أَوْ سَلَكَ فِي عُلُومِ الْهَنْدَسَةِ طَرِيقًا لِقَالَ « أَوْقَلِيدِس » : هَذَا هُوَ الْخَطُّ
 الْمُسْتَقِيمُ ، وَأَعْرَضَ « أَبُو الْهَيْثَم » عَنْ حَلِّ الشُّكُوكِ وَوَلَّى وَهُوَ كَظِيمٌ ، وَحَدَّ
 « الْمُؤْتَمِنُ بْنُ هُوَيْدٍ » عَدَمَ إِكْمَالِ كِتَابِهِ « الْأَسْتِكَال » وَقَالَ : عَرَفْتُ قَدْرَ تَقْصِي : وَفَوْقَ
 كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ؛ أَوْ عَرَّجَ عَلَى عُلُومِ الْهَيْئَةِ لِأَعْتَرَفَ « أَبُو الرِّيحَانِ الْبَيْروني » أَنَّهُ الْأَعْجُوبَةُ
 النَّادِرَةُ ، وَقَالَ أَبُو الْفَتْحِ : هَذَا الْعَالَمُ قُطْبُ هَذِهِ الدَّائِرَةِ ، أَوْ صَرَفَ إِلَى عِلْمِ الْحِسَابِ نَظَرَهُ
 لِقَالَ « السَّمُوعِلُ بْنُ يَحْيَى » لَقَدْ أَحْيَا هَذَا الْقَنْ الدَّارِسَ ، وَنَادَى ' أَبُو بَحْلٍ الْمَوْصِلِي ' :
 قَدْ أَنْجَلْتُ عَنْ هَذَا الْعِلْمِ غِيَابَهُ حَتَّى لَمْ يَبْقَ فِيهِ عَمَّهُ لِمَا بِهِ وَلَا عُمَّةٌ عَلَى مُمَارِسِ .

وَقَدْ وَجَدَتْ مَكَانَ الْقَوْلِ ذَا سَعَةٍ * فَإِنَّ وَجَدَتْ لِسَانًا قَائِلًا فَقِيلَ !
 وَكَيْفَ لِأَتَانِي إِلَيْهِ الْعُلُومُ مُقَالِيدَهَا ، وَتَصِلُ بِهِ الْقَضَائِلُ أَسَانِيدَهَا ؛ وَهُوَ ابْنُ شَيْخِ
 الْإِسْلَامِ وَإِنَامِهِ ، وَوَاحِدُ الدَّهْرِ وَعَلَامِهِ ؛ وَجَامِعُ الْعُلُومِ الْمُتَفَرَّدِ ، وَمَنْ حَقَّقَ وَجُودَهُ
 فِي أَوَّلِ الْأَعْصَارِ أَنَّ الزَّمَانَ لَا يَخْلُو مِنْ مُجْتَهِدٍ ؛ وَمَنْ لَمْ يَزَلْ مَوْضِعُ الْأَوْضَاعِ الْمَعْتَبَرَةِ
 عَلَيْهِ تَحْمُولًا ، وَمَنْ كَانَ عَلَى رَأْسِ الْمِائَةِ الثَّامِنَةِ مُضَاهِيًا لِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ عَلَى رَأْسِ
 الْمِائَةِ الْأُولَى ؛ فَالْحَنَاصِرُ عَلَيْهِ وَعَلَى وَلَدِهِ تُعْقَدُ ، وَلَا غَرَّ وَإِنْ قَامَ مُنْشِدُهُمَا فَأَنْشُدَ :
 إِنْ الْمِائَةُ الْأُولَى عَلَى رَأْسِهَا أَتَى * لَهَا عَمْرُ الثَّانِي لَذَا الدِّينِ صَاشِنَةً ،
 وَوَالِي رِجَالٍ بَعْدَ ذَلِكَ كَمِثْلِهِ * فَهَا عُمَرُ وَاقٍ عَلَى رَأْسِ ثَامِنَةٍ
 بِظَاهِرِهِ تَجَلَّ سَعِيدٌ غَدَتْ بِهِ * مَعَاقِلُ عِلْمٍ فِي دُرَا الْحَقِّ آمِنَةٍ .
 إِذَا شَيْخُ إِسْلَامٍ أَضَاءَ سِرَاجَهُ * رَأَيْتَ جَلَالًا مِنْ سَنَا الْقَضَلِ قَارَنَهُ !
 فَلَا يَعْلَمُ الْإِسْلَامُ جَمْعَ عَلَائِمِهَا * وَلَنْ يَبْرَحَا لِلدِّينِ دَابَا مِيَامِنَهُ !

فَقَالَ عِلْمُ الْأَخْلَاقِ : أَصَبَتْ سَوَاءَ الثُّغْرَةِ وَجِئْتَ بِالرَّأْيِ الْأَكْمَلِ ، وَعَرَفْتَ مِنْ
 أَيْنَ تُؤْكَلُ الْكَتِيفُ فَطَبَّقْتَ الْمِفْصَلَ بِالْمِفْصَلِ ؛ إِلَّا أَنَّ مِنْ مَحَاسِنِ الْأَخْلَاقِ ، وَمَعَالِمِ
 الْإِرْفَاقِ ؛ أَنْ تَعُودُوا بِفَضْلِكُمْ ، وَتَرْجِعُوا بِمَعْرِفَتِكُمْ وَرِّثَتِكُمْ ؛ إِلَى مَنْ جَرَى بِكُمْ فِي التَّغَاوُرِ
 جَرَى الْإِنْصَافِ ، وَبَسَّطَ لِسَانَ كُلِّهِ بِمَا أَشْتَمَلَ عَلَيْهِ كُلُّ مِنْكُمْ مِنْ جَمِيلِ الْأَوْصَافِ ؛
 ثُمَّ كَانَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ وَصَلَ بِالِاتِّفَاقِ وَالِاتِّثَامِ حَبْلَكُمْ ، وَجَمَعَ بِالْحُلِّ الْكَرِيمِ بَعْدَ التَّبَاعَدِ
 شَبْلَكُمْ ؛ وَذَكَرَكُمْ بِجُسْنِ الْمُصَافَاةِ أَصْلَ الْوَدَادِ الْقَدِيمِ ، وَتَلَا بِلِسَانِ الْأَلْفَةِ فِيكُمْ :
 ﴿ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ . بَانَ يَتَصَبَّ كُلُّ مِنْكُمْ لَهُ شَفِيعًا
 إِلَى هَذَا السَّيِّدِ الْجَلِيلِ ، وَيَكُونُ لَهُ وَسِيلَةٌ إِلَى هَذَا الْإِمَامِ الْحَفِيفِ ؛ أَنْ يَصْرِفَ إِلَيْهِ
 وَجْهَ الْعِنَايَةِ ، وَيَنْظُرَ إِلَيْهِ بِعَيْنِ الْإِقْبَالِ وَالرَّيَاةِ ؛ لِيَعْرِفَ النَّاسُ جَانِبَهُ ، وَيَطْلُعَ

في أفق السعد بعد الأقول غاربه ؛ ويبلغ من منتهى أماله ماله جهده ، ويسعد بالنظر السعيد جده فقد قيل : « من وقع عليه نظر السعيد سعد » .

على أنه - أمتع الله الإسلام ببقائه وبقاء والده ، وجمع بينهما في دار الكرامة كما جمع لها بين طاريف المحيد وبآله - قد فتح له من الترقى أول باب ، ولا شك أن نظرة منه إليه بعد ذلك ترقيه إلى السحاب .

فأزرق الفجر يبدو قبل أبيضه * وأول الغيث قطر ثم يسكب !

فقال علم التاريخ : أهبطوا مضراً فإن لكم ما سألتهم ، وقرؤا عينا فإلى القصد الجليل وصلتم ، وعلى غاية الأمل - والله الحمد - حصلتم ؛ فقد بلوت الأوائل والأواخر ، وخبرت حال المتقدم والمعاصر ؛ فلم أرفم من مضى وغبر ، وشاع ذكره واشتهر ؛ من ذوى المراتب العلية ، والمناصب السنية ؛ من يساوى هذا السيد الجليل فضلا ، أو يداينه في المعروف قولاً وفعلًا ؛ قد ليس شرفاً لا تطمع الأيام في خلعه ، ولا يتطلع الزمان إلى تزعه ؛ وأتته إلى المجد فوقف ، وعرف الكرم مكانه فأنحاز إليه وعطف ؛ وحلت الرأسة بفنايه فاستغنت به عن السوى ، وأناخت السيادة بأفنايه فالقت عصاها واستقر بها النوى ؛ فقصرت عنه خطا من يجاريه ، وضاق عنه باع من يتاويه ؛ واجتمعت الألسن على تقريره فمدح بكل لسان ، وتوافقت القلوب على حبه فكان له بكل قلب مكان :

ولم يحل من إحسانه لفظ محير ، * ولم يحل من تقريره بطن دقير !

فهو الحري بأن يكتب بأقلام الذهب جميل مناقبه ، وأن يرقم على صفحات الأيام حيد مطالبه ؛ فلا يذهب على تمر الزمان ذكرها ، ولا يزول على توالي الدهور نحرها .

ولما تمّ للعلوم هذا الاجتماع الذى قَارَنَ السَّعْدُ جَلَالَهُ ، وَتَفَجَّرَتْ يَنَابِيعُ الْفَضْلِ .
خِلَالَهُ ؛ أَقْبَلُوا بِوُجُوهِهِمْ عَلَى الشَّعْرِ مُعَانِيَيْنَ ، وَمِمَّا يَلْزِمُهُ مِنْ تَقْرِيرِضِ هَذَا الْحَبْرِ
وَمَدْحِهِ مُطَالِبِينَ ، وَقَالُوا : قَدْ أَتَى النَّثْرُ مِنْ مَدْحِهِ بِقَدْرِ طَاقَتِهِ ، وَإِنْ لَمْ يُوفِ بِجَلِيلِ
قَدْرِهِ وَرَفِيعِ مَكَاتِهِ ؛ فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ تَحْتِمَ هَذِهِ الرِّسَالَةُ بِأَبْيَاتٍ بِالْمَقَامِ لَاتِقَهُ ، وَلِمَا نَحْنُ
فِيهِ مِنَ الْقَضِيَّةِ الْوَاقِعَةِ مُطَابِقَهُ ؛ قَائِمَةً مِنْ مَدْحِهِ بِالْوَاجِبِ ، سَالِكَةً مِنْ ذَلِكَ أَحْسَنَ
الْمَسَالِكِ وَأَجْمَلَ الْمَذَاهِبِ ؛ لَتَكْمَلَ هَذِهِ الرِّسَالَةُ نَظْمًا وَنَثْرًا ، وَتَقَنَّ فِي صِنَاعَةِ الْأَدَبِ
خُطَابَةً وَشُعْرًا ؛ فَقَالَ : سَمِعَا وَطَاعَا ، وَأَسْتِكَانَةً وَضَمْرَاعَا ؛ ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ قَامَ بِحِيلَا ،
وَأَنشَدَ مَرْحَلَا :

بُشْرَا تُمْ مَعَاشِرَ الْعُلُومِ أَنْ * جُمِعَتْ بَصْدَرِ حَبِيرٍ كَامِلِ !
فُسُونُهُ لَمْ تَحْتَمِجْ لِعَالِمِ * وَفَضْلُهُ لَمْ يَكْتَمِلْ لِفَاضِلِ !
يَشْنِي الصُّلُودُ إِنْ غَدَا مُنَاطِرًا ، * وَبَحْثُهُ فَرِيضَةُ الْحَافِلِ !
كَمْ عَمَرْتُ دُرُوسُهُ مِنْ دَارِيسَ ، * وَزَيْتُ بَحْلِيهَا مِنْ حَاطِلِ !
وَأَوْحَشْتُ أَقْوَالَهُ مِنْ مُشْكِلِ * لَمَّا أَتَى بِأَوْضَحِ الدَّلَائِلِ !
وَكَمْ غَدَتِ آرَائُهُ حَمِيدَةً ، * وَنَبَتْ بِجِدْعَا مِنْ خَامِلِ .
وَحُكْمُهُ فَحَكْمُ أَقَالِ عَفْرَةٍ * وَجُودُهُ قَفُوقُ قَصْدِ الْإِمِلِ !
هَذَا : وَقَدْ فَاقَ الْوَرَى رَاسَةً * مَحْفُوفَةً بِالطِّفِّ الشَّمَائِلِ !
مَنْ ذَا يَرُومُ أَنْ يَنَالَ شَأُوهُ ؟ * أَتَى لَهُ بِأَمْنِيلِ الْأَمَائِلِ ؟
مَوْلَى عَلَا فَوْقَ السَّمَاءِ رُبِّيَّةً * قَدْ زُيِّنَتْ بِأَفْضَلِ الْفَوَائِلِ !
فَالَهُ فِي فَضْلِهِ مِنْ مُشْبِيهِ ، * وَمَا لِبَحْرِ جُودِهِ مِنْ سَاحِلِ !
حَاشَى لِرَاجٍ فَضْلُهُ أَنْ يَنْتَقِي * صِفَرِ الْيَدَيْنِ أَوْ مُنَى الْأَجَلِ !

قلت : ولم أر من تعرّض للمُفَاخَرَةِ بين العُلُوم سوى القاضى الرّشيد أبى الحسين أبى الزبير فى مقالته المقدم ذكرها على أنّها لم تكن جارية على هذا النمط ، ولا مرتبة على هذا الترتيب ، مع الاقتصار فيها على علوم قليلة ، أشار إلى المُفَاضَلَةِ بينها على ما تقدم ذكره . ولكن الله تعالى قد هدّى بفضلِهِ إلى وجه الترجيح التى يرجح بها كل علم على خصمه ، ويفلج به على غيره ، والمنصف يعرف لذلك حقه . والذى أعاننى على ذلك جلاله قدر من صنفت له وعلوّ رتبته ، واتساع فضله ، وكثرة علومه ، وتعداد فنونه ، إذ صفات الممدوح تهدى المادح وتُرشدّه .



ومنها المفاخرة بين السيف والقلم ، وقد أكثر الناس منها : فمن عال وهابط ، وصاعد وساقط .

وهذه رسالة فى المفاخرة بين السيف والقلم ، أنشأها للقرّ الزينى أبى يزيد الدوادار الظاهرى ، فى شهر سنة أربع وتسعين وسبعمائة ، وسمّيتها : "حلية الفضل وزينة الكرم ، فى المُفَاخَرَةِ بين السيف والقلم" وهى :

الحمد لله الذى أعزّ السيف وشرف القلم ، وأفردهما برتب الغلّاء فقرن لهما بين المحد والكرم ، وساوى بينهما فى القسمة فهذا الحكم وهذا الحكم .

أحمد على أن جمع بحر أمير بعد التفرق شملهما ، ووصل بأعزّ ملك بعد التقاطع حبّلهما ؛ وأرغب إليه بشكر يكاثّر التجوم فى عديدها ، ويكون للنعمة على ممر الزمان أباً يزيدها ؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة ياتم الإخلاص بمذهبها ، ولا يتجو من سيفها إلا من أجاب داعيتها وأقرّبها ؛ وأن عهداً عبده ورسوله

الذى حُصَّ بأشرف المناقب وأفضَل المآثر، وأسائر بالسُودِ في الدارينِ فحاز أنْخَرُ المعالي ونال أعلى المقاماتِ، صَلَّى اللهُ عليه وعلى آله وصحبه الذين قامتْ بِنُصْرَتِهِمْ دولةُ الإسلامِ فَسَمَتْ بهم على سائر الدول، وَكَرَعَتْ في دِمَاءِ الكُفْرِ سُوقُفُهُمْ فَعَادَتْ بِخَلْقِ النُصْرِ لَا بُحْرَةَ الْخَجَلِ، صَلَاةٌ يَنْقُضِي دُونَ آتِصَانِهَا تَمَاقُبُ الْأَيَّامِ، وَتَكُلُّ أَلْسِنَةُ الْأَقْلَامِ عَنْ وَصْفِهَا وَلَوْ أَنَّ مَآئِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ .

وبعدُ، فإنه ما تقارب اثْنانِ في الرتبةِ إِلَّا تَحَاسَدَا، وَلَا أَجْتَمَعَا في مَقَامٍ رَفِيعَةٍ إِلَّا أَزْدَحَمَا على المجدِ وَتَوَارَدَا، وَرَأَى كُلُّ مِنْهُمَا أَنْ يَكُونَ هُوَ الْفَائِزُ بِالْفَيْزِ الْمَعْلِيِّ، وَأَنْ يَكُونَ مَفْرِقُهُ هُوَ الْمَتَوَجِّعُ وَجِيدُهُ هُوَ الْمُحْلِي، وَأَدْعَى كُلُّ مِنْهُمَا أَنْ جَوَادُهُ هُوَ السَّابِقُ فِي حَالِيَةِ السَّابِقِ، وَالْفَائِزُ يَقْصِبُ السَّبْقَ بِالِاتِّفَاقِ؛ وَأَنْ تَجْهَ هُوَ الطَّالِعُ الَّذِي لَا يَأْتِي، وَسُودُّهُ هُوَ الْحَاكِمُ الَّذِي لَا يُزَلُّ؛ وَأَنْ الْمُسْكُ دُونَ عِيَرِهِ، وَالْبَحْرُ لَا يَجِيءُ نَقْطَةً فِي غَدِيرِهِ؛ وَالذَّلُّ لَا يَصْلُحُ لَهُ صَدَقَا، وَيَقْبِسُ الْجَوْهَرَ لَا يُعَادِلُهُ شَرْفَا؛ وَأَنْ مَنَارُ الْمَعَالِي مَوْقُوفَةٌ عَلَى قَدَمِهِ، وَتَحَامِرُ الْمَقَائِرُ فَاحِشَةً بِنُشْرِ كَرَمِهِ .

ولما كان السَّيْفُ وَالْقَلَمُ قَدْ تَدَانِيَا فِي التَّجْدِ وَتَقَارَبَا، وَآخِذَا بِطَرَقِ الشَّرَفِ وَتَجَازَبَا، إِذْ كَانَا قَطْبَيْنِ تَدَوَّرُ عَلَيْهِمَا دَوَائِرُ الْكَمَالِ، وَسَعْدَيْنِ يَجْتَمِعَانِ فِي دَائِرَةِ الْاِعْتِدَالِ؛ وَتَجَمُّعَيْنِ يَهْدِيَانِ إِلَى الْمَعَالِي، وَمِصْبَاحَيْنِ يُسْتَضَاءُ بِهِمَا فِي حَنَادِيسِ الْإِلَهِيَّةِ؛ وَقَاعِدَتَيْنِ تُبْنِي الدُّوْلَ عَلَى أَرْكَانِهِمَا، وَتَجَرَّتَيْنِ يُخْتَنَى الْعِزُّ مِنْ أَغْصَانِهِمَا؛ جَرَّ كُلُّ مِنْهُمَا ثَوْبَ الْخِلْيَالِ نَقْرًا فَشَى وَتَجَعَّرَ، وَأَسْبَلَ رِداءَ الْعُجْبِ تِيهَا فَمَا تَحَبَّلَ وَلَا تَمْتَرُ؛ وَأَتَمَعَ لَهُ الْخَجَلُ فِي الدَّعْوَى الْخَالِ، وَطَاوَعَتْهُ يَدُ الْمَقَالِ قَطَالَ وَطَالَ؛ وَتَطَرَّقَتْ إِلَيْهِمَا عَقَارُبُ الشَّحْنَاءِ وَدَبَّتْ، وَتَوَقَّدَتْ بَيْنَهُمَا نَارُ الْمُنَافَسَةِ وَشَبَّتْ؛ وَأَظْهَرَ كُلُّ مِنْهُمَا مَا كَانَ يُخْفِيهِ فَكُتِبَ وَأُمِلَّ، وَبَاحَ بِمَا يُكِنُّهُ صَدْرُهُ وَالْمُؤْمِنُ لَا يَكُونُ حُبْلَى؛ وَبَدَأَ الْقَلَمُ فَتَكَلَّمَ، وَمَضَى فِي الْكَلَامِ بِصُنْقِ عَزَمِهِ فَمَا تَوَقَّفَ وَلَا تَلَمَّحَ؛ قَالَ :

باسم الله تعالى أَسْتَفْتِيحُ ، وَبِحَمْدِهِ أَتَمَجِّدُ ، إِذْ مِنْ شَأْنِي الْكِتَابُ ، وَمِنْ
فَقِي الْخَطَايَا ، وَكُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِاسْمِ اللَّهِ تَعَالَى فَهُوَ أَجْزَمُ ، وَكُلُّ كَلَامٍ
لَا يَفْتَحُ بِحَمْدِهِ فَاسَاسُهُ غَيْرُ مُحْكَمٍ وَرِدَاؤُهُ غَيْرُ مُعْلَمٍ ، وَالْعَاقِلُ مِنْ أَتَى الْأَمْرِ مِنْ قَضَاهُ ،
وَأَخَذَ الْحَدِيثَ بِنَصِّهِ ، وَالْحَقُّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ ، وَالْبَاطِلُ أَجْدَرُ أَنْ يَتْرَكَ فَلَا يُصْنَعُ إِلَيْهِ
وَلَا يَسْتَمَعُ ، إِنِّي لِأَوَّلُ مَخْلُوقٍ بِالنَّصِّ الثَّابِتِ وَالْحُجَّةِ الْقَاطِعَةِ ، وَالْمُسْتَحَقُّ لِفَضْلِ
السَّبْقِ مِنْ غَيْرِ مُنَازَعَةٍ ، أَقْسَمُ اللَّهُ تَعَالَى بِي فِي كِتَابِهِ ، وَشَرَفَنِي بِالذِّكْرِ فِي كَلَامِهِ لِرَسُولِهِ
وَخَطَابِهِ ، فَقَالَ جَلَّ مِنْ قَائِلٍ : ﴿ نَبِّ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ
تَحْمُنُونَ ﴾ . وَقَالَ جَلَّتْ قُدْرَتُهُ : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ
مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ . فَكَانَ لِي مِنَ الْفَضْلِ وَأَفْرُقِ الْقِسْمَةِ ، وَخُصِّصْتُ بِكُلِّ الْمَعْرِفَةِ بِجُمُعَةِ
شَوَارِدِ الْعُلُومِ وَكُنْتُ قِيمَ الْحِكْمَةِ .

فَقَالَ السَّيْفُ : بِسْمِ اللَّهِ وَاللَّهُ أَكْبَرُ : ﴿ نَصَرْنَا مِنَ اللَّهِ وَفَتْحَ قَرِيبٌ ﴾ . لِكُلِّ بَإِغٍ
مَضْرَعٍ ، وَلِلصَّائِلِ بِالْعُدْوَانِ مَهْلِكٌ لَا يَنْجُو مِنْهُ وَلَا يَنْجِعُ ، وَفَاتَحَ بَابَ الشَّرِّ فَيَلْقَى بِهِ ،
وَقَادِحَ زَنْدِ الْحَرْبِ يُحَوِّقُ بِلَهِيهِ ، أَقُولُ بِمَوْجِبِ اسْتِدْلَالِكَ ، وَأُوجِبُ الْإِعْتِرَاضَ
عَلَيْكَ فِي مَقَالِكَ :

نَعَمْ أَقْسَمَ اللَّهُ تَعَالَى بِالْقَلَمِ وَلَسْتُ بِذَلِكَ ، وَكَانَ أَوَّلُ مَخْلُوقٍ وَلَسْتَ الْمَعْنَى بِمَا
هُنَاكَ ، إِنَّ ذَلِكَ لَمَعْنَى يَكُلُّ فَهْمُكَ عَنْ إِدْرَاكِهِ ، وَيَضِلُّ تَهْمُكَ أَنْ يَسِيرَ فِي أَفْلَاكِهِ ،
وَأَنْتَ وَإِنْ ذُكِرْتَ فِي التَّنْزِيلِ ، وَتَمَسَّكَتَ مِنَ الْإِثْنَانِ بِكَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾
بُشْبُهَةَ الْقَضِيلِ ، فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى تَعْلَمَ خَطِّكَ عَلَى رَسُولِهِ ، وَحَرَّمَكَ مِنْ مَسِّ
أَنَامِلِهِ الشَّرِيفَةِ مَا يُؤْسَى عَلَى قُوَّتِهِ وَيُسَرُّ بِحُصُولِهِ ، لِكَيْتَى قَدْ نَلْتُ مِنْ هَذِهِ الرِّبَةِ
أُسْنَى الْمَقَاصِدِ ، فَتَهَنَّدْتُ مَعَهُ مِنَ الْوَقَائِعِ مَا لَمْ تَشَاهِدْ ، وَحَلَّانِي مِنْ كَفِّهِ شَرْفًا لَا يَزُولُ

حَلِيَّهٖ أَبَدًا ، وَلَقَدْ بَصَّرَهُ فِي كُلِّ مَعْتَرِكٍ : وَسَلَّ حُنَيْنًا وَسَلَّ بَدْرًا وَسَلَّ أُحُدًا !!! ؛
 ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ جِنْسِي الَّذِي أَنَا نَوْعُهُ الْأَكْبَرُ ، وَنَبَّهَ عَلَيَّ مَا فِيهِ مِنَ
 الْمَنَافِعِ الَّتِي هِيَ مِنْ نَفْعِكَ أَعْمُ وَأَشْهَرُ ؛ وَمَا اجْتَمَعَ فِيهِ مِنْ عَظِيمِي الشَّدَّةِ وَالْبَاسِ ،
 فَقَالَ تَقَدَّسَتْ عَظَمَتُهُ : ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ . عَلَى أَنَّكَ
 لَوْ أَعْتَبَرْتَ جِنْسِي الْقَصَبِ وَالْحَدِيدِ ، وَعَرَفْتَ الْكَلِيلَ مِنْهُمَا وَالْجَلِيدَ ؛ لَبَحَقَقْتَ
 تَسْلُطَ الْحَدِيدِ عَلَيْكَ قَطْعًا وَبَرًّا ، وَتَحَكَّمَ فَيْكَ أَمْرًا وَنَبَاً .

فَقَالَ الْقَلَمُ : فَرَرْتَ مِنَ الشَّرِيعَةِ وَعَدَلَهَا ، وَعَوَّلْتَ عَلَى الطَّبِيعَةِ وَجَهَلَهَا ؛ فَاغْتَرَبْتَ
 بِحَيْفِكَ وَعُدْوَانِكَ ، وَأَعْتَمَدْتَ فِي الْفَضْلِ عَلَى تَعَدُّكَ وَطُغْيَانِكَ ؛ فَلَتَ إِلَى الظُّلْمِ
 الَّذِي هُوَ إِلَيْكَ أَقْرَبُ ، وَغَلَبَ عَلَيْكَ طَبْعُكَ فِي الْخَوَرِ : وَ « الطَّيْعُ أَغْلَبُ » ؛ فَلَا فِتْنَةَ
 إِلَّا وَأَنْتَ أَسَاسُهَا ، وَلَا قَارَةَ إِلَّا وَأَنْتَ رَأْسُهَا ، وَلَا شَرًّا إِلَّا وَأَنْتَ فَاتِحُ بَابِهِ ، وَلَا حَرْبَ
 إِلَّا وَأَنْتَ وَاصِلُ أَسْبَابِهِ ؛ تُؤَكِّدُ مَوَاقِعَ الْخِفَاءِ ، وَتُكَدِّرُ أَوَاقَاتَ الصَّفَاءِ ؛ وَتُؤَثِّرُ
 الْقَسَاوَةَ ، وَتُؤَثِّرُ الْعَدَاوَةَ ؛ أَمَّا أَنَا فَالْحَقُّ مَتَّبِعِي ، وَالصَّدْقُ مَرْتَبِي ، وَالْعَدْلُ شِمَتِي ،
 وَحِلْيَةُ الْفَضْلِ زِينَتِي ؛ إِنْ حَكَمْتُ أَقْسَطُ ، وَإِنْ اسْتَحْفِظْتُ حَفِظْتُ وَمَا قَرُوطُ ؛
 لَا أَقْنِي مَرًّا يَرِيدُ صَاحِبُهُ كَتْمَهُ ، وَلَا أَكْتُمُ عِلْمًا يَبْتَغِي مُتَعَلِّمُهُ عِلْمَهُ ؛ مَعَ عُمُومِ
 الْحَاجَةِ إِلَيَّ ، وَالْإِفْتِقَارِ إِلَيَّ عِلْمِي وَالْاِكْتِسَابِ مِمَّا لَدَيَّ ، أُدِيرُ فِي الْقُرْطَاسِ بَكَاسَاتِ
 نَجْمِي فَأُزَيِّرُ بِالْمَزَايِرِ وَأَهْزَأُ بِالْمَزَاهِرِ ، وَأَنْفَتُ فِيهِ مَحَرِّبَاتِي فَأَلْعَبُ بِالْأَلْبَابِ
 وَأَسْتَجْلِبُ الْخَوَاطِرَ ، وَأُنْفِذُ جِيُوشَ سَطُورِي عَلَى بُعْدِ فَاهِزِمِ الْعَسَاكِرِ :

فَلَكُمْ يَقُلُ الْجَيْشُ وَهُوَ عَرَمَرَمٌ * وَالْبَيْضُ مَا سُلَّتْ مِنَ الْأَعْمَادِ !

فَقَالَ السَّيْفُ : أَطَلَّتْ الْغَيْبَةُ ، وَجِئْتَ بِالْخَبِيَةِ ؛ وَسَكَتَ أَلْفَا ، وَتَلَقَّتْ خَلْفَا .

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ * فِي خَدِّهِ الْحَدُّ يَنْبَغُ الْحَدُّ وَاللَّعِبُ

إِنَّ نِجَادِي لِحِلْيَةِ الْعَوَاقِ ، وَمُصَاحَبَتِي آمِنَةٌ مِنَ الْبَوَاقِ ، مَا تَهْلِدُنِي عَاقِبُ إِلَّا بَاتَ
عَرِيزًا ، وَلَا تَوْسِدُنِي سَاعِدٌ إِلَّا كُنْتُ لَهُ حَرِزًا حَرِيزًا ، أَمْرِي الْمَطَاعُ وَقَوْلِي الْمُسْتَمَعُ ،
وَرَأَيْي الْمَصُوبُ وَحَنِي الْمُنْبَعِ ، لَمْ أَزَلْ لِلنَّصْرِ مِفْتَاحًا ، وَلِلظَّلَامِ مِصْبَاحًا ، وَلِلْعِزِّ قَائِدًا ،
وَلِلْعُدَاةِ ذَائِدًا ، فَأَنَّى لَكَ بِمُسَاجَلَتِي ، وَمُقَاوَمَتِي فِي الْفَخْرِ وَمُنَافَرَتِي ؟ ، مَعَ عُرْيِ جِسْمِي
وَتَحَافَةِ بَدَنِكَ ، وَإِسْرَاحِ تَلَافِكَ وَقَصْرِ زَمْنِكَ ، وَبَحْسِ أَثْمَانِكَ عَلَى بُعْدِ وَطْنِكَ ،
وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنْ جَرَى دَمْعِكَ ، وَضَبْقِ دَرْعِكَ ، وَتَفَرُّقِ جَمْعِكَ ، وَقَصْرِ بَاعِكَ ،
وَقِلَّةِ أَتْبَاعِكَ .

فَقَالَ الْقَلَمُ : مَهَلًا أَيُّهَا الْمُسَاجِلُ ، وَعَلَى رِسْلِكَ أَيُّهَا الْمُغَالِبُ وَالْمُنَاضِلُ ، لَقَدْ
أَفْشَيْتَ مَقَالًا ، وَتَمَقَّتْ مَحَالًا ، فَغَادَرْتُكَ سُبُلُ الْإِصَابَةِ ، وَخَرَجْتَ عَنْ جَادَةِ الْإِتَابَةِ ،
وَسُوَّتْ سَمْعًا فَاسْتَأْتِ جَابَهُ ، إِنِّي لِمَبَارِكِ الطَّلَعَةِ وَسِيمُهَا ، شَرِيفُ النَّفْسِ كَرِيمُهَا ،
أَخَذْتُ بِالْفَضَائِلِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهَا ، مُسْتَوْفٍ لِلْمَادِحِ بِسَائِرِ صِفَاتِهَا ، فَطَائِرِي مَيِّمُونُ ،
وَعُوقِي مَأْمُونُ ، وَعِطَائِي غَيْرُ مَمْنُونُ ، أَصْلُ وَتَقَطُّعُ ، وَأُعْطَى وَتَمَنُّعُ ، وَتَفَرُّقُ وَاجْتِمَاعُ ،
وَإِنْ أَزْدَرَأَكَ بِي مِنَ الْكِبَرِ الْمُنْهَيِّ عَنْهُ ، وَعَظَمَكَ عَنِّي مِنَ الْعُجْبِ الْمُسْتَعَاذِ مِنْهُ ،
وَمِنْ حَقَرِ شَيْئًا قَتَلَهُ ، وَمِنْ أَسْتَهَانَ بِفَاضِلٍ فَضَّلَهُ ، وَإِنِّي وَإِنْ صَغُرَ حَرْمِي فَإِنِّي لَكَبِيرُ
الْفِعَالِ ، وَإِنْ تَحِفَّ بَدَنِي فَإِنِّي لَشَدِيدُ الْبَاسِ عِنْدَ التَّزَالِ ، وَإِنْ عَرِيَ جِسْمِي فَكَمْ
كَسَوْتُ عَارِيًا ، وَإِنْ جَرَى دَمْعِي فَكَمْ أُرَوَيْتُ ظَامِيًا ، وَإِنْ ضَاقَ دَرْعِي فَإِنِّي لِسَعَةِ
الْحِجَالِ مَشْهُورُ ، وَإِنْ قَصُرَ بَاعِي فَكَمْ أَطْلَقْتُ أُسِيرًا وَأَنَا فِي سِجْنِ الدَّوَاءِ مَأْسُورُ ، إِذَا
أَمْتَطَيْتُ طَرْنِي ، وَتَدَرَّعْتُ نَفْسِي ، وَتَقَلَّدْتُ تَحْمِي ، وَجَاسَتْ عَلَى الْأَعْدَاءِ نَفْسِي :-

رَأَيْتَ جَلِيلًا شَأْنَهُ وَهُوَ مُرْهَفٌ * ضَهْنِي وَسَمِيئًا خَطْبُهُ وَهُوَ نَاحِلُ !

أَنْسَيْتَ إِذْ أَنْتَ فِي الْمَعْدِنِ تُرَابٌ تُدَاسُ بِالْأَقْدَامِ ؟ ، وَتَسِفُكُ الرِّيحُ وَتُزِيرِي بِكَ
الْأَيَّامُ ؟ ، ثُمَّ صَرْتَ إِلَى الْقَيْنِ تَقَعْدُ لَكَ السَّنَادِينَ بِالْمَرَاصِدِ ، وَتَدْمَعُكَ الْمَقَامِيعُ وَتَسْطُو

بك المَبَّارِدُ ؛ ثم لولا صِقَالُكَ لأَذْهَبَكَ الجَرْبُ وأَكَلَكَ الصَّدَى ؛ مع قَلَّةِ صَبْرِكَ على
المَطَرِ والنَّدَى .

فقال السَّيْفُ : إنا لله ! لقد أَمْتَأَسَدَتِ الثَّعَالِبُ ، وَاسْتَنْسَرَتِ البُغَاثُ فَعَدَّ
المُضْغُورُ نَفْسَهُ من طَيْرِ الوَاجِبِ ؛ وجاء الثُّرَابُ إلى البَازِي يُهْدِّدُهُ ، وَرَجَعَ ابنُ أَوْى
على الأَسَدِ يُنْزِرُهُ ؛ فلو عَرَفْتَ قَدْرَ نَفْسِكَ ، وَلَزِمْتَ في السَّكِينَةِ طَرِيقَ أُنْبَاءِ
جَنَسِكَ ؛ ووقفتَ عند ما حُدَّ لك ، وَذَكَرْتَ عَجْزَكَ وَكَسَلَكَ ؛ لكان أَجْدَرُ بك ،
وأَحْمَدُ لِمَا قَبِيتَ ، وَالْيَقَى بِأَدَبِكَ .

إن المُلُوكَ لَتَعُدُّنِي لِمُهْمَاتِهَا ، وَتَسْتَعِجِدُنِي في مِلَامَاتِهَا ؛ وَتَتَعَالَى في نَسَبِي ، وَتَتَعَالَى
في حَسْبِي ؛ وَتَتَنَافَسُ في قُنْيَتِي وَتَتَعَاسَدُ ، وَتَجْمَلُنِي عُرْضَةً لِأَيْمَانِهَا فَتَتَعَاقَدُ بِالْحَلِفِ
عَلَيَّ وَتَتَعَاهَدُ ؛ وَتَدْعُرُنِي في خَزَائِنِهَا أَذْخَارَ الْأَعْلَاقِ ، وَتَعُدُّنِي أَنْفَسَ ذَخَائِرِهَا على
الإِطْلَاقِ ؛ فَتُكَلِّلُنِي الجَوَاهِرَ ، وَتُحَلِّقُنِي المَقُودَ فَأُظْهِرُ في أَحْسَنِ المَظَاهِرِ ؛ أَزْهَرُ
لِلشُّعْبَانِ خَدَى الأَسِيلِ فَأُنْسِيهِمُ الخُدُودَ ذَوَاتِ السَّوَالِفِ ، وَأَزْهَوُ بَقْدَى فَاُسْلِبُهُمُ
هَيْفَ القُدُودِ مع لَيْنِ المَعَاطِفِ ؛ وَأُوهِمُ الظُّلُمَانَ من قُرْبِ أَنْ بَأْتَاهُمُ مَاءُ يَسِيلِ ،
وَأُخَيِّلُ للقُرُورِ من بُعْدِ أَنِّي جَدْوَةٌ نَارٍ فَيَطْلُبُنِي على المَدَى الطَّوِيلِ ؛ وَبِخَالَتِي مُتَوَقِّعُ
الغَيْثِ بَرَقًا لَامِعًا ، وَيُظَنُّنِي الجَاثِرُ في الشَّرْقِ تَجَمُّعًا طَالِعًا ؛ فَالشمْسُ من شُعَاعِي في تَجَمُّعِ ،
وَاللَّيْلُ من ضَوْئِي في وَجَلِ ، وما أَسْرَعْتُ في طَلَبِ نَارٍ إِلَّا قَبِيلُ : « فَاتْ مَاذُجْجِ »
و« سَبَقَ السَّيْفُ العَدْلَ » .

فقال القَلَمُ : بَرِّقْ لِمَنْ لَاعَرَكَ ، وَرَوِّجْ على غيرِ الجَوَاهِرِ صَدَفَكَ ؛ فما أنت
من بَزَى ولا عِطْرِي ، وَلَسْتَ بِمُساوِي حَدِّكَ القاطِعِ بِقُلَامَةِ ظُفْرِي ؛ إن بَرَقَكَ خُلِبَ ،
وإن رِيحَكَ لأَزْيَبَ ، وإن مَاءَكَ لِحَامِدُ ، وإن نَارَكَ لِحَامِدُ ؛ ومن أَدْعَى ما لَيْسَ له
فقد باءَ بالفُجُورِ ، ومن نَسَجَ بما لم يُعْطِ فهو كَلَّاسٌ قَوْبِي زُورُ .

وَمَنْ قَالَ : إِنَّ النَّجْمَ أَكْبَرُهَا السَّمَى * بَغَيْرِ دَلِيلٍ كَذَّبَتْهُ دُكَا !

أنا جَذِلُهَا الْمُحَكِّكُ ، وَعَدَقُهَا الْمُرْجَبُ ، وَكَرِيْمُهَا الْمُبْجَلُ وَعِلْمُهَا الْمُهْدَبُ ؛ يَخْتَلِفُ
حَالُ فِي الْأَفْعَالِ السَّنِيَةِ بِاخْتِلَافِ الْأَعْرَاضِ ، وَأَمْتِي مَعَ الْمَقَاصِدِ الشَّرِيفَةِ بِمَحْسَبِ
الْأَغْرَاضِ ؛ وَأَتَرْتَنِي بِكُلِّ زِيٍّ جَمِيلٍ ، فَأَنْزَلُ فِي كُلِّ حَيٍّ وَأَسِيرُ فِي كُلِّ قَبِيلٍ ؛ فَتَارَةً
أَرَى إِمَامًا عَالِمًا ، وَتَارَةً لُدْرَ الْكَلَامِ نَائِرًا وَأُخْرَى لَعُقُودِ الشَّعْرِ نَاطِلًا ؛ وَطَوْرًا تُلْفِيْنِي
جَوَادًا سَابِقًا ، وَمَرَّةً تَجِدُنِي رُحْمًا طَاعِنًا وَسَهْمًا رَاشِقًا ؛ وَأَوْنَةً تَخَالِنِي تَجَبَّاهُ مُشْرِقًا ،
وَحِيْنًا تَحْسَبُنِي أَفْعُوْنًا مُطْرِقًا ؛ قَدْ فُقْتُ الشَّبَابَةَ فِي الطَّرَبِ ، وَهَزْتُ عَلَيْهَا فِي كُلِّ
مَعْنَى وَإِنْ جَمَعَ بَيْنَنَا جِنْسُ الْقَصَبِ ؛ فَكَانَتْ لِلْأَغَانِي ، وَكُنْتُ لِلْعَانِي ؛ وَجَاءَتْ
بَغْرِيْبِ النِّعَمِ ، وَجِئْتُ بِبَدِيْعِ الْحِكْمِ ؛ وَلَعِبْتُ بِالْأَسْمَاعِ طَرَبًا ، وَوَلَعْتُ بِالْأَلْبَابِ
فَأَتَيْتُ لَتَهْرِهَا مِمَّا عَرَاهَا تَحَبًّا .

فَقَالَ السَّيْفُ : دَرَكْتَنِي الطَّعْنُ وَكُنْتُ نَاسِيَا ، وَطَلَبْتَ التَّكْثُرَ فَازْدَدْتَ قِلَّةً وَعُدْتَ
خَاسِيَا ؛ فَكُنْتَ كَطَالِبِ الصَّيْدِ فِي عَرِيْسَةِ الْأَسَدِ إِنْ لَقِيَهُ أَهْلَكَهُ ، وَخَالَفْتَ النَّصْرَ
فَالْقَيْتَ بِيَدِكَ إِلَى التَّهْلُكَةِ ؛ فَأَقْنَعْتَ مِنَ الْغَنِيْمَةِ بِالْإِيَابِ ، وَعُدَّ الْهَزِيْمَةَ مَعَ السَّلَامَةِ
مِنْ أَرْبَحِ الْأَكْسَابِ ؛ فَلَسْتَ مِمَّنْ يَسْقُ غُبَارِي ، وَلَا يُعَايِلُ فِي الْهَيْجَاءِ ضَرَمِي
وَلَا يَقْطِلُ بَنَارِي ؛ فَكَمْ مِنْ بَطْلٍ أَبْطَلْتُ حِرَآكَهُ ، وَكَمْ مِنْ تُجَاعٍ عَجَلْتُ هَلَكَاهُ ؛
وَكَمْ صَنْدِيدٍ أَرْقُتُ دَمَهُ ، وَكَمْ نَائِبِ الْجَاحِشِ زَلْزَلْتُ قَدَمَهُ .

وَأَرَادَ الْقَلَمُ أَنْ يَأْخُذَ فِي الْكَلَامِ ، وَيَرْجِعَ إِلَى الْجِدَالِ وَالْخِصَامِ ؛ فَغَلَبَ عَلَيْهِ رِقَّةُ
طَبِيعِهِ وَحُسْنُ مَوَارِدِهِ ، وَسَلَاةُ قِيَادِهِ وَجَمِيلُ مَقَاصِدِهِ ؛ فَهَالَ إِلَى الصُّلْحِ وَجَنَحَ
إِلَى السَّلَمِ ، وَأَعْرَضَ عَنِ الْجَهْلِ وَتَمَسَّكَ بِالْحِلْمِ ؛ وَأَقْبَلَ عَلَى السَّيْفِ بِقَلْبِ صَافٍ ،
وَلِسَانٍ رَطِيْبٍ غَيْرِ جَافٍ ؛ فَقَالَ : قَدْ طَالَتْ بَيْنَنَا الْمُجَادَلَةُ ، وَكَثُرَتْ الْمُرَاجَعَةُ وَالْمُقَاوَلَةُ ؛

مع ما بيننا من قرابة الشرف ، وأخذ كل منا من الفضل بطرف ؛ فعن في الكرم
شقيقان ، وفي الحمد رفيقان ؛ لا يستقل أحدا بنفسه ، ولا يأنس بغير صاحبه وإن
كان من غير جنسه ؛ وقد حلبت الدهر أشطره ، وعليت أصفاه وكدره ؛ وقلبت
ظهورا وبطنا ، وجبت فيا فيه سهلا وحزنا ؛ وإن معادة الرقيق ، ومباينة الشقيق ؛
توجب شماتة العدو وتمم الصديق ؛ فهل لك أن تعقد للصلح عقدا لا يتعدى حده ،
ولا يهل على طول الزمان عقده ؛ لنكون أبدا متالفين ، وعلى السراء والضراء
متصاحبين ؛ حتى لا يضرب بنديتي جذيمة مع أصطحابنا مقل ، ولا يتشبه بنا
الفرقدان إلا بأاء بالخطل .

ولست بمستيق أخا لا تلثه * على شعث ، أي الرجال المهذب ؟

فقال السيف : لقد رأيت صوابا ، ورفعت عن وجه المحبة نقابا ؛ وسرت أحسن
مسرئ وسرت أجهل سير ، وصحبك التوفيق فأشرت بالصلح ؛ والصلح خير .

وقد ينج الله الشيتين بعدما * يظنان كل الظن أن لا تلاقيا !

ثم قال : لا بد من حكم يكون الصلح على يديه ، وحكيم ترجع في ذلك إليه ؛
لنحظى بزيادة الشرف ، ونظفر من كمال الرفعة بغرف من فوقها غرف ؛ ولنسنا
بفائزين بطلبتنا ، وعلافين ببغيتنا ؛ إلا لدى السيد الأكل ، والمالك الأفضل ؛
الماجد السرى ، والبطل الكبي ، والبحر الحضم ، والغيث الأم ، مولى المعالي ومولى
النعم ، وممتطي جواد العز ورافع أعلام الكرم ؛ جامع أشات الفضائل ومالك زمامها ،
وضابط أمر الدولة الظاهرية وحافظ نظامها ؛ المقر الكريم ، السالي ، المولوي ،
الزيتي ، أبي يزيد الدوادار الظاهري : ضاعف الله تعالى حسناته المتكاثرة ،
وزاده رفعة في الدارين ليجمع له الارتقاء بين منازل الدنيا والآخرة ؛ فهو قطب

المملكة الذى عليه تدور، وفارسها الأروع وأسدّها المصّور، وبطلها السّميدع وليثها
الشهير، وأبو عدوتها حقاً من غير نكر وأبنُ بجذتها السّاقطة منه على الخير، ومعقلها
الأمنع وحرزها الحصين، وعقلها الأنفس وجوهرها الثمين، وتلاذذها العالم
بأحوالها، والحدّير بمعرفة أقوالها وأفعالها، وترجمانها المتكلم بلسانها، وعالمها المتفنن
فى أفنانها، وطبيبها العارف بيطبها، ومُنجدُها الكاشف لكرها .

هذا : وإنه لَمالكُ أمرنا ، ورافعُ قدرنا ؛ والصّائلُ منا بالحدّين ، والجامعُ منا
بين الضّدّين ؛ فلوقبّه «فارسُ عبّس» لولّى عابسا، أو طوّقَ حِمى «كُليب» لبات من
حمّاه أبسا، أو قارمه «ربيعة بن مكدّم» لعلّ بالسيف مفرقه، أو نازله «سُطّام»
لبدّد جمعه وفرقه ؛ كما أنه لو قرّن خطّه بنفيس الجوهر لصلاه قيمه، أو فانسّمه
«أبنُ مقلّة» فى الكتابة لما رضى أن يكون قسيمه ، أو فانعره «أبن هلال» لرأى
انه سبّقه إلى كلّ كريّة .

وبالجملة فعزّه الظاهر وقضله الأكل ، وسماكّه الرّاح وسماكّه غيره . الأعرل ؛
فلا يسمَح الزمانُ أن يأتى له بنظير، ولا أراد مدّج بلوغ شأوه إلا قيل : أتتدّ فلقد
حاولتُ الاتّهاضَ بجنّاح كسير :

فَهِمَّلاً بِالْمَكْرَمَاتِ وَبِالْمُلَى * وَحَبِلاً بِالْفَضْلِ وَالسُّؤْدِ الْحَمِصِ !

فالحدّ لله الذى جمعنا بأكرم محلّ وأفضل، وأحسن مقام وأجمل ؛ فهلمّ إليه يعقّد
بيننا عقد الصّلح، وتبأيه على ملازمة الخدمة والنّصح .

ثم لم يلبث أن كتبَ بينهما كتاباً بالصّلح والمصافاة ، وتعهّدا على الودّ والمؤاface ؛
وأعلنَ بعقد الصّلح مُناديهما، وحدّا بذكر التعاضد والتناصر حاديهما ؛ وراح يُنشد :

حَمَمَ الصّلحُ ما أَشْتَهَتْهُ الْأَعَادَى ، * وَأَذَاعَتْهُ السُّنُ الْحَسَادِ !

وَزَالَتْ عَنْهُمَا الْأَحْفَادُ وَالْإِخْنَ ، وَبَاتَا فِي أَعَزِّ مَكَانٍ وَأَشْرَفِ وَطْنٍ ؛ وَتَلَبَّتْ قِرَانُهُمَا فَأَسْعَدَ ، ثُمَّ قَامَ مُنْشِدُهُمَا فَأَنشَدَ :

لَا يُنْكَرُ الصُّلْحُ بَيْنَ السَّيْفِ وَالْقَلَمِ * نَعَاقِدُ الصُّلْحِ عَلَى الْقَدْرِ وَالْهِمَمِ !

أَبُو يَزِيدَ نِظَامُ الْمُلْكِ مَالِكًا * وَوَاصِلُ الْعِلْمِ فِي عَلَيْهِ بِالْعِلْمِ .

فَهُوَ الْمُرَادُ بِمَا أَيْدِيهِ مِنْ مِدَحٍ * وَغَايَةُ الْقَصْدِ مِنْ تَرْتِيبِ ذَا الْكَلِمِ !

وَلِنْ جَرَى مَدْحُ سَيْفٍ أَوْ عَلَا قَلَمٌ ، * فَذَلِكَ وَصَفٌ لِمَا قَدْ حَازَ مِنْ كَرَمِ !

قلتُ : وَسَبَبُ إِنْشَائِي لِهَذِهِ الرِّسَالَةِ أَنَّ الْأَمِيرَ أَبَا يَزِيدَ الْمَوْضُوعَةَ لَهُ ، تَعَمَّدَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالرَّحْمَةِ وَالرِّضْوَانِ ، كَانَ مِنْ جَوْدَةِ الْخَطِّ وَتَحْرِيرِ قَوَاعِيدِهِ فِي الطَّبَقَةِ الْعُلْيَا ، وَهَظُمَتْ مَكَاتَتْهُ عِنْدَ سُلْطَانِهِ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ «بَرْقُوقٍ» وَعَلَتْ رُتْبَتُهُ حَتَّى وَلَّاهُ وَطَيْفَةَ الدَّوَادِرِيَّةِ بِإِمْرَةِ تَقْدِيمَةِ أَلْفٍ ، وَلَمْ يَزَلْ مُقَدِّمًا عِنْدَهُ حَتَّى مَاتَ وَهُوَ مُتَوَلِّيًا ، وَأَوَّلَانِي عِنْدَ عَمَلِهَا لَهُ مِنَ الصَّلَاةِ وَالْبِرِّ الْمُتَوَالِي مَا يَقْصُرُ عَنْهُ الْوَصْفُ ، وَيَكِلُ عَنْهُ اللِّسَانُ .

الصَّنْفُ الْخَامِسُ

(من الرسائل - الأسئلة والأجوبة ، وهي على ضربين)

الضرب الأول

(الأسئلة الامتناعية)

قَدْ جَرَتْ عَادَةُ مَشَائِجِ الْأَدَبِ وَفَضْلَاءِ الْكُتُبِ أَنَّهُمْ يَكْتُبُونَ إِلَى الْأَفْاضِلِ بِالْمَسَائِلِ يَسْأَلُونَ عَنْهَا : إِمَّا عَلَى سَبِيلِ الْأَسْتِفْهَامِ وَاسْتِيعَاةِ مَا عِنْدَ الْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ فِذَلِكَ ، وَإِمَّا عَلَى سَبِيلِ الْأَمْتِحَانِ وَالتَّخْيِيزِ . ثُمَّ تَارَةً يُجَابُ عَنْ تِلْكَ الْأَسْئَلَةِ بِأَجْوِبَةٍ فَتُكْتَبُ ، وَتَارَةً لَا يُجَابُ عَنْهَا ، بِحَسَبِ مَا تَقْتَضِيهِ الْحَالُ .

وهذه رسالة كتبها الشيخ جمال الدين بن نباتة المصري إلى الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي صاحب ديوان الإنشاء بالملكة الشامية ، وقد بلغه أن بعض أهل الديوان نال منه ، وأن الشيخ شهاب الدين المذكور ناضل عنه ودافع ، فكتب إليه يشكره على ذلك ويسأل كُتَّاب الديوان عن أسئلة بعضها يرجع إلى صنعة الإنشاء ، وأكثرها يرجع إلى فن التاريخ . وقد بينت بعضها ونهت عليه في مواضعه في خلال هذا الكتاب ، وهي :

لا يُخرجُ الكُرهَ مني غيرَ نائبة^(١) * ولا ألينُ لمن لا يتنني ليني !

الاستفتاح بـ «لَا» تيمُّنٌ بركة الشهادة ، وهي ههنا مقراضٌ يقطعُ من العيبِ المدةَ ويحسمُ المأدَّةَ ؛ فحَسَمَ الله عن سيدنا الإمام العلامة القدوة ، شهاب الدين ، مُكَلِّي الآداب ، وملك الشعراء والكُتَّاب ؛ شَرَكَلَ عَيْنَ حاسِدٍ ولو أنها عَيْنُ الشَّمْسِ ، وحمَاهُ عن مدِّ ألسنة ذوى الأغتياب والأزتياب من الهمج والهمس ؛ وهَيَّأَ لَهُ أسبابَ الخيرِ حتى يكونَ يومُهُ فيه مُقَصَّرًا عن الغد زائِدًا على الأمْسِ ، وأَسْتَعْذَمَ لَهُ الأقدارَ حتى تكونَ قرائضُ تَقْيِيلِ أَمَلِهِ العشرَ عندهم كقرايضِ الخمسِ ، وجَعَلَ ما يَرُدُّ عَنْهُ العَيْنَ من العيبِ بَعْدَ شَأْنِهِ عن المُتَبَاوِلِ سَوَاقِيَةً عن اللُّسِ ، حتى يكونَ المعْنَى بقولِ القائل :

وَلَا عَيْبَ فِيهِ غَيْرَ أَنْ عِلَّاهُ * إِذَا حَدَّثُوهُ كَانَ قَدْ جَاوَزَ الْحَدَّ ،

وَلَا عَيْبَ أَيْضًا فِي مَا تَرَى بَيْنَهُ * سِوَى أَنَّهُ تُرَوَّى بِالسِّنَةِ الْأَعْدَا !

وحتى يؤمنَ عليه القائل :

مَا كَانَ أَحْوَجَ ذَا الْكَمَالِ إِلَى * عَيْبٍ يُوقِيهِ مِنَ الْعَيْرِ !

(١) هذا الشرط من صناعة ابن نباتة غيره لما يريد وانما هو . لا يُخرجُ القصرَ مني غيرَ مأبِيَةٍ . القصرُ .

القهر والمأبية مصدر كالمحبة معناها الإباء والبيت من كلمة لدى الإصبع المدونى .

وَيُقْبَلُ مِنَ الْآخِرِ قَوْلُهُ :

تَخَصَّ الْأَنْأَمُ إِلَى كَمَالِكَ فَاسْتَعِذْ * مِنْ شَرِّ أَعْيُنِهِمْ بَعِيْبٍ وَاحِدٍ !
 الْعَبْدُ يَتَخَدَّمُ بِسَلَامٍ مَارَوْضَةً نَقَطَهَا الْجَوْ بِدَرِّ سَحَابِيهِ ، وَأَفْرِغَ عَلَيْهَا الْأَنْفُقُ سَقَطَ
 كَوَاكِبِهِ ؛ وَأَمْتَدَّ نَوَى الذَّرَاعِ لِتَدْبِيجِ سَمَائِهَا ، وَتَأْرِيجِ أَرْجَائِهَا ، وَتَحْيِشِ مَعَاصِمِ أَنْهَارِهَا
 الْمُنْشَقَّةِ بِأَفْنَانِهَا ؛ وَصَقَّالَ تَسَامَاتِهَا السَّحَرِيَّةِ ، وَمُغَازَلَةَ عُيُونِهَا السَّحَرِيَّةِ ، وَهَوَايَ
 الدَّالِيَةِ بِنَفْحَاتِهَا الشَّجَرِيَّةِ ؛ تَصْرِفُ دَنَائِرَ أَزْهَارِهَا الصُّرُوفِ ، وَيَسْأَلُ جَنُودَهَا عَلَى
 الْمُحْشَمِ السُّيُوفِ ؛ وَتَجْدِبُ حَمَائِمَهَا الْقُلُوبَ بِالْأَطْوَاقِ ، وَيَتَشَفَّعُ دَوْحُهَا إِلَى النَّوَاطِرِ
 بِالْأَوْرَاقِ ؛ قَدْ تَرَفَّقَ فِي وَجَنَاتِهَا مَاءُ الشَّبَابِ ، وَغَنَّى مُطْرَبُ حَمَائِمِهَا وَعَتَرَهُ فِي حَكِّ
 مِنَ الذَّبَابِ ، وَبَحَرَهَا رَوْنَقُ السَّيْفِ وَفِي قَلْبٍ رَوْضَتِهِ الذَّبَابُ .

فَمَا كُلُّ أَرْضٍ مِثْلَ أَرْضِ هِيَ الْجَنَى ، * وَمَا كُلُّ نَبْتٍ مِثْلَ نَبْتٍ هُوَ الْبَانُ !
 يَوْمًا بِأَبْجَحٍ مِنْهُ أَشْوَاقًا ، وَأَطْيَبَ مِنْهُ أَتَشَاقًا وَأَتَسَاقًا ، وَالطَّيْبُونَ لِلطَّيْبَاتِ ،
 وَلِكُلِّ غَيْثٍ نَبَاتٌ ، وَمَا لَذَلِكَ الْغَيْثِ إِلَّا هَذَا النَّبَاتُ .

وَتَعُودُ فَقُولُ : لَا أَدْرِي أَأَتَعْجَبُ :

عَلَى أَنَّهَا الْأَيَّامُ قَدْ صِرْنَ كُلُّهَا * مَحْجَابٌ حَتَّى لَيْسَ فِيهَا عَجَابٌ !!
 مِنْ قَوْمٍ هُمْ مَا هُمْ : شَرِبُ مُنَاسِبٍ ، وَطِيبُ مَكَاسِبٍ ؛ قَدْ أَمَكَّنْتَهُمُ الْمَعَالَى ،
 وَطَاوَعْتَهُمُ الْأَيَّامُ وَاللَّيَالِي ؛ وَخَدَمْتَهُمْ جَوَارِي السُّعُودِ ، وَتَطَامَنْتُ لِكُلِّ مِنْهُمْ مَرَاقِي
 الصُّعُودِ ، كَأَبْرِ بَسْكَوْنِ الْجَاشِ مِنْحَدِرِ (؟) وَكُنْتُ قَدْ اسْتَجَدَيْتُ كُلًّا مِنْهُمْ وَلَكِنْ
 بِالْكَلَامِ ، وَاسْتَسْقَيْتُ وَلَكِنْ قَطْرَةً مِنْ عَمَامِ الْأَقْلَامِ :

وَأَيْسَرُ مَا يُعْطَى الصَّدِيقُ صَدِيقَهُ * مِنَ الْهَيِّنِ الْمَوْجُودِ أَنْ يَتَكَلَّمَ !

”وَلْيُسْعِدِ اللَّهُ ذُنُوبَكُمْ إِنْ لَمْ يُسْعِدِ الْحَالُ“ فَضَنَّ وَطَنَ مَاظَنَ ، وَأَسْتَعِطَفَ بِسِيمِ الْكَلَامِ
غَضْنُ يَرَاعِهِ مَا عَطَفَ وَلَا حَنَ ، وَيَحِلُّ بِمَا رَزَقَهُ اللَّهُ فَإِنَّ الْفَضِيلَةَ مِنَ الرِّزْقِ ،
وَحَرَمَنِي لَذَّةَ أَفْطَاظِهِ فَإِنَّمَا الَّتِي إِذَا أُدْخِلَتْ فِي رَقٍّ دَخَلَ حُرُ الْبَلَاغَةِ تَحْتَ ذَلِكَ الرِّقِّ ؛
وَهَلْ هُوَ الْبَحْرُ فَكَيْفَ تَحْ بِمَدَّةٍ مِنْ مَدَّةٍ ، وَالْقَيْثُ وَلَا أَقُولُ : إِنْ الَّذِي حَبَسَهُ
إِلَّا مَا قَسَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْخَطِّ عِنْدَ عَيْدِهِ :

وَإِذَا الزَّمَانُ جَفَاكَ وَهُوَ أَبُو الْوَرَى * طُرًّا فَلَا تَعْتَبِ عَلَى أَوْلَادِهِ !

فَاعِلَى اللَّهِ كَلِمَةُ سَيِّدِنَا الْعَلَامَةِ فِي الدَّارَيْنِ ، وَشَكَرْتَنِي جُودَ كَرَمِهِ وَكَلِمَةُ الدَّارَيْنِ ،
[فَهُوَ] صَاحِبُ دِيَوَانِهِمْ ، وَحُجَّةُ زَمَانِهِمْ ؛ فَلَقَدْ وَصَفَنِي بِمَا يَزِيدُ عَلَى الْجَوَابِ ، وَشَافَنِي
مِنَ الشُّكْرِ بِمَا لَا يَتَوَارَى مِنَ الرِّزْقِ بِحَبَابِ ، وَأَمَّنِّي الْعِزَّ وَالزَّمَانَ حَرْبَ ، وَنَصَرَنِي
وَالْأَيَّامُ سُيُوفٌ تَنْتَوِجُ مِنَ الضَّرْبِ فِي كُلِّ ضَرْبٍ ؛ وَأَعْطَانِي كَرَمَهُ وَالْمَحَلَّ مَحَلَّ ،
وَفِي قَلْبِ الزَّمَانِ دَحْلٌ ، وَتَحَلَّى شُهْدَةً إِحْسَانِهِ وَالْأَوْقَاتُ كَابِرُ النُّحْلِ ؛ حَتَّى عَذَرَنِي
فِي حُبِّهِ مَنْ كَانَ مِنَ الْإِلَامِينَ ، وَأَهْتَدَيْتُ مِنْ لَفْظِهِ وَفَضْلِهِ بِقَمَرَيْنِ لَا يَمِيلُ أَحَدُهُمَا
وَلَا يَمِينُ ، وَصُلْتُ مِنْ جَاهِهِ وَمَالِهِ بِيَدَيْنِ إِلَّا أَنْ كَلَّمْتُهُمَا فِي الْإِعْرَاضِ يَمِينِ :

وَيُلُومُنِي فِي حُبِّ عُلُوِّ نِسْوَةٍ * جَعَلَ الْإِلَهِ خُدُودَهُنَّ نِهَايَا !

وَحَرَسَ اللَّهُ سَيِّدَنَا شِهَابَ زَمَانِهِمْ ، كَمَا حَرَسَ بِهِ سَمَاءَ دِيَوَانِهِمْ ؛ فَلَقَدْ أَسْمَعَنِي
مِنَ الشُّكْرِ مَا أَرَبَنِي عَلَى الْأَرَبِ ، وَجَعَلَنِي كَحَاجِبٍ حِينَ دَخَلَ عَلَى كِسْرَى وَهُوَ وَاحِدٌ
مِنَ الْعَرَبِ تَخْرُجُ وَهُوَ سَيِّدُ الْعَرَبِ ، وَهَدَيْتَنِي أَنْوَارَهُ وَأَنَا أَخِيطُ مِنْ لَيْلِ الْقَرِيحَةِ
فِي عَشَوَاءَ ، وَجَادَتْ عَلَى أَنْوَارِهِ وَنَاهِيكَ بِتِلْكَ الْأَنْوَارِ مِنَ الْأَنْوَاءِ ، وَرَفَعَتَنِي أَفْطَاظُهُ
وَلَكِنِّي عَلَى السَّمَاءِ بِرَغَمِ حُسُودِي الْعَوَاءِ ؛ وَهَذِهِ قَصَائِدُهُ فِي تَنَادُرِهَا أَلْسِنَةُ الْأَقْلَامِ ،
وَتُكْتَبُ بِأَقْلَامِ اللَّيَالِي عَلَى صَفَحَاتِ الْأَيَّامِ ؛ مِنْ كُلِّ بَيْتٍ هُوَ بَيْتٌ مَالٍ لَا يَنْقُصُهُ
الْإِنْفَاقُ ، وَلَوْلَا التَّقِيُّ لَقَلْتُ : إِنَّهُ الْبَيْتُ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِحُجَّتِهِ الرَّفَاقِ مِنَ الْآفَاقِ ؛

فَتَى أَتَقَرُّغُ لَطَلِبَ مَدْحِهِ ، وَقَدْ شَغَلَنِي بِمَنْحِهِ ؟ ، وَمَتَى أَجَارِيهِ بِأَمْتَدَاحٍ وَإِنَّمَا مَدَحِي
له من فوائد مدحه :

وَمَا هُوَ إِلَّا مَنْ نَدَاهُ وَإِنَّمَا * مَعَالِيهِ تُحْمِلُنِي الَّذِي أَنَا كَاتِبُهُ !

أَمْ أَتَعْجَبُ مِنْ ثَبِتِ عِزِّ النَّاءِ إِلَيْهِ ، وَجَلَوْتُ عَرَائِسَ الْمَدَائِحِ عَلَيْهِ ؟ وَعَادَيْتُ
فِي تَضْيِيدِ أَوْصَافِهِ الْكَرَى ، وَأَنْصَبْتُ بِالْقَلَمِ لَهُ فِي نَهَارِ الطُّرْسِ وَلَيْلِ النَّقْصِ مِنَ السَّيْرِ
وَالسُّرَى ، وَمَدَحْتُهُ بِمَلْءٍ فِيَّ وَأَجْتَهَدْتُ فِي وَصْفِهِ وَكَانَ سِوَاهُ عَلَى أَنْ أَجْهَدْتُ ،
فِي وَصْفِهِ أَوْ أَجْتَهَدْتُ ، بِخَازِنِي مُجَازَاةَ السَّيَّارِ ، وَأَوْقَعَنِي مِنْ عَنَتِ عَيْتِهِ فِي النَّارِ ،
وَجَعَلَ عَاسِنِي الَّتِي أُدَلِّي بِهَا دُؤُوبًا فَكَيْفَ يَكُونُ الْاعْتِدَارُ ؟ :

وَكَانَ كَذَنْبِ السُّوءِ إِذْ قَالَ مَرَّةً : * لَعَمْرَوْسَةَ وَالذُّبِّ غَرَّتَانُ مُرْمِلُ :

أَأَنْتِ الَّتِي مِنْ غَيْرِ سُوءٍ شَتَمْتَنِي ؟ * فَقَالَتْ : مَتَى ذَا ؟ قَالَ : ذَا عَامُ أَوَّلُ

فَقَالَتْ : وَلِدْتُ الْآنَ بَلْ رُمْتُ غَدَرَةً * فَدُونَكَ كُلِّي لَا هَذَا لَكَ مَا كُلُّ !

وَحَلَّ هَذَا الْمُتَرَجِّمُ ، وَتَحْقِيقُ هَذَا الظَّنِّ الْمُرْجَمِ ، أَنَّهُ يَلْفَنِي أَنْ جَمَاعَةً مِنَ الَّذِينَ
اسْتَفْتَيْتُهُمْ اسْتِنْبَاطًا لِقَوَائِدِهِمْ ، وَالْتِقَاطًا لِفَرَائِدِهِمْ ، لَا تَكْلِيفًا لَهُمْ فِيمَا لَا يَقُومُ بِهِ إِلَّا
الْأَقْوَى مِنَ الْأَقْوَامِ ، وَلَا يُسْتَنْجَدُ بِهِ فِي هَذَا الْوَقْتِ إِلَّا بَارِبَابِ صَفَحَاتِ السُّيُوفِ
لَا أَرْبَابِ قَصَبَاتِ الْأَقْلَامِ ، أَرَادُوا الْفَضْلَ مِنِّي ، وَفَنَى الْإِحْسَانِ عَنِّي ، وَهَيْهَاتَ !

* أَنَا أَبُو النِّجْمِ وَشِعْرِي شِعْرِي *

هَآنَا وَبِضَاعَتِي ، وَهَذِهِ يَدِي لَا أُنَى الْقَبْتُ بِهَا إِلَى السَّلَامِ وَلَكِنْ لَا غَيْرَ ضَ
صِنَاعَتِي : * هُوَ الْجَمِيُّ وَمَقَانِيهِ مَقَانِيهِ *

وإِنَّمَا أَجْتَمَعُوا بِالْمِيدَانِ عَلَى حَدِيثِي ، وَذَكَرُوا قَدِيمِي وَحَدِيثِي ، وَتَسَابَقُوا فِي الْغَيْبَةِ
أَفْرَاسَ رِهَانٍ ، وَاعْجَبَ كُلُّهُمْ أَنَّهُمْ يَقُولُ : هَذِهِ الشُّقْرَاءُ فِي يَدِي وَهَذَا الْمِيدَانُ ،

وَلَا مُوَا وَعَدَلُوا، وَهَمُوا بِالسَّبِّ وَقَعَلُوا، وَاسْتَطَابُوا لَحْمَ أَخِيهِمْ فَسَلَقُوهُ بِالْإِسَةِ حَدَاد
وَأَكَلُوا؛ حَتَّى تَعْدَى ذَلِكَ إِلَى مَنْ جَادَ عَلَى بِالْخَوَابِ، وَفِيهِلَهُ إِمَّا جَزَاءَ لِلدَّجِ وَإِمَّا
لِلنَّوَابِ :

فَقُلْتُ لَهَا عَيْثُ جَعَارٍ وَجَرَّى * بَلَعِمَ أَمْرِي لَمْ يَشْهَدْ الْيَوْمَ نَاصِرُهُ !

وما كان المليك أن يُقَرِّي بِي مِنْ سَبَقِ مَذْحِهِ إِلَى ، وَمَنْ أَنْتَصَرَ بَعْرَهُ لِنَفْسِهِ فَمَا
أَنْتَصَرَ لَدَى ”وهذا لعمري جهد من لآله جهد“ وما تخلو هذه الأفعال : إِمَّا أَنْ تَكُونَ
جُجَازَةً عَلَى مَذْحِهِمْ ، فَإِنَّ الْكَرَامَ وَقَضَلَهُمْ ، وَالْمُنْصِفُونَ وَعَدْلُهُمْ ؟ ، أَوْ طَنَّا أُنَّى
عَرَضْتُ بِهِمْ فَمِنْ عَرَضْتُ ، فَإِنَّ ذِكَاةَ الْأَلْبَاءِ وَأَيْنَ عَقْلُهُمْ ؟ ؛ وَهَلْ تَنْظُنُ السَّمَاءَ
أَنْ يَدَا تَصِلَ إِلَيْهَا ، وَالنَّجُومُ أَنْ خَلَقًا تَحْكُمُ عَلَيْهَا ؟ ؛ وَالذَّهَبُ مَحْرُوسٌ لَا يَصْدَا
جَرْمُهُ ، وَالْجَوْهَرُ مَتْرُوفٌ لَا يُجْهَلُ حُكْمُهُ ؛ وَمَنْ الَّذِي تُحَدِّثُهُ نَفْسُهُ أَنْ يُجَحِّدَ الشَّمْسَ
فَضْلُهَا الطَّائِلَ ، أَوْ يُحَسِّنَ لَهُ عَقْلُهُ أَنْ يَقُولَ : سَجَابُ وَائِلَ كَبَاقِلَ ؟ ؛ ... (١) ...
أَذْرِكُنِي ذَلِكَ الْيَوْمَ وَلِمَا أَمْرَقَ ، وَأَتَجِدُنِي بِكُلِّ لَفْظَةٍ هِيَ أَمْضَى مِنَ السَّهْمِ وَأَرْشَقَ ،
وَأَضْوَأُ مِنَ النَّجْمِ وَأَشْرَقَ ؛ وَمَا أَعْرِفُ كَيْفَ صَبْرِي عَلَى هَذَا الْحَرْبِ فِي صُورَةِ
السَّلْمِ ؟ ، وَمَا أَظُنُّهُ أَرَادَ إِلَّا أَنْ يُعَلِّمَ قَلْبِي الَّذِي فِي يَدِهِ الْحُكْمَ ، كَمَا عَلَّمَهُ لِلْقَلَمِ ؛ وَحَيْثُ
قَضَى الْحَدِيثُ مَا قَضَى ، وَمَضَى الْوَقْتُ وَمَا كَانَ إِلَّا سَيْفًا فِي عَرْضِ الْعَبْدِ مَضَى :

فَكَرَّرْتُ تَبَنِيهِ فَصَادَفْتُهُ * عَلَى دَمِهِ وَمَصْرَعِهِ السَّبَاعَا

فَإِنَّا أَشْهَدُ اللَّهَ تَعَالَى هَؤُلَاءِ السَّادَةَ الْغَائِبِينَ ، أَوْ الْقَوْمَ الْعَائِدِينَ ؛ هَلْ يَعْرِفُونَ أَنَّ
الَّذِي عَرَضْتُ بِهِ مِنْهُمْ قَوْمٌ قَدْ اسْتَوَلَوْا عَلَيْهِمُ الْعِيُّ يُجَرِّضُهُ ، وَزَلَّ فِيهِمُ الْجِهَادُ
بِقَضِّهِ وَقَضِيضِهِ ؛ وَأَصْبَحَ بَابُهُمْ لَمْ كِبْستَانٍ بِلَا تِمَارٍ ، وَدِيَوَانُهُمْ عَلَى رَأْيِ أَبِي الْعَلَاءِ
كَدِيَوَانِ أَبِي مِهْيَارٍ ؛ لَا يُحْسِنُ أَحَدُهُمْ فِي الْكِتَابَةِ غَيْرَ الْعَامَةِ الْمُدْرَجَةِ ، وَالْعَدْبَةِ الْمُعْجَوجَةِ ،

وَالْعِبَادَةُ الضَّيِّقَةُ وَالْأَنْوَابُ الْمُفْرَجَةُ ؛ وَيَتَنَاوَلُ السَّلَامُ بِالْيَمِينِ وَيَكْتُبُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى
بِالشِّمَالِ ، وَمَتْنِي هَذَا عَلَى هَذَا وَلَكِنْ عَلَى الضَّلَالِ ؛ لَوْ سُئِلَ أَحَدُهُمْ عَنْ «الْبَدِيعِ»
فِي الْكِتَابَةِ لَمْ يَعْرِفْ مِنَ السُّؤَالِ غَيْرَ التَّرِيدِ ، وَعَنْ «عَبْدِ الْحَمِيدِ» زَادَ فِي الْفِكْرِ وَتَقَصَّ :
وَعَبْدُ الْحَمِيدِ عَبْدُ الْحَمِيدِ ؛ وَ«الصَّاحِبِ» لَقَالَ : إِنَّهُ تَبَرَّقَعَ بِجِلْبَاسِي ، وَ«الْخَوَارِزْمِي»
لَقَالَ : سَرَّحُ قَرَسِي ، «وَالْفَاضِلُ» لَقَالَ : هَاهُوَذَا ذَيْلُ مَلْبَسِي . فَإِنْ كَانَ الْأَمْرُ
كَذَلِكَ لِمِغْمِ الْمَلَامِ وَالتَّغْنِيدِ :

(١)
عَلَّقُوا الْمُحْصَمَ لِلْبُرَا * عِ عَلَى ذِرْوَتِي حَضَنَ ،
ثُمَّ لَا مَوَا الْبُرَاةَ أَنْ * قَطَعْتَ نَحْوَهَا الرِّسْنَ ،
لَوْ أَرَادُوا صِيَابَتِي * حَجَبُوا وَجْهَكَ الْحَسْنَ !

وَالْوَجْهَ الْحَسَنَ هُنَا وَجْهَ الْمُنْتَصِبِ وَحِجَابُهُ عَنْ شَيْءٍ تِلْكَ الْآثَارُ ، وَتَحْيِشُ تِلْكَ
الْأَلْفَافُ .

وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ فَمَا مَثَلِي مَعَ مَنْ ذَكَرْنِي إِلَّا قَوْلُ الْقَائِلِ :

سَافِرٌ بِطَرَفِكَ حَيْثُ شِئْتُ فَلَنْ تَرَى إِلَّا بَحِيلًا !

فَقِيلَ لَهُ : بَخَلْتُ النَّاسَ ، فَقَالَ : كَذَّبُونِي بِوَاحِدٍ . وَهَآنَا فَلْتَكْذِبُونِي بِوَاحِدٍ مِنْ
عَرَضَتْ ، وَصَحِيحٌ مِنْ أَمْرَضَتْ ؛ وَلِيَبْرُزْ إِلَى مَضْجِعِهِ ، وَلِيَكُنْ عَلَى يَمِينٍ مِنْ مَصْرَعِهِ ؛
وَلَا يَتْرَكَ شَيْئًا مِنْ أَدْوَاتِهِ ، وَلَا يَأْتِي إِلَّا وَمَعَهُ نَادِيَتُهُ مِنْ حَاتِمِ هَمَزَاتِهِ .

وَأَنَا أَقْتَرِحُ عَلَيْهِ مِنْ مَسَائِلِ الْكِتَابَةِ بَعْضَ مَا اقْتَرَحَهُ الْفُضَّلَاءُ ، وَنَبَّهَ عَلَيْهِ الْعُلَمَاءُ ؛
وَلَا فَا أَنَا أَبُو عُدْرَتِهِ ، وَمَالِكُ إِمْرَتِهِ ؛ وَلَا يَلُومُ إِلَّا الْقَائِلُ :

مَنْ تَحَلَّى بِغَيْرِ مَا هُوَ فِيهِ * فَضَحَتْهُ شَوَاهِدُ الْإِمْتِحَانِ !

فانه الذى نبئى عليه وإن لم أكن ساهيا، وذكرنى الطعن وما كنت ناسيا، حتى ربيته من هذه المسائل، فى مجاهر، لا يهتدى فيها بغير الذهن الواقد، وأفتحت به فى محار لا يعصم منها جبل الفكر الجامد، على أنها فيما أغفلت كالتمد من البحار، واللمعة من النهار، ولولا الاختصار، لأتيت منها بالجمع الحتم فلتحمد الله والاختصار، فاقول :

من كتب فى الورق واستنبطه؟ ومن ختم الكتاب بالطين وربطه؟ ومن غير طين الكتاب بالنشا وضبطه؟ ومن قال: أما بعد فى كتابه؟ ومن جعلها فى الخطب وأسقطها فى آتدائه فى المكتبة وجوابه؟ ومن كره الاستشهاد فى مكاتبات الملوك بالأشعار؟ وكيف تركها على ما فيها من الآثار؟ ومن الذى أراد أن يكتب نثرا بجاء شعرا؟ ومن وضع هذه الطرة فى التقاليد وأخترعها؟ وما مجته إذ قدمها على أسم الله ورفعها؟ ومن الذى باعد بين السطور ووسعها؟ وكيف ترك بالتعاظم فى كتيبه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يسعه من التواضع ما وسعها؟ ومن استغنى بكتابة آية من كتاب الله عن الجواب؟ ومن أكتفى بيت من الشعر عما يحتاج من تطويله الكتاب؟ ومن الذى عانى المترجمات ورتبها؟ وأخفى ملطقات الجواسيس وغيبها؟ ومن الذى سنّ البرد وبعثها فى الملمات؟ ومن حاكى شيئا من ملك سليمان فأستخدم الطيور فى بعض المهمات؟ وما أوجز مكتبة كتب بها عن خليفة فى معنى؟ وما أبلغ جواب وأوجز أجاب به عن خليفة من لا سمي ولا كنى؟ ولم أرخ بهجرة النبي صلى الله عليه وسلم؟ وكيف لم يؤرخ بمولده أو غير ذلك من الأيام؟ ومن الذى أمره الخليفة بكتابة معنى فأرتج عليه الكلام ولقنه فى المنام؟ ومن الذى وصف برسالة طويلة شيئا لم يصفه بئثار ولا نظام؟ وكيف جاز للكاتب أن يكتب آية من الكتاب فى لفظة يحسبها من لا يحفظ أنها من عنده

لَا مِنْ حِفْظِهِ ؟ ، مَثَلُ قَوْلِهِ مَعَ الرَّسُولِ : (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) . وَقَوْلِ الْآخَرِ فِي كِتَابِهِ : (هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكَ بِالْحَقِّ) . وَكَيْفٍ مِنْ هَذَا ؟ وَهَلْ يُؤْخَذُ عَلَيْهِ فِي مِثْلِ ذَلِكَ كَمَا أُخِذَ عَلَى الْجَهَّاجِ فِي أَسْمَاءِ الْمُتَغَيِّرِينَ بِهِ مِنْ أَهْلِ السَّجَنِ : (اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُوا) ؟ . وَمَا الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا ؟

وَعَلَامَ يَطُولُ الْكَاتِبُ بَاءَ الْبَسْمَلَةِ ؟ ، وَلَا يُنْبِتُ إِلَّا قَلِيلًا وَأَوَّ الْحُسْبِلَةِ ؟ ، وَلَا يُجَدِّلُ وَلَا يُسَمِّلُ عَلَى مَا أَلِفَ ، وَكَيْفَ يُعَلِّمُ فِي بَعْضِ السَّجَّاتِ عَلَى الْأَسْمَاءِ الْمَقْصُودَةِ بِالْيَاءِ وَالْأَصْلُ فِيهَا الْأَلِفُ ؟ ، وَأَمَّا لَهُ كَيْفَ يَصِفُ الْقَرِاطِيسَ وَالْأَقْلَامَ وَيَسْتَدْعِيهَا ؟ ، وَالسَّكِّينَ وَالذُّوَاةَ وَيَسْتَهْدِيهَا ، وَكَيْفَ يَكْتُبُ مَلِكٌ طَلَبَ مِنْهُ عَدُوٌّ قَطِيعَةً عَنْ جَنْبِهِ يُعْطِيهَا ؟ ، وَكَيْفَ يَكْتُبُ عَنْ خَلِيفَةٍ اسْتَسْقَى وَلَمْ يُعْطَرْ ؟ ، وَخَلِيفَةٍ صَارَعَ فَصْرَعَ كَالْمُعْتَصِمِ وَكَيْفَ يُعْذَرُ ؟ ، وَمَا الَّذِي يَكْتُبُ فِي نَارٍ وَقَعَتْ فِي حَرَمِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ ، وَمَا الَّذِي يَكْتُبُ عَنِ الْمَهْزُومِ إِلَى مَنْ هَزَمَهُ فِي مَعْنَى رُكُونِهِ إِلَى الْإِحْجَامِ ؟ ، وَكَيْفَ يُنَبِّئُ خَلِيفَةَ خُلَيْعَ فَرَجٍ ، وَغُرَبَاءَ السَّجَنِ وَطَلَعَ ؟ ، وَأَسْرَهُ الْعَدُوِّ ثُمَّ تَخَلَّصَ وَاسْتَقَامَ بَعْدَ مَا نَهَضَهُ الدُّعَاءُ بِمَرَضٍ ، أَوْ تَمَرَّضَ فَانْتَهَضَ ؟ ، وَكَيْفَ يُنَبِّئُ مَنْ زَوَّجَ بَعْدَ مَوْتِ أَبِيهِ أُمَّهُ ، وَيُعْزِي وَالِدًا قَتَلَ وَلَدَهُ وَوَلَدًا قَتَلَ وَالِدَهُ وَيُصَوِّبُ حُكْمَهُ ؟ ، وَيَكْتُبُ عَمَّنْ حَاصِرٍ حَصَنًا وَتَرَكَهُ بَعْدَ تَسْيِيلِ الْمَسَالِكِ ، وَكَيْفَ يَكْتُبُ فِي نَيْبِلٍ لَمْ يُوفِ لَآخِوَجَ اللَّهِ لِلذَّكَ ؟ ، وَيُعْزِي كَافِرًا عَنْ بَعْضِ الْأَعْرَاءِ الْأَنْزَامِ ، وَيُنَشِّئُ عَهْدَ يَهُودِيٍّ بِوَزَارَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ؟ ، وَيَكْتُبُ تَقْلِيدًا لِلثَّلَاثَةِ أَوْ أَرْبَعَةٍ مِنَ الْحُكَّامِ ، وَيَسْتَنْجِدُ بِأَمْوَالٍ أَوْ مَسَاكِينٍ (؟) مِنْ عَدُوِّ كَافِرٍ عَلَى كَافِرٍ ؟ وَيُبَشِّرُ عَدُوًّا بِأَخْذِ بِلَادِهِ مِنْهُ ، وَيَعْتَذِرُ عَنْ مَلِكٍ أَخَذَتْ شَوَانِيهِ وَحُجِرَتْ عَنْهُ ؟ ، وَيُنَبِّئُ خَصِيمًا بِزَوَاجِهِ ، وَيَعْتَذِرُ عَنْ فِرِّ وَتَرَكَ وَلَدَهُ تَحْمُكُ الْقُلُوبَا فِي أَوْدَاجِهِ ؟ ،

وَيَكْتُبُ لِمَلِكٍ بَنَى مَبَانِي فَأَحْتَرَقَتْ أَوْ وَقَعَتْ ، أَوْ أَجْرَى خُبُولَ رَهَانٍ فُسِقتْ خَيْلُهُ
وَأَنْقَطَعَتْ ؟ ؛ أَوْ خَرَجَ لَصِيدٍ فَلَمْ يَجِدْ مَا يُصَادُ ، أَوْ لَبَزَتْهُ بَنْدُقٌ أَحْتَمَلَ فِيهَا وَلَمْ يَصْرُخْ
شَيْئًا مِنَ الْوَاجِبِ الْمُنَادِ ؟ ؛ أَوْ رَكِبَ أَوَّلَ يَوْمٍ مِنْ تَمَلُّكِهِ فَتَقَطَّرَ بِهِ الْجَوَادُ ،
أَوْ وُضِعَتْ لَهُ أَتْنَى فَضَّلَهَا بِكَلَامٍ عَلَى مَا يَرْجُوهُ مِنْ ذُكُورِ الْأَوْلَادِ .

وَمِنْ هُنَا أَكُفُّ الْقَلَمَ عَنْ سَوِطِهِ ، وَأَرْفَعُ عَنْهُ مَا وَضَعَهُ اللِّسَانُ مِنْ سَوِطِهِ ؛
خَوْفًا مِنَ الْمَلَالِ وَالصَّخَبِ ، وَكَفْنِي بِالْعُرْفَةِ عَنْ مَعْرِفَةِ النَّهْرِ .

فَإِذَا تَسَيَّطَ هَذَا الْكَاتِبُ مِنْ هَذَا الْعِقَالِ ، وَتَصَرَّفَ فِي فُنُونِ هَذَا الْمَقَالِ ، وَخَرَجَ
مِنْ هَذِهِ الْأَمْثِلَةِ خُرُوجَ السَّيْفِ مِنَ الصِّقَالِ ؛ أَمْتَدَّتْ كَفُّ الثَّرِيَّا فِي هَذَا النَّسْيَانِ
بِمَسْحِ جَبْهَتِهِ ، وَجَاءَ بِجَوَابِ هَذَا النِّكَثِ كَمَا يَقَالُ : بَرَهَنَهُ ؛ (؟) وَأَمَاطَ لِثَامَهَا ،
وَشَمَّرَ عَنْ أَزْهَارِهَا أَكْثَامَهَا - أَنْقَطَعَتْ الْأَطَاعُ دُونَ غَايَتِهِ ، وَبُسِطَتْ أَيْدِي رَسَائِلِ
الْبُلْبُلَاءِ لِمُبَايَعَةِ رَسَائِلِهِ ، بَلْ أَتَتْهُ وَحَلَّ قَلَمُهُ عَلَى أَقْلَامِ فُرْسَانِ الْكَلَامِ سَوْدَاءَ رَأْيَتِهِ ؛
وَبَانَ هُنَاكَ ظُلْمُ الْعَائِبِ وَحَيْفُهُ ، فَكَانَ كَنْ سُلٍّ لَنَحْرِهِ سَيْفُهُ ، وَعُذِيرٌ عَلَى تَوَالِي
التَّائِبِ مُؤْتَبَرُهُ ، وَكَانَ يَوْمِئِذٍ لَهُ الْوَيْلُ لِمَنْ يُكَذِّبُهُ ، وَأَمْتَازَ هَذَا الْفَاضِلُ بِمَا تُخَدِّعُهُ
هَذِهِ الْوَاقِعَةُ مِنَ الْفَخْرِ وَتَجْلِبُهُ :

فَمَاجُوا فَاثْنُوا بِالَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ * وَلَوْ سَكَتُوا أَثْنَتَ عَلَيْكَ الْحَقَائِبُ !

وَالْمَسْئُولُ مِنْ إِحْسَانِ سَيِّدِنَا أَنْ يَسُدَّ الْخَلَلَ كَيْفَ مَا وَجَدَهُ ، وَيُصْلِحَ الْخَطَأَ وَانْخَطَلَ
كَمَا عُوذَتْهُ مِنْهُ وَكَمَا عُوذَهِ ؛ فَإِنَّهُ أَمِيرُ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَنَحْنُ الرِّعَايَا ، وَشَيْخُ الْفَصَاحَةِ
وَنَحْنُ الْفُقَرَاءُ الَّذِينَ كَمْ وَجَدْنَا فِي زَوَايَاهُ مِنْهَا خَبَايَا ؛ وَمَا هَذِهِ الرِّسَالَةُ إِلَّا يَدٌ
أَمْتَدَّتْ تَسْأَلُ مِنَ الْحِلْمِ مَا يَسَعُهَا ، وَهَذِهِ السُّطُورُ إِلَّا جَبَائِلُ تَنْصِيدُ مِنْ عَوَائِدِهِ
مَا يَنْقَعُهَا وَيَرْفَعُهَا :

فَارْجُ عَلَيْهَا سِرَّ مَعْرُوفِكَ الَّذِي * سَتَرْتَ بِهِ قَدَمًا عَلَى عَوَارِي !

والله تعالى العالم أنها وردت عن قلب مذهول عن حسن الإيقان، مُعَلِّدٍ عليه
نوايب الدهر بأنامل الحفّاقان؛ مَرِيئٍ يساهم الأعدى في قيسى الصلوع، غائص في بحر
الهم وكلمة رمت أن يلقي إلى در الكلام التي هدر الدموع :

أبكي فتجري مهجتي في عبرتي * وكأن ما أبكىته أبكاني!

لا يدع لي الفكر في قلة^(١) ... الإخوان وقتا استنيط فيه معنى، ولا يفسح لي
التعجب من أبناء الزمان لتقصهم أن أضح نقدا ولا وزنا، أجتع ليل الأيام فكأني
لحربها جتحت، وأقدح فكري في استعطاف الزمان فكأني فيه قد قدحت، فلو قضى
الله لي بالمنية من المنية لأرحت الزمان وأسترحت :

فالأرض تعلم أنني متصرف * من فوقها وكأني من تحتها!

ولا فرق فيما بيننا غير أننا * بمس الأذى ندرى ومن مات لا يدرى!
ولا بد لي أن أطلق هذه الصناعة طلاقاً قطعياً، لا طلاقاً رجعياً؛ وأجاهرها
جهاراً حربياً لا جهاراً عيبياً؛ وأضع صعدة حملها من أدب عن بدني، وأتولى قوس
داله مع سهم بائها فما أصبت غير كبدى؛ «كأنا القوس منها موضع الوتر»، «وقلت
أذهبي يا صبورتي بسلام» فإذا بقيت من آفاتنا، ومُنيت به من الخوف في عرفاتنا،
ومطرت لا من عوارض قطرها ولكن من عوارض مرجعاتها :

وإني رأيت الحب في القلب والأذى * إذا اجتمع لم يلبث الحب يذهب!

ومع هذا الحديث لم أشك أن أحداً سينتقد على تشبيهي، وطرقه قديمة في استفتاح
المكتبة، وأمنت نجاح المخاطبة؛ ويقول: تلك أمة قد خلت، ودولة فاضلية أذبرت
مثل ما أقبلت؛ فكيف تبعها وترك طريقة فضلاء عصره، وأبناء عصره؛ فالجواب

(١) يياض بالأصل ولعله : «مصافاة الإخوان» أو نحوه .

مَا قَالَ الْقَاضِي السَّعِيدُ بْنُ سَنَاءِ الْمَلِكِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ، فَمَا كَانَ أَسْعَدَ خَاطِرِهِ ! ،
وَأَكْثَرَ دَهَبَ لَفِظِهِ وَجَوَاهِرِهِ !! :

إِنِّي رَأَيْتُ الشَّمْسَ ثُمَّ رَأَيْتُهَا * مَاذَا عَلَيَّ إِذَا عَشِيقْتُ الْأَحْسَنَاءَ !

وَذَكَرْتُ أَنَّ الْأَسَدَ عَدُوَّهُ وَنَسِيتُ أَنَّ الْأَسَدَ أَفْعَلُهَا .

انتهت إلى هذا الموضع ، والديك قد نعى بعيد الظلام ، وبلغ عن الصبح السلام ،
والأزهار قد سلبته عينه فقام من كراه يصبح ، وميدان الفصون قد أفتح بمنقى
الأكابر وشغب الريح ، ونسر السماء قد فر من الغداة وبازيها ، والتجوم قد حلت
إلى ملحمها من الغرب على نعوش دياجها ، والمجرة من الجوزاء عاطلة الخصر ،
وخافان الصبح قد حمل على تجاشي الظلام راية النصر .

لا يرح سيدنا معصوم الروية والأرتجال ، مسجلا بشجاعة اليراعة والحرب مجال ،
محمود المواقف والمساعى "والنفس تقع والطروس مجال" ، والسلام .

الضنف السادس

(من الرسائل ما تكتب به الحوادث والمآثر)

ويختلف الحال فيها باختلاف الوقائع : فإذا وقعت للأديب مآثرية وأراد
الكتابة بها إلى بعض إخوانه ، حكى له تلك المآثرية في كتابه مع تنميق الكلام
في ذلك ، إما ابتداءً وإما جواباً ، عند مصادقة ورود كتابه إذ ذاك إليه .

وهذه نسخة رسالة أنشأها الإمام قاضي قضاة المسلمين محيي الدين ، أبو الفضل
يحيى ، بن قاضي القضاة الإمام محيي الدين أبي المعالي محمد ، بن علي ، بن محمد ،

(١) زادت هذه الجملة في الأصل هكذا ولا معنى لها .

ابن الحسين، بن علي، بن عبد العزيز، بن علي، بن الحسين، بن محمد، بن عبد الرحمن،
 ابن القاسم، بن الوليد، بن القاسم، بن عبد الرحمن، بن أبان، بن عثمان، بن عفان
 رضى الله عنه، لما ورد إلى القاهرة المحروسة في التاسع من جمادى الأولى من سنة
 تسع وعشرين ومائة، وتُعرف "برسالة النّس" وهي :

وَرَدَتْ رُقْمَةُ سَيِّدِنَا أَسْعَدَهُ اللَّهُ بِتَوْفِيقِهِ، وَأَوْصَحَ فِي أَكْتِسَابِ الْخَيْرَاتِ سُبُلَ
 طَرِيقِهِ، فَوَقَفَتْ عَلَيْهَا وَقُوفُ السَّازِ بُوْرُودَهَا، الْمُتَسَعِّدِ بُوْفُودِهَا، الْمُبْتَهِلِ إِلَى اللَّهِ
 فِي إِبْقَاءِ مُهْجَتِهِ الَّتِي يَتَشَرَّفُ الْوُجُودُ بِوُجُودِهَا :

وَلَيْسَ بِتَرْوِيقِ اللِّسَانِ وَصَوْنِهِ * وَلَكِنَّهُ قَدْ مَارَجَ الْفُحْمَ وَالْدَّمَاءَ !

وَفَضَّضْتُهَا عَنْ مِثْلِ النُّورِ تَفْتَحُهُ الصَّبَا، وَبُرُودِ الرِّيَاضِ تَسَاهَمَتْ فِي أَكْتِسَاءِ
 وَشْيَا الْأَهْضَابِ وَالزُّبَا، يَكْبُو جَوَادُ الْبَلِغِ فِي مِضَارِ وَصْفِهَا، وَيَنْبُو عَضْبُ لِسَانِهِ
 عَنْ جَارَاتِهَا فِي رَصْفِهَا، يُجْجِلُ حُمَا النَّهَارِ بِيَاضَ طَرْمِهَا، وَيُوَدُّ اللَّيْلُ لَوْ نَفَضَتْ عَلَيْهِ
 صِبْغَةَ نَفْسِهَا، وَتَحْسَدُ الْكَوَاكِبُ رَائِقَ مَعَانِيهَا، وَتَقْنَى لَوْ أُعِيرَتْ فَضْلُ إِشْرَاقِهَا
 وَتَلَايِهَا، فِي كُلِّ فِقْرَةٍ رَوْضَةٌ وَكُلُّ مَعْنَى كَأْسٌ مُدَامٌ، وَكُلُّ أَلْفِ سَاقٍ وَكُلُّ سِينٍ
 طُرَّةٌ غَلَامٌ، وَكُلُّ وَاوٍ عَطْفَةٌ صُدُجٌ وَكُلُّ نُونٍ تَقْوِيسٌ حَاجِبٌ، وَكُلُّ لَامٍ مَشْقَةٌ
 عِذَارٌ وَكُلُّ صَادٍ خَطَةٌ شَارِبٌ، يُصِيبُ مِنْ سَامِعِهَا أَنْفَعَى مَا يُرَادُ بِالْقَفْصِ فِي الْعُقَدِ،
 وَتَسْتَوِي بِلَفْظِهَا عَلَى لَبِّهِ أَسْنِيَاءُ الْجَوَادِ عَلَى الْأَمْدِ .

فَلَمَّا أَجْتَلَيْتُ مِنْهَا الْمَعَانِي الْمُنْهَبَةَ فِي الْفَلْظِ الْمَوْجَزِ، وَأَجَلْتُ طَرَفِي مِنْهَا مَا بَيْنَ
 نُزْمَةِ الْمُطَمِّنِّ وَعُقْلَةِ الْمُسْتَوْفِزِ، وَأَسْلَمْتُ قِيَادِي إِلَى سِجْرِهَا الْمُحَلَّلِ وَإِنْ جَنَى قَتْلِ
 الْعَاشِقِ الْمُتَحَرِّزِ - عَلِمْتُ أَنَّ سَيِّدَنَا أَجْرَى فِي حَلِيَةِ السَّبَاقِ لِحَازِ قَصَبِ سَيْفِهَا،

وَذَلَّتْ لَهُ الْبَلَاغَةُ فَتَوَغَّلَ فِي شِعَابِهَا وَطُرُقِهَا؛ وَحُكَّتْ يَدُهُ فِي أَعِنَّةِ الْفَضَائِلِ فَسَلِمَتْ الْقَوْسُ إِلَى بَارِيهَا، وَدَرَجَاتِ الْعُلَى إِلَى مُسْتَحَقِّهَا؛ فَمَنْ وَأَيْل؟ وَمَنْ سَجَان؟ ، وَمَنْ عَبْدُ الْحَمِيد؟ وَأَبْنُ صُوحَانَ ، وَأَيُّ خَبَرٍ يَقَابِلُ الْعِيَانَ؟ وَمَنْ يُقَاوِمُ مَا هُوَ كَائِنٌ بِمَا كَانَ؟ . فَسَأَلْتُ خَاطِرِي الْجَامِدَ أَنْ يُعَارِضَ بِوَابِلِهِ طَلَهَا ، وَأَنْ يُجَابِلَ بِجُنَانِهِ ظَلَهَا؛ وَأَنْ يُجَارِيَهَا فِي حَلَبَةِ الْمُسَاجَلَةِ وَإِنْ دُعِيَ بِالسُّكُوتِ ، وَلَقَدْ أَسْمَعْتَ لَوْ نَادَيْتَ حَيًّا وَكَيْفَ بِنُطْقٍ مِنْ مَيِّتٍ ؛ وَأَنْتَى يُطْمَعُ فِي مُجَارَاةِ الْبَحْرِ وَلَاتَ حِينَ لَعَلَّ أُولَيْتَ ؛ فَوَجَدْتُهُ أَصْلَدَ مِنَ الصَّخْرَةِ مَسَا ، وَأَلْقَيْتُ بِأَقْلًا لَدَيْهِ قُسَا ، فَمَا كُلُّ مَنْ طُرِقَ قَرَى ، وَلَا مَنْ إِذَا خَلَقَ قَرَى ؛ وَهَذَا الْمَعْهُودُ مِنْ خَاطِرِي إِذَا كَانَ جَامًّا فَكَيْفَ وَقَدْ نَصَبَ مَائِهِ وَكَدَرَتِ الْحَوَادِثُ بَحْرَ عِلْمِهِ وَالْغَيْرَ ، فَمِنْ دُونِ أَنْ تُسْتَخْرَجَ مِنْهُ الدَّرُّ أَنْ يَلِينَ لِضُرِّسِ الْمَاضِغِ الْحَجَرِ ؛ فَبَذَلَ جُهِدَهُ لِمَا شَغَبَتِ الْمَعْمُومُ سُبُلَهُ ، وَتَقَنَّعَ بِالْخَلْقِ مِنْ لَاجِدِيدِهِ لَهُ .

هَذَا مَعَ وَاقِعَةٍ وَقَعَتْ لَهُ فَأَصْبَحَ مُنَشَتَّتًا ، وَثَنَى عِنَانَهُ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَيْهَا مُتَلَفِّفًا ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ فِي بَارِحَتِهِ أَسْتَوْلَى عَلَيْهِ الْقَلَقُ بِسُلْطَانِهِ ، وَأَسْتَلَبَتْ يَدُ الْأَرْقِ كَرَاهٍ مِنْ بَيْنِ أَجْفَانِهِ ؛ كَأَنَّهُ سَاوَرَتْهُ ضَلِيلَةٌ شُمُّهَا نَاقِعٌ ، أَوْ مَدَّتْ إِلَيْهِ خَطَاطِيفُ حُجْنٍ لَهَا أَيْدِي الْخُطُوبِ تَوَازِعُ :

إِذَا اللَّيْلُ الْهَسَنَى ثَوْبَهُ * تَقَلَّبَ فِيهِ قَتَى مُوجِعٌ

فَتَارَةً فِكْرُهُ مُتَوَجِّهَةٌ نَحْوَ قَوْلِهِ حَظَّهُ ، وَأَوْنَةً لَا يَبْقَى إِلَّا عَلَى مَا يَقْدِفُهُ طَارِفُ لَحْظِهِ ؛ وَإِنْ يَدُ الْخَمُولِ قَدْ أَسْتَوْلَتْ عَلَيْهِ ، وَأَزِمَّةُ الْمَطَالِبِ صَرِفَتْ عَنْهُ وَحَقَّقَهَا أَنْ تُصَرَّفَ إِلَيْهِ ، وَالسَّعَادَةُ شَارِدَةٌ عَنْهُ وَمَا أَجْدَرَهَا أَنْ تُطِيفَ بِبَابِهِ وَتَسْتَقِرَّ بَيْنَ يَدَيْهِ :

لَنْ كَانَ أَذْلَى حَابِلٌ فَتَعَدَّرَتْ * عَلَيْهِ وَكَانَتْ رَادَةً فَتَخَطَّتْ ،

لَمَّا تَرَكْنَهُ رَغْبَةً عَنِ حَبَالِهِ * وَلَكِنَّهَا كَانَتْ لِأَخْرَاطِهَا !

ولقد جهد في سِلْمِ النَّهْرِ وهو يُحَارِبُهُ، "وَكَيْفَ تُوقِي ظَهْرَ مَا أَنْتَ رَاكِبُهُ؟" فما شَامَ بَارِقَةَ أَمَلٍ إِلَّا أَخْفَقَتْ وَرَجَعَ بِخُفَى حُتَيْنٍ، وَقَرَّتْ أَمِينُ أَعَادِيهِ كُلَّمَا سَخِنَتْ مِنْهُ الْعَيْنُ، فَلَقْدَ أَصْبَحَ أَفْرَغَ مِنْ حِجَامٍ سَابَاطٍ وَإِنْ كَانَ "أَشْفَلَ مِنْ ذَاتِ النَّحِيْنِ".

وكلما تأمل جَدَّهُ الْعَائِرَ النَّائِكِصَ، وَنَظَرَ رِزْقَهُ النَّاضِبَ النَّاقِصَ؛ وَقَابَلَهُ الدَّهْرَ بِالْوَجْهِ الْعَابِسِ الْكَالِجِ، وَمَتَى نَفْسُهُ عُقْبَى يَوْمٍ صَالِحٍ، رَجَعَ عَلَيْهَا قَمْنٌ لِي بِالسَّائِمِ بَعْدَ الْبَارِحِ؟؛ وَنَاجَى نَفْسَهُ بِأَعْمَالِ الرَّاكِبِ، وَالْأَضْطِرَابِ فِي الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ، وَأَنْ يَرَى بِالْجُودِ طَلْعَةَ نَائِرٍ وَبِالْعَرِيسِ غُرَّةَ آيِبٍ؛ وَيَصِلَ التَّهْنِيطَ بِالشَّرَى، وَيَبْتَ مِنْ قَيْدِ الْأَوْطَانِ مُوَفَّقَاتِ الشَّرَى؛ وَإِنْ كَسَلَتْ فَضِيلَةٌ مِنْ فَضَائِلِهِ، أَوْ رَثَتْ وَسِيلَةٌ مِنْ وَسَائِلِهِ؛ اِكْتَسَبَ بِأَحْرَى مِنْ أَخَوَاتِهَا، وَنَفَتْ فِي عُقْدِهَا وَمَتَّ بِهَا وَقَالَ: أَنَا أَبْنُ بَعْدِيهَا؛ فَلَا لَمْ وَعَلَامَ وَحَتَّى مَتَى، أَجَاوِرُ مِنْ أَنَا فِيهِمْ أَضْيَعُ مِنْ قَرَارِ الشَّأْنِ؟؛ وَحَالِي أَنْظُرُ مِنْ أَنْ يَهَامَ عَلَيْهِ دَلِيلٌ، وَ"إِذَا ذَلَّ مَوْلَى الْمَرْءِ فَهُوَ ذَلِيلٌ":

وَمَا أَنَا كَالْعَبْرِ الْمَقِيمِ بِأَهْلِهِ * عَلَى الْقَيْدِ فِي مَحَبَّةِ الدَّارِ يَرْتَعُ!

ثُمَّ اسْتَهْوَلَ تَقَحُّمُ الْإِغْوَارِ وَالْإِنْجَادِ، وَاسْتَفْتَحَ لِقَادِحِ زَنَادِ الْحِظِّ الْإِكْدَاءَ وَالْإِصْلَادَ، وَأَقُولُ: أَخْطَأَ مُسْتَعْبِلُ أَوَّكَادٍ؛ فَاتُوبُ مَتَابَ مِنْ حَلَبِ الدَّهْرِ أَشْطَرَهُ، وَأَخَذَ إِذَا ارْتَفَعَ عَنِ الدُّنْيَةِ مِنْ حَظِّهِ أَيْسَرَهُ، وَبَنَى كَمَا بَنَى سَلْفُهُ وَقَرَّرَ مَا قَرَّرَهُ؛ فَأَقُولُ: أَرْفِضِ الدُّنْيَةَ وَلَا تُلَوِّعْ عَلَيْهَا، فَتَكُونَ "أَحَقُّ مِنَ الْمُتَهَوِّرَةِ إِحْدَى هَمَّتَيْهَا"، "فَالْحُرَّةُ تَجُوعُ وَلَا تَأْكُلُ بِتَدْيِيهَا":

وَلَسْنَا بِأَوَّلِ مَنْ قَاتَهُ * عَلَى رَفِيقِهِ بَعْضُ مَا يَطْلُبُ.

وَقَدْ يُدْرِكُ الْأَمْرَ غَيْرَ الْأَرِيبِ * وَقَدْ يُصْرَعُ الْحَوْلُ الْقُلُوبُ!

ونارةً يُخْطَرُ أَنْ لَوْ شَكَّوْتُ حَالِي إِلَى أَصْدِقَائِي مِنْ ذَوِي الْجَاهِ، وَسَلَّطْتُهُمْ بِالْحَقَائِقِ
بِهِمْ فِي الْإِسْتِغْنَاءِ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ؛ وَأَحْضَيْتُهُمْ عَلَى آتِهَازِ فُرْصَةِ الْإِحْسَانِ قَبْلَ الْقَوْتِ ،
وَأَضْرَبْتُ لَهُمْ : ”أَعِنْ أَخَاكَ وَلَوْ بِالصَّوْتِ“ فَلَيْسَ عَلَى مِثْلِي مَنْ يُخَفِّفُهُ الدَّهْرُ فِي ذَلِكَ
مِنْ جُنَاحٍ ، ”وَهَلْ يَنْهَضُ الْبَازِي بِغَيْرِ جَنَاحٍ“ ؛ ثُمَّ أَرَى أَنَّهُمْ لَوْ فَضَّلَ عَنْهُمْ شَيْءٌ لَجَادُوا ،
بَلْ لَوْ زُوِيَتْ الْأَرْضُ لَهُمْ لَأَزْدَادُوا ؛ وَلَوْ مُلْكُوا ظَلَّ اللَّهُ لِأَصْبَحَتْ لَدَيْهِمْ ضَاحِيَا ،
وَمَا حَالِي بِخَافٍ عَلَيْهِمْ وَكَفَى بُرْغَائِيَا مُنَادِيَا ، وَقَبْلِي بَغَى عَلَى الْأَمْرِ فَقَاتَهُ وَأَدْرَكَ الْجِدَّ
السَّعِيدَ مُعَاوِيَا ؛ وَإِلَى كَمْ أَعْلَلْتُ تَعْلِيلَ الْقَطِيعِ بِالْخِصَابِ :

سَمِئْتُ الْعَيْشَ حِينَ رَأَيْتُ دَهْرِي * يُكَلِّفُنِي التَّذَلُّلَ لِلرَّجَالِ !

وَأُخْرَى يُسَلِّي نَفْسَهُ عَنْ مُصَابِيهَا وَمَصَائِبِهَا ، وَيُمِثُّهَا كَرَّ الْأَيَّامِ بِتَعَاقُفِهَا ، وَيَقْصُ
عَلَيْهَا تَقَلُّبَ اللَّيَالِي بِالْأَتَمِّ الْمَاضِيَةِ فِي قَوَالِيهَا ؛ وَأَنَّا مَا قَدَّمْتُ لِأَحَدٍ سَعَادَةً إِلَّا عَقَّبْتُهَا
بِتَغْيِيرٍ ، وَمَا سَقَيْتُ صَفْوَةَ الْأَمَانِي بَشَرًا إِلَّا شَابَتْ كَأْسُهُ بِتَكْدِيرٍ ؛ وَأَنْ سَبِيلَ كُلِّ أَحَدٍ
مِنْهَا سَبِيلٌ ذِي الْأَعْوَادِ ، وَقُصَارَايَ وَلَوْ آتَخَذْتُ الْأَرْضَ سَسْكًَا وَأَهْلَهَا حَوْلًا سَبِيلُ
رَبِّ الْقَصْرِ مِنْ سَنَدَادٍ ، وَلَوْ عَمَّرْتُ عُمرُ نَوْجٍ كُنْتُ كَأَنِّي وَآدَمَ وَقَتَ الْوَفَاةِ عَلَى
مِعَادٍ ؛ فَإِنْ شِئْتُ فَارْفَعْ عَصَا التَّسْيِيرِ أَوْضَعُ ، فَا هُوَ إِلَّا : ”حَارِبٌ بِجِدِّ أَوْدَعُ“ .

فَبَيْنَا أَنَا أَعُومُ فِي هَذِهِ الْخَوَاطِرِ مُتَفَكِّرًا ، وَأَفْرَعُ سِنَّ النَّدَمِ عَلَى تَقْصِي عُمرِي فِي غَيْرِ
مَآرِي مُتَحَسِّرًا ، وَأَتَسَلَّى بِمَصَارِعِ الْأَوَّلِينَ أُخْرَى مُعْتَبَرًا ؛ وَلَوْ أَتَجَزَّيْتُ الْأَيَّامَ مُوَاعِيدَ
عُرُوقٍ ، لَأَفْضَيْتُ بِي إِلَى أَحَلِّ مِنْ مِيرَاثِ الْعَمَّةِ الرُّقُوبِ ، وَلَقَدْ تَقَاعَسَ أَمَلِي حَتَّى
قَنِعْتُ بِحَالِي ”وَوَشَّرْنَا أَبْجَلَكَ إِلَى حُمَّةِ عُرُوقٍ“ ثُمَّ يُخَاطِبُنِي حِجَايَ بِأَنْ تَنَبَّهْتُ وَأَصْبِرَ ،
فَاللَّيْلُ طَوِيلٌ وَأَنْتَ مُقِمَّرٌ ، فَسَتَبْلُغُ بِكَ الْأَسْبَابُ ، وَيَنْتَهِي بِكَ إِلَى الْمَقْدُورِ الْكِتَابُ ،
فَلَا تَعْمَلْ بِجَرَى الْمُدَيِّكَاتِ غَلَابَ .

فَاسْتَرْوَحْتُ إِلَى قَتَحٍ بَابٍ كَانَ مُرْتَجَا ، وَأَرْتَدْتُ بِاسْتِعْلَاءِ غَمَا السَّمَاءِ مِنْ بَعْضِ
 مَمًى فَرَجَا ، وَأَنْتَشَقْتُ مِنْ نَسِيمِ السَّحَرِ مَا وَجَدْتُ بِهِ مِنْ ضَيْقٍ فِكْرِي مُخْرَجَا ؛
 فَفَتَحْتُهُ عَنْ شُبَّاكِ كَتَبِطِيطِ الْأَوْفَاقِ ، أَوْ كَرْقَمَةِ شَطَرَنَجٍ وَضَعْتُ بَيْنَ الرِّقَاقِ ؛
 أَلَيْسَ مِنْ صِبْغَةِ اللَّيْلِ شِمَارَا ، وَأَتَّخِذُ لَاسْتِعْلَاءِ وَجْهِ الْفَزَالَةِ نَهَارَا ؛ جَلَدِي عَلَى الْقِيَامِ
 وَالْكَدِ ، صَبُورٍ عَلَى الْحَالَيْنِ فِي الْحَرِّ وَالْبَرْدِ ؛ يُحَوِّلُ جُثَّانَ الْمَرَّةِ عَمَّا وَاوَاهُ ، وَيُبَيِّعُ
 لِنَاسَانَ الطَّرَفِ رَعَى حِمَاهُ ؛ يُدِيلُ مِنْ ظُلْمَةِ اللَّيْلِ ضَوْءَ النَّهَارِ ، وَيَمِيزُ بِمَا اسْتَوْدَعَتْهُ
 مِنَ الْأَسْرَارِ ؛ يُنْزِفُ إِلَى غَيْضَةٍ قَدْ أَلْتَقَتْ أَشْجَارُهَا ، وَتَهْدَلْتُ ثِمَارُهَا ، وَرَقَصْتُ
 اغْصَانُهَا إِذْ غَنَّتْ أَطْيَارُهَا ، وَأَطْرَدْتُ بِهَا فِي الزَّلَالِ أَنْهَارُهَا ، وَنَمَتُ بِعَرَفِ الْعَتَرِ
 الشَّعْرَى أَزْهَارُهَا ؛ وَقَدْ قَامَتْ عَرَائِسُ النَّارِنَجِ عَلَى أَرْجُلِهَا ، تَحْتَالُ فِي حَلِيهَا وَحُلَاهَا ؛
 قَدْ أُلَيْسَتْ مِنْ أَوْرَاقِهَا خَلْمًا خُضْرًا ، وَحَلَّتْ مِنْ ثِمَارِهَا نَبْرًا ، وَتَقَلَّمَ قَدَاحُهَا
 فِي جِيَادِهَا لَوْلَوْ رَطْبًا ، وَرَحِمَهَا نَسِيمُ السَّحَرِ فَالَتْ عَجْبًا ؛ وَقَدْ مُدَّتْ فِي أَرْضِهَا
 مِنَ الْبَتْنَسَجِ مَقَارِشُ سُنْدُسٍ فُرُوزَتْ بِالْجَدَاوِلِ ، كَيْسَاطُ أَخْضَرٍ سَلَّتْ أَيْدَى الْقِيُونِ
 عَلَيْهِ صَبِيلَاتِ الْمَعَاوِلِ ؛ وَقَدْ حَذَقَتْ عِيُونُ الرِّقَابِ مِنَ التَّرْجِيسِ قَائِمَةً عَلَى سَاقِ ،
 وَلَعِبَتْ بِهَا يَدُ النَّسِيمِ قَتَائِلَتْ كِعِنَاقَ الْمُحِبِّينَ عِنْدَ الْفِرَاقِ ، فَاجْتَلَيْتُ حِمًى وَسِيمًا تَتَبَلَّعُ
 أَسْرَتُهُ ، وَمَنْظَرًا جَسِيمًا تَرُوقُ بِهِجَتُهُ ؛ قَدْ مَدَّ السَّمَاطُ بِسَاطًا أَزْرَقًا ، بُزْهَرِ الْكَوَاكِبِ
 مُشْرِقًا ؛ وَطَرَزَهُ بِالشَّفَقِ طِرَازًا مُنْهَبًا ، وَأَبْدَى تَحْتَهُ لِلْاصْبَاحِ مَقَرِّقًا أَشْيَا :

وَرَثَ قَيْصُ اللَّيْلِ حَقِّي كَأَنَّهُ * سَلِيبٌ بِأَنْفَاسِ الصَّبَا مُتَوَشِّعٌ ،
 وَرَقَعَ مِنْهُ الدَّيْلُ صُبْحُ كَأَنَّهُ * وَقَدْ لَاحَ تَخْصُصُ أَشْفَرِ اللَّوْنِ أَجْلَحُ ،
 وَلَا حَتَّ بَقِيَّاتِ النُّجُومِ كَأَنَّهُ * عَلَى كَيْدِ الْخَضِرَاءِ نَوْرٌ يُفْتَسَحُ !

وَجَنَحَ الْبَدْرُ لِلْغُرُوبِ فَدَاعَتْ الْكَوَاكِبُ تَذِمُهُ كَوْنًا فَكَوْنًا ، فَكَأَنَّهُ مَلَكٌ اتَّخَذَ
 الْمَجْرَةَ طِيَةً مَضْرِبًا ، وَتَوَجَّ بِالنَّارِ بِإِكْلِيلَا ، وَخَسَتْ الْكَوَاكِبُ بَيْنَ يَدَيْهِ تَوْفِيرًا لَهُ

وتَجِيلا ، وَأَصْطَفَتْ حَوْلَهُ خَدَمًا وَجُودًا ، وَنَشَرَتْ مِنْ أَشْعَثِهَا أَلْوِيَّةً وَبُنُودًا ؛
وَأَخَذَتْ مَقَامَاتِهَا فِي مَرَاكِهَا بِجُيُوشِ عِبْتٍ لِلِقَاءِ مُنَاجِرِهَا ، وَمُسَاقِفِهَا أَخَذَ فُرْصَةَ
النَّصْرِ وَمَنَاجِرِهَا :

وَلَا حَ سَهْلٌ مِنْ بَعِيدٍ كَأَنَّهُ * شِهَابٌ يُجَيِّحُهُ عَنِ الرِّيحِ قَاسٍ !

وَأَنْبَرَى نَسِيمُ السَّحَرِ عِيلًا ، وَجَرَّ عَلَى أَعْطَافِ الْأَزْهَارِ ذَيْلًا بَلِيلًا ؛ وَرَوَى أَحَادِيثَ
الرِّيَاضِ يِلْسَانِ نَشِيرِهِ ، مُذِيغًا لِأَسْرَارِ خُرَامَاهُ وَزَهْرِهِ ؛ وَغَرَّدَتْ خُطْبَاءُ الطَّيْرِ عَلَى مَنَازِرِ
الْأَغْصَانِ ، وَاسْتَنْبَطَتْ مِنْ قُلُوبِ الْحَيِّينَ دَفَائِنَ الْأَشْجَانِ ؛ وَحَثَّ دَاعِي الْفَلَاحِ ،
طَائِفَةُ النَّقَى وَالصَّلَاحِ ؛ عَلَى أَنْ تُؤَدَّى قَرْضُهَا وَنَفْلُهَا ، وَتَرْتَقَى بِحُضُوعِهَا بَيْنَ يَدَيِ
مَوْلَاهَا دَرَجَاتِ السَّعَادَةِ الَّتِي كَانَتْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ؛ وَهَتَفَ بَشِيرُ النُّجُجِ بِمِنْ أَحْيَا
لَيْلَتِهِ لَمَّا تَمَزَّقَ قَيْصُ اللَّيْلِ وَأَنْفَرَى : "عِنْدَ الصَّبَاحِ يَمْحَدُ الْقَوْمُ السُّرَى" .

فَيْنَا أَنَا أَنْفَكُفِي أَنْ جُمْلَةً مَا عَانَيْتُهُ سَيُصْبِحُ زَائِلًا ، وَمَنْ تِلْكَ الصَّبْغَةِ الْعَجِيبَةِ
حَائِلًا ، وَأَتَذَكَّرُ : (وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا)
إِذْ أَهْدَيْتَ إِلَى الْأَيَّامِ إِحْدَى طُرْفَيْهَا وَغَرَايِبَهَا ، وَكُبْرَى أَوَائِدِهَا وَعَجَائِبَهَا ؛ فَطَرَقَ سَمْعِي
مِنْ الشُّبَالِكِ نَبَاهٌ ، وَتَلَّتْهَا وَجِبَةً تَتَّبِعُهَا وَشَبَهٌ ، فَاسْتَعَدْتُ مِنْ كَيْدِ الشَّيْطَانِ الْمَرِيدِ ،
وَقُلْتُ : أَسَعِدْ أَمْ سَعِيدٌ ؛ وَإِذَا بِنَمِيسٍ قَدْ فَارَقَ وَجَارَهُ إِلَى وَجَارِي ، وَاخْتَارَنِي عَلَى
الصَّحْرَاءِ جَارًا فَارْتَضَيْتُهُ لِحَوَارِي ؛ فَوَلَّجَ مُسْتَأْنِسًا ، وَمَرَّحَ بَيْنَ يَدَيِ آنِسَا ، وَأَرَانِي
أَحَدَ كَتِفَيْهِ فِي الْأَمْتَرِ سَالِئًا لَيْلًا وَالْآخَرَ بِالنَّمِغِ شَامِسًا ؛ فَمَدَّ لَهُ الْحِرْصَ عَلَى جَوْرِهِ حَيَّالٍ
مَكْرَهُ وَشِبَاكِهِ ، وَيَدُ الْغَيْشِ تَحُولُ دُونَ قَنْصِهِ وَإِنْسَا كِهْ ؛ وَبَقَايَا الظَّلَامِ تَقْضِي
بِحَدِّهِ ، وَتَصُدُّ عَنْ جَعْلِهِ مِنَ الْوَقَاقِ فِي مَوْضِعِهِ ؛ وَأَنَا مُلَازِمُهُ مُلَازِمَةُ الْمُعْسِرِ لِرَبِّ
الَّذِينَ ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ الصُّبْحُ لَدَى عَيْنَيْنِ .

فلمّا خَشِيتُ عَلَى صَلَاتِي الْقَوْتَ عَدَلْتُ إِلَى تَأْدِيَةِ فَرِيضَتِي ، وَتَوَجَّيْتُهَا بَيْنَ يَدَيَّ مُوجِبَهَا وَعَرَضَهَا ؛ فلمّا أَفْتَلْتُ مِنْ مُصَلَّائِي ، وَأَنْصَرَفْتُ عَنْ مُنَاجَاةِ مَوْلَايَ ؛ بَرَقَتْ لِي بَارِقَةٌ ، خِيلَ إِلَيَّ أَنَّهَا صَاعِقَةٌ ؛ فَقُلْتُ : أَذَرُّ قَرْنَ الْعَزَالَةِ ؟ ، وَإِلَّا فَلَا تَحِينَ ذُبَالَهُ ؛ فَقِيلَ : إِنَّ الْغُلَامَ نَظَرَ إِلَيْهِ شَرًّا ، وَهَزَلَهُ الْمُهْتَدُ فَشَقَّ لَهُ مِنَ الظَّالِمَاءِ بَحْرًا ، وَأَبْدَى لَهُ وَجْهًا مُكْفَهَرًا ، وَرَامَ أَنْ يُطِيعَهُ مِنَ الْمَنِيَّةِ مَرْجَبًا وَعِصْرًا ؛ كَأَنَّهُ قَدْ لَاقَى أَسَدًا هَزَبَرًا ؛ وَاتَّرَعَ لَهُ كَأْسُ الْحِمَامِ بِالْوَاقِي ، وَرِمَاهُ بِثَالِثَةِ الْإِنْفَاقِ ؛ فَعَطَفْتُ عَلَيْهِ بِاللَّامَةِ مُنْكَرًا لِلْجَهْلَةِ ، وَهَتَفْتُ بِهِ زَاحِرًا عَنْ قُبْحِ فِعْلِهِ ، ثُمَّ عَذَرْتُهُ : "وَمَنْ لَكَ بِأَخِيكَ كُلُّهُ" ؛ وَقُلْتُ لَهُ : مَاذَا تَرَكَ تَصْنَعُ لَوْلَا قَيْتُ أَسَدًا أَغْلِبَا ؟ ، لَقَدْ خَلْتُ أَنَّكَ تَرْتَدُّ - وَإِنْ كُنْتُ وَلِيدًا - أَشْيَاءَ ؛ أَمِنْ هَذَا بَادَرْتُ إِلَى السَّيْفِ مُحَرِّطًا ؟ ، "إِنَّكَ لِأَجْبُنٌ مِنَ الْمَزْوَفِ ضَرِطًا" ؛ لَقَدْ أَظْهَرْتَ مِنَ الْفَسَلِ مَا جَاوَزَ قَدْرَ الْحَدِّ ، وَوَضَعْتَ الْمِزَاحَ فِي حِمْلِ الْحَدِّ وَقَابَلْتَ الْأَسْهَلَ بِالْأَشَدِّ ؛ فَسُحِقَا لَكَ وَبُعْدَا ، لَقَدْ قَدَحَ مَرْجِيكَ بَعْدَهَا زِنَادًا صُلْدًا ، وَاسْتَنْجَعَ الْمَاءَ جَلْمًا جَلْدًا .

فَصَوَّبَ طَرَفَهُ فِي وَهْتَفٍ مُنَادِيًا ، وَأَظْهَرَ وَفَاءَ أَزْرَى السَّمَوَاتِ بْنِ عَادِيَا : أُنْجِ هَرَبًا وَلَا إِخَالَكَ نَاجِيًا ؛ إِنِّي رُبَيْتُ مِنَ الْخُطُوبِ بِأَصْعَمِهَا ، وَلَا يَنْبُتُكَ بِالْحُرُوبِ كُجَرِّيَهَا ، وَالْفَاضُ بِالْقَمَةِ أَخْبَرِيهَا ؛ فَلَقْدَ أَوْطَأَنِي مَا لَا أَسْتَقِيلُ مِنْهُ الْعَثَرُ ، وَمَا لَاقَيْتُ فِي حَرْبٍ كَهَيْئَةِ الْمَرَّةِ ، "وَالْوَوَانُ لَا تُقَلَّمُ الْخِمْرَةُ" ؛ لَقَدْ صَرَخَ لِي بِالشَّرِّ وَلَمْ يُجِجْ ، وَكَثُرَ عَنْ أَنْبِيَائِهِ غَيْرُ مُتَبَسِّمٍ ، وَحَسْبُكَ مِنْ شَرِّ سَمَاعِهِ "وَأَمْسَتْ الْبَايْنُ أَهْلًا" ؛ تَأَلَّاهُ إِنَّهُ لِأَجْرَأُ مِنْ خَاصِي الْأَمَدِ ، وَلَكِنْ سَبَرْتَهُ لَتَعْلَمَنَّ مَا بَيْنَ الذَّنْبِ وَالنَّقْدِ ؛ وَلَقَدْ رَضِيتُ نَفْسِي مِنَ الْغَنِيْمَةِ أَنْ تَوُوبَ بِذَمَائِهَا ، لَمَّا تَنَبَّهْتُ بِخُنْصَرِي تَغْضِبَهَا بِذَمَائِهَا ، فَقُلْتُ : "أَجْفَلَ عَنْ جَنَائِكَ الْكَثِيرُ وَأَجْبَلُ" ؛ "أَضَرُّطًا وَأَنْتَ الْأَهْلَى" ؟ ؛ ثُمَّ تَضَاحَكْتُ إِلَيْهِ لَمَّا شَاهَدْتُ أَسْتِعْبَارَهُ ، وَأَوَيْتُ لَهُ إِذْ رَأَيْتُ أَسْتِكْبَارَهُ الْخَطْبَ وَأَسْتِكْبَارَهُ ؛ وَقُلْتُ : مِنْ صَافٍ الْأَمَدِ

قَرَاهُ أَظْفَارُهُ، وَمِنْ حَرَكِ الدَّهْرِ أَرَاهُ أَقْدَارَهُ، وَعَدَلْتُ إِلَى الدُّلُولِ الشَّامِسِ، الْمُسْتَأْسِدِ
الْمُسْتَأْنِسِ، وَمَدَدْتُ يَدِي إِلَيْهِ فَأَتَقَادُ لَهَا طَائِعًا، وَخَضَعُ لِإِجَابَةِ دَعْوَتِي سَامِعًا.

فَلَمَّا حَازَهُ فِي الْقَبْضَةِ الْإِسَارُ، وَبَطَلَ الْإِقْلَالُ مِنْ ذَلِكَ اللَّفْظِ وَالْإِكْثَارِ؛ وَقَدْ
كَانَ أَعَزَّ مِنَ الْأَبْلَقِ الْعُقُوقِ، وَأَبْعَدَ مِنْ بَيْضِ الْأَنْوَقِ؛ أَسْتَجَلِيْتُ صُورَتَهُ مُتَأَمِّلًا،
إِذْ لَمْ يَبْقَ لَهُ سِوَى قَبْضَتِي مَوْلَا؛ فَرَأَيْتُ هَامَةً نَحْمَهُ، وَجُثَّةً تَخْفَهُ، وَشِدْقًا أَهْرَتَا
رَحْبًا، ذَا مِرَّةٍ عَلَى اخْتِلَافِ الْحَوَادِثِ صَعْبًا، وَأُنْيَابًا مُحَدَّدَةً عُضَلًا كَالنِّصَالِ، وَطَرَفًا
مُخَالِسًا غَيْرَ بِالْمَكْرِ وَالْخِتَالِ؛ كَأَنَّهُ شِهَابٌ يَتَوَقَّدُ، أَوْ شُعْلَةٌ تَارِلٌ تَجْدُ، وَمِسَامَتَيْنِ
تَتَوَجَّسَانِ مَادَارِ فِي الْأَوْهَامِ، وَتُدْرِكَانِ مَا يَنْجِي بِهِ الْمَرْءُ نَفْسَهُ لَوْ فِي الْأَحْلَامِ؛ قَدْ
نَيْطَطُ بِعَقْرِ صَفْرَتِ هَامَتِهِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ، إِنْ أَسْتَدْبَرْتَهُ قُلْتُ: هُوَ مُشْرِفٌ عَلَيْهَا
أَوْ أَسْتَقْبَلْتَهُ قُلْتُ: هِيَ مُشْرِفَةٌ عَلَيْهِ؛ يَسْتَمِلُ عَلَى نَحْوِ خَصِيبٍ، وَصَدْرٌ وَحِيبٌ؛
فِيهِ تَزَعْنَا بِيَاضَ كِهْلَالَيْنِ قُرْنَا فِي نَسَقٍ، أَوْ تَجَمَّى ذَوَابَةُ ظَهَرَا فِي غَسَقٍ، تُشْرِفُ نَفْسُ
النَّاظِرِ إِلَيْهَا، وَيُعْقَدُ خَنْصِرُ الْأَخْيَارِ فِي حُسْنِ الشِّيَاتِ عَلَيْهَا؛ أَتَّصِلُ ذَلِكَ بِمَنْكَبِ
عَتِيدٍ، وَسَاعِدِ شَدِيدٍ، وَبُرْنِ شَتْنٍ وَمَحْلَبِ حَدِيدٍ:

ذَوَاتِ أَشَافٍ رُبَّكَتْ فِي أَكْفَهِهَا * نَوَافِدُ فِي صَمِّ الصُّخُورِ نَوَاشِبُ،

مُعَقَّقَةِ التَّرْهِيْفِ عُوِجَ كَانْهَا * تَعْقُرُ أَصْدَاغَ الْحَسَانِ الْكَوَاعِبُ !!

قَدْ جَاوَرَ جُوجُؤًا تَهْدًا، وَقَابَلَ كِهْلًا مُتَنَّدًا؛ يَكَادُ خَصْرُهُ يَنْعَقِدُ أَضْطِرَارًا،
وهِمَّتُهُ تَسْعَرُ نَارًا؛ بَرَجَلَيْنِ تَسْبِقُ فِي الْحَضِرِ يَدَيْهِ، وَتَقْدُّ بِأَظْفَارِهَا أَذْنَيْهِ؛ وَذَنْبٌ
كَالِدَاءِ الْمَسِيلِ يَجْرُهُ اخْتِيَالًا وَمَرَحًا، وَيَبْقِيهِ عَجْبًا وَقَرَحًا؛ إِنْ أَنْسَابَ قُلْتُ: أَنْسَابُ
أَقْمُونٍ، أَوْ صَالَ قُلْتُ: أَسَدُ حَقَّانٍ، أَوْ وَتَبَ سَبَقِ الْوَهْمِ فِي انْخِطَاطِهِ، أَوْ طَلَبَ
أَذْرَكَ الْبَرْقِ مِنْ تَسَاطُعِهِ، أَوْ طَلَبَ فَاتِ الْعَرْفِ فِي انْخِرَاطِهِ؛ أَنْعَمَ مَسَا مِنْ أَرْبَبَ،

وأزهي من ثقل ؛ قد كساه الظلام خلته ، وقبل الصباح طمته ؛ حاز من القديس
 صقاله وبهجه ، ومن الفلك لينة وشمته ؛ أليس رداء الشباب ، ووزنه عن تزوير
 الخصاب ؛ إن أختلس فما تباط شرا ، أو خاتل أزرى بالشفرى مكرا ؛ أحد نفسا
 من عمرو بن معدى ، لا يصلد قايح زناد بطشه ولا يكدي ؛ أنزق من أبى عباد ،
 وأصول من عترة بن شداد ؛ أفنك من الحرث بن ظالم ، وأثر فصد للدم من حاتم ؛
 لا يلين ولا يشكو إلى ذى تصميم ؛ " كأنه كوكب في إثر حفرية " ؛ يكاد عند
 الخاتلة فى أنسيابه ، يقوت الخاطر أو يخرج من إهابه ؛ إن قارن طيرا أباحه منسرا
 كفسير الأسد ، أظب فيه شفا كأنه عقد ثمانين فى العدة ؛ فيلشه : ألا عى صبا
 أيها العلل البالي ، فلا يحس له عين ولا أثر يحيس البالي ، فكان قلوبها رطبا
 وباسا لدى وكزه العتاب والحشف البالي ؛ أعتاد قنص السايح والبارح ، فما فات
 ورد المنيه منه فاد ولا رايح ؛ طويل القرا مدج الأعظم ، له عاتلة سرحان ومجمة
 صينم ؛ آحن من قبه (٩) ، وأظلم من حيه ، أظن من قرأته ، وأسبق إلى الغايات
 من عكاشه ؛ أخطف من عقاب ، وأفجع من ساكن قاب ؛ أسرق من جرد وأنوم
 من قهد ، وألين من عهن وأخشن من قد ؛ بأسه قضاء على الطير منزل ، وبطشه
 ملك بأجلها مرسل .

فلما تأملت خلقه ، وسبرت بتجربة الفراسة خلقه ؛ تجلت له جريرا مستعصدا
 أليرة لونا فيه ، وأحكمت شدة فى محل خناقه ؛ وقلت له : إني مجربك بحابة هذا
 النهار ، " ومن سلك الجدد آمن من العثار " ؛ فعل ذى خبرة بمكره ، وعلى ثقة من قدره ؛
 فإن الليم ذو صولة بعد الخضوع ، وفصح الطبع شية المطبوع ؛ وكيف التمه به
 وإن استقر ولم يتيسر ؟ وأنى الطمأنينة إليه وهو الأزرق المتلئس ؟ .

ثم أنصرفت إلى البلد لبعض شأني ، والاجتماع بأخلائي وأخذاني ، واستغفرتُ
أيامَ النهار فيما تَوَجَّهْتُ له ، وقطعتُ عُمرَ يومٍ ما كان أطولَه ! .

فلما قضيتُ نهْجتي ، من بُجْعتي ، وحانت مع وُجُوبِ الشَّمْسِ رَجْعتي ، أَلْفَيْتُه
عَمَدَ إلى الوَاقِ فقرضه ، ووقاه بالِكَلِ الوَاقِي ما اقترضه ؛ وصالَ على شَبَحَةٍ تَسْتَسْعِدُ
بِدُعَائِها ، وَتَفْرَعُ إن دَهَمَتْها هُمٌ قَبْلَ نَدَاءِ أُولَى البَطْشِ إلى نَدَائِها ؛ ذاتِ خُلُقٍ عَظِيمٍ ،
وَمَنْطِقٍ رَخِيمٍ ، وَقَلْبٍ رَخِيمٍ ، وَوَجْهٍ ذِي نُضْرَةٍ وَنَعِيمٍ ؛ إن قامتِ أحيَتِ اللَّيْلَ بالسَّهْرِ ،
أو قرأتِ رَأَيْتُنَا حَوْلَها زُفْراً بعد زُمرٍ ؛ إن حَادَتْها نَطَقَتْ بالسَّعْرِ مَحَلَّلاً ، أو تَارَكَها
رَأَتْ الصَّنْتَ على كَثِيرٍ من النُّطْقِ مُفَضَّلاً ؛ تَسْرِ نَفْسُكَ في حَالَةِ الصَّخْبِ ، وَتُرِيكَ
وَجْهَ الرِّضَا في صُورَةِ الغَضَبِ ؛ فَدَّ إليها يدَ العُدْوَانِ ، وأطاعَ بأذاها أَمْرَ الشَّيْطَانِ ؛
وَلَمْ يَرْقُبْ فيها إلَّا ولا ذِمَّةً ، وَحَمَلَهَا حَمَلَنَا من أذاها عُثمَّةً ؛ وَمَرَّقَ قَشِيبَ انْثَوَانِها ،
وَحَكَّمَ مَحَالِلهِ الحَدِيدَةَ في إهابِها ، فَعَظُمَ مُصَابُ من حَوَتْ دَارِي بِمُصَابِها .

فلما وصلتُ رأيتها بِاِكِيَّةِ ذاتِ قَلْبٍ مَرِيضٍ ، وَجَنَاحٍ مَهِيضٍ ؛ فَسَلَّيْتُهَا بِأَنَّ
المَصَابِيحَ تُنَلِّقُها الأَبْرارَ ، وَتَرْفَعُ بها إلى أن رَقَاتُ تلكِ الأَدْمَعِ الغِزارَ ، وأوردتُ :
« إنَّ جَرَحَ العَجَّاءِ جُبَّارٍ » ؛ وقلتُ : إِيَّاهُ لَكَ وآها ، لَقَدْ أَرْتَكَبْتَ خُطْأَ ما أَلَيْقَها بِعُدْرِكَ
وأولاهُ !! ، « فَلَقَدْ أَنْصَبَ القَارَةَ من رَأَمِها » ثم آلَيْتُ آليَّةَ بَرٍّ ، لأَوْطِئَتْهُ من الوَاقِ
جَمْرَهُ ، وَلَا تَقْصُرَنَّ بِهذهِ المَرَّةِ تلكِ المَرَّةَ ؛ وَأَتَيْتُهُ بِسِلْسِلَةٍ تَنْبُو أنْبِياهُ عَنْ عَجْمِها ،
وَلَا تَثْبُتُ شَياطِينُ مَكْرِهِ بِرَبْجِها ؛ فَدَأْبَعُ قَيْنِها الصَّنْعَةَ بِأَحْكامِها ، وَأَتَى بالعَجَبِ
في نِظامِها ؛ فَإِنَّهُ هُوَ مَنْ تَحَكَّمَ فيها يَقْطَعُ الجَلْمَدَ ، بِجَعَلِهِ مِنَ اللُّطَافَةِ يُحِلُّ وَيُعَقِّدُ ؛
فَأَسْتَوْدَعْتُ عُنُقَهُ مِنْها أَمِينًا لَا يَخْفِرُ وَيُثَبِّتُ ذِمَّتِهِ ، وَلَا تَتَطَرَّقُ الاَوْهَامُ إلى هِمَّتِهِ ؛
مُسْتَحْكِمُ القُوَّةِ في الشَّدِّ ، فَتَغِيظُ تَغِيظُ الأَسِيرِ على القِدِّ ؛ وَنَظَرُ إلى بَطْرِفِ حَدِيدٍ ،

وتَذَلُّ بِهَدٍ بَأْسٍ شَدِيدٍ ، وَنَصَبَصَ بِذَنبِهِ قَعْلَتُ : ”أَمَكْرًا وَأَنْتَ فِي الْحَدِيدِ“ . فَلَمَّا
أَيَسَ مِنَ الْخَلَّاصِ ، تَلَوْتُ : (وَلَاتَ حِينَ مَنَاصِ) .

فلما تم ما ذكرته ، وأبدأته وأعدته ؛ وردت رُقعة سَيِّدَنَا عَلَى عَقَائِلِ هَذِهِ الْوَقْعَةِ
الَّتِي وَقَعَتْ ، وَصَلَّتْ عَنِ الْجَوَابِ وَمَنَعَتْ ؛ وَأَقْنَضَى بِي الْحَالُ كَتَبَ هَذِهِ الْخُرَافَةَ
وإن تَشَبَّهْتُ بِأَذْيَالِ الْخَلْدِ ، فَأَخْرَجْتُهَا مَخْرَجَ الْخَزْوِ وَإِن دَلَّتْ عَلَى حَوَازِ قَضَابَاتِ
الْمَعْدِ ؛ لِيُعلم أَن فِي الرِّوَايَا خَبَايَا ، وَإِذَا صَحَّ أَنَّ الْأَصُولَ عَلَيْهَا تَبَتُّ الشَّجَرُ فَلَمَّا ابْنُ جَلَا
وَمَلَّاعُ الثَّنَائَا .

هذا : وَإِن أُنْبِئَ قِرَاعُ الْخُطُوبِ فِي حَدِّي مُلُولًا ، ”فَالْفَحْلُ يَبْحِي شَوْلَهُ مَعْقُولًا“ ،
وَلَقَدْ تَجَمَّعَتِ الْخُطُوبُ عَلَى مِنْ كُلِّ وَجْهٍ وَأَوْبَ ، وَطَرَقَتِ الرِّزَايَا جَنَائِي مِنْ كُلِّ
صَوْبٍ ؛ وَجَرِيتُ مَعَ الْخُطُوبِ كَقَرَسِي الرِّهَانِ ، وَمَا هَمَمْتُ بِمَقْصِدٍ إِلَّا سَقَطَ بِي
الْعَشَاءُ عَلَى سِرْجَانٍ ؛ وَبِكُلِّ جَيْلٍ يَحْتَقِقُ الشَّقَى ، وَلَعَمْرُكَ مَا يَذَرِي أَمْرُهُ كَيْفَ يَتَقَى ؛
وَالْجَلْدُ يَرَى عَوَاقِبَ الْأُمُورِ فَيَحْمَدُ عِنْدَ النَّجَاحِ عُقَى السَّيْرِ ، (وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ
لَا كُنْتُ كَثُرْتُ مِنَ الْخَيْرِ) .

تَجُوزُ الْمُصِيبَاتُ الْفَسَى وَهُوَ عَاجِزٌ * وَيَلْعَبُ صَرْفُ الدَّهْرِ بِالْحَازِمِ الْجَلْدُ !

تَسَطَّرَتْ هَذِهِ الْأَحْرُفُ إِلَى سَيِّدِنَا لِيُوَافِقَ خَبْرِي عِنْدَ أَصْحَابِهِ خُبْرَهُ ، وَ”مَنْ يَسْتَقْرِ
سَيَفِي وَهَذَا أَثَرُهُ“ وَأَعْلَمُ أَنَّهَا سَيُضْرَبُ بِهَا فِي بَابِهَا الْمَثَلُ ، وَقَدْ ”أَوْرَدَهَا سَعْدٌ وَسَعْدٌ
مُشْتَمِلٌ“ .



وهذه رسالة في الشكر على زُلول الغيث ، من إنشاء أبي عبد الله محمد بن أبي
الحصّال الغافقي الأندلسي ، نقلتها من خط الشيخ تَمَسُّ الدِّين محمد بن محمد بن محمد
أَبْن سَيِّد النَّاسِ الْعَمْرِي الْمِصْرِي ، وهي :

الحمد لله الذي لا يَكْشِفُ السُّوءَ سِوَاهُ ، ولا يَدْعُو المَضْطَرَّ إِلَّا إِيَّاهُ ، تُزِيلُ قَفَرَنَا بِغَنَاهُ ،
وَنَعُوذُ مِنْ مُخِيطِهِ بِرِضَاهُ ، وَتَسْتَغْفِرُهُ مِنْ ذُنُوبِنَا : (وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ) .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إلهاً علّاهُ فَاقْتَدِرْ ، وأُورِدَ عِبَادَهُ
وَأَصْدَرَ ، وَبَسَطَ الرِّزْقَ وَقَدَّرَ ؛ وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي بَشَّرَ وَأَنْذَرَ ،
وَرَغَّبَ وَحَذَّرَ ؛ وَغَلَّبَ الْبُشْرَى عَلَى الْإِقْنَاطِ ، وَدَلَّ عَلَى الصِّرَاطِ ، وَأَشَارَ إِلَى السَّاعَةِ
بِالْأَشْرَاطِ ، ولم يَأَلْ أَمْنَهُ فِي الذُّبِّ وَالْإِحْتِنَاطِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى الْوُزَرَاءِ الْخُلَفَاءِ ،
وَالْبَرَةِ الْأَنْفِيَا ، وَالْأَشْدَاءِ الرَّحْمَا ، وَالْأَهْوَاجِ الزُّعْمَا ، صَلَوةً تَمْلَأُ مَا بَيْنَ الْأَرْضِ
وَالسَّمَاءِ ، وَتُؤَافِقُهُمْ فِي كُلِّ الْأَوْقَاتِ وَالْآتَا ، وَتَضَعُ النَّشَاءَ مَوْضِعَ النَّشَا .

ولما لَقِيتُ حَرْبَ الْجَدْبِ عَنْ حِيَالٍ ، وَأَشْفَقْتُ رَبَّ الصَّرِيحَةِ وَالْعِيَالِ ، وَتَنَادَى
الْجِيرَانُ لِلتَّفَرُّقِ وَالزِّيَالِ ، وَتَنَاحَتْ فِي الْمُبُوبِ رِيحُهَا الْجَنُوبُ وَالشَّمَالُ ، وَتَرَاحَتْ
عَلَى الْقُلُوبِ رَاحَتَا الْيَمِينِ وَالشَّمَالِ ؛ وَأُحْضِرْتُ أَنْفُسُ الْأَغْنِيَاءِ الشَّجْ ، وَوَدَّوْا أَنْ
لَا تَنْشَأَ مَرْئِيَّةٌ وَلَا تَسِيحَ ؛ وَتَوْهَمَ حَازِنُ الْبَرِّ ، أَنَّ صَاعَهُ يَبْدِلُ صَاعَ الدَّرِّ ؛ وَخَفَّتْ
الْأَزْوَادُ ، وَمَاجَتْ الْأَرْضُ وَأَلْتَقَتْ الرُّوَادُ ؛ وَانْتَرَعَتِ الْعَازِبُ الْقَيْصِيَّةُ ، فَالْقَيْصِيَّةُ ،
وَصَدَرَتْ بِحَمَرَاتِهَا ، وَقَدْ أَسَامَتْ حَزْرَاتِهَا ؛ وَأَصْبَحَتْ كُلُّ قُنَّةٍ قَدَعَاءَ ، وَهَضْبَةٌ دَرَعَاءَ ،
(صفاء نوحها ونقبا وهما) (١) ؛ وَالصُّبْحُ فِي كُلِّ أَفْقٍ قَطْرٌ أَوْ قَطْعٌ ، وَالْأَرْضُ كُلُّهَا سَيْفٌ
وِنِطْعٌ ؛ وَالشَّعْرُ يَشْمُرُ ذَيْلَهُ لِلتَّفَاقِ ، وَيُضَمِّرُ خَيْلَهُ لِلسَّبَاقِ ؛ وَجَاءَ الْجَدُّ وَرَاحَ الْهَزْلُ ،

(١) كذا في الأصل ، ولم نصل إلى أصله مع البحث والتقصي .

وَقُلْنَا : هَذِهِ الشَّجَّةُ هَذَا الْأَزَلُّ ؛ وَلِلرُّجِفَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ عَجَاجَةٌ ظَنُّوْهَا لَا تَلْبَدُ ،
وَقِيْسِيْ نَحْوَ الْغُيُوبِ تَغْطِفُ وَتَلْبَدُ ؛ فَمَا يَسْقُطُ السَّائِلُ مِنْهُمْ إِلَّا عَلَى نَابٍ يَحْرِقُ ،
وَسِهَابٍ يَبْرِقُ ؛ حَتَّى إِذَا عَقَدُوا الْإِيْمَانَ ، وَأَخَذُوا بِرُغْمِهِمُ الْإِيْمَانَ ؛ وَقَالُوا : لَا يُطْمَعُ
فِي النَّبِئِ ، وَزُحَلٌ فِي اللَّيْلِ ؛ فَإِذَا فَارَقَ الْأَسَدُ ، لَكَدًا مَا أَفْسَدَ :

تَحَرُّصًا وَأَحَادِيثًا مُلَفَّقَةً * لَيْسَتْ بَنِيْعٌ إِذَا عُدَّتْ وَلَا غَرِبَ !

أَنشَأَ اللَّهُ الْعَنَانَ ، وَقَالَ لَهُ : كُنْ فَكَانَ ؛ فَبَيْنَمَا التُّجُومُ دَرَارِيْهَا الْأَعْلَامُ ، وَأَغْفَالُهَا
الَّتِي لَا تُنْجِدُ عَنْدهُمْ وَلَا تَلَامُ ؛ قَدْ اخْتَلَطَ مَرَعَاهَا بِالْحَمَلِ ، وَلَمْ تَذَرِ السَّدَةَ بِالْحَمَلِ ؛
وَلَا عِلْمَ الْجَدْيِ بِالرَّثَالِ ، وَلَا أَحْسَنَ الثَّوْرِ بِالرَّامِي ذِي الشَّمَالِ ؛ إِذْ غَشِيَتْهَا ظُلُلُ النَّهَامِ ،
وَحَجَبَتْهَا أَسْتَارُ كَاجِنَةِ الْحَمَامِ ؛ وَأَخَذَتْ عَلَيْهَا فِي الطُّرُوقِ ، مَصَادِرُ الْغُرُوبِ وَالشُّرُوقِ ؛
فَمَا مِنْهَا إِلَّا مَقْنَعٌ بَنِيْصِفٍ ، أَوْ مَزْمَلٌ فِي نِيْجَادٍ خَصِيْفٍ ؛ لَمْ تَذَرِكْ لَهُ عَيْنٌ تَطْرِفُ ،
وَلَا نَفْسٌ يَطْلُعُ مِنْهَا أَوْ يَشْرَفُ ؛ فَبَاتَتْ بَيْنَ دَوْرٍ مُتَدَارِكَةِ السَّقُوطِ ، وَدَوْرٍ مُتَنَازِعَةِ
السُّمُوطِ ، وَدِيمٍ مُنْحَلَةٍ الْخَبُوطِ ؛ وَجُيُوشُ مَنصُورَةِ الْأَعْلَامِ ، تَابَتِ الْأَقْدَامُ ؛ وَكَتَابَتْ
صَادِقَةَ الْمُجُومِ ، صَائِيَةَ الرُّجُومِ ، تَطْلُبُ الْحَمْلَ مَا بَيْنَ التُّخُومِ وَالتُّجُومِ ؛ وَمَا زَالَتْ
تَرْمِيهِ بِأَحْمَارِهِ ، وَتَحْتَرِشُهُ فِي أَجْمَارِهِ ؛ وَتَقْرُؤُهُ فِي عُقْرِ دَارِهِ ، حَتَّى عَقَّتْ عَلَى آثَارِهِ ،
وَأَخَذَتْ لِلْحَزَنِ وَالسَّهْلِ بَثَارَهُ .

فَيَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُ بِالْكَوَاكِبِ ، أَنْظِرْ إِلَى الدَّيْمِ السَّوَاكِبِ ؛ وَأَسْبِغْ فِي الْجَمْعِ سُيُوْلَهَا ،
وَارْتَحِ فِي مَمَرِ دُيُوبِهَا ؛ وَسَبِّحْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ الَّذِي قَذَفَ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ ، وَأَعَادَ
الْحَقْلَ إِلَى الْعَاطِلِ ؛ فَبُرُودُ الظُّلُوهَا مُخَضَّرَةٌ ، وَتُغُورُ الْأَزَاهِرُ مُقْتَرَّةٌ ؛ وَمَسَرَّاتُ الْبُقُوسِ
مُنْتَشِرَةٌ ، وَالْأَنْبِيَا ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ؛ وَأَرْوَاحُ الْأَدْوَاجِ حَامِلَةٌ ؛ وَأَعْطَافُ الْأَغْصَانِ
مَائِلَةٌ ؛ وَأَوْرَاقُ الْأَوْزَاقِ تُفْصَلُ ؛ وَأَجْنِحَةُ الظَّلَالِ تُرَاشُ وَتُوصَلُ ؛ وَخُطْبَاءُ الطَّيْرِ

تَرَوِي وَتُخْبِرُ ، وَتُسَبِّحُ الْخَارِبَ تُهْلَلُ وَتُكَبِّرُ ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَخْضَعُ لِحَبْرَتِهِ ،
وَيَشْهَدُ لِمَلَكُوتِهِ ، وَتَلُوحُ الْحِكْمَةُ مَا بَيْنَ مَنْطِقِهِ وَسُكُوتِهِ .

فَإِذَا الْخَطَاطِيفُ فَقَدْ سَبَقَ هَارِيهَا ، وَنَطَقَ شَادِيهَا ، وَتَرَجَعَ شُكْرًا لِلَّهِ نَادِيهَا ،
فَعُشُّ رِيَمَ ، وَلَبَنَةُ إِلَى أُخْرَى رُزْمَ ، وَشَعَثُ يَلَمَ ، وَبَدَأَةُ تَوَفَّى وَتَمَّ ، وَكَأَنَّهَا حَنْتُ
نَحْوَ الْمَشَاهِدِ ، وَسَابَقَتِ اللَّقَائِقَ إِلَى الْمَعَاهِدِ ، فَظَلَّتِ اللَّقَائِقُ بَعْدَهَا نَزَا ، وَسَقَطَتْ
عَلَى أَطَامِهَا أَوْزَاعًا ، وَأَجَدَّتْ إِقْطَاعًا ، وَأَجَابَتْ مِنَ الْخُصْبِ أَمْرًا مُطَاعًا ، وَحَازَتْ
مِنَ الْهَدَائِقِ وَالْبَسَائِنِ إِقْطَاعًا ، وَسَيَّرَتْ فِي رَوْضَتِهِ الْمَكَّاءَ ، وَيُضِحُّكَ هَذَا الْوَالِئُ
الْبَكَّاءَ ، وَتُرْوِمُهُ فَلَا تَلْحَظُهُ ذُكَاةٌ ، تَحْتَهُ مِنَ الْإِنْفَانِ النَّاعِمَةِ فَلَاصَ ، وَأَحْصَانَتُهُ مِنَ
الْخَضْرَاءِ التَّبَعِيَّةِ دِلَاصَ ، فَالْوَيْلُ لِأَهْلِ الْأَنْوَالِ الْمُتَنَكَّرَاتِ ، وَالنِّيلُ لِأَهْلِ النَّوَاءِ
وَالْخَيْرَاتِ ، وَالْمَرْعَى وَالسَّعْدَانِ ، وَأَرْضُ بَكْوَاكِبِ النُّورِ تَرْدَانِ ، وَيَقَاعُ تَدِينُ الْغَيْثِ
كَأُتْدَانِ ، أَذْكُرْهَا فَذَكَّرْتُ ، وَسَكَّرْتُ مِنْ أَخْلَاقِهِ فَشَكَّرْتُ ، وَعَرَفَهَا مَا أُنْكُرْتُ ،
كَأَنَّمَا أَعْدَدْتُهَا مِنْ أُمِّ خَارِجَةِ نَسَبٍ أَوْ مَلَحَ ، قَالَتْ لَهَا : خُطْبُكَ فَقَالَ : نَحْجُ ،
فَمَثَلْتُ الْأَزْهَارَ بِسَيْلِهِ ، وَنَبَتَتْ فِي مَسِيلِهِ ، وَثَبَّتَتْ كَالْحَلْظَةِ فِي شَطْطَى نَحِيلِهِ .

فِيهِ تَرْجِيحُ تَرْوِي الرِّوَانِي بِأَحْدَاقِهِ ، وَتَسْمِيرُ الشَّمْسِ بِهَجَةِ إِشْرَافِهِ ، وَيُودُّ الْمِسْكَ
نَفْعَةَ أَنْتَشَاقِهِ ، يَحْسُدُ السُّنْدُسُ خُضْرَةَ سَاقِهِ ، وَيَتَمَنَّى الْحَمَامُ بَدَلًا مِنْ أَطْوَافِهِ ، كُلُّهُ
نَدَى تَتَرَقَّقُ ، أَوْ غُصْنٍ بَإِنْ لَا يَزَالُ يُورِقُ .

وَمِنْ عَرَارٍ تَقْنَى مُطَالِعُهُ عَلَى عَرَارٍ ، وَكَفَلَتْ بِهِ السَّوَارِي وَالْعَوَادِي كَلَفَ غَمَرِ
بِعَرَارٍ ، بَغَاءَ كَسَوَالِفِ الْغَيْدِ تَرَفَ ، وَكَوْمِيضِ الثُّغُورِ يَعْجَقُ وَيَسِفُ .
وَمِنْ أَقْوَانٍ بَحْرَى عَلَى الثَّنَائِيَا الْفُزْ ، وَسِيكَ مِنْ نَاصِيعِ الدَّرِّ ، يُقْبَلُهُ النَّسِيمُ فَيَعْجَقُ ،
وَيَصْبِحُ الْجَوْبُ بِمَا ^(١) وَيَقْبِقُ ، وَيَسْتَقْبِلُهُ نَاطِرُ الشَّمْسِ فَيُشْرِقُ .

ومن بَنَفَسٍ كَطَوَاقِ الْوُرْقِ ، أَوْ كَالْيَوَاقِيتِ الزُّرْقِ ؛ تَشَرَّفَ بِأَبْدِيعِ الْخَلْقِ ،
وَتَأَلَّفَ مِنَ الْفَسَقِ وَالْخَلْقِ ؛ تَلَحَّظُهُ مِنْ بَيْنِ أَوْرَاقِهِ نَوَاطِرُ دُجَى الْأَجْفَانِ وَقِيَّتْ ،
وَبَدْمُوعِ الْكُحْلِ سَقِيَّتْ ؛ نَسِيْمُهُ أَلْيَنُ مِنَ الْحَرِيرِ ، وَنَفْسُهُ أَعْطَرُ مِنَ الْعَبِيرِ ؛ يُفَاخِرُهُ
كَأَنُّ الْبَرْدِ ، مُقَانِعُهُ نَيْسَانَ الْوَرْدِ .

وَكُلُّ رَبْوَةٍ قَدْ أَخَذَتْ زُرْعُهَا وَأَزَيْتْ ، وَبَيَّتْ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَا بَيَّتْ ؛ كَمَا تَنَوَّجَ
فِي إِيَّانِهِ كَسْرِي ، وَاسْتَقْبَلَتْهُ وَفُودُهُ تَتْرَى ، وَأَقْلَبَتْ عَنْ حُسْنِ نَادِيهِ النَّوَاطِرُ حَسْرَى ،
وَكُلُّ تَلْعَةٍ مَذَانِبٍ فُصُولُهَا تُسَلُّ وَمَضَارِبُ فُصُولِهَا لَا تُثْنَى ؛ وَأَرَاقِمُ تَنْسَابِ ، وَلُحْنِ
يُذَابُ وَيَذَابُ ؛ عَلَى حَافَاتِهَا مُجُومٌ مِنَ النُّورِ مُشْنَبِكُهُ ، وَجُيُوبٌ عَنْ لَبَاتِ الْغَوَايِ
مُنْتَهِكُهُ ؛ فَلَوْ لَقِيتُصَحَّ الظُّهُورُ وَالْبَطُونُ ، وَنَطَقَتِ السُّهُولُ وَالْحَزُونُ ، لَقَالَتْ :
(قُبِلَ الْخَبْرَاصُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي عُمْرَةِ سَاهُونَ) .

فَشُكْرًا رَبَّنَا شُكْرًا ، وَصُحْفًا لِلَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا ؛ اللَّهُمَّ بَارِئِ النَّسَمِ ،
وِدَارِي الْقَسَمِ ، وَنَاشِرِ الرَّحْمَةِ وَالنِّعَمِ ، وَمُنْزِلِ الدِّيمِ ، وَبَايَعِ الرَّحْمِ ، وَنَحْيِي الْأُثْمِ ،
فَإِنَّا نُؤْمِنُ بِقُدْرِكَ : خَيْرُهُ وَشَرُّهُ ، وَنَطْوِي غَيْبَكَ عَلَى غَيْرِهِ ، وَلَا نَتَعَرَّضُ لِنَشِيرِهِ
حَتَّى تَأْذَنَ بِنَشِيرِهِ ، وَنَعْتِدَ رُبُوبِيَّتَكَ كُلَّ الْأَعْتَادِ ، وَنَبْرَأُ إِلَيْكَ مِنْ أَهْلِ الْمُرُوقِ
وَالْإِحْدَادِ ؛ وَنَسْتَرِيدُكَ مِنْ مَصَالِحِ الْعِبَادِ وَمَنَافِعِ الْإِسْلَامِ ؛ رِزْقَنَا لَدَيْكَ ، وَنَوَاصِينَا
بِيَدِكَ ، وَتَوَكَّلْنَا عَلَيْكَ ، وَتَوَجَّهْنَا إِلَيْكَ ؛ وَلَا نُشْرِكَ بِكَ فِي غَيْبِكَ أَحَدًا ، وَلَا يَجِدُ عَبْدٌ
مِنْ دُونِكَ مُتَعَدًّا ؛ تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ ، وَأَمَّتْ الْحَيُّ وَأَحْيَيْتَ الْمَيِّتَ ؛ لَا هَادِيَ
لِمَنْ أَضَلَّتْ وَلَا مُضِلٌّ لِمَنْ هَدَيْتَ ، فَكَفَيْتَنَا فِيمَنْ كَفَيْتَ ، وَتَوَلَّيْنَا فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ ،
إِنَّكَ قَاضِيٌ وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ ، وَتَقْرَأُ : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتَخْضِبُ
الْأَرْضَ مُخْضَرَّةً) الْآيَةُ .



وهذه نسخة رسالة ، كتب بها الصاحب نقر الدين عبد الرحمن بن مكّاس ،
تغمّده الله برحمته ، إلى الشيخ بدر الدين البشتكى عند ما زاد النيل الزيادة المفرطة ،
سنة أربع وثمانين وسبعمائة ، وهى :

ربنا اجعلنا فى هذا الطوفان من الآمين ، وسلام على نوح فى العالمين .
ما تأخير مولانا ببحر العلم وشيخه عن رؤية هذا الماء ؟ ، وما قعاده عن زرقه
هذا النيل الذى جعل الناس فيه بالتوبة كالملائكة لما غدا هو أيضا كالسما ؟ ،
وكيف لم يرهذا الطوفان الذى استحال للزيادة فا أشبه زيادته بالظلمة ، فهى كزيادة
الأصابع الدالة فى الكف على نقصه ، وأولى أن نُسند بيت المثل ينصه :
طَفَحَ السُّرُورُ عَلَى حَقِّ لِمَنَّهُ * مِنْ عَظِيمٍ مَا قَدَّ سَرَى أَبْكَائِي !

فإنه قارب أن يمتزج بنهر المجرة بل وصل وأمتزج ، وأرانا من عجائبه ما حقق أنه
المعنى [بقول القائل] : ” حَدَّثَ عَنِ الْبَحْرِ وَلَا حَرَجَ “ ، وتجاوز فى عشر الثلاثين
الحَد ، وأرانا بالمعانية فى كل ساحل منه ما سمعناه عن الجزر والمد ، وأساء فى دفعه
فلم يدفع بالتي هى أحسن ، وأقعد الماشى عن التسبب والحركة حتى شكّا إلى الله
فى الحالين جوز الزين ، وسقى الناس من ماء حياته المعهودة كما شربوا من الموت
أضعب كأس ، وسئل ابن أبى الرّداد عن قياس الزيادة فقال : زاد بلا قياس ،
أمتلاّ اليباب ، وهال الباب ، وضاع العدّ وأخطط الحساب ؛ كآل فطفف ، وزار
فما خفف ؛ غسل الجسور ، وأعاد الإملاق بعزمه إلى البحور ، وبرج فكان أولى
بقول الحليّ من ابن منصور :

بِكَارِمٍ تَذُرُّ السَّبَابِ أَبْجَرًا * وَعَزَائِمٍ تَذُرُّ الْبَحَارَ سَبَابًا !

جمع في صُعوده إلى الجبال بين الحادى والملاح، ودخل الناس إلى أسواقٍ مضر
وخصوصاً سوق الرِّبْقِي على كلِّ جارية ذات ألواح ؛ وغدا التيار يسأب في كلِّ يومٍ
كالآيم، وأصبحت هضاب الموج في سماء البحر وكأنما هي قطع القيم، واستحالت
الأفلاك فكلُّ بُرْج مائي، وتغيرت الألوان فكلُّ ما في الأرض سَمائي، وحكى ماؤه
حكاكة الصندل لما مسه شيطان الرج فخبط، وزاد فاستحال نفعه فتحقق
ما ينسب إلى الصندل من الاستحالة إذا أفرط؛ فلقد حكّت أمواجه ودوائر
الأعكان والسُرر، وغدا كلُّ حيٍّ ميتاً من زيادته لا كما قال المعري: حياً من بني مطر^(١)؛
وتحالى إلى أن أقرب اليمون الأخضر، وأحرث عنه على الناس فاذا بهم الموت
الأحمر، ولقد صعب سلوكه وكيف لا؟ وهو البحر المديد، وأصبح كلُّ جدول منه
جعقراً ويزيد :

فَلَسْتُ أَرَى إِلَّا إفاضة شايخٍ * إليه بعين أو مشيراً بأصبع !

فلكم قال الهرم للسارين ياسارية الجبل، وأنشد وقد شمر ساقه للقروض : أنا الفريق
فما خوفي من البَلل؟ وكم قال أبو الهول : لا هول إلا هول هذا البحر، وقال
المسافرون : ما رأينا مثل هذا النيل من هنا إلى ما وراء النهر، وقال المؤرخون : لم تنقل
كهذه الزيادة من عهد النهر وإن إلى هذا الدهر .

وكيف يسوغ مولانا في هذه الأيام غير ارتشاف قم الخمر؟ ولم لا يغير مذهبه
ويطيب على هذه الخللج بالسلسل والنور؟ وكيف وكيف؟! ولم لا يخذل
مولانا سمو النيل وبرده رحلة الشتاء والصيف؟ وهو في المبادرة إلى علو المعالي
وعلو المعاني، وأتهاز القُرص في بلاغ الآمال وبلوغ الأماني :

(١) يشير إلى بيت المعري في قوله :

وانت بخلت عن الأحياء كلهم * فأستق الماطر حياً من بني مطر

أنظر سقط الزند (ج ١ ص ٣٠) .

عَجَبٌ مِنْ عَجَائِبِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَنَوْعٍ فَرْدٍ وَشَكْلٍ غَرِيبٍ !

نَعَمْ :

مَنْ قَامَكُمْ بِسِوَاكُمْ * قَاسَ الْبَعَارَ إِلَى الثَّمَادِ !

أَعْلَى الْأَنَامِ فِي الْعُلُومِ قَدْرًا ، وَإِمَامِ النُّحَاةِ مِنْ عَهْدِ سَيِّوَيْهِ وَهَلُمَّ جَرًّا ، وَشَيْخِ
الْعُرُوضِيِّ عَلَى الْحَقِيقَةِ بَرًّا وَبَحْرًا :

وَشَيْخِ سَيِّحُونَ وَالنَّيْلِ وَالْفُرَاتِ وَدِجْلِهِ ،

وَشَيْخِ جَيْحُونَ أَيْضًا ، * وَشَيْخِ تَهْرِ الْأُبْلَةِ !

إِى وَاللَّهِ :

أَقُولُهَا لَوْ بَلَغْتَ مَا عَسَى : * الطُّبْلُ لَا يُضْرَبُ تَحْتَ الْكُفَا !

لَا تَجِبْ لِعَطْرِ بَعْدَ عُرُوسٍ ، أَنْتَ أَعُوْمُ فِي بُحُورِ الشَّعْرِ مِنْ ابْنِ قَادُوسٍ ، وَأَصْلَحُ
إِذَا حَدَّثْتَ مِنْ صَالِحِ بْنِ عَبْدِ الْقُدُوسِ ، وَأَنْتَهَى إِذَا هَزَلْتَ مِنْ ابْنِ حِجَّاجٍ إِلَى
النُّفُوسِ :

وَلَوْ أَنَّ بَحْرَ النَّيْلِ جَارَكَ مَا زَحَا * وَحَقَّكَ مَا اسْتَحْلَى لَهُ النَّاسُ زَائِدًا !

نَعُودُ إِلَى مَا كُنَّا فِيهِ مِنْ وَصْفِ النَّيْلِ ، وَذِكْرِ حَالِهِ الَّذِي أَصْبَحَ كَمَا قَالَ ابْنُ
عَبْدِ الظَّاهِرِ : كَوْنِهِ جَمِيلٌ ؛ : فَلَوْ رَأَى مَوْلَانَا وَقَدْ هَجَمَ عَلَى مِصْرٍ بِفَاسٍ خِلَالَ الدِّيَارِ ،
وَدَخَلَ إِلَى الْمَعْشُوقِ فَذَكَرَهُ كَالْمَاشِقِ الْمَهْجُورِ لَمْ يَرْمَنْهُ غَيْرُ الْآثَارِ ؛ لَبَكَّى بَعْنَى عُرْوِهِ ،
وَأَوَى مِنَ الرُّصْدِ وَقَدْ تَفَجَّرَتْ مِنْ صَلَاحِهِ عَيُونَ النَّزْلِ إِلَى رَبْوِهِ ؛ أَوْرَنَّا لِرُوضِ الْجَزِيرَةِ
وَقَدْ خَلَعَ حِلَاهُ ، وَتَحَلَّخَتْ عَرَائِئُ أَشْجَارِهِ عَلَى الْحَالِينَ بِالْمِيَاهِ . وَالنَّيْلُ وَقَدْ قُتِنَتْ
مُلَاكُمُهَا سَحِينَ فَتَكَ - بِالْأَسْفِ - وَجَفَّ أَحْمَرُ ثَمَرِهَا وَأَضْفَرَهُ فَأَرَانَا الْعَنَابَ وَالْحَشَفَ .
وَالْخَبْرَةُ وَقَدْ قُلْتُهَا : تَبَا لْجَارِكَ النَّيْلِ إِذْ أَنْفَسَ لِكَ صُورَةٍ وَمَعْنَى ، وَسَكَنَ مَغَانِيكَ فَسَقَى

دِيَارَكَ بغيرِ أَسْتِثْنَا . وَقَرَاهَا الْقَرْيَةُ . وَقَدْ قُلْتُ لَهَا : حِينَ أَوْتِ إِلَى أَعَالِي الْأَرْضِ هَرَبًا
 مِنَ الْمِيَاءِ ، وَأَعْتَصَمْتَ بِالْجَبَلِ الْغَرَبِيِّ : لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ . وَكُلَّ سَفِينَةٍ
 وَقَدْ عَلَتْ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ ، وَأَرْتَقَتْ لَارْتِقَاءِ الْبَحْرِ إِلَى أَنْ اخْتَلَطَتْ بِالسَّمَاءِ ؛ وَقَدْ
 قَالَتْ لَهَا أَتْرَابُهَا عِنْدَ الْفِرَاقِ : إِلَّا تَرَجِعِي ، وَقُلْنَا لَهَا نَحْنُ عَلَى سَبِيلِ التَّمَاوُلِ : يَا سَمَاءُ
 أَقْلَابِي ، وَالتَّيْلُ تَبْدُو عَلَيْهِ الْقُلُوعُ خَافِيَةٌ لِبُعْدِهَا فَكَأَنَّهَا إِنْجِيَامُ بَذَى طُلُوحٍ ، وَجَارَ عَلَى
 النَّاسِ بِطُغْيَانِهِ فَكَأَنَّمَا هُوَ أَخُو فِرْعَوْنَ مِصْرَ أَوْ ابْنُ طُوفَانَ نُوحَ .

فلقد طَارَ النَّسْرُ مَبْلُولُ الْجَنَاحِ ، وَدَنَا نَهْرُ الْحَجَرَةِ مِنَ السَّكَارَى بِالشَّغَايِثِ إِلَى أَنْ
 كَادَ يَدْفَعُهُ مِنْ قَامٍ بِالرَّاحِ . وَتَرَجَّسَ الْبَسَاتِينِ وَقَدْ أَيْضُتْ عَيْنَاهُ مِنْ الْحُزَنِ فَهُوَ
 كَطِيمٍ ، وَفَارَقَ أَحْبَابَهُ مِنَ الرِّيَاحِينَ وَلَمْ يَبْقَ لَهُ غَيْرُ الْقَلَانِسِ صَدِيقٌ وَغَيْرُ الْمَاءِ حَمِيمٌ .
 وَالْوَرْدُ وَقَدْ قِيلَ لَهُ : مَا لَكَ مِنْ آسٍ ، وَغُصْنُ الْبَابِ وَقَدْ قِيلَ لَهُ : طُوبَى لِمَنْ عَاقَقَكَ
 وَلَا بَاسَ . وَالْأَسْمَاكُ وَقَدْ أَلْجَهُمُ الْعَرَقُ ، وَالْقُلُقَاسُ وَقَدْ شَكَا شَكَاؤِي أَبْنَ قَلَاقِسَ
 وَأَيَّتَهُ مِنَ الْفَرَقِ . وَالْقَصَبُ بِالْحَيْزَةِ وَقَدْ شَرِبَ مَاءَ التَّرْتَفُوهِ بُلْسَ الشَّرَابِ ، وَالْقَصَبُ
 بِبُؤْلَاقٍ لَمْ يُنْجِجْهُ مِنْ مُشَاهَدَةِ الْفَرَقِ إِلَّا كَوْنُهُ غَابَ ، وَالْقَارِسِيُّ بِالْبَسَاتِينِ وَقَدْ تَرَجَّلَ
 وَوَقَعَ فَارَانًا كَيْفَ تَكْمِيرِ الْأَقْصَابِ ؛ وَقِيلَ لِلْآسِ : عَالِجُ حَيْرَانِكَ بِالْفَيْطَانِ فَالْنَّاسُ
 بِالنَّاسِ ، وَبَادِرٌ إِلَى تَجْبُرٍ مَا كُسِرَ فَالْحَاجَةُ تَدْعُو الْمَكْسُورَ فِي الْحَالَيْنِ إِلَى الْآسِ .

هَذَا وَأَنَا مُقِيمٌ بِالرَّوْضَةِ إِذْ زَهَتْ عَلَى سَائِرِ الرِّيَاضِ ، وَسَلِمَ جَوْهَرُ حَبَائِثِهَا مِنْ
 أَكْثَرِ هَذِهِ الْأَغْرَاضِ ؛ وَإِنْ آخَلْتُ بِالْأَسْتِثْنَاءِ فَهُوَ عَيْنُ الصَّعَةِ كَمَا يُنْسَبُ السَّقَمُ
 إِلَى الْعُيُونِ الْمِرَاضِ ، أَوْ كَمَا قَالَ الْمَلُوكُ قَدِيمًا مِنْ قَصِيدَةٍ فِي بَعْضِ الْأَغْرَاضِ :

وَقَائِلُ : فِي لِحَاطِ الْغَيْدِ بَاقِيَةٌ * مِنَ السَّقَامِ وَمَا ضَمَّتْ خُصُورُهُمْ ،

وفى النسيم فقلت : الأمر مُشْتَبِهٌ * عليك فالزَمِ فانت الحاذقُ القهْمُ .

قلتُ الصَّحيحَ ولكِنِّي بِمُوجِبِهِ * أقولُ : تلك دَوَاةٌ بَرُوها السَّقمُ !

قد أحاط بها النبلُ إحاطة المَرَّاشِفِ بالآ ، فأشرقت ضياءً بين رُزْقته فكأنَّها
البدر في كبد السماء :

بصحنٍ حَذَّ لم يَفْضْ مأوهُ * ولم تُحْضَهُ أَعْيُنُ النَّاسِ !

مُتَعَطِّشٌ مع هذا الطوفان لرباك ، مُتَشَوِّفٌ وإن كنت مُعَاذِلُ النُّجُومِ الأَرْضِيَّةِ
والسَّيَّائِيَّةِ يا بَدْرُ لِرُؤْيَاكَ ؛ لِكِنِّي يُسَلِّبُنِي أُنَى مَا نَظَرْتُ إِلَى النَّيْلِ إِلَّا رَأَيْتُكَ مِنْ سَائِرِ
الجلهات ، وَلَا تَحْتُ بِيُوتَ الْبَحْرِ بِلِ الْبُحُورِ إِلَّا رَأَيْتُكَ عِمَارَةَ الأَبْيَاتِ :

وَلَا تَمَمْتُ بِشُرْبِ الْمَاءِ مِنْ عَطَشٍ * إِلَّا رَأَيْتُ خَيَالًا مِنْكَ فِي الْمَاءِ !

ولَكِنِ اللَّيْلَانِ لَطِيفٌ مَعْنَى * لَهُ طَلَبُ الْمَشَاهِدَةِ الْكَلِيمِ !

فَهَلُمَّ إِلَى التَّمَتُّعِ بِرُؤْيَا هَذَا النَّيْلِ الَّذِي لَمْ تَرَمْتَلْهُ الْعُيُونُ ، وَالنَّظَرِ إِلَى سَائِرِ الْخُلُوقَاتِ
لِعُمُومِهِ وَكُلِّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ؛ فَلَيْسَ يَطِيبُ لِلتَّامِيزِ رُؤْيَا هَذَا الْبَحْرِ بِغَيْرِ رُؤْيَا
شَيْخِهِ ، وَلَا يَلْذُّ لَهُ التَّمَلُّ بِمَشَاهِدَةِ هَذَا الْفُلْكِ مَا لَمْ يُشْرِقْ وَجْهُهُ وَذِمَّتْهُ بَدْرُهُ وَمَرَّيْنُهُ ؛
فَمَا هَذَا الْإِهْمَالُ ؟ ، وَلَيْتَ شِعْرِي يَا أَدِيبُ تَسَاوَلْتُكَ بِأَيِّ الْأَعْمَالِ ؟ ، أَبَا لَكَاةٍ ؟
فَلْتَكُنْ فِي هَذَا النَّيْلِ الَّذِي هُوَ كَالطَّلْحَةِ بِغَيْرِ مِثَالٍ ، أَوْ بِالنَّوْثِ وَالنَّظْمِ ؟ ففِي هَذَا الْبَحْرِ
الَّذِي مِنْهُ تُؤْخَذُ الدُّرَرُ وَفِيهِ تُضْرَبُ الْأَمْثَالُ ؛ وَلَقَدْ وَلَدَ فِيهِ الْفِكْرُ لِلْمَمْلُوكِ ، كَيْفَ
تَصَادُّمِ الْأَكْفَاءِ وَقَهْرِ الْمَمْلُوكِ لِلْمُلُوكِ ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يُسْمَعْ فِي مَمْلَكَةِ الْإِسْلَامِ ، وَلَا وَرَجَ
فِي مَامٍ مِنَ الْأَعْوَامِ ؛ بِمِثْلِ هَذِهِ الزِّيَادَةِ الرَّائِدَةِ ، وَالْجُرْحِيِّ عَلَى نَحْرِ الْعَادَةِ الَّتِي لِأَجْعَلَ

الله بها صلة ولا منها عائد ؛ و غاية ما وصل إليه في الماضي من عشرين : فضيق
بسعته المسالك ؛ وأوجب المهالك ، وتطرق تطرق أهيل الجرائم والفساد فقطع
الطريق على السالك ، وأحوج مرات إلى الاستضعاء لا أحوج الله لذلك .

ودليل ما شمل به من الفساد ، وما عامل به البلاد وأهل البلاد ؛ ما قاله أدباء كل
عصر ، عند ما أبيع لأسافر في مدّ عرضة القصر .

فمن ذلك ما قاله مولانا القاضي الفاضل ، وما هو رحمه الله إلا بحر طفع دُرّه ،
فله دُرّه ، من رسالة :

ورود مثاله يتضمن نبأ سطوره العظيمة أمر طوفان النيل التي كانتا جدّ أوله ،
وأنه جاد لمؤمله بنفسه التي ليس في يده غيرها فليتق الله سائله

ومنها : ولم يزل يجرى مستقره ، ويضمه شيئاً فشيئاً إلى أن أدرك آخره قوله ؛
حتى إذا تكامل سؤ أمواجه حالاً على حال ، وتور أفاصي الأرض من بنية المقياس
فادناها النظر العال ؛ فلم يترك بقعة كانت من قبل فارغة إلا وكلها عند نظره ماق ،
وليت هواء المعتل كان عدلاً فعمل كل غدير ما أطاق ؛ وطالما جرى بالصفا ولكن
كدر صفاه بهذا المسعى ، والمرجو من الله أن يتلو ما أفسده هذا الماء ما يصلحه
نُروج المرعى .

وما قاله القاضي محي الدين بن عبد الظاهر ، مَقَى الله تلك الألفاظ النبيلة
صوب الماطر :

وئبى إليه أمر النيل الذي سرف أوائله الألفن بأنفس بشرى ، ويقص عليه
نبأ العظيم الذي مايرينا من آية إلهي أنكر من الأخرى ، ويصف له ما ساقه
إلى الأرض من كل طليعة . إذا تنفس الليل تحرق صبحها وتقرئ ؛ فهو وإن كان

خَصَّ اللهُ الْبِلَادَ الْمِصْرِيَّةَ بِوَفَائِهِ ، وَأَغْنَىٰ بِهَ قُطْرَهَا عَنِ الْقَطْرِ فَلَمْ يَخْتِجْ إِلَىٰ مَدِّ
كَافِهِ وَقَائِهِ ، وَزَرَعَهُ عَنِ مِنَّةِ النَّهَامِ الَّذِي هُوَ إِنْ جَادَ فَلَا بُدَّ مِنْ شَهَقَةِ رَعْدِهِ وَدَقَقَةِ
بُكَائِهِ ، فَقَدْ وَطِئَ بِإِلَادِهَا بَسْكَرِهِ الْعَجَّاجَ ، وَزَاوَمَ سَاحَتَهَا بِأَفْوَاجِ الْأَمْوَاجِ ؛ فَعَمِلَ
فِيهَا بِذِرَاعِهِ ، وَدَارَ عَلَيْهَا بِخَنَاقِهِ وَتَحَلَّلَهَا بِزِرَاعِهِ ، وَحَمَلَهَا عَلَىٰ سَوَارِي الصَّوَارِي تَحْتَ
قُلُوبِهِ وَمَا هِيَ إِلَّا عُصْدُ قِلَاعِهِ ؛ وَزَارَ زَرَائِي الدُّورِ الْمَبْتُوثَةِ ، وَجَاسَ خِلَالَ الْحَنَائِي
كَأَنَّ لَهُ فِيهَا خَبَايَا مُورُوثِهِ ؛ وَمَرَّقَ كَالسَّهْمِ مِنْ قَنَاطِرِهِ الْمُنْكُوسَةِ ، وَعَلَا زَبْدَ حَرَكَتِهِ
وَلَوْلَاهُ ظَهَرَتْ فِي بَاطِنِهِ مِنَ الْأَقْفَارِ وَالنُّجُومِ أَشِعَّتُهَا الْمَعْكُوسَةِ ؛ وَحَمَلَ عَلَىٰ بُرْكَتِهِ
الْفِيلَ حَمْلَ الْأَسْوَدِ عَلَى الْأَبْطَالِ ، وَجَعَلَ الْمَجْنُونَةَ مِنْ تِيَّارِهِ الْمُتَحَدِّرِ فِي السَّلَاسِلِ
وَالْأَغْلَالِ ؛ وَالْمَرْجُوحُ مِنَ اللَّهِ أَنْ يُزِيلَ أَذَاهُ ، وَيُعِيدَ عَلَيْنَا مِنْهُ مَا عَاهَدَنَا ؛ فَإِنَّ لَهُ الْإِيَابَ
الْأَكْبَرَ ، وَفِيهِ الْعَجَائِبُ وَالْعَبْرَ ؛ فَهَا وَجُودُ الْوَقَاءِ ، عِنْدَ عَدَمِ الصَّفَاءِ ، وَبُلُوغُ الْحَرَمِ ،
إِذَا أَحْتَدَمَ وَأَصْطَرَمَ ؛ وَأَمِنْ كُلِّ فَرِيقٍ ، إِذَا قَطَعَ الطَّرِيقَ ، وَفَرِحَ قُطَّانُ الْأَوْطَانِ ،
إِذَا كُسِرَ وَهُوَ كَمَا يُقَالُ : سُلْطَانٌ ؛ إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ خَصَائِصِهِ ، وَبَرَائِهِ مَعَ الزِيَادَةِ
مِنْ قَنَائِصِهِ ؛ طَالَمَا فَتَحَ أَبْوَابَ الرَّحْمَةِ بِتَعْلِيْقِهِ ، وَقَازَ كُلَّ أَحَدٍ عِنْدَ رُؤْيَا مَائِهِ
الْمُعْصِفَ بِتَخْلِيْقِهِ .

وَمَا قَالَهُ الْمَوْلَى زَيْنُ الدِّينِ عُمَرُ الصَّفَدِي تَقَمُّدَهُ اللَّهُ بِعَفْوِهِ ، وَجَمَعَ لَهُ بَيْنَ حَلَاوَةِ
الْكُوثَرِ وَصَفْوِهِ :

وَأَمَّا النَّيْلُ فَقَدْ أَخَذَ الدَّارَ وَالسَّكَانَ ، وَقَالَ ابْنُ الْحَامِلِ كَمَا قَالَ ابْنُ النَّبِيِّ : الْأَمَانُ
الْأَمَانُ ، وَبَكَى النَّاسُ عِنْدَ مَا رَأَوْهُ مُقْبِلًا عَلَيْهِمُ بِالطُّوفَانِ ؛ وَأَنْسَابَتْ أَرَاقِمُ غُدْرَانِهِ
فِي الْإِفْلَامِ فَابْتَلَمَتْ غُدْرَانَ أَرَاقِيهِ ، وَمَحَا سَيْلُهُ الْمَتَدَقِّ مَعَالِمَهُ الْمَجْهُولَةَ فَاسْتَعْمَلَ
الْأَفْلَامَ فِي إِثْبَاتِ مَعَالِمِهِ ؛ وَأَحَاطَ بِالْقُرَى كَالْمُحَاصِرِ فَضَرَبَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ السَّمَاءِ بِسُورٍ ،
وَأَخَذَ الطَّرِيقَ عَلَى السَّالِكِينَ فَلَا مَرَكِبَ إِلَّا الْمَرَاكِبُ وَلَا عَاصِمَ إِلَّا الْبُحُورُ .

وما قاله السيدُ ابنُ كاتبِ المَرْجِ ، نُصْرَةُ الأقباط ، وأحدُ عمِدِ الشَّعرِ المشهورةِ
بالْفُسْطاطِ ، فما أَطْيَبَ مدائِحه النُّبُوَّةِ التي جعلها سُورًا بينه وبين النارِ ، وما أَجْمَبَ
رِثاقه : جعل الله قَبْرَهُ بِالرَّحْمَةِ كالرُّوضِ غِيبِ القِطَارِ !!! :

يَا نَيْلُ يَا مَلِكَ الأنْهَارِ قَدْ شَرِيتَ * مِنْكَ الْبَرَايَا شَرَاءً طَيِّبًا وَغَدَاً ،
وَقَدْ دَخَلْتَ الْقُرَى تَبْنِي مَنَافِمَهَا * فَمَعَهَا بَعْدَ قَرْطِ النِّعَمِ مِنْكَ أَكْثَى .
فَقَالَ : يَذْكُرُ عَنِّي أَنِّي مَلِكٌ * وَتَعْتَدِي نَاسِيًا : إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا !

وما قاله شيخنا الشَّيخُ جمالُ الدينِ بنُ تَبَّاتِه الذي أُلَاعِنَهُ مِنَ الْآدَابِ جَوَانِحُ
تَظْلِمِهَا وَتَوَرَّجُهَا ، وَخُفَّتْ لَهُ بِحُورِ الشَّعرِ فَقَالَتْ لَهُ الْآدَابُ : أَخْتَرُ مِنْ دُرِّهَا ، فَسُبْحَانَ
مَنْ يَسِّرُ لَهُ مُمْتَنِعَ الْكَلَامِ وَهَوْنَهُ ، وَجَعَلَهُ مِنَ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ،
فَمَا أَشْفَ دَقِيقُ فِكْرِهِ الْجَلِيلِ ، وَمَا أَكْثَرَ مَا يَضْحَكُ زَهْرُ تَقَاطِيعِهِ عَلَى زَهْرِ مُقْطَعَاتِ
النَّيْلِ ، فَمَا كَانَ إِلَّا مَخْصُوصًا فِي الْأَدَبِ بِحُورِ الْهَيَاتِ ، وَكَلَامُهُ فِي الْعُدُوبَةِ وَالْبَلَاغَةِ
يُزِيدُ بِالْفَرَاتِ وَأَبْنِ الْفَرَاتِ ، وَإِنْ قِيلَ أَيْ أَصْدَقَ كَلِمَةٍ قَالَهَا شَاعِرٌ بَعْدَ لَيْدٍ ، يُقَالُ
قَوْلُ ابْنِ تَبَّاتِه .

فَلَا تَجِبْ لِلْفَيْضِ حِينَ يَحُلُو * فَهَذَا الْقَطْرُ مِنْ ذَلِكَ النَّبَاتِ ! :

وَأَمَّا النَّيْلُ فَقَدْ أَسْوَى عَلَى الْأَرْضِ فَتَبَّتْ فِيهَا قَدَمُهُ ، وَأَمْتَدَّ نَصْلُ تِيَّارِهِ كَالسَّيْفِ
الصَّعِيقِ فَتَقَتْلَ الْإِقْلِيمَ وَهَذَا الْأَجْرَارُ إِنَّمَا هُوَ قَوْمُهُ :

مُزْمِنَتِهَا مِنْ دِمَاءٍ مَا قَتَلَتْ * وَالنَّمُ فِي النَّصْلِ شَاهِدٌ عَجَبُ !

فَلَمْ يَرْكُ وَغَدَاً بَلْ وَعِيدًا إِلَّا وَقَاهُ ، وَلَا وَهْدًا بَلْ جَبَلًا إِلَّا أَخْفَاهُ ؛ أَقْبَلَ كَالْأَسَدِ
الْمُصْوَورِ إِذَا أَحْتَدَّ وَأَضْطَرَمَ ، وَجَاءَ مِنْ سِنِّ الْجَنَابِلِ فَتَحَدَّرَ وَعَلَا حَتَّى بَلَغَ أَقْصَى
الْمَرَمِ ، وَطَامَلَ الْبِلَادَ بِالْخِلَاءِ وَكَيْفَ لَا ؟ . وَهُوَ سُلْطَانٌ جَائِرٌ أَيْدٍ بِالنَّصْرِ ، فَاتِّلَا :

إِنْ كُنْتُ بُلِيتَ بِالْإِحْتِرَاقِ فِي أَرْضِكُمْ فَأَنَا أَفِضُ بِأَنْ أَرِيَّ مِنْ بُرُوقِ تِسَارِي
بَشِيرٍ كَالْقَصْرِ .

هذا وطلعت قابلتنا قبلها بوجه جميل، وسمعنا عنه كل خبر خير ثابت ويزيد كما قال
جميل، وكل بديع من آثار جود يصبغ القرى فيخضر بخلاف المشهور عن صبغة
الليل، وطلعت خصصناه بدعاء فكانت الراحة به كقياسه ذات بسطة، وتنازل
الخصب بقدمه المبارك ذات غبطة، ومنحناه بولاء وشاء هذا يدور من الإخلاص
بفلك وهذا يعذب من البحار بنقطة، ثم ورد إلى البلاد صيقا ومعه القرى، وكم أتى
مرسلا بمعجز آيات الخصب إلى أهل القرى، فهو جواد قد خلع الركن، ساهر
في مصالح الخلق وقد ملأ الأمن أجفانهم بالوسن، جامع لأهل مصر من سقياه
ومرعاه ووجهه بين الماء والخضرة والوجه الحسن، ثم بات سير مقياسه يشمل
بظله الغائبين والحاضرين، وكم رفع على الوفاء راية صفراء فاقع لوئها تسر الناظرين،
وبلغ وبلغ بحر يرثيार سلامه، وبات الناس بوقائه من حذار الغلاء تحب السمر
والسلامه، وخلق صدر العمود وكيف لا يخلق بشير العباد والبلاد، ودعا مصر لأخذ
زخرفها فسواء قيل: ذات العمود أو ذات العباد، وبسط يده ببركة الماء فيقول:
سلام لك من أصحاب اليمين، وخضب بتانه وأقسم بحصول الخير فيقول لمخضوب
البنان يمين، وأشار إلى وصول المذ المتابع، وقبض يده المخلصة على الماء فوقت
وما حابت فروج الأصابع، ونادى رائد الوفاء ولكن كم حياة في الأرض لمن ينأى،
وتمت أصابع الزيادة وتمت حتى قال الناس: ما ذى أصابع ذى أيادي .

هذا وقد قرئت زراي الدور المبتومة بالتمارق، وقال المقياس: تغطت منها
الدرج فمال الرجاء وظهرت الدقائق، فهو جم المتافع، عذب المتابع، يسافر الحقيقة
والهجاز إليه بالأصابع .

فأعاده الله إلى ذلك النفع المعهود ، وأَرَاتَا مِنْهُ الْأَمَانَ مِنَ الطُّوفَانِ إِلَى أَنْ تَرِدَ
الْحَوْضَ الْمُرُودَ ؛ وَكَفَّنِي أَهْلَ مِصْرَ هَذِهِ الْمِصْبِيَةِ الَّتِي إِذَا أَصَابَتْهُمْ قَالُوا :
إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، وَلَا أَبْتَلاَهُمْ بِمِثْلِ مَا أَبْتَلَى بِهِ قَوْمًا جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ
فِي آذَانِهِمْ وَأَسْتَنْغَشُوا نِيَابَهُمْ فَلَمَّا يَسْتَعِثُّ نِيَابَهُ مِنْهُمْ الْفُقَرَاءُ فِي الْمَطَرِ وَيَعْمَلُ
أَصَابِعُهُ فِي آذَانِهِ مِنْهُمْ الْمُؤَذِّنُونَ ؛ اللَّهُمَّ إِنَّكَ وَلِيُّ النِّعْمَةِ ، وَأَوَّلَى بَرَحْمَةِ خَلْقِكَ مِنْ
قِيَاضِ هَذِهِ الرَّحْمَةِ .

وما قاله صَاحِبُنَا الشَّيْخُ شَهَابُ الدِّينِ بْنِ أَبِي حَجَلَةَ الَّذِي كَانَ أَغْرَبَ مِنْ زُرْقَاءِ
الْجَمَامَةِ ، وَأَعْجَبَ إِذَا رَكِبَ بَقْلَتَهُ وَزُرْزُورَهُ مِنْ أَبِي دُلَامَةٍ ؛ الْأَدِيبُ الَّذِي كَانَ حُجَّةَ
الْعَرَبِ ، وَالنَّائِثُ الَّذِي كَانَ يَنْسِبُهُ إِلَى الطُّيُورِ مُحَرِّكَ الْمَنَاطِقِ وَإِلَى الشَّعْرِ صَنَاجِدَ
الْأَدَبِ ، وَالنَّاظِمُ الَّذِي كَانَ إِذَا أَتَشَدَّ مَقَاطِعِهِ فِي التَّشْيِيبِ فَاقَ عَلَى الْمَوَاصِلِ ذَوَاتِ
الطُّرُبِ ؛ وَالصَّدِيقُ الَّذِي كَانَتْ مِنْهُ عَوَائِدُ الْوَفَاءِ مَأْلُوفُهُ ، وَشَيْخُ الصُّوفِيَةِ الَّذِي
لَا تَعْجَبُ إِذَا كَانَتْ لَهُ الْمَقَامَاتُ الْمَوْصُوفَةُ ؛ أَسْكَنَهُ اللَّهُ فَنِيسَجَ الْجَنَانِ ، وَخَصَّ ذَلِكَ
الْوَجْهَ الْجَمِيلَ بِالْعَارِضِ الْهَتَّانِ ؛ مِنْ مَقَامَتِهِ الرَّعْفَرَانِيَّةِ عَنْ أَبِي الرَّيَاشِ :

فَأَعْتَقْتُهُ لَدَى السَّلَامِ ، وَقُلْتُ : مَا وَرَأَاكَ بِأَعْيَاصِمَ ؛ فَقَدْ بَلَدْنَا أَنْ النَّيْلَ تَرَايَدَ
دَفْعُهُ ، وَأَدَّى إِلَى الضَّرَرِ نَفْعُهُ ؛ فَقَالَ : خُذِ الْعَفْوَ ، وَلَا تُكَدِّرْ بِذِكْرِ النَّيْلِ الصَّفْوَ ؛
فَقَدْ أَمْتَرَجَ بِالْمُعْصِرَاتِ نَجَاجُهُ ، وَأَعْيَى طَيْبَ الْفِطَانِ عِلَاجُهُ :

وَشَرَّقَ حَتَّى لَيْسَ لِلشَّرْقِ مَشْرِقٌ * وَغَرَّبَ حَتَّى لَيْسَ لِلْغَرْبِ مَغْرِبٌ !

قُلْتُ : فَمَا فَعَلَ النَّفِيرُ ، بِمِزْرَةِ الطَّلِيدِ ؛ قَالَ : لَمْ يَبْقَ بِهَا هَائِفٌ يُبَشِّرُ بِالصَّبَاحِ ،
وَلَا سَاجٍ يَسْعَى بِرِجْلِ وَلَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحٍ ؛ إِلَّا اتَّخَذَ تَفَقُّاً فِي الْأَرْضِ أَوْ سَأَمًا فِي السَّمَاءِ ،
أَوْ أَوَى إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُهُ مِنَ الْمَاءِ ؛ فَادَّاقَ بِهَا الْحَمَامَ الْجَمَامَ فِي الْمَرْوِجِ ، وَتَرَكَ أَرْضَهَا

كسَاءِ مَالِهَا مِنْ قُرُوجٍ، وَتَلَا عَلَى الْحَمَامِ : ﴿أَيُّهَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ﴾ . وَكَمْ فِي سَمَاءِ مَائِهَا مِنْ تَسْرِ وَاقِعٍ، وَبُومَةٍ تُصَفِّرُ عَلَى دِيَارِهَا الْبَلَاغِ :
وَمَنْهَلٍ فِيهِ الْغُرَابُ مَيَّتٌ * سَقِيَتْ مِنْهُ الْقَوْمُ وَاسْتَقِيَّتْ !

قُلْتُ : فِئْصَرٌ؟ قَالَ : زَحَفَ عَلَيْهَا بَسْكَرُهُ الْجَرَّارُ، وَنَفِطَ مَائِهِ الطَّيَّارُ .
قُلْتُ : فَالْجِيَرَةُ؟ قَالَ : طَفَى الْمَاءُ حَتَّى عَلَا عَلَى قَنَاطِرِهَا وَتَجَسَّرَ، وَوَقَعَ بِهَا الْقَصَبُ مِنْ قَاتِيَتِهِ حِينَ عَلَا عَلَيْهِ الْمَاءُ وَتَكَسَّرَ؛ فَأَصْبَحَ بَعْدَ اخْضِرَارِ بَرْثِهِ شَاخِبَ الْإِهَابِ، نَاصِلَ الْخِضَابِ، غَارِقًا فِي قَعْرِ بَحْرِ يَنْشَأُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَحَابٍ؛ وَقَطَعَ طَرِيقَ زَاوِيَتِهَا عَلَى مِنْ بَهَا مِنَ الْمُتَقَطِّعِينَ وَالْقُرَّاءِ، وَتَرَكَ الطَّلَاجَ كَالصَّالِحِ يَمْتَشِي عَلَى الْمَاءِ؛ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ، أَلَا يَدْخُلُهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ؛ وَأَذْرَكَهُمُ الْفَرْقُ فَأَنَابُوا مِنَ الْخِلَاصِ، وَعَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا عَشِيَهُمْ وَلَاتَ حِينَ مَبَاصٍ؛ وَتَرَ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ فَهَلَّتْ قُوَاهُمْ، وَاسْتَغَاثُوا مِنْ كَثْرَةِ الْمَاءِ بِالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ .

قُلْتُ : فَالرَّوْضَةُ؟ قَالَ : أَحَاطَ بِهَا إِحَاطَةُ الْكَيْامِ بِزَهْرِهِ، وَالْكَأْسُ بِجُبَابِ نَحْوِهِ:
فَكَأَنَّا فِيهِ بِسَاطٌ أَخْضَرُ * وَكَأَنَّهُ فِيهَا طِرَارٌ مُنْهَبٌ !

فَلَمْ يَكُنْ لَهَا بَدْفَعُ أَصَابِعِهِ يَدَانِ، وَكَمْ أُنْشِدَ مَرَجُهَا حِينَ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ :
أَعْنَيْتِي كُفًّا عَنْ فُؤَادِي فَإِنَّهُ * مِنَ الْبَيْتِ سَعَى أَتَيْتَنِي فِي قَتْلِ وَاحِدٍ !

قُلْتُ : فَدَارُ النَّحَاسِ؟ قَالَ : أُنْحَسَ حَالُهَا، وَأَفْسَدَ مَا عَلَيْهَا وَمَا لَهَا؛ فَدَخَلَ مِنْ حَامِهَا الطُّهْرُ، وَقَطَعَ الطَّرِيقَ بِالْجَامِعِ الطُّهْرُ؛ فَالْحَقَّ بِجَازِ بَابِهِ بِالْحَقِيقَةِ، وَرَقَى مِنْهُ عَلَى دَرَجَتَيْنِ فِي دَقِيقَةٍ؛ كَمْ أَعْتَرَفَ مَا جَاوَرَهُ مِنَ الْغُرْفِ غُرْفًا، وَأَطْلَقَ مِنْ مَائِهِ الْأَحْمَرِ النَّارَ بِمُورِدَةِ الْخُلُقَا .

قُلْتُ : فَالْخَلِيجَ الْحَارِيَّ ؟ قَالَ : نَحْرَجُ عَسْكَرَ مَوْجِهِ بَعْدَ الْكُثْرِ عَلَى حِمِيهِ ،
وَمَرَقَهُ مِنْ قِيَسَى قَنَاطِرِهِ مُرَوِّقَ السَّهْمِ مِنَ الرِّيمَةِ .

قُلْتُ : قَالِ الْمُنْشَاءُ ؟ قَالَ : أَصْبَحْتُ لِلْبَحْرِ مَقْرَهُ ، بَعْدَ أَنْ كَانَتْ لِلْمَيُونِ قُرَهُ ، وَقِيلَ
لِلْمُنْشَاءِ : أَيْ يُخَيِّئُ هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا قَالَ : يُخَيِّئُهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ، قَدْ مَالَ
عَلَى مَا فَعَلْنَا مِنْ شُؤْنِ الْغَالِلِ كُلِّ الْمَيْلِ ، وَتَرَكْنَا نَتَلَوِّفُ فِيهَا الَّذِي شَفَقْتَاهُ مِصْرَا
بَابِهَا : (يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ) .

قُلْتُ : بِخَزِيرَةِ أَرْوَى ؟ قَالَ : قَدْ أَفْسَدَ جُلَّ مِمَّارِهَا ، وَأَتَى عَلَى مَقَانِهَا فَلَمْ يَدَعْ
شَيْئًا مِنْ رَدِيهَا وَخِيَارِهَا ، أَخْلَقَ دِيَابَجَةً رَوَّضَهَا الْأَنْفُ ، وَتَرَكَ قُلُقَاسَهَا فِي الْجُرُوفِ
عَلَى شَفَا جُرُوفٍ :

بَعْنِي رَأَيْتَ الْمَاءَ يَوْمًا وَقَدْ جَرَى * عَلَى رَأْسِهِ مِنْ شَاهِقٍ فَتَكَسَّرَا !

طَالَمَا تَضَرَّعَ بِأَصَابِعِهِ إِلَى رَبِّهِ ، وَلَعَلَّ بَرْؤَيْسَهُ الْخِيطَانَ مِمَّا جَرَى مِنَ الْمَاءِ
عَلَى قَلْبِهِ ، وَتَمَثَّلَ بِقَوْلِ الْأَوَّلِ :

وَإِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ قَلْبِي وَمَا قَامَنِي * قُلْتُ : قَامَنِي ، وَقُلْتُ : قَامَنِي ، وَقُلْتُ : قَامَنِي !!!

لَمْ يُفِضْهُ تَحْصَنُهُ مِنْ وَرَقِهِ بِالْدَّرَقِ وَالسَّنَائِرِ ، وَلَا حَنَّ عَلَيْهِ سَيِّئَ تَضَرَّعَ بِأَصَابِعِهِ
فَصَبَحَ أَنَّ الْمَاءَ سُلْطَانُ جَائِرٍ .

قُلْتُ : فَخِزْكَ ابْنُ الْأَثِيرِ ؟ قَالَ : لَمْ يَتَّقِ مِنْهُ غَيْرَ الثُّلُثِ وَالثَّلْثُ كَثِيرٌ ، قَدْ انْخَمَلَ
مِنْ دُورِهِ تَمَائِلُهَا ، وَجَعَلَ عَالِيَهَا سَاقِلَهَا ، فَكَمْ دَارٍ أَهْدَمَ صَاحِبُهَا قَرَارَهُ ، وَفَادَى
فِي عَرَصَاتِهَا الْمُتَدَاعِيَةَ : لِأَيِّكَ أَهْنَى فَاسْتَمْتِ بِإِجَارِهِ ، فَأَصْبَحَتْ بَعْدَ نَفْسِهَا قَلِيلَةً
الْجَدَا ، مُسْتَوَلَّةٌ عَلَيْهَا يَدُ الرَّؤْيِ ، شَبِيهَةٌ بِدَارِ الدُّنْيَا لِأَنَّهَا دَارُ مَتَى أَصْحَكَتْ فِي يَوْمِهَا
أَبْكَتْ غَدَاً .

قلت : فبولاق ؟ قال : إِملاق ، قد أُنْقِطَ منها من الزَّلقِ السَّاقِ بالسَّاقِ ، فأتى
من النُّوتية على الصَّغير والكبير ، ومن المراكب وتمرَّها على النِّير والقَطِير .
هذا بعد أن تركَّ جامع الخطيرى على خطر ، وحِطَّانَه يَأْمَعَة الثَّمر ، قد دنا قَطائفها ،
وحان يَلافُها ، فكأنى به وقد منع رَفْدَه ، وتلا على عِجْرائِه سورة السَّجْدَه .
قلت : بغزيرة الفيل ؟ قال : أقتلع أشجارها بَشْرُوشِها ، وترك سَواقِها خاوية
على عُرُوشِها .

قلت : فالتاج والسبعة وجوه ؟ قال : هَجَمَ على حُرَيْها ، وعمَّ الوجوه من فَرَفِها
إلى قَدَمِها ، قبلَ تَرى الموتى فى التَّخوم ، وعَنَتِ الوجوه لَمَّى القيوم ، قلت : فما
الحيلة ؟ ، قال : تركَّ الحيلة :

دَعَمَها سَمَويَّةٌ تَجْرِى على قَدَرٍ * لا تُفْسِدُها بِرَأْيِ مِنكَ راضٍ (?)
طالَ السَّكَّاب ، ونَحَرَجنا عن فَضْلِ الحِطَّاب :

ولربِّما ساقُ المُحدِّثِ بعضُ ما * ليسَ النَّدَى إليه بالمُحتاج !
وكأنى بقائل يقول : أليس من الكِبَر أن يَسْتَعِذِمَ هذا فى رسالته مُلوكَ الكلام ،
ومن الحق أن يَحِلَّ عِرائِسُ أَفكارِه بما للناس من حَلِّ التَّثارِ والنِّظام ، فأقول :
مُسَلِّمٌ أن كلَّ ما أوردته دُرٌّ وجَوَاهِر ، وعُقودُ كَرَمِ الرِّبيع عيونُ وجُوهِها النواضر
نواظر ، وَلَكِنها هاهنا أمثل ، وجمَع شَمِليها على هَذى العُروس أجمَل :
* وفى عُنقِ الحِستاءِ يُسَحَّضُ العِقدُ ! *

وعلى الجُملة فيرجع الملوك إلى التَّواضُّع وهو الألبق بالأدب ، فيقول : لا عَيْبَ
على الفقيرة إذا تَجَمَّلَتْ بِمُحَلِّ الغَنِيِّه ، ولا مَرَّ على الجَوهرِىِّ إذا نَظَّمَ سِلْكا كانت
دُرُّه على الطُّرُق مَرْمِيه ، ونَرْجِعُ إلى ما ولَّده الفِكرُ من عَجَبِ البَحْرِ ، وما ظهر من دَفْعِ

الملوك لأمتالها عن جريها إلى غاياتها بصُور القمر، فاقولُ : إنما قالت الأدباءُ ذلك لما جرى من جور النيل على الأرض، ولما عم الناس من الإزجاف بطول أذاه وهرجه فكأنما هم في يوم العرض ؛ وكل ذلك وما وصل إلى هذا الارتفاع ، وربما كان أنقص من هذه الزيادة بقريب الذراع .

وعلى هذا القياس إنما دفع ضرره، وبجل في البلاد أثره، وحسن في السماء خبره وفي الأرض محبته ؛ السرى الذي أهتاه بالمعروف معروف ، وميف الدين الذي سهر في مصالح الرعايا لما تنام ملء أجفانيا السيف ؛ أتاك العساكر، والملك الذي هو بالإسلام وله منصور وناصر؛ حصن سائر الكوى بالحُصور، وركز على أفواه البحر والخليج الأمراء كما يركز المجاهدون على الثغور؛ وقابل البحر من سطواته بما ليس له به قبل ، وردّ دفعه بكل دفع من الرأي والتدبير يفتي عن البيض والأسل ؛ وحاربه بجيش عزم إلى أن ولّى هارباً مع التراجع والقتاطر، وجاهدته بجند زكّهم على جوانبه لما تحقق أن البحر سلطان جائر؛ وحصره بالتضييق عليه كما تُحصر البرك والتراجع، وظلّ يده عن التصرف فسقاه الموت كما سقى الناس أنواع التراجع؛ فما هو إلا أن تضامل بينان سطواته وأحترق، وذلّ خاضعاً وكفى به تضرعاً بالأصابع وتوسلاً باللقى، وأطاع لما لم تُحبه مجاهرته من تياره بالسيف ولا تحصنه من داراته بالدق .

على أنه تطاول يُضاهي بأصابعه جود أيديه فقصر، وتحمّس فركب خيل خيلانه ليماكي بأسه فوق من جُصور عجيّه وتقطر، وسمت نفسه كبيراً لأن يبلغ قدره قليل : يا بحر هذا خليفة الله في أرضه والله أكبر ؛ نعم :

رأى البحر الخضم نداه طام * يفيض على الورى منه بحار،

فصار البحر ملطاً وأحمى * على الحالين ليس له قرار!

فلوزدت في أيام غيره من الملوك المترفين ، وفيمن يؤثر ملاذ نفسه على مصالح
المسلمين ؛ كنت أيها الملك بلغت قصدك ، وفعلت في أبناء مصر كجهنك ؛ وكنت
من الملوك الذين إذا دخلوا قرية آتعلوا فيها الأهله ، وأفسدوها وجعلوا أغرة أهلها
أذله ؛ لكن هب قبولك إدارا ، ولاقت ربحك إعصارا ؛ فليس لك به قبيل ،
”والسبل أدرى بالجبل“ ؛ فالك سبل إلى بلاده ، ولا طاقة بآباب انخير على عاده ؛
فانه خادم الحرمين ، والمذعور له حتى في مواقف الحرب بين العلمين ؛ حامى السواحل
والثغور ، والمخدوم بأبى السحاب وأصابع البحور ، وإن كنت يا أبا خالد أبا جعفر
فلس بمتصور ؛ والرأي أن تقف مستغفرا ، وتقول متينا ؛ : لم أفرط بالزيادة
في أيامه ، ولم أفض على طرف الميدان إلا لأفوز بتقيل آثار جواد خيله ومواطن
أقدامه ؛ وتبشع نواحيه وتمتثل أوامره ، وتدعوله كالزعايا بطول البقاء في الدنيا
وحسن الثواب في الآخرة .

ونحن نسأل الله كما بلغ بك المنافع ، أن يرينا كوكب نورك عن قريب راجع ؛
وكما أغنى بزيادتك عن الاستسقاء ، لا ينجونا في قصبك إلى الاستسقاء ؛ إنه سميع
مجيب الدعاء ؛ بمنه وكرمه .

الفصل الثالث

من الباب الأول من المقالة العاشرة (في قدمات البندق)

جمع قديمة بكسر القاف وسكون الدال المهملة، وهي رسائل تشتمل على حال الرمي بالبندق، وأحوال الرماة، وأسماء طير الواجب، وأصطلاح الرماة وشروطهم. وهذه نسخة قديمة، كتب بها شيخنا الشيخ شمس الدين محمد بن الصائغ الحنفي الأديب رحمه الله، لصلاح الدين بن المقر المحيوي بن فضل الله، ونصها:

الحمد لله الذي سدد لصلاح الدين سهام الواجب، وشيد بتجارب المطلوب مرام الطالب، وجعل حصول الرزق الشارد بالسعي في المناكب، ومهل المتسرع على القاصدين فما منهم إلا من رجع وهو صائب.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا ولد ولا صاحب، شهادة تزجر طير الإشراف بهذه الأشراف من كل جانب، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي قرّبه فكان قاب قوسين أو أدنى وهذه أعلى المراتب، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين رفقوا في العلاء لمرآق لم يسم إليها طير مراقب، صلاة يسبق بها المصلّي إلى يقاع شريف يُشرق سنّاه في المشارق والمغارب، ويرجع طائرًا بالسُرور ولا رجوع الطائر الشارد إلى المشارب.

وبعد، فإن الصيد من أحل الأشياء وأحلها، وأجلها وأجلها، وأبهرها وأبهرها، وأشهرها وأشهرها، وأغزرها ديمه، وأغرورها ديمه، بورود الطير فيه إلى المناهل تنشرح الصدور، وبوقوعه في سُرور الشرك يتم السُرور، يُحصل عند متاعبه نشاطا، ويزيده أنيساطا، ويُشرح خاطره، ويُسرّح ناظره، ويملا عنه قرة،

وَقَلْبُهُ مَمَرٌ؛ يُشَجِّعُ الْجَبَانَ، وَيُبَيِّتُ الْجَنَانَ، وَيُقَوِّى الشُّهُوءَ، وَيُسَوِّى الْخَطُوءَ؛
وَيُسَوِّى الظُّفْرَ، وَيُسَوِّى النَّظَرَ، وَيُرْوِّى مِنَ الْوَرْدِ وَالصَّدْرَ، وَيَفُوقُ فِيهِ الْخَبَرَ عَلَى
الْخَبَرِ. قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: قَلْبًا يَفْمَشُ نَاطِرُ زَهْرَةٍ، أَوْ يَزِمْنَ حُرَيْغُ طَرِيدَةٍ، يَعْنِي
بِذَلِكَ مَنْ أَدْمَنَ الْحَرَكَةَ فِي الصَّيْدِ وَنَظَرَ إِلَى الْبَسَاتِينِ، فَاسْتَمَعَ طَرْفُهُ بِنَظَرِهَا،
وَأَنْبَقَ مَنَظَرُهَا.

وَمَنْ ذَا الَّذِي يُنْكِرُ لَذَّةَ الْأَصْطِيَادِ، وَالطَّرَبَ بِالْقَنَاصِ عَلَى الْإِطْرَادِ؟ وَلِلَّهِ دَرُ الْقَائِلِ:

لَوْلَا طِرَادُ الصَّيْدِ لَمْ تَكُ لَذَّةٌ * فَتَطَارِدِي لِي بِالْوَصَالِ قَلِيلًا.

هَذَا الشَّرَابُ أَخُو الْحَيَاةِ وَمَا لَهُ * مِنْ لَذَّةٍ حَتَّى يُصِيبَ عَلِيلًا!

يَا حُسْنَهُ مَنْ فَعَلَ آعَنْتُ بِالنَّسِيمِ مَوَارِدَهُ وَمَصَادِرَهُ، وَفَاقَتْ أَوَائِلَهُ فِي سَدَادَةِ
أَوَائِرِهِ؛ وَلِلَّهِ الْقَائِلُ:

إِنَّمَا الصَّيْدُ هِمَّةٌ وَنَشَاطٌ * يُغَيِّبُ الْجِسْمَ صِحَّةً وَصَلَاةً،

وَرَجَاءٌ يُنَالُ فِيهِ سُرُورٌ * حِينَ يَلْقَى إصَابَةً وَنَجَاحًا!

وَمَا أَطْيَبَ الْاِقْتِنَاصَ بَعْدَ الشُّرُودِ، وَكَيْفَ يُرَى مَوْقِعُ الْوَصْلِ بَعْدَ الصُّدُودِ:

وَرَأَدَتْنِي رَغْبَةٌ فِي الْحُبِّ أَنْ مَنَعَتْ: * أَحَبُّ شَيْءٍ إِلَى الْإِنْسَانِ مَا مَنَعَا!

تَقْضِي رِيَاضَاتُ النُّفُوسِ السَّامِيَةَ بِمَعَاطَاةِ كَاسِهِ، وَمُصَافَاةِ نَاسِهِ؛ لَمَّا فَيَهُمُ مِنْ
الْفُتُوهِ، وَكَمَالِ الْمُرُوءِ؛ وَصِدْقِ اللِّسَانِ، وَثَبَاتِ الْجَنَانِ؛ وَطِبِّبِ الْأَخْلَاقِ، وَحِفْظِ
الْمِيثَاقِ؛ لَا يَعْرِفُونَ غَيْرَ الصَّدْقِ وَإِنْ كَانُوا يَمِيلُونَ إِلَى الْمَلَقِ، وَلَا يَتَّبِعُونَ بِصَاحِبِهِمْ
بَدِيلًا يَعْطِفُونَ عَلَيْهِ عَطْفَ النَّسَقِ؛ لَا سِيَّمَا تَعَاطَى صَيْدُ طُيُورِ الْوَاجِبِ، الَّذِي سَنَّهُ
الْأَكْبَرُ وَجَعَلُوا أَمْرَهُ مِنَ الْوَاجِبِ؛ وَتَشَرَّفَتْ بِهِ هِمَّتُهُمُ الْعَالِيَةَ: تَارَةً إِلَى السَّمَاءِ،
وَأُوتَةً إِلَى بَشَارِعِ الْمَاءِ،

لَا يَتِمُّ سُرُورُهُمْ إِلَّا بِرُؤْيَايَةِ تَمَّ كَيْدِ السَّامِ ، وَمِصْبَاحِ الظَّلَامِ ؛ يَفِرُّ مِنْ ظِلِّهِ فِرَارًا ،
وَيُرِيكَ بَيَاضَ لَوْنِهِ وَسَوَادَ مِثْقَالِهِ شَيْئًا وَوَقَارًا ؛ وَلَا يُدَاوِي مُنُومَ لَيْسَمِهِ مِثْلَ كُتٍّ ،
لَا جَنِيحَتَهُ الْخَوَافِقِ فِي الْخَلَاقِقِينَ تَشْرُوطَى ؛ وَلَا تَبْتَهِجُ نَفُوسُهُمُ النَّفِيسَةَ إِلَّا بِأَوْرَةٍ ،
يَزْدَرِي دَلَالُهَا بِالْكَاعِبِ الْمُعْتَرَى ؛ وَلَا يُطْرِبُ أَسْمَاعَهُمْ خَيْرُ لَقَائَاتِ اللَّفْلَقَةِ ، حِينَ تَمْتَدُّ
كَأَنَّهَا مُدَامَةٌ فِي الزَّجَاجَةِ مُفَرَّغَةً ؛ وَلَا يُؤَسِّسُهُمْ إِلَّا الْإِنِّيْسَةُ الْإِنِّيْسَةُ ، وَالْدَّرَّةُ النَّفِيسَةُ ؛
وَلَا يُذْهِبُ حَرَجَهُمْ غَيْرُ الْخُبْرَجِ الصَّادِحِ ، الْمُسْتَوْقِفِ بِحُسْنِهِ كُلَّ غَايِدٍ وَرَائِحٍ ؛ تَكَادُ
قُلُوبُهُمْ تَطِيرُ بِالْفَرَجِ عِنْدَ رُؤْيَايَةِ النَّسْرِ الطَّائِرِ ، وَتُجَبَّرُ خَوَاطِرُهُمْ بِكَثْمِيرِ ذَلِكَ الْكَاسِرِ ؛
إِذَا طَانُوا عِقبَانًا أَعْقَبَهُمُ الْفَرَجُ ، وَتَرَجَّ عَنْهُمْ التَّرَجُّ ؛ وَإِنْ كَرَّ كَرَكِيٌّ فَرَعَهُمُ الْبُوسُ ،
وَرَأَوْا عَلَى رَأْسِهِ ذَلِكَ التَّاجَ الَّذِي لَمْ يَحُلْ مِثْلُهُ عَلَى الرُّؤُوسِ ؛ وَإِنْ عَرَّضَ غُرُوقُ
غَيْرِقُوا فِي بِحَارِ أَفْكَارِهِمْ ، وَجَدُوا إِلَى أَنْ يَقَعَ يَحْتَدِلُ أَوْتَارِهِمْ ؛ وَإِنْ لَاحَ ضُوءُ
كَالذَّهَبِ الْمَصْصُوعِ ، أَلْقَوْهُ فِي الْحَبَالِ وَهُوَ بِدَمِهِ مَصْبُوعٌ ؛ وَإِنْ مَرَّ مِرْزَمٌ كَالْخُلُودَةِ
الْحَسَنَاءِ ، ضَرَبُوا لَهُ الْآلَةَ الْحَدْبَاءَ ؛ وَإِنْ مَرَّ السَّيْطَرُ أَجْنَحَتُهُ كَالسَّحَابِ ، جَاءَتْهُ
الْمَرَامِي مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ؛ وَإِنْ عَنَّ عَتَرُ عَمْدُوا إِلَيْهِ ، حَتَّى يُسْقَطَ فِي يَدَيْهِ ؛ قَدْ تَعَالَوْا
فِي رُتَبِهَا ، وَتَعَالَوْا فِي وَصِفِ وَشَيْهَا .

وَجَعَلُوا كُلَّ آلَةٍ صَنِيعَهُ ، وَرَبَّةَ جَمَالِ مَنِيْعِهِ ، وَبَعِيدَةَ الرَّقْمِيِّ بِدِيْعِهِ : -

مِنْ كُلِّ قَوَيْسٍ هِيَ فِي الْعَيْنِ كَالْحَاجِبِ ، أَوْ التَّوْنِ الَّتِي أَجَادَهَا الْكَاتِبُ ؛ تَدُورُ
الطَّائِرَ عِنْدَ الرَّقْمِيِّ وَتُدْنِيْهِ ، وَتُثْنِيْ أَيْنَا أَوْلَى بِهِ مِنْ تُصْبِيْهِ . وَبُنْدُقِيْ جُبَيْلَتِ طِبْنَتِهِ
عَلَى صُوبِ الصُّوَابِ ، يَسْتَنْزِلُ الطَّيْرُ وَلَوْ اسْتَرْبَذِلَ السَّحَابُ ؛ كَأَنَّهُ التَّجَمُّمُ الثَّاقِبُ ،
وَالشَّهَابُ الصَّائِبُ ؛ يَرَى الطَّيْرُ كَالسَّحَابِ الْوَائِكِ ، فَيَقْطَعُ طِيْلَهُ انْقِضَاضَ الْبَرَقِ
الْخَاطِفِ ؛ وَيَرْجِعُ النَّسْرُ مِنْ حَتْفِهِ رَاحِمًا ، وَيَتَدَوَّبُ أَنْ كَانَ طَائِرًا وَاقِعًا ؛ وَيَصْبِرُ
بَعْدَ أَنْ كَانَ كَامِرًا مَكْسُورًا ، وَفِي سِوَارِ الْقَسِيِّ مَأْسُورًا ؛ فَهَذَا الَّذِي يَلْقَى الْعَالِبُ

وهو مغلوب ، والطير الواجب وهو متدوب ؛ حينئذٍ تنشرح النفوس ، وتطرب ولا طربها بالكؤوس .

ولما كان بهذه المنزلة العظيمة ، والمرتبة الجسيمة ؛ فعاطته الملوك وأبناء الملوك ، ونظّموا عقده بحسن السلوك ؛ وأرتاضت به النفوس الطاهرة ، وأعاضت به عن الكؤوس الدائرة ؛ ورأت به تكبيل الأدوات ، وسامت به فسل الواجب وإن قيل : إن ذلك من المحفوات ؛ فهو تعب تنشأ الراحة عنه ، ولعب لم يكن شئ أشبه بالجد منه .

فلذلك قصد الجنب الكريم ، العالى ، الصلاحى ، صلاح الدنيا والدين ، ونجاح الطالبين ، سليل الوزراء ، ونجل الكبراء ، وصدر الرؤساء ، وعين العظام ؛ ابن المقت الحموى بن فضل الله ، أدام الله تعالى علاه ، وكبت عداه ؛ وأعلى معاليه ، وشكر مساعيه ؛ وأطال حياته ، وأطاب ذاته - أن يسلك تلك المسالك ، ويرضى نفسه الكريمة بذلك ، ويتحيل على تحصيل اللذات بالتحوّل ، عملاً بقول الشاعر :

« تنقل فلذات الحموى فى التّقل ! »

وعمد إلى تحصيل آلائه ، سائراً كالبدور فى هالاته ؛ فسار مع سرايا كائنجوم ، يتفكّهون فى الحديث بالمشور والمنظوم ؛ ويتخطون جد القول بهزله ، كلبا خلط لهم طلل الجود بويله ؛ وأتحدروا فى النيل بجمعهم الصحيح ، وقصدوا المرامي العالية ولم يقتنعوا من الأيام بالريح ؛ وظلّوا يسرون فى تلك المراكب ، التى كأنها قطع السحاب .

هذا وهم يتشوّفون إلى المصايد ، ويتشرفون إلى الشوارد ؛ فيطلعون أحياناً إلى البرّ متفرجين ، وبطيء ذلك النسيم متأرجحين :

نَسِيمٌ قَدْ سَرَى فِيهِمْ بَشِيرٌ * فَأَذْكُرُهُمْ بِمَسْرَاهِ السَّرِيَّا !

كَرَامَتُهُ اسْتَقَرَّتْ حِينَ وَاقَى * لَهُ نَفْسٌ يُعِيدُ الْمَيِّتَ حَيًّا !

وَيَحْتَنُونَ مِنَ الْقُضْنِ الرَّاهِي قَدًّا ، وَيَحْتَلُونَ مِنَ الْوَرْدِ الرَّاهِرِ خَدًّا ؛ وَيَتَأْمَلُونَ
ضَحْكَ الْأَرْضِ مِنْ بُكَاءِ السَّمَاءِ ، وَتَمَاحَةَ الْقُضْبِ عِنْدَ تَحْرِيرِ الْمَاءِ ؛ لَا تَذُوقُ أَجْفَانُهُمْ
طَعْمَ الْكَرَى ، وَلَا يَمِيلُونَ عَنِ السَّيْرِ وَلَا يَمْلُونَ السَّرَى ؛ مَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ إِذَا رَأَى الطَّيْرَ
جَانِسًا ، عَادَ مِنْ وَقْتِهِ لَهُ حَاشِئًا ؛ يَبْنَاهُمْ يَسِيرُونَ مُتَفَرِّقِينَ ، حَتَّى إِذَا لَاحَ لَهَا طَيْرٌ
تَدَاعَوْا إِلَيْهِ غَيْرَ مُقَصِّرِينَ وَالتَّفَّوْا مُحَلِّقِينَ ؛ وَلَمْ يَزَالُوا كَذَلِكَ يَهْمُونَ الْعَيْشَ ، بِالذِّعَةِ
وَالْعَلَيْشِ ، حَتَّى إِذَا أَقْبَلَ الْيَوْمُ الْمُبَارِكُ الثَّامِنُ وَالْعَشْرُونَ مِنْ جُمَادَى الْآخِرَةِ سَنَةِ
تِسْعٍ وَثَلَاثِينَ وَسِعْمَانَةٍ ، وَهُوَ الْيَوْمُ الَّذِي عَزَمَ فِيهِ الْجَنَابُ الصَّلَاحِي عَلَى الْأَصْطِلَادِ ،
بِالْبَادِقِ الْحَدَّادِ ؛ فَبَاشَرَتْ بِهِ الطُّيُورُ ، وَسَنَدَّتْ بِأَجْنَحَتِهَا الثُّغُورَ ؛ وَسَهَّلَ عِنْدَهَا
فِيهِ زُؤُلَ الرَّبِيسِ ، بِخَادَتِ لَهُ بِالنَّفِيسِ ؛ وَخَرَجَتْ مِنْ قَشِيرِهَا ، وَتَمَحَّحَتْ عِنْدَ
مَدِّ الْقَوْسِ بِحَزْمِ نَحْرِهَا ؛ وَرَغِبَ كُلُّ مِنْهَا أَنْ يَكُونَ لَهُ بِذَلِكَ أَوْفَرُ الْقِسَمِ ، وَتَرَبَّى أَنْ
يَكُونَ هُوَ الْمَكْتُوبُ لَهُ فِي الْقَدَمِ .

وَمَدَّ يَدَهُ نَحْوَ السَّمَاءِ ، فَاصَابَ مِرْزَمًا ؛ فَيَا لَهْ مِنْ حَبِيدٍ فَاقَ بِهِ عَلَى الْأَكَابِرِ الصَّيِّدِ !
وَيَا لَهْ مِنْ يَوْمٍ صَارَ يَخْرُجُ الطَّيْرُ يَوْمَ الْعِيدِ ! أَقَامَ فِيهِ بِوَاجِبٍ مَا شَرَعَهُ الرَّمَاةُ مِنَ الشَّرْعِ ،
وَذَكَّرْنَا بِهَذَا الصَّرْعِ يَوْمَ ذَلِكَ الصَّرْعِ ؛ فَلَا زَالَ سَهْمُهُ مُسْتَبَدِّ الْأَعْرَاضِ ؛ وَجَوْهَرُهُ
نَحِيًّا مِنَ الْأَعْرَاضِ ؛ يَحْرَى بِمُرَادِهِ الْمَقْدُورُ ؛ وَيُطِيعُهُ فِي سَائِرِ الْأُمُورِ .

وَقَدْ نَظَّمْتُ تَحْمِيسًا مُشْتَمَلًا عَلَى ذِكْرِ طُيُورِ الْوَاجِبِ ، وَطَرَزْتُه بِأَسْمِهِ ، لِأَنَّ هَذِهِ
الْقِدْمَةُ قَدْ قَدِّمْتُ لَهُ وَجُعِلَتْ بِرَسْمِهِ ، غَيْرَ أَنِّي أَهْتَدْتُ عَنْهَا ، لَعَلَّمُ مَادَّةَ عِنْدِي
أَسْتَمُدُّ مِنْهَا :

جَلَّ كُؤُوسًا عَطَّلَتْ بِالرَّاحِ، * وَلَا تُطْنَعُ فِيهَا كَلَامٌ لَا حَيَا،
وَأَشْرَبَ هِنِيئًا وَأَسْفَنِي بِأَصَاحِ، * وَأَذْكُرُ زَمَانًا مَرًّا بِالْأَفْرَاحِ،
* هَبْتُ بِهِ فِيمَا مَضَى رِيَا حَيَا ! *

أَيَّامَ كُنْتُ أَحْبَبُ الْأَكْبَرَاءِ، * وَأَغْتَسِدِي مَعَ الرِّمَاءِ سَائِرًا،
وَلَا أَزَالُ بِالْغِيَارِ غَائِرًا، * إِذَا رَأَيْتُ فِي الْمِيَاهِ طَائِرًا،
* نَحَوْتُهُ مِنْ سَائِرِ التَّوَائِي ! *

فَتَارَةً كُنْتُ أَصِيدُ النَّسْرَا * وَبَعْدَهُ الْعُقَابَ يَحْكِي الْجَمْرَا
وَالْكُفَى وَالْكُرْكِي صَدْتُ جَهْرًا * وَصَدْتُ غِرْتَوْقًا وَعَمْرًا قَهْرًا
* وَكُنْتُ بِالْإِوَرِّ فِي أَنْشِرَاحِ ! *

وَتَارَةً تَمَّا كَبَدِرِ السَّمِّ * تَتَّبِعُهُ أَيْسَةً كَالنَّجْمِ،
وَلَقَدْ أَسْوَدَ مِنْكَ الْمَمِّ، * وَحَبَّرَجُ عَنْ الرِّمَاءِ عَجَبِي،
* وَالضُّوْعُ مَعَ سَبِيطِ^(١) سَيَّاحِ ! *

وَكَمْ وَكَمْ قَدْ صَدْتُ يَوْمًا مِرْزَمًا * أَنْزَلْتُهُ بِالْقَوْسِ مِنْ جَوِّ السَّمَاءِ،
جَنَاحَهُ يَحْكِي طِرَارًا مُعَلَّمًا * عَلَى بِيَاضِ شَيْءٍ شَبِهُ السَّمَاءِ،
* كَأَنَّهُ لَيْلٌ عَلَى صَبَاحِ ! *

حَيْثُ الصَّبَا تُسْفَعُ بِالْقُبُولِ، * وَتَمْلَأُنَا يَجْمَعُ بِالشَّجْمُولِ،
فِي مَجْلِسٍ لَيْسَ بِهِ فُضُولِي، * وَجَاءَنَا التَّوْقِيعُ فِي الْوُضُولِ :
* فَسَادُكُمْ يَغْفِرُ بِالصَّلَاحِ ! *

(١) ورد في (ص ٦٧ ج ٢) من هذا الكتاب : بالشين المعجمة مضرومة .

السَّيِّدِ الْفَاتِي فِي أَفْعَالِهِ ، * وَالْمُزْدَرِي بِالْبَدْرِ فِي كَمَالِهِ ،
وَالْمُشْتَرِي حُسْنَ النَّتَاجِ لَهُ ، * لَا أَحَدٌ يَمُكِّيه فِي نَوَالِهِ :
* إِلَّا أَخُوهُ مَعْدِنُ الْمَبَاحِ ! *

مَنْ سَادَ فِي الدُّنْيَا عَلَى الْكُتَّابِ ، * وَصَانَ سِرَّ الْمُلْكِ فِي حِجَابِ ،
عَلَى الْعَالِي عَلَى السُّحَابِ ، * الْبَاذِلِ الْمَالَ بِلا حِسَابِ !^(١٦)
زَادَهُ اللَّهُ نِعْمًا ، وَأَجْرِي لَهُ فِي النَّدَى يَدًا وَثِيَّتُ لَهُ فِي الْعُلَى قَدَمًا ، بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ .



وهذه نسخة رسالة في صَيْنِدِ الْبُنْدِيقِ ، من إنشاء الشيخ شهاب الدين أبي النشاء
محمود بن سلمان الحلبي رحمه الله ، وهي :
الرِّيَاضَةُ - أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَ الْجَنَابِ الْفُلَانِي ، وَجَعَلَ حُبَّهُ كَقَلْبٍ عُدُوهُ وَاجِبًا ، وَسَعَدَهُ
كَوَصِيفِ عَبْدِهِ لِمَسَارِّ جَالِيَا ، وَلِلضَّارِّ حَاجِبًا - تَبَعْتُ النَّفْسَ عَلَى مُجَانِبَةِ الدَّعَةِ وَالسُّكُونِ ،
وَتَصَوُّبُهَا عَنْ مُشَابَهَةِ الْحَتَائِمِ فِي الرُّكُونِ إِلَى الْوُكُونِ ، وَتَحَضُّبُهَا عَلَى اخْتِذِ حَظِّهَا مِنْ كُلِّ
فَنٍّ حَسَنٍ ، وَتَحْشُبُهَا عَلَى إِضَافَةِ الْأَدْوَاتِ الْكَامِلَةِ إِلَى فَصَاحَةِ اللَّسَنِ ، وَتَأْخُذُ بِهَا طَوْرًا
فِي الْجِلْدِ وَطَوْرًا فِي اللَّعِبِ ، وَتَضَرِّفُهَا مِنْ مَلَاذِ السُّمُوفِ الْمَشَاقِّ الَّتِي يَسْتَرْوِحُ إِلَيْهَا
التَّعِيبُ . فَتَارَةً تَجْعَلُ الْأَكْبَارَ وَالْعُظَمَاءَ فِي طَلَبِ الصَّيْنِدِ عَلَى مُوَاصَلَةِ السُّرَى ، وَمُقَاطَعَةِ
الْكِرَى ، وَمُهَاجِرَةِ الْأَوطَارِ ، وَمُهَاجِمَةِ الْأَخْطَارِ ، وَمُكَابِدَةِ الْهَوَاجِرِ ، وَمُبَادِرَةِ الْأَوَابِدِ
الَّتِي لَا تُدْرِكُ حَتَّى تَبْلُغَ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ، وَذَلِكَ مِنْ عَمَاسٍ أَوْصَافِهِمُ الَّتِي يَذُمُّ الْمُعْرِضُ
عَنْهَا ، وَإِذَا كَانَ الْمَقْصُودُ مِنْ مَيْلِهِمْ جِدَّةَ الْحَرْبِ فَهَذِهِ صُورَةٌ لَيْسَ يُجْزَعُ إِلَيْهَا مِنْهَا .
وَتَارَةً يَدْعُوهُمْ إِلَى الْبُرُوزِ إِلَى الْمَلَقِ ، وَيَحْدُوهُمْ فِي سُلُوكِ طَرِيقِهَا مَعَ مَنْ هُوَ دُونَهُمْ

على ملازمة الصديق ومجانبة الملقى؛ فيعتسِفون إليها الدُّجى، إذا سَجى؛ ويقتَحِمون في بلوغها حرق النَّهار، إذا أنهار؛ ويتنعمون بوعاء السفر، في بلوغ الظُّفر؛ ويستصغرون ركوب الخطر، في إدراك الوطر؛ ويؤثرون السهر على النوم، والليلة على اليوم؛ والبندق على السهم، والوحدة على الائتلاف.

ولما عُدنا من الصِّيد الذى أتصل به حديثه، وشرَحَ له قديم أمره وحديثه؛ فُتْنَا إلى أن تشفع صيد السوانح، برى الصواح؛ وأن نفعل في الطير الجوانح، بأهله القسي ما نفعل الجوارح؛ تفضيلاً للملازمة الأرحام، على الإقامة في الرجال؛ وأخذاً بقولهم:

لأبصِّلحُ النفسَ إذ كانت مُدبَّرة * إلا التَّقلُّ من حالٍ إلى حالٍ!

فبرزنا ونفس الأصيل تجود بنفسها، وتسير من الأفق النُّرى إلى موضع رمسها؛ وتنازل عيون النور بقلعة أرمَد، وتُنظر إلى صفحات الوردِ نظر المريض إلى وجوه العود؛ فكانها كُتِبَ أصحى من الفراق على فرق، أو عليل يقضى بين صحبه بقايا مدة الرِّق؛ وقد أخضلت عيون النور لوداعها، وهم الرُّوضُ بملج حلتِه الموهبة بذهب شعاعها:

والطلُّ في أعين النُّورِ تحسُّبه * دمعاً تحير لم يرقاً ولم يكف:
كلُّؤلؤ ظلَّ عطف النُّصن مُتسحاً * بعقده وتبدى منه في شَف.
يضمُّ من سندس الأوزاق في صُرر * خضير ويحى من الأزهار في صَدِف!
والشمس في طفيل الإنساء تنظر من * طرف غدا وهوم من خوف الفراق خفي:
كما شق سار عن أحبابه وهفاً * به الموى قترأهم على شرف.

إلى أن نضى المغرب عن الأفق حلى فلائدها، وعوضه عنها من النجوم بحسبها وولائدها؛ فلَبثنا بعد أداء الفرض لبث الأهل، ومنعنا جفوننا أن ترد النوم

إِلَّا تَحِلَّةً ، وَتَهَضُّنَا وَبُرْدَ اللَّيْلِ مُوَشَّعٌ ، وَعِقْدُهُ مَرَصَّعٌ ، وَإِكْبِلُهُ مُجَوَّهَرٌ ، وَأَدِيمُهُ
مُعْتَبَرٌ ، وَبِدْرُهُ فِي خِذْرِ سِرَارِهِ مُسْتَكِنٌ ، وَبِقَرُّهُ فِي حَشَا مَطَالِعِهِ مُسْتَجِنٌ ، كَانَ
أَمْتَرَجَ لَوْنِهِ بِسَفْقِ الْكَوَاكِبِ خَلِيطًا مِسْكٌ وَصَنْدَلٌ ، وَكَأَنَّ ثُرْيَاهُ لَأَمْتَدَادُهُ مُعَلَّقَةٌ
بِأَمْرَاسٍ تَكَّانٍ إِلَى صَمِّ جَنْدَلٍ :

وَلَا حَتَّ مُجُومُ اللَّيْلِ زُهْرًا كَانَهَا * عُقُودٌ عَلَى خَوْدٍ مِنَ الزَّيْجِ تُنْظَمُ ،
مُحَلَّقَةٌ فِي الْجَسَدِ غُسَّابٌ أَنْبَا * [طُبُورٌ] عَلَى نَهْرٍ الْحِزْبَةِ حَوْمٌ
إِذَا لَاحَ بَازِي الصُّبْحِ وَلَّتْ يَوْمُهَا * إِلَى الْغُرُبِ خَوْفًا مِنْهُ تَسْرُ وَتُزَمُّ !

إِلَى حَدَائِقِ مُلَقَّهٍ ، وَجَدَاوِلِ مُحْتَفَةٍ ، إِذَا تَحَمَّشَ النَّسِيمُ غُصُونَهَا أَعْتَقَتْ أَعْتِنَاقَ
الْأَحْبَابِ ، وَإِذَا فَرَّقَ مَرُّ الْمِيَاهِ مُتُونَهَا أَنْسَابَتْ فِي الْجَدَاوِلِ أَنْشِيَابَ الْحَبَابِ ،
وَرَقَصَتْ فِي الْمَنَاحِلِ رَقَصَ الْحَبَابِ ، وَإِنْ لَمْ تَغُورْ نُورَهَا حَيْثُهَا بِأَغْطَاسِ الْمَشُوقِ ،
وَأِنْ أَعْظَمَ تَوَاصِسُ وَرَقِهَا غَشَّةَ بِالْحَانَ الْمَشُوقِ ، فَتَسِيمُهَا وَأَنْ ، وَتَسِيمُهَا لَعْرِفَ الْحَنَانِ
عُنْوَانٌ ، وَوُدُّهَا مِنْ سَهَرٍ تَرَجِسُهَا غَيْرَانُ :

وَطَلَّهَا فِي خُنُودِ الْوَرْدِ مُنْبِعَثٌ * طَوْرًا وَفِي طَرَرِ الرَّيْحَانِ حَيْرَانُ !

وَطَائِرُهَا غَيْرِدٌ ، وَمَأْوَاهَا مُطَرِّدٌ ، وَغُصْنُهَا تَارَةً يَطِيفُهُ النَّسِيمُ إِلَيْهِ فَيَتَغَطَّبُ ، وَتَارَةً
يُعَلَّلُ تَحْتَ وَرَقَاتِهِ فَيُحَسِّبُ أَنَّهَا هَمَزَةٌ عَلَى أَلْفٍ ، مَعَ مَا فِي تِلْكَ الرِّيحِ مِنْ تَوَافُقِ
الْمَحَاسِنِ وَتَبَايُنِ التَّرْيِيبِ ، إِذْ كُلَّمَا أَعْتَلَّ النَّسِيمُ مَعَ الْأَرْجِ وَكَلَّمَا نَحَرَ الْمَاءُ تَمَحَّجَ الْقَلْبِيبِ :

فَكَاثِمًا تِلْكَ الْغُصُونُ إِذَا تَنَّتْ * أَعْطَافُهَا رِيحُ الصَّبَا أَحْبَابُ :

فَلَهَا إِذَا اقْتَرَقَتْ مِنْ أَسْتِعْطَافِهَا * صُلْبُكَ وَمِنْ صَحْبِ الْحَمَامِ عِتَابُ .

وَكَاثِمًا حَوْلَ الْعُيُونِ مَوَاسِنَا * شَرِبْ وَهَاتِيكَ الْمِيَاهُ شَرَابُ !

فَقَدِيرُهَا كَأَنَّهَا وَمَلَبُ نِطَافِهَا * رَاحَ وَأَضَوَّاءُ التَّجْوَمِ حُبَابُ !

يحيط بملق نطائها صاف، وظلال دوحها صاف، وحصاها لصفاء ماها في نفيس
الأمر رايك وفي رأي العين طاف؛ إذا دغدغها النسيم حسبت ماءها بتأيل الظلال
فيه يتبرج ويميل، وإذا أطردت عليه أنفاس الصبا ظننت أفياء تلك الفصوص تارة
تموج وتارة تسيل :

فكانه حبيب هام بالفضون هوى فمثلها في قلبه، وكان النسيم كلف بها غار من
ذنوها إليه فبليها عن قربه :

والنور مثل عرائس * لفت عليهن المساء،

شمرن فضل الأزر عن * سوق خلاخلن ماء،

والتهر كالمرآة تشظرو وجهها فيه السماء !!!

وكان صواف الطيور المتسقة بتلك الأرض خيام، أو طباء بأعلى الرقتين قيام،
أو أباريق فضية رؤوسها لها أقدام، ومناقيرها المحمرة أوائل ما أنسكب من المدام؛
وكان رقابها رماح استنتها من ذهب، أو شموع أسود رؤوسها ما أنطفى وأحمره
ما ألتهب؛ وكما كالطير الجليل عده، وكطراز العمر الأول جده :

من كل أبلج كالنسيم لطافة * عفت الضمير مهذب الأخلاق،

مثل البسودور ملاحه، وكغميرها * عددا، ومثل الشمس في الإشراق!

ومعهم قسي كالفضون في لطافتها ولينها، والأهله في نحاتها وتكوينها، والأزاهر
في ترائفها وتلوينها، بطونها مديحه، ومثونها مدرجه؛ كأنها كواكب الشولة في أنمطانها،
أو أرواق الطباء في ألنفاها؛ لأوتارها عند القوادم أوتار، ولبناديقها الحواصل
أوكار؛ إذا انتضيت لصيد ذهب من الحياة نصيبه، وإن انتصت لرعي بدا لها
أنها أحق به من بصيبه؛ ولعل ذلك الصوت زجر لبنديقها أن يبطئ في سيره،

أَوْ يَقَطُّ الْفَرَصَ إِلَى غَيْرِهِ ؛ أَوْ وَخْشَةً لِمَفَارِقَةِ أَفْلَاحِ كَيْدِهَا ، أَوْ أَسْفَ عَلَى
خُرُوجِ بَيْتِهَا مِنْ يَدِهَا ؛ عَلَى أَنَّهَا طَالَمَا نَبَذَتْ بَيْنَهَا بِالْعَرَاءِ ، وَشَفَعَتْ لِحَصْمِهَا
التَّحْذِيرَ بِالْإِغْرَاءِ :

مِثْلُ الْعَقَابِ إِذْ نَابَا مُعْقَدَةً * مَنْ تَأَمَّلَهَا أَوْ حَقَّقَ النَّظْرَا !
إِنْ مَدَّهَا قَسْرُ مَنْهَمٍ وَعَايَنَهُ * مُسَافِرُ الطَّيْرِ فِيهَا أَوْ نَوَى سَفَرَا ،
فَهُوَ الْمُسِيءُ اخْتِيَارًا إِذْ نَوَى سَفَرَا * وَقَدْ رَأَى طَالِعًا فِي الْعَقَرِ الْقَمَرَا !

وَمِنَ الْبِنَادِقِ كُرَاتٌ مِتْفَعَةُ السَّرْدِ ، مُتَحِدَةُ الْمَكْسِ وَالطَّرْدِ ، كَأَنَّهَا خَرِطَتْ مِنْ
الْمُنْدَلِ الرُّطْبِ أَوْ عُجِنَتْ مِنَ الْعَتَبِ الْوَرْدِ ؛ تَسْرِي كَالثَّوْبِ فِي الظَّلَامِ ، وَتَسْبِقُ إِلَى
مَقَائِلِ الطَّيْرِ مُسْتَدَاتِ السَّهَامِ :

مِثْلُ النُّجُومِ إِذَا مَا سَرَنَ فِي أَفْقٍ * عَنِ الْأَهْلَةِ لَكِنْ نُؤْنَهَا رَأَى .
مَا قَاتَهَا مِنْ نُجُومِ اللَّيْلِ إِنْ رُبِمَتْ * إِلَّا ثَبَاتٌ يَرَى فِيهَا وَأَضْوَاءُ ،
تَسْرِي وَلَا يَشْعُرُ اللَّيْلُ الْبَهِيمُ بِهَا * كَأَنَّهَا فِي جُفُونِ اللَّيْلِ إِغْفَاءُ ،
وَتَسْمَعُ الطَّيْرُ إِذْ تَهْفُو قَوَادِمُهُ * خَوَافَقًا فِي الدِّيَابِ وَهِيَ صَمَاءُ !! !

يَعُونُهَا جِرَاوُهُ كَأَنَّهَا دُرُجُ دُرٍّ ، أَوْ دُرُجُ غُرٍّ ، أَوْ كِمَامَةٌ تَمَرُّ ؛ أَوْ كَأَنَّهَا تَبَلُّ ،
أَوْ عَمَامَةٌ وَبَلُّ ؛ حَالِكَةُ الْأَدِيمِ ، كَأَنَّهَا رُقَّتْ بِالشَّفَقِ حُلَّةٌ لَيْلِهَا الْبَهِيمِ :
كَأَنَّهَا فِي وَضْعِهَا مَشْرِقٌ * تَبَثُّ مِنْهُ فِي الدُّجَى الْأَنْجُمُ ،
أَوْ دِيمَةٌ قَدْ أَطْلَمَتْ قَوْسَهَا * مُلَوَّنَا وَأَبْشَقَتْ تَسْجِمُ !

فَاتَّخَذَ كُلُّ لَهٍ مَرْكَزَا ، وَتَقَضَّى مِنَ الْإِصَابَةِ وَعَدَا مُنْجَزَا ، وَضَمَّنَ لَهُ السُّعْدُ أَنْ
يُصْبِحَ لِمُرَادِهِ مُحْرَزَا :

كَأَنَّهُمْ فِي بُيُوتِ أَهْلِهِمْ * فِي تَنْظَرِ الْمُتَصِفِ وَالْحَاحِدِ:

قَدْ وَلِدُوا فِي طَالِبِ وَاحِدٍ، * وَأَشْرَقُوا مِنْ مَطْلَعِ وَاحِدٍ!

فَسَرَتْ عَلَيْنَا مِنَ الطَّيْرِ عَصَابَهُ، أَطْلَعْنَا مِنْ أَجْنَحَتِهَا مَحَابَهُ؛ مِنْ كُلِّ طَائِرٍ أَفْلَحَ
يَتَنَادُ مَرَّتَماً، فَوَجَدَ وَلَيْكِنْ مَصْرَعاً، وَأَسْفَ يَلْتَنِي مَاءٌ جَمًّا فَوَجَدَ وَلَيْكِنْ السَّمَّ مُنْقَعاً،
وَحَلَقَ فِي الْقَضَاءِ يَنْبَغِي مَلْعَباً فَبَاتَ هُوَ وَأَشْيَاعُهُ مُجْعَدًا لِمَحَارِبِ الْقَيْسِيِّ وَرُكْعَةً فَنَبْرَكْنَا
بِذَلِكَ الْوَجْهِ الْجَمِيلِ، وَتَدَارَكْنَا أَوَائِلَ ذَلِكَ الْقَبِيلِ .

فَاسْتَقْبَلْ أَوْلَانَا تَمَامَ بَدْنِهِ، وَعَظَمَ فِي نَوْعِهِ وَقَدْرِهِ؛ كَأَنَّهُ بَرَقَ كَرَعٌ فِي غَسَقٍ،
أَوْ صُبْحٌ عَطَفَ عَلَى قِيَّةِ الدُّجَى عَطَفَ النَّسَقِ؛ تَحْسَبُهُ فِي أَسْدَافِ الْمُنَى غُرَّةً تُنْجَحُ،
وَتَحَالُهُ تَحْتَ أَذْيَالِ الدُّجَى طُرَّةٌ صُبْحٌ؛ عَلَيْهِ مِنَ الْبَيَاضِ حُلَّةٌ وَقَارٌ، وَلَهُ كَدُهُنٌ عَنَبِيرٌ
فَوْقَ مِثْقَالٍ مِنْ قَارٍ، لَهُ عُنُقٌ ظَلِيمٌ، وَآلِفَانَةٌ رِيمٌ، وَسُرَى غَيْمٍ يُصَرِّفُهُ نَيْسَمٌ :

كَلَوْنِ الْمُنْتَبِيبِ، وَعَصْرِ الشَّبَابِ، * وَوَقْتِ الْوَصَالِ، وَيَوْمِ الظُّفْرِ!

كَأَنَّ الدُّجَى غَارَ مِنْ لَوْنِهِ * فَأَمْسَكَ مِثْقَالَهُ ثُمَّ فَسَرَ!

فَارْسَلْ إِلَيْهِ عَنِ الْهَلَالِ تَجْمًا، فَسَقَطَ مِنْهُ مَا كَبُرَ بِمَا صَغُرَ حُجْمًا؛ فَاسْتَبَشَرَ بِحُجْمِهِ،
وَكَبُرَ عِنْدَ ضِيَاغِهِ، وَحَصَّلَهُ مِنْ وَسَطِ الْمَاءِ بِحُتَاغِهِ .

وَتَلَاهَى كُنُفُ النَّبِيِّ الْبَاسِ، مُشْتَعِلُ شَيْبِ الرَّاسِ، كَأَنَّهُ فِي عَرَانِينَ شَيْبِهِ لَا وَبِيلَهُ كَبِيرُ
أَنَاسٍ؛ إِنْ أَسْفَ فِي طَيْرَانِهِ نَفَامٌ، وَإِنْ خَفَقَ بِجَنَاحِهِ فَنَقْلٌ لَهُ بَيْدُ النَّسِيمِ زِمَامٌ؛
ذُو عِيَّةٍ كَالْجُرَابِ، وَمِثْقَالٍ كَالْجُرَابِ، وَلَوْنٌ يَغُرُّ فِي الدُّجَى كَالْتَجَمِ وَيَحْدَعُ فِي الضُّحَى
كَالْمُرَابِ؛ ظَاهِرُ الْحَرَمِ، كَأَنَّمَا يُخْبِرُ عَنْ عَادٍ وَيُحَدِّثُ عَنْ إِرَمِ :

إِنْ عَامَ فِي زُرْقِ الْقَدِيرِ حَسْبَتَهُ * مُبَيِّضٌ غَيْمٍ فِي أَدِيمِ سَمَاءٍ،

أَوْ طَارَ فِي أَفْسَى السَّمَاءِ ظَلَنَتَهُ * فِي الْجَوِّ شَيْخًا عَائِمًا فِي مَاءٍ،

مُتَنَاقِضِ الْأَوْصَافِ فِيهِ خِفَّةُ الشَّجْهِالِ تَحْتَ رَزَاةِ الْعُمَاءِ !

فَتَنَى الثَّانِي إِلَيْهِ عِتَانَ بُنْدُوقِهِ ، وَتَوَخَّاهُ فِيمَا بَيْنَ رَأْسِهِ وَمُغِيهِ ، نَغَزَ كَجَارِدٍ أَنْقَضَ عَلَيْهِ نَجْمٌ مِنْ أَنْفِهِ ، فَتَلَقَّاهُ الْكَبِيرُ بِالتَّكْخِيرِ ، وَأَخْطَطَفَهُ قَبْلَ مَصَافَهَةِ الْمَسَاءِ مِنْ وَبْنِهِ الْغَدِيرِ .

وَفَارَتْهُ أَوْزَةُ حِلْيَاءَ دُكَّاهُ ، وَحُلَّتْهَا حَسَنَاءُ لَهَا فِي الْقَضَاءِ نَجَالُ ، وَعَلَى طَيْرَانِهَا خِفَّةُ دَوَاتِ التَّبْرِجِ وَخَفَرُ رِبَاتِ الْإِجْمَالِ ، كَأَنَّهَا عَبَتْ فِي ذَهَبٍ ، أَوْ خَاضَتْ فِي لَهَبٍ ، تَخْتَالُ فِي مِشْيَتِهَا كَالْكَاعِبِ ، وَتَتَأَوَّى فِي خَطْوِهَا كَالْأَلْعَبِ ، وَتَعْتَظِفُ بِجِيدِهَا كَالظُّفِيِّ الْغَرِيرِ ، وَتُتَدَاهِعُ فِي سَيْرِهَا مِثْلَ الْقَطَاةِ إِلَى الْغَدِيرِ :

إِذَا أَقْبَلَتْ تَمْشِي نَخْطَرُهُ صَكَاعِبِ * رَدَّاجٍ ، وَإِنْ صَاحَتْ فَصَوْلَةُ حَازِمٍ ، وَإِنْ أَقْلَعَتْ قَالَتْ لَهَا الرَّيْحُ : لَيْتَ لِي * خَفَا ذِي الْخَوَافِي أَوْ قُوَى ذِي الْقَوَادِمِ . فَانْهَمَ بِهَا فِي الْهَيْدِ زَادُ مُسَافِرٍ ، * وَأَخْسِنَ بِهَا فِي الْقُرْبِ نُحْفَةَ قَادِمٍ ! فَلَوَى الثَّالِثُ جِيدَهُ إِلَيْهَا ، وَعَظَفَ بِوَجْهِهَ إِقْبَالَهُ عَلَيْهَا ، فَلَجَّجَتْ فِي تَرْفَعِهَا مُعْنَةً ، ثُمَّ نَزَلَتْ عَلَى حُكْمِهِ مُنْذِعَةً ، فَأَعْجَبَهَا عَنْ أَسْتِكْمَالِ الْمُبْطُوطِ ، وَأَسْتَوْلَى عَلَيْهَا بَعْدَ اسْتِمْرَارِ الْقُنُوطِ . وَحَادَتْهَا لَعْلَمَةٌ تَحْكِي لَوْنَ وَشَيْهَا ، وَتَصِفُ حُسْنَ مَشْيِهَا ، وَتُرْبِي عَلَيْهَا بَقَرَتَهَا ، وَتُسَافِسُهَا فِي الْهَاسِنِ كَضَرَّتَهَا ، كَأَنَّهَا مُدَامَةً قَطِيعَتْ بِمَسَائِلِهَا ، أَوْ غَمَامَةً شَفَّتْ عَنْ بَعْضِ نَجْمٍ سَمَائِهَا :

بُشْرَةٌ بَيْضَاءَ مَيْسُونَةٍ * تُشْرِقُ فِي اللَّيْلِ كَبَدْرِ النَّمَامِ !

وَإِنْ تَبَدَّتْ فِي الضُّحَى خِلَّتَهَا * فِي الْحُلَّةِ الدُّكَّاهِ بَرَقَ النَّمَامِ !

فَنَهَضَ الرَّابِعُ لِاسْتِغْبَالِهَا ، وَرَمَاهَا عَنْ فَلَكَ سَعْدِهِ نَجْمٌ وَبَالِهَا ، بِجَلَّتْ فِي الْعُلُوِّ مُبْتَدَةً ، وَتَطَارَدَتْ أَمَامَ بُنْدُوقِهِ وَلَوْلَا طِرَادُ الْعَبِيدِ لَمْ تَكُ لَدَيْهِ ، وَأَنْقَضَ عَلَيْهَا مِنْ يَدِهِ

شهابُ حَفِيفها، وأدركها الأَجَلُ لِحَفَّةِ طَيَّرَانِها من خَلْفِها؛ فَوَقَعَتْ من الأُنْفِ في كَفِّه،
ونَفَرَماني بِقايَا صَفْها عن صَفْه .

وَأَتَتْ في إِثْرِها أَيْسَةُ آتِسِه، كَأَنَّها العَذراءُ العَانِسِه، أو الأَذماءُ الكَانِسِه؛ عليها
خَفَرُ الأَبْكارِ، وَخِفَّةُ ذَوَاتِ الأَوْكارِ، وَحَلَاوَةُ المَعَانِي التي تُجَلُّ على الأَفْكارِ؛ وَلَهَا
أُنْسُ الرِّيبِ، وإِدْلالُ الحَيِّبِ، وَتَلَقُّتُ الزائرَ المُرِيبِ من خَوْفِ الرِّيبِ؛ فَاتَتْ عُنِّي
كالإِبريقِ، أو العُصْنِ الوَرِيقِ، قَدْ جَمَعَ صُفْرَةَ البَهارِ إلى حُمْرَةِ الشَّقِيقِ؛ وَصَدِرَ بَهِىً
المَلْبُوسِ، سَمِيَ إلى النَفُوسِ، كَأَنَّمَا رَقِمَ فيه النَهارُ بِاللَّيْلِ أو تُقَشِّ فيه العَاجُ بِالْأَبْنُوسِ؛
وَجَنَاحُ يُجَيِّحُها من العَطَبِ، يَحْكِي لَوْنُها المُنَدَّلَ الرُّطْبَ لولا أَنه حَطَبٌ :

مُدْبِجَةُ الصِّدْرِ تَقْوِيْقُهُ * أَصَافُ إلى اللَّيْلِ ضَوْءَ النَّهَارِ!

لَهَا عُنُقٌ خَالَهَ مِنْ رَأاه * شَقَائِقُ قَدْ سَيَّجَتْ بِالْبَهارِ!

فَوَسَبَ الخَافِيسُ منها إلى الفَنِيمِه، وَنَظَمَ في سِلَكِ رَمِيهِ تلكَ الدُّرَّةَ البَيتِمِه، وَحَصَلَ
بِتَحْصِيلِها بَيْنَ الرِّمَاءِ على الرِّبَّةِ الجَسِيمِه .

وَأَتَى على صَوْتِها حُبْرٌ نَسِيقُ هِمَّتِه جَنَاحَه، وَيَغْلِبُ خَفَقُ قَوَادِمِه صِيَاحَه؛ مُدْبِجُ
المِطَا، كَأَنَّمَا خَلَعَ حُلَّةً مَنَكِيَّةً على القِطَا؛ يَنْظُرُ مِنْ حُبِّ، وَيَخْطُو على رَجْلَيْنِ مِنْ ذَهَبٍ:

يَزُورُ الرِّياضَ، وَيَحْفُو الحِياضَ * وَيُسَبِّهُ في اللَّوْنِ كُدْرَ القِطَا،

وَيَقْوِي الزُّرُوعَ وَيَلْهُو بِها، * وَلَا يَرُدُّ المِاءَ إِلاَّ خَطَا!

فَبَدَّرَه السَّادِسُ قَبْلَ أَرْتِفاعِه، وَأَعَانَ قَوَسَه بِامْتِدَادِ بَاعِه، نَغَرَ على الأَلَاءِ كِبِساطِ
أَبْنِ قَيْسٍ^(١)، وَأَقْفَضَ عليه رَاميَه لِحَمَلِه بِحَذِيقِ وَحَمَلِه بِكَيْسٍ .

(١) يَشيرُ إلى قولِ الشَّامِرِ في بِساطِ :

نَغَرَ على الأَلَاءِ لَمْ يَوْسَدُ * كَأَنَّ جَبِيهَ سَيْفٍ صَقِيلٍ :

الأَلَاءُ، بوزنِ العَلَا، شِبْرٌ والأَلَاءَةُ أَخصى منه .

وتعذر على السابغ ضرامه ، ونبا عن بلوغ الأرب مقامه ؛ فصعد هو وترب له
إلى جبل ، وبنت في موقفه من لم يكن له بمراقبتها قبل .

فمن له تسردقوا ثم شداد ، ومنا سير حداد . كأنه من سُور لُقمان بن عاد ؛ تحسبه
في السماء تالت أخويه ، وتخاله في الفضاء قبته المنسوبة إليه ؛ قد حلق كالفقراء
رأسه ، وجعل مما قصر من الدلو ق الدكن لباسه ؛ وأشتغل من الرياض العسلي
إزارا ، وألف التزلة فلا يجد له إلا في قن الجبال الشواقي مزارا ؛ قد شابت نواصي
الليل وهو لم ينسب ، ومضت الدهور وهو من الحوادث في مقيل أشب :

ملك طيور الأرض شرقاً ومغرباً * وفي الأفق الأعلى له أخوان !

له حال قتاك ، وحيلة ناسك ، * وإسراع مقدام ، وفترة وإن !

فدنا من مطاره ، وتوحي بندقه عنقه فوق في منقاره ؛ فكأما هد منه سخرا ،
أو هدم به بناء مشمخرا ؛ ونظر إلى رقيقه ، مبشرا له بما آتاه به عن فريقه .

وإذا به قد أظنته عقاب كاسر ، كأما أضلت صيدا أفلت من المناير ؛ إن
حطت فسحاب أنكشف ، وإن أقامت فكان قلوب الطير رطباً وبأساً لدى
وكرها العناب والحشف ، بعيدة ما بين المناكب :

إذا أفلتت بلت علواً كأما * نحاول نارا عند بعض الكواكب !

يرى الطير والوحش في كفها * وينقارها ذا عظام مزاله .

فلو أمكن الشمس من خوفها * إذا طلعت ما تسمت غزاله !

فوشب إليها التام وثبة ليث قد وثق من حركاته بتجاحها ، وربما بأول بندقة لها
أخطأ قادمة جناحها ؛ فاهوت كمود صريع ، أو طود صيد ؛ قد ذهب بأسها ،

وتذهب بدمها لباسها ، وكذلك القدر يُجَارِعُ الجوَّ عن عقابه ، ويستترِلُ الأعصم من عقابه ؛ فحملها بجناحها المبيض ، ورفعها بعد الترفع في أوج جوها من الحضيض ، ونزل إلى الرفقه ، جذلاً بربح الصفة .

فوجد التاسع قد مر به كركي طويل الشِّفار ، سريع النِّفار ؛ شمى الفراق ، كثير الاغتراب يستوي بمصر ويصيف بالعراق ؛ لقوا دمه في الجو حفيف ، ولأدبته لون سماء طراً عليها غيم خفيف ؛ تئنُّ إلى صوته الجوارح ، وتعجب من قوته الرياح البوارح ؛ له أثر حمرة في رأسه كوميض جمر تحت رماد ، أو بقية جرج تحت ضياد ، أو فص عقيق سقطت عنه بقايا ثمد ؛ ذو منقار كسنان ، وعنق كمنان ؛ كأنما ينوس ، على عودين من أبّوس :

إذا بدا في أفق مُقلِّماً * والجو كالماء تفاورفه :

حسبته في بحية مرَّجاً * رجلاه في الألق مجادفه !

فصبر له حتى جازه مجلياً ، وعطف عليه مصلياً ؛ نحر مضرباً بدمه ، وسقط مشرقاً على عذمه ؛ وطالما أفلت لدى الكواسر من أظفار المنون ، وأصابه القدر بجحمة من حمائم مسنون ؛ فكثرت التكريهن أجله ، وحمله على وجه الماء برجله .

وحاذاه غرنوق حكاة في زيه وقدره ، وأمتاز عنه بسواد رأسه وصدره ؛ له ريشتان ممدودتان من رأسه إلى خلفه ، معقودتان من أذنيه مكان شفته :

له من الكركي أوصافه * سوى سواد الصدر والرأس .

إن شال رجلا وأنبرى قائماً * ألقىته هيئة رجاس !

فأضفى العاشر له منصتا ، ورماه متلفتاً ؛ فخر كأنه صريع الألحان ، أو تزيُّف بنت الحسان ؛ فاهوى إلى رجله بيده ، وأقضى عليه آفضاض الكاسر على صيده .

وَتَبِعَهُ فِي الْمَطَارِ ضَوْعٌ^(١)، كَأَنَّهُ مِنَ النَّصَارِ مَصْنُوعٌ؛ تَحْسَبُهُ عَاشِقًا قَدْ مَدَّ صَفْحَتَهُ،
أَوْ بَارِقًا قَدْ بَتَّ لَفْحَتَهُ :

طَوِيلَةٌ رِجْلَاهُ مُسَوَّدَةٌ * كَأَنَّمَا مِنْقَارُهُ خَنْجَرٌ؛

مِثْلُ عَجُوزٍ رَأْسُهَا أَتَمَطُ * جَاءَتْ وَفِي رَقَبَتِهَا مِعْجَرًا

فَاسْتَقْبَلَهُ الْحَادِي عَشَرَ وَوَتَبَ، وَرَمَاهُ حِينَ حَازَاهُ مِنْ كَتَبَ؛ فَسَقَطَ كِفَارِيصُ تَقَطَّرَ
عَنْ جَوَادِهِ، أَوْ وَاقِيٍّ أُصِيبَتْ حَبَّةُ قُوَادِهِ؛ فَحَمَلَهُ بِسَاقِهِ، وَعَدَلَ بِهِ إِلَى رِفَاقِهِ .

وَأَقْرَبَ بِهِ مِرْزَمٌ لَهُ فِي السَّمَاءِ يَمِينٌ مَعْرُوفٌ، ذُو مِنْقَارٍ كَصُذْنَجٍ مَعْطُوفٍ؛ كَانَ
رِيَاشُهُ فَلَقٌ أَتَّصَلَ بِهِ شَفَقٌ، أَوْ مَاءٌ صَافٍ عَلِقَ بِأَطْرَافِهِ عَلَقٌ :

لَهُ جِسْمٌ مِنَ الثَّلَاجِ * عَلَى رِجْلَيْنِ مِنْ نَارٍ :

إِذَا أَقْلَحَ لَيْلًا قُلْتُ بَرَقَ فِي الدُّجَى سَارِي !

فَانْتَهَى الثَّانِي عَشْرَ مِثْمًا، وَرَمَاهُ مُصَصَّمًا؛ فَأَصَابَهُ فِي زَوْرِهِ، وَحَصَلَهُ مِنْ قُوْرِهِ،
وَحَصَلَ لَهُ مِنَ السَّرُورِ مَا خَرَجَ بِهِ عَنْ طَوْرِهِ .

وَالْتَحَقَ بِهِ سَبَيْطَرٌ، كَأَنَّهُ مَذْبَعٌ مُبَيْطَرٌ؛ يَتَحَطُّ كَالسَّيْلِ، وَيُكْرَهُ عَلَى الْكَوَاسِرِ كَالنَّحْلِ،
وَيَجْعُ مِنْ لَوْنِهِ بَيْنَ ضِدَيْنِ يُقْبَلُ مِنْهُمَا بِالنَّهَارِ وَيُذْبَرُ بِاللَّيْلِ؛ يَتَلَوَّى فِي مِنْقَارِهِ الْأَيْمِ،
تَلَوَّى التَّيْنِ فِي الْغَيْمِ :

تَرَاهُ فِي الْجَوِّ مُتَمَدِّدًا وَفِي قَلْبِهِ * مِنَ الْأَفَاعِي شُجَاعٌ أَرْقَمُ ذَكَرُ:

كَأَنَّهُ قَوْسٌ رَامَ عُنُقَهُ يَدُّهَا * وَرِجْلُهُ رِجْلُهَا وَالْحَيَّةُ الْوَتْرُ !

(١) هو بضم الصاد المعجمة وكسرهما مع فتح الواو. وورد في الجزء الثاني (ص ٦٤) من هذا الكتاب :
”صُرْعٌ“ وأظن ما كتبه عليه في الحاشية الثانية هناك .

فصوب الثالث عشر إليه بندقه ، فقطع حية وعقبة ؛ فوق كالصريح المرد ،
أو الطرف الممدد .

وأتبعه عناز أصبح في اللون ضده ، وفي الشكل نده ؛ كأنه ليل ضم الصبح إلى
صدره ، أو انطوى على هالة بذه :

ترآه في الجو عند الصبح حين بدا * مسود أجنية مبيض حيزوم :

كأنه حبشي عام في نهر * وضم في صدره طفلاً من الروم !

فنهض تمام القوم إلى التيمه ، وأسفرت عن نوح الجماعة تلك الليلة المذممة ؛
وعذا ذلك الطير الواجب واجباً ، وكل العدد به قبل أن تطلع الشمس عيناً أو تبرز
حاجباً ؛ فيا لها ليلة حصرنا بها الصادح في الفضاء المتسع ، ولقيت فيها الطير ما طارت به
من قبل على كل شمل مجتمع ؛ وأصبحت أشلاؤها على وجه الأرض كفرائد خانها
النظام ، أو شرب كأن رقابهم من اللين لم يخلق لمن عظام ، وأصبحنا مثنين على
مقامنا ، مثنين بالظفر إلى مستقرنا ومقامنا ؛ داعين للولي جهداً ، مدعين له قبلنا
أوردنا ؛ حاملين ما صرغنا إلى بين يديه ، حاملين على التشرّف بخدمته والاتباء إليه :

فانت الذي لم يلف من لا يؤده * ويدعى له في السر أو يدعى له :

فان كان زعي ، أنت توضح طريقه ، * وإن كان جيش : أنت تهي قبيله !

والله تعالى يجعل الآمال منوطة به وقد فعل ، ويعمله كهفاً للأولياء وقد جعل ؛
بخدمته وكرمه :

الفصل الرابع

من الباب الأول من المقالة العاشرة

(في الصدقات ، وفيه طرفان)

الطرف الأول

(في الصدقات الملوكية وما في معناها)

قد جرت العادة أنه إذا تزوج سلطان أو ولده أو بنته أو أحد من الأمراء الأكابر وأعيان الدولة أن تكتب له خطبة صدقات تكون في الطول والقصر بحسب صاحب العقد، فتطال للوك وتقصّر لمن دونهم بحسب الحال .

وهذه نسخة صدقات، كتبت به للوك السعيد بركة ، ابن السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقداري، على بنت الأمير سيف الدين قلاوون الصالحى الأئفى قبل سلطنته، بالقلعة المحروسة، من إنشاء القاضي محيى الدين بن عبد الظاهر، وهى :

الحمد لله موفق الآمال لأسمد حركة، ومصدق الفأل لمن جعل عنده أعظم بركة، ومحقق الإقبال لمن أصبح نسيبه سلطانة وصهره ملكة، الذى جعل للأولياء من لدنه سلطانا نصيرا، وميز أقدارهم بأصطفاء أهله حتى حازوا نيميا وملكا كثيرا، وأفرد نقارهم بتقريبه حتى أفاد شمس آمالهم ضياء وزاد قهرها نورا، وشرف به ووصلتهم حتى أصبح فضل الله عليهم بها عظيما وإنعامه كثيرا، مهيا أسباب التوفيق العاجلة والآجلة، وجاعل ربوع كل إملاك من الأملاك بالشموس والبدور والأهلة أهله، جامع أطراف القفار لنوى الإيثار حتى حصلت لهم النعمة الشاملة وحلت عندهم البركة الكاملة .

تحمده على أن أحسنَ عند الأولياء بالنعمة الاستبداد، وأجملَ لتأجيلهم الاستطلاع،
وكلَّ لأخبارهم الأجناس من العزِّ والأنواع، وأتَى آمالهم بما لم يكن في حساب
أحسابهم من الابتداء بالتخويل والابتداع؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك
له شهادة حسنة الأوضاع، مَلِيَّةٌ بتشريف الألسنة وتكريم الأسماع، ونُصِّلَ على
سيدنا محمد الذي أعلى الله به الأقدار، وشرف به الموالى والأضمار، وجعل كرمه
داراً لهم في كلِّ دار، وقرَّه على من استظلمه من المهاجرين والأنصار مشرق الأنوار،
صلى الله عليه وعليهم صلاة زاهية الأزهار، يأنعة الثمار.

وبعد، فلو كان اتصال كلِّ شيء بحسب المتصل به في تفضيله، لما استصلح
البدر شيئاً من المنازل لتزوله، ولا الفيت شيئاً من الرياض لهُطوله، ولا الذكر
الحكيم لساناً من الألسنة لترتيله، ولا الجوهر الثمين شيئاً من التيجان لحلوله؛ لكن
ليتشرف بيتٌ يحلُّ به القمر، وتبتُّ يزوره المطر، ولسانٌ يتعوذ بالآيات والسور،
وينارٌ يعمل بالآلات والدُّرر، ولذلك تجلَّت برسول الله صلى الله عليه وسلم أضماره
وأحبابه، وتشرفت أنسابهم بأنسابه؛ وتزوج صلى الله عليه وسلم منهم، وتمت لهم
مزية الفقار حتى رضوا عن الله ورضى عنهم.

والمرتَّب على هذه القاعدة الفاضلة نور يستمدُّ الوجود، وتقرُّر أمر يقارن سعد
الآخية منه سعد السعد، وإظهار خطبة تقول للثريا لا انتظام عقودها: كيف،
وإبراز وصلة يعمل برصيع جوهرها متن السيف الذي يفيطه على إبداع هذا
الجوهر به كلِّ سيف، وتسج صهارة يتم بها - إن شاء الله - كلُّ أمرٍ سديد،
ويتمُّق بها كلُّ توفيق تخلق الأيام وهو جديد، ويختارها أربك طالع؛ وكيف لا تكون
البركة في ذلك الطالع وهو السعيد؟

وذلك بأن المَرَامَ الشَّريفة السلطانية أَرَادَتْ أَنْ تُحَصِّنَ الْمَجْلِسَ السَّامِيَّ بِالْإِحْسَانِ الْمُبْتَكِرِ ، وَتُقَرِّدَهُ بِالْمَوَاهِبِ الَّتِي يُرْفَعُ بِهَا الْحَدُّ الْمُتَقَضَّى وَيُعْظَمَ الْحَدُّ الْمُتَنَظَّرُ ، وَأَنْ تَرْفَعَ مِنْ قَدْرِهِ بِالصَّهَارَةِ مِثْلَ مَا رَفَعَهُ صَبَى اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ قَدْرِ صَاحِبِيهِ : أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ ، نَفْطَبَ إِلَيْهِ أَسْعَدَ الْبَرِيَّةِ ، وَأَمْنَعَ مِنْ تَحْمِيهِ السُّيُوفِ الْمَشْرِيقِ ، وَأَعَزَّ مِنْ تُسْبَلِ عَلَيْهَا سُتُورِ الصُّونِ الْخَفِيَّةِ ، وَتُضْرَبُ دُونَهَا خُدُورُ الْجَلَالِ الرُّضِيِّ ، وَتُجْمَلُ بِنِعْمَتِهَا الْعُقُودُ : وَكَيْفَ لَا ؟ وَهِيَ الدَّرَّةُ الْأَلْفِيَّةُ ؛ فَجَالِ وَاللَّهِ هُوَ الْأَمِيرُ الْمَذْكُورُ : هَكَذَا تَرْفَعُ الْأَقْدَارُ وَتُزَانُ ، وَكَمَا يَكُونُ قِرَانُ السَّعْدِ وَسَعْدُ الْقِرَانِ !!! ؛ وَمَا أَسْبَعَدَ رَوْضًا أَصْبَحَتْ هَذِهِ الْمَرَامُ الشَّريفة السلطانية لَهُ نَيْمَةً ! ، وَأَشْرَفَ سَبَقًا غَدَتْ مِنْطَقَةُ بَرْوِجَ سَمَائِهِ لَهُ حَيْلَةً ! ؛ وَمَا أَعْظَمَهَا مُعْجَزَةً آتَتْ الْأَوْلِيَاءَ مِنْ لَدُنْهَا سُلْطَانًا ! ، وَزَادَتْهُمْ مَعَ إِيْمَانِهِمْ إِيْمَانًا ! ؛ وَمَا أَغْنَاهَا صَهَارَةً يَقُولُ التَّوْفِيقُ لِإِبْرَاهِمَ : لَيْتَ ! ، وَأَشْرَفَهَا عُبودِيَّةً كَرَّمَتْ سَلَامَتَنَا بِأَنْ جَعَلْتَهُ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ ! .

وَإِذْ قَدْ حَصَلَتْ الْأَسْتِخَارَةُ فِي رَفْعِ قَدْرِ الْمُلُوكِ ، وَخَصَّصَتْ بِهِ هَذِهِ الْمَرْيَةَ الَّتِي تَقَاصَرَتْ عَنْهَا آمَالُ أَكْبَرِ الْمُلُوكِ ؛ فَلَا أَمْرَ لِمَلِكِ الْبَسِيطَةِ فِي رَفْعِ دَرَجَاتِ عِبْدِهِ كَيْفَ يَشَاءُ ، وَالتَّصَدَّقُ بِمَا يَتَقَوَّهُ بِهِ هَذَا الْإِنْسَاءُ ؛ وَهُوَ :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَذَا كِتَابٌ مُبَارَكٌ تَحَاسَدَتْ وَمَلَحَ الْخَطُّ وَأَقْلَامُ الْخَطِّ عَلَى تَحْرِيرِهِ ، وَتَنَافَسَتْ مَطَالِيعُ النُّوَارِ وَمَشَارِقُ الْأَنْوَارِ عَلَى نَقْطِ سَطْوَتِهِ ؛ فَأَضَاءَ نُورُهُ بِالْجَلَالَةِ وَأَشْرَقَ وَهَجَلُ نَوْمِهِ بِالْإِحْسَانِ فَأَغْلَقَ ، وَتَنَافَسَتْ فِيهِ أَجْنَاسُ تَجَنُّيسِ لَفْظِ الْفَضْلِ فَجَالِ الْإِعْتِرَافِ : هَذَا مَا تَصَدَّقَ ، وَقَالَ الْعُرْفُ : هَذَا مَا أَصَدَّقَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ : أَصَدَّقَهَا مَا مَلَأَ نَوَارِئِنِ الْأَحْسَابِ نَفَارًا ، وَتَجَرَّةَ الْأَنْسَابِ شِمَارًا ، وَمِشْكَاتَةَ الْجَلَالَةِ أَلْوَارًا ، وَأَضْلَفَ إِلَى

ذلك ما لولا أدب الشرع لكان أقاليم ومدائن وأنصارا؛ فبدل لها من العينِ المِصرى
ما هو باسم والدها قد تشرف ، وبنعوتيه قد تعرف ، وبين يدي هباته وصداقاته
قد تصرف .



وهذه نسخة صدق المقام الشريف العالى السيفى أنوك ، ولد السلطان الشهيد
الملك الناصر «محمد بن قلاوون» على بنت المقر المرحوم السيفى «بكتمر الساق» .
وكان المافد قاضى القضاة جلال الدين القزوينى، والقابل السلطان الملك الناصر
والد الزوج ، وهى :

الحمد لله مسير الشمس والقمر، وميسر حياة كل شئ، باتصال الروض بالمطر،
ومبشر المتقين من درارى الدرارى بأسمه كوكب ينتظر ، وأحمد عاقبة تهتر لها
أعطاف عظماء الملوك على كبر ، وتجاوب عن الأنجاب كما تتفتح الأكم عن الثمر ،
الذى مد من الشجرة المباركة الملوكة فروعا ألقت بعضها على بعض ، ورقت على
من استظل بها فواقب السماء على الأرض .

نحمده على نعمه التى أطابت لنا جنى الفروس ، وأطالت منا منى النفوس ،
وأطافت بملوكنا حتى مدت لسؤالهم الأيدي وخضعت لأمرهم الرؤوس ؛ ونشهد
أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تغذيها عصمة نافعته ، ونعمة لحسن
العاقبة جامعته ، ورحمة تبارك على أئمتنا وعلى أبنائهم البدور الطالعة ، والأنوار
الساطعة ، والبروق اللامعة ، والغيوث الحامية ، والسيل الدافعة ، والسيوف القاطعة ،
والأسود التى هى عن حرم حضرتها مانعة ؛ ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذى أزان
من تمسك له بحسب ، وشرف من أعتزى إليه بالقرين أو أعتز منه بصهر أو تسب ؛

صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين أرضاهم ورضى عنهم، وكرمهم بصلته الشريفة
لما زوجهم وزوج منهم؛ وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد، فإن من عادة الغمام أن يتفقد الأرض بمطره ، والبحر أن يسقي الزروع
بما فاض من نهره ؛ والمصاييح أن تمتد بأنوارها ما يتوقد ، والسماء أن لا يحلو ألقها
من اتصال فرقيد بفرقيد ؛ ولو توقفت القرين على مقارنة كبير ، أو مقارنة صغير ،
لما صلت الأعماد لمضاجع السيوف ولا دنت الكواكب من الشمس والقمر
المثير ؛ ولا صاحت يمين شمالا ، ولا جاورت جنوب شمالا ؛ ولا حوت الكائن
سهما ، ولا جمع السلك للجواهر نظاما ؛ ولا طمع طرف إلى غايه ، ولا قدر لسان
إنسان على تلاوة سورة ولا آية ؛ وإنما الصدقات الشريفة الملوكة لها في البر
عوائد ، وفي الخير سجايا يقتدى فيها الولد بالوالد .

ولم يزل من المقام الشريف ، الأعظم ، العالى ، المولوى ، السلطانى ، الملكى ،
الناصرى ، أمر الله بسلطانه على من لاذ به تسبل ذيول الفقار ، وتودع في هالات
أفكارهم ودائع الأنوار ، وتؤهل أهلهم لأن يكون منها أحد الأبوين لذريته الأطنار ،
وتخطب من مجيهم كل مصونة يغور بها بدر الدجى وتغار منها شمس النهار .

وكان من تمام النعمة الشريفة السلطانية ، الناصرية ، على من تعرض لسلطانها
الماطر ، ووقف للاعتراف من بحرها الزائر - ما رفعت به ذكره إلى آخر الأبد ،
وأتمت له السعادة إذ كان يعد في جنود من ينسب إليه من ولد ؛ وأكدت له
بالقرين مزية مزيد ، واستخرجت من بحر جوهرة لا يطمع في التطوق بها كل
جيد ؛ وقالت : نحن أحق بتكامل ما بيننا ، ونحويل الخوول من أولينا ، وتأهيل من قر
بنا عيننا وقربنا ، وإنا ، ونفضل غرس نعمة نحن غرسناه وأجنتنا نمراته بيننا .

فافتضى حُسْنَ الاختيار الشريف المَلِكِي الناصري، لولده المقام العالی السَّيْفِي؛
أحسن الله لها الاختيار، وأجرى بارادتهما اقتدار الأقدار أن تُرْفَ أتمُّ الشُّموس إلى
سُتُورِهِ الرِّفيعه، وتُصَانَ أَكُلُ مَعَاوِلِ العقائل بِمُجْبِهِ المُنِيعه، وتُحَاطَ أَشْرَفُ الدَّرَرِ
في مُسْتَوْدِعِهِ، وتُناطَ أَشْرَفُ الدَّرَارِي بِمَطْلَعِهِ؛ وتُسَاقَ إِلَيْهِ الكَرِيمَةُ حَسَبًا، العَظِيمَةُ
بَأَيِّسِهِ - عَظَّمَ اللهُ سُلْطَانَهُ - أَبَا، الَّذِي كَمَ لَهُ فِي خِدْمَةِ الدَّوْلَةِ القَاهِرَةِ مِنْ مَنَاقِبَ
كالنَّجُوم، ومَذَاهِبَ تَشَبَّهَ بِهَا البرقُ قَشَبَتْ بِأَذْيَالِ الغُيُوم، ومَرَاتِبَ تَقَدَّمَ فِيهَا عَلَى
كُلِّ نَظِيرٍ قَالَ: وَمَا مِنَّا إِلَّا مَنْ لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ، مَنْ قَدْرُهُ لَا يُسَامَى وَلَا يُسَام، ورَأْيُهُ
لَا يُرَامَى وَلَا يُرَام، وَسَبْقُهُ فِي غَيْرِ طَاعَتِنَا الشَّرِيفَةِ لَا يَسْبِقُ وَلَا يُسَام، وهو «سَيْفُ
الدَّوْلَةِ» لَا كَمَا يُسَمَّى بِهِ مَنْ آسَتَارَ هَذَا اللَّقَبَ فِي سَالِفِ الْأَيَّامِ؛ كَمَ لَهُ فِي مَرَاضِي
سُلْطَانِهِ مِنْ رَغْبَةٍ بَذَلَ بِهَا مَا لَدَيْهِ، وَسَمَحَ فِيهَا بِوَلَدِهِ وَهُوَ أَحَبُّ شَيْءٍ إِلَيْهِ، وَجَادَ
بِرُوحِهِ أَوْ بِمَا هُوَ أَعَزُّ عَلَيْهِ؛ كَمَ تُبْهِتُ بِعَزَائِمِهِ السُّيُوفُ مِنْ سِنَانِهَا، كَمَ وَهَبَتْ مِنْ
مَكَارِمِهِ الْأَيَّامُ مَا يُعْبَدُ مِنْ حَسَنَاتِهَا؛ كَمَ أَلْهَبَتْ صَوَارِمُهُ نَارًا بَخَّرَتْ أَنْهَارًا بَخَّرَتْ
مِنْ جَنَابَاتِهَا؛ كَمَ لِسَمَاءِ الْمَلِكِ بُشْبُشُهُ مِنْ حَرَسٍ، وَبُقُضْبُضِهِ مِنْ قَبَسٍ، وَكَمَ قَامَ وَقَعَدَ
فِي مَصْلَحَةٍ وَكَانَ أَذْنَاهُمْ مِنْ مَلِكِهِ مَقَامًا لَمَّا قَامَ وَأَعْلَاهُمْ مَجْلِسًا لَمَّا جَلَسَ؛ فَسَمِعَ
المَقَامَ العَالِي السَّيْفِي وَأُطَاعَ، وَأَتَتْهُ إِلَى مَا بَرَزَتْ بِهِ مَرَامِيسُ وَالِدِهِ - أَنْفَذَهَا اللهُ -
وَأَمْتَلَّ أَمْرَهُ المَطَاعَ، وَعَمِلَ بِرَأْيِهِ الشَّرِيفَ وَهُوَ نَاصِرُ السُّنَّةِ فَقَدَّمَ فِيهَا مَا اسْتَطَاعَ،
وَسَارَعَ إِلَى مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ مِنَ الْإِلْفَةِ وَالْاجْتِنَاعِ، وَأَتَّبَعَ السُّنَّةَ النَّبَوِيَّةَ فِي تَكْثِيرِ الْأُمَّةِ
بِدُرِّيَةِ أُمَّةٍ مُلُوكِيَّةٍ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا لَهُ الْأُمَّةُ أَتْبَاعُ؛ لِعَالِمِهِ الْيَقِينُ أَنَّهُ لَوْ خَطَبَ لَهُ
وَالِدُهُ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ إِلَى جَمِيعِ الْمُلُوكِ، لَمْ يَجِدْ مِنْهُمْ إِلَّا كُلَّ مَلِكٍ عَظِيمٍ وَهُوَ لَهُ
عَبْدٌ مُلُوكٍ؛ فَاحْتَجَى سُنَّةَ شَرِيفَةِ مُلُوكِيَّةٍ مَا بَرَحَتْ الْخُلَفَاءُ وَالْمُلُوكُ تَحْفَظُ بِهَا قُلُوبَ
أُولِيائِهَا عَلَى أُمْدَادِ الْمَدَى، وَيَكْفِي مِنْ هَذَا مَيِّمُونُ فَعِلِ «الْمَأْمُونِ» لَمَّا تَزَوَّجَ

« بُوَيَّانَ » من أبيها « آبن سَهْلٍ » وَخَطَبَ « الْمُعْتَصِدُ » إِلَى « آبن طُولُونِ » أَبَتَهُ
« قَطْرَ النَّدى » .

ورأى والدها أعزّه الله تعالى قدراً هائلة مهابةً فسلم وقال : لِمَا لِكَ التَّصَرُّفِ
وَاللَّيْلِ التَّصْرِيفِ ، وَإِذَا اقْتَضَى حُسْنُ النَّظَرِ الشَّرِيفِ تَشْرِيفَ عَيْدٍ فَيَا حَبْدًا
التَّشْرِيفِ ، وَيَا حَبْدًا السَّبَبُ الَّذِي أَتَّصَلْتُ لَهُ بِالْمَقَامِ الشَّرِيفِ الْأَسْبَابِ ، وَأَحْتَقَلْتُ
دِيمَ النَّعْمِ وَأَحْتَقَلْتُ لِلْإِجْتِمَاعِ عَلَى سُنَّةٍ وَكِتَابٍ ، فَمَعَّاسِدْتُ عَلَى إِثْبَاتِهِ صُفْرُ الْأَصَائِلِ
وَحُمْرُ النَّعْمِ ، وَتَنَاقَسْتُ عَلَى رَقَمِ سَطُورِهِ مَحَافِيفُ السَّحَابِ وَصَفِيفُ الْمَاءِ وَصَلِيلُ
السَّيْفِ وَصِرُّ الْقَلَمِ ، وَتَمَنَّتْ الْكَوَاكِبُ لَوْ أَجْتَمَعَتْ مَوَاقِبُ يَوْمِهِ الْمُشْهُودِ ،
وَالْمُنَاقِبُ لَوْ أَنَّهَا حَوَّلَتْ بِمَقَابِ خَافِقَةِ الْبُودِ ، وَوَدَّتْ نَسَمَاتُ الْأَنْهَارِ لَوْ كَانَتْ هِيَ
الَّتِي سَمَتْ بِالْإِتِّفَاقِ ، وَالْحَمَائِمُ لَوْ أَسْبَحَ لَهَا أَنْ تُفَرِّدَ وَتَمْلَحَ مَا فِى أَعْنَاقِهَا مِنَ الْأَطْوَاقِ ،
بَلِ السُّيُوفُ لَمَّا رَأَتْ مَقَامَ الْجَلَالَةِ أَغْضَتْ وَغَضِبَتِ الْأَحْدَاقُ ، وَالرِّمَاحُ لَمَّا بَدَأَ لَهَا
سِرُّ الْمَلِكِ مَا يَلَا وَقَفَتْ عَلَى سَاقٍ .

فبرزت المراميم الشريفة - زادها الله شرفاً - بتحرير هذا الكتاب الكريم ، وتنفيذ
ما يصلح من الدرر لهذا العقد العظيم ، وقد المرسوم العالى المولوى السلطانى ما أمر
به وصدق ، وتأدب إجلالاً لمقام أبيه الشريف فأنطق ، وتواضع لله فلم يقل : هذا
ما تصدق ، بل قال : هذا ما أصدق المقام العالى السيفى أنوك آبن مولانا السلطان
الأعظم ، مالك رقاب الأئمة ، الملك الناصر ، السيد الأجل ، العالم ، العادل ، الغازى ،
المجاهد ، المؤيد ، المربط ، المتأخر ، المظفر ، المنصور ، الشاهنشاه ، ناصر الدنيا
والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، محيى العدل فى العالمين ، منصف المظلومين
من الظالمين ، ملائ البسيطة ، ناصر السنة ، ركن الشريعة ، ظل الله فى أرضه ،

القائم بسنته وفرضه ؛ وأرث الملك ، ملك العرب والعجم والتürk ، خداوند عالم
بادشاه بنى آدم ، بهلوان جهان ، شهریار ایران ، اسکندر الزمان ، مُملّا أصحاب المناير
والأسيرة والثخوت والتيجان ؛ فاتح الأفطار ، وأهيب الممالك والأقاليم والأمصاير ،
مُبيد البغاة والطغاة والكُفّار ؛ صاحب البحرين ، حامي الحرمين ، خادم القبلتين ؛
كفيل العباد والعباد ، مُقيم شعائر الحجّ والجهاد ؛ إمام المتقين ، قسيم أمير المؤمنين ،
أبى المعالى محمد بن السلطان الشهيد الملك المنصور ، السيّد ، الأجلّ ، العالم ، العادل ،
المجاهد ، المؤيد ، سيف الدين ، والد الملوك والسلاطين ، أبى الفتح «قلاوون» خلد
الله سلطانه ، ونصر جنوده وجيوشه وأعوانه ... : الحجاب الكريم ، الرفيع ، المتيع ،
المصون ، المكنون ، الجهة المكرمة ، المُفخّمة ، المُعظّمة ، بنت الجناب الكريم ،
المعالى ، الأميرى ، الأجلّ ، الكبيرى ، العالمى ، العادل ، المُهدى ، المُشيدى ،
الزّعيمى ، المُقدّمى ، الغياثى ، الغوى ، الذّخرى ، الأوحدي ، الظّهيرى ، الكافى ،
السّيفى ، ركن الإسلام والمسلمين ، سيّد الأمراء فى العالمين ، نصير الغزاة والمجاهدين ،
زعيم الجيوش ، مقدّم العساكر ، عون الأمة ، غياث الملّة ، ممهد الدول ، مُشيد
الممالك ، ظهير الملوك والسلاطين ، عضد أمير المؤمنين ، بكتمر اساقى الناصرى ،
ضاعف الله نعمته .

أَصَدَقَهَا مَا تَلَقَّتْ بِهِ أَنْسَابُهَا إِجْلَالًا ، وَبَلَّغَتْ بِهِ أَحْسَابُهَا جَمَالًا ، وَطَلَعَتْ فِي سَمَاءِ
الْمُلُوكِ هَلَالًا ؛ وَلَيْسَتْ نَقَارًا ، وَقَبَسَتْ أَنْوَارًا ؛ وَأَوْتَتْ إِلَى حِصْنِ حَصِينٍ ، وَوَصَلَتْ
إِلَى مَقَامِ آمِينٍ ، وَاسِبَ (?) بِأَمْوَالٍ وَبَيْنَ ؛ مَالِوْلا أَدَبُ الشَّرَفِ ، وَتَجَنَّبُ السَّرَفِ ؛
وَالْعَمَلُ بِالشَّرْعِ فِي تَبْيِينَ مَعْلُومٍ ، وَتَبْيِينَ مَقْدَارِ مَفْهُومٍ ؛ نَحْرَجَ عَنْ كُلِّ وَصْفٍ
مَحْدُودٍ ، وَقَدَرٍ مَعْدُودٍ ؛ وَلَمَّا قَامَ بِهِ مَوْجُودٌ ، وَلَكَانَ مِمَّا تَقَلُّ لَهُ الْمَالِكُ
وَلَا يُسْتَكْنَرُ لِأَجْلِهِ الْوُجُودُ .

قَدِّمَ لَهَا مِنَ الذَّهَبِ الْعَيْنِ الْمَصْرِيَّ الْمُسْكُوكَ مَا هُوَ بِتَقْدِيمِكَ لَكَ وَالِدِهِ مَعْرُوفٌ ،
وَمِنْ حُقُوقِهِ مَقْبُوضٌ وَفِي هِبَاتِهِ مَصْرُوفٌ ؛ مَا يُجَدُّ مَا لَا ، وَيُتَمَّى مَا لَا ، وَيَأْتِي كُلُّ
دِينَارٍ مِنْهُ وَوَجْهُهُ بِذِكْرِ اللَّهِ وَأَسْمِ أَبِيهِ يَتَلَلَا .

أَصْدَقَهَا عَلَى بَرَكََةِ اللَّهِ تَعَالَى وَعَوْنِهِ وَتَوْفِيقِهِ كَذَا وَكَذَا ، تَحْلِلُ لَهَا كَذَا وَكَذَا ؛ قَبَضَهُ
وَكَيْلُ وَالِدِهَا مِنْ وَكِيلِهِ ، قَبَضًا تَامًّا كَامِلًا ، وَتَأْخِرُ بَعْدَ ذَلِكَ كَذَا وَكَذَا دِينَارًا حَالًا ؛
عَلَى مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ مِنْ إِمْسَاكِهِ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيجِ بِإِحْسَانٍ : (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ
اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ) .

وَوَلَّى تَرْوِيحَها مِنْهُ عَلَى الصَّدَاقِ الْمُعَيَّنِ بِإِذْنِ وَالِدِهَا - أَعَزَّهُ اللَّهُ تَعَالَى - الْمَقْدَمِ
ذِكْرُهُ : - الْعَبْدُ الْفَقِيرُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، قَاضِي الْقَضَاةِ ، حَاكِمُ الْحُكَمِ ، خُطِيبُ خُطَبَاءِ
الْمُسْلِمِينَ ، جَلَّالُ الدِّينِ ، خَالِصَةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ أَبُو الْمَعَالَى ، مُحَمَّدُ بْنُ قَاضِي الْقَضَاةِ
سَعِيدِ الدِّينِ أَبِي الْقَاسِمِ ، عَبْدِ الرَّحْمَنِ ابْنِ الشَّيْخِ الْإِمَامِ الْعَالِمِ الْعَلَّامَةِ إِمَامِ الدِّينِ ،
أَبِي حَفِصٍ عُمَرَ بْنِ أَحْمَدَ الْقَزْوِينِيَّ الشَّافِعِيَّ ، الْحَاكِمِ بِالْدِيَارِ الْمِصْرِيَّةِ الْمَحْرُوسَةِ وَأَعْمَالِهَا
وِبِلَادِهَا ، وَجُنْدِهَا وَضَوَاحِيهَا ، وَسَائِرِ الْمَمَالِكِ الْمُضَافَةِ إِلَيْهَا ، بِالْوِلَايَةِ الشَّرْعِيَّةِ ، أَدَامَ
اللَّهُ أَيَّامَهُ ، وَأَعَزَّ أَقْضِيَّتَهُ وَأَحْكَامَهُ . فَقَبِلَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ - خَلَّدَ اللَّهُ مُلْكَهُ - لَوْلَهُ
الْمُسَمَّى - أَدَامَ اللَّهُ تَعَالَى نِعْمَتَهُ - ذَلِكَ مِنْهُ قَبُولًا شَرْعِيًّا ، يَخَاطَبُ عَلَيْهِ شِفَاها بِحُضُورِ
مَنْ تَمَّ الْعَقْدُ بِحُضُورِهِ ، فِي دَارِ الْمُلْكِ بِالْقَصْرِ الْأَبْلَقِ ، بِقَلْعَةِ الْجَبَلِ ، حَرَسَهَا اللَّهُ
تَعَالَى ، بِبُكْرَةِ يَوْمِ السَّبْتِ حَادِي عَشْرِينَ مِنْ صَفَرِ سَنَةِ أَلْفَيْنِ وَثَلَاثِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ .



وهذه نسخةُ صَدَاقِ الْمُقَرَّرِ الشَّرِيفِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ السُّلْطَانِ الشَّهِيدِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ مُحَمَّدِ
ابْنِ قِلَادُونَ ، مِنْ إِنْشَاءِ الْمُقَرَّرِ الشَّهَابِيِّ بْنِ فَضْلِ اللَّهِ ، وَهِيَ :

الحمد لله مَنَّى المُلُوكَ بالمُظَاهَرَةِ ، وَمَكَثَّرَ زِينَةَ الْأَنْبِيَاءِ بِمُجُومِهِمُ الزَّاهِرَةِ ، وَمَكَبَّرَ أَعْدَادَ الْأَوْلِيَاءِ بِمَا تَمَّتِ النِّعْمَةُ بِهِ مِنْ شَرَفِ الْمَصَاهِرَةِ ..

نَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي شَرَفَتْ قَدْرًا ، وَصَرَّفَتْ أَمْرًا ، وَأَطْلَعَتْ مِنْ هَالَةِ الْبَدْرِ الْمُنِيرِ شَمْسًا لَا تَخْذُ غَيْرَ الْأَفْقِ خِذْرًا ، وَلَا تَنْتَقِي اللَّيَالِي وَالْأَيَّامُ إِلَّا أَنْ تُقْلِدَهَا مِنَ الْأَشْعَةِ يَاقُوتًا وَمِنْ الْكُوكَبِ دُرًّا ، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً تَجْمَعُ مِنْ حُجَاةِ الَّذِينَ نَسَبًا وَصِهرًا ، وَتَرْفَعُ فِي أَنْبَاءِ الْأَنْبَاءِ لَهَا حَسَبًا وَدِكْرًا ؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي عَصَمَ بِهِ ، وَخَصَّ صَفْوَةَ الْخَلْقِ فِي الْمَصَاهِرَةِ بِاخْتِلَاطِ نَسَبِهِمْ بِنَسَبِهِ ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ صَلَاةً تَسْتَوْثِقُ بِهَا الْأَسْبَابُ ، وَتَسْتَوْسِقُ الْأَنْسَابُ ، وَتَبْقَى أَنْوَارُهَا بِمُلْكِ أَسْنَاءِ الْمُلُوكِ كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي الْأَعْقَابِ ؛ وَسَلَّمٌ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وَبَعْدُ ، فَلَمَّا جَمَعَ اللَّهُ بِمُلُوكِ الْبَيْتِ الشَّرِيفِ الْمَنْصُورِيِّ - كَثْرَ اللَّهُ عَدَدَهُمْ - شَسَنَاتِ الْإِسْلَامِ ، وَعَمَّا يَبْوَاقُ جِهَادِهِمْ مَا آمَنَدَ مِنْ ظَلَامٍ ؛ حَتَّى أَتَتْهُمُ النَّوْبَةُ إِلَى مَنْ أَصْبَحَتْ بِهِ الدَّوْلَةُ الْقَاهِرَةُ وَكُلُّ أَوْقَاتِهَا أَنْوَارُ صَبَاحٍ ، وَتَوَارَ أَفَاحُ ، وَسَمَاءُ سَمَّاحٍ ، وَأُسْتَمْنَى نَعِيمٌ لَا تُعَدُّ إِلَّا مَعَاقِدُ تَيْجَانِ الْمُلُوكِ عَلَى كُلِّ جَبِينٍ وَضَاحٍ ؛ الْمَقَامُ الشَّرِيفُ الْعَالِي الْمَوْلَوِيُّ ، السُّلْطَانِيُّ ، الْمَلِكِيُّ ، النَّاصِرِيُّ ، زَادَ اللَّهُ شَرَفَهُ ، وَأَعْلَى عَلَى شُرُوفَاتِ بُرُوجِ الْمَاءِ غُرْفَهُ ؛ فَاحَبَّ - لَمَّا أَجْرَاهُ اللَّهُ بِهِ وَبَيْنَ سَلَفٍ مِنْ مَلُوكِ بَيْتِهِ الشَّرِيفِ مِنْ تَأْيِيدِ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، وَتَأْيِيدِ مَا شَمِلَهَا بِفَتْوحَاتِهِمُ الْمُذْهَبَاتِ الْفُتُوحِ مِنْ سَوَائِفِ النِّعْمَةِ - ؛ أَنْ يَعْمَلَ بِقَوْلِ نَبِيِّهِ الْمُشْرِفِ بِمَوَاقِفِ أَسْمِهِ وَمُتَابَعَةِ حُكْمِهِ فِي التَّرْوِيجِ ، وَأَنْ تَقَعَ مَوَاقِعُ أَمْطَارِهِ عَلَى كُلِّ أَرْضٍ حُرَّةٍ فَتُنْبِتَ كُلُّ زُرُوحٍ بِوَسِيجٍ .

وَكَانَ مِنْ بَنِيهِ - آدَامُ اللَّهِ سُعُودَهُمْ - مَنْ يُطِيعُ فِي كُلِّ أَمْرٍ أَمْرَهُ الْعَالِي آدَامُ اللَّهِ تَمَكِّنُهُ ، وَلَوْلَا هَذَا لَمَّا رَضِيَ سِوَى أَقْرَانِ الْفُرْسَانِ لَهُ قَرِينَهُ ؛ وَكَانَ مِنْ نُجَبَائِهِمْ إِذَا

عَدَّتْ الأولاد ، وأحبابهم إذا كان كما يقال : الْوَلَدُ نَمْرَةُ الْفُؤَادِ ؛ وَمَنْ هُوَ لِحَبْلِهِمْ
بَحَالٌ ، وَلِدَوَلَّتْهُمْ دَلَالٌ ، وَلِقَابِهِمْ أَسَدُ الْأَشْيَالِ - مَنْ يَعْتَرِفُ كُلَّ مَنْ عَرَفَهُ بِفَضْلِهِ ،
وَيُؤْتِلُ فِي أَبْنَائِهِ مَا لِأَبْنَاءِ سَيِّدِهِ إِبْرَاهِيمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ بَرَكَةِ تَسْلِيلِهِ .

بَرَزَ الْمَرْسُومُ الشَّرِيفُ الْعَالِي ، الْمَوْلِيُّ ، السُّلْطَانِي ، الْمَلِكِي ، النَّاصِرِيُّ ، أَنْفَذَهُ
اللَّهُ فِي الْأَقْطَارِ - بَارِئٌ يُخَيِّرُ لِمَقَرِّبِهِ الْكَرِيمِ ، وَتَسْبِيهِ الصِّمِّمْ ؛ وَصَبَاحِهِ الْمُشْرِقِ ،
وَسَمَاحِهِ الْمُغْنِقِ ؛ فَصَادَفَ الْإِحْسَانُ مَوْضِعَهُ ، وَأَنْتَخِبَ لَهُ مِنْ مَشْرِقِ الْبَدْرِ الثَّمَامِ
مَظْلَمَةٌ ؛ وَمَنْ هُوَ مِنْ هَذِهِ النَّوْلَةِ الْقَاهِرَةِ عَلَى الْحَقِيقَةِ بِالْيَمِينِ ، وَمَنْ هُوَ الْبَحْرُ الزَّائِرُ
وَمِنْ مَكْنُونِهِ يُسْتَخْرِجُ أَنْفَرُ الثَّمِينِ ؛ فَبَادَرَ الْخَاطِبُ إِلَيْهِ إِلَى آغْتِنَامِ هَذَا الشَّرَفِ
الَّذِي لَا يُطَاوَلُ ، وَعَاجَلَ هَذِهِ النِّعْمَةَ الَّتِي لَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ وَصَدَقَاتُ سُلْطَانِهِ - خَلَّدَ اللَّهُ
مُلْكَهُ - مَا كَانَتْ مِمَّا تُحَاوَلُ ؛ وَقَالَ : إِنْ رَضِيتَ تِلْكَ السُّتُورَ بِهَذِهِ الْمُخْطُوبَةِ ،
أَوْ أَهَلَّتْ تِلْكَ السَّمَاءُ الْعَلِيَاءُ هَذِهِ الْمُحْجُوبَةَ ؛ فَهِيَ لِمَا أَهَلَّتْ لَهُ فِي خِدْمَةِ ذَلِكَ الْمَقَامِ
الْأَمِينِ ، وَهِيَ كَمَا شَاءَ مَا لِكُلِّهَا الْمُتَصَلِّقُ مِنْ ذَوَاتِ الْعِفَّةِ وَإِلَّا فَهِيَ مِمَّا مَلَكَتِ
الْيَمِينِ ؛ فَأَتَمَّتِ الصَّدَقَةُ الشَّرِيفَةُ عَوَارِفَهَا بِمَا هُوَ أَشْرَفُ مَقَامًا ، وَأَعْظَمُ لَهَا فِي رَتَبَةِ
الْفَخَارِ فَهِيَ تَسْمُو بِهَذَا وَلَا تُسَامَى ؛ وَشَرَفَتْهُ بِمَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ عِنْدَ الْمَقَرِّ الشَّرِيفِ
مِنْ الْمَقَامِ الْكَرِيمِ ، وَلَمْ تَكُنْ إِلَّا مِنْ ذَوَاتِ الْعُقُودِ وَلَا كَيْدِ وَلَا كِرَامَةِ لِمَا يَنْجَلِي بِهِ
الْلَيْلُ الْبَيْمِ ، وَلَا لِمَا يَقَعْلُ فِي جِيدِ الْجَوَازِ مِنْ عَقِيدِ دُرِّهَا النِّظِيمِ ؛ وَلَوْلَا إِبْجَلَالُ
الْمَقَامِ عَنِ التَّطْوِيلِ لِمَا أَخْتَصَرَ الْقَائِلُ فَقَالَ :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَذَا مَا أَصْدَقُ
.....
.....

الطرف الثاني

(في صدقات الرؤساء والأعيان وأولادهم)

وهي على نحو من الصدقات الملوكة في الترتيب ، إلا أنها أخصر ، ومن الألقاب بحسب أحوال أصحابها من أرباب السيوف والأقلام .

(١) وهذه نسخة صدقات جمال الدين عبد الله [بن سيف الدين أبي سعيد أمير حاجب] على بنت بيدمر العمري ، من إنشاء المقر الشهابي بن فضل الله ، وهي :

الحمد لله مبلغ كل أمل ما يرجوه ، ورأى ذم من لم ينسوا عهده ولم يحلفوه ،
ومكّل الخير لكل ذي ^(١) يصد من يحفوه ، وجبب كل منيب يدعو قائما
وقاصدا : (ولما قام عبد الله يدعو) .

نحمده حمدا نكرر فضله وتتلوه ، ونحل مفضله ونجملوه ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة يتظافر عليها الأمر المسلم وبنوه ، وتبيض بها وجوه الأوداء ، وتسود وجوه الأعداء ، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ؛ ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الذي سجد به ذووه ، وصعد قدر صهره وحموه ، وشرّف نسباً ما ألقى فيه على سقاج هو ولا أولؤه ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة لا يزال بها الروض الأرج يهوه ، والسحر يلفها ولو سكّت وختم بالبرق فوه ؛ وسلم تسلياً .

وبعد ، فإن أزهى زهر طاب مجتنوه ، وطال باعاً في الفقار مجتبوه ؛ زهر كرامة جرت عنها لامة كمي ، وأبرزتها سنة الإسلام من حجاب ذي أنف حي ؛ وطلعت من أفق بدرى طالما سنع مجتلوه ، وحي سيف أمين في كلته بكلاءته مجتلوه .

وكان الخنابُ الجمالُ عبدُ الله بنُ المرحوم سيف الدين أبي سعيد أمير حاجب،
أدام الله تعالى علاه، ورحم أباه، هو ولدُ ذلك الوالد، وطأرف ذلك التالد، ونشؤ
هذه الدولة الشريفة الكاملية التي أخذ منها حفظه بالتمام والكمال، وأصبحت به
كالغادة الحسناء ذات الحُسن والجمال، ولم يمت أبوه في أيام سلطانها - خلد الله
ملكه - حتى قوت به عينه، وسأواه في الإمرة لولا تفاوت العدة وقدم المدة بينه
وبينه، وجاء منه ولدٌ نجيب، وأبنٌ شاع وذاع سرأبيه ومجد وهذا عجيب !!! .

ولما انتقل والده رحمه الله تعالى إلى رحمة ربه، وشرب بالكأس الذي لا بد لكل
حى من شربه - تطلب منل ذلك الأب ولم يزل يبحث حتى وجد، وظفر بوالد إن
لم يكن ولده حقيقة فإنه عنده مثل الولد، وهو المقترب بدمر، وهو الولد الذي لم يفقد
معه من والده ذره، والأب الذي هو أرف من كل أم به، والتبر البندري الذي
سعد قرانا، وصعد وداس بقدميه أقرانا، وقسم دهره شطرين: نهاره للضيوف قري
وليله لله قرانا .

هذا إلى أنه طامح طيب لزكاة أمواله وتمرها، وزين في أعماله بمدرسة عمرها،
وقيد شوارده حسناته وثقفها، مع أنه شيد المالِك وسدّد أمورها، وسدّد ثغورها،
وحمل بيض سيوفه السواد الأعظم، ودعى بصواب ميامه النوايب ولم تستعظم،
ولم تزل نوب الأيام تجرب منه مسوريا، وتجرد حرا كريما جاء في أول السنة صفرا
بديرا، فكان من تمام ربه بمن سلف إجابته ولده، وإجالة الرأي فيما يكون سببا
لصيانة عزّمته وذات يده، فانهم له بعقيلته المنعة، وربيتته التي غدت الشمس منها
سافرة مفعنة، وقال: على الخير والخير، وأبن أخ كريم وجدع الحلال أنف الغيرة،
وما أسنى عقدا يكون متوّلّه، ومُنشئه إحسانا منه ومُسليه، موّلّي به نظمت عقود
الآلى، ورقت بلمه أعلام الأيام ونوايب الليالي، وسلمت القضايا به إلى مُنقذ

أحكامها، ومُنِيلَ الْفَضْلِ لِحُكَايَها، الْبَحْرِ الزَّائِرِ، وَالنَّجْمِ الَّذِي تَمَّ تَرْكُ الْأَوَّلِ مِنْهُ
لِلْآخِرِ، وَالنَّهْمِ إِلَّا أَنَّهُ قَضَتْ صَوَاعِقُهُ عَلَى الْخُصُومِ، وَالْإِمَامِ الَّذِي أَجْمَعَتْ عَلَيْهِ
السُّنَّةُ وَلَمْ تُشْكِرِ الشَّيْعَةُ أَنَّهُ الْإِمَامُ الْمَعْصُومُ؛ وَالْعَالَمِ الَّذِي مَا بَرَحَتْ بُرُوقُهُ نُشَامَ، وَحُقُوقُهُ
عَلَى أَهْلِ مِصْرَ وَالنُّشَامِ؛ وَالَّذِي وَلَّى الظُّلْمَ مُنْذُ وَلَّى، وَأَعْتَرَفَ ذُووُ الْفَضْلِ وَالْفَضْلُ
فِي الْقَضَاءِ أَنَّ أَنْتَقَامَهُ تَقَى الدِّينَ وَأَقْصَاهُ :

قَاضِيَ الْقَضَاءِ أَبُو الْحَسَنِ * بَيَّغَانِهِ يُجَلِّي الْحَزْنَ ،
و [هُوَ] ^(١) الَّذِي فِي حُكْمِهِ * يَجْرِي عَلَى أَقْوَى ^(٢) [سَنَنِ] !
طَوْدُ إِذَا وَارَتْهُ * بِالطَّوْدِ فِي حُكْمٍ وَزَنَ !
وَالْبَحْرُ طَلَى رِدَائِهِ * قَلْدُ الْعُقُودِ بِلَا تَمَنَ !

فَأَضَاءَ الْمُخْفِلَ بِهِ وَبِالْحَاضِرِينَ، وَقَامَ شِعَارُ الدِّينِ حَتَّى قَالَ الْقَائِلُ : هَذِهِ سُيُوفُ
الْمُجَاهِدِينَ وَهَذَا سَيْفُ الْمُنَاطِرِينَ ؛ وَقِيلَ : هَذَا وَقْتُ جُودٍ قَدْ حَضَرَ، وَمَوْضِعُ
سُرُورٍ يَنْبَغِي أَنْ يُعْجَلَ مِنْهُ مَا يُنْتَظَرُ ؛ فَأَبْتَدَأَ السَّعْدَ بِحِجَاهِ الْوَسِيمِ ، وَأَفْتَحَ فَقَالَ :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ هَذَا *



وَهَذِهِ نَسِخَةُ صَدَاقِ نَاصِرِ الدِّينِ مُحَمَّدِ بْنِ الْخَطِيرِيِّ ، مِنْ لِبْنَاءِ الْمَقَرِّ الشَّهَابِيِّ بْنِ
فَضْلِ اللَّهِ ، وَهِيَ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي زَادَ الْأَصُولَ الطَّيِّبَةَ قُرْبًا، وَزَانَ الْأَنْسَابَ الطَّاهِرَةَ بِصَلَةِ نَسَائِكَ
حُبًّا، وَصَانَ كَرَامَتِ الْبُيُوتِ الْقَدِيمَةِ الْقَحَّارِ بِنِ بِنَاضِلٍ عَنْ حَسْبِهِ ذَبَا، وَبُنَاطِرِ الْعَلِيَاءِ
فَلَمْ يَبْنِ إِلَّا بَيْنَ مَنَازِلِ النُّجُومِ بَيُوتًا وَلَمْ يُسِيلْ سِوَى السُّمْرِ سُمُرًا لَقْنَا مُجْجِبًا .

(١) بياض بالأصول، والتصحيح من المقام .

(٢) بمعنى جمع .

نحمدُه حمدَ من دعاه قبل بثِّ التَّيمِّ فليّ ، وأستدعاه لأخذَ العهدِ عليه أمامَ
تفريقِ القِسمِ فما تَأبَى ، ونشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً تُستَنتَقُ
ألسنةً وتُشكرُ قلباً ، وتُسْتَفِدَّقُ أنواءُ السُّرورِ فُضِيءُ البَشائرِ بَرُوقاً وتُظَرُّ الرِّحمةُ مُجَبَّأً ،
ونشهدُ أن محمداً عبده ورسوله الذي قام في تكثيرِ الأُمَّةِ حتى زادَ عددها على مَوَاقِعِ
الْقَطَرِ وأَرَبَى ، وقال مما أَمَرَ به : (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى)
صَلَّى اللهُ عليه وعلى آله وصحبه وعلى أَقْرَبائِهِ صلاةً تَظُمُ الْآلَ وَصَحْبَهُ ، مَا سَارَتْ الشُّبُهَاتُ
تَقْطَعُ الْآفَاقَ شَرْقاً وَغَرْباً ، وَمُسْلِمٌ تَسْلِيماً .

وبعدُ ، فإنَّ أَوَّلَى مَا أَشْبَبَكَ وَشِيعَهُ ، وَأَشْبَبَهُ فِي مَنَابِتِ الْإِيكِ بَيْبُجُهُ ، وَأَنْتَبَهَ
فِي أَرَائِكِ انْتِمَائِلِ أَرِيحُهُ ، وَأَتَدَبَّ لِإِتْيَانِهِ الْأَفْقُ وَظَهَرَ عَلَيْهِ مِنْ ذَهَبِ الْعِشَاءِ تَمْيُوهُ
وَمِنْ لَمَعِ الصَّبَاحِ تَدْيُجُهُ - مَا أَتَيْتَ فِيهِ الشَّرِيعَةُ الْمُطَهَّرَةُ حَيْثُ لَا تَخْتَلِفُ الْأُمَّةُ ،
وَالسُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ عَلَى مِنْ سَنَاهَا أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ فَيَا تَأْتَلُفُ بِهِ الْبُعْدَاءُ وَتُكْثِرُ
لِمُبَاهَاتِهِ الْأَتَمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هَذِهِ الْأُمَّةُ ، وَتَدْنُو بِهِ الْأَجَانِبُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ وَيَجْعَلُ
بَيْنَهُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ، وَتُعَدُّ بِهِ أَيَادٍ جَمَّةٌ لَا تُحْصَرُ وَيُحْسَلَدُ بِهِ فِي الْعَاقِبَةِ شَرَفُ الذِّكْرِ
وَيَتَجَعَّلُ بِهِ شَرَفُ النِّعَمَةِ ، وَهُوَ النِّكَاحُ الَّذِي تُسْتَدُّ بِهِ الْأَوَاصِرُ ، وَتَعْتَدُّ بِهِ الْمَوَارِدُ
لِتَمَثِيلِ أَكْثَرِ الصُّوَرِ مِنْ أَزَى الْعَنَاصِرِ ، وَتَعْتَدُّ بِهِ هِمَمُ الْأَبْطَالِ لِمَا يَسْتَخْرِجُهُ بِحَفْدَةِ
أَبْسَانِهِ مِنْ أَمِّ قُوَّةٍ وَنَاصِرٍ . وَأَكْمَلُهُ مَا تَمَثَّلَتْ فِي أَشْرَفِ الْبُيُوتِ الْعَرِيقَةِ وَجُوهُ
نَحَّارِهِ ، وَتَقَابَلَتْ فِي مَطَالِعِ السُّعُودِ - حَيْثُ الْبَدْرُ الْمُنِيرُ وَالشَّرْفُ الْخَطِيرُ - مَشَارِقُ
شُمُوهِ وَمَطَالِعُ أَقَارِهِ .

وكان الأَبَوَانِ فِي أَهْلِ الْفَخَّارِ مِنْ جُرْئُومَةٍ بَسَقَا ، وَأَرُومَةٍ تَفَرَّقَتْ فُرُوعُهَا
ثُمَّ تَلَاقَا مِنْهَا غُصْنَانِ وَأَعْتَقَا ، مِنْ بَلِيَّتٍ مَا مُجِبُّهُ إِلَّا مَوَاضِي الصَّفَاحِ ، وَلَا شُبُهَةُ

إلا طلائع الأيسنة في رؤوس الرماح، ولا محبة إلا ما يفيض على جنابه من النفوس
أو يفيض من السحاب، ولا يحفه إلا المنقب لولا أن الثريا جاذبت ما يعرض
في السماء أنشاء الوشاح، وكان هو الراغب إلى عمه، الخاطب إليه ما لم يكن يحبا
إلا لقسمه، الطامح بنظيره إلى عقيلة الفخار في غرفها، الطامح بخطبة الشمس شمسين
النهار إلا أنها في بيت شرفها، المتوقع من كرم عمه الإجابة التي لحظها بأمله، وتولية
يد كريمة لا يتبدل الزمان إلا إذا حلت شمسها في بيت حملة، توقعا لنسل لا يزال به
شرف هذا البيت الكريم موجودا، ونسب إذا عدّ ولد منه الآباء عدّ جدّين سعيدين
هذا مسعودا وهذا محمودا، قتلوا قصده بأكرام بواه أكتاف الشرف، وأوطاه
فروش الكرامة متمما بنعم الترف، أبتدعا للكرم المألوف، وأتبعوا للسنة الشريفة
إذ كان الأقربون أولى بالمعروف .

فتباريا جودا سارع كل منهما في أداء حقه إلى الواجب، وتجاريا إليه ليحقا
شاؤا أبويهما وكل منهما يعلم أنه العين والعين لا ترتفع على الحاجب، وأتمّ الجناح
الشرقي محمود - أدام الله نعمته بحسن إجابته، ويمن رغبته في أهل عصبته، وأهل
جنوده إلى أن ساروا إلى الهيجا تحت عصابته - بأن فوض هذا الأمر إلى أخيه
الكبير والد الخاطب، وسكت وقال : هو في التصرف وعنّي الخاطب، وله الأمر
ولولا الشرف بنسبة الأخوة إليه لما قلنا : إلا أننا ملك يده، وإذا كان العم صنو
الأب فأى فرق بين ولدي وولده؟، ولئن اختص في نسبة هذه الزوجة في يومه هذا
فإن أولادها لا تعرف إلا به في غده، فكل هذا العقد، وأشرق به السعد الطالع
أضوا مما قدم وأخبر من النقد، وكان من تمام التكرم، أن قال قائله :

بسم الله الرحمن الرحيم



وهذه نسخة صداق الفاضل تقي الدين، وهي :

الحمد لله الذي رَفَعَ إلى المَنَازِلِ العَلِيَّةِ من كَانَ حَقِيًّا ، وَجَمَعَ شَمْلَ من لَمْ يَبْرَحْ لِسَانِ
السَّنَنِ تَابِعًا وَبِهَا حَقِيًّا ؛ وَخَلَعَ أَثْوَابَ الثَّوَابِ عَلَى من سَرَّحَ طَرَفَ طَرَفِهِ فِي رَوْضِ
التَّاهُلِ وَجَعَلَهُ وَضِيًّا .

لِحَمْدِهِ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي مِنْ هُنَّ جَدُّعٌ تَغْلِيهَا تَسَاقَطُ عَلَيْهِ رُطْبًا جَنِيًّا ، وَتَشْكُرُهُ عَلَى
فَضْلِهِ الَّذِي كَمْ أَجْرِي لِقَاصِدِهِ مِنْ بَحْرِهِ الْمَعْرُوفِ سِرِّيًّا ، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً تَمْنَحُ قَائِلَهَا فِي غُرَفِ الْجَنَّةِ مَكَانًا عَلِيًّا ، وَنَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا
عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ الَّذِي آتَاهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَجَعَلَهُ نَبِيًّا ، الْأَمْرَ أَمَّتْهُ بِالنُّكَاحِ لِيُكَاتِرَ بِهِمُ الْإِثْمَ
يَوْمَ يَقْرُبُهُ اللَّهُ نَجِيًّا ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ كَانَ يُحَلُّ مِنْهُمْ فِي حَالَتِي
الْكَرَمِ وَالْكَرَامَاتِ وَلَيْسَ ، مَا أَطْلَعَ التَّوْفِيقُ فِي آفَاقِ الْأَنْصَالِ مِنَ الْأَنْسَابِ الْكَرِيمَةِ
كُوْنًا دُرِّيًّا ، وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وبعد ، فَإِنَّ أَوَّلَى السَّنَنِ بِالِاتِّبَاعِ سُنَّةُ النُّكَاحِ ، الَّتِي أَخْفَى نُورُ مُصْبِحِهَا شَمْسَ
الصَّبَاحِ ، وَخَفَّتْ عَلَى مَعْلَمِهَا أَعْلَامُ النِّجَاةِ وَالنِّجَاحِ ، وَحَدَّ الْمَسِيرِ إِلَى رُبُوعِهَا الْإِهْلَةِ
بِإِهْلَةِ الْعَصْمَةِ فِي الْغُدُوِّ وَالرَّوَاحِ ؛ يَالَهَا سُنَّةٌ سُنَّةٌ وَجْهَهَا جَمِيلَةٌ ، وَأَصَابِعُ نَيْلِ نَيْلِهَا
بِلِ أَيْدِيهِ جَرِيْلَةٌ ؛ بِهَا تُحْيَى أَشْجَارُ النَّسَبِ وَيَطْيَبُ جَنَاهَا ، وَتَبْلُغُ النُّفُوسُ مِنَ الصِّيَانَةِ
أَقْصَى مَنَاهَا ؛ وَيُظْفَرُ أَوَّلُو الرِّغْبَةِ فِيمَا أَحَلَّ اللَّهُ بِمَطْلُوبِهِمْ ، وَتُؤَلَّفُ بَيْنَ مَنْ لَوْ أَنْفَقَتْ
مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، وَهِيَ الْوَسِيلَةُ الَّتِي تُكَثِّرُ سَوَادَ هَذِهِ الْأُمَّةِ ،
وَالَّذِي رَيْسُهُ إِلَى [بَقَاءِ] التَّوَجُّعِ الَّذِي أَنْظَرَهُ اللَّهُ فِي سَمَاءِ التَّكْرِيمِ تَجْمَةً ، وَإِلَيْهَا الْإِشَارَةُ
فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ
بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ .

ولما كان كذلك رَغِبَ في أَفْتِنَاءِ آثَارِهَا ، وَأَهْتَدَى بالضوء اللامع من أبقارها ؛ مَنْ
يتشرفُ المَكَانَ بِذِكْرِ وَصْفِهِ ، وَيَسْمَعُ مَا أَنتَشَرَ في طَيْبِهِ من طِيبِ عَرْفِهِ ؛ مَا جَدُّ
عَمَرِ الْبِلَادِ السَّاحِلِيَّةِ بِدَوَامِ دِيَمِهِ ، وَجَوَادِ مَا جَاوَرَهُ الْبَحْرُ إِلَّا لِيَقْتَنِسَ من كَرَمِهِ ؛
وَرَبِيسُ أَمْتِطَى ذِرْوَةَ الْعُلْيَا بِحُسْنِ السُّلُوكِ ، وَأَزْيَجِيُّ لَوْلَمْ يَكُنْ صَدْرًا لِمَا أُودِعَ سِرُّ
الْمُلُوكِ ؛ إِنْ تَكَلَّمَ أَنْزَلَكَ الْجَوْهَرُ الْمُصُونُ ، وَإِنْ كَتَبَ صَحَّحَتْ لُبْكَاءُ قَلْبِهِ تُغَوِّرُ
الثُّغُورَ وَالْحُصُونُ ؛ لِلَّهِ نَسَبُهُ الْمَشْهُورُ بَيْنَ الْأَكَابِرِ الْأَعْيَانِ ، وَبَيْتُهُ الْمَعْمُورُ بِالْعَيْنِ
الْمُرْقُوعِ خَبَرُهَا إِلَى قِتَانٍ ؛ نَخْطِبُ من عِلَّا قَدْرُهَا ، وَأَشْتَهَرُ بِالْحُسْنِ الْجَمِيلِ ذِكْرُهَا ؛
وَجَلَّتْ عَنَّا أَنْ تَرَى الْعِيُونَ لَهَا فِي الصُّونِ شَيْبًا ، وَنَحْتِ الْبِقَاعَ مُنْجَبُ بَرَكَةِ أَبِيهَا ؛
أَكْرَمَ بِهِ عَالِيًا عَامِلًا ، وَإِمَامًا لَمْ يَنْزِلْ يَنْدَى فَضْلًا وَيُسْدَى نَائِلًا ؛ كَمْ لَهُ من آثَارِ
مَشْهُورِهِ ، وَمَتَاقِبِ مَأْثُورِهِ ، وَصَدَقَاتِ مَبْرُورِهِ ، وَمَوَاطِنِ بِذِكْرِ اللَّهِ مَعْمُورِهِ .

فَقُولِ بِالْيُسْرِ قَوْلَ رَسُولِهِ ، وَرَدِّ رَائِدَهُ مُخِرًا بِلُؤْلُجِ سُؤْلِهِ ؛ وَقِيلِ لَهُ بِلِسَانِ الْحَالِ ، :
هَذَا مَا كَانَتْ تَنْتَظِرُ الْأَمَالَ ؛ يَا لَهُ عَقْدًا غَلَّتْ جَوَاهِرُ عُقُودِهِ ، وَأَنَارَتْ فِي آفَاقِ
الْأَهْوَاقِ أَنْجُمُ سُعُودِهِ ؛ وَتَمَآيَلَتْ قُدُودُ أَغْصَانِ الْأَفْرَاحِ ، وَزَهَّتْ مَجَالِسُ السُّرُورِ
بِالْإِنْشِرَاحِ ؛ وَهَبْتَ قَبُولَ الْإِقْبَالِ ، وَقَامَ الْقَلَمُ خَطِيبًا عَلَى مِثَرِ الطَّرْسِ فَقَالَ :

هذا ما أصدق... ..



وهذه نسخةٌ صدّاقٍ من إنشاء الشيخ صلاح الدين الصفديّ ، للقاضي بَذْرِ الدين
خَطِيبِ بَيْتِ الْآثَارِ ، عَلَى بَيْتِ شَمِيسِ الدِّينِ الْخَطِيبِ مِنْ بَيْتِ الْآثَارِ ، تُسَمَّى
سُؤْلِي ، فِي مُسْتَهْلِ مُجَادَى الْآخِرَةِ سَنَةِ ثَلَاثٍ وَخَمْسِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ ، فِي مَجْلِسِ مَوْلَانَا
قَاضِي الْقِضَاةِ تَقِيّ الدِّينِ السُّبْكِيِّ الشَّافِعِيِّ ، أَدَامَ اللَّهُ أَيْامَهُ ، وَهِيَ :

الحمد لله الذي زين سماء المعالي ببدرها ، وأثبت في رياض السعادة يانع زهرها ،
وألهم ذوي الهِمَم أن يتدلوا في الكرام غوالي مهريها .

نحمده على نعمه التي حلت ما ضفا من لباسها ، وسوخت ما صفا من رُضاب
كاسها ، وخصنا بما عمت به من أنواع أجناسها ؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له ، أعلمنا في الإيمان نصها بالأداء ، وبجى آتمها على الفتح كما فتح
المضائف في النداء ، ووقع خبرها : إما على رأى الرواة للشهرة وإما على رأى النعاة
بالابتداء ؛ ونشهد أن سيدنا هذا عبده ورسوله الذى شرع النكاح لهذه الأمة ،
ومنع السفاح فلم يكن أمرنا علينا عُمه ، ونهج الصواب فما ظنك بالصباح إذا أبتلع
عقيب الليلة المذلّمة ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين تلقوا أوامره بالطاعة ،
وأجتنبوا نواهيه حتى بلغوا جهد الاستطاعة ، وفهموا مراده بمكثرة الأثم فكان
البضاع عندهم خير بضاعة ؛ صلاة رضوانها يضيء إضاءة الكواكب فى أبراجها ،
وعفوانها يكاثر البحار فى أعداد موجها ؛ ما أتصل سبب بالنكاح ، وأتفصل فسبب
بالسفاح ؛ وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين .

وبعد ، فإن النكاح من محاسن هذا الدين القيم ، وفصائل هذا الشرع الذى
لا زال شرفه بدرأين مشرقات النجوم وهو حميم ؛ به يُحفظ النسب الشroud ، ويُرى
عهد القرينة الولود الودود .

وكان فلات ممن أشبه أباه ، وأبين ما أودعه من نفائس العلوم وحباه ؛ تصدر
فى المجالس ، ودرس فى المدارس ، وأورد ما عنده من التفائس ؛ كيف لا ؟ وهو
يسبغ شيخ الإسلام وإمام المسلمين ، وقاضى قضاة الشافعية وأوحد المجتهدين ؛
وقد أراد الآن إحصان فرجه ، وأن تزل الزهرة مع بذرته فى برجه .

فلذلك رَغِبَ إلى التَّجَلُّسِ العَالِي (المسمى) وَخَطَبَ الجَهْمَةَ المَصُونَةَ المَحَجَّجَةَ ،
النَّبِيَّةَ ، النَّبِيَّةَ ، الْعَفِيفَةَ ، الْخَاتُونَ ، غُصْنَ الإسلام ، شَرَفَ الْخَوَاتِينَ ، جَمَالَ ذَوَاتِ
السُّتُور ، قُرَّةَ عَيْنِ المُلُوكِ والسُّلَاطِينِ ، السَّيِّدَةَ "سُؤلى" بِنْتَ فُلَان ، صَاحِبَةَ الله
مُجَاهِدًا - فَأَكْرَمَ مَوَارِدَ قَصْدِهِ ، وَحَبَاهُ أَنْفَسَ دُرَّةٍ فِي عَقْدِهِ .

فلذلك قام خَطِيبُ هذا الحَفْلِ الكَرِيم ، والتَّعْجَمُ الَّذِي لَمْ يَزَلْ تَجْمُهُ بِالطَّالِعِ المُسْتَقِيم ،
وقال :

بسم الله الرحمن الرحيم



قلتُ : وهذه نسخةُ صِدَاقِ زَيْنِ الدِّينِ صَدَقَةِ السَّيْفِيِّ أَرْدَمَر ، عَلَى بِنْتِ أَمِيرِ
المُؤْمِنِينَ «التُّوكلَ عَلَى الله» . أَنشأَتْهُ لَهُ فِي خِلَافَةِ أَخِيهَا المُسْتَعِينِ باللهِ العَبَّاسِيِّ ، وَهِيَ :
الحمدُ لله مُسْتَخْرَجُ الدَّوْحَةِ الهَاشِمِيَّةِ مِنْ أَطْيَبِ العَنَاصِرِ ، وَمُفْرَعُ النُّبْعَةِ العَبَّاسِيَّةِ
مِنْ أَكْرَمِ صِنْوِ أَنْعَقَدَتْ عَلَى فَضْلِهِ الْخَنَاصِرِ ، وَمُحْصَصِ بَيْتِ الْخِلَافَةِ مِنْهَا بِأَعَزِّ
جَانِبٍ ذَلَّتْ لِعِزِّهِ عُظْمَاءُ المُلُوكِ مَا بَيْنَ مُتَقَدِّمٍ وَمُعَاصِرٍ .

نَحْمَدُهُ عَلَى أَنْ صَانَ عَقَائِلَ الْخُلَفَاءِ بِمَعَاوِلِ الْحَسَبِ ، وَحَصَرَ كِفَايَاتَهَا فِي الْعِلْمِ وَالدِّينِ
حَيْثُ لَمْ يُكَافَأْ بِمِجْرَفَةٍ وَلَا تَسَبٍّ ، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ الَّذِي
بَسَّ النَّكَاحَ وَشَرَعَهُ ، وَأَرْغَمَ بِالْحِلِّ أَنْفَ الْغَيْرَةِ لَدَى الْإِبَاءِ وَقَعَهُ ؛ شَهَادَةً يُسْتَنْشَقُ
مِنْ رِيَاءٍ غَيْرِهَا كُلِّ شَيْءٍ أَرِيحُ ، وَتُجَنَّبُ إِيمَارَتُهَا بِشَرِيفِ النَّجَاحِ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ
بِهِيجُ ، وَنَشْهَدُ أَنْ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَفْضَلُ نَبِيٍّ وَفَرُّ فِي الْفَضْلِ سَهْمُهُ حَتَّى لَمْ
يُسَاهَمْ ، وَأَكْرَمُ رَسُولٍ رَخَّصَ فِي تَزْوِيجِ بَنَاتِهِ مِنْ مِجَاهِبِهِ وَإِلَّا فَايَنْ كُفَّ رَسُولُ اللهِ
مِنْ الْعَالَمِ ؟ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ شَرَّفَهُمْ بِقُرْبِهِ ، وَقَرَنَ الصُّنْهَرِ

بالنسب فيهم غصص مُصَاهَرَتَهُ أَخَصَّهُمْ بِهِ ؛ صَلَاةً تَصِلُ سَبَبَ قَائِلِهَا بِسَبَبِهِ ،
وتجعل الفخار بها كلمةً بَاقِيَةً فِي عَقِيهِ ؛ وَسَلْمٌ تَسْلِيًا كَثِيرًا .

وبعد ، فإنَّ أَوَّلِيَّ مَا أَطَالَ فِيهِ الْمَطِيلُ ، وَتَحَدَّ فِي وَصْفِهِ الذَّهْنُ الْكَثِيلُ ، وَرُقِيتْ
مَحَاسِنُ ذِكْرِهِ عَلَى صَفْحَةِ النَّهَارِ بِذَنَائِبِ ذَهَبِ الْأَصِيلِ - مَا تَوَاصَلَتْ بِهِ الْأَنْسَابُ ،
وَتَوَصَّلَ بِوَاسِطَتِهِ فِي دَرَارِيِّ الدَّرَارِي إِلَى شَرَفِ الْأَحْسَابِ ؛ وَتَوَفَّرَتْ عَلَيْهِ الدَّوَاعِي
فَأَشْتَدَّتْ بِهِ الْأَوَاصِرُ ، وَحُسِّنَتْ فِي طَرِيقِ قَصْدِهِ الْمَسَاعِي فَتَأَكَّدَتْ بِهِ الْمَوَدَّةُ
فِي الْبَوَاطِنِ وَالظُّوَاهِرِ . وَهُوَ النَّكَاحُ الَّذِي نَدَّبَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى مُعَاطَاةِهِ ، وَحَصَّ
عَلَى التَّمَلُّ بِحُلِيِّهِ حَتَّى أَخْلَفَهُ بِالْعِبَادَةِ فِي بَعْضِ حَالَاتِهِ ؛ طَلَبًا لِلتَّحْصِينِ الْكَافِلِ بِسُلُوكِ
نَهْجِ الْأَسْقَامَةِ ، وَرَغْبَةً فِي تَكْثِيرِ النَّسْلِ الْوَاقِعِ [بِهِ] مَكَاتِرَةُ الْأُمَمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

هَذَا وَكَرَامُهُ يَنْبَغُ اخِلَافُهُ ، وَرَبَائِثُ تَحْنِيذِ الْمَجْدِ وَالْإِنْفَافَةِ ؛ فِي حَيِّزٍ لَوْ طَلَبَ مُنَاوِي
مُكَافَأَتِهَا لَطَلَّبَ مُعْزِيًا ، أَوْ رَامَ مُقَاوِمَ مُضَاهَاةَتِهَا فِي عُلُوِّ الرُّتْبَةِ لَرَامَ مُعْجِزًا ؛ لِمَا
أَخْتَصَّتْ بِهِ مِنَ السِّيَادَةِ الَّتِي لَا يُرْقَى إِلَى مَنَزِلَتِهَا ، وَلِلْعَالِيَةِ الَّتِي لَا تَسْمُو النُّفُوسُ
وَأَنْ تَخْتَصَّ إِلَى رُتْبَتِهَا ؛ إِذْ كَانَ النَّظِيرُ لَشَرَفِ أَرْوَمَتِهَا مُثْنِيًا ، وَالْقَبِيضُ بِمَا ثَبَّتَ مِنْ
طَلِبِ جُرْثُومَتِهَا مُرْتَفِعًا ؛ فَبَرَّقَ مَعَالِيهَا فِي التَّطَاوُلِ لَا يُسَامُ ، وَجَوْهَرُ نَفَارِهَا فِي الْمَآثِرِ
لَا يُسَامَى وَلَا يُسَامُ ؛ فَمَرَّ بِذَلِكَ فِي الْوُجُودِ مُكَافِيًا ، وَأَمْتَنَعَ خَوْفَ الْمُحْجُومِ بِالْأَخْطَابِ -
مُؤَافِيًا ؛ إِلَّا أَنْ الْمَوَاقِفَ الشَّرِيفَةَ الْمُقَدَّسَةَ الْمُتَوَكِّلَةَ - زَادَ اللَّهُ تَعَالَى فِي شَرَفِهَا ،
وَأَدَامَ رِعَايَتَهَا بِحُلَّةِ الْمُلُوكِ وَجَمَائَتِهَا وَكَتِفِهَا - مَعَ مَا أَنْفَرَدَتْ بِهِ مِنَ الْعِزِّ الشَّائِخِ الَّذِي
لَا يُسَاوَى ، وَالشَّرَفِ الْبَازِخِ الَّذِي لَا يُنَاوَى ؛ قَدْ رَغِبَ تَقْضُلُهَا فِي أَهْلِ الْفَضْلِ قَالِ
إِلَيْهِمْ ، وَأَخْتَصَّ بِأَقْبَالِهِ أَهْلَ الدِّينِ فَأَقْبَلَ بِكُلِّيَّتِهِ عَلَيْهِمْ ؛ مُحِلًّا لَهُمْ مِنْ شَرِيفِ مَقَامِهِ
الْعَلِيِّ حُلَّ الْأَمِصْطَفَاءِ ، وَمُقَدِّمًا لَهُمْ فِي الْمُصَاهَرَةِ عَلَى أُنْسَاءِ الْمُلُوكِ وَالْخُلَفَاءِ ؛ فَوَاقِقَ

فِي الْفَضْلِ شَنْ طَبَقَهُ ، وَسَاوَلَ سَارَةَ النَّعْمِ مِنْهَا خَيْرَ خَاطِبٍ فَلَقِيَ بِقَبُولٍ : إِنَّ اللَّهَ
تَصَدَّقَ عَلَيْكُمْ بِصَدَقَتِهِ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ أَبْتَدَرَ الْقَلَمُ مِثْرَ الطُّرْسِ نَحَطَبَ ، وَخَطَبَ بِالْحَمَامِ
لِسَانَهُ اللَّسَنُ فَكَتَبَ :

هَذَا مَا أَصْدَقَ الْعَبْدَ الْفَقِيرُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، الْجَنَابُ الْعَالِي ، الْأَمِيرُ ، الْكَبِيرُ ،
الشَّيْخُ ، الْإِمَامُ ، الْعَالِي ، الْعَالِي ، الْعَالِي ، الْعَالِي ، الْخَاشِعُ ، النَّاسِكُ ، الْبَلِيغُ ،
الْمُقَرَّبُ ، الصَّنَدُ ، الرَّئِيسُ ، الْأَصْلُ ، الْعَرِيقُ ، الزَّيْنُ ، أَبُو الْمَعَالِي صَدَقَةُ -
الْحَيَّةِ الشَّرِيفَةِ الْعَالِيَةِ ، الْكُبْرَى ، الْمُعْظَمَةِ ، الْمُحَجَّجَةِ ، الْمُصُونَةِ ، سَلِيلَةِ الْخِلَافَةِ ، فَرَعِ
الشَّجَرَةِ الزَّيْئَةِ ، جَلِيلَةِ الْمُصُونَاتِ ، بَهِيَّةِ الْمُحْجَّجَاتِ ، سَارَةِ ، الْيَكْرَ الْبَالِغِ ، ابْنَةِ سَيِّدِنَا
وَمَوْلَانَا الْمَقَامِ الْأَشْرَفِ ، الْمُقَدَّسِ ، الْعَالِي ، الْمَوْلَوِيِّ ، السَّيِّدِيِّ ، الْإِمَامِيِّ ، النَّبَوِيِّ ،
الْمُتَوَكِّلِ عَلَى اللَّهِ "أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدٌ" أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَبْنِ الْمَقَامِ الْأَشْرَفِ الْعَالِي ، الْمَوْلَوِيِّ ،
الْإِمَامِيِّ ، الْمُتَعَزِّدِ بِاللَّهِ "أَبِي الْفَتْحِ أَبِي بَكْرٌ" بَنِ الْإِمَامِ الْمُسْتَكْفِيِّ بِاللَّهِ "أَبِي الرَّبِيعِ
سُلَيْمَانَ" بَنِ الْإِمَامِ الْحَاكِمِ بِأَمْرِ اللَّهِ "أَبِي الْعَبَّاسِ أَحْمَدٌ" لَا زَالَ شَرَفُهُ بِإِذَاخٍ ، وَغَيْرِ نَبِيْنِهِ
الشَّرِيفُ شَاخِخًا ، وَذِكْرُ مَنَاقِبِهِ الْعَالِيَةِ لِكُلِّ مَنَقِبَةٍ نَاسِخًا - صَدَاقًا جُمْلَتُهُ كَذَا وَكَذَا ،
زَوْجَهَا مِنْهُ بِذَلِكَ فَلَانٌ ، وَقِيلَ فَلَانٌ ، وَتَمَّ عَلَى بَرَكَاتِهِ اللَّهُ تَعَالَى وَحُسْنِ تَوْفِيقِهِ ، كَامِلَةٌ
شُرُوطُهُ وَلَوَازِمُهُ ، مُبَارَكَةٌ عَوْدُهُ وَمَعَامُهُ ، مَيِّمَةٌ قَوَائِمُهُ وَخَوَائِمُهُ ، مُفْتَحَةٌ بِطَبِيبِ
الْعَيْشِ أَزَاهِرُهُ مُفْتَرَّةٌ عَنْ [نُورِهِ] إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى كَجَائِمِهِ .

الفصل الخامس

من الباب الأول من المقالة العباشرة

(فيما يكتب عن العلماء وأهل الأدب مما جرت العادة بمراجعة الثرالمسجوع فيه ،
ومحاولة الفصاحة والبلاغة ، وفيه طرفان)

الطرف الأول

(فيما يكتب عن العلماء وأهل الأدب ، ثم هو على صنفين)

الصنف الأول

(الإجازات بالفتيا والتدريس والرواية وعراصات الكتب ونحوها)

أما الإجازة بالفتيا ، فقد جرت العادة أنه إذا تأهل بعض أهل العلم للفتيا والتدريس -
أن يأذن له شيخه في أن يفتي ويدرس ، ويكتب له بذلك ، وجرت العادة أن يكون
ما يكتب في الغالب في قطع عريض ، إما في قرخة الشامي أو نحوها من البلدي ،
وتكون الكتابة بقلم الرقاع أسطوا متوالية ، بين كل سطرين نحو أضع عريض .

وهذه نسخة إجازة بالفتيا والتدريس على منتهى الإمام الشافعي رضي الله عنه
وأرضاه ، كتبت لي حين أجازني شيخنا العلامة سراج الدين أبو حفص عمر بن
أبي الحسن الشهير بابن الملقن ، سقى الله تعالى عهده ، عند قدومه نهر الإسكندرية ،
وأنا مقيم به في شهور سنة ثمان وسبعين وسبعمائة ، وكتب لي بذلك القاضي تاج
الدين بن غنوم موقع الحكم العزيز بالإسكندرية في درج ورق شامي في قطع الشامي
الكامل ، ومضى يومئذ إحدى وعشرون سنة ، فضلاً من الله ونعمة .

وَسُخِّتْهَا بِعَدِ الْبَسْمَلَةِ الشَّرِيفَةِ :

الحمد لله الذى رَفَعَ لِلْعُلَمَاءِ مِقْدَارًا ، وَأَجَزَلَ نِعَمَهُ عَلَيْهِمْ إِذْ أَعْلَى لَمْ مَنَارًا ، وَوَفَّقَ
بَسَوَاءِ الطَّرِيقِ مَنْ أَقْتَدَى بِهِمْ إِرَادًا وَإِصْدَارًا ؛ أَشْرَعَتْ هِمَمُهُمُ الْعَالِيَّةُ فِي حَلَبَةِ
السَّبَاقِ فَهِيَ لَا تُجَارَى ، وَتَحَلَّوْا بِالْمَقَانِرِ جَهْرًا وَقَدْ عَجَزَ غَيْرُهُمْ أَنْ يَحْتَلُّ بِهَا إِسْرَارًا ؛
أُبْرَزَ بِهِمْ فِي هَالَاتِ الْمَقَانِرِ أَقْفَارًا ، وَأَزَالَ بَضِيَاءُ عُلُومِهِمْ رَيْبَ الشَّكِّ حَتَّى عَادَ لَيْلُ
الْجَهَالَةِ نَهَارًا ؛ جَعَلَهُمْ لِدِينِهِ أَنْصَارًا ، وَصَيَّرَهُمْ نُجَبَا أَصْغِيَانِهِ إِذْ أَوْدَعَهُمْ مِنَ الْمَعَارِفِ
أَسْرَارًا ، وَأَخْتَصَّصَهُمْ بِكُونِهِمْ وَرَثَةَ أَنْبِيَائِهِ : وَنَاهِيكَ بِهَا نَحَارًا .

أَحْمَدُ مُحَمَّدٌ مِنْ هُدَى إِلَى الْحَقِّ بِفَعْلِهِ شِعَارًا ، وَأَسْتَضَاءُ بِنُورِ الْمُسْدَى فَلَجًّا إِلَى
مَوْلَاهُ فِي حَالَتِي سِرِّهِ وَجَهْرِهِ أَتِفَقَارًا ، وَعَجَزَ عَنْ شُكْرٍ مَا أَسْدَى إِلَيْهِ مِنَ النِّعَمِ لِمَا تَوَالَى
عَلَيْهِ وَبَلَّهَا مِثْرَارًا ؛ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ تَصْدِيقًا وَإِقْرَارًا ،
وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَرْسَلَهُ وَالْأَصْنَامُ قَدْ عُذِبَتْ جِهَارًا ، وَالْكَفَّارُ قَدْ أَعْرَضُوا
عَنِ الْحَقِّ اسْتِكْبَارًا ؛ قَامَ بِأَمْرِ اللَّهِ أَتْقِصَارًا ، وَقَهَرَ مَنْ أَعْرَضَ عَنِ اللَّهِ أَغْتِرَارًا ،
وَأَتَمَّ بِضِيَاءِ نُورِهِ الْبَاطِلَ وَأَهْدَرَهُ إِهْدَارًا ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ صَلَاةً
تَزِيدُنَا فِي دِينِنَا اسْتِيفَارًا ، وَتَحُطُّ عَنَّا مِنْ نَقِيلِ الذُّنُوبِ أَوْزَارًا ، وَتُبَوِّؤُنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ
تَعَالَى فِي دَارِ الْخُلُودِ قَرَارًا .

أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ وَصَّحَ لِدَوَى الْأَبْصَارِ وَالْبَصَائِرِ ، وَأَتَضَحَّجَ عِنْدَ دَوَى الْأَمْثَرِ وَالْبَسَائِرِ ؛
وَأَسْتَقَرَّ عِنْدَ دَوَى الْقُلُوبِ السَّلِيمَةِ ، وَالْعُقُولِ الرَّابِحَةِ الْمُسْتَقِيمَةِ ؛ أَنَّ مِثْلَ عِلْمِ
الشَّرِيعَةِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى أَعْلَى الْمَنَازِلِ ، وَفَضْلُهُ أَفْضَلُ الْمَآثِرِ وَأَثَرُ الْفَضَائِلِ ؛ وَخُصُوصًا
مَعْرِفَةُ تَفَاصِيلِ أَحْكَامِ أَفْعَالِ الْمُكَلَّفِينَ بِالشَّرِيعَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ ، الَّتِي مِنْ عَلَيْهَا وَعَمِلَ بِهَا
وَعَلَمُهَا فَقَدْ سَعَدَ السَّعَادَةُ الْأَبَدِيَّةُ ؛ إِذْ هِيَ الشَّرِيعَةُ الْجَامِعَةُ لِمَصَالِحِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ،

النَّاسِخَةُ لِمَا خَالَفَهَا مِنَ الشَّرَائِعِ الْغَايِرَةِ ، الْبَاقِيَةُ إِلَى أَنْ يَأْتِيَ وَعِيدُ اللَّهِ وَكُلُّ شَرِيعَةٍ سِوَاهَا دَائِرَةٌ ، فَقَدْ أَعْظَمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى مَنْ حَفِظَهَا عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ ، إِذْ جَعَلَهُ وَقَايَةً لَهُمْ مِنْ مَهَالِكِ الْجَهْلِ وَجُنَّةً ، وَوَعَدَهُ أَنْ يَنْزِلَ فِي أَعْلَى مَنَازِلِ الْجَنَّةِ ، لِمَا شَهِدَتْ بِهِ نُصُوصُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا) . فَتَبَّهَ عَلَى أَنَّ الْعِلْمَ أَقْوَى أَسْبَابِ الْعِبَادَةِ ، إِذْ خَصَّهُ بِهِ وَحْصَهُ عَلَى أَنْ يَطْلُبَ مِنْهُ الزِّيَادَةَ . وَقَالَ تَعَالَى : (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ) . فَتَنَّى بِذِكْرِهِمْ بَعْدَهُ ، لَكُونِهِمْ أَفْضَلُ الْخَلَائِقِ عِنْدَهُ ، وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَسْمُهُ ، وَتَقَدَّسَ عِلْمُهُ : (إِنَّمَا يُخَشَى اللَّهُ مِنَ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) . فَأَوْضَحَ بِذَلِكَ أَنَّ أَوْلِيَاءَهُ مِنْ خَلْقِهِ الْعُلَمَاءُ ، إِذْ وَصَفَهُمْ وَخَصَّهُمْ بِأَنَّهُمْ الْخَائِفُونَ مِنْهُ الْأَتْقِيَاءُ . وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : " مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ " . وَقَالَ أَيْضًا : " مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَتَمَسَّكُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ " . وَقَالَ أَيْضًا : " أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا مَأْمُونَةٌ لِمَنْ مَلَأَ مَا فِيهَا إِلَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى وَمَا وَالَّاهُ ، وَعَالَمٌ وَمُتَعَلِّمٌ " .

ولما كان فلائح أدام الله تعالى تسيده وتوفيقه ، ويسر إلى الخيرات طريقه - ممن شب ونشأ في طلب العلم والفضيلة ، وتخلق بالأخلاق المرضية الجميلة الجليلة ؛ ومحجبة السادة من المشايخ والفقهاء ، والقادة من الأكابر والفضلاء ؛ واشتغل عليهم بالعلم الشريف اشتغالا يرضى ، وإلى تبيل السعادة - إن شاء الله تعالى - يفضي - استخار الله تعالى سيدنا وشيخنا وبركتنا العبد الفقير إلى الله تعالى ، الشيخ الإمام العلامة ، الحبر الفهامة ؛ فريد دهره ، وتسيح وحده ، جمال العلماء ، أوحد الفضلاء ، عمدة الفقهاء والصلحاء ؛ سراج الدين ، مفتي الإسلام والمسلمين ؛ أبو حفص عمر ابن سيدنا العبد الفقير إلى الله تعالى ، الشيخ الإمام العالم ، العاقل ، الأوحد ، الكامل ، القدوة ، المرحوم نور الدين أبي الحسن علي ، ابن سيدنا العبد الفقير إلى الله تعالى ،

الشيخ الصالح، الزاهد، العابد، الخاشع، الناسك، القدوة، المرحوم شهاب الدين،
بركة الصالحين، أبي العباس أحمد، ابن سيدنا العبد الفقير إلى الله تعالى، الشيخ
الصالح، القدوة، العارف، المرحوم، شمس الدين، أبي عبد الله محمد الأنصاري
الشافعي، أدام الله تعالى النفع به وبركته، وأشركتنا والمسلمين في صالح أديعته،
بمحمد وآله وصحبه وعترته .

وَأَذِنَ وَأَجَازَ لِفُلَانِ الْمَسْمُوعِي فِيهِ ، أَدَامَ اللَّهُ تَعَالَى مَعَالِيهِ ؛ أَنْ يُدْرَسَ مَذْهَبُ
الإمام المجتهد المطلق العالم الرباني، أبي عبد الله محمد بن إدريس الملقب، الشافعي،
رضي الله عنه وأرضاه، وجعل الجنة مقبلة ومتناه، وأن يقرأ ما شاء من الكتب
المصنفة فيه، وأن يفيد ذلك لطالبه؛ حيث حل وأقام، كيف ما شاء متى شاء
وأيّن شاء، وأن يفتي من قصد استفتاءه خطأ ولفظاً، على مقتضى مذهبه الشريف
المشار إليه : لعلمه بديانته وأمانته، ومعرفة ودرأته، وأهليته لذلك وكفايته .

فَلْيَتَلَقَّ أَيْدِ اللَّهِ تَعَالَى هَذِهِ الْحُلَّةَ الشَّرِيفَةَ، وَلْيَتَرَقَّ بِفَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى ذِرْوَةَ هَذِهِ
المرتبة المنيقة، وليعلم قدر ما أنعم الله تعالى عليه، وأسدئ من الإحسان الوافر إليه؛
وليُراقبه مراقبة من يعلم أطلّعه على خاتمة الأعين وما تخفي الصدور، وليعامله معاملة
من يتحقق أنه يعلم ما يخفيه العبد وما يئديه في الورود والصدور؛ ولا يستنكف
أن يقول فيما لا يعلم: لا أعلم: فذلك قولٌ سَعِدَ قَائِلُهُ . وقد جاء : ”جَنَّةُ الْعَالِمِ لَا أَدْرِي
فَإِنْ أَخْطَأَهَا أُصِيبَتْ مَقَاتِلُهُ“ فآله تعالى يرزقنا وإياه التوفيق والتحقيق، ويسلك بنا
وبه أقرب طريق؛ ويهدينا إلى سواء السبيل، فهو حسبنا ونعم الوكيل .

وَكُتِبَ فِي تَارِيخِ كَذَا .

وكتب شيخنا الشيخ سراج الدين المشار إليه تحت ذلك بعد حمد الله تعالى
ما صورته :

ما تُنسب إلى في هذه الإجازة المباركة من الإذن لفلان - أدام الله تعالى النفع به ، وأجزئي كل خير بنبهه ؛ بتدريس مذهب الإمام المظلي ، محمد بن إدريس الشافعي ، قدس الله روحه ، ولوز ضريحه ؛ والإفتاء به لفظاً وخطاً صحيحاً . فإنه ممن طاق أقران عصره بذكائه ، وبرع طيبهم بالامتصاص وتحرير المتكول ووفائه .

وقد أعتنى وفقه الله تعالى وإيائى من جملة محفوظاته بـ "مختصر الجوامع" لشيخنا العلامة كمال الدين النشائي تغمده الله تعالى بفقرانه ، فاستحضر بحضرتى مواضع منه جمه ، وأزال بديع فصاحته جملة مدغمه ؛ وأظهر من مشكلاته ما يعجز عنه اللبيب ، ومن أغاريه ما يقف عنده البارح الأريب .

فلتبق الله حينئذ فيما يديه ، وليتجر الصواب في لفظه وخطه وليراقب الله فيه ؛ فإنه موقع عن الله تعالى فيحذر الزلل ، ومحاولة الخطأ والخطل ؛ ويستحضر ما أشملت عليه من الجلالة ، فإن الله تعالى تولأها بنفسه حيث قال : (لَسْتَ تَعْلَمُ قُلُوبَ اللَّهِ يُفْتِكُمْ فِي الْكَلَامِ) .

وأجزت له مع ذلك أن يروى عني ما لي من التاليف ، ومنها "جامع الجوامع" أحسن الله على إكمالها ، وكذا شرح "صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري" . ومنها "البدر المنير" ، في تخرج الأحاديث والآثار الواقعية في الشرح الكبير" للإمام أبي القاسم الرافعي . وبه تكل معرفة الفقيه ويصير محدثاً فيها .

وأجزت له مع ذلك ما جاز لي وعني روايته بشرطه عند أهله ، زاده الله وإيائى من فضله . ومنها الكتب الستة : "البخاري" و"مسلم" و"أبو داود" و"الترمذي" و"النسائي" و"ابن ماجه" . والمسائيد : "مسند أحمد" و"مسند الشافعي" وغير ذلك .

وكان ذلك في تاريخ كذا . وكتب عمر بن علي بن أحمد الأنصاري الشافعي ،
غفر الله لهم : حامدا ومُصَلِّيا ومُسَلِّما ، وأشهد عليه جماعة من أهل العلم بآخوه .

قلت : وتكون ألقاب المحاز على قدر رتبته ، مثل أن يُكتب له : «الفقيه إلى الله تعالى ، الشيخ ، الإمام ، العالم ، العاقل ، الأوحَد ، الفاضل ، المفيد ، البارِع ، علم المفيد ، رحمة القاصدين ، فلان الدين ، أبو فلان فلان بن فلان» (بحسب رتب آباه) . وإنما أهملت ذكر الألقاب في هذه الإجازة ، من حيث إنه لا يليق بأحد أن يذكر ألقاب نفسه في مُصَنَّف له ، لأنه يصير كأنه اتقى على نفسه .

وأما الإجازة بمرآة الكتب ، فقد جرت العادة أن يعض الطلبة إذا حفظ كتابا في الفقه ، أو أصول الفقه ، أو النحو ، أو غير ذلك من الفنون ، يعرضه على مشايخ العصر ، فيقطع الشيخ المعروض عليه ذلك الكتاب ، ويفتح منه أبوابا ومواضع يستفريه إياها من أي مكان اتفق ، فإن مضى فيها من غير توقف ولا تلعثم ، استدل بحفظه تلك المواضع على حفظه لجميع الكتاب ، وكتب له بذلك كل من عرض عليه ، في ورقٍ مربع صغير ، يأتي كل منهم بقدر ما عنده من الملكة في الإنشاء ، وما يناسب ذلك المقام من براعة الاستهلال ونحوها : فمن عالٍ ، ومن هابط . وربما خفف بعضهم فكتب : «وكذلك عرض على فلان» ، أو : «عرض على وكتبه فلان» . إما رياسة وتأبيا عن شغل فكره وكذا نفسه فيما يكتبه ، وإما عجزا عن مضاهاة من يكتب معه .

وقد اخترت أن أضع في هذا المحل ما وافق الصنعة ، وجرى على أسلوب البلاغة .
فمن ذلك ما كتب به الشيخ الإمام العلامة ، لسان العرب ، ومجته الأدب ، بدر الدين محمد بن أبي بكر الخزومي المالكي ، للتجليل النبيل الذي تنهى الألقاب ولا نهاية

لَمَنَافِيهِ، شَهَابُ الدِّينِ أَبِي الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ سَيِّدِنَا الْفَقِيرِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، ذِي الْأَوْصَافِ
الَّتِي تَكُنُّ لِسَبَا الْأَنْسَى عَنْ حَتْمِهَا، شَمْسُ الدِّينِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ الْعُمَرِيُّ الشَّافِعِيُّ،
حِينَ عَرَضَ عَلَيْهِ "عُمْدَةُ الْأَحْكَامِ" لِلْحَافِظِ عَبْدِ الْغَنِيِّ، وَ"شُدُورُ الذَّهَبِ" لِلشَّيْخِ
جَمَالِ الدِّينِ بْنِ هِشَامٍ، فِي رَمَضَانَ سَنَةِ سَبْعِ عَشْرَةِ وَثَمَانِمِائَةٍ، وَهُوَ :

أَمَّا بَعْدُ مُحَمَّدُ اللَّهِ عَلَى كَرَمِهِ الَّذِي هُوَ عُمْدَتُنَا فِي النِّجَاةِ يَوْمَ الْغَرَضِ وَنَاهِيكَ بِهَا عُمْدَهُ،
وَسَنَدُنَا الَّذِي لَا يَزَالُ لِسَانُ الذَّقِّ يَرَوِي حَدِيثَ حَلَاوَتِهِ عَنْ صَفْوَانَ بْنِ عَسَّالٍ مِنْ
طَرِيقِ شُهِدِهِ ؛ وَالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الَّذِي أَحْيَا بُرُوحَ سُنَّتِهِ الشَّرِيفَةِ
كُلِّ مَنْ جَاءَ مِنْ ذَهَبٍ، وَأَعْرَبَتْ كَلِمَاتُهُ النَّفِيسَةَ عَنْ عُقُودِ الْجَوْهَرِ وَ"شُدُورِ
الذَّهَبِ" وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ أَحْسَنُوا الرِّوَايَةَ وَالذَّرَايَةَ، وَبَنَوْا الْأَمْرَ عَلَى آسَاسِ
التَّقْوَى وَأَعْرَبُوا عَنْ طُرُقِ الْهِدَايَةِ؛ مَا أَتَهَّلَ مِنْ أَفْقِ الْكَرَمِ مُحَمَّدِي كُلِّ عَارِضٍ
صَبَّ، وَتَحَلَّتِ الْأَسْمَاعُ وَالْأَنْوَاءُ مِنْ أَخْبَارِهِ بِنَفَاسِ الشُّدُورِ الْبَدِيعَةِ وَحَلَاوَةِ الْكَلِمِ
الطَّيِّبِ - فَقَدْ عَرَضَ عَلَى الْجَنَابِ الْعَالِي الْبَارِعِ، الْأَوْحَدِيِّ، الْأَلْمِيِّ، اللَّوْذِعِيِّ،
الشَّهَابِيِّ، شَهَابُ الدِّينِ، نُجْمَةُ النُّجَبَاءِ، أَوْحَدُ الْأَلْيَاءِ، تَجَلَّى السَّادَةِ الْعُظَمَاءِ، سُلَالَةُ
الْأَعْيَانِ الْعُلَمَاءِ، أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ سَيِّدِنَا الْمُقَرَّرِ الْكَرِيمِ الْعَالِي، الْمَوْلُودِ، الْعَالِمِ،
الْفَاضِلِ، الْبَلِيغِ، الْمُفِيدِ، الْفَرِيدِ، الْمُفَوِّهِ، الشَّمْسِيِّ، الْعُمَرِيِّ، أَطْلَابِ
اللَّهِ حَيْثِيهِ، وَجَمَعَ لَهُ بِالْإِعْرَابِ عَنْ طَوْلِ الْهَيْمَةِ قَدِيمِ الْفَضْلِ وَحَدِيثِهِ - طَائِفَةٌ
مُتَفَرِّقَةٌ مِنْ "عُمْدَةِ الْأَحْكَامِ" لِلْحَافِظِ عَبْدِ الْغَنِيِّ الْمَقْدِسِيِّ، وَ"شُدُورِ الذَّهَبِ" لِلْعَلَامَةِ
جَمَالِ الدِّينِ بْنِ هِشَامٍ رَحِمَهُ اللَّهُ طَيْبُهُمَا - عَرَضًا قَصُرَتْ دُونَهُ الْقَرَارُ عَلَى طَوْلِ
جَهْدِهَا، وَكَانَتْ الْإِتْفَاطُ الْمُرَدَّةُ فِيهِ لِأَمَّةٍ حَرَّبَ الْفِتْنَةَ الْبَاغِيَةَ عَلَيْهِ فَأَحْسَنَ عِنْدَ
الْعَرَضِ فِي سَرْدِهَا، وَزَيْنَ أَبْقَاهُ اللَّهُ تَعَالَى تِلْكَ الْأَمَّا كَنْ بَطْنِ لَحْيِهِ وَإِعْرَابِ لَقِظِهِ،
وَأَذَّنَ أَنْتِيعَانَهُ فِيهَا بِأَنَّ جَوَاهِرَ الْكَاتِبِينَ قَدْ حَصَلَتْ يَجْمُوعُهَا فِي خَزَانَةِ حِفْظِهِ .

حَبِذَا هُوَ مِنْ حَافِظٍ رَوَى حَدِيثَ فَضْلِهِ عَلِيًّا ، وَتَلَا عَلَى الْأَسْمَاعِ مَا أَقْنَصَى
تَقْدِيمَهُ عَلَى الْأَقْرَانِ فَلَهُ دَرَّةٌ مُقَدَّمًا وَتَالِيًا ؛ وَسَارَ فِي حُكْمِ الْعَرْضِ عَلَى أَعْزَلِ طَرِيقِ
وَنَاهِيكَ بِالسَّيْرِ الْعُمَرِيَّةِ ، وَصَارَ مَنْطِقَهُ عَنْ خَالِ الْمَعَانِي وَكَيْفَ لَا ؟ وَقَدْ تَمَسَّكَ
بِطَرِيقَةِ وَالِدِهِ وَهِيَ "الْمُقَدِّمَةُ الشَّمْسِيَّةُ" ؛ وَسَابَقَ أَقْرَانَهُ فَكَانَتْ لَهُ زُبْدَةُ التَّفْصِيلِ
فِي حَابَةِ السَّبَاقِ ، وَطَابَقَ بَيْنَ رَفْعِ شَأْنِهِ وَخَفَضِ شَأْنِيهِ وَلَا يُنْكَرُ لِمَنْ هُوَ مِنْ هَذَا
الْبَيْتِ حُسْنُ الطَّبَاقِ ؛ وَأَشْتَغَلَ فَلَمْ يَقَعْ التَّنَازُعُ فِي حُسْنِ دُخُولِهِ مِنْ بَابِ
الِاسْتِعَالِ ، وَنَصَبَ فِكْرَهُ لِتَحْصِيلِ الْعِلْمِ فَعَيْنٌ تَمِيزُهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ ؛ وَتَوَقَّعَتْ نَارُ ذَهَبِهِ
فَنَظَلَّتْ حَاسِدُهُ بِالْاِكْتِهَابِ ، وَرُويَتْ أَحَادِيثُهُ بِاللُّغَةِ فِي الْعُلُومِ إِلَى سَمَاءِ الْفَضْلِ وَلَا يَدْعُ
إِذَا رُويَتْ أَحَادِيثُ الشَّهَابِ ؛ وَانْتَخَرَهُ مِنْ وَالِدِهِ بِالْفَاضِلِ الَّذِي ارْتَفَعَ فِي دِيرَانِ
الْإِنْسَاءِ خَبْرُهُ ، وَهَزَّ الْمَعَاطِفَ بِتَوْفِيقِهِ الَّذِي لَا يَزَالُ يُحَرِّرُهُ وَيُجَبِّرُهُ ؛ وَوَشَّى الْمَهَارِقَ
فَكَأَنَّهَا هِيَ رِيَاضٌ قَدْ غَرَّدَ فِيهَا بِسَجْعِهِ ، وَنَحَّاهَا بِإِنْسَانِهِ الَّذِي هُوَ عُمْدَةُ الْمُتَأَدِّينِ
فَلَا عَجَبَ فِي رَفْعِهِ ؛ وَنَظَّمَ بَيَانَهُ نَفَائِسَ الدَّرَرِ فَقَدَّتْهَا بِالْعَيْنِ "صِحْحَ الْجَوْهَرِيِّ" ،
وَفَنَعَ بِجَيْشِ بَلَاحَتِهِ مَعَاقِلَ الْمَعَانِي الْمُتَمَتِّعَةِ وَحَسْبُكَ بِالْفَتْحِ الْعُمَرِيُّ :

بَيَانُهُ السَّحَرُ قَدْ أَخْفَى مَعَايِدَهُ * لَكِنْ أَرَانَا لَيْسَ الْفَضْلُ إِنْسَاءً

إِذَا أَرَادَ أَدَارَ الرَّاحَ مَنْطِقُهُ * نَظَّمًا وَيُطَرِّبُنَا بِالنَّشْرِ إِنْ شَاءَ !

وَاللَّهُ تَعَالَى يُبْهِجُ نَفْسَهُ بِمَا يُصْبِحُ بِهِ الْحَاسِدُ وَهُوَ مُكَبَّدٌ ، وَيُقِرُّ عَيْنَهُ بِهَذَا الْوَلَا
الْحَبِيبِ حَتَّى لَا يَبِيعَ يَقُولُ : أَشْكُرُ اللَّهَ وَأَحْمَدُ ؛ بِمُحَمَّدٍ وَآلِهِ .



وَمِنْ ذَلِكَ مَا كَتَبَ بِهِ الشَّيْخُ شَمْسُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الدَّائِمِ ، لَوْلَدِي نَجْمِ الدِّينِ
أَبِي الْفَتْحِ مُحَمَّدٍ ، حِينَ عَرَضَ عَلَيْهِ "الْمِنْهَاجُ" فِي الْفِقْهِ لِلنَّوَوِيِّ ، فِي سَنَةِ ثَلَاثِ عَشْرَةِ
وَمِائَةِ سِتِّ مِائَةٍ ، وَهُوَ :

الحمد لله الذى أَوْجَعَ بَهِيمَ الدِّينِ مِنْهَاجَ الْفَقْهِ وَأَنَارَهُ ، وَأَقْضَعَ لِسَانَهُ بِكَاتِبٍ مِنْ
عِنْدِ اللَّهِ وَأَنَارَهُ ، فَطَلَعَتْ أَنْوَارُ شَهَادَتِهِ لِمَنْ أَسْتَنْبَطَهُ وَأَنَارَهُ ، مَنْ يُرِيدُ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا
يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَيَرْفَعْ مَنَازِلَهُ ، وَالصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الْمُخْضَرِ بِمَعْنَى
الرِّبَايَةِ ، وَالْمُتَبَوِّصِ فَضْلَهُ بِجَمْعِ أَنْوَاعِ الدَّلَالَةِ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ نَجْمِ الْمُهَلِّدِ ،
وَشَهَبِ النَّامِيِّ وَالْأَقْنَدِ :

وبعد ، فقد عَرَضَ عَلَى الْفَقِيهِ الْفَاضِلِ تَجَلُّلِ الْإِفَاضِلِ ، وَسَلِيلِ الْأَمَائِلِ ، ذُو الْهِمَّةِ
الْعَلِيَّةِ ، وَالْفِطْنَةِ الذِّكِّيَّةِ ، وَالْفِطْرَةِ الزَّكِّيَّةِ ، بِهَيْمِ الدِّينِ ، أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ فُلَانٍ :
نَفَعَ اللَّهُ بِهِ كَمَا نَفَعَ بِوَالِدِهِ ، وَجَمَعَ لَهُ بَيْنَ طَارِفِ الْعِلْمِ وَتَالِيهِ - مَوَاضِعَ مُتَعَدِّدَةٍ مِنْ
"الْمِنْهَاجِ" فِي فِقْهِ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ الْمُطَّلِبِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَعَنَّا بِهِ ، تَأَلَّفَ الْحَبْرُ الْعَلَامَةُ
وَلَّى اللَّهُ أَبِي زَكَرِيَّا بْنِ شَرَفٍ بْنِ مَرَى النَّوَوِيِّ ، سَقَى اللَّهُ تَعَالَى ثَرَاهُ ، وَجَعَلَ الْجَنَّةَ
مَأْوَاهُ ، دَلَّ حِفْظُهُ لَهَا عَلَى حِفْظِ الْكِتَابِ ، كَمَا قَضَى اللَّهُ لَهُ مَنَاسِكَ الْخَيْرِ دَقَّةً وَجِلَّةً ،
وَكَانَ الْعَرَضُ فِي يَوْمِ كَذَا .



وَكُتِبَ عَلَامَةُ الْعَصْرِ الشَّيْخُ عَبْدُ الدِّينِ بْنُ جَمَاعَةَ مَا صَوَّرَتْهُ :

كَذَلِكَ عَرَضَ عَلَى الْمَذْكُورِ بِإِطْنِهَا عَرَضًا حَسَنًا ، مُحَرَّرًا مُهَذَّبًا مُجَادًا مُتَقَنًا ، عَرَضَ
مِنْ أَتَمِّ حِفْظِهِ ، وَزَيْنِ بِحُسْنِ الْأَدَاءِ لَفْظُهُ ، وَأَجْزَلِ لَهُ مِنْ عَيْنِ الْعَنَايَةِ حِظُّهُ ، مَرَّةً
فِيهِ مُرُورُ الْهِمْلَاجِ الْوَسَّاعِ ، فِي فَيْسِحِ ذِي السَّبَاعِ . وَقَدْ دَلَّنِي ذَلِكَ مِنْهُ - نَفَعَهُ اللَّهُ
تَعَالَى ، وَنَفَعَ بِهِ ، وَوَصَلَ أَسْبَابُ الْخَيْرِ بِسَبَبِهِ ، عَلَى عُلُوِّ هِمَّتِهِ ، وَوُقُورِ أَرْجِيئَتِهِ ، وَتَوْقُودِ
فِكْرَتِهِ ، وَأَقْنَادِ فِطْنَتِهِ ، وَأَصْلُهُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ عَرِيقٌ :

بَيِّحَةُ تِلْكَ مِنْهُمْ غَيْرُ مُحَدَّثَةٍ * إِنَّ الْخَلَائِقَ فَاعِلَةٌ - شَرُّهَا الْيَدْعُ !

وقد أذنت له أن يروي عنى الكتاب المذكور، وجميع ما يجوز لي وعنى روايته من مصنفاتى وغيرها من منظوم ومثثور، ومتقول ومعقول وماثور، بشرطه المعتبر، عند أهل الأثر. وكتب فلان فى تاريخ كذا .



ومن ذلك ما كتبه لمن اسمه « محمد » ولقبه « شمس الدين » من أبناء بعض الإخوان :
وقد عرض على « الأربعين حديثاً » للشيخ محيى الدين النووى رحمه الله ، و « الورقات »
فى الأصول لإمام الحرمين ، و « اللآحة البدرية » فى النحو للشيخ أمير الدين أبى حيان
دفعه واحدة ، وهو لدون عشر سنين ، وهو :

الحمد لله الذى أطلع من درارى الأفاضل فى أفق النجاة شمساً ، وأظهر من
أفاضل الدرارى ما يفض به المخالف طرفاً ويرفع به المخالف رأساً ، وألحق بالأصل
الكريم قرعته فى النجاة فطاب جنى وأغرق أصلاً وزكا غرساً ، وأبرز من ذوى
الفطر السليمة من فاق بذكائه الأقران فأدرك العريضة فى لمحته ، وسما بفهمه الثاقب
على الأمثال فامسى وفهم « الورقات » لديه كالصفحة ، وخرق بكرم بدايته العادة بفاز
الأربعين لدون العشر وأتى على ذلك بما يشهد له بالصحة ، والصلاة والسلام على
سيدنا محمد الذى عمّت بركة أسمه الشريف سميّه ففاز منها بأوفر نصيب ، وخُصّ
بإلهام التسمية به أولو الفضل والنهى فما سُمى به إلا كريم ولا سُمى به إلا نجيب ،
وعلى آله وصحبه الذين أُنعت بهم روضة العلم وأزهرت ، وأورقت شجرة المعارف
وأثمرت .

وبعد ، فقد عرض على فلان مواضع من كتاب كذا وكتاب كذا ، فتر فيها مرور
الصبا ، وجرى فى ميدانها جرى الجواد فى حاد عن سائر الطريق ولا يكأ^(١) .

وأما الإجازة بالمرويات على الاستدعاءات :

فمن ذلك ما كتب به الشيخ صلاح الدين الصفدي رحمه الله على استدعاء كتب له به القاضي شهاب الدين أحمد الحنبل خطيب بيت الآلهة ، وكتب الدست بالشأم ، يطلب منه فيه الإجازة لنفسه ، وهو :

الحمد لله الذي إذا دُعِيَ أجاب ، وإذا أُنعم على الأديب بدَّقْ أُنِّي في نظمه ونثره بالمعجب ، وإذا وهب البليغ فطرة سائمة لم يكن على عجباه عجب .

نحمده على نعمه التي منها البلاغة ، وإتقان ما لصناعة الإنشاء من حسن الصياغة ، وصيد أواميد المعاني التي من أعمل فكره في اقتناصها أو روى [أين] رواغته ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة فطر الضمير على إخلاصها ، وجبل الفكر على اقتناء أدلتها الفاطمية واقتناصها ، وجعلت وقاية لقائلها يوم يضيئ على الخلاق فيسبح عراصها ، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله أفصح من نطق بهذا اللسان ، وجاء من هذه اللغة الرابية بالنتكت الحسان ، ونحت على الخير وحسن على الإحسان ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين رَوَوْا أقواله ، وبلغوا لمن لم يره سننه وأفعاله ، وعلموا أن هذه الشرعة المطهرة أذنرها الله تعالى له فلم تكن تصلح إلا له ؛ صلاة هامة الفُفران ، نامية الرضوان ؛ ما أجاب يجب لمن استدعى ، وعملت إن في المبتدأ نصبا ولم تغير على الخبر رفعا ، وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين .

وبعد ، فإن [علم] الرواية من محاسن الإسلام ، وخصائص الفضلاء الذين تحقق لهم ذوائب الطروس وتقتصب رباح الأعلام ؛ ولم تزل رغبة السلف تتوقر عليه ، وتسير أنامل إرشادهم للانام بالحث إليه . قيل للإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه ما تشتهي ؟ فقال : سند عال ، وبيت خال . وما برح الأئمة الكبار يرتحلون إلى أقاصي

الأقاليم في طلبه، ويعملون المشاق والمتاعب فيه ويعملون بسببه؛ فقد أرزحل الإمام الشافعي رضي الله عنه وغيره إلى عبد الرزاق باليمن، وكان فيمن أخذ عنه ممن هو أحق بالفضل عليه قن؛ ولكنه فن يحتاج إلى ذوق يعايد من لا يعايد، وأمر لا يصبر عنه من ألفه وما يعلم الشوق إلا من يكأيد؛ فما عند من طلب الرواية أجل من أبناء جنسه، ولا عند المفيد المفيد أحلى من قوله: حَدَّثَنَا فُلَانٌ أَوْ أَشَدَّنَا فُلَانٌ لِنَفْسِهِ، ولكن:

مَا كُلُّ مَنْ طَلَبَ الْمَعَالِيَ نَافِذًا * فِيهَا وَلَا كُلُّ الرِّجَالِ حُجُولًا!

ولما كان الشيخ الإمام شهاب الدين أبو العباس أحمد بن الشيخ ... ممن نظم فَوَدَّتِ الدَّرَرُ في أفلاكه لو أَتَسَقَّتْ، وَكَبَّ فَرَقَمَ الطُّرُوسَ وَوَشَّاهَا، وَغَشَّاهَا مِنْ زَهْرَاتِ الرِّيَاضِ مَاغَشَّاهَا؛ وَحَلَّ الْمُرَجِّمَ فَسَحَرَّ عَقْلَ كُلِّ لَيْبٍ وَخَابَ لُبُهُ، وَوَقَعَ عَلَى الْقَصْدِ فِيهِ فَكَانَتْ شَيْءٌ مِنَ الْغَيْبِ خَصَّ اللَّهُ بِهِ قَلْبَهُ، وَأَتَى فِيهِ بِدَائِعُ مَا تَسَاوَى أَبُو الصَّبْرِ وَلَا آيُنَ عِنْدَهَا بِحَبِّهِ؛ وَخَطَبَ فَصَدَعَ الْقُلُوبَ، وَأَجْرَى ذُنُوبَ الْمَدَامِيعِ مِنْ أَهْلِ الذُّنُوبِ، وَحَدَّرَ فَكَانَتْ أَسْبَاجُهُ كَالْحَيَّانِ إِتْحَقَ وَسَامِعُهُ يَبْكِي بِأَجْفَانٍ يَعْقُوبُ؛ كَأَنَّمَا هُوَ فِي حُلَّةِ الْخَطَّابَةِ بَدَّرَ فِي غَمَامِهِ، أَوْ مِنْهُرِهِ غُصْنٌ وَهُوَ فَوْقَهُ حَمَامَةٌ، أَوْ بِحَرِّ وَفَضَائِلِهِ مِثْلُ أَمْوَاجِهِ وَدُرُّهُ يَحْكِي كَلَامَهُ؛ لَوْ رَأَاهُ "أَبْنُ نَبَاتَةَ" مَا أَوْرَقَتْ بِالْفَصَاحَةِ أَغْوَادُهُ، أَوْ "أَبْنُ الْمُنِيرِ" مَا رَقَّتْ بِالْبَلَاغَةِ أَبْرَادُهُ، أَوْ "أَبْنُ تَيْمِيَّةَ" مَا حَظِيَّتْ بِالْحُسُودِ أَجْدَادُهُ؛ فَأَرَادَ أَنْ يُشَرِّفَ قَسْدِي، وَيُعَرِّفَ نُكْرِي؛ فَطَلَبَ الْإِجَازَةَ مِنِّي وَأَنَا أَحَقُّ بِالْأَخْذِ عَنْهُ، وَاسْتَدْعَى ذَلِكَ مِنِّي: وَرُبُّ حَامِلٍ فِيهِ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ.

فَنَمَّ قَدْ اسْتَحَرْتُ اللَّهَ تَعَالَى وَأَجَزْتُ لَهُ مَا يَجُوزُ لِي تَسْمِيْعُهُ ، وَذَكَرْتُ هُنَا شَيْئًا
 مِنْ مَرَوِيَّاتِي وَأَشْيَاخِي رَحِمَهُمُ اللَّهُ وَذَكَرْتُ مُصَنَّفَاتِي :
 إِجَازَةُ قَاصِرٍ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ * يَسِيرُ مِنَ الرَّوَايَةِ فِي مَقَاظِهِ :
 لِمَنْ مَلَكَ الْقَضَائِلَ وَأَقْتَنَاهَا * وَجَازَ مَدَى الْعُلَى سَبَقًا وَحَازَهُ !



ومن ذلك ما كتب به الشيخ العلامة شمس الدين محمد بن الصائغ على استبداء بعض من سألته الإجازة .

أقول بعد حمد الله الذي لا يُحِبُّ من استجدي كرمه ، ولا يَحِبُّ من استدعى
 نَعَمَهُ ، وَالصَّلَاةِ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَخَدَمِهِ وَمَا آسُودَ مِنْهُ : (١)
 أَثَرْتُ الْجَوَى بِي إِذْ أَرَدْتُ جَوَائِي * وَعَظَّمْتُ خَطِيئِي إِذْ قَصِدْتُ خَطَائِي :
 وَمَنْ أَنَا فِي الدُّنْيَا أُجِيبُ وَمَنْ أَنَا ! * أُجِيزُ ؟ مَضَى الْأَشْيَاخُ تَحْتَ تُرَابِ !
 عَجِيبٌ لَطْلَالٍ لَدَيْنَا تَحَقُّبُوا * وَكَمْ قَدْ أَنَا قَدَفَرْنَا بِعُجَابِ !
 نَحْنُ إِلَى الْمَوْلَاهِ أَمْرَانِي * مَرَبِّاهِ بِالْعَذِيبِ عَذَابِ (٢)

يَا أَخَانَا : إِنَّ بِضَاعَتَنَا فِي الْعِلْمِ مُزَجَّاهُ ، وَصِنَاعَتَنَا فِي الْوَقْتِ مُرَجَّاهُ ، وَتَسْمِيْعُ أَخْبَارِهِ
 غَلِيلٌ ، وَأَدَبُ إِخْبَارِهِ قَلِيلٌ ، وَتَصَانِيفِي وَجْهٌ أَكْثَرُهَا مُسَوَّدَةٌ ، وَأَمَائِي فِي تَبْيِيضِهَا
 لِقِصْرِ الْجِئِمِ مَبْتَدَأٌ ، سَأَلْتُ قَدِيمًا مِنْ بَعْضِ الْفَضَلَاءِ أَنْ أَمِدَّهَا ، فَكَتَبْتُ فِيهَا رِسَالَةً
 لَا أَعْرِفُ لَصَفْلٍ الْأَذْهَانَ حَمْدًا ، وَمَنْ اللَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ بِتَصَانِيفِ أَخْرَ ، وَمَقَاطِيعِ إِنْ لَمْ
 تَكُنْ كَالْزَهْرِ فَهِيَ كَالزَهْرِ ، ثُمَّ عَدَدْتُ نَيْفًا وَثَلَاثِينَ مُصَنَّفًا ، مِنْهَا "تَجَمُّعُ الْفَرَائِدِ"
 فِي سِتِّ عَشْرَةِ مَجْلَدَةٍ . ثُمَّ أَتَشَدُّ فِي آخِرِ ذَلِكَ :

(١) كَذَا فِي الْأَصْلِ ، وَلَمْ يَهْدِ إِلَيْهِ مَعَ دَقَّةِ الْبَحْثِ .

(٢) فِي كَشَفِ الظُّلُومِ : نَسَمَةُ عَشْرِ مَجْلَدَاتٍ .

وَلَقَدْ شَرَفْتَ قَدْرِي * بِنَفِيسٍ مِنْ هَذَا :
 بِنِظَامٍ شَفَّ السَّمْعَ يَدْرُكَ كَاللَّيَالِ .
 فَارْوِمْنِي وَأَرْوِعْنِي * وَأَغْنِ عَنِ شَدِّ الْمَطَايَا ،
 وَأَتَّقِ الْفَضْلَ وَحَصِّلْ ، * وَأَحْظِ مَنِي بِمَزَايَا ،
 وَتَحَرَّ الصَّدَقِ وَأَعْلَمْ * أَنَّهُ خَيْرُ الْوَصَايَا !!!
 أَجَزْتُ لَكَ أَنْ تَرَوِيَ هَذِهِ وَغَيْرَهَا عَنِّي ، وَلَكَ الْفَضْلُ فِي قَبُولِ ذَلِكَ مِنِّي .

الصنف الثاني

(التقریضات التي تكتب على المصنّفات المصنّفة والقصائد المنظومة)

قد جرت العادة أنه إذا صُنِّفَ في فنٍّ من الفنون أو نظَّم شاعراً قصيدةً فأُجَادَ فيها أو نحو ذلك ، أن يكتبَ له أهلُ تلك الصناعة على كتابه أو قصيدته بالتقریض والمدح ، ويأتى كلُّ منهم بما في وسعه من البلاغة في ذلك .

فمن ذلك ما كتب به الشيخ صلاح الدين الصفدي على مصنف وضعه الشيخ تاج الدين علي بن درهم الموصلي الشافعي في الاستدلال على أن البسملة من أول الفاتحة ، وهي :

وَقَفْتُ عَلَى هَذَا التَّصْنِيفِ الَّذِي وَضَعَهُ هَذَا الْعَلَّامُ ، وَنَشَرَهُ فِي الْمَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ أَعْلَامَهُ ، وَأَصْبَحَ وَنَشَبَتْ إِلَيْهِ أَشْهُرُ عِلْمٍ وَأَبْهَرُ عِلَامَةٍ ؛ فَأَقْسِمُ مَا سَامَ الرُّوْضُنَ حَدَائِقَهُ ، وَلَا شَامَ أَبُو شَامَةَ بِوَارِقَةٍ ؛ كُلُّ الْأُئِمَّةِ تَعْتَرِفُ بِمَا فِيهِ مِنَ الْأَدِلَّةِ ، وَكُلُّ التَّصَانِيفِ يَقُولُ أَمَامَهُ : بِسْمِ اللَّهِ ؛ لَمْ فِيهِ مِنْ دَلِيلٍ لَا يُجَارِطُنْ بِمَا يَقُضُّهُ ، وَكَمْ فِيهِ مِنْ حُجَّةٍ يَكِلُ عَنْهَا الْخَصْمُ لِأَنَّ عَقْلَهُ عَلَى حَكِّ النِّقْدِ يَعْرِضُهُ ؛ قَدْ أَيْدَمَ أَدْعَاءَهُ بِالْحَدِيثِ وَالْأَثَرِ ، وَقَتْلَ مَذْهَبِ كُلِّ إِمَامٍ سَبَقَ وَمَا عَثَرَ ؛ لَقَدْ سُرَّ الشَّافِعِيُّ بِنَحْوِ

قوله الذى هدّبه ، وجعل أعلام مذهبِهِ مُدَّهَبَةً ، وأتى فيه بُنْكَتٌ تُطْرِبُ من
أسرار الحَرْفِ ، وقوائِدُ عُرِفَ بها ما بين ابنِ الدَّرْهِمِ وبين البُوْنى من البُوْنِ
فى تفاوتِ الصَّرفِ :

أَكْثَرِمَ به مُصَنَّفًا * فَاقَ تَصَانِيفَ الْوَرَى !
تِلْ الْمِتَادِ فِيهِ بِالْمَعْنَى الْمُنِيرِ أَفْهَرَا !
تَمْ فِيهِ بُرْدٌ مُجْجِي * قَدْ حَاكَهُ مُحَرَّرَا ،
وَكَمْ دَلِيلَ مَئِيْفُهُ * إِذَا اتَّقَى خَصْمَا قَرَى .
فَلَمْ يَكُنْ مِنْ بَعْدِهِ * مُخَالَفٌ قَطُّ يُرَى !!



ومن ذلك ما كتب به المقر الشهابى بن فضيل الله على قصيدة ميمية ، للشيخ
غرس الدين خليل الصفدى المعروف بالصلاح الصفدى ، مدح بها الأمير سيف
الدين إلجاي الدوادار الباصرى ، فى شهر سنة تسع وعشرين وسبعمائة ، وهى :

وَقَفْتُ عَلَى هَذِهِ الْقَصِيدَةِ الَّتِي أَشْرَقَتْ مَعَانِيهَا فَكَادَتْ تُرَى ، وَتَمَكَّنَتْ قَوَائِفُهَا
فَاسْتَمَسَكَ بِهَا الْأَدَبُ لَمَّا كَانَتْ الْمِيَاهُ فِيهَا كَالْعُرَى ؛ فَوَجَدْتُهَا مُشْتَمِلَةً مِنَ الْبَسَاطَةِ
بُورْزِيَا عَلَى الْبَحْرِ الْمَحِيطِ ، طَافِيَةً لَا تُقَاسُ بِأَمثالِهَا مِنَ الْكَلَامِ الْمُرْكَبِ لِأَنَّهَا مِنَ الْبَسِيطِ ؛
فَنَظَرْتُ إِلَيْهَا مُكْتَسِبًا مِنْ بَيَانِهَا سَحَرَ الْحَقِّ ، مُتَعَجِّبًا مِنْ مُنْشِئِهَا لِعُرْسِ يُسْرِعُ
الْإِنْمَارَ فِي الْوَرَقِ ؛ ثُمَّ فُطِنْتُ إِلَى أَنَّ الْمَدْحَوحَ بِهَا أَعَزَّهُ اللَّهُ تَعَالَى تَحْتَ دِيمَةِ قُرْوُضِ
الطُرُوسِ ، وَبَرَحَتْ مَنَاقِبُهُ بِمَا كَانَ مَصُونًا فِي أَخِيَّةِ النُّفُوسِ ؛ وَقَدْ اسْتَوْجَبَ هَذَا
الْمَدْحُ حُطْفَ اللَّهِ تَعَالَى قَلْبَهُ عَلَيْهِ مِنْ مَنَاقِبِهِ حَظًّا جَزِيلًا ، وَحُبًّا يَقُولُ بِهِ لِمَنْ قَصَدَ
الْمِساوَاةَ بِهِ : لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا لَا تَتَخَذُ فَلَانًا خَلِيلًا :

مَدَّبَرُ الْمُلْكِ لَهُ * عَلَى الْعُلَى مَقَاعِدُ،
تَهْوِي إِلَى جَنَابِهِ الْقُصَادُ وَالْقَصَائِدُ!



قُلْتُ : وَكُنْتُ عَلَى قَصِيدَةٍ نَظَّمَهَا شَرَفُ الدِّينِ عَيْسَى بْنُ حُجَّاجٍ الشَّاعِرُ الْمَعْرُوفُ
بِالْعَالِيَةِ ، مَدَحَ بِهَا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَضَمَّنَهَا أَنْوَاعَ الْبَدِيعِ ، ضَاهَى بِهَا بَدِيعَةَ
الصَّبِيِّ الْحَلِيِّ ، فِي شَهُورِ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَتِسْعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ ، مَا صُوِّرَتْهُ :

أما بعد حمد الله الذي أحلَّ بحرِّ البيان ، وأقدر أهلَ البلاغة من بَدِيعِ التَّخِيلِ عَلَى
مَا يَشْهَدُ بِصِحَّتِهِ الْعِيَانُ ، وَذَكَرَ بَرَايِضَ أَفْكَارِهِمْ صِعَابَ الْأَلْفَاظِ فَاثْمَطُوا مِنْ مُتُونِ
أَحْسَنِهَا الْحِيَادِ ، وَأَوْضَحَ لَمْ طَرُقَ الْفَصَاحَةُ فَغَدَتْ لَسِيْمَ - بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى - سَهْلَةً
الْقِيَادِ ، وَأُخِيَّ مَيِّتَ الْأَدَبِ بَرُوجَ الْأَنْفَاسِ الْعَيْسَوِيَّةِ وَعَمَّرَ بِأَنْبِيَّهَا رُبُوعَهُ الْخَالِيَّةِ ،
وَحَمَى نَفْسَ الْفَضْلِ فِي رُقْعَةِ الْمُسَاجَلَةِ أَنْ تَصِلَ إِلَيْهَا فَرَازَنَةُ الدَّعَاوَى وَلَا غَرَوَانُ
حَمَاهَا الْعَالِيَةِ ، وَالصَّلَاةِ عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَفْصَحَ مِنْ نَطْقِ الْضَّادِ ،
وَأَوْرَى جَوَامِيعَ الْكَلِمِ فَلَنْ تَحْصُرَ مَعَانِيَ كَلَامِهِ الْأَعْدَادُ - فَإِنِّي وَقَفْتُ عَلَى الْبَدِيعَةِ
الْبَدِيعَةِ الَّتِي نَظَّمَهَا الْفَاضِلُ الْأَرْفَعُ ، وَاللَّوْذَعِيُّ الْمِصْقَعُ ، أَيْدِيبُ الزَّمَانِ ، وَشَاعِرُ
الْأَوَانِ ، شَرَفُ الدِّينِ أَبُو الرُّوجِ عَيْسَى الْعَالِيَةُ - أَعْلَى اللَّهُ تَعَالَى مَنَارَ أَدَبِهِ وَرَفَعَهُ عَلَى
مُنَاوِيهِ ، وَبَلَغَ بِهِ مِنْ قَصَبِ السَّبْقِ مَا يَمْتَنِعُ أَنْ يَرَاهُ عَلَى الْبُعْدِ مُضَاهِيَهُ - فَأَلْفَيْتُهَا
الدَّرَّةَ الثَّمِينَةَ غَيْرَ أَنَّهَا لَا تُسَامُ ، وَالْخَرِيدَةَ الْمُخَدَّرَةَ إِلَّا أَنَّهَا لَا يَلِيقُ بِهَا الْاِحْتِشَامُ :

تَرُومُ اِحْتِشَامًا سَتْرًا لَا لَاءَ وَجْهَهَا ! * وَمَنْ ذَا لِدَاتِ الْحُسْنِ يُحْفَى وَيَسْتُرُ ؟ !

قَدْ ائْتَمَدْتُ مِنَ الْاِحْتِشَامِ مَقِيلًا وَحِصْنًا لَا يُغْنَى ، وَابْتَدَيْتُ مِنْ حُسَادِهَا مَكَانًا
قَصِيًّا فَلَا تَخَافُ دَرْكًا وَلَا تَحْنَى :

وَلَمْ أَذِرْ - هَالَتْ قَاطُ مِنْهَا شَرِيفَةً - * إِلَى الْبَدْرِ تَسْمُو أَمْ إِلَى الشَّمْسِ تَرْتَقِي ؟ !
أَرَادَ الْمُدَّعِي بُلُوغَ شَأْنِهَا الْجَرَى فِي مِضَارِهَا فَعِيلٌ : كَلَّا ، وَرَأَى الْمُلْحِدُ فِي آيَاتِهَا
الْفَضْلَ مِنْهَا عِنَادًا فَأَبَى اللَّهَ إِلَّا :

مَا إِنْ لَهَا فِي الْفَضْلِ مِثْلُ كَائِنْ ! * وَبَيَّنَّا أَحْلَى الْبَيَانِ وَأَمَثَلَ !
فَأَدَّسُوا فِي مُعَارَضَتِهَا غَيْرَ طَامِعِينَ ، وَتَلَّتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ بَلَاغَتِهَا : (فَطَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ
لَهَا خَاصِصِينَ) :

كَمْ جَدَلَتْ يَوْمَ الْوَعْيِ مِنْ جَنْدِلٍ * صَاحَتْ بِهِ فَا أَطَاقَ تَصَبُّرًا !
وَكَيْفَ لَا تَخْضَعُ لَهَا الْأَعْنَاقُ ، وَتَبْذُلُ لَهَا رِقَابُ الشُّعْرَاءِ عَلَى الْإِطْلَاقِ ، وَهِيَ
الْيَقِيْمَةُ الَّتِي أُعْظِمَتِ الْأَفْهَامُ عَنْ مِثْلِهَا ، وَالْفَرِيْدَةُ الَّتِي أَعْتَرَفَ كُلُّ طَوِيلِ النَّجَادِ
بِالْقُصُورِ عَنْ وَصْلِهَا :

زَادَتْ عَلَيَّ ، مَنْ ذَا يُطِيقُ وَصَالَهَا ؟ * وَحَمَلَهَا مِنْهُ الثَّرِيَّا أَقْرَبُ !
وَأُنِّيْ بِذَلِكَ وَقَدْ أَخَذْتُ مِنَ الْحَاسِنِ بِزِمَامِهَا ، وَأَحَاطْتُ مِنَ الطَّيْلَافَةِ بِكَامِهَا ،
وَأَحْدَقْتُ رِيَاضَ الْأَدَبِ بِحَدَائِقِهَا ، وَأَقْتَطَعْتُ مِنْ أَفْنَانِ الْفُنُونِ ثِمَارَ مَعَانٍ تَلَذُّ
لِنَاطِلِهَا وَتَحْلُو لِنَائِقِهَا ؟ :

وَلَا تُبَسِّرْ غَيْرَهَا تَمَعًا وَلَا تَنْظُرًا * فِي مَلْعَةِ الشَّمْسِ مَا يُغْنِيكَ عَنْ رُحْلِ !
وَتَصَرَّفَتْ فِي جَمِيعِ الْعُلُومِ وَإِنْ كَانَتْ عَلَى الْبَدِيعِ مَقْصُورَةً ، وَشَرُفَتْ بِشَرَفِ
مُتَعَلِّقِهَا فَاصْبَحَتْ بِالشَّرَفِ مَشْهُورَةً :

أَهَانَتِ الدَّرَحَى مَالَهُ تَمَنُّ ، * وَأَرْخَصَتِ قِيَمَةَ الْأَمْثَالِ وَالْخَطَبَا !
لَا يَجْرِمُ أَضْحَتْ أَمْ الْقَصَائِدِ وَكَمْبَةُ الْقَصَادِ ، وَحَمَلُ الرِّجَالِ وَمَنْهَلُ الْوُرَادِ ، فَارَبَتْ
فِي الشُّهُورَةِ عَلَى " الْمَثَلِ السَّائِرِ " ، وَأَعْتَرَفَ بِفَضْلِهَا جَرَالَةُ الْهَادِي وَسُهُولَةُ الْحَاضِرِ :

فَلَا فَاِضِلْ فِي عَالِيهَا سَمَرٌ * إِنَّ الْحَدِيثَ عَنِ الْعَالِيَةِ أَسْمَارُ!
فَأَعْجِبْ بِهَا مِنْ نَادِرَةٍ جَمَعَتْ بَيْنَ مُتَضَادِّينِ سَمَرٍ وَسَمَرٍ، وَقَرَنْتِ بَيْنَ مُتَبَاعِدَيْنِ زُهْرٍ
وَزَهْرٍ، وَجَادَتْ بِمُسْتَرْهِينِ رَوْضٍ وَنَهْرٍ، وَتَفَنَّنَتْ فِي أَسَالِيبِ الْكَلَامِ وَجَالَتْ،
وَطَاوَعَتْهَا يَدُ الْمَقَالِ فَقَالَتْ وَطَالَتْ، وَدَعَتْ فُرسَانَ الْعَرِيبَةِ إِلَى الْمُبَارَاةِ فَتَنَكَّسُوا،
وَتَحَقَّقَ الْمُفْلِقُونَ الْعَجْزَ عَنْ مُوَاخَاتِهَا وَلَوْ حَرَّصُوا :

فَأَعْرَبَ عَنْ كُلِّ الْمَعَانِي فَصِيحُهَا * بِمَا عَجَزَتْ عَنْهُ زِرَارٌ وَيَعْرُبُ!
إِنْ دُرِّكَتِ الْفَاطُهَا فَمَا الدُّرُّ الْمُنْتَوَرُ؟ أَوْ جُلِيَتْ مَعَانِيهَا أَنْجَلِيَتْ الرُّوضُ الْمَطْطُورُ؟
أَوْ أُعْتِرَ تَحْرِيرُ وَزْنِهَا فَاقِ الذَّهَبَ تَحْرِيرًا، أَوْ قُولَتْ قَوَافِيهَا بِفِيهَا زَكَتْ تَوْفِيرًا وَسَمَتْ
تَوْفِيرًا، أَوْ تَقَرَّلَتْ أَسَكَّتِ الْوُرُقُ فِي الْأَغْصَانِ، أَوْ أَمْتَدَحَتْ قَفَّتْ إِثْرُ «كَلْبِ»
وَسَلَكَتْ سَبِيلَ «حَسَّانٍ»؛ فَاطْنَانُهَا - لَفَصَاحَتِهَا - لَا يُعَدُّ إطنَابًا، وَإِيحَاظُهَا
- لِبَلَاغَتِهَا - يُمَدُّ عَلَى الْمَعَانِي مِنْ حُسْنِ السَّبْكِ أَطنَابًا :

أَمِنَ لِي بِمَنْزَلِهَا أَخَا الْفَهْمِ إِنِّهَا * إِلَى الْفَضْلِ تُعَزَّى أَوْ إِلَى الْإِحْدَادِ تُنْسَبُ؟
هَذَا وَبَرَاةُ مَطْلَعِهَا تَحُثُّ عَلَى سَمَاعِ بَاقِيهَا شَفَقًا، وَبَدِيعُ مَخْلَصِهَا يَسْتَرِيقُ الْأَسْمَاعَ
لَطَافَةً وَيَسْتَرِيقُ الْقُلُوبَ كَلَفًا، وَحُسْنُ اخْتِمَامِهَا تَكَادُ النُّفُوسُ لِحَالَاةٍ مَقْطَعَةٍ تَكْتُوبُ
عَلَيْهَا أَسْهَافًا :

لَهَا مِنْ بَرَاهِينِ الْبَيَانِ شَوَاهِدُ : * إِذِ الْفَضْلُ وَرَدَّ وَالْمَعَالَى مَوَارِدُ!
وَبِالْجَمْلَةِ فَمَا زُيَّرَ الْجَمِيلَةُ لِلْمُخْصَى، وَجَمَّائِلُهَا الْمَانُورَةُ لِأَتَمِّ وَلَا تُسْتَفْصَى؛ فَكَأَنَّمَا
«قُسْ بْنُ سَاعِدَةَ» يَأْتِمُّ بِفَصَاحَتِهَا بِـ «أَبْنِ الْمُقَفَّعِ» يَتَّبِدِي بِهِنَّهَا وَيُرْوَى عَنْ
بِلَاغَتِهَا، «وَأَمْرُؤُ الْقَيْسِ» يَقْتَبِسُ مِنْ صِسْنَةِ شِعْرِهَا، وَ«الْأَعْبَسِيُّ» يَسْتَضِيءُ
بِظُلْمَةِ بَدْرِهَا، فَلَوْ رَأَاهَا «جَرِيرٌ» لَرَأَى أَنَّ نَظْمَهُ جَرِيرَةٌ أَقْتَرَفَهَا، أَوْ سَمِعَهَا «الْفَرَزْدَقُ»

لعرف فضلها وتحقق شرفها ؛ أو بصورها « حبيب بن أوس » لأحب أن يكون من رواتها، أو أطلع عليها « المتني » لتحيين جميل ذاتها وحسن أدواتها :
 فللبصائر هادٍ من فضائلها * يهدي أولي الفضل إن ضلوا وإن حاروا !
 ولا يُطيل فببلغ القول فيها أن آيتها المحكمة ناصحة لما قبلها، وبرهانها القاطع قاض
 بأن لا تسمح قريحة أن تنسج على منوالها ولا يطمع شاعر أن يسلك سبيلها :
 وآيتها الكبرى التي دلّ فضلها • على أن من لم يشهد الفضل جاحداً !

الطرف الثاني

(فيما يكتب عن القضاة ، وهو على أربعة أصناف)

الصنف الأول

(التقاليد الحكيمة ، وهي على مرتبتين)

المرتبة الأولى

(أن تفتتح بخطبة مفتحة بـ « الحمد لله »)

ثم يقال : « أما بعد » ثم يقال : « ولما علينا من حال فلان الفلاني كذا وكذا ،
 استخرنا الله تعالى وفوضنا إليه كذا وكذا ، فليباشرك ذلك » ويوص بما يناسب .
 ثم يقال : « هذا عهدنا إليك ، ومجبتنا عند الله عليك ، فأعلم هذا وأعمل به ، وكتب
 ذلك عن الإذن الفلاني » .

وهذه نسخة تقليد :

الحمد لله الولي الحميد ، القمّال لما يريد ، نحمده على ما أولانا من إحسانه فهو
 المولى ونحن العبيد ؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة توصّلنا إلى

جَنَّةٍ نَعِيمُهَا مُقِيمٌ ، وَتَعِينَا مِنْ نَارٍ عَذَابُهَا شَدِيدٌ أَلِيمٌ ؛ وَأَشْهَدُ أَنْ عَمَدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ
النَّبِيُّ الْكَرِيمُ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الْمُسْتَحْلِينَ عَلَى الطَّاعَةِ وَالْقَلْبِ السَّلِيمِ ؛
وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

أما بعد ، فإن مَرْتَبَةَ الْحُكْمِ لَا تُعْطَى إِلَّا لِأَهْلِهَا ، وَالْأَقْصَى لَا يَنْتَصِبُ لَهَا إِلَّا مَنْ
هُوَ كُفَى لَهَا ؛ وَمَنْ هُوَ مُتَّصِفٌ بِصِفَاتِ الْأَمَانَةِ وَالصِّيَانَةِ ، وَالْعِفَّةِ وَالِدَيَانَةِ ؛ فَإن
هذه صِفَتُهُ اسْتَحَقَّ أَنْ يُوجَّهَ وَيُسْتَعْدَمَ ، وَيَتَرَقَّى وَيَتَقَدَّمَ .

وَلَمَّا عَلِمْنَا مِنْ حَالِ فُلَانٍ الْفُلَانِيِّ الْأَوْصَافَ الْحَمِيدَةَ ، وَالْأَعْمَالَ السَّيِّدَةَ ؛ فَإِنَّهُ
قَدْ حَوَى الْمَعْرِفَةَ وَالْعُلُومَ ، وَالْأَصْطِلَاحَ وَالرُّسُومَ ، وَجُمِعَتْ فِيهِ خَصَالٌ حَمَلَتْهَا عَلَى
اسْتِنَائَتِهِ ، وَقَوَّضْنَا عَلَى نِيَابَتِهِ ؛ بـ اسْتَخَرْنَا اللَّهَ تَعَالَى وَقَوَّضْنَا إِلَيْهِ كَذَا وَكَذَا .

فَلْيُبَاشِرْ ذَلِكَ مُتَمَسِّكًا بِحَبْلِ اللَّهِ الْمَتِينِ ، (إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
الْمُحْسِنِينَ) وَلْيَجْتَهِدْ فِي إِقَامَةِ الدِّينِ وَفَصْلِ الْخَصُومَاتِ ، وَفِي النَّظَرِ فِي ذَوِي الْعَدَالَاتِ
وَالْتَّلْبِيسِ بِالشَّهَادَاتِ وَإِقْلَامِ الْبَيِّنَاتِ ؛ فَإن كَانَ مِنْ أَهْلِ الْعَدَالَةِ زَهْرًا ، وَإِلَى الْحَقِّ
مُتَوَجِّهًا ؛ فَلْيَبْرَأْهُ وَيُقَدِّمَهُ عَلَى أَقْرَانِهِ ، وَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ خِلَافَ ذَلِكَ فَلْيَقْبِضْهُ وَيُطَالِعْنَا
بِحَالِهِ . وَلْيَنْظُرْ فِي أَمْرِ الْجَوَامِعِ وَالْمَسَاجِدِ وَيَفْعَلْ فِي ذَلِكَ الْأَعْمَالَ الْمَرْضِيَّةَ ، وَفِي أَمْوَالِ
الْأَيْتَامِ يَقْصُرُفْ مِنْهَا الْاَلَوَازِمَ الشَّرْعِيَّةَ ؛ فَإن بَلَغَ مِنْهُمْ رَشِيدًا اسْلَمَ إِلَيْهِ مَا عَسَاهُ يَقْضَلُ
لَهُ مِنْهَا ، وَيُقَرَّرُ الْفُرُوضُ ، وَيُزَوَّجُ الْخَالَيَاتِ مِنَ الْأَزْوَاجِ وَالْعَسَدِ وَالْأَوْلِيَاءِ ، مِنَ
الْأَزْوَاجِ الْآكْفَاءِ ؛ وَيَنْدُبُ لَذَلِكَ مَنْ يَلْمُ دِيَانَتَهُ ، وَيَحَقِّقُ أَمَانَتَهُ ؛ وَيَتَغَيَّرُ لِكِتَابَةِ
الصُّكُوكِ مِنْ لَا يَرْتَابُ بِصَحَّتِهِ ، وَلَا يَشْكُ فِي دِيَانَتِهِ وَخَبَرَتِهِ ؛ وَيَنْظُرُ فِي أَمْرِ الْمُتَصَرِّفِينَ ،
وَمَنْ عِنْدَهُ مِنَ الْمُسْتَخْدِمِينَ ؛ فَإن كَانَ مِنْهُمْ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْحَمِيدَةِ فَلْيَجْرِهْ عَلَى عَادَتِهِ ،
وَلْيُثِقْهُ عَلَى خِدْمَتِهِ ؛ وَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ بِخِلَافِ ذَلِكَ فَلْيَسْتَبْدِلْ بِهِ وَلْيَقْبِضْهُ .

هذا عهدى إليك ، وُجِّهْ غداً عند الله عَلَيْكَ ؛ فاعلم هذا وأعمل به .
 وَكُتِبَ ذَلِكَ عَنِ الْإِنْفِ الْكَرِيمِ الْفَلَائِيْ وَهُوَ فِي مَحَلِّ وَلَا يَشِهُ وَحِكْمِهِ وَقَضَائِهِ ،
 وَهُوَ نَاقِذُ الْقَضَاءِ وَالْحُكْمِ مَاضِيَهُمَا ، فِي التَّارِيخِ الْفَلَائِيْ . (ثم يَكْتُبُ الْحَاكِمُ عَلَامَتَهُ
 وَالتَّارِيخَ) وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .



وهذه نسخة تقليد :

الحمد لله الْحَكَمِ الْعَدْلِ الْمَادِي عِبَادَهُ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ، الْحَاكِمِ الَّذِي لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ
 ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ؛ الْمُثِيبِ مَنْ قَدَّمَ لَهُ
 الطَّاعَةَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَبْعُ فِيهِ وَلَا خِلَالًا ، الرَّقِيبِ عَلَى مَا يَبْصُرُ مِنْ أَعْمَالِهِمْ
 فَلَا يُغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّى يَغْيَرُوا مَا بَأْنَفْسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ
 مِنْ دُونِهِ مِنْ وَاِل .

أَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي تُنَشِئُ الْجَبَابِ الثَّقَالِ ، وَأَسْتَعِينُهُ مِنْ نِقَمِهِ الَّتِي يُرْسِلُهَا
 فَيَصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ ؛ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ
 لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً تَفِيدُ الْمُخْلِصَ بِهَا فِي الْإِقْرَارِ النِّجَاةَ يَوْمَ الْمَالِ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ
 وَرَسُولُهُ الَّذِي نَعَمَتْ بِأَكْرَمِ الشِّمِّ وَأَشْرَفِ الْخِصَالِ ، وَعَرَفَهُ بِمَا يَجِبُ مِنْ عُيُودِيَّتِهِ فَقَالَ :
 (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ) ؛
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ أَتَّبَعُوهُ فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ ؛ وَعَلِمَ تَعْلِيمًا كَثِيرًا .

أما بعدُ ، فَإِنَّ مَنْ حَسُنَتْ سِرِّيَّتُهُ ، وَجِدَّتْ سِيرَتُهُ ، وَغُرِفَ بَوْرِجُ وَثَمَرِ بَقَافٍ ،
 وَدَيَانَةُ وَخَيْرِ وَأَنْصَافٍ ؛ وَأَمْنَى نَزْهُ النَّفْسِ عَنِ الْأُمُورِ الدُّنْيَا ، فَقِيمًا دَرِيًّا بِالْأَحْكَامِ
 الشَّرْعِيَّةِ ، عَارِفًا بِالْأَوْضَاعِ الْمُرْضِيَةِ = أَسْتَحَقُّ أَنْ يُوسَّعَ وَيُسْتَعْدَمَ ، وَيُرْفَقَ وَيَتَقَدَّمَ ،

وَلَمَّا عَلِمْنَا مِنْ حَالِ فَلَانِ الْفَلَانِيِّ مِنَ الْأَوْصَافِ الْحَمِيدَةِ، وَالْأَعْمَالِ الْعَمِيدَةِ -
 اسْتَحَرْنَا اللَّهَ تَعَالَى وَفَوَّضْنَا إِلَيْهِ كَذَا وَكَذَا .

فَلْيَكُنْ مَمْسُكًا مُعْتَصِمًا بِحَبْلِ اللَّهِ الْقَوِيِّ الْمَتِينِ، (إِنَّهُ مَنْ يَتَّقْ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ
 لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) وَلْيُشِيرْ مَا قَلَّدَنَاهُ أَعَانَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَبُرَاجِ حُقُوقِ
 اللَّهِ تَعَالَى فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ : فَإِنَّهُ مُعِينٌ مَنْ أَسْتَعَانَ بِهِ وَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ، وَهَادِيٌ مَنْ
 اسْتَرْشَدَهُ وَفَوَّضَ أُمُورَهُ إِلَيْهِ .

وَلْيَجْتَهِدْ فِي فَضْلِ الْأَحْكَامِ بَيْنَ الْمُتَنَازِعِينَ، وَالْمُسَاوَاةِ فِي الْعَدْلِ بَيْنَ الْمُتَحَارِكِينَ ؛
 قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ) .

وَأَنْ يَثْبُتَ فِي الْخُصُومَاتِ، وَيَفْرُقَ بَيْنَ الْحَقَائِقِ وَالشُّبُهَاتِ ؛ وَيُنْصِفَ كُلَّ ظَالِمٍ
 مِنْ ظَالِمِهِ بِالشَّرِيعَةِ الْحَمِيدَةِ ، لِيَكُونَ ذَلِكَ سَبِيلًا لِلْسَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ ؛ وَيَنْظُرَ فِي أَمْرِ
 الشُّهُودِ : فَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ تَزَاهًا ، وَإِلَى الْحَقِّ مُتَوَجِّهًا ؛ فَلْيُرَاعِهِ ، وَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ غَيْرُ
 ذَلِكَ طَالَعْنَا بِحَالِهِ . وَيَنْظُرَ فِي أَمْرِ الْجَوَامِعِ وَالْمَسَاجِدِ مُعْتَمِدًا فِي ذَلِكَ قَوْلَ اللَّهِ الْعَزِيزِ
 الْقَاهِرِ : (إِمَّا يَعْمُرَ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) .

وَيَنْظُرَ فِي أَمْرِ الْإِيْتَامِ ، وَيَتَحَنَّنْ عَلَى مَا لَهُمْ مِنَ الْأَمْوَالِ ، وَيَقْعَلْ فِي ذَلِكَ عَلَى
 جَارِي عَادَةِ أَمْثَالِهِ مِنَ الْحُكَّامِ ؛ مِنْ نَفَقَةٍ وَكُسُوفَةٍ وَلَوَازِمِ شَرْعِيَّةٍ ، فَمَنْ بَلَغَ مِنْهُمْ
 رَشِيدًا أَسْلَمَ إِلَيْهِ مَا فَضَّلَ مِنْ مَالِهِ بِالْبَيْتَةِ الْمَرْضِيَّةِ ؛ وَيُقَرِّرَ الْفُرُوضَ عَلَى مُقْتَضَى قَوْلِ
 اللَّهِ تَعَالَى : (عَلَى الْمُوسِيعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ) . وَيُزَوِّجَ النِّسْوَةَ الْحَالِيَةَ مِنَ الْعِدَدِ
 وَالْأَوْلِيَاءِ ، مِمَّنْ رَغِبَ فِيهِنَّ مِنَ الْأَكْفَاءِ ؛ وَيَسُدِّدْ لَذَلِكَ مَنْ يَعْلَمُ أَمَانَتَهُ وَخَيْرَتَهُ ،
 وَيَنْظُرَ فِي أَمْرِ الْمُتَصَرِّفِينَ : فَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْمَأْثُورَةِ أَجْرًا عَلَى عَادَتِهِ ،

وأبقاه على حُكْمِهِ وَخِدْمَتِهِ ؛ ومن كَانَ مِنْهُمْ خِلَافَ ذَلِكَ يُعِدُّهُ وَيُقَصِّبُهُ ؛ وَيَسْتَبْدِلُ بِهِ غَيْرَهُ لِيُنْقِىَ مَكَانَهُ وَفِي تَصَرُّفِهِ .

هَذَا عَهْدِي إِلَيْكَ ، وَحُجَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اللَّهِ عَلَيْكَ ، فَلتَعْلَمْ ذَلِكَ وَتَعْمَلْ بِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . (وَيُؤَرِّخُ ، وَيَكُونُ ذَلِكَ بَحْطُ الْحَاكِمِ) وَيَكْتُبُ : «وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ» وَيُتَوَجَّهُ بِعَلَامَتِهِ الْكَرِيمَةِ .



وهذه نسخة تقليد :

الْحَمْدُ لَهُ ذِي الْفَضْلِ وَالسَّعَادَةِ ، وَاللَّطِيفِ فِي الشَّدَّةِ وَالرَّخَاءِ ؛ الَّذِي مِنْ تَوَاضَعٍ إِلَيْهِ رَفَعَهُ ، وَمِنْ أَطَاعَةِ قَفَعَهُ ، وَمِنْ أَخْلَاصٍ لَهُ فِي الْعِبَادَةِ أَمَالَ عَنْهُ كَيْدَ الشَّيْطَانِ وَدَفَعَهُ ؛ الَّذِي أَحَاطَ عَلَيْهِ بِالْمَوَارِدِ وَالْمَصَادِرِ ، وَأَسْتَوَتْ عِنْدَهُ أَحْوَالُ الْأَوَائِلِ وَالْآوَاخِرِ ، وَأَطْلَعَ عَلَى ضَمَائِرِ النُّفُوسِ وَلَا يَنْبَغِي لغيرِهِ أَنْ يَطْلُعَ عَلَى الضَّمَائِرِ ؛ الْخَافِضِ الرَّافِعِ ، وَالْمُعْطَى الْمُسْتَأْنَعِ ؛ فَإِلَيْهِ الْأَمْرُ وَالنَّذِيرُ ، الْمُقْسِطُ الْجَامِعُ : (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ يَضُرَّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بغيرِ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) .

أَحْمَدُهُ حَمْدًا يَقْضِي لِلْإِسْعَادَةِ بِالنَّصِيرِ ، وَأَشْكُرُهُ شُكْرًا يُسَهِّلُ مِنَ الْمَأْرَبِ الْعَسِيرِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ سُبْحَانَهُ نِعَمَ الْمَوْلَى وَنِعَمَ النَّصِيرِ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي أَرْسَلَهُ بِالْهُدَى وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ، وَجَعَلَهُ لِلْأُمَّةِ خَيْرَ بَشِيرٍ وَنَذِيرٍ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ شَهَادَةً يَحُلُّ الْمُخْلِصُونَ بِهَا جَنَّةً (يُحْمَلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ) .

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ مَنْ كَانَ عَارِفًا بِأَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ ، مُتَهَيِّيًا لِنَيْلِ دَرَجَاتِهَا الرَّيْعَةِ ، مُسْتَعِدًّا إِلَى بَيْتِ مُشْكُورٍ ، وَقَدِيرٍ مَوْفُورٍ ، قُلَّدَ الْأَحْكَامَ الدِّينِيَّةَ ، لِيَعْمَلَ فِيهَا بِالشَّرِيعَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ .

وَلَا عَلِمْنَا فَلَانَ بْنِ فَلَانَ بْنِ فَلَانَ الْفُلَانِيَّ، قَدْ نَاه كَذَا وَكَذَا .

فَبَاشِرُ أَعَانَكَ اللَّهُ : مُحَافِظًا عَلَى تَقْوَى اللَّهِ الَّذِي إِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمَصِيرُ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ : ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ . وَاسْتَشْعِرْ خِيفَةَ اللَّهِ وَاجْعَلْهَا نُصَبَ عَيْنِكَ ، وَتَمَسَّكْ بِالْحَقِّ وَاجْعَلْهُ حِجَابًا بَيْنَ النَّارِ وَبَيْنَكَ ، وَاتَّصِبْ لِنَفْيِذِ الْأَحْكَامِ اتِّصَابًا مِنْ يُرَاقِبُ اللَّهُ وَيَحْشَاهُ ، وَحَاسِبِ نَفْسَكَ مُحَاسِبَةً مِنْ يَتَحَقَّقُ أَنَّهُ يَطْلُعُ عَلَيْهِ وَيَرَاهُ ، وَأَبْذُلْ فِي إِنْصَافِ الْمَظْلُومِ مِنَ الظَّالِمِ وَسَعَكَ ، وَرَحِّبْ لِلتَّعَاكُيْنِ ذَرْعَكَ ، وَانْظُرْ فِي أَمْرِ التُّهُودِ وَحَدِّثْهُمْ أَنْ يَزُوعُوا عَنِ الْحَقِّ ، وَحَاسِبْهُمْ فِيَا جَلِّ وَدَقِّ ، وَلَا تُرَخِّصْ لَهُمْ ، وَأَلْزِمْهُمْ أَنْ يَتَّخِذُوا الصَّدَقَ مَنَظِقَهُمْ ، وَأَنَّهُمْ عَنِ التَّسْمُحِ فِيهَا ، وَعَرِّفْهُمْ التَّحَرُّزَ عَمَّا يُوْدَى مِنَ التَّهْمَةِ وَالتَّطَرُّقِ إِلَيْهَا ، وَانْظُرْ فِي أَمْرِ الْمُتَصَرِّفِينَ بِيَابِ الْحُكْمِ الْعَزِيزِ نَظَرًا يُوْدَى إِلَى صَلَاحِهِمْ ، وَلَا تَعَوَّلْ فِي النِّيَابَةِ عَنْكَ إِلَّا عَلَى مَنْ تَخْتَارُهُ وَتَرْتَضِيهِ ، وَلَا تَرْجُحْ إِلَى مَنْ هُوَ مُسْتَنَدٌ إِلَى غَايَةٍ وَلَا يَمِيلُ إِلَيْهِ ، وَانْظُرْ فِي أَمْرِ الْأَخْبَاسِ نَظَرًا يَحْفَظُ أَصُولَهَا ، وَلَا تُرَاجِعْ فِي اسْتِخْلَاصِ مَا يَتَعَيَّنُ لَهَا كِبَرًا وَلَا صَغِيرًا ، وَلَا تُعَامِلْ فِيهَا إِلَّا ذَوِي الْوَفَاءِ وَالْيَسَارِ ، وَارْتَفُضْ مَعَامِلَةً مِنْ يَسْتَنِدُ إِلَى الْعُنْدِمْ وَالْإِعْسَارِ ، وَافْعَلْ مَا يَفْعَلُهُ مِنْكَ مِنَ الْحُكْمِ ، مِنْ إِثْنَاءِ الْعَدَالَةِ وَالْفُسْخِ وَالْإِنْكَاحِ وَغَيْرِ ذَلِكَ فَقَدْ قَلَّدْنَاكَ هَذِهِ الْأَحْكَامَ ، فَإِنْ عَمِلْتَ فِيهَا بِتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى وَطَاعَتِهِ يُعِينُكَ عَلَى ذَلِكَ ، وَإِنْ عَمِلْتَ غَيْرَ ذَلِكَ فَانْتَ وَاللَّهُ هَالِكٌ ثُمَّ هَالِكٌ ، وَاسْتَمِعْ نَصِيحَتِي ، وَافْعَلْ مَا تُبَرِّدُ بِهِ جِلْدَتَكَ وَجِلْدَتِي ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

قلت : ^(١) وَرُبَّمَا كُتِبَ التَّقْلِيدُ بِصِغَةِ كِتَابٍ ، مِثْلُ أَنْ يُكْتَبَ إِلَى الَّذِي يَتَوَلَّى عَلَى قَدَرِ مَرْتَبَتِهِ ، مِنْ : « صَدَرَتْ هَذِهِ الْمَكْتُبَةُ » أَوْ : « هَذِهِ الْمَكْتُبَةُ » ثُمَّ يُقَالُ :

(١) هذه هي المرتبة الثانية وإن لم يأت لها بعنوان في الأصل .

«تَتَضَمَّنُ إِعْلَامَهُ أَنَّ الْمَجْلِسَ الْفَلَاقِي» بَلَقِيهِ، وَيُدْعَى لَهُ: «لَمَّا عَلِمْنَا مِنْ حَالِهِ كَذَا وَكَذَا - أَسْتَحْزَنَّا اللَّهَ تَعَالَى وَفَوَضْنَا إِلَيْهِ الْحُكْمَ وَالْقَضَاءَ بِمَكَانِ كَذَا، فَلْيَا شَرَّ ذَلِكَ» عَلَى نَحْوِ مَا خْتَمَ فِي التَّقْلِيدِ الَّذِي قَبْلَهُ .

الصنف الثاني

(إيجالات العدالة)

قَدْ جَرَتْ الْعَادَةُ أَنَّ أَبْنَاءَ الْعُلَمَاءِ وَالرُّؤَسَاءِ تَثَبَّتْ عِدَالَتُهُمْ عَلَى الْحُكَّامِ، وَيُسَجَّلُ لَهُمْ بِذَلِكَ، وَيَحْكُمُ الْحَاكِمُ بِعَدَالَةٍ مِنْ تَثَبَّتْ عِدَالَتُهُ لَدَيْهِ، وَيُشْهَدُ عَلَيْهِ بِذَلِكَ، وَيَكْتَبُ لَهُ بِذَلِكَ فِي دَرْجٍ عَرِيضٍ، أَمَا فِي قِطْعٍ فَرُخَةٍ الشَّامِ الْكَامِلَةِ، وَإِمَّا فِي نَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْوَرَقِ الْبَلَدِيِّ، وَتَكُونُ كِتَابَتُهُ بِقَلَمِ الرَّقَاعِ وَأَسْطُرُهُ مُتَوَالِيَةً، بَيْنَ كُلِّ سَطْرَيْنِ تَقْدِيرَ عَرْضِ أَصْبَحٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ .

قُلْتُ : وَهَذِهِ نُسْخَةٌ بِحَيْلِ أَنْشَائِهِ، كُتِبَ بِهِ لَوْلَدِي نَجْمِ الدِّينِ أَبِي الْفَتْحِ مُحَمَّدٍ، وَكُتِبَ لَهُ بِهَا عِنْدُ ثُبُوتِ عِدَالَتِهِ، عَلَى الشَّيْخِ الْعَلَّامَةِ وَلِيِّ الدِّينِ أَحْمَدَ، ابْنِ الشَّيْخِ الْإِمَامِ الْخَافِظِ زَيْنِ الدِّينِ عَبْدِ الرَّحِيمِ الْعِرَاقِيِّ، خَلِيفَةِ الْحُكْمِ الْعَزِيزِ بِمِصْرَ وَالْقَاهِرَةِ الْمَحْرُوسَتَيْنِ، فِي شَهْرِ سَنَةِ ثَلَاثَ عَشْرَةَ وَثَمَانِ مِائَةً، وَهِيَ .

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْلَعَ نَجْمَ الْعَدَالَةِ مِنْ سَمَاءِ الْفَضَائِلِ فِي أَفْئِ مَعَالِيهَا، وَأَنَارَ بَدْرَ دَارِي الْعُلَمَاءِ مِنْ حَادِسِ الْجَهَالَةِ مُذْهِمًا لِبَالِيهَا، وَكَلَّ عُقُودَ النِّجَابَةِ مِنْ نُجَبَاءِ الْأَبْنَاءِ بِأَعْلَى جَوَاهِرِهَا وَأَنْفَسَ لَآلِيهَا، وَاشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً تُرْفَقُ قَائِلُهَا إِلَى أَرْفَعِ الدُّرَى، وَيَمْتَنِي مُتَّحِلُهَا صَمَوَةَ الثَّرْيَا : وَإِنَّا لَنَرْجُو فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرًا، وَاشْهَدُ أَنَّ هَذَا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الْخَفُوضُ بِمَحَاسِنِ الشَّيْمِ، وَالْمُتَوَصِّفُ بِكَرَمِ الْمَأْتَرِ وَمَا تَرَى الْكَرَمَ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ تَسْكُنُوا مِنْ عُرَا الدِّينِ بِالسَّبَبِ

الأقوى، وسلكوا جادة الهداية فحصلوا من أقصى مقايها على الغاية القصوى، وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد، فلما كانت المدالة هي أس الشريعة وعمادها، وركنها الأعظم في الاستناد إلى الصواب وسنادها؛ لا تقبل دونها شهادة ولا رواية، ولا يصح مع عدمها إسناد أصري ولا ولاية - فقد بنيت الشريعة المطهرة على أركانها، واعتمد الرواة في صحة الأخبار على أصولها وتعلقت الحُكُم في قبول الشهادة بأحضانها؛ إذ هي الملكة الحاملة على ملازمة التقوى، والحفيظة المانعة من الوقوع في هوة البدع المتمسك بسببها الأقوى؛ والحكمة الثانية عن إلحاح إلى ارتكاب الكبائر، والعنان الصارف عن الجنوح إلى الإصرار على الصغائر؛ والزمام القائد إلى صلاح أعمال الظواهر وسلامة عقائد الضمائر.

ولما كان مجلس القاضي الأجل، الفقيه، الفاضل، المشتغل، المحصل، الأصيل، نجم الدين، سليل العلماء، أبو الفتح محمد بن فلان القلقشندي القزاري، الشافعي، خليفة الحكم العزيز بالقاهرة المحروسة واليه، والحاكم بالعنصل الفلاحي ومأمهما: أيده الله تعالى أحكامه، وأقر عينه بولده - هو الذي ولد على فراش الديانة، وظهرت عليه في الطفولة آثارها، ونشأ في أحباء الصيانة، فرويت عنه بالسند الصحيح أخبارها؛ وأرتضع ثدى العلم حين بزوغ نجمه، وغديه مع لبان أمه فامتزج بدمه وحميه وعظمه؛ وأعلن منادى تشاته بجمل الذكر فاقنى فيه عن الاستخبار، ولاحت عليه لوائح التجابة فضى له بالكمال قبل أن يبلغ قر عمره زمن الإبدار؛ فلم يرد منهبل التكليف إلا وقد تزين من محاسن الفضائل بأكل زين، ولم يبلغ مبلغ العلم حتى صار لوالده - والله الحمد - قوة عين - رفعت قصة خبره عن حاله فيها من مضمون السؤال طلب الإذن الكريم بسماع بينة المذكور، وكتابة إجمال بعدائه؛

فتميلها الخطُّ الكريمُ العاليُ ، المَوْلَوِيُّ ، الفاضِلِيُّ ، الإمامِيُّ ، العالمِيُّ ، العالمِيُّ ،
 العَلَامِيُّ ، الشَّيْخِيُّ ، المَحَدِّثِيُّ ، الحَافِظِيُّ ، الحَبْرِيُّ ، المَجْتَهِدِيُّ ، المَحَقِّقِيُّ ، المَدَقِّقِيُّ ،
 الوَحِيدِيُّ ، الفَرِيدِيُّ ، المَجْتَبِيُّ ، المَجْتَبِيُّ ، المَخْطِيبِيُّ ، البَلِيغِيُّ ، الحَاكِمِيُّ ، الجَلَالِيُّ ،
 الكَنَافِيُّ ، البَلْقِينِيُّ ، الشَّافِعِيُّ ، شَيْخُ الإسلامِ ، الناظِرُ في الأحكامِ الشرعيةِ بالديارِ
 المصريةِ ، والممالكِ الشريفةِ الإسلاميةِ : أدامَ اللهُ تعالى أيامَهُ ، وأَعَزَّهُ أحكامَهُ ،
 وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ ، وَأَسْبَغَ نِعَمَهُ في الدَّارَيْنِ عَلَيْهِ - لَسَيِّدَنَا العَبْدَ الفقيرِ إلى الله تعالى،
 الشَّيْخِ الإمامِ العالمِ ، الحافظِ ، وَلِيِّ الدِّينِ ، شَرِيفِ العُلَمَاءِ ، أَوْحَدِ الفُضَلَاءِ ،
 مُفْتِيِ المسلمينَ ، أَبِي زُرْعَةَ أَحْمَدَ ابْنَ سَيِّدَنَا العَبْدِ الفقيرِ إلى الله تعالى زَيْنَ الدِّينِ ،
 شيخِ الإسلامِ ، قَاضِيِ المسلمينَ ، أَبِي الفَضْلِ عَبدِ الرَّحِيمِ ، ابْنَ سَيِّدَنَا العَبْدِ الفقيرِ
 إلى الله تعالى بَدْرَ الدِّينِ ، شَرِيفِ العُلَمَاءِ ، أَوْحَدِ الفُضَلَاءِ ، مُفْتِيِ المسلمينَ ،
 أَبِي عبدِ الله الحُسَيْنِ الرَّاقِ الشَّافِعِيِّ ، خَلِيفَةِ الحُكْمِ العَزِيزِ بالقاهرةِ ومِصْرَ
 المحرُوسَتينِ ، والحَاكِمِ بالأَعْمَالِ المُنَوِّفَةِ ، ومُفْتِيِ دارِ العَدْلِ الشَّرِيفِ بالديارِ المصريةِ :
 أَيْدِ اللهُ تعالى أحكامَهُ ، وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ بالنظرِ في ذلكِ على الوَجْهِ الشرعِيِّ .

فَئِذَا سَمِعَ سَيِّدَنَا العَبْدَ الفقيرُ إلى الله تعالى الشَّيْخَ الإمامَ ، العالمَ ، الحافظَ ،
 وَلِيَّ الدِّينِ ، الحَاكِمَ المِشَارَ إِلَيْهِ : أَحْسَنَ اللهُ تعالى إِلَيْهِ - الْبَيِّنَةَ بَرَكِيَّتِهِ ، وَصَرَّحَتْ
 لَهُ بِالشَّهَادَةِ بعدائِهِ ، وَقَبِلَهَا القَبُولَ الشرعِيَّ السَّائِقَ في مِثْلِهِ .

ثمَّ أَشْهَدَ عَلَى نَفْسِهِ الكَرِيمَةِ مِنْ حَضَرٍ جَلَسَ حُكْمَهُ وَقَضَائِهِ ، وَهُوَ نَافِذُ القَضَاءِ
 والحُكْمِ ماضِيهما ، وَفَلكِ في اليومِ المَبَارِكِ يَوْمَ الأَرْبَعَاءِ الثَّامِنِ والعَشْرِينَ مِنْ شَهْرِ
 رَجَبِ القُرْدِ سَنَةِ ثَلَاثِ عَشْرَةٍ وَثَمَانِمِائَةٍ - أَنَّهُ ثَبَّتَ عِنْدَهُ وَصَحَّ لَدَيْهِ : أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْهِ -
 على الوَضْعِ المعتبرِ الشرعِيِّ ، والقَانُونِ المُحرَّرِ المَرعِيِّ ، بِالْبَيِّنَةِ العادلةِ المَرْضِيَّةِ ، الَّتِي

تَبَيَّنَتْ بِمِثْلِهَا الْحُقُوقُ الشَّرْعِيَّةُ - عَدَالَةُ الْقَاضِي الْأَجَلِّ ، الْعَدْلُ ، الرِّضَى ، نَجْمُ الدِّينِ مُحَمَّدِ الْمَسْمُوعِ أَعْلَاهُ : زَادَهُ اللَّهُ تَعَالَى تَوْفِيقًا ، وَسَهَّلَ لَهُ إِلَى الْخَيْرِ طَرِيقًا ، وَمَا أَشْتَقِلُّ عَلَيْهِ مِنْ صِفَاتِهَا ، وَتَحَلَّى بِهِ مِنْ أَدَوَاتِهَا ؛ ثُبُوتًا صَحِيحًا مُعْتَبَرًا ، مُسْتَوْفَى الشَّرَائِطِ مُحَرَّرًا .
وَأَنَّهُ - أَيْدَ اللَّهُ تَعَالَى أَحْكَامَهُ ، وَسَدَّدَ نَفْضَهُ وَإِبْرَامَهُ - حَكَمَ بَعْدَالِيهِ ، وَقَبُولِ شَهَادَتِهِ ؛ حُكْمًا تَامًا وَجَزَمَهُ ، وَقَضَى فِيهِ قَضَاءً أَبْرَمَهُ ، وَأَذِنَ لَهُ - أَيْدَ اللَّهُ تَعَالَى أَحْكَامَهُ - فِي تَحْمِيلِ الشَّهَادَةِ وَأَدَائِهَا ، وَبَسْطِ قَلَمِهِ فِي سَائِرِ أُنْدِيَّتِهَا وَأَرْجَائِهَا ؛ وَأَجْرَاهُ - أَجْرَى اللَّهُ تَعَالَى الْخَبْرَاتِ عَلَى يَدَيْهِ - مُجْرَى أَمْثَالِهِ مِنَ الْعُدُولِ ، وَنَظَمَهُ فِي سِلْكِ الشُّهَدَاءِ أَهْلِ الْقَبُولِ ؛ وَنَصَبَهُ بَيْنَ النَّاسِ شَاهِدًا عَدْلًا ، إِذْ كَانَ صَالِحًا لَذَلِكَ وَأَهْلًا .
فَلْيَبْسُطْ بِالشَّهَادَةِ قَلَمَهُ ، وَلْيُؤَلِّفْ عَلَى شُرُوطِ أَدَائِهَا كَلِمَةً ، وَلْيَحْمَدِ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى مَا مَتَّعَهُ مِنْ مَلَائِسِهَا الْجَمِيلَةِ ، وَأَنَالَهُ مِنَ التَّرَقُّقِ لِرَبَّتِهَا الْجَلِيلَةِ ؛ وَلْيَتَّقِ اللَّهُ تَعَالَى فِي مَوَارِدِهِ وَمَصَادِيرِهِ ، وَلْيَسْلُكْ مَسَالِكَ النُّقُوصِ فِي أَوَّلِ أَمْرِهِ وَآخِرِهِ ؛ وَلْيَعْلَمْ أَنَّ مَنْ سَلَكَ الْحَقَّ نَجَا ، وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا . أَوْزَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى شُكْرَ هَذِهِ الرَّبَّةِ الْعَالِيَةِ ، وَالْمُنْزِلَةِ السَّنِيَّةِ .

وَتَقَدَّمَ أَمْرُ سَيِّدِنَا الْعَبْدِ الْفَقِيرِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى الشَّيْخِ الْإِمَامِ ، الْعَالِمِ ، الْحَافِظِ ، وَلِيِّ الدِّينِ ، الْحَاكِمِ الْمَذْكُورِ ، وَقَاهُ اللَّهُ تَعَالَى كُلَّ عَحْذُورٍ بِكَاتِبَةِ هَذَا الْإِسْجَالِ ، فَكُتِبَ عَنْ إِذْنِهِ الْكَرِيمِ ، مُتَضَمِّنًا لَذَلِكَ مُسْتَوْفَا فِيهِ ، مُسْتَوْفَا شُرَائِطِهِ الشَّرْعِيَّةِ .
وَأُشْهِدُ عَلَى نَفْسِيهِ الْكَرِيمَةِ بِذَلِكَ فِي التَّارِيخِ الْمَقْدَمِ ذِكْرَهُ بِأَعَالِيهِ ، الْمَكْتُوبَ بِحَقِّهِ الْكَرِيمِ - شَرَفَهُ اللَّهُ تَعَالَى ، حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

قُلْتُ : وَالْعَادَةُ أَنْ يُعَلَّمَ فِيهِ الْحَاكِمُ عَلَامَةً تَلُو الْبِسْمِلَةَ ، وَيَكْتُبُ التَّارِيخَ فِي الْوَسْطِ ، وَالْحَسْبِلَةَ فِي الْآخِرِ ، كُلُّ ذَلِكَ بِحَقِّهِ ، وَيُشْهِدُ عَلَيْهِ فِيهِ مَنْ يَشْهَدُ عَلَيْهِ مِنْ كُتَّابِ الْحُكْمِ وَغَيْرِهِمْ ، كَمَا فِي سَائِرِ الْإِسْجَالَاتِ الْحُكْمِيَّةِ .

الصفحة الثالث

(الكتب إلى الثواب وما في معناها)

وَأَعْلَمَ أَنَّ الْكُتُبَ الَّتِي تُكْتَبُ عَنِ الْقَضَاءِ الْفَاضِلِ مُرْسَلَةٌ، لاجْتِنَاحِ فِيهَا إِلَى فَنِّ
الْبَلَاغَةِ وَالسَّجْعِ إِلَّا فِي الْقَلِيلِ النَّادِرِ .

وهذه نسخة كتاب كُتِبَ به عن قاضي القضاة تَغْرِي الدين الشافعي ، إلى الحكام
بالمملكة ، وهو :

أدام الله فضائل الجنابات العالِيَّةِ والمجالس العالية ، وجعلهم قَادَةً يُقْتَدَى بِهِمْ
فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ ، وَوِ
الْاِحْتِفَالِ مِنْ بَعْتِي بِأَمْرِهِ وَيُحْتَفَلُ ، وَلَا سِيَّامَا
مِنْ سَارَتْ طَرِيقَةُ فَضْلِهِ الْمُتْلَى فِي الْآفَاقِ سَيْرَ الْمُثَلِّ ؛ وَلَا زَالَ عَرُفُ مَعْرِفِهِمْ عَلَى
ذَوِي الْفَضَائِلِ يَفُوحُ ، وَجِبَادُ جُودِهِمْ تَقْدُوفِي مِيدَانِ الْإِحْسَانِ وَتَرْوُحُ ، وَنِيْلُ نَيْلِهِمْ
يَسِيرُ إِلَى الْقَصَادِ فَيُحْمَدُ سُرَاهُ عِنْدَ الْقُبُوقِ كَمَا يُحْمَدُ سُرَاهُ عِنْدَ الصُّبُوحِ .

هذه المكتبة إليهم تُقْرِئُهُمْ سَلَامًا لَطِيفًا مِنَ النَّسِيمِ ، وَتُهْدِي إِلَيْهِمْ ثَنَاءَ مَزَاجِ
كَاتِبِهِ مِنْ تَسْنِيمٍ ؛ وَتُبْدِي لَعْلُوهُمْ الْكَرِيمَةَ أَنَّ الْجَنَابَ الْكَرِيمَ ، الْعَالِيَّ ، الشَّيْخِيَّ ،
الْإِمَامِيَّ ، الْفَاضِلِيَّ ، الْبَارِعِيَّ ، الْأَوْحَدِيَّ ، الْأَكْمَلِيَّ ، الْبَلِيغِيَّ ، الْمَقْدِمِيَّ ، الْخَطِيبِيَّ ،
الْبَهَائِيَّ ، أَوْحَدَ الْفَضْلَاءِ ، تَغْرَى الْعُلَمَاءَ ، زَيْنَ الْخُطَبَاءِ ، قِسْلَةَ الْأَدْبَاءِ ، قُدُوةَ الْبُلَغَاءِ ،
صِفْوَةَ الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ ، خَطِيبَ الْمَوْضِلِ - أدام الله الْمُسَرَّةَ بِهِ ، وَوَصَلَ الْخَيْرَ
بِسَبِّهِ ؛ وَنَفَعَ بِفَوَائِدِ فَضْلِهِ وَأَدْبِهِ - وَرَدَّ عَلَيْنَا بِطَرَامِئِ الْحُرُوسَةِ ، فَخَصَلَتِ الْمُسَرَّةُ
بِذَلِكَ الْوُرُودِ ، وَتَجَدَّدَ بِخِدْمَتِهِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ وَثِيقِ الْهُوْدِ ، وَأَبْدَى لَنَا مِنْ نَظَرِهِ الْفَائِقِ
الرَّيْقِيَّ ، وَإِنْشَائِهِ الْمُغْنِيَّ عَنِ تَسْوَةِ الرِّجْقِ ، وَكَاتِبِهِ الَّتِي هِيَ السَّجَرُ الْحَلَالُ عَلَى

التَّحْقِيقُ ؛ مَا زَهَّ الْأَبْصَارَ وَشَفَّ الْأَسْمَاعَ ، وَقَطَعَ مِنْ قُرْسَانِ الْأَدَبِ أَسْبَابَ
الْأَطْلَاعِ ؛ فَازَالَ عَنِ الْقَلْبِ الْكَتِيبَ فِكْرًا ، وَأَتَجَمَّلَ مِنَ الرُّوضِ الْأَيْبِيِّ زَهْرًا ،
وَأَتَجَمَّلَ مِنَ الْمِسْكِ السَّجْحِ عَطْرًا ؛ وَكَيْفَ لَا ؟ وَهُوَ النَّفِيسُ الَّذِي جُمِعَ فِيهِ قَدِيمُ
الْأَدَبِ وَحَدِيثُهُ ، وَالْخَلِيسُ الَّذِي لَا يُسَامُ كَلَامُهُ وَلَا يُمَلُّ حَدِيثُهُ ؛ يَا لَيْسَ فِيمَا
يُسَيِّدُهُ مِنَ الْأَدَبِ تَجْرِيفٌ وَلَا غَلَطٌ ، وَفَاضِلًا لَوْ لَمْ يَكُنْ يَجْرَأُ لِمَا كَانَ الدُّرُّ مِنْ فِيهِ
يُلْتَقِطُ ؛ يَمِينُهُ وَفِطْنَتُهُ الْكَرِيمَتَانِ دَوَامًا أَفْنَانُ ، فَهَذِهِ إِنْ رَقَمْتَ طَرَسًا فُرُوحَ وَرَيْحَانُ ،
أَوْ بَذَلْتَ رَأً فَمِيزَانُ تَجْرِيبَانُ ؛ وَهَذِهِ إِنْ نَظَّمْتَ شِعْرًا فَيَاقُوتٌ وَمَرْجَانُ ، أَوْ نَثَرْتَ
تَبْرًا فَتَمِينُ الدُّرِّ الْوَانُ ، مَا بَرَحَ الْفَضْلَاءُ إِلَى لِقَائِهِ يُسَارِعُونَ ، وَحَقَّ لَهُمْ أَنْ يُسَارِعُوا
وَمِنْ أَبْوَابِ مَعْرُوفِهِ يَفْتَحُونَ ؛ وَكَيْفَ لَا ؟ وَهُوَ الشَّهَابُ السَّاطِعُ ، وَالْخَلِيلُ
الَّذِي لَمْ تَزَلْ تُسِيرُ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ ، وَالنَّيْسِلُ الَّذِي تَجْرَى لِفَرَاغِهِ مِنْ عُيُونِ اللَّيْلِ
الْمَدَامِيعُ ، وَالتَّرْزِيلُ الَّذِي يُنْشِدُهُ الْعَارِفُ عِنْدَ وَدَاعِهِ :

* بِمِيشِكَ جَبَّرْنِي مَتَى أَنْتَ رَاجِعٌ *

بِعَرَفُ الْمُحْسِنِ إِحْسَانَهُ فَيُنْشِرُهُ مِنْ النَّعَاءِ لَوَاءً ، وَيُجَلِّ فِي مَدْحِ صِفَاتِهِ
وَنُغْوَةِ الْإِنْشَاءِ إِنْ شَاءَ ؛ وَيُجَزِّلُ فِي ذَمِّ مَسْتَحَقِّ الذَّمِّ مِنْهُ الْمَهْمَاءَ ، فَأَكْرَمَ بِهِ مَدَاحًا
وَأَعْظَمَ بِهِ هَجَاءً ؛ الْعُلَمَاءُ لِحُضُورِهِ يَتَرَقَّبُونَ ، وَإِلَيْهِ يَتَقَرَّبُونَ ؛ وَالْفَضْلَاءُ بِفَضْلِهِ
يَعْتَرِفُونَ ؛ وَمَنْ يَجْرَهُ يَعْتَرِفُونَ ؛ وَالْأَدَبَاءُ إِلَيْهِ يَسْتَقْبِلُونَ ، وَمِنْهُ يَفْتَحُونَ ؛ وَالطُّلَمَاءُ
بِأَذْيَالِ فَضْلِهِ يَتَمَسَّكُونَ ، وَبِشَرِّ أَثْنَيْتِهِ يَتَمَسَّكُونَ ؛ وَإِخْوَانُهُ فِي اللَّهِ بِوُجُودِهِ
يَفْتَخِرُونَ ، وَإِلَى جُودِهِ يَفْتَقِرُونَ ؛ كُلُّمَا عَرَضَتْ لَهُمْ حَاجَةٌ تَمَسَّكُوا بِإِيَّاهُ ، وَكُلُّمَا
عَانَدَهُمُ الدَّهْرُ سَأَلُوهُ الْإِمْدَادَ بِأَنْصَارِهِ ؛ فَيَجُودُ فِي خِدْمَتِهِمْ بَيَانُ بَنَانِهِ ، وَيُجَرِّدُ
فِي نُصْرَتِهِمْ سَيْفَ لِسَانِهِ .

ثم من قبل أن نبْلَغ منه الوَطْر، ومن دُون أن يَكْتَفِي منه السَّمْع والبَصَر، عَرَفْنَا أَنَّهُ قَصَدَ التَّوَجُّهَ إِلَى الْبِلَادِ السَّاحِلِيَّةِ، وَالْأَعْمَالِ الْعَارِبِاسِيَّةِ؛ لِيُثَلِّىَ عَلَى أَهْلِهَا مِنْ فِضَائِلِهِ الْبَاهِرَةِ الْبَاسِقَةِ، وَأَفْظَائِهِ الَّتِي هِيَ كَالدَّرَرِ الْمُتَنَاسِقَةِ؛ وَيُجَلِّمَهُمْ عَرَّائِسَ الْأَفْكَارِ مِنْ أَفْكَارِهِ، وَيُجَنِّبَهُمْ عَرَّائِسَ الْأَنْشَارِ مِنْ أَشْجَارِ طَلَبِهِ، وَيُرِيهِمُ الْبَدِيَّةَ الْبَدِيَّةَ، وَالْقَوَافِي الْمُحِبَّةَ الْمُطِيعَةَ.

فَلْيَتَقَدَّمِ الْجَمَاعَةُ - أَيُّدُهُمُ اللَّهُ تَعَالَى - بِإِكْرَامِهِ إِكْرَامَ الْأَهْلِ وَالْأَصْحَابِ، وَتَقْلِيهِ بِالْبَشِيرِ وَالطَّلَاقَةِ وَالتَّرَحُّبِ؛ وَإِحْلَالِهِ مِنَ الْإِحْسَانِ مَحَلًّا سَامِيًّا، وَإِزَالِهِ مِنَ الْإِفْضَالِ مَنَزِلًا عَالِيًّا، وَالْإِعْتِنَاءِ الْوَافِرِ بِأَمْرِهِ، وَاسْتِجْلَابِ بَثِّ حَمْدِهِ وَشُكْرِهِ، وَالْإِقْطَاطِ دُرَرِ فَوَائِدِهِ، وَالْاِكْتِسَابِ غُرُرِ فَرَائِدِهِ؛ وَالْإِصْغَاءِ إِلَى الْمَثُورِ وَالْمَنْظُومِ مِنْ أَقْوَالِهِ، وَالتَّعَجُّبِ مِنْ حُسْنِ بَدَآئِهِ وَسُرْعَةِ أَرْجَائِهِ.

وَلْيُحْتَفَلْ كُلُّ يَوْمٍ بِخِدْمَتِهِ غَايَةَ الْإِحْتِفَالِ، وَيُعْتَنَ بِأَمْرِهِ أَعْتِنَاءً لَا يُسَارِكُهُ تَقْصِيرٌ وَلَا إِمْهَالٌ؛ وَيُرْعَ لَهُ حَقُّ الضَّيْفِ الْجَلِيلِ، وَالْقَادِمِ الَّذِي إِذَا رَحَلَ عَنْ بَلَدِهِ أَبْقَى لَهُ بِهِ الذِّكْرَ الْجَلِيلَ؛ وَيُسَاعَدُ عَلَى مَا تَوَجَّهَ بِصَدِّهِ كُلُّ سَاعَةٍ يَمُودُ نَفْعُهَا عَلَيْهِ، وَيُنْفِقُ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ وَيُجَمِّنُ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْهِ.

وَنَحْنُ نُوَكِّدُ عَلَى الْجَمَاعَةِ - أَيُّدُهُمُ اللَّهُ - فِي ذَلِكَ كُلِّ التَّأَكِيدِ، وَنُبَالِغُ فِيهِ مُهَالَغَةً مَاطِلِيًّا مِنْ مَزِيدٍ؛ وَنُعَذِّرُهُمْ مِنَ الْإِمْهَالِ وَالتَّسْوِيفِ وَالتَّقْصِيرِ، وَمِنْ مُقَابَلَةِ جَنَابِهِ الْكَرِيمِ بِالْزَّرِّ الْحَقِيرِ وَالْقَسْدِ الْبَسِيرِ؛ فَإِكْرَامُ هَذَا الرَّجُلِ لَيْسَ كَإِكْرَامِ مَنْ لَمْ يَسِرْ بِسِرِّهِ، وَمَا هُوَ إِلَّا لِعَلَمِهِ وَقَضَلِهِ وَخَيْرِهِ، وَقَدْ قَالَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَلَيْسَ مِنْ يُكْرَمُ لِنَفْسِهِ كَالَّذِي يُكْرَمُ لَغَيْرِهِ».

فَلْتُعْظَمُوهُ كُلَّ التَّعْظِيمِ وَتُزَلَّوْهُ مَنَزَلَةً تَلِيْقُ بِأَهْلِ الْفَضْلِ وَالْإِفْضَالِ، وَتَرْفَعُوهُ إِلَى الْمَقَامِ وَتُحْفَظُوهُ إِلَى الْقَالِ؛ لِيَعُودَ مُحَقِّقُ الْأَمَالِ مُبْلَغُ الْمَقَاصِدِ، نَاشِرُ الْوَيْةِ الشَّائِغَةِ

وَالْحَمْدُ ، مَشْمُولًا بِجَمِيلِ الصَّلَاةِ وَالْعَائِدِ ؛ وَتَحْنُ مُتَظَرُونَ مَا يَرُدُّ عَنْهُ مِنْ مَكَاتِبَاتِهِ
الْكَرِيمَةِ بِمَا وَصَلَ إِلَيْهِ مِنْ ... (١) ... الْحَسَنَةِ .

وَفِي هَمِيهِمُ الْعَلِيَّةِ ، وَمَكَارِيهِمُ السَّنِيَّةِ ، مَا يُغْنِي عَنْ التَّأَكِيدِ بِسَبِيهِ وَالْوَصِيَّةِ ؛
وَاللَّهُ تَعَالَى يُدِيمُ عَلَيْهِمْ سَائِبِغَ الْإِفْضَالِ وَالْإِنْعَامِ ، وَيُجَبِّلُ بَوُجُودَهُمْ وَجُودَهُمُ الْأَحْكَامَ
وَالْحُكْمَ ، بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ .

الصف الرابع (مَا يُكْتَبُ فِي أَفْتَاتِحَاتِ الْكُتُبِ)

فَمِنْ ذَلِكَ مَا يُكْتَبُ فِي أَوَائِلِ كُتُبِ الْأَوْقَافِ .

وهذه نسخة خطبة في آبداءِ كِتَابٍ وَقِفَ عَلَى مَسْجِدٍ ، وَهِيَ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ جَامِعِ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ ، وَنَاصِرِ الدِّينِ مُحَمَّدٍ
بَنِيْنًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى آلِهِ الْكَرَامِ الْأَنْجَادِ ، وَمُشْرِفِ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِالْأَيْمَةِ وَالْجُمُعَةِ
وَالْجُمُعَاتِ مِنْ أَهْلِ الرَّشَادِ ، وَجَاعِلِ مِنْ أَرْتَضَاهُ مِنْ أَرْبَابِ سُنَّةِ نَبِيِّهِ الْمُخْتَارِ مِنْ
عِبَادِهِ الْعِبَادِ ، وَمُيسِّرِ الْقُرْبَاتِ إِلَيْهِ لِأَهْلِ السَّدَادِ ، وَمُزِيدِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ
مِمَّنْ أَخْلَصَهُ بِالطَّاعَاتِ وَمَزِيدِ الْإِرْفَادِ ، وَمُفَضِّلِ الْأَوْقَافِ عَلَى أَفْضَلِ وُجُوهِ الْبِرِّ
مَنْ جَعَلَهُ لِقَائِهِ أَهْلًا بِالنَّفْعِ الْمُتَعَدِّي وَكَثْرَةِ الْأَمْدَادِ ، وَمُعَظِّمِ الْأَجْرِ لِمَنْ بَنَى بَيْتًا لِلَّهِ
بَنِيَّةً خَلِيَّةً مِنَ الرِّيَاءِ وَالْعِنَادِ ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " مَنْ بَنَى
مَسْجِدًا لِلَّهِ وَلَوْ كَفَّحَصِ قَطَاةٍ بَنَى اللَّهُ تَعَالَى لَهُ بِهِ قَصْرًا فِي الْجَنَّةِ " وَزَجُّوا مِنْ كَرَمِ اللَّهِ
الْأَزْدِيَادِ .

(١) يَبَاضُ بِالْأَصْلِ وَلَعَلَهُ : مِنْ الْمَنَازِلِ الْحَسَنَةِ الْخُشْيَةِ أَوْ مَا أَشَبَّهَ .

أحمدُهُ عَلَى مَوَادِّ نِعَمِهِ الَّتِي جَلَّتْ عَنِ التَّعْدَادِ ، وَأَشْكُرُهُ شُكْرًا وَافِيًا وَافِرًا بِنِعْمَتِهِ
ذَخِيرَةً لِيَوْمِ التَّنَادِ ، وَأَسْتَعِذُّ مِنَ اللَّطِيفِ لَوَازِمِ الْفَضْلِ الْحَقِيقِيِّ وَهُوَ الْكَرِيمُ الْخَوَّادُ ،
وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الْخَاتَمُ الْحَاتِمُ عَلَى
حَوْضِهِ الْوُرَادُ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ مَا أَصْنَى إِلَى الذِّكْرِ وَأُجِيبَ كُلَّ دَاعٍ
مِنْ حَاضِرٍ أَوْ بَادٍ .

وبعدُ ، فَلَمَّا كَانَتِ الْمَثُوبَاتُ مَضمُوتَةً الْأَجْرِ عِنْدَ الْكَرِيمِ ، وَالْأَعْمَالُ مَعْدَدَةً
فِي التَّقْدِيمِ ، وَكَانَ بُنْيَانُ الْمَسَاجِدِ وَافِرًا أَجْرًا ، لِمَنْ أَقَامَ بِوَجِبِ تَيْنِ الْفَنِّ الْجَمِيلِ
وَسَدَّدَ إِلَى الْخَيْرَاتِ سَبِيلًا ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : « أَنَا عِنْدَ حُسْنِ ظَنِّ عَبْدِي بِـي . فَلْيُظَنَّ
بِي خَيْرًا » . وَرَأَى الْعُقَلَاءُ أَنَّ الْأَوْقَافَ عَلَى الْمَسَاجِدِ وَالْخَوَاصِّ مِنَ أَنْفُسِ قَوَاعِدِ
الدِّينِ وَأَعْلَى - فَلِذَلِكَ قِيلَ فِي هَذَا الْإِنْجَالِ الْمُبَارَكِ :

هَذَا مَا وَقَفَهُ وَحَبَسَهُ ، وَسَبَّلَهُ وَأَبَدَهُ فَلَان . وَقَفَ وَحَبَسَ رَغْبَةً فِي مَزِيدِ الثَّوَابِ ،
وَرَجَاءً فِي تَهْوِيلِ يَوْمِ الْحِسَابِ ، وَأَغْنَيْنَا مَا لِلْأَجْرِ الْجَزِيلِ مِنَ الْكَرِيمِ الْوَهَّابِ ؛
لَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْآيَاتِ الْمُبْرُورَةِ : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ
أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ . وَقَفَ بِنِيَّةِ خَالِصَةٍ ، وَعِزِّيمَةٍ صَالِحَةٍ ، وَنِيَّةِ صَادِقَةٍ ، مَا هُوَ لَهُ
وَفِي مِلْكِهِ ، وَحَوْرِهِ وَيَدِهِ وَتَصَرُّفِهِ ، مِنْ غَيْرِ مُنَاطِرٍ لَهُ فِي ذَلِكَ وَلَا شَرِيكَ ،
(ثُمَّ يَذْكُرُ الْوَقْفَ) .

الفصل السادس

في العُمَرَاتِ الَّتِي تَكْتُبُ لِلْحَاجِّ

وهذه نسخةُ عُمَرَةٍ أَعْتَمَرَهَا أَبُو بَكْرٍ بْنُ مُحَمَّدٍ الْأَنْصَارِيُّ الْخَزَرَجِيُّ ، عِنْدَ مُجَاوَرَتِهِ بِمَكَّةَ الْمُشْرِفَةِ فِي سَنَةِ سَبْعٍ ، وَسَنَةِ ثَمَانٍ ، وَسَنَةِ تِسْعٍ ، وَسَنَةِ عَشْرِ وَسَبْعِينَ ، لِلسُّلْطَانِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ « مُحَمَّدِ بْنِ قُلاوُونَ » ، وَهِيَ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنَا ، وَأَمَّنَ مَنْ فِيهِ بِالْقَائِمِ بِأَمْرِ اللَّهِ وَمَنْ هُوَ لِلْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ خَيْرٌ نَاصِرٍ ، وَجَعَلَهُ بَيْكَةً مُبَارَكًا ، وَوَضَعَ الْإِصْرَ بِمَنْ كَثُرَتْ مِنْهُ وَمَنْ سَلَفَهُ الْكَرِيمِ عَلَى الطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ الْأَوَاصِرِ ، وَعَقَدَ لِرِوَاءِ الْمَلِكِ بِخَيْرِ مَلِكٍ وَهُوَ وَاحِدٌ فِي الْجُودِ أَلْفٌ فِي الْوَعَى : فَقَى حَالَتِهِ تُعَقَّدُ عَلَيْهِ الْخَنَاصِرُ ، وَأَطَابَ الْمُقَامَ فِي حَرَمِ اللَّهِ تَعَالَى وَحَرَمِ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ السُّلْطَنَةَ بِذَاتِهِ الشَّرِيفَةِ وَشَرَفِ الْعَنَاصِرِ ، وَسَهَّلَ الطَّرِيقَ ، إِلَى حَجِّ بَيْتِهِ الْعَتِيقِ ، مِنَ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ فِي دَوْلَةٍ مِنْ أَجْمَعَتِ الْقُلُوبُ عَلَى مَحَبَّتِهِ وَوَرِثَ الْمَلِكُ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ ، وَأَنْطَقَ الْأَلْسِنَةُ بِالِدِّعَاءِ لَهُ مِنْ كُلِّ وَافِدٍ إِلَى بَيْتِهِ الْحَرَامِ عَلَى اخْتِلَافِ لُغَاتِهِمْ وَأَهْتَرَّتْ لَوْصِيفِ مَنَاقِبِهِ الْمَنَازِرِ .

أَحْمَدُهُ عَلَى مَا بَلَغَ مِنْ جَزِيلِ إِنْعَامِهِ ، وَأَشْكُرُهُ شُكْرًا أُسْتَرِيدُ بِهِ مِنْ فَضْلِهِ وَنَوَالِهِ وَإِكْرَامِهِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ نِعَمَ الدَّخِيرَةِ لِصَاحِبِهَا يَوْمَ لِقَائِهِ وَعِنْدَ قِيَامِهِ ، وَأَقُولُهَا خَالِصًا مُخْلِصًا وَيَافُوزَ مَنْ كَانَتْ آخِرَ كَلَامِهِ ؛ وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَشْرَفُ مَبْعُوثٍ إِلَى الْحَقِّ دُعَى بَفَاءٍ بِأَشْرَفِ مِلَّةٍ ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « عُمَرَةُ فِي رَمَضَانَ تُعَدُّ لِحَجَّةٍ » صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى جَمِيعِ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ

خُصُوصاً عَلَى خَلِيفَتِهِ فِي أُمَّتِهِ الْمُخْصُوصِ بِالسَّبْقِ وَالْمُؤَاذَرَةِ وَالتَّصَدِيقِ ، مَوْلَانَا
أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ ؛ وَعَلَى مُظْهِرِ الْأَذَانِ وَمُصَدِّقِ الْخِطَابِ ، مَوْلَانَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ؛ وَعَلَى مَنْ جَمَعَ عَلَى الْأُمَّةِ آيَاتِ الْقُرْآنِ ، مَوْلَانَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ ؛ وَعَلَى ابْنِ عَمِّهِ ، وَارِثِ عَلَيْهِ ؛ الْجَامِعِ لِكُلِّ الْمَآثِرِ وَالْمَنَاقِبِ ،
مَوْلَانَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ؛ وَعَلَى بَقِيَّةِ الْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةِ ، سَادَاتِ
الدُّنْيَا وَمُلُوكِ الْآخِرَةِ ، وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَالِكُ الْمُلْكِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَانْتِخِبَ بِيَدِهِ يُفَضِّهُ
عَلَى خَلْقِهِ فِي أَرْضِهِ وَبِلَادِهِ ؛ فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى بَعَادَهُ خَيْرًا نَصَرَ نَاصِرَهُمْ وَرَفَعَ
عَنْهُمْ الْفَلَاحَ ، وَدَفَعَ عَنْهُمْ الْعِدَاءَ ، وَلَوَّى عَلَيْهِمْ خِيَارَهُمْ ؛ فَيُقِيمُهُ مِنْ خَيْرِ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ
لِلنَّاسِ ، لِيُذْهِبَ عَنْهُمْ الضَّرَرَ وَيُزِيلَ عَنْهُمْ الْبَاسَ ؛ وَيَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنِ
الْمُنْكَرِ ، وَيُنِصِفُ الْمَظْلُومَ مِنَ الظَّالِمِ وَيَقِيمُ مَنَارَ الشَّرْعِ الْمُطَهَّرِ .

وَلَمَّا كَانَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ الْأَعْظَمُ ، وَالشَّاهِنشَاهُ الْمُعَظَّمُ ، الْمَلِكُ النَّاصِرُ - خَلَدَ اللَّهُ
سُلْطَانَهُ - قَدْ جَمَعَ فِي الْمُتَحَدِّ بَيْنَ طَارِفٍ وَتَالِدٍ ، وَوَرِثَ الْمُلْكَ عَنْ أَشْرَفِ أَيْمٍ وَأَعْظَمِ
وَالِدٍ ؛ وَقَامَتْ عَلَى اسْتِحْقَاقِهِ لِسُلْطَنَةِ الدَّلَائِلِ ، وَأَلْفَهُ سِيرُ الْمُلْكِ وَعَرَفَ فِيهِ مِنْ
وَالِدِهِ وَمِنْ أَخِيهِ - رَحِمَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى - الشَّمَائِلَ ؛ فَهُوَ الْمَالِكُ الَّذِي لَمْ يَزَلْ الْمُلْكُ بِهِ
أَهْلًا وَلَمْ يَزَلْ لَهُ أَهْلًا ، وَالسَّيِّدُ الَّذِي لَيْسَ حُلَّةُ الْفَخَارِ فَلَمْ يَجِدْ لَهُ فِي السُّؤْدُدِ وَالْفَخَارِ
مِثْلًا ، وَالْمَلِكُ الَّذِي مَا بَدَأَ لِرَأْيِهِ إِلَّا قِيلَ : بِمَرِّ طَعْنٍ أَوْ بَدْرٍ بَجَلٍّ ؛ وَالْمُؤَيَّدُ الَّذِي
خَصَّهُ اللَّهُ تَعَالَى بِمُلْكٍ شَانِهِ وَأَرْقَانِهِ ، وَلَمْ يَرْضَ مَرَاقِدَ الْفَرَاقِدِ لِعَلْيَانِهِ ؛ وَالكَرِيمُ الَّذِي
سَادَ الْأَوَائِلَ وَالْآخِرِينَ ، وَأَضْفَيْتَ عَلَيْهِ حُلُلَ الْمَفَاحِرِ ؛ وَالْمَنْصُورُ الَّذِي أُعْطِيَ عَلَى
الْأَعْدَاءِ قُوَّةً وَنَصْرًا ، وَالنَّاصِرُ الَّذِي اتَّسَعَ بِحَالٍ نَصْرُهُ فَآخَذَ الْكُفَّارَ حَضْرًا ، وَحَكَتْ
سُيُوفُهُ الْقَوَاصِبُ فَوَضَعَتْ عَنِ الْأَوْلِيَاءِ إِصْرًا ؛ قَدْ خَصَّهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْعِزِّ وَالتَّصَرُّفِ

بعد كرهه، وقضله على سائر ملوك الإسلام بالحق وزيارة النبي صلى الله عليه وسلم
مرة بعد مرة، ومرة أخرى إن شاء الله تعالى ومرة ومرة !!! كم سلك سنن
وأبديه وأخيه - رحمهما الله تعالى - بالفراسة فكان له كل مشهد مذكور، وعرف
تقدمه وإقدامه فكان أعظم ناصير وأشرف منصور، يتخذه الله تعالى والناس عن
جميل ذنبه عن الإسلام وحيد فعله، وأستقل الجزيل فينبئ الجميل لمن أم أبوابه
الشريفة فلا يستكثر هذا من مثله، ما حملت رآياته الشريفة كتيبة إلا نصرت،
ولا وقف بوجهه الكريم في دفع طائفة الكفر إلا كسرت، ولا جهز عساكره
المنصورة إلى قلعة إلا نزل أهلها من صياصيمهم، ولا حاصروا ثغرا للكفار إلا أخذوا
بنواصيمهم، ولا ستر سرية لمواجهة محارب إلا نزل على رغبة، ولا فلق لسان الحمد
للجاهد أو سار الشاهد إلا وقف الحمد على قوله وأسمه، فاختاره الله تعالى على علمه على
العالمين، وأجتنبه للذب عن الإسلام والمسلمين، وجعله لسطانهم وأربابا، وفي الملك
مأثرا، وللقمرين ثالثا، ولأموره سدا، ولثغور بلاد الإسلام سدا، وفوض إليه
القيام بمصالح الإسلام، والنظر في مصالح الخاص والعام، وعقد به أمور الممالك
والأملاك، وأطلع بسعاده أيمن البروج في أثبت الأفلاك، وحمى الإسلام
والمسلمين من كل جانب شرقا وغربا، وملا بمهاتيه البلاد والعباد رعبا وحبا،
وبسط في البسيطة حكمه وعدله، ونشر على الخلائق حلمه وقضله، وفرض طاعته
على جميع الأمم، وجعله سيدا لملوك العرب والعجم، وأمن بمهاتيه كل حاضِر وبَاد،
ونوم سُكَّانَ الحرمين الشريفين من كنفه في أوطأ مهاد، وسكن خواطر المجاورين
من جميع المخاوف، وصان بالمقام في مكة الطائيف والعاكف، قد حسن مع الله
تعالى سيرة وسيرا، ودلت أيامه الشريفة أنه خير ملك أراد الله تعالى برعيته خيرا،
وراعى الله فيما رعى، وسعى في مصالح الإسلام على أن ليس للإنسان إلا ما سعى.

قد ملأ أعين الرعايا بالطمأنينة والهُجُوع، وأَمَنَهم في أيامه الشريفة بالرخاء من الخوف والجوع، وجمع لهم بين سعادة الدنيا والأخرى، وسهل لهم الدُخُولَ إلى بيته الحرام براً وبحراً، وفتح الله تعالى على يديه - خلد الله تعالى سلطانه - جميع الأمصار، وملأ من مَهَائِهِ جميع الأقطار :

فسارت مَسِيرَ الشَّمْسِ في كُلِّ بَلَدَةٍ * وهبت هُبوب الرِّيحِ في القُربِ والبُعدِ !

فوجب على العالمين أن يدعوا لدَوْتِهِ الشريفة المباركة بطولِ البقاء، و[دوامِ] العلوِّ والارتقاء، ووجِبَ على كُلِّ من الواصلين إلى بيته الحرام وحضرة قُدْسِهِ، أن يتنهل بالدعاء له قبل أن يدعو لنفسه؛ فكيف من هو مملوكُه وابنُ مملوكِه وأرثُ عبودِيته، ومن لم يزل هو والديه وإخوته في صدقاتِ والده الشهيد - رحمه الله تعالى - ونعيمِ نعمته، المبدِّد الفقير إلى الله تعالى أبو بكر بن محمد بن المكرم الأنصاري الخزرجي، فإنه لم يزل مدة أيامه مُتَبَيِّلاً بصالح دعواته، مُتَوَسِّلاً إلى الله تعالى بدوام نصره وطول حياته؛ طائفاً عند مقامه الشريف حول بيته الحرام، والمُشَاعِرِ العظام .

وأحب أن يُخَفِّفه بأشرف العبادة فلم يجد أجلاً مقداراً ولا أعظم أجراً، من عُمرَةٍ يَعتَمِرُها عنه ويُهْدِي ثوابها لصحائفه الشريفة ويزيد بذلك نفراً؛ فقام عنه بعمرتين شريفتين أعتمرهما عنه في رمضان، مكلتين بإبراهيم وتليتهما، وطوّأ فيهما وسعيهما؛ يتقرب بذلك إلى أبوابه الشريفة، ويسأل الله تعالى ويسأل صدقاته الشريفة أن ينعم عليه بنصف معلوم صدقة عليه، وينصفه لأولاده : ليقضي بقية عُمره في الثلاثة المساجد، ويخصه بجزيل الدعاء من كُلِّ رايح وساجد؛ وأن يكون ذلك مستمراً عليه مدة حياته، وعلى ذُرِّيَّتِهِ وتَسْلِيهِ وعقبه بعد وفاته؛ لتشمل صدقات مولانا السلطان - خلد الله تعالى ملكه - الأحياء والأموات، ويطيب لفلانته

في أيامه الشريفة الممات ؛ جَعَلَ اللهُ تعالى مَوْلَانَا السُّلْطَانَ وَارِثَ الْأَعْمَارِ ،
وَأَجْرِي بِدَوَامِ أَيَّامِهِ الشَّرِيفَةِ الْمَقْدَارِ ؛ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الْمُلْكِ بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ ، وَبَلَغَهُ
مِنَ النَّصْرِ وَالظَّفَرِ وَالْأَجْرِ غَايَةَ أَرْوَاهُ ؛ وَجَعَلَ أَيَّامَهُ كُلَّهَا مَسَارًا وَبَشَائِرَ ، وَدَوْلَتَهُ تَسْرُ
النُّوَاطِرَ ، وَسَعَادَتَهُ لَيْسَ لَهَا آخِرُ ؛ وَبِهِنَّتُهُ بِمَا قَدْ أَمَّمَهُ اللهُ لَهُ مِنْ مُلْكٍ وَالِدِهِ الشَّهِيدِ
رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى :

[أَهْنِكَ] بِالْمُلْكِ يَا خَيْرَ مَنْ * أَجَارَ الْبَرَايَا وَمَنْ مَارَهَا ،
وَمَنْ لَيْسَ لِلْأَرْضِ مَلِكٌ سِوَاهُ * مُمِيلٌ لَهُ الْخَلْقُ أَبْصَارَهَا !
وَأَنْتَ الَّذِي تَمْلِكُ الْخَلَاقِينَ * ^(١) وَاعْصَارَهَا ،
وَتَمْلِكُ سَيِّبَ تَكْفُورِهَا * وَتَرْكَبُ بِالْجَيْشِ أَوْعَارَهَا ،
وَتَحْكُمُ فِي الْمَرْءِ حُكْمَ الْمُلُوكِ * وَتُنْشِدُ فِي التَّخْتِ أَشْعَارَهَا ،
وَتَفْتَحُ بِفِدَادِ دَارِ السَّلَامِ * وَتَنْفِي بِمُلْكِكَ أَكْثَادَهَا ،
وَتَأْخُذُ بِالْعَسْكَرِ النَّاصِرِيِّ * قُصُورُ الْخِلَافَةِ أَوْتَارَهَا ،
وَيَأْمَنُ فِي ذَلِكَ الْعَالَمُونَ * وَتَنْجِي الْأُسُودَ وَأَوْتَكَارَهَا ،
وَتَبْقَى إِلَى أَنْ تَعْمَ الْبِلَادَ * بِنُعْمَتِي تَتَابِعُ إِدْرَارَهَا ،
وَيَبْلُغُ مُلْكُكَ أَقْصَى الْبِلَادِ * وَتُجْرِي الْعِبَادَ وَأَوْطَارَهَا ،
وَيَنْظُمُ سَيْرَتَكَ النَّاطِمُونَ * وَتُنْفِي مَفَارِيكَ سُمَارَهَا ،

[وَاللهُ يُبْقِيهِ] ^(١) بَعْدَهَا دَائِمًا نَاصِرَ الدُّنْيَا وَالْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ ، كَمَا سَمَاهُ وَالِدُهُ
نَاصِرَ الدُّنْيَا وَالْدِّينِ ؛ إِنَّهُ عَلَى مَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ، وَبِالْإِجَابَةِ جَدِيرٌ ، وَحَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

الباب الثاني

من المقالة العاشرة في الهزليات^(١)

أعلم أنه ربما أعتنت الملوك ببعضه، فاقترحت على كتابها لإنشاء شيء من الأمور الهزلية، فيحتاجون إلى الإتيان بها على وفق غرض ذلك الملك. كما وقع لمعين الدولة ابن بويه الديلمي في اقتراحه على أبي إسحق الصائبي كتابة عهد بالتطفل، لرجل كان عنده اسمه عليها، ينسب إلى التطفل، ويسخر منه السلطان بسبب ذلك.

وهذه نسخة عهد بالتطفل، التي أنساها أبو إسحق الصائبي لعلها المذكور:

هذا ما عهد على بن أحمد المعروف بعلিকা إلى علي بن عرس الموصلي، حين استخلفه على إحياء سنته، وأستتابه في حفظ رؤوسه، من التطفل على أهل مدينة السلام وما يتصل بها من أرباضها وأكافها، ويجري معها في سوايدها وأطرافها؛ لما توشم فيه من قلة الحياء، وشدة اللقاء، وكثرة اللقم، وجودة الهضم، وراه أهلاً له من سد مكانه، والرأفة المهملية التي فطن لها، والرأفة المطرحة التي أهدت إلىها، والنعم العائدة على لا يسبها بملأذ الطعوم، ويخصب الحسوم؛ ورداً على من أئسمت حاله، وأقدره الله على غرائب المأكولات، وأظفره بدائع الطيبات؛ أخذاً من ذلك كله بنصيب الشريك المتأصف، وضارباً فيه بسهم الخليط المتفاوض؛ ومستعملاً للدخل اللطيف عليه، والمتوج العجيب إليه؛ والأشباب التي ستشرح في مواضعها من أوامر هذا الكتاب، وتستوي الدلالة على ما فيها من رشاد وصواب؛ وبالله التوفيق وعليه التعويل، وهو حسبتنا ونعم الوكيل.

(١) ذكر المؤلف في بيان محتويات الكتاب في الجزء الأول (ص ٣٢) أن الباب الثاني في الهزليات يشتمل على فصلين: الفصل الأول فيها أعتنت الملوك ببعضه. الفصل الثاني في سائر أنواع الهزل، ولكنه لم يذكر هنا الفصل الثاني، فليتب.

أَمَرَهُ بِتَقْوَى اللَّهِ الَّتِي هِيَ الْجَانِبُ الْعَزِيزُ، وَالْحِرْزُ الْحَرِيزُ، وَالرُّكْنُ الْمَنِيعُ، وَالطُّودُ الرَّفِيعُ، وَالْعِصْمَةُ الْكَائِلَةُ، وَالْحِنَّةُ الْوَاقِيَةُ، وَالزَّادُ النَّافِعُ يَوْمَ الْمَعَادِ، وَحَيْثُ الْأَمْثَلَةُ مِنَ الْأَزْوَادِ، وَأَنْ يَسْتَشِيرَ خِيَمَتَهُ فِي سِرِّهِ وَجَهْرِهِ، وَيُرَاقِبَهُ فِي قَوْلِهِ وَفِعْلِهِ، وَيَجْعَلَ رِضَاهُ مَطْلَبَهُ، وَتَوَابَهُ مَكْسَبَهُ، وَالْقُرْبَةَ مِنْهُ أَرْبَهُ، وَالزُّلْفَى لَدَيْهِ غَرَضَهُ، وَلَا يُخَالَفَهُ فِي مَسْأَعَةٍ قَدَمَ، وَلَا يَتَعَرَّضُ عِنْدَهُ لِعَاقِبَةٍ نَدَمَ، وَلَا يُقَدِّمُ عَلَيْهِ مَا كَرِهَ وَأَنْكَرَ، وَلَا يَتَقَاعَسَ عَمَّا أَحَبَّ وَأَمَرَ .

وَأَمَرَهُ أَنْ يَتَأَدَّبَ بِأَدَبِهِ فِيمَا يَأْتِي وَيَذَرُ، وَيَقِفَ عَلَى حُدُودِهِ فِيمَا أَبَاحَ وَحَطَرَ، فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ ذَلِكَ هِجْرًا وَدَيْدَنَةً، وَجَرَى عَلَيْهِ مِنْهَا جَهَنَّمُ وَسَنَدُهُ تَكْفُلُ اللَّهِ لَهُ بِالنَّجَاحِ وَالصَّلَاحِ، وَأَفْضَى بِهِ إِلَى الرِّشَادِ وَالْفَلَاحِ، وَأَظْفَرَهُ بِكُلِّ نَبِيٍّ، وَأَوْصَلَهُ إِلَى كُلِّ مَشْيَةٍ، وَلَمْ يُخْلِهِ مِنَ الْفَوْزِ بِمَا يُرِيدُ، وَالْحَوْزَ بِمَا يَقْصِدُ، بِذَلِكَ وَعَدَ، وَكَذَلِكَ يَفْعَلُ، وَمَا تَوْفِيقُنَا إِلَّا بِاللَّهِ، وَلَا مَرْجِعُنَا إِلَّا إِلَيْهِ .

وَأَمَرَهُ أَنْ يَتَأَمَّلَ أَسْمَ التَّطْفِيلِ وَمَعْنَاهُ، وَبِعَرَفَ مَغْزَاهُ وَمَعْنَاهُ، وَيَتَصَفَّحَهُ تَصَفُّحَ الْبَاحِثِ عَنْ حَظِّهِ بِمَحْمُودِهِ، غَيْرِ الْقَائِلِ فِيهِ بِتَسْلِيمِهِ وَتَقَايُدهُ، فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ قَدْ اسْتَقْبَحَهُ مِنْ فَعَلِهِ، وَكَرِهَهُ لِمَنْ اسْتَعْمَلَهُ، وَنَسَبَهُ فِيهِ إِلَى الشَّرِّ وَالنِّهَمِ، وَحَمَلَهُ مِنْهُ عَلَى التَّقَرُّمِ وَالْقَرَمِ، فَهُمْ مِنْ غَلَطٍ فِي اسْتِدْلَالِهِ، فَاسَاءَ فِي مَقَالِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ شَحَّ عَلَى مَالِهِ، فَدَافَعَ عَنْهُ بِأَحْيَائِهِ، وَكُلُّ الْفَرِيقَيْنِ مَذْمُومٌ، وَجَمِيعُهُمَا مَلُومٌ، لَا يَتَعَلَّقَانِ بِمُذَرٍّ وَاضِحٍ، وَلَا يَتَعَرَّيَانِ مِنْ لِبَاسٍ فَاضِحٍ، وَمِنْهُمْ الطَّائِفَةُ الَّتِي تَرَى فِيهَا شَرَكَةَ الْعَيْنَانِ: فَهِيَ تَتَدَلَّلُ إِذَا كَانَ لَهَا، وَتَتَدَلَّى عَلَيْهِ إِذَا كَانَ لغيرِهَا، وَتَرَى أَنَّ الْمِنَّةَ فِي الْمَطْعَمِ لِلْمُهَاجِمِ الْآكِلِ، وَفِي الْمَشْرَبِ لِلْوَارِدِ الْوَاعِلِ، وَهِيَ أَحَقُّ بِالْحُرِّيَّةِ، وَأَخْلَقُ بِالْخَيْرِيَّةِ، وَأُحَرِّى بِالْمُرُوءَةِ، وَأَوَّلَى بِالْفُتُوهِ، وَقَدْ عَرَفْتُ بِالتَّطْفِيلِ، وَلَا عَارَ فِيهِ عِنْدَ دَوَى التَّحْصِيلِ،

لأنه مُشْتَقٌّ مِنَ الطِّفْلِ وَهُوَ وَقْتُ الْمَسَاءِ ، وَأَوَّلُ الْعِشَاءِ ؛ فَلَمَّا كَثُرَ اسْتَعْمِلَ فِي صَدْرِ النَّهَارِ وَخِجْرِهِ ، وَأَوَّلِهِ وَآخِرِهِ ؛ كَمَا قِيلَ لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ : قَرَّانٍ أَحَدُهُمَا الْقَمَرُ ، وَلِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ : الْعُمَرَانِ أَحَدُهُمَا عُمَرُ ، وَقَدْ سَبَقَ إِمَامُنَا بَيَّانُ رَحْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ إِلَى هَذَا الْأَمْرِ سَبْقًا أَوْجَبَ لَهُ حُلُودُ الذِّكْرِ ، فَهُوَ بَاقٍ بَقَاءَ الدَّهْرِ ، وَتُتَجَدَّدُ فِي كُلِّ عَصْرِ ؛ وَمَا نَعْرِفُ أَحَدًا نَالَ مِنَ الدُّنْيَا حَقًّا مِنْ حُطُولِهَا فَبَقِيَ لَهُ مِنْهُ أَثَرٌ يَخْلُفُهُ ، وَصِبْتُ يَسْتَبْدُّ بِهِ إِلَّا هُوَ وَحْدَهُ ، فَبَيَّانُ رِضْوَانِ اللَّهِ عَلَيْهِ يُذَكِّرُ بِتَطْفِيلِهِ كَمَا تُذَكِّرُ الْمُلُوكُ بِسِيرِهَا ، فَمَنْ يَلْعَ إِلَى نِهَائِهِ ، أَوْ جَرَى إِلَى غَايَتِهِ ؛ سَعِدَ بِفَضَايَةِ عَيْشِهِ فِي يَوْمِهِ ، وَتَبَاهَى ذِكْرِهِ فِي غَدِهِ ؛ جَعَلَنَا اللَّهُ جَمِيعًا مِنَ السَّابِقِينَ إِلَى مَدَاهِ ، وَالْمَذْكُورِينَ كَذِكْرَاهِ .

وَأَمْرُهُ أَنْ يَتَعَمَّدَ مَوَائِدَ الْكِبَرَاءِ وَالْعُظَمَاءِ بِغَزَايَاهِ ، وَمُحْطَاتِ الْأَسْرَاءِ وَالْوُزَرَاءِ بِسَرَائِيَاهِ ؛ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ مِنْهَا بِالْفَنِيحَةِ الْبَارِدَةِ ، وَيَصِلُ عَلَيْهَا إِلَى الْغَرِيبَةِ النَّادِرَةِ ؛ وَإِذَا اسْتَقْرَاهَا وَجَدَ فِيهَا مِنْ طَرَائِفِ الْأَلْوَانِ ، الْمُلَذَّةِ لِللِّسَانِ ؛ وَبَدَائِعِ الطُّعُومِ ، السَّائِغَةِ فِي الْحَلَقُومِ ؛ مَا لَا يَجِدُهُ عِنْدَ غَيْرِهِمْ ، وَلَا يَنَالُهُ إِلَّا لَتَيْهِمْ ؛ لِخَلْقِ صِنَاعَتِهِمْ ، وَجُودَةِ أَدَوَاتِهِمْ ، وَأَنْزِيَاكِ عِلْمِهِمْ ، وَكَثَرَةِ ذَاتِ بَيْنِهِمْ ؛ وَاللَّهُ يُوفِّرُ مِنْ ذَلِكَ حَقَّنًا ، وَيُسَدِّدُ نَحْوَهُ لِحَقَّنًا ؛ وَيُوضِّحُ عَلَيْهِ دَلِيلَنَا ، وَيُسَهِّلُ إِلَيْهِ سَبِيلَنَا .

وَأَمْرُهُ أَنْ يَتَّبِعَ مَا يَبْرُزُ لِمُوسِيرَى التِّجَارِ ، وَجُهَازِ الْأَمْصَارِ ؛ مِنْ وَكِيَّةِ الدَّارِ ، وَالرُّمُسِ وَالْإِعْذَارِ ؛ فَإِنَّهُمْ يُوسِعُونَ عَلَى نَفْسِهِمْ فِي النَّوَابِ ، بِحَسَبِ تَقْصِيقِهِمْ عَلَيْهَا فِي الرَّاغِبِ ؛ وَرُبَّمَا صَبَرُوا عَلَى تَطْفِيلِ الْمُتَطَلِّينَ ، وَأَغَضُوا عَلَى تَهْجُمِ الْوَاعِلِينَ ؛ لِيَتَحَذَّرُوا بِذَلِكَ فِي عَمَالِهِمُ الرَّذَلِ ، وَيَعْتَلَوْهُ فِي مَكَارِمِ أَخْلَاقِهِمُ النَّثَلِ ؛ وَيَقُولُ قَائِلُهُمُ الْبَاجِحُ بِالنَّاسِ طَعَامِهِ ، الْمُبَاسِئِ بِكَثْرَةِ حُطَامِهِ ؛ : إِنِّي كُنْتُ أَرَى الْوُجُوهَ الْغَرِيبَةَ فَطَعَمَهَا ، وَالْأَيْدَى الْمُتَمَدِّدَةَ فَأَمْلَأَهَا . وَهَذِهِ طَائِفَةٌ لَمْ تُرَدِّ بِمَا فَعَلْتَهُ الْكَرَمُ وَالسَّعْيُ ،

وإنما أرادت المن والسَّمْعَه ؛ فإذا أهدى الأريب إلى طرائقها وصل إلى بُغْيَتِه
من إعلان قِصَّتِها ، وفاز بُمُرَادِه من ذخائر حَسَّتِها ، إن شاء الله .

وأمره أن يصادق قَهَّارِمَةَ الدُّورِ ومُدْبِرِيها ، ويرافق وكلاء المطامخ وحمايلها ؛ فإنهم
يُمَلِّكون من أصحابهم أزيمة مطاعيمهم ومشاربهم ، ويضعونها بحيث يُجِبُّون من أهل
موداتهم ومعارفهم ؛ وإذا عدت هذه الطائفة أحدا من الناس خِلَلا من خُلَّانِها ،
وأتخذته أخوا من إخوانها ، سَعِدَ بِمُرافَقَتِها ، وَصَلَ إلى محابَّة من جِهاَّتِها ، ومأربه
في جنباياتها .

وأمره أن يَتَمَهَّدَ أسواقَ المُسَوِّقين ، ومواسم المُتَبَايعين ؛ فإذا رأى وَطِيفَةً قد زيدَ
فيها ، وأطعمَةً قد أَحْتَشَدَ مُسْتَرِيها ، أَتْبَعها إلى المقصد بها ، وشبَّعها إلى المنزل
الحارِي لها ؛ وأستعلم مِيقَاتَ الدَّعْوَةِ ، ومن يحضرها من أهل النسيان والمُرُوءَةِ ؛
فإنه لا يخلو فيهم من عارف به يرأى وقت مَصِيرِهِ إليها لِيَتَبَّعَهُ ، ويكن له ليَصْحَبَهُ
ويدخل معه ؛ وإن خلا من ذلك أَخْطَلَطَ بُرْمِرِ الدَّاخِلِينَ ، وعُصَبِ الرَّاخِلِينَ ؛
فما هو إلا أن يَتَجَاوَزَ عَتَبَ الأبواب ، ويَخْرُجَ من سُلْطَانِ البُزَايِينِ والمُحْجَابِ ؛ حَتَّى
يَحْصُلَ حَصُولًا قَلَّ ما حَصَلَ [عليه] أَحَدٌ قَبْلَهُ فانصرف عنه إلا ضليعا من الطَّعَامِ ،
بريقا من المُدَامِ ، إن شاء الله .

وأمره أن يَنْصَبَ الْأَرْصَادَ على مَنَازِلِ الْمُغَنِّيَّاتِ والمُغَنِّينَ ، ومَوَاطِنِ الْأَبْلِيَّاتِ (٩)
والمُخْتَبِئِينَ ؛ فإذا أَنَاهُ حَبْرٌ يَجْمَعُ بَضْمُهُمْ ، ومَادِيَةٌ تَعْمَهُمْ ؛ ضَرَبَ إِلَيْهَا أَعْنَاقَ إِيْلِهِ ،
وَأَنْصَى نَحْوَهَا مَطَايَا خَيْلِهِ ؛ وَحَمَلَ عَلَيْهَا حَمْلَةَ الْحَوْتِ الْمُتَقِيمِ ، وَالثَّعْبَانِ الْمُتَنَسِّمِ ؛
وَاللَّيْثِ الْمَهاصِرِ ، وَالْعُقَابِ الْكَاسِرِ ؛ إن شاء الله .

وأمره أن يَجْتَنِبَ جَمَاعِيعَ الْعَوَامِّ الْمُقِلِّينَ ، وَمَحَافِلَ الرُّعَاةِ الْمُفْتِرِينَ ؛ وَأَنْ لَا يَنْتَقِلَ
إِلَيْهَا قَدَمَا ، وَلَا يُعْفَرُ لِمَا كَلَّهَا قَبْلَ ؛ وَلَا يَلْقَى فِي عَتَبِ دُورِهَا كَيْسَانًا ، وَلَا يَمِدَّ الرَّجُلُ

منها لإنسانا ؛ فإنها عَصَابَةٌ يَجْتَمِعُ لها ضَيْقُ النَّفْسِ والأَحْلَامِ ، وَقَلَّةُ الإِحْكَامِ والأَمْوَالِ ؛
وفى التَّطْفِيلِ عليها إِجْهَافٌ بها يُوسَمُ ، وإِزْرَافُهُ بِمُرُوءَةِ الْمُتَطَفِّلِ يُوسَمُ ، وَالتَّجَنُّبُ لها
أُحْرَى ، والأَزْوَارُ عنها أَجْمَى ؛ إِنْ شَاءَ اللهُ .

وَأَمْرَهُ أَنْ يَحْزَرَ الْخِلَافَ إِذَا وَضِعَ ، وَالطَّعَامَ إِذَا قِيلَ ؛ حَتَّى يَعْرِفَ بِالْحَدْسِ
وَالْتَقْرِيبِ ، وَالبَحْثِ وَالتَّحْقِيقِ ؛ مَدَدَ الْأَلْوَانِ فِي الْكَثْرَةِ وَالْقِلَّةِ ، وَأَفْتِنَانَهَا فِي الطَّيِّبِ
وَاللَّدِّهِ ؛ فَيُقَدِّرُ لِنَفْسِهِ أَنْ يَشْبَعَ مَعَ آخِرِهَا ، وَيَتَنَبَّأَ مِنْهَا عِنْدَ أَتْنَانِهَا ؛ وَلَا يَقُوتهُ
النَّصِيبُ مِنْ كَثِيرِهَا وَقَلِيلِهَا ، وَلَا يَحِطُّهُ الْحِطُّ مِنْ دَقِيقِهَا وَجَلِيلِهَا . وَمَتَى أَحَسَّ بِقِلَّةِ
الطَّعَامِ ، وَغَزِيهِ عَنِ الْأَقْوَامِ ؛ أَمَنَّ فِي أَوَّلِهِ لِمَعَانِ الْكَيْسِ فِي سَعَتِهِ ، الرَّشِيدِ فِي أَمْرِهِ ،
الْمَالِي لِبَطْنِهِ ؛ مِنْ كُلِّ حَارٍّ وَبَارِدٍ ، وَخَبِيثٍ وَطَيِّبٍ ؛ فَإِنَّهُ إِذَا فَعَلَ ذَلِكَ سَلِمَ مِنْ
عَوَاقِبِ الْأَنْحِمَارِ الَّذِينَ يَكْفُونُ تَطَرُّفًا ، وَيُقْلُونُ تَأَدُّبًا ؛ وَيَطْنُونُ أَنَّ الْمَادَّةَ تَبْلَغُهُمْ
فِي آخِرِ أَمْرِهِمْ ، وَتَنْتَهِي بِهِمْ إِلَى غَايَةِ سَعْيِهِمْ ؛ فَلَا يَلْبَثُوا أَنْ يَحْجَلُوا تَجَمُّعَ الْوَاقِعِ ،
وَيَتَقَلَّبُوا بِحَسْرَةِ الْخَائِبِ ؛ أَعَاذَنَا اللهُ مِنْ مِثْلِ مَقَامِهِمْ ، وَصَصَمْنَا مِنْ شَقَاءِ جُنُودِهِمْ ؛
إِنْ شَاءَ اللهُ .

وَأَمْرُهُ أَنْ يَرُوضَ نَفْسَهُ ، وَيُعَالِطَ حِسَّهُ ؛ وَيَضْرِبَ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا يَلْحَقُهُ صَفْعًا ،
وَيَطْوِي دُونَهُ كَشْعًا ، وَيَسْتَحْسِنَ الصَّمَمَ عَنِ الْفَحْشَا ؛ وَإِنْ أَتَتْهُ اللَّكْرَةُ فِي حَلْقِهِ ،
صَبَرَ عَلَيْهَا فِي الْوُصُولِ إِلَى حَقِّهِ ؛ وَإِنْ وَقَعَتْ بِهِ الصَّفْعَةُ فِي رَأْسِهِ ، صَبَرَ عَلَيْهَا لِمَوْجِعِ
أُضْرَاسِهِ ؛ وَإِنْ لَقِيَهِ لَاقٍ بِالْحَقَاءِ ، قَابَلَهُ بِاللُّطْفِ وَالصَّفْقَاءِ ؛ لِإِذْ كَانَ قَدْ وَجَّحَ الْأَبْوَابَ ،
وَحَالَطَ الْأَسْبَابَ ؛ وَجَلَسَ مَعَ الْخُضُورِ ، وَأَمْتَرَجَ بِالْجُهورِ ؛ فَلَا بُدَّ أَنْ يَلْقَاهُ الْمُتَبَكِّرُ
لَأَمْرِهِ ، وَيَمْرَبَهُ الْمُسْتَعْرِبُ لَوَجْهِهِ ؛ فَإِنْ كَانَ حُرًّا حَيًّا أَمْسَكَ وَتَدَمَّ ، وَإِنْ كَانَ فَقْرًا
غَلِيظًا مَهْمٌ وَتَكَلَّمَ ، وَتَجَنَّبَ عِنْدَ ذَلِكَ الْخُشَاةَ ، وَاسْتَعْمَلَ مَعَ الْخَاطِبِ لَهُ الْمَلَايِنَةَ ؛
لِيُبَرِّدَ غَيْظَهُ ، وَيُفْلِحَ حَدَّهُ ؛ وَيُكْفَ غَرَبَهُ ، وَيَأْمَنَ شَخْبَهُ ؛ ثُمَّ إِذَا طَالَ الْمَدَى

تكررت الالتفات عليه فَعُرفَ ، وَأَنَسَتِ النفوسُ به فَأَلِفَ ؛ ونال من الحَالِ المُجْتَمِعِ عليها ، مَثَالٌ من حُشْمِ وسئل النَّهَابُ إليها .

وقد بلغنا أن رجلاً من العصابة كان ذا فهمٍ ودراية ، وعقلٍ وحصافة ؛ طَفَلَ على وليه ، لرجلٍ ذى حالٍ عظيمه ؛ فرمقته فيها من القوم العيون ، وصرفت بهم فيه الطُّنُونُ ؛ فقال له قائلٌ منهم : من تَكُونُ أعزك الله ؟ فقال : أنا أولٌ من دُعِيَ إلى هذا الحق . قيل له : وكيف ذاك ونحن لا نَعْرِفُكَ ؟ فقال : إذا رأيتُ صاحب الدَّارِ عِرفَتِي وعِرفَتُهُ نَفْسِي . فَبَقِيَ به إليه ، فلما رآه بدَّاهُ بأن قال له : هل قُلْتَ لَطَبًا حِكْ : أن يَصْنَعَ طعامَكَ زائداً على عدد الحاضرين ، ومقدار حاجة المدعوين ؛ قال : نعم ! قال : فأعما تلك الزيادة لى ولأمثالى ، وبها يُسْتَظْهَرُ لمن جَرَى مجراى ، وهى رِزْقٌ لنا أنزله الله على يَدِكَ ويك ، فقال له : كرامةٌ ورُحبا ، وأهلا وقربا ؛ والله لا جَلَسْتَ إلا مع عِلِيَّةِ الناسِ ووجوهِ الحُلَسَاءِ ، إذ أَطَرَفْتَ فى قولك ، وَتَقَنَّنْتَ فى فعلك . فليكن ذلك الرجلُ إماماً يُقْتَدَى به ، ويُقَنَّنَى طَرِيقُهُ ، إن شاء الله .

وأمره بأن يُكثِرَ من تعاهد الجوارِ شِئْشِئَاتِ المُتَقَدِّدَةِ للسُّدَدِ ، المُقَوِّية لِلْمَعَدِ ؛ المُشْمِية لِلطَّعامِ ، المُسَبِّلة لِسُلْبِ الانْهِصَامِ ؛ فإنها عمادُ أمرِهِ وقِوامُهُ ، وبها أُنْتَظَمُهُ وَأَلْتَمَامُهُ ؛ إذ كانت تُعِينُ على عَمَلِ الدَّعَوَتَيْنِ ، وتُنْبِضُ فى اليومِ الواحدِ الأَكْثَرَيْنِ ؛ وهو يتناولها كذا كالكتاب الذى يَقُطُّ أَقْلَامَهُ ، والجُنْدَى الذى يَصْغُلُ حُسَامَهُ ؛ والصَّانِعِ الذى يُحَدِّدُ آتَنَهُ ، والمَآهِرِ الذى يُصْلِحُ أَدَوَاتِهِ ، إن شاء الله .

هذا عهدُ عليك بن أحمد إليك ، وَحُجَّتُهُ لَكَ وعليك ؛ لم يَأْكُ فيه إرشاداً وتوقيفا ، وتَهْذِيباً وتَقْصِيفاً ؛ وَبَعَثاً وَتَبْصِيراً ، وَحَثّاً وَتَذْكِيراً ، فَكُنْ بأوامره مُؤْتَمِراً ، وبِزَوَاجِرِهِ مُزْدَحِراً ؛ ولِرُسُومِهِ مُتَّبِعاً ، وَبِحِفْظِهَا مُضْطَمِعاً ؛ إن شاء الله تعالى ، والسلامُ عليك ورحمةُ الله وبركاته .

الخاتمة

في ذكرِ أمورٍ تتعلق بديوان الانشاء غير أمور الكتابة ،
وفيها أربعة أبواب

الباب الأول

في الكلام على البريد، وفيه فصلان

الفصل الأول

في مقدمات يحتاج الكاتب إلى معرفتها ، ويتعلق الغرض
من ذلك بثلاثة أمور

الأمر الأول

(معرفة معنى لفظ البريد لفظةً وأصطلاحاً)

أما معناه لغةً ، فالمراد منه مسافة معلومة مقدرة بأثنى عشر ميلاً ، واحتج له
الجوهري بقول مُزَرَّدٍ يمدح عَرَابَةَ الْأَوْسِيِّ :

فَدَتَكَ عَرَابَ الْيَوْمِ أُمِّي وَخَالَتِي ، « وَنَاقِي النَّاحِي إِلَيْكَ بَرِيدُهَا !

يُرِيدُ سَيْرَهَا فِي الْبَرِيدِ . وقد قدره الفقهاء وعلماء المسالك والممالك بأنه أربعة
فراسخ ، والفراسخ ثلاثة أميال ، والميل ثلاثة آلاف ذراع بالهاتمي ، وهو أربعة
وعشرون أصبعا ، كُلُّ أَصْبُعٍ سِتُّ شَعِيرَاتٍ مُعْتَرِضَاتٍ ، ظَهَرَ أَحَدُهَا لِبَطْنِ الْأُخْرَى ،
وَالشَّعِيرَةُ سَبْعُ شَعَرَاتٍ مُعْتَرِضَاتٍ مِنْ ذَنْبٍ بَقِيلٍ أَوْ رِقُونٍ .

قال الجوهري : ويقال أيضا على البريد : المُرْتَب ، يقال : حُمِلَ فلانٌ على البريد .
قال : وَيُطْلَقُ أيضًا على الرِّسُولِ بَرِيدٌ .

ثم اختلف فيه فقيل : إنه عَرَبِيٌّ . وعلى هذا ذهب الخليل إلى أنه مُسْتَقٌّ من
بَرَدَتِ الحديد إذا أُرْسِلَتْ ما يخرج منه . وقيل : من أبردته إذا أُرْسِلَتْه . وقيل : من برد
إذا تَبَّتْ ، لأنه يأتي بما تَسْتَقِرُّ عليه الأخبار ، يقال : * اليومَ يومٌ باردٌ مُمُومٌ *
أى تَأَيَّتْ .

وذهب آخرون إلى أنه فارسيٌّ معرَّبٌ . قال أبو السعادات بن الأثير في كتابه
”النهاية في غريب الحديث“ : وأصله بالفارسية بريدہ دم ، ومعناه مَقْصُوصُ
الدَّنبِ . وذلك أن مُلُوكَ الفُرسِ كانت من عادتهم أنهم إذا أقاموا بَغلاً في البريد قَصَّوا
ذَنَبَهُ ، ليكونَ ذلك علامةً لكونه من بَغالِ البريد . وأنشد الجوهري لأمرئ القيس :
على كُلِّ مَقْصُوصِ الذَّنَابِ مُعَاوِدِ * بَرِيدَ المَرَى بالليلِ من خيلِ بَرِّاءِ .

الأمر الثاني

(أَوَّلُ من وَضَعَ البريدَ وما آل إليه أمرُه إلى الآن)

أما في الجاهلية ، فقد ذكر في ”التعريف“ : أنَّ البريد كان موجوداً في عهد
الأكاسرة من مُلُوكِ الفُرسِ ، والقباصرة مُلُوكِ الرُّومِ . قال : ولكن لا أعرفُ هل
كان على البريد المُحرَّرُ أو كانت مَقَادِيرُهُ مُتفاوتةً كما هو الآن ؟ . ثم قال : ولا أظنُّه
إلا على التَّقدِيرِ المحزَّرِ ، إذ كانت حَكْمُهُمْ تَأْتِي إلَّا ذلك .

وأما في الإسلام فقد ذكر أبو هلال العسكري في كتابه ”الأوائل“ : أنَّ أَوَّلَ من
وَضَعَهُ في الإسلام معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما . قال في ”التعريف“ :

وذلك حين استقرت له الخلافة، ومات أمير المؤمنين على رضى الله عنه، وسلم له ابنه الحسن عليه السلام، وخلا من المنازع، فوضع البريد لتسرع إليه أخبار بلاده من جميع أطرافها، فأمر بإحضار رجال من دعاة القوس وأهل أعمال الروم وعرفهم ما يريد، فوضوا له البريد . قال : وقيل : إنما فعل ذلك زمن عبد الملك ابن مروان حين خلا وجهه من الخوارج عليه : كعمرو بن سعيد الأشدق ، وعبد الله بن الزبير، ومضعب بن الزبير، والمخاض بن أبي عبيد .

والذى ذكره العسكرى : أن عبد الملك إنما أحكمه . وذكر عنه أنه قال لأبن الدغيدة : وليتك ما حصر بأى إلا أربعة : المؤذن ، فإنه داعى الله تعالى فلا حجاب عليه . وطارق الليل ، فتمر ما أتى به ولو وجد خيراً لنأتم . والبريد ، فتنى جاء من ليل أو نهار فلا تحجبه ، فربما أفسد على القوم سنة حبسهم البريد ساعة . والطعام إذا أدرك ، فأفتح الباب وأرفع الحجاب وخل بين الناس وبين الدخول . ثم قال : ويذكر هذا الكلام عن زياد أيضا .

قال فى "التعريف" : وكان الوليد بن عبد الملك يحمل عليه الفسيفساء وهى الفص المذهب من القسطنطينية إلى دمشق ، حتى صفح منه جيطان المسجد الجامع بها ، ومساجد مكة والمدينة والقدس .

قال : ثم لم يزل البريد قائماً ، والعمل عليه دائماً ، حتى آن لبناء الدولة المروانية أن يتفرض ، ولجئها أن يتكثرت ، فأقطع ما بين خراسان وال عراق ، لانصراف الوجوه إلى الشيعة القائمة بالدولة العباسية . ودام الأمر على ذلك حتى أقضت أيام مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، وملك السفاح ، ثم المنصور ، ثم المهدي ، والبريد لا يسد له سرج ، ولا تلجم له دابة . ثم إن المهدي أغزى ابنه مروان الرشيد الروم ، وأحب أن لا يزال على علم قريب من خبره ، فرب فيما بينه وبين

مُعَسَّكَ أَيْسَهُ بُرْدًا كَانَتْ تَأْتِيهِ بِأَخْبَارِهِ ، وَتُرِيهِ مُتَجَدِّدَاتِ أَيَّامِهِ . فَلَمَّا قَفَلَ الرَّشِيدُ قَطَعَ الْمَهْدِيُّ تِلْكَ الْبُرْدَ ، وَدَامَ الْأَمْرُ عَلَى هَذَا بَاقِي مَدَّتِهِ وَمُدَّةِ خِلَافَةِ مُوسَى الْهَادِي بَعْدَهُ . فَلَمَّا كَانَتْ خِلَافَةُ هُرُونَ الرَّشِيدِ ، ذَكَرَ يَوْمًا حُسْنَ صَنِيعِ أَبِيهِ فِي الْبُرْدِ الَّتِي جَعَلَهَا بَيْنَهُمَا ، فَقَالَ لَهُ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ : لَوْ أَمَرَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِإِحْرَاءِ الْبَرِيدِ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ ، كَانَ صَلَاحًا لِلْمَلِكَةِ . فَأَمَرَهُ بِهِ فَقَرَّرَهُ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ ، وَرَتَّبَهُ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ أَيَّامَ بَنِي أُمَيَّةَ ، وَجَعَلَ الْبَغَالِ فِي الْمَرَازِكِ ، وَكَانَ لَا يُجَهِّزُ عَلَيْهِ إِلَّا الْخَلِيفَةُ أَوْ صَاحِبُ الْخَبَرِ ، ثُمَّ اسْتَمَرَّ عَلَى هَذَا . فَلَمَّا دَخَلَ الْمَأمُونُ بِلَادَ الرُّومِ وَنَزَلَ عَلَى نَهْرِ الْبُزْجُونِ وَكَانَ الزَّمَانُ حَرًّا ، وَالْفَصْلُ صَيْفًا ، قَعَدَ عَلَى النَّهْرِ وَدَلَّى رِجْلِيهِ فِيهِ وَشَرِبَ مَاءَهُ ، فَاسْتَعْدَبَهُ وَاسْتَبْرَدَهُ وَاسْتَطَابَهُ ، وَقَالَ لِمَنْ كَانَ مَعَهُ : مَا أَطْيَبُ مَا شَرِبَ عَلَيْهِ هَذَا الْمَاءُ ؟ ، فَقَالَ كُلُّ رَجُلٍ بِرَأْيِهِ . فَقَالَ هُوَ : أَطْيَبُ مَا شَرِبَ عَلَيْهِ هَذَا الْمَاءُ رُطْبُ إِزَارِ ، فَقَالُوا لَهُ : يَبِيشُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ حَتَّى يَأْتِيَ الْعِرَاقَ وَيَأْكُلَ مِنْ رُطْبِهَا الْإِزَارَ ، فَمَا اسْتَمْتَمُوا كَلَامَهُمْ حَتَّى أَقْبَلَتْ بِغَالِ الْبَرِيدِ تَحْمِلُ أَلْطَافًا فِيهَا رُطْبُ إِزَارِ ، فَأَتَى الْمَأمُونُ بِهَا فَأَكَلَ مِنْهَا وَأَمْنَعَ وَشَرِبَ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ . فَكَثُرَ تَعَجُّبُ الْحَاضِرِينَ مِنْهُ لِسَعَادَتِهِ فِي أَنَّهُ لَمْ يَقُمْ مِنْ مَقَامِهِ حَتَّى يَبْلُغَ أَمْنِيَّتَهُ ، عَلَى مَا كَانَ يُظَنُّ مِنْ تَعَذُّرِهَا . فَلَمْ يَقُمْ الْمَأمُونُ مِنْ مَقَامِهِ حَتَّى حُمِّ حَادَّةٌ كَانَتْ فِيهَا مَنِينَةٌ .

ثُمَّ قَطَعَ بَنُو بُوَيْهِ الْبَرِيدَ حِينَ عَلَوْا عَلَى الْخِلَافَةِ وَغَلَبُوا عَلَيْهَا ، لِيَحْفَتُ عَلَى الْخَلِيفَةِ مَا يَكُونُ مِنْ أَخْبَارِهِمْ وَحَرَكَاتِهِمْ أحيانًا قَصِيدُهُمْ بَغْدَادَ ، وَكَانَ الْخَلِيفَةُ لَا يَزَالُ يَأْخُذُ بِهِمْ عَلَى بَغْتَةٍ .

ثُمَّ جَاءَتْ مَلُوكُ السَّلَاحِقَةِ عَلَى هَذَا ، وَأَهَمُّ مَلُوكِ الْإِسْلَامِ اخْتِلَافُ ذَاتِ بَيْنِهِمْ وَتَنَازُعُهُمْ ، فَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمْ إِلَّا الرُّسُلُ عَلَى الْخَيْلِ وَالْبِغَالِ ، فِي كُلِّ أَرْضٍ بِحَسَبِهَا .

فلما جاءت الدولة الزنكية أقامت لذلك النجابة ، وأعدت له النجبة المنتخبة .
ودام ذلك مدة زمانها ثم زمان بني أيوب إلى اقراض دولتهم . وتبعها على ذلك
أوائل الدولة التركية ، حتى صار الملك إلى الملك الظاهر بيبرس رحمه الله ، واجتمع له
ملك مصر والشام وحلب إلى القرات ، وأراد تجهيز دولته إلى دمشق فعين لها نائباً ،
ووزيراً ، وقاضياً ، وكتائباً للأشياء .

قال : وكان عمي الصاحب شرف الدين أبو محمد عبد الوهاب رحمه الله هو كاتب
الإشياء ، فلما مثل إليه ليودعه ، أوصاه وصايا كثيرة ، أكدها مواسلته بالأخبار
وما يتجدد من أخبار التتار والفرنج ، وقال له : إن قدرت أن لا تبني كل ليلة إلا على
خبر [ولا تصبني إلا على خبر] ^(١) فأقول ، فعرض له بما كان عليه البريد في الزمان
الأول وأيام الخلفاء ، وعرضه عليه حسن موقعه منه وأمر به . قال عمي : فكننت أنا
المقرر له قدامه وبين يديه . ثم ذكر أنه لم يزل باقياً على ذلك إلى أيامه . ثم قال :
وهو جناح الإسلام الذي لا يمحى ، وطرف قادمته التي لا تقص .

قلت : ولم يزل البريد بعد ذلك مستقراً بالديار المصرية والممالك الشامية إلى أن
غشي البلاد الشامية تمولك صاحب ما وراء النهر ، وقع دمشق وخربها وحرقتها
في سنة أربع وثمانمائة ، فكان ذلك سبباً لحص جناح البريد وبطلانه من سائر
الممالك الشامية . ثم سرى هذا السهم إلى الديار المصرية فألحقها بالمثل ، وربما
بعد الحلي بالمثل ، فذهبت معالم البريد من مصر والشام ، وعفت آثاره ، وصار إذا
عرض أمر من الأمور السلطانية في بعض نواحي الديار المصرية أو الممالك الشامية ،
ركب البريد على قوس له ، يسير بها الهويته سائر المسافر إلى المكان الذي يريد ،
ثم يعود على هذه الصورة ، فيحصل بواسطة ذلك الإبطاء في الذهاب والإياب .

الأمير الثالث

(بيان معالم البريد)

إعلم أنه كان فيما تقدم في زمن الخلفاء للبريد شخص مخصوص يتولى أمره بتنفيذ ما يصدر وتلقى ما يرد، يُعبر عنه بـ «صاحب البريد». ومن تعرض إلى ذكر ذلك أبو جعفر النحاس في كتابه «صناعة الكتاب» في الكلام على أرباب الوظائف، واشتقاق اسمائهم. وقد أشار إليه الجوهري في صحاحه أيضا فقال: ويقال أبرد صاحب البريد إلى الأمير فهو مُبرِدٌ يعني أرسل إليه البريد.

ثم قد تقدم في مقدمة الكتاب في الكلام على صاحب ديوان الإنشاء وماله التحدث عليه - أن صاحب ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية هو المتولى لأمر البريد وتنفيذ أموره في الإيراد والإصدار. وكان للبريد ألواح من فضة مخددة بديوان الإنشاء تحت أمر كاتب السرّ بالأبواب السلطانية، مَنقُوشٌ على وجهي اللوح نقشا مُزدوجا مأمُورته: «لا إله إلا الله محمد رسول الله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون». ضرب بالقاهرة المحروسة. وعلى الوجه الآخر مأمُورته: «عن مولانا السلطان الملك الفلاني: فلان الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، فلان، ابن مولانا السلطان الشهيد الملك الفلاني فلان، خلد الله ملكه». وفي ذلك اللوح ثقب معلق به شُرابة من حريز أصفر ذات بُندين، يجعلها البريدي في عنقه، بإدخاله رأسه بين البندين، ويصير اللوح أمامه تحت ثيابه، والشُرابة خلفه من فوق ثيابه. فإذا خرج بریدی إلى جهة من الجهات، أعطى لوطا من تلك الألواح، يُعقّ في عنقه، على ما تقدم ذكره، ويذهب إلى جهة قصده، فكل من رأى تلك الشُرابة خلف ظهره علم أنه بریدی. وبواسطة

ذلك تُدْعَى له أربابُ المراكز بتسليم خيل البريد . ولا يزال كذلك حتى يذهب
ويعود ، فيعيد ذلك اللوح إلى ديوان الإنشاء .

وكذلك الحكم في دواوين الإنشاء بدمشق وحلب وغيرها من الممالك الشامية ،
لا يختلف الحكم في ذلك إلا في الكتابة بحلّ ضرب اللوح . فإن كان بدمشق
كتب : « ضرب بالشام » . وإن كان بحلب كتب : « ضرب بحلب المحروسة »
وكذلك باقى الممالك .

الفصل الثانى

من الباب الأول من الخاتمة فى ذكر مراكز البريد

وهى الأماكن التى تحف فيها خيل البريد لتغيير خيل البريدية فيها قرصاً بعد
قرص ، قال فى « التعريف » : وليست على المقدار المقدّر فى البريد المحرّر ، بل هى
متفاوتة الأبعاد ، إذ ألجأت الضرورة إلى ذلك : تارة لبعد ماء ، وتارة للأتس بقرية ،
حتى إنك لتربى فى [هذه] المراكز البريد الواحد بقدر بريدن . ولو كانت على
التحرير [الذى عليه الأعمال] لما كان تفاوت . وقد ذكر منها المقر الشهابى بن
فضل الله رحمه الله فى « التعريف » ما أربى فى ذلك على المقصود وزاد ، وهو بذلك
أدرب وأدرب . وهأنا أذكر ما ذكره ، موثقاً لما يحتاج منه إلى التوضيح ، مع
الزيادة عليه وتقريب الترتيب .

ويشتمل على ستة مقاصد :

المقصود الأول

(في مَرَكِ قَلْعَةِ الْجَبَلِ المحروسة بالديار المصرية التي هي قَاعِدَةُ الْمَلِكِ، وما يتفرع عنه من المَرَكَر، وما تَتَمَّى إليه مَرَكَرُ كُلِّ جِهَةٍ)

اعلم أن الذي يتفرع عن مَرَكِ القلعة ويتشعب منه أربع جهات، وهي: جهة قُوص من الوجه القبلي وما يتصل بذلك من أسوان وما يليها من بلاد النوبة، وعيذاب وما يليها من سواكن، ووجهة الإسكندرية من الوجه البحري، ووجهة دمياط من الوجه البحري أيضاً، وما يتفرع عنها من جهة غزّة من البلاد الشامية.

فأما مَرَكَرُ قُوص وما يليها: فن مَرَكِ قَلْعَةِ الْجَبَلِ المحروسة، ومنها إلى مَدِينَةِ الْحِيزَةِ، وهي قاعدة الأعمال الجيزية، وقد تقدّم الكلام عليها في الكلام على بلاد المماليكة في المقالة الثانية. ثم منها إلى زاوية أم حسين، وهي قرية من عمل الجيزة. قال في "التعريف": والمركَر الآن بمنية القائد وهي على القرب من زاوية أم حسين المذكورة، ثم منها إلى ونا وهي بلدة من عمل البهنسي^(١)، ثم منها إلى دهروط وهي بلدة من عمل البهنسي أيضاً. ثم منها إلى أفلوسنا، وهي بلدة من عمل الأشمونيين.

ثم منها إلى منية بني حصيب، وهي مدينة من عمل الأشمونيين، وقد تقدّم الكلام عليها في المقالة الثانية. ثم منها إلى مدينة الأشمونيين، وهي قاعدة بلادها، وقد تقدّم الكلام عليها في المقالة الثانية. ثم منها إلى ذروة سربام وهي بلدة من عمل الأشمونيين على قِمِ الْخَلِيجِ الْيُوسُفِيِّ الْوَاصِلِ مِنَ النَّيْلِ إِلَى الْقَيُْومِ، وتعرف بذرورة الشريف، إضافة إلى الشريف ناصر الدين محمد بن تغلب الذي كان عصى بها في زمن الظاهر بيبرس، وتمت نفسه إلى الملك حتى كاده الظاهر وقبض عليه وشقّه بالإسكندرية، وبها

(١) في معجم البلدان لياقوت: قلوسنا.

دِيَارُهُ وَقُصُورُهُ وَالْجَامِعُ الَّذِي أُنْشِأَ بِهَا إِلَى الْآنَ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى مَدِينَةِ مَقْلُوطَ ، وَهِيَ قَاعَةُ الْأَعْمَالِ الْمُتَقَلُّوْطِيَّةُ الَّتِي هِيَ أَجَلُّ خَاصِّ السُّلْطَانِ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى مَدِينَةِ أُسْبُوطَ ، وَهِيَ قَاعَةُ الْأَعْمَالِ الْأُسْبُوطِيَّةُ ، وَمَقَرُّ نَائِبِ الْوَجْهِ الْقَبْلِيِّ الْآنَ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهَا فِي الْمَقَالَةِ الثَّانِيَةِ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى طَا ، وَهِيَ قَرْيَةٌ مِنْ عَمَلِ أُسْبُوطَ الْمُقَدَّمَةِ الذَّكَرُ عَلَى ضَفَةِ النَّيْلِ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الْمَرَاغَةِ ، وَهِيَ بَلَدَةٌ مِنْ عَمَلِ إِنْجِيمَ . قَالَ فِي "التَّعْرِيفِ" : وَرُبَّمَا سُمِّيَتْ الْمَرَاغَةُ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى بَلْسُورَةَ وَهِيَ بَلَدَةٌ مِنْ عَمَلِ إِنْجِيمَ أَيْضًا . قَالَ فِي "التَّعْرِيفِ" : وَرُبَّمَا قِيلَ بَلْسُورَةُ بِإِبْدَالِ السَّيْنِ زَايَا . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى جَرْحَا ، وَهِيَ بَلَدَةٌ مِنْ الْعَمَلِ الْمَذْكُورِ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الْبُلَيْنَةِ ، وَهِيَ بَلَدَةٌ مِنْ عَمَلِ قُوصَ ، وَيُقَالُ فِيهَا الْبُلَيْنَا بِإِبْدَالِ الْهَاءِ أَلْفًا . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى هَوَ ، وَهِيَ بَلَدَةٌ مِنْ عَمَلِ قُوصَ أَيْضًا ، قَالَ فِي "التَّعْرِيفِ" : وَيَلِيهَا الْكُومُ الْأَحْمَرُ ، وَهِيَ مِنْ خَاصِّ السُّلْطَانِ ، وَعِنْدَهُمَا يَنْقَطِعُ الرَّيْفُ فِي الْبَرِّ الْغَرْبِيِّ ، وَيَكُونُ الرَّمْلُ الْمُتَّصِلُ بِدَنْدَرَى وَيُسَمَّى خَانَ دَنْدَرَى ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ مُسْتَوًى فِي الْمَقَالَةِ الثَّانِيَةِ . وَمِنْهَا إِلَى مَدِينَةِ قُوصَ قَاعَةُ الْأَعْمَالِ الْقُوصِيَّةِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَيْهَا فِي الْمَقَالَةِ الثَّانِيَةِ .

ثُمَّ مِنْ قُوصَ تَنْقَطِعُ مَرَاكُزُ الْبَرِيدِ ، وَيَتَشَعَّبُ الطَّرِيقُ إِلَى جِهَةِ أُسْوَانَ وَبِلَادِ النُّوبَةِ ، وَجِهَةِ عَيْدَابَ وَسَوَاكِنَ .

فَمَنْ أَرَادَ الْمَسِيرَ إِلَى جِهَةِ أُسْوَانَ رَكِبَ الْمُجَنِّحَ مِنْ قُوصَ إِلَى أُسْوَانَ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى بِلَادِ النُّوبَةِ .

وَمَنْ أَرَادَ الْمَسِيرَ إِلَى عَيْدَابَ سَارَ مِنْ قُوصَ إِلَى كِيَانٍ فَقَطَّ عَلَى الْقُرْبِ مِنْ قُوصَ .

قُلْتُ : ثُمَّ يَسِيرُ فِي قَفَايَرٍ وَجِبَالٍ ، مِنْ كِيَانٍ فَقَطَّ إِلَى مَاءٍ يُسَمَّى لِبَطَةَ عَلَى مَرَحَلَةٍ مِنَ الْكِيَانِ ، بِهِ عَيْنٌ تَتَّبِعُ وَلَيْسَتْ جَارِيَةً ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى مَاءٍ يُسَمَّى الدَّرِيمِ عَلَى الْقُرْبِ

من معدن الزمرد ، به صين صغيرة يُستقى منها من الماء ما شاء الله ، وهي لا تريد ولا تنقص . ثم منها إلى حُمَيْتَرَة حيث قبر سيدي أبي الحسن الشاذلي ، وهناك عين ماء يُستقى منها . ثم منها إلى عِيذاب ، وهي قرية صغيرة على ضفة بحر القارم في الشمال إلى الغرب ، وعلى القرب منها عين يُستقى منها .

وتقدير جميع المسافة من الكيان إلى عِيذاب نحو عشرة أيام يسير الأتقال . على أنه في "مسالك الأبصار" قد ذكر أن الطريق إلى عِيذاب من شُعْبَة على القرب من أسوان ، ثم يسير منها في بلاد عَرَب يُسمون بنى عامر إلى سَوَاكِن ، وهي قرية حاضرة البحر صاحبها من العرب ، وكُتِبَ السلطان انتهى إليه ، على ما تقدم ذكره في الكلام على المكاتبات .



وأما الإسكندرية فالمرآة الموصلة بها في طريقين :

الطريق الأولى : الآخذة على الجبل الغربي ويسمى طريق الحاجر . والمسير فيها من مركز القلعة المقدم ذكره إلى مدينة البحيرة . ثم منها إلى جزيرة القط ، وهي قرية من أعمال البحيرة من الجهة البحرية . ثم منها إلى وردان ، وهي قرية من عمل البحيرة . [ثم منها إلى الطرانة^(١) . ثم منها إلى طيلاس وهي بلدة من عمل البحيرة أيضا وتعرف بزاوية مبارك . قال في "التعريف" : وأهل تلك البلاد يقولون : أنبارك . ثم منها إلى مدينة دمنهور وتعرف بدمنهور الوحش ، وهي قاعدة أعمال البحيرة ، ومحل مقام نائب السلطنة بالوجه البحري ، وقد تقدم الكلام عليها في المقالة الثانية . ثم منها إلى لوقين وهي قرية من عمل البحيرة . ثم منها إلى الإسكندرية .

الطريق الثانية : الآخذة في وسط العمران ، وتعرف بالوسطى .

وهي من مَرَكز القلعة إلى مدينة قَلْبُوب قاعدة الأعمال القَلْبُوبِيَّة ، وقد تقدّم الكلام عليها في المقالة الثانية . ثم منها إلى مَدِينَةِ مَنُوفَ العُلَيَا ، وهي قاعدة الأعمال المَنُوفِيَّة ، وقد تقدّم الكلام عليها في المقالة الثانية . ثم منها إلى مدينة المَحَلَّة المعروفة بِالْمَحَلَّةِ الْكُبْرَى ، وهي قاعدة الأعمال الْفَرَنْسِيَّة ، وقد تقدّم الكلام عليها في المقالة الثانية . وقد وُجِدَ في " التعريف " فَمَها مَحَلَّة المَرْحُوم بلدة من بلاد الْفَرَنْسِيَّة غيرها . ثم منها إلى النَحْرِيَّة ، وهي مدينة من عَمَل الْفَرَنْسِيَّة . ثم منها إلى الإسْكَنْدَرِيَّة .



وأما الطريق إلى دِمَياط وَغَزَّة ، فن مَرَكز القلعة إلى سِرْيَاقُوس ، وهي بلدة من مَنَواحي القاهرة ، وليس المَرَكز في نَفِيس الْبَلَد ، بل بِالْقَرْيَةِ الْمُسْتَجَدَّة بِجَوَارِ الخَاقِاهِ النَّاصِرِيَّة الَّتِي أَنشأها السُّلْطَانُ الْمَلِكُ النَّاصِرُ مُحَمَّدُ بْنُ قَلاوُون عَلَى الْقُرْبِ مِنْ سِرْيَاقُوس . قال في " التعريف " : وكان قبل هذا بالعُشْ ، وكان طويل المَدَى في مكان مُنْقَطِع ، وكانت الْبَرِيدِيَّة لَا تَزَالُ تَنْشَقُّ مِنْهُ ، فَصَلَحَ بِنَقْلِهِ ، وَخَصَلَ بِهِ الرِّفْقُ لِأُمُورِهِ لَمْ يَكُنْ مِنْهَا إِلَّا قُرْبُهُ مِنَ الْأَسْوَاقِ الْمجاوِرَةِ لِخَاقِاهِ النَّاصِرِيَّة وما يوجَدُ فيها ، وَأُنْشِئَ بِمَاحِوِلِهَا [لِكُنْفِ] . ثم منها إلى بَثْرِ الْبَيْضَاء ، وهي مَرَكزُ بَرِيدٍ مُتَفَرِّدٍ لَيْسَ حَوْلَهُ سَاكِنُونَ . ثم منها إلى مَدِينَةِ يُلَيْسَ قاعدة الأعمال الشَّرْقِيَّة ، وقد تقدّم الكلام عليها في المقالة الثانية . قال في " التعريف " : وهي آخِرُ الْمَرَكَزِ السُّلْطَانِيَّةِ ، وهي الَّتِي تُشْتَرَى خَبْلُهَا مِنَ الْأَمْوَالِ السُّلْطَانِيَّةِ وَيُقَامُ لَهَا الشَّوْشُ وَتَصْرَفُ لَهَا الْعُلُوفَاتُ . ثم منها إلى السَّعِيدِيَّة . ثم من السَّعِيدِيَّةِ إِلَى أَقْثَمُومِ الرُّمَّانِ قاعدة بلاد الدَّقِيقِيَّةِ وَالْمِرْتَاجِيَّة ، وقد تقدّم ذكرها في المقالة الثانية . ومنها إلى دِمَياط وَمَنْ أَرَادَ غَزَّةَ . وقد تقدّم أَنَّ مَدِينَةَ يُلَيْسَ هي آخِرُ الْمَرَكَزِ السُّلْطَانِيَّةِ . ثم السَّعِيدِيَّةُ وَمَا بَعْدَهَا

إلى الخروبة تُعرف بالشَّهارة، خَيْلُ الْبَرِيدِ بها مقرَّةٌ على عُربانِ دَوَى إِفْطَاعَاتٍ،
عليهم خِيُولٌ مَوْطَفَةٌ يَحْضُرُهَا أَرْبَابُهَا عِنْدَ هَلَالِ كُلِّ شَهْرٍ إِلَى الْمَرَاكِرِ، وَتَسْتَعِيدُهَا
فِي آخِرِ الشَّهْرِ وَيَأْتِيْ غَيْرَهَا، وَمِنْ هُنَاكَ سُمِّيَتِ الشَّهَارَةُ . قَالَ فِي "التعريف" :
وَعَلَيْهِمْ وَالْأَمْرُ مِنَ قَبْلِ السُّلْطَانِ يَسْتَعْرِضُ فِي رَأْسِ كُلِّ شَهْرٍ خَيْلَ أَهْبَابِ التَّوْبَةِ
وَيُدَوِّعُهَا بِالْدَّاعِ السُّلْطَانِي . قَالَ : وَمَا دَامَتْ تَسْتَعِدُّ فَهِيَ قَائِمَةٌ ، وَمَتَى أَكْثَرَتْ
أَهْلُ تَوْبَةٍ مِنْ قَبْلِهِمْ فَسَدَّتِ الْمَرَاكِرُ ، لِأَنَّ الشَّهْرَ لَا يَهْلُ فِي خَيْلِ الْمُسْلِمِ قُوَّةٌ ،
لَا سِيَّما وَالْعَرَبُ قَلِيلَةٌ الْعَلَفِ .

وَأَوَّلُ هَذِهِ الْمَرَاكِرِ السَّعِيدَةُ الْمَقْدَمُ ذِكْرُهَا ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الْخَطَاةِ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى قَبْرِ
الْوَالِي . قَالَ فِي "التعريف" : وَقَدْ اسْتَجِدَّ بِهِ أُبْنِيَّةٌ وَأَسْوَاقٌ وَبَسَاتِينُ حَتَّى صَارَ
كَأَنَّهُ قَرْيَةٌ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الصَّالِحِيَّةِ ، وَهِيَ قَرْيَةٌ لَطِيفَةٌ . قَالَ فِي "التعريف" : وَهِيَ
آخِرُ مَعْمُورِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى بَرْغَزَى ، وَإِلَى هَذَا الْمَرْكَزِ يَجْلِبُ الْمَاءُ
مِنْ بَرْ وَرَاءَهُ . وَمِنْهَا إِلَى الْقُصَيْرِ . قَالَ فِي "التعريف" : وَقَدْ كَانَ كَرِيمُ الدِّينِ وَكِيلُ
الْخَاصِ يَخْتَارُ بِهَا خَانًا وَمَسْجِدًا وَمِثْدَنَةً ، وَعَمِلَ سَاقِيَةً ، فَتَهْدَمُ ذَلِكَ كُلُّهُ ، وَلَمْ يَوْجَدْ لَهُ
مَنْ يُجَدِّدُهُ ، وَيَقِيمُ الْمِثْدَنَةَ خَاصَّةً ، وَرُتِبَ بِهَا زَيْتٌ لِلتَّنْوِيرِ . قَالَ : وَهَذَا الْقُصَيْرُ
يَقَارِبُ الْمَرْكَزَ الْقَدِيمَ الْمَعْرُوفَ بِالْعَاقُولَةِ الْمُقَارِبَ لِمَنْطَرَةِ الْحَسْرِ الْجَارِي تَحْتَهَا فَوَاضِلُ
مَاءِ النَّيْلِ أَوَّانَ زِيَادَتِهِ إِذَا خَرَجَ إِلَى الرَّمْلِ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى حَبْوَةٍ . قَالَ فِي "التعريف" :
وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ وَلَا بِنَاءٌ ، وَإِنَّمَا هِيَ مَوْقِفٌ يَقِفُ بِهِ خَيْلُ الْعَرَبِ الشَّهَارَةَ ، وَيَجْلِبُ
الْمَاءُ إِلَيْهَا مِنْ بَرْ وَرَاءَهَا . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الْغَرَابِي . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى قَطْيَا ، وَهِيَ قَرْيَةٌ
صَغِيرَةٌ بِهَا تَوَخُّذُ الْمُرْتَبَاتِ السُّلْطَانِيَّةِ مِنَ التُّجَّارِ الْوَارِدِينَ إِلَى مِصْرَ وَالصَّادِرِينَ عَنْهَا ،

وهناك رَمْلٌ بالطريق يُنْتَم في الليل ويُحْفَظ ما حوله بالعُرَبان ، حتى لا يَمُرَّ أَحَدٌ لَيْلًا . فيكونُ من القاهرة إلى قَطْلِيَا اثْنَا عَشَرَ بَرِيدًا . ثم منها إلى صَبِيحَةَ نَحْلَةٍ مَعْن . قال في " التعريف " : ومن الناس من يَقْتَصِرُ على إحدى هذه الكلمات في تسميتها . ثم منها إلى الْمُطَلِب ، ثم منها إلى السَّوَادَةِ . قال في " التعريف " : وقد حُوِّلَتْ عن مكانها فصار المُسَافِرُ لا يحتاج إلى تَعْرِيجٍ إليها . ثم منها إلى الوَرَادَةِ ، قال في " التعريف " : وهى قريةٌ صغيرةٌ بها مَسْجِدٌ على قَارعة الطريق ، بَنَاهُ الْمَلِكُ الْأَشْرَفُ « خَلِيل » بن المنصور قَلَاوُون تَعَمَدَهُ اللهُ بِرَحْمَتِهِ ، حَصَلَ بِهِ الرَّفْقُ بِمَيْتِ السَّفَارَةِ بِهِ . قال : وقد كان نَفَرُ الدِّينِ كَاتِبُ الْمَالِكِ بَنَى إِلَى جَانِبِهِ خَانًا فَبِيعَ بَعْدَهُ . ثم منها إلى يَثْرَ الْقَاضِي . قال في " التعريف " : والمدى بينهما بَعِيدٌ جِدًا يَمْلَأُ السَّالِكُ . ومنها إلى العَرِيش . قال في " التعريف " : وقد أَحْسَنَ كَرِيمُ الدِّينِ رَحِمَهُ اللهُ بِعَمَلِ سَاقِيَةِ سَبِيلٍ بِهِ وَبَنَاءِ خَانِ حَصِينٍ فِيهِ يَأْوِي إِلَيْهِ مِنَ الْجَاهَةِ الْمَسَاءِ ، وَيُنَامُ فِيهِ آمِنًا مِنْ طَوَارِقِ الْقَرَبِج . ثم منها إلى الْخُرُوبَةِ ، وَبِهَا سَاقِيَةٌ وَخَانٌ ، بَنَاهُمَا نَفَرُ الدِّينِ كَاتِبُ الْمَالِكِ ، حَصَلَ بِهِ مِنَ الرَّفْقِ وَالْأَمْنِ مَا بِالْعَرِيشِ . قال في " التعريف " : وهذا آخر مَرَاكِرِ الْعَرَبِ الشَّهَارَةِ . ثم مِمَّا يَلِيهَا خَبْلُ السُّلْطَانِ ذَوَاتُ الْإِصْطِبَلَاتِ وَالتَّحْدَمُ تُشْتَرَى بِمَالِ السُّلْطَانِ وَتُغْلَفُ مِنْهُ ، وَأَوَّلُهَا الرُّعْقَةُ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى رِبْعٍ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى السَّلْقَةِ . قال في " التعريف " : وكان قبل هذا الْمَرْكُزُ بِبَيْتِ عَرَنْطَايَ حَيْثُ الْجُمُيزُ وَيُسَمَّى سَطَر . قال : وكان في ثَقْلِهِ إِلَى السَّلْقَةِ الْمُصْلَحَةُ . ثم منها إلى الدَّارُومِ ، ثم منها إلى غَزَّةَ . يكون من قَطْلِيَا إِلَى غَزَّةَ أَحَدَ عَشَرَ مَرَّكَأً .

المقصد الثاني

(في مَرَاكِزِ غَزَّةَ وما يَتَفَرَّعُ عنه من البلاد الشامية)

والذى يَتَفَرَّعُ عنه مَرَاكِزُ ثَلَاثِ جِهَاتٍ، وهى : الكَرَكُ، وِدِمَشْقُ، وَصَفَدُ .

فأما الطريق إلى الكَرَكِ : فن غَزَّةَ إلى ملاقس وهو مَرَكَزُ بَرِيدٍ، ثم منها إلى بَلَدِ الخليل عليه السلام، ثم منها إلى جنبا، ثم منها إلى الصَّافِيَّةِ، ثم منها إلى الكَرَكِ .

وأما مَرَاكِزُ دِمَشْقِ : فن غَزَّةَ إلى الحِجَينِ، وهو مَرَكَزُ بَرِيدٍ، ومنها إلى بَيْتِ دَارِسَ، والناس يقولون : تدارس، وبها خَانُ بَنَاءِ نَاصِرِ الدِّينِ خُزَنْدَارِ تَكَزُ . قال في "التعريف" : وكان قديمًا بياسور، وكان قَرِيبَ المدْيِ فُقِيلَ وَكَانَتِ المَصْلُحَةُ فِي نَقْلِهِ، ثم منها إلى قطرى . قال في "التعريف" : وهو مَرَكَزُ مُسْتَجِدٍّ كَانَ المُشِيرُ بِهِ طَاجِرُ الدَّوَادَارِ النَّاصِرِيَّ، وَبِهِ بَرْسِيْلٌ وَأَنَارُهُ . قال : وقد حصل به رِفَقٌ عَظِيمٌ لِبَعْدِ مَا بَيْنَ [لُدٍّ وَبَيْتِ دَارِسَ] ^(١) أَوْ بَاسُورَ، ثم منها إلى لُدٍّ، ثم منها إلى العَوَّجَاءِ . قال في "التعريف" : وهى زَوْرَاءُ عَنِ الطَّرِيقِ، وَلَوْ نُقِلَتْ مِنْهُ لَكَانَ أَرْفَقَ، ثم منها إلى الطَّيْرَةِ . قال في "التعريف" : وبها خَانٌ كَانَ قَدْ شَرَعَ فِي بَنَائِهِ نَاصِرُ الدِّينِ دَوَادَارِ تَكَزُ ثُمَّ كُلُّ بَيْدٍ غَيْرِهِ . ثم منها إلى قَاقُونِ، ثم منها إلى حَمَّةَ [ثم منها إلى جِينِينَ] ^(١) . قال في "التعريف" : وهى عَلَى صَفَدٍ، يَعْنِي الْقِيَامَ بِهِ، وَبِهِ خَانٌ لَطَاجَارِ الدَّوَادَارِ، حَسَنُ الْبِنَاءِ جَلِيلُ النَّفْعِ، لَيْسَ عَلَى الطَّرِيقِ أَحْصَى مِنْهُ وَلَا أَحْصَنُ، وَلَا أَزِيدُ نَفْعًا مِنْهُ وَلَا أَزِينُ .

(١) بياض بأصله والتصحيح من التعريف (ص ١٩١) .

ومن أراد دِمَشْقَ وما يليها سَارَ من جِئِينَ إلى ذَرَعِينَ . قال في "التعريف" :
ومنها يَزَلْ على عَيْنِ جَالُوتَ ، وهو مَرْكَزُ مُسْتَجِدِّ حَصَلْ به أَعْظَمُ الرِّفْقِ والرَّاحَةِ من
العَقَبَةِ التي كان [يُسَلِّكُ] ^(١) عليها بين جِئِينَ وَيَسَانَ مع طُولِ المَدَى . ثم منها إلى
يَسَانَ ، ثم منها إلى الجَمَاعِ . قال في "التعريف" : وهو مَرْكَزُ مُسْتَجِدِّ عِنْدَ جَنْبِ
سَامَةِ ، كُنْتُ أنا المَشِيرَ به في سنة إحدى وأربعين وسبعائة ، وحَصَلْ به الرِّفْقُ لِبُعْدِ
ما كان بين يَسَانَ وزحر . قال : وقد كان الطريقُ قَدِيمًا من يَسَانَ على طَبِيعَةِ أَسَمِ ،
ثم إلى أَرْبَدَ ، وكانت غَايَةً في المَشَقَّةِ ، إذ كان المسافرُ ما بين يَسَانَ وطَبِيعَةِ أَسَمِ يحتاجُ
إلى خَوْضِ الشَّرِيعَةِ ، وبها معدية للفَارِسِ دونَ الفَرَسِ ، وإنما يَعْرِفُهَا الفَرَسُ
سِبَاحَةً ، وكان في هذا من المَشَقَّةِ ما لا يوصفُ ، لا سِيَّما أيامَ زيادةِ الشَّرِيعَةِ وكلِّبِ
الْبَرْدِ : لِقَطْعِ المَاءِ ومُعَانَاةِ العِقَابِ التي لا يَسْقُهَا جَنَاحُ القُطَابِ . ولكن الأميرُ
الطنطا كَافِلُ الشَّامِ رحمه الله تَقَلَّ هذه الطَّرِيقَ وجَعَلَهَا على القَصِيرِ حيثُ هِيَ اليومَ ،
ونَقَلَ المَرْكَزَ من الطَّبِيعَةِ إلى زحرجين غَرَّقَ بَعْضُ البَرِيدِيَّةِ الجَلِيلِينَ بِالشَّرِيعَةِ . ثم من
الجَمَاعِ المذكورة إلى زحر ، ثم منها إلى أَرْبَدَ ، ثم منها إلى طُفُسَ ، ثم منها إلى الجَمَاعِ .
قال في "التعريف" : وكان قَدِيمًا في المكانِ المسمَّى بِرَأْسِ المَاءِ ، فلما مَلَكَه الأميرُ
الكَبِيرُ تَنَكَّرَ كَافِلُ الشَّامِ رحمه الله تَقَلَّ المَرْكَزَ منه إلى هذا الجَمَاعِ ، فَقَرَّبَ به المَدَى
فِي بَيْنِهِ وبين طُفُسَ ، وكان بَعِيدًا فما جاء إلا حَسَنًا . ثم منها إلى الصَّنَمِينَ ، ثم منها
إلى غَبَاغِبَ ، ثم منها إلى الكُشُوءِ ، ثم منها إلى دِمَشْقَ المَحْرُوسَةِ .

وأما الطريقُ المَوْصِلَةُ إلى صَفَدَ : فمن جِئِينَ المَقْدِمِ ذِكْرُهَا إلى تَيْنِينَ . ثم منها
إلى [حِطْلِينَ] ^(١) وبها قبر شُعَيْبٍ عليه السلام ، ثم منها إلى صَفَدَ .

المقصود الثالث

(في ذِكْرِ مَرَكَزِ دِمَشْقَ وما يَتَفَرَّعُ عَنْهُ مِنَ الْمَرَاكِزِ الْمُوصَلَةِ
إِلَى حِمَصَ وَحِمَاةَ حَلَبَ ، وَإِلَى الرَّحْبَةِ ، وَإِلَى طَرَابُلُسَ ، وَإِلَى جَعْفَرٍ ، وَمِصْيَافَ
وَيَبْرُوتَ وَصَيْدَا وَبَعْلَبَكَّ وَالْكُرْكُ وَأَذْرِعَاتٍ)

أما طريق حلب : فقال في " التعريف " : من دِمَشْقَ إِلَى الْقُصَيْرِ . والذي
رَأَيْتُهُ فِي بَعْضِ الدَّسَاتِيرِ أَنَّهُ مِنْ دِمَشْقَ إِلَى خَانَ لَاجِينَ ، ثُمَّ إِلَى الْقُصَيْرِ . قَالَ
فِي " التَّعْرِيفِ " : ثُمَّ مِنَ الْقُصَيْرِ إِلَى الْقَطِيفَةِ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الْقَسْطَلِ . وَرَأَيْتُ
فِي الدُّسْتُورِ الْمَذْكُورِ أَنَّ مِنَ الْقُصَيْرِ إِلَى خَانَ الْوَالِي ، ثُمَّ إِلَى خَانَ الْعُرُوسِ ، ثُمَّ إِلَى
الْقَسْطَلِ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى قَارَا ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى بَرِيجِ الْعَطَشِ وَيُقَالُ فِيهِ الْبَرِيجُ أَيْضًا .
قَالَ فِي " التَّعْرِيفِ " : وَقَدْ كَانَ مَقْطَعُ طَرِيقٍ ، وَمَوْضِعُ خَوْفٍ ، فَبَنَى بِهِ قَاضِي
الْقَضَاءِ نَجْمُ الدِّينِ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ صَصْرَى رَحِمَهُ اللَّهُ مَسْجِدًا وَبِرْكَةً ، وَأَجْرَى
الْمَاءَ إِلَى الْبِرْكَةِ مِنْ مِلْكٍ كَانَ لَهُ هُنَاكَ وَقَفَهُ عَلَى هَذَا السَّبِيلِ ، فَبَدَّلَ الْخَوْفَ أُنْمًا ،
وَالْوَحْشَةَ أُنْمًا ، أَنَابَهُ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الْعُسُولَةِ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى ثُبَيْنَ ،
ثُمَّ مِنْهَا إِلَى حِمَصَ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الرِّسْتَنِ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى حِمَاةَ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى لَطِيمِينَ ،
ثُمَّ مِنْهَا إِلَى طَرَابُلُسَ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الْمَعْرَةِ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى أَقْرَاطَا ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى إِيَادٍ ، ثُمَّ مِنْهَا
إِلَى قَنْسِيرِينَ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى حَلَبَ .

وأما طريق الرَّحْبَةِ : فَمِنَ الْقَطِيفَةِ الْمَقْدَمَةِ الذَّكْرُ إِلَى الْعَطْنَةِ . قَالَ فِي " التَّعْرِيفِ " :
وَلَيْسَ بِهَا مَرَكَزٌ ، وَلَئِنَّمَا بِهَا خَانَ تُفَرَّقُ بِهِ صَدَقَةٌ مِنَ الْخُبْزِ وَالْأَحْذِيَةِ وَنَعَالِ الدُّوَابِّ
إِلَى جُلَيْجَلٍ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الْمُصْنَعِ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الْقَرِيَّتَيْنِ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الْحَسِيرِ ، ثُمَّ مِنْهَا
إِلَى الْبَيْضَاءِ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى تَدْمُرَ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى أَرَكٍ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى السُّخْنَةِ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى

قَبَابَب، ثم منها إلى كَوَائِل . قال في "التعريف" : وهو اليوم عَطْل . ثم منها إلى الرَّحْبَة وهي حَدُّ هذه المملكة .

وأما طريق طَرَابُلُس : فنِ الْفُسُولَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذِّكْر [إلى الْقَصَب ، ثم منها إلى قَدَس] إلى أَقْصَار، ثم منها إلى الشَّعْرَاء ، ثم منها إلى عِرْقَاء ، ثم منها إلى طَرَابُلُس .

وأما طريق جَعْبَر وما يليها : فنِ حِصَصِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذِّكْر إلى مَلَمِيَّة ، ثم منها إلى بُغْيَدِيد، ثم منها إلى سُورِيَا ، ثم منها إلى الْحَص ، ثم منها إلى جَعْبَر، إلى عَيْنِ بَذَال، ثم منها إلى صِهْلَان، ثم منها إلى اخْتَابُور، ثم منها إلى رَأْسِ عَيْن .

وأما طريق مِصْيَاف : فنِ حِصَصِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذِّكْر إلى مِصْيَاف .

وأما طريق صَفَد : فنِ دِمَشْق إلى بَرِجِ الْفُلُوس ، ومنه إلى أَرْبِيَّة ، ومنها إلى لُغْرَان ، ومنها إلى صَفَد .

وأما طريق يَبُوت : فنِ دِمَشْق إلى خَانَ مِيسْلُون ، ومنها إلى زُبْدَان ، ومنها إلى الْحَصِين ، ومنها إلى يَبُوت .

وأما طريق صَيْدَاء : فنِ دِمَشْق إلى خَانَ مِيسْلُون الْمُقَدِّمِ الذِّكْر ، إلى جَزِيرَةِ صَيْدَاء ، إلى كَرْك نُوح ، ثم منه إلى بَلْبَلَك . قال في "التعريف" : وأعلم أن من صَيْدَاء إلى يَبُوت قَدَرُ مَرَكْر .

وأما بَلْبَلَك ، فلها طريقان : إِحْدَاهُمَا من خَانَ مِيسْلُون الْمُقَدِّمِ الذِّكْر إلى كَرْك نُوح إلى بَلْبَلَك . والثَّانِيَةُ من دِمَشْق إلى الزُّبْدَانِيَّ إلى بَلْبَلَك .

ومن أراد من بَلْبَلَك حِصَص ، تَوَجَّهَ مِنْهَا إلى التَّمَصِّب ، ثم إلى الْفُسُولَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذِّكْر ، وبعدها تَمَسِّين ، ثم حِصَصُ عَلِيٍّ مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ .

وأما طريق الكرك : فمن دمشق - فالمرآك المذكورة في الوصول من غزة إلى دمشق - على عكس ما تقدم ، إلى طفس ، ومنها إلى القنية ، ومنها إلى البرج الأبيض ، ومنها إلى حُصْبَات^(١) ، ومنها إلى [ديباج^(١)] ومنها إلى [اكره] ومنها إلى الكرك .

وأما طريق أذريعات ، مَقَرَّ وِلَايَةِ الْوَلَاةِ بِالصَّفْقَةِ الْقَبِيلَةِ : فمن طفس المقدمة الذَّكْرُ إِلَى أَذْرِيَعَات . قال في " التعريف " : فهذه جملة مرآك دمشق إلى كل جهة .

قال : فاما مقدار الولايات ، فمن كل واحدة إلى ما يليها ، حتى يتوصل المسافر على البريد إلى حيث أراد .

المقصود الرابع

(في مركز حلب وما يتفرع عنه من المراكز الواصلة إلى البيرة وبهسني وما يليهما ، وقلة المسلمين المعروفة بقاعة الروم ، وآياس مدينة الفتوحات الجاهانية ، وجعبر)

فاما الطريق الموصلة إلى البيرة : فمن حلب إلى الباب ، ثم منها إلى الساجور ، ثم منها إلى كلنس^(٢) ، ثم منها إلى البيرة ، وهي في البر الشرقي من القرات . قال في " التعريف " : وهي أجل ثغورها^(٣) .

(١) بياض بالأصل ، والتصحيح من التعريف (ص ١٩٤) .

(٢) لم يذكرها التعريف .

(٣) عبارة التعريف : « والبيرة أجل قلاع الاسلام ، وعقائل الماقل التي لم تفتزع على طول الأيام » قلل ما هنا رواية عن نسخة أخرى وقت بيد المؤلف (انظر ص ١٩٣) .

(١)
وأما طريق بَهْسَنِي وما يليها : فمن حَلَب إلى السحوقه ، ثم منها إلى مسندرا ،
[ثم منها إلى بيت الفار^(٢)] ثم منها إلى عَيْتَاب ، ثم منها إلى بَهْسَنِي .

ثم منها يُدْخَل إلى جهة قَيْسَارِيَّة والبلاد المعروفة الآن ببلاد الروم وهي بلاد
الدُرُوب . قال في "التعريف" : وقد اسْتَضَفْنَا نَحْنُ (يعني أهل هذه المملكة)
في هذا الجبل القريب إلينا منها : قَيْسَارِيَّة وَتَرْتَدَّة ، وإنا المستقر المعروف أنَّ
أخرحد المسالك الإسلامية من هذه الجهة - بَهْسَنِي .

وأما طريق قلعة المسلمين وما يليها : فمن عَيْتَاب المقدمة المذكور إليها ، وهي وسط
الْعُرَات ، وهو خُلُجَان دَائِرَةٌ عاليا . ثم من قلعة المسلمين إلى جسر الحجر ، ثم إلى
الْكُفْتَا ، وهي آخر الحد من الطرف الآخر .

وأما طريق آياس : فمن حَلَب إلى أَرْحَاب ، ثم منها إلى تيزين ، ثم منها إلى بَقْرَا ،
ثم منها إلى بَقْرَاس ، قال في "التعريف" : وهي كانت آخر الحد مما يلي بلاد
الأَرَمَن . قال : وقد اسْتَضَفْنَا نَحْنُ في هذا الجبل ما اسْتَضَفْنَا ، فصار من بَقْرَاس
إلى بَايَاض ، وهي أول جبل الأَرَمَن ، ثم من بَايَاس إلى آياس .

وأما طريق جَعْبَر : فمن حَلَب إلى الجَبُول ، ثم منها إلى بَالَس ، ثم منها إلى جَعْبَر .
قال في "التعريف" : هذه جملة مراكز حَلَب . أما بقايا القلاع وبقار الولايات ،
فمن شُعَب هذه الطرق ، أو من واحة إلى أخرى .

(١) في التعريف سندار .

(٢) الزيادة من التعريف (ص ١٩٥) .

المقصود الخامس

(في مَرَاكِ طَرَابُلُس وما يتفرّع عنه من المراكز الموصلة إلى جهاتها)

فاما طريق اللاذقية : فن طَرَابُلُس إلى مَرْقِية، ثم منها إلى بِلْنِيَّاس، ثم منها إلى اللاذقية، ثم منها إلى صِهْيُون، وهي قلعةٌ جَلِيلَةٌ كانت دَارَ مُلِكٍ . ثم منها إلى بَلَاطُنُس . قال في "التعريف" : وَمَنْ شَاءَ فَن صِهْيُون إلى بُرْزَيْهِ ، وَهُوَ حَصْنٌ سُمِّيَ بِاسْمِ مَنْ عَمَّرَهُ أَوْ عَرِفَ بِمُلْكِهِ ، وَمَنْ شَاءَ فَن بَلَاطُنُس إلى الطُّبَيْقَةِ أَوَّلِ قَلَاعِ الدَّعْوَةِ مِمَّا لِي بَلَاطُنُس، ثم منها إلى الكَهْفِ، ثم منها إلى القُدْمُوس، ثم منها إلى الخَوَابِي، ثم منها إلى الرِّصَافَةِ، ثم منها إلى مِصْبَافٍ . قال في "التعريف" : فهذه جملة مَرَاكِ طَرَابُلُس . فأما مَقَاَرُ الْوَلَايَاتِ فَن وَاحِدَةٌ إِلَى أَنْحَرَى، ثم ذَكَرَ جَمِيعَ مَرَاكِ الْبَرِيدِ بِالْمَالِكِ الْمَحْرُوسَةِ .

قال : فأما من أطراف مَمَالِكِنَا إِلَى حَضْرَةِ الْأَرْدُو، حيث هو مُلْكُ بَنِي هُوَلَاكُو، فلهم مَرَاكِ تَسْمَى خَيْلُ الْأَوَّلَاقِ وَخَيْلُ الْيَامِ يُحْمَلُ عَلَيْهَا، لَا تُشْتَرَى بِمَالِ السُّلْطَانِ وَلَا يُكَلَّفُ تَمْنِهَا، وَإِنَّمَا هِيَ عَلَى أَهْلِ تِلْكَ الْأَرْضِ، نَحْوَ مَرَاكِ الْعَرَبِ فِي رَمَلٍ مِضْرٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ .

المقصود السادس

(في معرفة مَرَاكِلِ الْحَجَّازِ الْمُوصَلَةِ إِلَى مَكَّةَ الْمُشْرِفَةِ وَالْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ عَلَى سَاكِنِهَا)

سَيَدُنَا مُحَمَّدٍ أَفْضَلَ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ وَالتَّحِيَّةِ وَالْإِكْرَامِ، إِذْ كَانَتْ مِنْ

بَيْتَةِ الطُّرُقِ الْمُوصَلَةِ إِلَى بَعْضِ أَقْطَارِ الْمُلْكَةِ

وَكَمَا ضَبِطَتْ تِلْكَ بِالْمَرَاكِ فَقَدْ ضَبِطَتْ هَذِهِ بِالْمَرَاكِحِلِ . وَعَادَةُ الْحَجَّاجِ أَنَّهُمْ يَقْطَعُونَ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ مِنْهَا مَرَحِلَتَيْنِ بِسَيْرِ الْأَثْقَالِ، وَدَيْبِ الْأَقْدَامِ، [وَيَقْطَعُونَهَا

كلها في شهر، بما فيه من أيام الإقامة بالعقبة واليَبْع نحو سِتَّة أيام . أما من يُسافر على العَجَبِ مُخَفًّا مع الحَدِّ في السَّيْرِ فإنه يَقْطَعُهَا في نحو أَحَدِ عَشْر .

ثم أول مَصِيرهم من القاهرة إلى البركة المعروفة بِرَكَةِ الْحَاجِّ ، ثم منها إلى الْبُؤْيُوبِ ، ثم منها إلى الطَّلِيحَاتِ ، ثم منها إلى المنفرح ، ثم منها إلى مرا كح موسى ، ثم منها إلى عَجُود ، وبها بئر وَمَصْنَعُ ماءٍ مُتَّسِعٌ يملأ منها . ثم منها إلى المنصرف ، ثم منها إلى وَادِي الْقِيَابِ ، وهو كثير الرَّمْلِ . ثم منها إلى أول تِيهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وهو وَادٍ آفِجٌ مُتَّسِعٌ . ثم منها إلى الْعُنُقِ ، ثم منها إلى نَيْخِل ، وبها ماء طَيِّبٌ . ثم منها إلى جَسَدِ الْحَيِّ ، ثم منها إلى بئر بَيْدَرَا ، ثم منها إلى تمد الحِصَا ، ثم منها إلى ظَهْرِ الْعَقْبَةِ ، ثم منها إلى سَطْحِ الْعَقْبَةِ ، وهو عُرْقُوبُ الْبَقْلَةِ على جانب طَرَفِ بَحْرِ الْقُلْزُمِ ، وفيها ماء طَيِّبٌ من حَقَائِرِ . ثم منها إلى حَفْرٍ على جانب طَرَفِ بَحْرِ الْقُلْزُمِ ، وفيها ماء طَيِّبٌ من الحفائر . ثم منها إلى عَشِّ الْفَرَابِ ، ثم منها إلى آخر الشرفة ، ثم منها إلى مَعَارَةِ شُعَيْبٍ ، وبها ماءٌ وَمَصْنَعٌ . ثم منها إلى وَادِي عَقَّانٍ ، ثم منها إلى ذَاتِ الرَّحِيمِ ، ثم منها إلى عُيُونِ الْقَصَبِ ، وبه ماءٌ نَائِعٌ وَأَبْجَةٌ قَصَبٍ نَائِصَةٌ فيها . ثم منها إلى الْمُوَيْلَعَةِ ، وبها ماءٌ في آبار . ثم منها إلى المُدْرَجِ ، ثم منها إلى سَلَمَى مُجَاوِرِ بَحْرِ الْقُلْزُمِ ، وبها ماءٌ مَلَحٌ . ثم منها إلى الْإِتْيَالَاتِ ، ثم منها إلى الْأَزْنَمِ ، والناس يقولون : الْأَزْنَمُ بِاللَّامِ بدل النون ، وبه آبارُهَا ماءٌ رَدِيٌّ يُطْلَقُ بَطْنٌ مِنْ شَرَبِهِ ، لا يَسْقِي منه غالباً إلا الْجَمَالَ ، وهي نِصْفُ الطَّرِيقِ . ثم منها إلى رَأْسِ وَادِي عَتَرٍ . ثم منها إلى الْوَجْهِ ، وبه آبارٌ قَلِيلَةُ الْمَاءِ ، وما هو داخل الْوَادِي يَعْزُ الْمَاءُ فِيهِ غَالِباً ولا يُوجَدُ فِيهِ إلا حَقَائِرُ ، ويقال : إنه إذا طَلَعَتِ الشَّمْسُ عليه نَفَّسَ مَائِهِ ، وفيه يقول بعض من حجَّ من الشعراء وَعَزَّ عليه وَجُودُ الْمَاءِ فِيهِ :

إِذَا قَلَّ مَاءُ الْوَجْهِ " قَلَّ حَيَاؤُهُ ، وَلَا خَيْرَ فِي " وَجْهِ " بغير حَيَاءٍ !

ثم منه إلى المحاطب ، ثم منها إلى أكرا ، ثم منها إلى رأس القاع الصغير ، ثم منه إلى قبر القروى ، ثم منه إلى كلخا ، ثم منها إلى آخر القاع الصغير ، ثم منه إلى الحوراء ، وبها ماء غير صالح . ثم منها إلى العقيق بضم العين تصغير عقيق بفتحها ، وهو مضيق صعب . ثم منها إلى مغارة نبط ، وبها ماء عذب ليس بطريق المحجاز أطيب منه . ثم منها إلى وادى الثور ، ثم منها إلى قبر أحمد الأعرج الدليل ، ثم منه إلى آخر وادى الثور ، ثم منه إلى رأس السبع وعمرات ، ثم منها إلى دار البقر ، ثم منها إلى الينبع ، وهى النصف والرُّبع من الطريق ، وبها تقع الإقامة ثلاثة أيام أو نحوها ، وبها يودع الحجاج ما نقل عليهم إلى حين العود ، ويسمّون منها مما يصل إليها من الديار المصرية فى سُفْنِ بَحْرِ الْقُلُومِ . ثم منها إلى المحاطب فى الوعر . ثم منها إلى رأس وادى بدر ، وهى منزلة حسنة بها عيون تجرى وحدائق . ثم منها إلى رأس قاع البروة ، ثم منه إلى وسط قاع البروة ، ثم منه إلى رابغ ، وهو مقابل الجحفة التى هى مِيقَاتُ الإحرام لأهل مصر ، وبها يُحرَّمُ الحُجَّاجُ ولا يَفْشُونَ الجحفة ، إذ قد دعا النبي صلى الله عليه وسلم بَنَقْلَ حُمَى المدينة إليها بقوله : «وَأَنْقُلْ حُمَاهَا إِلَى الْجَحْفَةِ» فلو مرّ بها طائرٌ رَحِمَ . ثم منها إلى قُدَيْدٍ بضم القاف . ثم منه إلى عَقَبَةِ السَّوِيقِ ، ثم منها إلى خُلَيْصَ ، وبه مصنع ماء . ثم منها إلى عُسْفَانَ ، ثم منها إلى مدرج عليّ ، وهو كثير الوعر . ثم منه إلى بَطْنِ مَرٍّ ، والعامّة يقولون : مَرَوْ ، بزيادة واو ، وبه عيون تجرى وحدائق . ثم منه إلى مَكَّةَ الْمُشْرِفَةِ شَرَفَهَا الله تعالى وعَظَّمَهَا ، ثم من مَكَّةَ إِلَى مَنَى ، وبها ماءٌ طَيِّبٌ من آبار تُحْفَرُ ، ثم منها إلى المَشْعَرِ الْحَرَامِ والمُزْدَلِقَةِ ، ثم منها إلى عَرَفَةَ وهى المَوْقِفُ ، وإليها يَنْتَهَى سَفَرُ الْحُجَّاجِ .

ثم العود فى المَنَازِلِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذَّكْرِ إِلَى وادى بدر على عَكْسِ مَا تَقَدَّمَ .

الطريق إلى المدينة النبوية (على ساكنها أفضل الصلاة والسلام)

من مِصْرَ في المَرَاكِيلِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذِّكْرُ ، إلى وَادِي بَدْرِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذِّكْرُ ، إلى رَأْسِ
وَادِي الصَّفْرَاءِ ، وبِهِ عَيُونٌ تَجْرِي وَحَدَائِقُ وَأَشْجَارٌ . ثمَّ مِنْهَا إلى وَادِي نَبِيِّ سَالِمٍ ،
ثمَّ مِنْهُ إلى وَادِي الْغَزَالَةِ ، ثمَّ مِنْهُ إلى الْفَرَشِ ، ثمَّ مِنْهُ إلى بَرْحَلٍ ، وبِهَا مَاءٌ طَيِّبٌ .
ثمَّ مِنْهَا إلى الْمَدِينَةِ الشَّرِيفَةِ النَّبَوِيَّةِ عَلَى سَاكِنِهَا أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ وَالتَّحِيَّةِ
وَالْأَكْرَامِ .

وَمِنْ شَاءَ ذَهَبَ إِلَيْهَا مِنَ الْبَيْعِ إِلَى رَأْسِ تَقِيبٍ عَلَى عِنْدِ طَرْفِ الْجَبَلِ ، ثمَّ إِلَى
وَادِي الصَّفْرَاءِ ، ثمَّ فِي الْمَرَاكِيلِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذِّكْرُ إِلَى الْمَدِينَةِ . وَهِيَ أَقْرَبُ الطَّرِيقَيْنِ
لِلذَّاهِبِ مِنْ مِصْرَ ، وَتِلْكَ أَقْرَبُ لِلْعَائِدِ مِنْ مَكَّةَ .

الباب الثاني

من الخاتمة في مطارات الحمام الرسائلي، وذكر أبراجها المقررة بطرق
الديار المصرية والبلاد الشامية، وفيه فصلان

الفصل الأول

في مطاراته

قد تقدم في الكلام على أوصاف الحمام - عند ذكر ما يحتاج إلى وصفه في أواخر
مقاصد المكاتب من المقالة الرابعة - أن الحمام أسم جنس يقع على هذا الحمام
المتعارف بين الناس، وعلى أيتام والدباسى والقارى والفواخت وغيرها، وأن المتبادر
إلى فهم السامع عند ذكر الحمام هو هذا النوع المخصوص، وأن أغلاه قيمة وأعلاه
رتبة الحمام الرسائلي، وهو الذى يتخذهُ الملوك لحمل المكاتب، ويعبر عنه بـ «الهدى» .
وتقدم هناك الكلام على ذكر ألوانها على اختلافها، وعدد الرياش المعتبرة فيها، وهى
رياش أجنحتها وأذناها، وبيان الفرق بين الذكر والأنثى، وصفة الطائر الفاره،
والفراسة في نجاته في حال صغره، والزمان والمكان اللاتقين بالإفراج، وما يجرى
تجرى ذلك مما يحتاج إليه الكاتب عند وصفه لبيان النجيب منه من غيره، فأغنى
عن ذكره هنا .

والمختص منه بهذا المكان ذكر الاعتناء بهذا الحمام، وأول من أهتم بشأنه،
واعتنى بأمره، ومن قام به من الملوك، ومسافات طيرانه، وما يجرى هذا
التجسرى .

فأما الاعتناء به والأهتمام بشأنه - فقد أعتنى به في القديم خلفاء بني العباس :
 كالمهدي ثالث خلفائهم ، والناصر منهم . وتنافس فيه رؤساء الناس في العراق لا سيما
 بالبصرة . فقد ذكر صاحب "الروض الماطر" أنهم تنافسوا في اقتنائه ، ولحقوا
 بذميره ، وبالقوا في أثمانه ، حتى بلغ ثمن الطائر الفاري منها سبعمائة دينار . ثم قال :
 ويقال : إنه بلغ ثمن طائر منها جاء من خليج القسطنطينية ألف دينار . قال :
 وكانت تباع بيضنا الطائر المشهور بالفراة بعشرين ديناراً ، وأنه كان عندهم دقائر
 بأنساب الحمام كأنساب العرب ، وأنه كانت لا يمتنع الرجل الحليسل ولا الفقيه
 ولا العدل من اتخاذ الحمام ، والمنافسة فيه ، والإخبار عنها ، والوصف لأثرها ،
 والتعجب لمشهورها ، حتى وجه أهل البصرة إلى بكار بن شعبة البكراني قاضي مصر ،
 (وكان في فضله وعقله ودينه وورعه على ما لم يكن عليه قاض) بحمايات لم مع
 ثقات ، وكتبوا إليه يسألونه أن يتولى إرسالها بنفسه ، ففعل . وكان الحمام عندهم
 متجراً من المتاجر ، لا يرون بذلك بأساً .

وذكر المقر الشهابي بن فضيل الله في "التعريف" أن الحمام أول ما أتى بالديار
 المصرية والبلاد الشامية من الموصل ، وأن أول من أعتنى^(١) من الملوك [وقوله]
 من الموصل الشهيد نور الدين بن زنكي صاحب الشام رحمه الله ، في سنة خمس
 وستين وخمسمائة . وحافظ عليه الخلفاء الفاطميون بمصر ، وبالقوا حتى أفردوا له
 ديواناً وجرائد بأنساب الحمام . وصنف فيه الفاضل محي الدين بن عبد الظاهر كتاباً
 سماه : "تمام الحمام" .

قلت : وقد سبقه إلى التصنيف في ذلك - أبو الحسن بن ملاعب القواريس
 البغدادي ، فصنف فيه كتاباً للناصر لدين الله الخليفة العباسي ببغداد ، ودكر فيه

أسماء أعضاء الطائر ورِيشه ، والوشوم التي تُوسَم في كُلِّ عُضْوٍ ، وألوان الطيور وما يُستَحْسَنُ من صفاتها ، وكيفية إفراخها ، وبعد المسافات التي أرسلت فيها ، وذكر شيء من نوادرها وحكاياتها ، وما يجري هذا المجرى . وأظنُّ أنَّ كِتَابَ القاضي محي الدين بن عبد الظاهر تَبَيَّعَهُ عَنْ مُقَدِّمَتِهِ .

وأما مسافات طيرانه ، فقد تقدَّم أنَّ الطائر الذي يَبِيعُ بِألف دينار طارَ من القُسْطَنْطِينِيَّةِ إِلَى البَصْرَةِ ، وأنَّ الحَمَامَ أُرْسِلَ مِنْ مِصْرَ إِلَى البَصْرَةِ بِحَضْرَةِ القاضي بَكَّارٍ قاضي مصر .

وذكر ابن سَعِيدٍ فِي كِتَابِهِ ” حَيَاَ الْحَمَلِ وَجَنَى النَّعْلِ “ أَنَّ الْعَزِيزَ ثَانِيَّ خُلَفَاءِ الْفَاتِمِيَّينَ بِمِصْرَ ، ذَكَرَ لَوَزِيرِهِ يَعْقُوبَ بْنَ كَلَّسٍ أَنَّهُ مَارَأَى الْقَرَّاصِيَّةَ الْبَلْبَكِيَّةَ ، وَأَنَّهُ يُحِبُّ أَنْ يَرَاهَا . وَكَانَ بِدِمَشْقَ حَمَامٌ مِنْ مِصْرَ وَبِمِصْرَ حَمَامٌ مِنْ دِمَشْقَ ، فَكَتَبَ الْوَزِيرُ لَوْفَتِهِ بِطَاقَةً يَأْمُرُ فِيهَا مَنْ هُوَ تَحْتَ أَمْرِهِ بِدِمَشْقَ أَنْ يَجْعَلَ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْحَمَامِ الْمِصْرِيَّةِ ، وَيَعْلُقَ فِي كُلِّ طَائِرٍ حَبَابَاتٍ مِنَ الْقَرَّاصِيَّةِ الْبَلْبَكِيَّةِ ، وَيُرْسِلَهَا إِلَى مِصْرَ ، ففعل ذلك ، فلم يَمُضِ النَّهَارُ حَتَّى حَضَرَتْ تِلْكَ الْحَمَامُ بِمَا عُلِقَ عَلَيْهَا مِنَ الْقَرَّاصِيَّةِ ، فَجَمَعَهُ الْوَزِيرُ بِعَقُوبَ بْنَ كَلَّسٍ وَطَلَعَ بِهِ إِلَى الْعَزِيزِ فِي يَوْمِهِ ، فَكَانَ ذَلِكَ مِنْ أَغْرِبِ الْغَرَائِبِ لَدَيْهِ .

وذكر أيضًا فِي كِتَابِهِ ” الْمَغْرِبُ فِي حُلَى الْمَغْرِبِ “ أَنَّ الْوَزِيرَ الْبَازُوْدِيَّ الْمَغْرِبِيَّ ، وَزِيرَ الْمُسْتَنْصِرِ باللهِ الْفَاتِمِيَّ وَجَّهَ الْحَمَامَ مِنْ تُونِسَ مِنْ أَفْرِيْقِيَّةٍ مِنْ بِلَادِ الْمَغْرِبِ بِفَاءٍ إِلَى مِصْرَ ، وَالْمُهْدَةَ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ .

الفصل الثاني

من الباب الثاني من الخاتمة في أبراج الحمام المقررة لإطارتها
بالديار المصرية والبلاد الشامية

وهي من القواعد والطرق، على ما تقدم في البريد .

أما في المسافات فإنها تختلف، فإن مطارات الحمام ربما زادت على مرارة
البريد .

الأبراج الآخذة من قلعة الجبل المحروسة

إلى جهات الديار المصرية

قال في "التعريف" : وأعلم أن الحمام قد أقطع تدريجه من مصر إلى قوص
وأسوان وعين شمس . وهذا ظاهر في أن الحمام كان يدرج إلى هذه الأماكن ،
ثم أهمل تدريجه بعد ذلك . قال : ولم يبق منه الآن إلا ما هو من القاهرة إلى
الإسكندرية ، ومن القاهرة إلى دمناس ، ومن القاهرة إلى السويس من طريق
الحاج ، ومن القاهرة إلى بلبيس متصلاً بالشام .

قلت : وأهل هذه الأبراج كلها يرجع قلعة الجبل المحروسة، ومنها التدرج إلى
سائر الجهات .

ثم لم يذكر في "التعريف" : الأبراج الموصلة إلى أسوان وعين شمس والإسكندرية
ودمناس .

الأبراج الآخذة من قلعة الجبل إلى غزة

من بروج قلعة الجبل — إلى بلبيس ، ثم منها إلى الصالحية ، ثم منها إلى قنينا ،
ثم منها إلى الوردية ، ثم منها إلى غزة .

الأبراج الآخذة من غَزَّة وما يتفرَّع عنها

إِعلم أن الأبراج من غَزَّة تَتَشَعَّبُ فيها مَسَارِحُ الحِمَامِ إلى غيرِ جِهَةِ دِمَشقَ وإلى جِهَتِها .

فأما غيرِ جِهَةِ دِمَشقَ ، فمن غَزَّةَ إلى بَلَدِ الخَلِيلِ عليه السلام ، ومن غَزَّةَ إلى القُدسِ الشَّريفِ ، ومن غَزَّةَ إلى نابُلُسَ .

وأما جِهَةُ الشَّامِ : فمن غَزَّةَ إلى لُدٍّ ، ومن لُدٍّ إلى قَافُوقَ ، ومن قَافُوقَ إلى جِيبِينَ . ومن جِيبِينَ تَتَشَعَّبُ المَسَارِحُ إلى غيرِ جِهَةِ دِمَشقَ وإلى جِهَتِها .

فأما ما إلى غيرِ جِهَةِ دِمَشقَ : فمن جِيبِينَ إلى صَفَدَ . وأما ما إلى جِهَةِ دِمَشقَ : فمن جِيبِينَ إلى بَيْسَانَ ، ومن بَيْسَانَ إلى أَرْبَدَ ، ومن أَرْبَدَ إلى طُفُسَ ، ومن طُفُسَ إلى الصَّنَمِينَ ، ومن الصَّنَمِينَ إلى دِمَشقَ .

قال في "التعريف" : ومن كُلِّ واحدٍ من هذه المَرَاكِرِ إلى ما جَاوَرَ ذلك من المَشَاهِيرِ : مِثْلُ من بَيْسَانَ إلى أَذْرِعَايَ مَقَرَّ ولايةِ الوَلَاةِ بِالصَّفْقَةِ القِبْلِيَّةِ ، ومن طُفُسَ إليها - لِإِشْعَارِ وإلى الوَلَاةِ .

الأبراج الآخذة من دِمَشقَ وما يتفرَّع عنها

تَتَشَعَّبُ مَسَارِحُ الحِمَامِ من دِمَشقَ إلى غيرِ جِهَةِ حَلَبَ ، وإلى جِهَتِها .

فأما إلى غيرِ جِهَةِ حَلَبَ : فَتُسَرَّحُ من دِمَشقَ إلى بَلْبَكَ ، ومن دِمَشقَ إلى القُرَيْتَيْنِ .

وأما ما هو إلى جِهَةِ حَلَبَ : فَتُسَرَّحُ من دِمَشقَ إلى قَارَا ، ثم من قَارَا إلى حِمَصَ ،

ثم من حِمَصَ إلى حِمَاةَ ، ثم من حِمَاةَ إلى المَعْرَةَ ، ثم من المَعْرَةَ إلى حَلَبَ .

الأبراج الآخذة من حلب وما يتفرّع عنها

بُرجُ الحمام من حلب إلى البيرة ، ومن حلب إلى قلعة المسلمين ، ومن حلب إلى جهنم^(١) . قال في "التمريف" : وإلى بقية [ماله شأن^(١)] مما حولها [ثم من القريتين إلى تدمر ، ومنها إلى السخنة ، ومنها إلى قباقيب ، ومنها إلى الرحبة . وقد تعطل الآن تدريج السخنة إلى قباقيب ، وإنما صار يسوق بيّطائق تدمر الواقعة بالسخنة منها إلى قباقيب ، ثم يسرح على الجناح من قباقيب إلى الرحبة^(١)] . قال : وبما ذكرتم ذكر مراكر الحمام في سائر الممالك الإسلامية .

قلت : وقد تعطل تدريج الحمام الآن .

الباب الثالث

من الخاتمة في ذكر هجن الثلج والمرآكِب المَعْدَّة لَحْلِ الثلج الذي يحمل
من الشام إلى الأبواب السلطانية بالديار المصرية ،
وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأول

في نقل الثلج

إِعلم أَنَّ ماءَ نَيْلِ مِصرَ لما كان من الحلاوة واللطافة على ما لا يُساوِيهِ فيه نَهْرُ
الأنهار ، على ما تقدم ذِكرُهُ في الكلام على الديار المصرية في المقالة الثانية ، مع شِدَّةِ
القَيْظِ بها في زَمَنِ الصيف ، وَنُفُونه الهواء الذي قد لا يَتَأَتَّى معه تَبْرِيْدُ الماء ، وكان
الثلج غير موجود بها ، وكانت الملوك قد اعتادت الرِّفاهِيَّةَ مع أَقْدارِها على تَحْصِيلِ
الأشياء العَزِيْزة ، وَلَوْعِهِمْ بِحُلْبِها من الأماكِن البعيدة - إِنْ كَالًا لِحَالِ الرِّفاهِيَّةِ ،
وَإِظهارًا لأَهْمِيَّةِ المُلْكِ - دَعَاهُمْ كَمَالَ الرِّفاهِيَّةِ والأَهْمِيَّةِ إلى جَلْبِ الثلج من الشام إلى
مِصر : لتَبْرِيدِ الماء به في زَمَنِ الحَرِّ . على أَنَّ ذلك كان في غيرهم من الملوك التي
لا تَلْجَأُ بِمَحاضِرَتِهِمْ .

وقد ذكر أبو هلال العَسْكَرِيُّ في كتابه ”الأوائِل“ أَنَّ أَوَّلَ من حُمِلَ إِلَيْهِ الثلجُ
الْمَحْجَاجُ بنُ يُوْسُفَ بالعِراق . ثم لاعتناء مُلُوكِ مِصرَ بالثلج قَرَّرُوا لَهُ مُجَنَّا تَحْمِلَهُ في البَرِّ
وَسُفُنًا تَحْمِلُهُ في البَحْرِ ، حَتَّى يَصِلَ إلى القلعة المحروسة .

الفصل الثاني

من الباب الثالث من الخاتمة في المراكب المعدة لنقل الثلج من الشام

قد ذكر في "التعريف" أنها كانت في أيام الملك الظاهر «بيبرس» تَعْمَدُه الله برحمته ثلاث مراكب في السنة، لا تزيد على ذلك . قال : ودامت على أيام سلطاننا (يعني الملك الناصر «محمد بن قلاوون») في السلطنة الثالثة ، وبقيت صدراً منها ، ثم أخذت في التريث إلى أن بلغت أحد عشر مركباً في ملكتي الشام وطرابلس ، ورُبما زادت على ذلك . قال : وآخر صهدي بها من السبعة إلى الثمانية تُطَلَّب من الشام ولا تُكَلَّف طرابلس إلا المساعدة ، وكل ذلك بحسب اختلاف الأوقات ودواعي الضرورات .

قال : والمراكب تأتي دُمياط في البحر ، ثم يخرج الثلج في النيل إلى ساحل بولاق ، فيُنقَل منه على البغال السلطانية ، ويحمل إلى الشرايخانة الشريفة ، على ما تقدم ذكره .

وقد جرت العادة أن المراكب إذا سُفرت سَفَر معها من يتدركها من تلاجين لمداراتها . ثم الواصلون بها في البحر يعودون على البريد في البر .

الفصل الثالث

من الباب الثالث من الخاتمة في الهُجْنِ المعدة لنقل ذلك

قد ذكر في "التعريف" أنه مما حَدَث في الدولة الناصرية «محمد بن قلاوون» وأستمر . وقد كان قبل ذلك لا يُحمل إلا في البحر خاصة . ثم ذكر أن هذه المراكب من دمشق إلى الصنمين ، ثم منها إلى بانياس ، ثم منها إلى أربد ، ثم منها إلى بيسان ،

ثم منها إلى جينين ، ثم منها إلى قاقون ، ثم منها إلى لُد ، ثم منها إلى غَزَّة ، ثم منها إلى العريش ، ثم منها إلى الورداء ، ثم منها إلى المطيب ، ثم منها إلى قَطِيا ، ثم منها إلى القصير ، ثم منها إلى الصالحية ، ثم منها إلى بلبَيس ، ثم منها إلى القلعة .

قال : والمستقر في كل مركز ست هُجْن : خمسة للأحمال ، وهُجْنٌ للهبَّان ، تكون كل قُلة خمسة أحمال . وهذه الهُجْن من الشام إلى العريش على المملكة الشامية ، خلا جينين فإنها على صَفَد . ومن الورداء إلى القلعة هُجْن من المناخات السلطانية ، والكلفة على مال مِضر . ولا تستقر هذه الهُجْن بهذه المراكز إلا أَوَّان حمل الثلج ، وهي : حَزْرَانُ وتَشْرِينُ الثاني . وعدة ثقلاته إحدى وسبعون قُلة ، مُتقارب مُد ما بينها ، ثم صار يزيد على ذلك . ويجهز مع كل قُلة بريد يُتداركه ، ويجهز معه ثَلَاث خيبر بحمله ومُداراته ، يُحمل على فرسٍ بريد ثانٍ . قال : واستقر في وقت أن يُحمل الثلج على خيل الولاية .

وَأَعْلَمُ أَنَّ الثَّلْجَ إِذَا وَصَلَ عَلَى الْمَرَاكِبِ وَالْهُجْنِ حَتَّى آتَى إِلَى الْقَلْعَةِ ، خُزِنَ بِالشَّرَابِخَانَةِ السُّلْطَانِيَّةِ . قال في "التعريف" : ومذقوا أن يُحمل من الثلج على الظهر ما يُحمل ، استقر منه خاض المشروب ، لأنه يصل أنظف وأمن عاقبة ، على أن المُستقرين يأخذون الجاشني منه بحضور أمير مجلس وشاد الشرابخانة السلطانية وُخزناها . أما المنقول في البحر فلبا عدا ذلك . قال : وللمجهزين به من الخلع ورسوم الإنعام رسوم مستقرة ، وعوائد مستمرة .

قلت : وقد جرت العادة أن وأصل الثلج في كل قُلة في البر والبحر تُكتب به رجعة من ديوان الإنشاء ، وهذا هو وجه تعلقه بديوان الإنشاء .

الباب الرابع

من الخاتمة في المناور والمحرقات ، وفيه فصلان

الفصل الأول

في المناور

قال في "التعريف" وهي مواضع يُرفع النار في الليل والدخان في النهار .

وذلك أن مملكة إيران لما كانت بيد هؤلاء من النار ، وكانت الحروب بينهم وبين أهل هذه المملكة ، كان من جملة احتياطات أهل هذه المملكة أن جعلوا أماكن مرفعة من رؤوس الجبال تُوقد فيها النار ليلاً و [يُنار] الدخان نهاراً ، للإعلام بحركة النار إذا قصدوا دخول البلاد لحرب أو إغارة . وهذه المناور تارة تكون على رؤوس الجبال ، وتارة تكون في أبنية عالية ، ومواضعها معروفة تُعرف بها أكثر السفارة ، وهي من أقصى ثغور الإسلام كالبيرة والرحبة ، وإلى حضرة السلطان بقلعة الجبل ، حتى إن المتجدد بالفراغ إن كان بكرة علم به عشاء ، وإن كان عشاء علم به بكرة . ولما يُرفع من هذه النيران ، أو يدخن من هذا الدخان أدلة يعرف بها اختلاف حالات رؤية العدو والمخبر به باختلاف حالاتها ، تارة في العدو ، وتارة في غير ذلك . وقد أُرصد في كل منور الدياب والظنارة ، لرؤية ما وراءهم وإبراء ما أمامهم ، ولهم على ذلك جواميك مقررّة كانت لا تزال دارة . قال : وكان يُنور بمدينة عانة من تلك المملكة قوم من النصّاح بمحنة أمر سوى التنوير ، ويستريح عليهم أهل البلد حباً للملكا ، فترى [ناره أو دخانه بحرية الروم وبالخرف أيضاً ، ويُرفع فيهما أوفى إحداهما فيرى] ^(١)

من كلّ منهما بَوَادِي الْمَيْكَل، وَيُرْفَع فِيهِ فَيْرِي [بِالْقَاطِر، وَيُرْفَع بِالْقَاطِر فَيْرِي بِالرَّجَبَةِ
 وَقَاهَا اللَّهُ، وَيُرْفَع بِهَا فَيْرِي فِي كَوَائِل، وَيُرْفَع فِيهَا فَيْرِي فِي مَنَظَرَةٍ قُبَاقِبَ، وَيُرْفَع
 فِيهَا فَيْرِي فِي حَفِيرِ أَسَدِ الدِّين، وَيُرْفَع بِهَا فَيْرِي^(١) بِالسَّخْنَةِ، فَيْرَع فِيهَا فَيْرِي بِمَنْظَرَةِ
 أَرْكِ، فَيْرَع فِيهَا فَيْرِي بِالْبَوَيْبِ وَهُوَ قَنْطَرَةٌ [بَيْنَ أَرْكِ^(١) وَتَدْمَرُ، فَيْرَع فِيهَا فَيْرِي
 بِمَنْظَرَةِ تَدْمَرُ، فَيْرَع فِيهَا فَيْرِي بِمَنْظَرَةِ الْبَيْضَاءِ، فَيْرَع فِيهَا فَيْرِي بِالْحَيْرِ، فَيْرَع فِيهَا
 فَيْرِي بِجُلَيْجَل، فَيْرَع فِيهَا فَيْرِي بِالْقَرِيَّتَيْنِ، فَيْرَع فِيهَا فَيْرِي بِالْعَطْنَةِ، فَيْرَع فِيهَا فَيْرِي
 بِسَيِّدَةِ الْعَقَابِ، فَيْرَع فِيهَا فَيْرِي بِمَنْذَنَةِ الْعُرُوسِ، فَيْرَع فِيهَا لِمَا حَوَّلَهَا، إِذَا رَأَى لِلرَّعَايَا
 وَصَحًا لِلْأَطْرَافِ، فَيْرَع حَوْلَ دِمَشَقَ بِالْجَبَلِ الْمُطَّلَ عَلَى بَرَّةٍ فَيْرِي بِالسَّانِعِ، فَيْرَع بِهِ
 فَيْرِي بِتَلٍّ قَرِيَةِ الْكَتْنِيَّةِ، ثُمَّ يُرْفَع فِيهَا فَيْرِي بِالطَّرَةِ، ثُمَّ يَرْفَع فَيْرِي بِجَبَلِ أَرْبَدَ وَبِجَبَلِ
 عَجْلُونِ، ثُمَّ يُرْفَع بِهُمَا فَيْرِي بِجَبَلِ طَيِّبَةِ أَسَمِ، ثُمَّ يَرْفَع بِهَا فَيْرِي بِالْمُنَوَّرِ الْمَعْمُولِ بِأَزَاءِ
 الْبَرِّ الَّذِي بِرَأْسِ الْجَبَلِ الْمُتَحَدِّ إِلَى بَيْسَانَ الْمَعْرُوفِ بِعَقَبَةِ الْبَرِيدِ، لَا عُدُولَ بِطَرِيقِ
 الْبَرِيدِ الْآنَ عَنْهُ، وَيُرَى مِنْهُ أَطْرَافُ أَعْمَالِ تَابُلُسَ [نَحْوِ جِبَالِ أَزْبِقِ وَمَا حَوْلَهَا،
 وَيُرْفَعُ مِنْ هَذَا الْمُنَوَّرِ الَّذِي بِرَأْسِ عَقَبَةِ الْبَرِيدِ فَيْرِي بِالْجَبَلِ الْمَعْرُوفِ بِقَرِيَةِ جِينِينَ،
 ثُمَّ يُرْفَعُ مِنْهُ فَيْرِي بِجَبَلِ خَفْمَةِ، ثُمَّ يُرْفَعُ مِنْهُ فَيْرِي بِشَرْفَةِ قَاقُونِ، ثُمَّ يَرْفَعُ مِنْهُ فَيْرِي
 بِأَطْرَافِ أَعْمَالِ تَابُلُسَ^(١) وَيُرَى عَلَى قَصْدِ الطَّرِيقِ بِذُرُوءِ الْجَبَلِ الْمُصَاقِبِ بِجَبَلِ أَبَا،
 فَيْرَعُ مِنْهُ فَيْرِي بِمَرْكَزِ يَاسُورِ الْمَعْدُولِ بِالْبَرِيدِ الْآنَ عَنْهُ، ثُمَّ يُرْفَعُ مِنْهُ فَيْرِي بِالْجِبَالِ
 الْمِطْلَةِ عَلَى غَزَّةَ، فَيْرَعُ غَزَّةَ عَلَى أَعْلَى الْحَدَبِ الْمَعْرُوفِ بِحَدَبِ غَزَّةَ، ثُمَّ [لَا مُنَوَّرَ^(١)] لَا
 إِخْبَارَ بِشَأْنِ التَّنَارِ إِلَّا عَلَى الْحَتَّاجِ وَالْبَرِيدِ .

(١) الزيادة من التعريف (ص ٢٠٠ - ٢٠١) .

(٢) الذي في التعريف : وقد عدل الآن طريق الخ فنه .

قال : ثم أعلم أن جميع ما ذكرناه متناورٌ تشتعب إلى ما خرج عن جادة الطريق إلى البلاد الآخذة على جنب جنوبياً وشمالاً ، شرقاً وغرباً . أما منذ أصلح الله بين الفتيين ، وأمن جانب الجهتين ، فقد قلّ بذلك الاحتفال ، وصُرف عن البال . وهذه المتناور رؤسومٌ قد عفت ، وجسومٌ [أكلت شعلُ النار أرواحها^(١)] فانططت .

على أنه قد نصّ في "التعريف" على متناور طريق اليرة ، ومتناور طريق الرحبة ، وهما من قس المملكة .

قلت : وهذه المتناور مأخوذة من ملوك الهند . فقد رأيت في بعض الكتب أن بلادهم متناور على جبال مرتفعة ، ترى النار فيها على بُعد أكثر من هذه .

على أن مرتبتها بهذه المملكة أولاً أتى بحكمة ملوكية لا تساوى مقداراً ، إذ قد ترقى في سرعة بلوغ الأخبار إلى الغاية القصوى . وذلك أن البريد يأتي من سرعة الخبر بما لم يأت به غيره ، والحمائم تأتي من الخبر بما هو أسرع في البريد ، والمتناور تأتي من الخبر بما هو أسرع من الحمائم . ونأيهك أن يظهر عنوان الخبر في القرات بمصر في مسافة يوم وليلة .

الفصل الثاني

من الباب الرابع من الخاتمة في المحرقات

قال في "التعريف": وهي مواضع مما يلي بلادنا من حد الشرق داخلية في تلك المملكة (بمعنى مملكة بني هولاكو من التار) يُجهز إليها رجالٌ فُحِرْقُ زرعها، كأرض البُقعة والثَرثارِ والقينة، وباشنزة، والهُتَاخ، ومشهد ابن عُمر، والمُوَيْلِح، وبلادِ يِنَوِي من برّ الموصِل التي يقال، إن يُؤسّس عليه السلام بُعِثَ إلى أهلها، والوَادِي، والمِيدَان، والبَاب، والصَّوْمَعَة، والمرج المعروف ببني زَيْد، والمرج المُحترِق، ومنازل الأويرانية، وهي أطراف هذه المواضع إلى جَبَل الأكراد. وبلادِ سِنجَار - المنطق والمنظرة والمريدة، وتحت الجبال عند التُّيَلات، وكذلك التارات، وأعلى جَبَل سِنجَار وما والى ذلك.

وذلك أنه كان من عادة التَّارَاتهم لا يَكْلِفون عُلُوقَةَ خَيْلِهِمْ بل يَكُونُهَا إِلَى مَا تَنَبَّأَتْ الأرض، فإذا كانت تلك الأرض مُحْصَبَةً سَلَكُوهَا، وإذا كانت مُحْدَبَةً تَجَنَّبُوهَا، وكانت أرض هذه البلاد المتقدمة الذِّكْر أرضاً مُحْصَبَةً، تقومُ بِكَفَايَةِ خَيْلِ الْقَوْمِ إِذَا قَمَعُوا بِلَادَنَا، فإذا أَهْرَقُوا زَرْعَهَا وَنَبَاتَهَا ضَعُفُوا عَنْ قَصْدِ بِلَادِنَا وَحَصَلَ بِذَلِكَ جَمِيعُ الرِّقِّ، والدُّنْعُ عَنْ مَبَاغَةِ الْأَطْرَافِ وَمُهَاجَةِ الثُّغُورِ.

وكان طَرِيقُهُمْ فِي إِحْرَاقِهَا أَنْ يُجَهِّزُوا إِلَيْهِمُ الرِّجَالَ وَمَعَهُمُ الثَّعَالِبُ الْوَحْشِيَّةُ وَكِلَابُ الصَّيْدِ، فَيَكْنُتُونَ عِنْدَ أَمْنَاءِ النَّصَاحِ فِي كُهُوفِ الْجِبَالِ وَبُطُونِ الْأَوْدِيَةِ، وَيَرْتَقِبُونَ يَوْمًا تَكُونُ رِيحُهُ عَاصِفَةً وَهَوَاؤُهُ زَعَزَعٌ، تَعْلُقُ النَّارُ مُوثِقَةً فِي أَذْنَابِ تِلْكَ الثَّعَالِبِ وَالكِلَابِ، ثُمَّ تُطْلَقُ الثَّعَالِبُ، وَالكِلَابُ فِي أَثَرِهَا وَقَدْ جُوعَتْ، لِتَجِدَ

الغالب في العدو ، والكلاب في الطلب ، فتحرق ما مرّت به من الزرع والنبات ، وتعلق الريح النار منه فيما جاوره ، مع ما يلقيه الرجال بأيديهم في الليالي المظلمة ، وعشاء الأيام الممتمة . وكان يتفق في نظير هذا الإحراق من خزانة دمشق جمل من الأموال . قال : وكان الاهتمام بذلك في أول الأمر قبل أن يفتنوا بقصد التحريق ، ثم نبههم على ذلك أهل المداجاة ، فصاروا يربطون عليها الطرق ، ويمسكون منها بالأطراف ؛ وقتل عديد من الرجال بسببها ، وأحرقوهم بأشد من نارها .

وذكر أن مما كان يُحتَب تحريقه - أرض الحبال ، من حيث إنها بلاد بقية السلف الصالح من ذرية شيخ الإسلام الإمام الكبير العارف بالله «عبد القادر الجيلاني» المعروف بالكيلاني ، نفع الله تعالى بركانه ، لتعظيمهم من الجهتين ، مع ما لهم عند ملوكنا من المكانة العالية : لقديم سلفهم ، وصميم شرفهم ، وليا للإسلام وأهله من إسعافهم بما تصل إليه القدرة ويبلغه الإمكان .

قلت : وبتمام القول في هذا الطرف قد تم ما كنت أحوّله من التأليف ، وأهم به من الجمع ، وبالله التوفيق ، وإليه الرغبة ، وهو حسبي ونعم الوكيل .

وأعلم أن المصنفات تتفاوت في الخطوط إقبالا وإدبارا : فمن مرغوب فيه ، ومرغوب عنه ، ومتوسط بين ذلك . على أنه قل أن يتفق تأليف في حياة مؤلفه ، أو يروج تصنيف على القرب من زمان مصنفه .

قال المسعودي في كتابه «التنبيه والإشراف» وقد تشرّك الخواطر ، ونشئ الضمائر ، وربما كان الآخر أحسن تأليفا ، وأتم تصديفا ، لحكمة التجارب ، وخشية التبئع ، والاحتراس من موانع المضار . ومن هاهنا صارت العلوم نامية ، غير متناهية ، لوجود الآخر ما لا يحده الأول ، وذلك إلى غير غاية محصورة ، ولانهاية محدودة .

على أن من شيم كثير من الناس إطرأ المتقدمين، وتعتيم كتب السالفين،
ومدح الماضي، وذم الباقي؛ وإن كان في كتب المحسنين ما هو أعظم فائده،
وأكثر عائده .

ثم حكى عن الجاحظ - على جلاله قدره - أنه قال: كنت أولف الكتاب الكثير
المعاني، الحسن النظم، وأنسبه إلى نفسي، فلا أرى الأسماع تُصغي إليه،
ولا الإيرادات تقيم نحوه، ثم أولف ما هو أنقص منه رتبة، وأقل فائدة، وأنحله
عبد الله بن المقفع، أو سهل بن هرون، أو غيرهما من المتقدمين، ممن صارت
أسمائهم في المصنفين، فيقبلون على كتبها، ويسارعون إلى نسخها، لا لشيء
إلا ليشبها المتقدمين، ولما يداخل أهل هذا العصر من حسد من هو في عصرهم،
ومنافسته على المناقب التي عني بتشييدها .

قال: وهذه طائفة لا يعابها كبار الناس، وإنما العمل على أهل النظر والتأمل
الذين أعطوا كل شيء حقه من القول، ووفوه قسطه من الحق؛ فلم يرفعوا المتقدم
إذا كان ناقصاً، ولم ينقصوا المتأخر إذا كان زائداً؛ فليمثل هؤلاء تُصنف العلوم،
وتُدون الكتب .

وإذا كان هذا نقل المسعودي عن الجاحظ الذي هو رأس المصنفين، وعين
أعيانهم، فما ظنك بغيره؟ .

لكني أحمد الله تعالى على رواج سوق تأليفي، ونفاق سلعته، والمسارة إلى
استيكاكه قبل انقضاء تأليفه، حتى إن قلبي التأليف والنسخ يتسابقان في ميدان
الطرس إلى آكثابه، ومترقب تجارته للاستسناخ يساهيهما في ارتقائه . فضلاً من
الله ونعمة، (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) .

قال المؤلف : تَجَزَّتْ تَأْلِيفُهُ فِي الْيَوْمِ الْمُبَارَكِ ، يَوْمِ الْجُمُعَةِ الثَّامِنِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ شَوَّالٍ ، سَنَةِ أَرْبَعِ عَشْرَةٍ وَثَمَانِمِائَةٍ .

وَتَجَزَّتْ هَذِهِ النُّسْخَةُ فِي يَوْمِ السَّبْتِ الْمُبَارَكِ التَّاسِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ صَفَرِ الْخَلْعِ ، سَنَةِ تِسْعِ وَثَمَانِينَ وَثَمَانِمِائَةٍ .

فَرَّغَ مِنْهُ كِتَابَهُ وَسَيِّئَ قَبْلَهُ ، فَقَدِيرُ رَحْمَةِ رَبِّهِ الْغَنِيِّ الْفَاتِحِ ، عَبْدُ الرَّزَّاقِ بْنُ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ أَبُو مُحَمَّدٍ النَّاسِخِ الشَّافِعِيُّ ، نَزِيلُ الصَّالِحِيَّةِ النَّجْمِيَّةِ الْمَعْرُوفَةِ بِالسَّادَةِ الْحَنَائِلَةِ ، بِخَطِّ بَيْنِ الْقَصْرَيْنِ : غَفَرَ اللَّهُ ذُنُوبَهُ ، وَسَرَّ عُيُوبَهُ ، وَخَتَمَ لَهُ وَلِلْمُسْلِمِينَ بِخَيْرٍ ، آمِينَ

وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ
وَسَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ : سُبْحَانَ رَبِّكَ
رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

فهرس

الجزء الرابع عشر

من كتاب صبح الأعشى للقلقشندي

صفحة

- الباب الرابع — من المقالة التاسعة في الهدن الواقعة بين ملوك
الإسلام وملوك الكفر، وفيه فصلان ... ٢
- الفصل الأول — في أصول تعيين على الكاتب معرفتها ،
وفيه ثلاثة أطراف ... ٢
- الطرف الأول — في بيان رتبها ومعناها وذكر ما يرادفها
من الألفاظ ... ٢
- » الثاني — في أصل وضعها ... ٤
- » الثالث — فيما يجب على الكاتب مراعاته في كتابة الهدن ،
وفيه نوعان ... ٧
- النوع الأول — ما يختص بكتابة الهدنة بين أهل الإسلام
وأهل الكفر ... ٧
- » الثاني — ما تشترك فيه الهدن الواقعة بين أهل الكفر
والإسلام وعقود الصلح الجارية بين زعماء
المسلمين، وهي ضربان ... ٩
- الضرب الأول — الشروط العادية التي جرت العادة أن يقع الاتفاق
عليها بين الملوك في كتابة الهدن خلا ما تقدم ... ٩
- الضرب الثاني — مما يلزم الكاتب في كتابة الهدنة — تحرير
أوضاعها، وترتيب قوانينها ، وإحكام معاقدها ١١
- الفصل الثاني — في صورة ما يكتب في المهادنات والسجلات ،
ومذاهب الكتاب في ذلك، وفيه طرفان ... ١٦
- الطرف الأول — فيما يستبد ملوك الإسلام فيه بالكتابة عنهم ،
وتخلد منه نسخ بالأبواب السلطانية، وتُدفع
منه نسخ إلى ملوك الكفر، وذلك على نمطين ... ١٦

صفحة

- النمط الأول — ما يكتب في طرة الهدنة من أعلى الدرج ... ١٦
- » الثاني — ما يكتب في متن الهدنة، وهو على نوعين ... ١٧
- النوع الأول — ما تكون الهدنة فيه من جانب واحد،
وفيه مذهبان ... ١٧
- المذهب الأول — أن تفتح الهدنة بلفظ: «هذا ما هادن عليه» الخ ١٧
- » الثاني — أن تفتح المهادنة قبل لفظ: «هذا» ببعدية ... ٢٦
- النوع الثاني — من الهدن الواقعة بين ملك مسلم وملك كافر—
أن تكون الهدنة من الجانبين جميعا، وفيها للكتاب
ثلاثة مذاهب ... ٢٩
- المذهب الأول — أن تفتح الهدنة بلفظ: «هذه هدنة»
ونحو ذلك ... ٢٩
- الثاني — أن تفتح الهدنة بلفظ: «استقرت الهدنة بين
فلان وفلان» الخ ... ٣١
- » الثالث — أن تفتح المهادنة بخطبة مبتدأة بـ«الحمد لله» ٧١
- الطرف الثاني — فيما يشارك فيه ملوك الكفر ملوك الإسلام
في كتابة نسخ من دواوينهم ... ٧٢
- الباب الخامس — من المقالة التاسعة في عقود الصلح الواقعة بين
ملكين مسلمين، وفيه فصلان ... ٧٩
- الفصل الأول — في أصول تعتمد في ذلك ... ٧٩
- » الثاني — فيما جرت العادة بكتابته بين الخلفاء وملوك
المسلمين على تعاقب الدول، مما يكتب في الطرة
والمتن، وفيه نوتان ... ٨٤

منقحة

النوع الأول — ما يكون العقد فيه من الجانبين ٨٤

» الثاني — ما يكون العقد فيه من جانب واحد ،

وفيه مذهبان ٩٧

المذهب الأول — أن يفتح عقد الصلح بلفظ : « هذا » ٩٧

» الثاني — أن يفتح عقد الصلح بخطبة مفتوحة بـ « الحمد لله »

وربما كرر فيها التحييد ١٠٠

الباب السادس — من المقالة التاسعة في القسوخ الواردة على العقود

السابقة ، وفيه فصلان ١٠٨

الفصل الأول — الفسخ ، وهو ما وقع من أحد الجانبين دون

الآخر ١٠٨

» الثاني — المفاسخة ، وهي ما تكون من الجانبين جميعا ... ١٠٩

المقالة العاشرة

في فنون من الكتابة يتداولها الكتّاب ويتنافس في عملها ليس لها تعلق

بكتابة الدواوين السلطانية ولا غيرها ، وفيها بابان ١١٠

الباب الأول — في الحديّات ، وفيه خمسة فصول (الصواب : ستة

فصول) ١١٠

الفصل الأول — في المقامات ١١٠

» الثاني — في الرسائل ، وهي على أصناف ١٣٨

الصنف الأول — الرسائل المملوكية ، وهي على ضربين ١٣٩

الضرب الأول — رسائل الغزو ، وهي أعظمها وأجلّها ١٣٩

» الثاني — « الصيّد ١٦٥

الصنف الثاني — من الرسائل — ما يرد منها مورد المدح والتقرّض ١٧٢

صفحة

- الصف الثالث - من الرسائل - المفاحرات ... ٢٠٤
- » الرابع - » » الأسئلة والأجوبة ... ٢٤٠
- » الخامس - » » ما تكتب به الحوادث والمآثر ... ٢٥١
- الفصل الثالث - من الباب الأول من المقالة العاشرة ،
- في قدمات البندق ... ٢٨٢
- » الرابع - من الباب الأول من المقالة العاشرة ،
- في الصدقات ، وفيه طرفان ... ٣٠٠
- الطرف الأول - في الصدقات المملوكة وما في معناها ... ٣٠٠
- » الثاني - في صدقات الرؤساء والأعيان وأولادهم ... ٣١١
- الفصل الخامس - من الباب الأول من المقالة العاشرة فيما يكتب
- عن العلماء وأهل الأدب ، مما جرت العادة
- بمراعاة النثر المسجوع فيه ، ومحاوله الفصاحة
- وبالبلافة ، وفيه طرفان ... ٣٢٢
- الطرف الأول - فيما يكتب عن العلماء وأهل الأدب ،
- وهو على صنفين ... ٣٢٢
- الصف الأول - الإجازات بالفتيا والتدريس والرواية وعروضات
- الكتب ، ونحوها ... ٣٢٢
- » الثاني - التقریضات التي تكتب على المصنفات المصنفة
- والقصائد المنظومة ... ٣٣٥
- الطرف الثاني - فيما يكتب عن القضاة ، وهو على أربعة
- أصناف ... ٣٤٠
- الصف الأول - التقاليد الحكيمة ... ٣٤٠
- » الثاني - إسمجالات العدالة ... ٣٤٦

صفحة

الصفحة الثالث - الكتب إلى الثواب وما في معناها ... ٣٥٠

» الرابع - ما يكتب في افتتاح الكتب ... ٣٥٣

الفصل السادس - في العمرات التي تكتب للحاج ... ٣٥٥

الباب الثاني - من المقالة العاشرة في الهزليات ... ٣٦٠

الخاتمة

في ذكر أمور تتعلق بديوان الإنشاء غير أمور الكتابة، وفيها أربعة أبواب ... ٣٦٦

الباب الأول - في الكلام على البريد، وفيه فصلان ... ٣٦٦

الفصل الأول - في مقدمات يحتاج الكاتب إلى معرفتها، ويتعلق

الغرض من ذلك بثلاثة أمور ... ٣٦٦

الأمر الأول - معرفة معنى لفظ البريد لغة وأصطلاحاً ... ٣٦٦

» الثاني - أول من وضع البريد وما آل إليه أمره إلى الآن ... ٣٦٧

» الثالث - بيان معالم البريد ... ٣٧١

الفصل الثاني - من الباب الأول من الخاتمة في ذكر مراكز

البريد، ويشتمل على ستة مقاصد ... ٣٧٢

المقصد الأول - في مركز قلعة الجبل المحروسة بالديار المصرية التي

هي قاعدة الملك، وما يتفرع عنه من المراكز،

وما تنبئ إليه مراكز كل جهة ... ٣٧٣

» الثاني - في مراكز غزّة، وما يتفرع عنها من البلاد الشامية ... ٣٧٩

» الثالث - في ذكر مركز دمشق وما يتفرع عنه من المراكز ... ٣٨١

» الرابع - في مركز حلب، وما يتفرع عنه من المراكز ... ٣٨٣

» الخامس - في مركز طرابلس، وما يتفرع عنه من المراكز ... ٣٨٥

» السادس - في معرفة مراحل الحجاز الموصلة إلى مكة

المشرفة والمدينة المنورة ... ٣٨٥

صفحة

الباب الثانى — من الخاتمة فى مطارات الحمام الرسائلى، وذكر أبراجها المقررة بطرق الديار المصرية والبلاد الشامية، وفيه فصلان ٣٨٩
الفصل الأول — فى مطاراته ٣٨٩
» الثانى — فى أبراج الحمام المقررة لاطارتها بالديار المصرية، والبلاد الشامية ٣٩٢
الباب الثالث — من الخاتمة فى ذكر هجن الثلج، والمراكب المعتدة لحمل الثلج الذى يحمل من الشام إلى الأبواب السلطانية بالديار المصرية، وفيه ثلاثة فصول ٣٩٥
الفصل الأول — فى نقل للثلج ٣٩٥
» الثانى — فى المراكب المعتدة لنقل الثلج من الشام ... ٣٩٦
» الثالث — فى الهجن المعتدة لنقل ذلك ٣٩٦
الباب الرابع — من الخاتمة فى المناور والمحرقات، وفيه فصلان ٣٩٨
الفصل الأول — فى المناور ٣٩٨
» الثانى — فى المحرقات ٤٠١

(تم فهرس الجزء الرابع عشر من كتاب صبح الأعشى)

كلمة

في التعريف بكتاب صبح الأعشى
وترجمة مؤلفه

بقلم

حضرة الأستاذ الشيخ محمد عبد الرسول

رئيس التصحيح العربي بالقسم الأدبي

بالمطبعة الأميرية

كلمة

في التعريف بكتاب صبح الأعشى

وترجمة مؤلفه

بسم الله الرحمن الرحيم

يُحَمِّدُ اللهُ تَعَالَى عَلَى مَا مَنَحَ مِنَ الْإِعَانَةِ وَوَهَبَ مِنَ التَّيْسِيرِ، وَشَكَرَهُ عَلَى مَا أَوْفَى
مِنَ التَّوْفِيقِ فَهُوَ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ، وَنُصِّلَ وَسَلِّمْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صُبْحَ الْهِدَايَةِ
وَسَهَابِهَا السَّاطِعِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ النُّجُومِ الثَّوَابِتِ وَالْبُدُورِ الطَّوَالِغِ .

وبعدُ ، فَإِنَّ الْأَثَمَ مَا نَارَهَا ، وَالشُّعُوبَ بِسَيْرِهَا وَأَخْبَارَهَا ؛ وَمِنَ أَعْظَمِ الْأَثَارِ
قِيَمَهُ ، وَأَغْزَرَهَا دِيَمَهُ ؛ مَا تُعْرِفُ بِوَاسِطَتِهِ نَتَائِجَ أَفْكَارِ الْقَادَةِ الْعُلَمَاءِ ، وَتَبَيَّنَ بِهِ
قِرَائِحُ الْجَهَادَةِ الْحُكْمَاءِ .

وَلَمْ تَزَلِ الْأَثَمُ الرَّائِيَةُ فِي سَالِفِ الدُّهُورِ إِلَى وَقْتِنَا الْحَاضِرِ تُعْنِي بِشَأْنِ عِلْمَانِهَا :
عَلَى اخْتِلَافِ مَذَاهِبِهِمْ ، وَتَبَايُنِ مَذَارِيهِمْ ؛ وَتَحِلُّهُمْ مِنَ الْكَرَامَةِ وَالْإِجْلَالِ أَعْلَى
الدَّرَجَاتِ ، وَتَرْجِعُ فِي أَمْرِ مَعَانِيهَا وَمَعَادِيهَا إِلَى آرَائِهِمُ السَّيِّدَةِ ، وَأَفْكَارِهِمُ الرَّشِيدَةِ ؛
وَتَعْمَلُ بِكُلِّ جُهْدِهَا فِي إِنْشَاءِ دُورِ الْكُتُبِ وَتَنْشِيدِهَا ، وَالْمُبَالَغَةِ فِي تَنْسِيقِهَا وَتَرْتِيبِهَا :
لِتَحْفَظَ فِيهَا دِفَائِرُهُمْ وَطَوَائِرُهُمْ الَّتِي أَوْدَعُوهَا ثَمَرَةَ أَفْكَارِهِمْ ، وَنَتِيجَةَ بَحْثِهِمْ .

وَلَقَدْ أَخَذَتْ مِصْرُنَا الْغَزِيرَةَ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ مُسَابِقُ «الْبَصْرَةِ وَالْكُوفَةِ» فِي هَذَا
الْمَيْدَانِ الْعَظِيمِ ، مَيْدَانِ التَّقَدُّمِ وَالْإِرْتِقَاءِ .

وسارت من بعدهما تهاصص « بغداد » دار السلام، ومركز الخلافة العباسية
 وكعبة العالم، وقبلة الآداب - مع ما كان يبذله الخلفاء لعلماؤها من أنواع التحف،
 وبفرغونه عليهم من بدر الأموال : حبا في نشر العلم وبلوغه إلى درجة الكمال .

ولم تكن في ذلك أقل حظا من الأندلس : جنة العالم وزينة الدنيا، حتى في أعظم
 عصورها الذهبية الملوثة بالمعالي والمفانير، يوم كانت تنشر على العالم أروية الحضارة،
 وتتلو عليه آيات بينات من الهدى والفرقان .



وفتحت مضر ذراعيها : مرحبة بكل وافد عليها من أهل العلم والآدب ،
 خصوصا بعد أن طوّحت يد الردى بمُدن العراق وحواضر الأندلس، ودارت عليها
 الدواير، وذهب كل ما كان لها من آثار العلم وأعمال المجتد والحضارة . فوجدت
 علماؤها على هذا البلد الأمين وجدوا فيه ضالتهم المنشودة وأمنيتهم الكبرى .

فأصبحت ميّداً واسعاً يتسابق فيه طلاب العلوم والمعارف، ومورداً عذبا يزدهم
 عليه عشاق الآداب ومحبو الحكمة، وجنة زاخرة بأكار العلماء ونوايغ الحكماء .

وأصبح ملوكها وأمرؤها ينظرون إلى العلم والعلماء بعين ملوثة الإعظام
 والإجلال ، وأخذوا يساعدهم ، ويأثرون في إكرامهم وإدراج التعم عليهم ،
 ويسجعونهم على الإكثار من التأليف والتصنيف في العلوم المختلفة . وصاروا
 لا يؤسسون مسجدا للصلاة ، ولا يبنون مدرسة أو معهدا من معاهد العلم إلا
 ويسيدون في داخله خزانة كتب جامعة ، يودعونها الكثير من نفائس الأسفار
 والمصنفات في كل فن ومطلب : ميلا منهم إلى نشر المعارف ، ورغبة في تخليد
 الذكرو بحبل الأثر .

وقد كان لخلفائها الفاطميين خزانه كُتُب كُبرى ، كانت من أجل الخزانين
وأعظمها شأنًا عندهم ، وأكثرها جمعًا للكتب النفيسة من جميع العلوم والفنون .
يقال : إنه لم يكن في جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من التي كانت بالقاهرة
في قصر الخلفاء الفاطميين .



ولم تزل الأمة المصرية الكريمة سائرة على هذا المنهج القويم : ترد مناهل العلم
العذبة ، وتتعدى بالبناء الطيبة - حتى أصابها ما أصاب غيرها من الأيم الإسلامية ،
فتفرقت شيعًا وأحزابًا ، وأنصرفت عن الشؤون العامة ، وصار كل واحد لاهيًا
بذاته لا يشعر إلا بنفسه التي بين جنبيه .

قلل الاحتفال بالعلم وأهمله ، وأهملت العناية بدور الكتب وخزائن الأسفار
على كثرتها ، وأمنتت إليها يد الخيانة تعبت بنفائسها أني شامت بدون محاسن
أورقيب . وأستولى المغيرون على الديار المصرية على أنفيس ما كان مودعًا فيها من
الكتب والآثار ، ونقلوا منه إلى بلادهم وممالكهم ما شاء الله أن ينقلوا .

وهامى اليوم تنادى أهل مصر من وراء البحار ، وتناجيهم بما كان لسلفهم
الناهض من آثار العمل ودلائل النبوغ .

وما بقي في تلك الدور والخزائن ، مما زهدت فيه نفوس الطامعين - صار رهنًا طليها ،
لاحق عليه الأبصار ، ولا يمر بفكر : كأنه كثر مدفون لم يمتد إليه بعد ، أو يحين حكم
عليه بالسجن الأبدي لا يجد لنفسه خلاصا .



تلك كانت حالة مِصر حيناً من الدهر كادت تذهب بكل ما بنى أهلها في الزمن
السابق من مجدٍ وأسُسوا من قُوَّة - لولا أن الله تعالى أراد بها خيراً ،
فجلس على أريكته ذلك المصلح الكبير، والعصامي الشهير، مؤسس «مِصر الحديثة»
ساكن الحنان "محمد علي باشا" رأس العائلة العلوية الكريمة .

فإنه - نَوَّرَ اللهُ ضَرِيحَهُ - أعاد لهذه الأمة سالف مجدها، ونَبَّهَ الأفكار بعد
طول رقادها، ونَشَرَ العلومَ والمعارِفَ بين أبنائها، وأرسلَ العِنايتَ العِلمِيَّةَ إلى
أشهر الجامعات بأوروبا : لِيَتَعَلَّمُوا أساليبَ التَّعليمِ الحديثة، ويهودوا إلى مصر
بُفُونٍ من التَّربِيَةِ والتَّهْذِيبِ تدعو إليها سُنَّةُ التَّقدم والارتقاء .

وقَرَّبَ إليه العلماءَ والأدباءَ ، وتَجَمَّعَهم على التَّأليفِ والتَّصنيفِ . ووصَلَ
الليلُ بالنَّهار في سَبِيلِ إنْهائِها وإسعادِها، وأسَّسَ المَدَارِسَ ، وشاد دور الصناعات
والمعامل في حواضر هذا القطر السعيد .

وَأَنْشَأَ "المطبعة الأميرية الكبرى" ، وجَهَّزها بكل ما يلزم لها من
الآلات والعُدَد ، حتَّى صارت من أرقى دُورِ الطَّباعة في الشَّرق ، وأَخَّسار
لها نوايغ العلماءِ وأساطين الكُتَّاب : ليقوموا بتَصْحيح ما يُطْبَع فيها . وإليها يرجع
الفضل الأكبر في تَقْوِيَةِ النُّهْضَةِ العِلْمِيَّةِ في مِصر وغيرها من البلاد ، ونَشْرِ العلوم
والآداب العربيَّة في جميع أنحاء العالم .



وجاء من بعده حفيده أبو الأشبال، المغفور له "إسماعيل باشا" خديو مصر، نائناً "دار الكتب" بالقاهرة، وجمع فيها ما بقي من الكتب في خزائنها المتفرقة في الدور والمساجد . وأخذ الأمراء وغيرهم من كبار الأئمة يتبرعون لها بما في دور كتبهم وخزائنها من نفائس المصنفات .

وأهتم بها بعده ولده طيب الذكر "محمد توفيق باشا" خديو مصر فوقف عليها ألفاً ونمائاة فدان من أجود أراضي القطر الزراعية ، وجعلها إدارة مستقلة بعد أن كانت عالة على إدارة المكاتب، يُنفق عليها من الأوقاف المحبسة عليها .

وأمتلأت خزائنها بنفائس الأسفار وجلاتل المؤلفات، من مصر وغيرها من سائر الممالك، بما كان يُنفق عن سعة وكرم نفيس في سبيل الحصول عليها .

وبها معرض كبير حوى كثيراً من المصاحف الشريفة والآثار النفيسة، والمؤلفات القديمة، والمخطوطات العربية والنقود القديمة في كل دولة من الدول الإسلامية . وهي على أهل هذا القطر السعيد حسنة من أعظم الحسنات، وأثر خالده من الآثار الباقيات؛ ولها على العلم وأهله الأبدى التي لا تُشكر، والمفاخر التي تُذكر فتشكر؛ فقد أعلت لتردين إليها قاعة كبرى للمطالعة، وجهزتها بكل ما يلزم لراحتهم وتسهيل أعمالهم - فأقبل عليها الطلاب والعلماء، والكتّاب والشعراء، والمنجمون والحكماء وغيرهم : يردون نبيها، ويؤلّون وجوههم شطرها : على اختلاف لغاتهم، وتباين أجناسهم وطبقاتهم .

ولما أشرف عليها حضرة صاحب السعادة "أحمد حشمت باشا" وزير المعارف الأسبق وجهه - حفظه الله - عنايته إلى تنظيمها تنظيمًا يكفل لها التقدم في طريق الإصلاح اللائق بمكاتها : لتأتي بالثمرة المطلوبة منها ، وتقوم بالخدمة الواجبة عليها : وذلك بنشر العلوم والمعارف بين طبقات الأمة ، وطبع الآداب العربية وإذاعتها بين أبنائها .

فأختار طائفة مما فيها من نفائس الأسفار ونوايد المؤلفات ، وخصوصًا المؤلفات المصرية ، وأمر بأن تُطبع في «القسم الأدبي» بالمطبعة الأميرية ، فتشرق أنوارها على طلاب العلم والحكمة ، ويعم النفع بها من قرب ومن بُعد ، ضئلاً بها أن تبقى مقصورة على قاعات المطالعة وغرفها ، لا يتفجع بها غير فريق من المقيمين في مدينة القاهرة .

فكان أجل كتاب ظهر من هذه الكتب في سماء الآداب العربية ، كتاب :

"صبح الأعشى في كتابة الإنشا"

(للقلقشندي)

التعريف بهذا الكتاب

مهما أطلَّ الكاتب في وصف هذا الكتاب ، وجَوَّد فكره ، وأجهد قلبه في التعريف به وبقيمته العلمية والأدبية - فإنه لا يبلغ تعدداً ما أودع فيه من القوائد ، وأنطوى تحته من الدقائق .

فهو كتابٌ جليلُ القدر ، عظيمُ النفع ، كبيرُ الفائدة ، لم يُنسَجْ على منواله في عالم التأليف في فنون الأدب والكتابة . ولا تُعدُّ مبالين إذا قلنا : إنه أنفُسُ كتاب أُلِّف في اللغة العربية وتاريخ آدابها .

كتابٌ بين لنا فيه الفَلَقَشْنِدِيُّ مؤلفه - رحمه الله - حالة اللغة العربية الشريفة ، وكيف كانت في العصور الأولى قبل الإسلام ، إلى أن وصلت إلى ما وصلت إليه من الانتشار بعد أن صارت لغة القرآن الكريم ، لغة الشريعة الإسلامية السمعة والدين الحنيف ، تبعاً لانتشارهما في أكثر أنحاء الكرة الأرضية : في بلاد فارس وما وراء النهر ، في بلاد الروم ، في البلاد المصرية (وقاها الله) في بلاد أفريقيا والمغرب الأقصى ، في بلاد الأندلس ، في بلاد الهند ، في بلاد الصين ، في بلاد كثيرة من أوروبا .

كتابٌ بين لنا فيه مؤلفه كيف زهت هذه اللغة الشريفة في عصور الخلفاء : من بني أمية وبني العباس ، وغزرت مادتها ، واتسع نطاقها ، ودنا قطاعها : فصارت لغة العلم والحكمة ، لغة الأدب والشعر ، لغة القضاء والأحكام ، لغة الجدل والمناظرة . كما صارت لغة التأليف والتصنيف : في أحكام الدين ، وتهذيب النفوس ، وتنقيف العقوب ، ونظام الملوك والممالك ، وسياسة الأمم والشعوب . وعلوم الفلسفة ، والرياضة ، والتجوم ، والطب ، والكيمياء ، وما أشبهها .

كِتَابُ بَيْنَ لَنَا فِيهِ مُؤَلَّفَةُ الْكِتَابَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي الْبِلَادِ وَالْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَمَا بَلَفَتْهُ
 مِنْ دَرَجَاتِ الرَّفْعَةِ وَالْاِكْرْتَاءِ ، ثُمَّ مَا آلَتْ إِلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ الضَّعْفِ وَالْوَهْنِ ، تَبَعًا
 لَضَعْفِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ : بِاسْتِثْلَاءِ الْمُغْيِرِينَ عَلَى بِلَادِ الْخُلَفَاءِ وَمَمَالِكِهِمْ ، مِمَّنْ لَيْسُوا
 مِنْ أَهْلِهَا فِي اللُّغَةِ ، أَوْ فِي الثَّقَاةِ وَالْدِينِ . كَمَا بَيَّنَّ لَنَا طَبَقَاتِ الْكُتَّابِ وَأَهْلُ الْأَدَبِ ،
 وَمَا كَانَ لَهُمْ عِنْدَ الْمُلُوكِ مِنَ الرَّعَايَةِ وَعَظِيمِ الْأَحْتِرَامِ .

كِتَابُ بَيْنَ لَنَا فِيهِ مُؤَلَّفَةُ الْخِلَافَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَشُرُوطُهَا وَرُسُومُهَا ، وَمَنْ وَلِيَهَا :
 مِنَ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ وَمَرَاكِزِ وَلَايَاتِهِمْ ، وَخُلَفَاءِ بَنِي أُمَيَّةِ الشَّامِ وَالْأَنْدَلُسِ ، وَخُلَفَاءِ
 بَنِي الْعَبَّاسِ بَغْدَادَ وَمِصْرَ ، وَخُلَفَاءِ الْفَاطِمِيِّينَ بِالْأَنْدَلُسِ وَالْمَغْرِبِ ، وَمُدْعَى الْخِلَافَةِ
 مِنْ بَقَايَا الْمُوَحِّدِينَ بِأَفْرِيقِيَّةِ .

كِتَابُ بَيْنَ لَنَا فِيهِ مُؤَلَّفَةُ الْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ، وَمَا بَلَفَتْهُ مِنْ
 دَرَجَاتِ التَّجْدِ وَالْخُصَارَةِ ، وَحُدُودِهَا ، وَأَنْظِمَتِهَا ، وَرُسُومُهَا ، وَمَا أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ
 مِنَ الْفَضَائِلِ وَالْمَحَاسِنِ ، وَالْخَوَاصِّ وَالْعَجَائِبِ ، وَمَا بَهَا مِنَ الْأَنْوَارِ الْقَدِيمَةِ ، وَمَنْ وَلِيَهَا
 مِنَ الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ جَاهِلِيَّةً وَإِسْلَامًا .

كِتَابُ بَيْنَ لَنَا فِيهِ مُؤَلَّفُهُ - وَهُوَ هُوَ ذَلِكَ الْمَصْرِيُّ الصَّغِيرُ ، الَّذِي أَقْلَتْهُ أَرْضُ
 مِصْرَ ، وَأَظْلَمَتْ سَمَاءُهَا ، وَتَرَبَّحَتْ حَتَّى رَوَى مِنْ نَيْلِهَا - الْبِلَادَ الْمِصْرِيَّةَ ، وَفَضَائِلَهَا
 وَمَحَاسِنَهَا ، وَخَوَاصِّهَا وَعَجَائِبَهَا ، وَمَا فِيهَا مِنَ الْأَنْوَارِ الْقَدِيمَةِ . وَبَيْنَ نَهْرِ النَّيْلِ وَمَنْبَعِهِ
 وَمَصْبِيهِ ، وَزِيَادَتِهِ وَنَقْصِهِ ، وَمَقَائِيْسُهُ ، وَمَا يَنْتَهِي إِلَيْهِ فِي الزِّيَادَةِ ، وَمَا يَصِلُ إِلَيْهِ
 فِي النُّقْصَانِ ، وَخُلُجَانِهِ الْمُتَفَرِّعَةِ عَنْهُ ، وَجُسُورِهِ الْحَاسَةِ لِمَا بَيْنَهُ . وَبَيْنَ بُحَيْرَاتِهَا ،
 وَجِبَالِهَا ، وَزُرُوعِهَا ، وَرِيَاحِينِهَا ، وَنَوَاحِيهَا ، وَمَوَاشِيهَا ، وَوُحُوشِهَا ، وَطُيُورِهَا .
 وَبَيْنَ حُدُودِهَا ، وَابْتِدَاءِ عِمَارَتِهَا ، وَسَبَبِ تَسْمِيَّتِهَا بِمِصْرَ ، وَتَفَرُّعِ الْأَقَالِيمِ الَّتِي حَوْلَهَا

عنها . وَيَنْ أَعْمَالَهَا وَقَوَاعِدَهَا الْقَدِيمَةَ ، وَمَبَانِيهَا الْعَظِيمَةَ الْبَاقِيَةَ عَلَى مُرُورِ الْأَزْمَانِ .
وَيَنْ قَوَاعِدَهَا الْحَدِيثَةَ وَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنْ تَحْسِينِ الْأَبْنَسَةِ . وَيَنْ مِنْ وَلِيَّهَا مِنَ
الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَبَعْدَهُ . وَيَنْ تَرْتِيبَ أَحْوَالِهَا ، وَمُعَامَلَاتِهَا ،
وَتَقْوَدِهَا ، وَتَرْتِيبَ مَمْلَكَتِهَا ، وَوُظَائِفَ دَوْلِهَا الْقَدِيمَةِ وَالْحَدِيثَةِ .

كِتَابُ دُونَ فِيهِ مَوْلُفُهُ عَدَّةٌ كُتِبَ أَدَبِيَّةً نَفِيسَةً بِجَمَاهَا ، وَجَمَعَ فِيهِ كَثِيرًا مِمَّا تَفَرَّقَ
فِي غَيْرِهِ مِنَ الْمُؤَلَّفَاتِ .

وَرَتَّبَهُ عَلَى مُقَدِّمَةٍ وَعَشْرٍ مَقَالَاتٍ وَخَاتِمَةٍ ، بَنَاهَا بِالْإِجْمَالِ عَلَى التَّعْرِيفِ بِمَحِقَّةِ
دِيَوَانِ الْإِنْسَاءِ وَأَصْلِ وَضْعِهِ فِي الْإِسْلَامِ ، وَتَفَرَّقَهُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْمَالِكِ ، وَبَيَانَ كِتَابَةِ
الْإِنْسَاءِ وَتَفْضِيلِهَا عَلَى سَائِرِ أَنْوَاعِ الْكِتَابَةِ ، وَصِفَاتِ الْكُتَّابِ وَأَدَابِهِمْ ، وَمَنْحَجِ
فُضْلَائِهِمْ وَذَمِّ حَقَائِمِهِمْ .

وَمَعْرِفَةِ كُلِّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ كَاتِبُ الْإِنْسَاءِ فِي الْأُمُورِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ : كَمَعْرِفَةِ الْمَوَادِّ
الْأَلَزِمَةِ لِلنِّشْئِ : مِنَ الْخَطِّ وَتَوَائِيغِهِ وَلَوَاحِقِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ .

وَمَعْرِفَةِ الْمَسَالِكِ وَالْمَمَالِكِ (عِلْمُ تَقْوِيمِ الْبُلْدَانِ) : كَمَعْرِفَةِ شَكْلِ الْأَرْضِ وَإِحَاطَةِ
الْبَحْرِ بِهَا ، وَبَيَانِ جِهَاتِهَا الْأَرْبَعِ وَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْأَقَالِيمِ السَّبْعَةِ الطَّبِيعِيَّةِ ،
وَبَيَانِ مَوَاقِعِ الْأَقَالِيمِ الْعُرْفِيَّةِ مِنْهَا ، وَذِكْرَ حُدُودِهَا الْجَامِعَةِ لَهَا ، وَمَا فِيهَا مِنَ الْجِبَالِ
وَالْبَحَارِ وَالْأَنْهَارِ ، وَالْأَقَالِيمِ وَالْمَمَالِكِ وَالْبُلْدَانِ ، وَمُلُوكِهَا فِي الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ
وَمَا يَتَّبِعُ ذَلِكَ .

وَمَعْرِفَةِ الْأُمُورِ الَّتِي تَشْتَرِكُ فِيهَا أَنْوَاعُ الْمَكْتَابَاتِ وَالْوِلَايَاتِ وَغَيْرِهَا : مِنْ ذِكْرِ
الْأَسْمَاءِ وَالْكُنَى وَمَوَاضِعِ ذِكْرِهَا فِي الْمَكْتَابَاتِ ، وَذِكْرِ الْأَقْنَابِ وَأَصْلِ وَضْعِهَا ،
وَمَا كَانَ يُقَالُ بِهِ أَهْلُ كُلِّ دَوْلَةٍ إِلَى زَمَنِهِ ، وَتَقْيِيقَةِ تَوْزِيعِ الْأَعْمَالِ عَلَى كُتَّابِ

الإِنشاء ، ومَقَادِيرِ قَطْعِ الْوَرَقِ وما يناسبها من الأَقلام ، وغير ذلك من قَوَائِنِ
الْكُتَابَةِ وَأَنْظَمَتَهَا .

ومعرفة المَكْتَابَاتِ الْعَامَّةِ وَأَصُولِهَا وَمَقَاصِدِهَا ، فِي الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ ، وَمُصْطَلَحِ
المَكْتَابَاتِ الدَّائِرَةِ بَيْنَ كُتَّابِ الْإِسْلَامِ ، وَكُتُبِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) إِلَى أَهْلِ
الْإِسْلَامِ وَغَيْرِهِمْ ، وَالْكُتُبِ الصَّادِرَةِ عَنِ الصَّعْبَةِ وَالْخُلَفَاءِ وَالْمُلُوكِ وَمَنْ فِي مَعْنَاهُمْ ،
وَبَيَانِ مَذَاهِبِ الْكُتَّابِ فِيمَا تَفْتَتِحُ بِهِ الْمَكْتَابَاتُ ، وَمَا يُحَاطَبُ بِهِ أَهْلُ الْإِسْلَامِ
وغيرهم فيها ، وغير ذلك .

ومعرفة الْوِلَايَاتِ وَطَبَقَاتِهَا ، وَمَا يَتَّبِعُهَا مِنَ الْبَيْعَاتِ وَالْمُؤُودِ ، وَمَعْنَاهَا ، وَالْوِلَايَاتِ
الصَّادِرَةِ لِأَرْبَابِ الْمَنَاصِبِ : مِنْ أَصْحَابِ السُّيُوفِ وَالْأَقْلَامِ وَغَيْرِهِمْ .

ومعرفة الْوَصَايَا الدِّينِيَّةِ وَمَا يُكْتَبُ فِيهَا فِي الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ ، وَالْمُسَاحَاتِ
وَالْإِطْلَاقَاتِ وَمَا يَكْتُبُ فِيهِمَا ، وَالطَّرَاحِيَّاتِ وَتَحْوِيلِ السِّنِينَ ، وَالتَّوْفِيقِ بَيْنَ السِّنِينَ
الْقَمَرِيَّةِ وَالشَّمْسِيَّةِ ، وَمَا يُكْتَبُ فِي التَّذَاكُرِ الَّتِي يَرْجِعُ إِلَيْهَا .

ومعرفة الْإِقْطَاعَاتِ وَأَصْلِ وَضْعِهَا فِي الشَّرْعِ ، وَمَا يَكْتُبُ فِيهَا فِي الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ ،
وَأَوَّلِ مَنْ وَضَعَ دِيْوَانَ الْحَيْشِ فِي الْإِسْلَامِ .

ومعرفة الْإِيمَانِ وَمَا يَقَعُ بِهِ الْقَسَمُ ، وَالْإِيمَانِ الَّتِي أَقْسَمَ اللهُ تَعَالَى بِهَا ، وَمَا كَانَ
يُخْلِفُ بِهَا الْعَرَبُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَمَا يُقَسِّمُ بِهِ أَهْلُ كُلِّ مِلَّةٍ وَنَحْوُهُ .

ومعرفة عُقُودِ الْأَمَانَاتِ وَالصَّلَاحِ ، وَالْهُدُنِ الْوَاقِعَةِ بَيْنَ مُلُوكِ الْإِسْلَامِ وَغَيْرِهِمْ .

وذكر فيه فُنُونٌ كَثِيرَةٌ يَتَدَاوَلُهَا الْكُتَّابُ وَالْأُدْبَاءُ وَيَتَنَافَسُونَ فِي عَمَلِهَا ، لَا تَعْلَقُ
لَهَا بِدِيْوَانِ الْإِنْشَاءِ : كَعَمَلِ الْمَقَامَاتِ ، وَالرِّسَائِلِ الْمُلُوكِيَّةِ الْمُشْتَمِلَةِ عَلَى الْغَزْوِ

والصِّيد ، ورسائل المَدْح والذَّم ، ورسائل المُفَاخَرَاتِ بين الأشياء ، والرسائل المُشْتَمَلَة على الأسئلة والأجوبة ، والرسائل المُكْتَتَبَة بالحوادث والمآثرات وغيرها ، وكقِدمات البُنْدُق ، والصَّدَقَاتِ المُلُوكِيَّة وغيرها ، والعُمَرَاتِ الَّتِي تُكْتَبُ لِلحَاجِّ ، وَذِكْرُ نُسُخٍ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ . وَمَا يُكْتَبُ عَنِ الْعُلَمَاءِ وَأَهْلِ الْأَدَبِ : مِنْ الإِجَازَةِ بِالْفَتْوَى وَالتَّنْذِيرِ وَالْمَرْوِيَّاتِ ، وَمَا يُكْتَبُ عَلَى الْكُتُبِ الْمُصَنَّفَةِ وَالْقَصَائِدِ مِنَ التَّقْرِیْظَاتِ ، وَمَا يُكْتَبُ عَنِ الْقُضَاةِ : مِنَ التَّقَالِيدِ الْحُكْمِيَّةِ وَإِسْجَالَاتِ الْعَدَالَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ .

وَتَكَلَّمُ فِيهِ عَلَى الْبَرِيدِ وَأَوَّلِ مَنْ وَضَعَهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ ، وَبَيَانِ مَعَالِمِهِ وَمَرَائِكِهِ ، وَمَطَارَاتِ الْحَمَامِ الرَّسَائِلِ وَأَبْرَاجِهِ بِالْأُيُودِ الْمِصْرِيَّةِ وَالْبِلَادِ الشَّامِيَّةِ ، وَمَرَائِكِ التَّلَاجِ وَالْمُحْجَنِ الْمُعَدَّةِ لِقَبْلِهِ ، وَالْمَنَاوِيرِ وَالْمُحْرِقَاتِ .

وَذَكَرَ فِيهِ كَثِيرًا مِنَ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ الشَّرِيفَةِ وَالْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ الْكَرِيمَةِ ، وَالْأَمْثَالِ وَالْحِكَمِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَأَقْوَالِ الْكَثِيرِينَ مِنْ أُمَّةِ اللُّغَةِ وَالتَّفْسِيرِ وَالْحَدِيثِ وَالْفِقْهِ وَعُلُومِ الْعَرَبِيَّةِ .

وَأَتَى فِيهِ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ أَسْمَاءِ الْكُتُبِ وَالْفُنُونِ ، وَكَثِيرٍ مِنْ أَسْمَاءِ مُشَاهِرِ الْمُؤَلِّفِينَ وَالْعُلَمَاءِ وَالْأُدَبَاءِ وَالْكَتَّابِ وَالشُّعْرَاءِ .

وَأُورِدَ فِيهِ مِنْ أَصُولِ الصَّنْعَةِ فِي الْكِتَابَةِ مَا يُفْنِي قَارِئَهُ عَنْ تَصَفُّحِ كَثِيرٍ مِنَ الْمُؤَلَّفَاتِ الْأَدَبِيَّةِ وَغَيْرِهَا .

وَصَنَّمَهُ شَيْئًا كَثِيرًا يَفُوقُ الْحَصْرَ مِنَ الرِّسَالِ الْبَلِیْغَةِ لِمُشَاهِرِ الْكُتَّابِ وَأَهْلِ الْأَدَبِ فِي الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ وَالْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ .

ولم يترك باباً من أبوابه ولا فصلاً من فصوله دون أن يُحْيِيَهُ من غُررِ مُفَشَّاتِهِ
نَفْسِهِ بِالْمُعْجَبِ وَالْمُطْرِبِ .

ولم يدع صغيرة ولا كبيرة إلا ذكرها، ولم يُغادر شاردة ولا واردة إلا أحصاها .
فصار كتابه لذلك - كتاب تاريخ وسير، ولغة وأدب، وفقه وتفسير للقرآن
والحديث، وشرح للأمثال والحكم العربية، وبسط لنظام الحكومات عامة والحكومة
المصرية خاصة .

وعلى الجملة فهو كتابٌ مُمتِعٌ، ودائرةُ معارفٍ أدبيةٌ كبرى، يشهد لمؤلفه بالفطنة
والذكاء، وطوبى الباع في هذا الفنّ الجليل فنّ كتابة الإنسان، وقوة التمكن في اللغة
العربية وآدابها، وينطق بماله من كثرة الاطلاع على دقيقتها وجايلها .

وإنَّ حُسْنَ نِيَّةِ مُؤَلِّفِهِ، وَأَعْيَادَهُ عَلَى فَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى فِي النَّعْمِ بِهِ - سَاعِدَا عَلَى
حِفْظِهِ إِلَى هَذَا الزَّمَنِ مِنْ أَيْدِي الْعَوَادِي، وَأَنْتِشَارِهِ هَذَا الْإِتِّشَارَ الْعَظِيمِ .

فقد قال في خاتمة تأليفه لهذا الكتاب - تحدّثاً بِنِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ - بعد أن ذكر أن
المُصَنِّفَاتِ لِنَقَاوَتْ فِي الْحُطُوطِ إِقْبَالًا وَإِدْبَارًا: فَنِ مَرَّغُوبٍ فِيهِ، وَمَرَّغُوبٍ عَنْهُ،
وَمُتَوَسِّطٍ بَيْنَ ذَلِكَ، وَأَنَّهُ قُلٌّ أَنْ يَنْفُقَ تَأْلِيفٌ فِي حَيَاةِ مُؤَلِّفِهِ، أَوْ يَرُوجَ تَصْنِيفٌ عَلَى
الْقُرْبِ مِنْ زَمَانِ مُصَنِّفِهِ، وَبَعْدَ أَنْ اسْتَشْهَدَ عَلَى ذَلِكَ بِمَا رَوَاهُ الْمُسَعُودِيُّ فِي كِتَابِهِ
"التَّانِيهِ وَالْإِشْرَافُ" عَنِ الْجَاهِظِ . قَالَ :

لَكُنِّي أَحْمَدُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى رَوَاجِ سُوقِ تَأْلِيفِي وَفَقَاحِ سِلْعَتِهِ، وَالْمُسَارَعَةِ إِلَى
اسْتِخْجَانِهِ قَبْلَ انْقِضَاءِ تَأْلِيفِهِ، حَتَّى إِنْ قَلَمِي التَّأْلِيفِ وَالنَّسْخِ يَتَسَابَقَانِ فِي مِيدَانِ
الطَّرْسِ إِلَى أَكْتِبَاتِهِ، وَمُرْتَقِبِ نَجَازِهِ لِلْإِسْتِنْسَاجِ يُسَاهِمُهُمَا فِي أَرْتِقَابِهِ، فَضْلاً مِنْ
اللَّهِ وَنِعْمَةً : (ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) .

ترجمة مؤلفه

أما مؤلفه "أبو العباس أحمد القلقشندي" رحمه الله تعالى، فقد ترجمه السخاوي في الجزء الأول من كتابه: "الضوء اللامع"، في أعيان القرن التاسع فقال:

«هو أحمد بن علي بن أحمد بن عبد الله، الشهاب بن الجلال بن أبي اليمن القلقشندي، ثم القاهيري الشافعي».

ولد سنة ست وخمسين وسبعمائة، واشتغل بالفقه وفضله، وسمع على ابن الشبنة. وكان أحد الفضلاء، من برع في الفقه والأدب وغيرهما. وكتب في الإنشاء، وناب في الحكم، وشرح قطعاً من "جامع المختصرات" بل شرع في نظمها.

وعمل "صبح الأعشى" في قوانين الإنشاء في أربع مجلدات، جمع فروعها. وكان يستحضر أكثر ذلك مع "جامع المختصرات" و"الحاوي". وألف كتاباً في أنساب العرب. وكان فيه تواضع ومروءة وخير.

مات يوم السبت عاشر جمادى الآخرة سنة إحدى وعشرين وثمانمائة، وله خمس وستون سنة. ذكره المقرئ في "عقوده" والعيني وآخرون. وسمى المقرئ والدة عبد الله وهو وهم».



وترجمه صاحب "شذرات الذهب" في أخبار من ذهب فقال:

« شهاب الدين أحمد بن علي بن أحمد القلقشندي الشافعي ، تَزِيلُ القاهرة .
تَفَقَّهَ ومَهَرَ ، وتَعَانَى الأدبَ ، وَكَتَبَ فِي الإنشاءِ ، وَنَاقَبَ فِي الْحُكْمِ . وَكَانَ يَسْتَحْضِرُ
”الْحَاوِي“ ، وَكَتَبَ شَيْئًا عَلَى ”جَامِعِ الْمُخْتَصَرَاتِ“ . وَصَنَّفَ كِتَابًا حَافِلًا سَمَّاهُ
”صُبْحُ الْأَعْنَى فِي مَعْرِفَةِ الْإِنشَاءِ“ وَكَانَ مُسْتَحْضِرًا لِأَكْثَرِ ذَلِكَ ، وَصَنَّفَ غَيْرَ ذَلِكَ .
وَكَانَ مِفْضَالًا وَقُورًا فِي الدُّوَلَةِ إِلَى أَنْ تُوُفِّيَ لَيْلَةَ السَّبْتِ عَاشِرَ جُمَادَى الْآخِرَةِ ، عَنْ
تَحْسٍ وَسِتِّينَ سَنَةً ^(١) . »



وقد وَقَفْنَا عَلَى شَيْءٍ مِنْ تَرْجُمَتِهِ وَقَدْ تَصَحَّحْنَا لِكِتَابِهِ ”صَبْحُ الْأَعْنَى“ نُورِدُهُ
هِنَا ، إِتِمَامًا لِلْفَائِدَةِ ، فَقُولُ :

مِيْلَادُهُ وَنَسَبَتُهُ

وُلِدَ الْمُؤَلَّفُ فِي سَنَةِ سِتٍّ وَخَمْسِينَ وَسَبْعِينَ كَمَا ذَكَرَهُ السَّخَاوِيُّ فِي ”الضُّوءِ
الْلَامِعِ“ بِبَلَدَةٍ يُقَالُ لَهَا ”قَلْقَشْنَدَةُ“ مِنْ أَعْمَالِ مُدِيرِيَةِ الْقَلْبُوبِيَّةِ بِالْبُدْيَارِ
الْمِصْرِيَّةِ : مِنْ أَصْلِ عَرَبِيٍّ صَمِيمٍ ، مِنْ بَنِي بَدْرِ بْنِ فَرَازَةَ مِنْ قَبَيْسِ عَيْلَانَ .
وَكَانَ بَنُو فَرَازَةَ وَرَدُّوْا مِصْرَ مَعَ مَنْ وَرَدَهَا مِنَ الْعَرَبِ ، أَيَّامَ الْفَتْحِ الْإِسْلَامِيِّ وَبَعْدَهُ ،

(١) سَمَّاهُ صَاحِبَ ”كَشَفِ الظُّلُومِ“ مَرَّةً بِأَحَدِ بْنِ عَلِيٍّ ، وَمَرَّةً أُخْرَى بِأَحَدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، وَثَالِثَةً
بِأَحَدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ .

وَذَكَرَ فِي عَوَانِ ”نَهَايَةِ الْأَرْبِ“ لِلزُّوْلَفِ ، الْمَطْبُوعِ بِبَغْدَادَ أَنَّهُ : أَحَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَحَدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ
أَبْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ إِسْمَاعِيلَ الْقَلْقَشْنَدِيِّ ، الشَّهِيرِ بِأَبْنِ أَبِي عَدَّةٍ .

وَوُجِدَ مَكْتُوبًا عَلَى بَعْضِ أَجْزَاءِ ”صَبْحِ الْأَعْنَى“ الْخَطِيئَةُ الْمَحْفُوظَةُ بِدَارِ الْكِتَابِ أَنَّهُ أَحَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ
أَبْنِ أَحَدِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ إِسْمَاعِيلٍ .

وَنَزَلُوا بِأَقْلِيمِ الْقَلْبُوبِيَّةِ ، وَأَسْتَوَلَى بُنُو بَدْرٍ مِنْهُمْ عَلَى أَجَلٍ يَلَاذِهِ . وَكَانَتْ لَهُمُ الرَّأْسَةُ
وَالْعَلْبَةُ عَلَى حَبِيرَانِهِمْ مِنْ بَنِي عَمِّهِمْ بَنِي مَازِنَ بْنِ فَزَّارَةَ . وَكَانَ بِقَلْقَشَنْدَةِ فِرْقَتَانِ :
فِرْقَةٌ مِنْ بَنِي بَدْرٍ وَفِرْقَةٌ مِنْ بَنِي مَازِنَ ^(١) .

نشأته وتربيته

وَنَشَأَ نَسَاءً حَسَنَةً ، وَتَرَبَّى تَرْبِيَةً عِلْمِيَّةً صَحِيحَةً ، وَتَوَجَّهَ إِلَى تَفَرُّغِ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ
وَأَقَامَ بِهِ مَدَّةً مِنْ عُمْرِهِ ، وَطَلَبَ الْعُلُومَ الشَّرْعِيَّةَ عَلَى مَشْهُورَى الْعُلَمَاءِ فِي عَصْرِهِ ،
وَأَسْتَغْلَلَ بِفُتُونِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْأَدَبِ حَتَّى اجْتَمَعَ لَهُ مِقْدَارٌ وَافِرٌ مِنْهَا . وَأَطْلَعَ عَلَى كَثِيرٍ
مِنَ الْكُتُبِ وَالْأَسْفَارِ فِي مُخْتَلَفِ الْعُلُومِ وَالْفُنُونِ .

إجازته بالفتيا والتدريس

وَفِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَسَبْعِينَ وَسَبْعِينَ حِينَ كَانَ مُقِيمًا بِتَفَرُّغِ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ أَجَازَهُ الشَّيْخُ
سِرَاجُ الدِّينِ أَبُو حَفِصٍ عُمَرُ بْنُ أَبِي الْحُسَيْنِ الشَّهِيرُ بِابْنِ الْمَلْفَيْنِ - بِالْفُتْيَا وَالتَّدْرِيسِ -
عَلَى مَذْهَبِ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَلَمْ تَكُنْ سِنُهُ إِذْ ذَاكَ تَتَعَدَّى لِاحْدَى
وَعِشْرِينَ سَنَةً ، كَمَا أَجَازَهُ بَانَ يَرْوِي عَنْهُ كُلُّ مَالِهِ مِنَ التَّأْلِيفِ فِي الْفِقْهِ وَالْحَدِيثِ
وغيرهما ، وَأَنْ يَرْوِيَ كُلُّ مَا جَازَتْ لَهُ رِوَايَتُهُ بِشَرْطِهِ عِنْدَ أَهْلِهِ ، كَالْكُتُبِ الصَّحَاحِ
السَّنَةِ ، وَمُسْنَدِ الشَّافِعِيِّ وَمُسْنَدِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ .

وَكُتِبَتْ هَذِهِ الْإِجَازَةُ بِحَقِّ الْقَاضِي تَاجِ الدِّينِ بْنِ غَنُومٍ مُوقَّعَ الْحُكْمِ الْعَزِيزِ
بِمَدِينَةِ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ .

(١) أنظر "نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب" للزلف (ص ١٥٠) .

تَصَدُّرُهُ لِلإِفَادَةِ

وجلس بعد ذلك للإفادة، فانتفع الكثيرون من فقهه وورعه وأمانته .
وعرض عليه كثير من تلاميذه ما حفظوه من الكتب وغيرها في الفقه والأصول
وعلوم العربية، فاجازهم بما حفظوه منها .

التحاقه بديوان الإنشاء

وفي شهر سنة إحدى وتسعين وسبعمائة ألتحق بديوان الإنشاء بالأبواب
السلطانية بالديار المصرية، وأنشأ مقامة في تقريب القاضي بذر الدين، بن القاضي
علاء الدين، بن القاضي محيي الدين، بن فضل الله : رئيس ديوان الإنشاء وقتئذ،
سمها "الكواكب الدررية" في المنافع البدرية^(١) بناها على التعريف بكتابة الإنشاء
وعلو قدرها، وعظم خطرها، وأنها الحرفة التي لا يليق بطالِب العلم غيرها، والصناعة
التي لا يجوز له العدول عنها إلى ماسواها، وصممتها كثيراً من أصول الصنعة في الكتابة
وفروعها . إلا أنها لإيجازها، مع ما أشتملت عليه من كثير المعاني - أحتاجت إلى
شرح وإف يكشف إشاراتها، ويوضح عباراتها، فألف كتابه "صبح الأعشى"
وجعله كالشرح لها .

وفرغ من تأليفه في يوم الجمعة الثامن والعشرين من شهر شوال سنة أربع
عشرة وثمانمائة .

(١) ذكرت في الجزء الرابع عشر من صبح الأعشى (ص ١١٢) .

قيّمته في الكتابة والإنشاء

كانت كتابته وإنشاؤه كأنشاء أهل عصره وكتابتهم ، مبناها على التخيل والتزام المحسنات البديعية : من السجع والجناس والتورية وغيرها ، والغلو فيها ، على نحو ما كان من كتابة « القاضي الفاضل » و « ابن نباتة » والقاضي « شهاب الدين ابن فضل الله العمري » وأضرابهم . غير أنها كانت تبدؤ أخف روحاً وأعظم وضوحاً من كتابة أمثاله .

وإن من قرأ مقامته التي أنشأها عند ألتحائه بديوان الإنشاء ، عرّف ما كان عليه : من غزارة المادة ، وسلامة الذوق ، وقوة الدأيرة .

مؤلفاته

وله تأليف كثيرة ، منها :

كتاب "صبح الأعشى في كتابة الإنشاء" وهو هذا الكتاب .

وكتاب "ضوء الصبح المسفر وجنى الدّوح المنير" وهو مختصر كتاب "صبح الأعشى" . طبع الجزء الأول منه في مطبعة الواعظ بالقاهرة في سنة ١٣٢٤ هـ .

وكتاب "الغيوث الموامع ، في شرح جامع المختصرات ومختصرات الجوامع" في علم الفقه على مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه .

وَيَكْتُبُ "نَهَايَةُ الْأَرَبِّ، فِي مَعْرِفَةِ قَبَائِلِ الْعَرَبِ" فِي الْأَنْسَابِ، أَلْفَهُ لِلْفَرَّاجِ الْجَمَالِيِّ
يُوسُفَ الْأُمَوِيِّ، وَطُبِعَ فِي مَطْبَعَةِ الرِّيَاضِ بِمَدِينَةِ بَنْدَاد (دَارِ السَّلَام) .
وَيَكْتُبُ "فَلَايِدُ الْجَمَّانِ، فِي قَبَائِلِ الْعُرَبَانِ" فِي أَنْسَابِ الْعَرَبِ أَيْضًا ^(٢) .
وَلَهُ غَيْرُ ذَلِكَ رَسَائِلُ كَثِيرَةٌ تَزِيدُ عَلَى الْمِائَةِ أَوْدَعَهَا كِتَابُهُ "صَبِيحُ الْأَعَشَى" .



هَذَا : وَقَدْ أَسْنَدَ إِلَيْنَا تَصْحِيحُ كِتَابِهِ "صَبِيحُ الْأَعَشَى" الْمَطْبُوعُ عَلَى نَفَقَةِ
دَارِ الْكُتُبِ، بِالْقِسْمِ الْأَدَبِيِّ بِالْمَطْبَعَةِ الْأَمِيرِيَّةِ . فَقُمْنَا نَحْوَهُ بِمَا يَبِىْزُ بَارِئًا مُؤَلَّفٍ
جَلِيلٍ مِثْلِهِ، وَأَجْتَهِدْنَا فِي تَهْذِيهِ وَتَنْقِيحِهِ بِقَدْرِ الطَّاقَةِ .

وَأَسْتَعْنَا عَلَى مَا وَجَدْنَاهُ بِأَصْلِهِ مِنَ التَّحْرِيفِ الْكَثِيرِ وَالتَّصْحِيحِ الْغَرِيبِ - زِيَادَةً
عَلَى مَا فِيهِ مِنَ الطَّمَسِ وَالسَّقَمِ فِي مَوَاضِعَ مِنْ بَعْضِ أَجْزَائِهِ - بِمُرَاجَعَةِ كَثِيرٍ مِنَ الْمُؤَلَّفَاتِ
فِي الْفُنُونِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَنُسَخَ شَيْءٍ مِنْ رَسَائِلِ الْكُتُبِ وَدَوَاوِينِ الشُّعْرَاءِ وَأَهْلِ الْأَدَبِ،
بَاحِثِينَ فِيهَا عَنْ كُلِّ مَوْضُوعٍ تَكَلَّمَ عَنْهُ الْمُؤَلَّفُ أَوْ أَشَارَ إِلَيْهِ فِي كِتَابِهِ . وَمَتَى تَوَقَّفْنَا
فِي شَيْءٍ مِنْ مَسَائِلِهِ أَثْنَاءَ التَّصْحِيحِ : لَعَدَمَ وُضُوْهِهِ، أَوْ لِأَن يَدَ النَّاسِخِ مَسَخَتْهُ،
أَوْ لِغَيْرِ ذَلِكَ - رَجَعْنَا إِلَى تِلْكَ الْكُتُبِ وَالرَّسَائِلِ فَصَحَّحْنَاهُ مِنْهَا، مَعَ الْحَفَظَةِ التَّامَّةِ
عَلَى عِبَارَةِ الْأَصْلِ مَهْمَا بَلَّغَتْ مِنَ السَّقَمِ . وَمَا لَمْ تَقِفْ عَلَيْهِ نِيهَا، أَبْقَيْنَاهُ عَلَى حَالِهِ،

(١) كما ذكر ذلك المؤلف في خطبته، وذكر صاحب "كشف الظنون" أنه ألفه لأبي الجرد «نهر بن راشد»
أمير العربان في البلاد الشرقية والغربية .

(٢) نسب صاحب "كشف الظنون" لوالده المؤلف، وذكر أنه نبه على ذلك في كتابه "نَهَايَةُ الْأَرَبِّ" .
[وقد تصفحناه فلم نثر على ذلك] .

وَوَضَعْنَا بِحَاجَتِهِ عِلْمًا تَمُلُّ عَلَى التَّوَقُّفِ ، وَوَكَلْنَاهُ إِلَى فَهْمِ الْقَارِئِ الْكَرِيمِ وَبَعَثْنَاهُ ،
نَاسِبِينَ كُلِّ مُصْلِحٍ أَدْخَلْنَاهُ عَلَيْهِ إِلَى مَوْضِعِهِ مِنْ كُتُبِ الْمُرَاجَعَةِ .

وَقَدْ نَافَعْنَا أَكْثَرَ كَلِمَاتِهِ بِالشَّكْلِ ، مُعْتَمِدِينَ فِي ضَبْطِهَا عَلَى مَعَاجِمِ اللُّغَةِ الْمَشْهُورَةِ ،
وَبَذَلْنَا الْجُهْدَ فِي تَقْرِيبِهِ إِلَى فَهْمِ الْقَارِئِ ، بَوَضْعِ عِلَامَاتِ التَّرْقِيمِ بَيْنَ جُمْلِهِ وَأَجْزَائِهِ
عِبَارَاتِهِ .

وَمِيزْنَا مَا فِيهِ مِنَ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَةِ الْكَرِيمَةِ ، وَالْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ الشَّرِيفَةِ ، وَأَمْثَالِ
الْعَرَبِ وَحِكْمِهَا - بِعِلَامَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ تُمَيِّزُهَا عَنْ سِوَاهَا .

وَوَشَّيْنَا أَكْثَرَ صَفَحَاتِهِ بِمَحَاشِ شَرْحِنَا فِي بَعْضِهَا مَا يُوجَدُ فِي مَتْنِهِ مِنْ غَرِيبِ
اللُّغَةِ ، وَأَثْبَتْنَا فِيهَا أَسْمَاءَ كُلِّ الْكُتُبِ الَّتِي اعْتَمَدْنَا عَلَيْهَا عِنْدَ التَّصْصِيحِ .

وَمَا هُوَ ذَا نَفَسِهِ لِحَضْرَاتِ قُرَّائِهِ الْكَرَامِ - مِنْ أَكْبَارِ الْكُتَّابِ وَأَسَاطِينِ اللُّغَةِ
وَالْأَدَبِ - فِي تَوْهِهِ الْجَدِيدِ الَّذِي يَسُرُّ النَّاطِرَ وَيُشْرَحُ الْخَاطِرَ ، مُعْتَذِرِينَ إِلَى
حَضْرَاتِهِمْ فِيمَا يَقِفُونَ عَلَيْهِ مِنْ خَطَاٍ مُطْبَعِيٍّ وَقَعَ فِيهِ أَنْشَاءُ الطَّبْعِ وَلَمْ تَنْتَبَهُ لَهُ ،
وَالْكَامِلُ لِلَّهِ وَحْدَهُ .

وَقَفَّيْنَا اللَّهُ تَعَالَى إِلَى مَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ ، وَأَعَانَنَا عَلَى مَشَاقِّ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ ، وَوَهَّبَنَا
مِنْ لَدُنْهِ الصَّبْرَ وَحُسْنَ الثَّبَاتِ ، فَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

القاهرة في ٦ جمادى الأولى سنة ١٣٣٨ (٢٧ يناير سنة ١٩٢٠)

محمد عبد الرسول

إبراهيم

